تفسير
الكشاف

عن حقائق غوامض التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم: للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



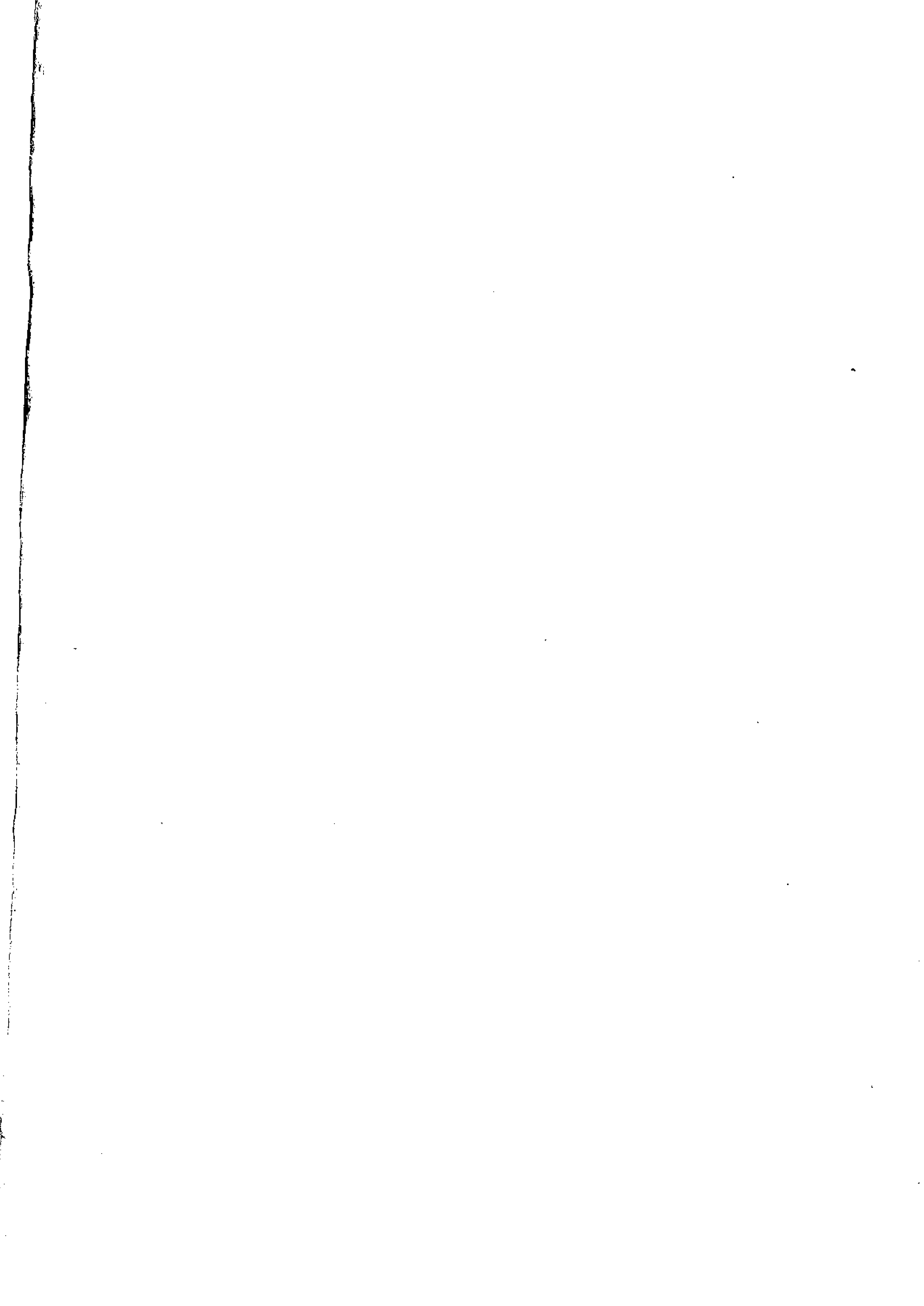
وهو تفسير القرآن الكريم: للإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشرى
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ.

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الانتصاف : للإمام احمد بن المنير الاسكندرى.
الثاني: الكافى الشاف في تخريج احاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلانى.
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقى على تفسير الكشاف.
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

الجزء الأول

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



فهرست

الجزء الأول

من تفسير الكشاف للزمخشري

الكشاف

عن
حقائق التنزيل وعيون الأقاويل
في
وجوه التأويل

تأليف

أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي

٤٦٧ - ٥٣٨ هـ

ومعه :

١ — حاشية السيد الشريف على بن محمد بن على السيد زين الدين أبي الحسن الحسيني الجرجاني

٢ — كتاب « الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال » للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري المالكي

وبآخره « تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات » للعالم المدقق محب الدين أفندي

الجزء الأول

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الاولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ

(سورة النحل)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ،

بسم الله الرحمن الرحيم

قال جارالله العلامة ، أحسن الله إكرامه في دار المقامة : (الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما) دل بلامى الجنس والملك على اختصاص الحمد به تعالى ، ثم وصفه بإنزال القرآن وتنزيله ، وما أردفهما به رعاية لبراعة الاستهلال ، وتنبيها على أنه نعمة جزيلة تستحق أن يحمد عليها ، وذكر للقرآن أوصافا كمالية تناسب إعجازه الذى سيصرح به ، ويشد من أعضاد كونه نعمة محمودا عليها ولما كانت هذه الصفات تدل على حدوثه كما هو مذهبه ، وكان معتنيا بإظهاره ومفتخرا به ، أشار إليه بجملة اعتراضية ، ونبه أن الحدوث إنما لزمه لتنزه ذاته سبحانه عن الشركة فى صفة القدم لا لنقصان فيه ، وهذه جمل من مقاصده سترد عليك تفاصيلها وبالله التوفيق .

(قوله أنزل) يروى أنه وقع فى أم النسخ خلق مكان أنزل ثم غيره المصنف ، فإن صح ذلك فالتغيير لفوائد : الأولى : أن الخلق إذا نسب إلى ماهو جنس القول فقد يراد به معنى الاختلاق ، يقال خلق هذا الكلام واختلقه : أى افتراه ، فلا يحسن استعماله فى هذا المقام وإن أريد به معنى آخر . الثانية : أن كون القرآن حادثا أمر شنيع عند الخصم ، فأراد أن يكتمه أولا ثم أن يظهره بعد سوق مقدمات مسلمة عنده ومستلزمة للحدوث فى نفس الأمر ، فإن ذلك أقوى فى استدراجه إلى التسليم من حيث لايشعر به . الثالثة : الاحتراز عن التكرار ، إذ قد حكم فيما بعد بحدوثه . الرابعة : أن الإنزال أدخل فى كون القرآن نعمة علينا وأقرب إلينا لتأخره عن الخلق . الخامسة : أن الحمد على إنزاله وارد فيه دون الحمد على خلقه . السادسة : أن « أنزل » أحسن التئاما مع نزل لما بينهما من الصنعة الاشتقاقية. السابعة : أن فى الجمع بين الإنزال والتنزيل إشارة إلى كيفية النزول على ماروى من أن القرآن أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأمر السفرة الكرام بانتساخه ، ثم نزل إلى الأرض نجوما فى ثلاث وعشرين سنة ، وذلك

. . . .

أن الإنزال وإن كان مطلقا لكنه إذا قوبل بالتنزيل الدال هاهنا على التدريج فيما بين أجزاء القرآن ، إما لدلالته على التكثير ، وإما لما قيد به من التنجيم تبادر منه الإنزال دفعة .

فإن قلت : الموصوف بالحركة حقيقة هو المتحيز بالذات من الجواهر الأفراد وما يتركب منها دون الأعراض ، فإنه يمتنع فيها ذلك سواء كانت أجزاؤها مجتمعة كاللون أو سيالة كالصوت الذى هو جنس الكلام ، فكيف يتصور إنزال القرآن وتنزيله مع أنهما تحريك من علوّ إلى أسفل .

قلت : ذلك مبنى على متعارف أهل اللغة ، حيث يصفون الكلام بما يوصف به مبلغه فيقولون : نزل إلينا من القصر حكم الأمير ، وكلامه على سبيل الإسناد المجازى ، وصاحب الكشف جعل وصفه بالتنزيل من هذا القبيل ، وحمل الإنزال على إظهاره فى اللوح المحفوظ ، زاعما أن للقرآن حركة معنوية وهى الظهور بعد الكمون لازمانا بل ذاتا ، وأن تلك الحركة من الأعلى رتبة وشرفا ، لأن علوّ مرتبة واجب الوجود تعالى والقلم الأعلى على اللوح لايخفى ؛ وتفسير كلامه على مانقل عنه : أن القرآن كان كامنا فى العلم الإلهى ثم أظهره الله تعالى بواسطة القلم الذى هو العقل الأوّل فى اللوح المحفوظ الذى هو نفس الكل ، وهذا الظهور ليس بزمانى لأن الزمان مقدار حركة الفلك الأعظم وهو متأخر عما ذكر بمراتب . ويرد عليه أنه مبنى على قواعد الفلسفة ، وأن كونه فى علم الله لابد أن يكون أزليا ، فإذا لم يتأخر الظهور فى اللوح عن الكمون زمانا بل ذاتا كان أزليا ، إذ لو كان حادثا لكان متأخرا زمانا اتفاقا ، فيلزم قدم اللوح والقلم وذلك باطل قطعا . والقرآن فى اللغة مصدر بمعنى الجمع ، يقال قرأت الشىء قرآنا : أى جمعته وبمعنى القراءة يقال : قرأت الكتاب قراءة وقرآنا ، ثم نقل إلى هذا المجموع المقروء المنزّل على الرسول صلى الله عليه وآله ، المنقول عنه تواترا فيما بين الدفتين وهو المراد ههنا . وقد يطلق على القدر المشترك بينه وبين بعض أجزائه الذى له نوع اختصاص به . وما يقال من أن إثبات القرآن لما كان بالشرع وقد دلّ الشرع على اتصافه بصفات توجب حدوثه ، وكان مقصود المصنف تفسير ذلك الحادث ، صدر كتابه ببعض تلك الصفات مراعاة لبراعة الاستهلال ودلالة على ماهو أشهر مقاصد المعتزلة فى علم الكلام ، أعنى مسألة حدوث القرآن فليس بشىء . أما أولا فلأن القرآن عند المصنف هو هذه العبارات المنظومة ، وهى معجزة اتفاقا ، ومن شرط المعجزة أن تكون صادرة من الله تعالى ، لأنها تصديق فعلىّ منه يجرى مجرى التصديق القولى كما بين فى موضعه ، فهذه المعجزة مالم تعلم أنها من الله تعالى تصديقا لمدعى الرسالة لم تثبت النبوّة التى يتفرّع عليها الشرع فكيف يجوز إثباتها به . وتفصيله أن وجود العبارات معلوم بحسب السمع وإعجازها ، إما بالذوق السليقىّ أو المكتسب ، وإما بالاستدلال كما ستعرفه ؛ وإذا علم إعجازها علم أنها ليست بكلام البشر ، وأنها كلام خالق القوى والقدر كما نصّ عليه العلامة فيما بعد ، فتكون هى معجزة من عند الله دالة على صدق مدعى النبوّة ، فالعلم بثبوت الشرع يتوقف على العلم بثبوتها وإعجازها وكونها من الله ، فلا يصح إثبات شىء من ذلك بالشرع . لايقال نحن نثبت الشرع بمعجزة أخرى ثم نثبت به القرآن أو نثبته ببعض القرآن ثم نثبت به البعض الآخر . لأنا نقول : الأوّل باطل محض ، لأنه بناء للشىء على ماهو دونه ، فإن القرآن أبهر المعجزات وأظهر الدلائل . والثانى تحكم بحت ، والتشبث بأمثال ذلك كتمسك الغريق بما لايجديه نفعا ، إذ لايشتبه على أحد أن المعجزة لأن نثبت بها الشرع لا لأن تثبت بالشرع ، نعم إثبات القرآن بمعنى الكلام

ونزّله بحسب المصالح منجما ، وجعله بالتحميد مفتتحا وبالاستعاذة مختتما ،

النفسي عند القائل به إنما هو بالشرع ، وأما ثانيا فلأن اتصاف القرآن بما ذكر من التأليف والتنظيم والتنجيم مثلا أمر ظاهر مكشوف ليس مما يستفاد من دلالة الشرع عليه .

واعلم أن للمعتزلة على حدوث القرآن دليلا عقليا هو تركبه من أجزاء يمتنع اجتماعها فى الوجود كما سيأتيك تقريره ، ودليلا سمعيا كقوله تعالى ـ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ـ فالأول استدلال على حدوثه بما علم اتصافه به عقلا ، والثانى استدلال بما ورد فى الشرع ودلّ على حدوثه لا على اتصافه بما يوجب حدوثه كما توهمه هذا القائل

فإن قيل : إذا كان القرآن عندهم حادثا لم يكن قائما بالله لتعاليه عن قيام الحوادث بذاته فلا يكون كلاما له . قلنا : إنهم يجوّزون قيام كلام الله بغيره ويقولون هو متكلم ، بمعنى أنه موجد للكلام لا أنه محل له . ويرد عليه أن المتكلم على قاعدة اللغة فى المشتقات كالمتحرّك والأسود من قام به الكلام لا من أوجده ، ومن ههنا ينتظم برهان على إثبات الكلام النفسى . والكلام فى اللغة اسم جنس يقع على القليل والكثير . وعرّفه بعض الأصوليين بأنه المنتظم من الحروف المسموعة المتميزة ، وقد يزاد قيدان آخران فيقال : المتواضع عليها إذا صدرت عن واجد قادر ، ويطلق فى عرف النحاة على ما يفيد فائدة تامة ، والمراد ههنا المعنى الأوّل الذى باعتباره يوصف صاحبه بأنه متكلم ويقابل الأعجم والأخرس و (كلاما مؤلفا) إما حال موطئة كما صرح به الزمخشرى فى قوله ـ إنا أنزلناه قرآنا عربيا ـ وإما حال مؤكدة تقرّر ما تضمنه القرآن خصوصا على زعمه ، ولا بعد فى مجىء المؤكدة بعد الجملة الفعلية كقوله تعالى ـ قائما بالقسط ـ على ما صرّح به أيضا ، وأما النصب على البدلية أو على المدح ففيه فوات الملاءمة مع ما يناظره فى القرينة الأخرى ، أعنى منجما فإنه حال قطعا . والتأليف جمع أشياء متناسبة كما يرشد إليه اشتقاقه من الألفة ، والمراد به مطلق التركيب من المفردات والجمل . والتنظيم فوق التأليف لأنه من نظم اللؤلؤ ونحوه ، فيراعى فيها مع المناسبة الجنسية وضع أنيق وترتيب بهيج ، والمراد جودة التركيب وحسنه برعاية مقتضى الحال والتطبيق على الأغراض ، فهو من باب عالم نحرير ، والأشبه أن يراد بالتأليف فيما بين المفردات لتحصيل جملة مفيدة والتنظيم فيما بين الجمل ، إذ قد يحتاج ههنا إلى مزيد تأنق فيكون من قبيل التأسيس بخلاف الأوّل ، ويتضمن أيضا مشابهة ظاهرة بين آحاد الجمل المتناسبة التى يستقل كل منها بفائدة معتد بها وبين فرائد اللآلئ المتناسقة (قوله بحسب المصالح) أى بقدرها وعددها ، يقال ليكن عملك بحسب ذلك : أى على قدره وعدده ، والسين فيه مفتوحة وربما سكنت فى ضرورة الشعر ، والظرف أعنى « بحسب » متعلق بقوله منجما أى موزّعا مفرّقا بعدد المصالح ، والنجم فى الأصل الكوكب ، ثم نقل إلى الوقت المضروب المعين إذ يتعرفون الأوقات بالنجوم ، فقيل نجوم الكتابة للأوقات المعينة لأداء حصصها ، ثم استعمل فى تلك الحصص المؤداة فى تلك الأوقات ، ثم اشتق الفعل فقيل نجم الكتابة أو الدية : أى وزعها حصصا وأداها دفعات (قوله وجعله بالتحميد) أى جعله مفتتحا بالسورة المشتملة على التحميد ، ولذلك سميت السورة فاتحة الكتاب ، وجعله (مختتما) بالسورة المشتملة على الاستعاذة فكانت خاتمة الكتاب قياسا على فاتحته ، ولم يرد أن لفظ التحميد أول جزء منه ليدل على أن التسمية ليست جزءا من سورة الحمد . ولا أن لفظ الاستعاذة آخر جزء منه ليحتاج فى توجيهه إلى أن ما بعد الاستعاذة إلى آخر السورة متعلق بها فهو من تتمتها ، وفى نسبة الجعل إلى الله سبحانه إشارة إلى أن ترتيب القرآن فى المصحف على هذا الوجه

وأوحاه على قسمين : متشابها ومحكما ، وفصله سورا ، وسوره آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات ،

المطابق لما فى اللوح المحفوظ كان بأمر من الله وتعليم الرسول (قوله وأوحاه) تقول : وحيت إليه كلاما وأوحيت : إذا كلمته بكلام تخفيه عن غيره (قوله على قسمين) ظرف مستقرّ وقع حالا عن المفعول ، و(قوله متشابها ومحكما) معا بدل عن الحال : أى أوحاه متشابها ومحكما ، وجوّز النصب على التمييز من قسمين : لنوع إبهام فيه ، أو على المدح . واستعماله منكرا أكثر ، أو على أنه حال من المستتر فى على قسمين ، وفيه بعد لأن تقييد كونه على قسمين بأنه فى حال كونه قسمين مخصوصين مما لا يرتضيه ذوق سليم ، أو على أنه حال أخرى مرادفة للأولى . ولا يخفى أن الإبدال أوقع فى المعنى من جعل الأولى مقصودة بذاتها ، أو على أنه بدل من محل المجرور ، فإنه منصوب المحل بإيصال الجار معنى الفعل إليه ، كما عطف على محله فى قولك : مررت بزيد وعمرا : أى جاوزت زيدا وعمرا ، وفيه ضعف ظاهر ، إذ ليس لتقدير الناصب ههنا ظهور كما فى المثال المذكور . ومنهم من قدر الكلام فى الوجه الأخير هكذا أوحاه على متشابه ومحكم . واعترض عليه بأن هذا التقدير إنما هو على الإبدال من لفظ المجرور لو كان صحيحا لا على الإبدال من محله . فأجاب بأن المنصوب المحل هو المجرور وحده ، فالتابع للمحل بمنزلة الواقع بعد حرف الجر ، أو لا ترى أن معنى قوله * يذهبن فى نجد وغورا غائرا * فى غور ، وهو مردود بأن التابع المنصوب لفظا لما هو منصوب محلا يحتاج إلى تقدير عامل ينصب المتبوع أوّلا ثم ينصب التابع إما بانسحاب أو بتقدير مثله ، فالتابع للمنصوب بمنزلة متبوعه من حيث هو منصوب لا من حيث هو مجرور ، فلا مجال لاعتبار الجار فى التابع المذكور من حيث هو كذلك . وأما أن قوله غورا معناه فى غور فلأنه ظرف لابد فيه بحسب المعنى من تقدير فى ، سواء كان معطوفا على محل المجرور كما فى البيت ، أو على منصوب لفظا كما لو قيل : يذهبن نجدا وغورا غائرا . وقد فسر فى آل عمران المحكم بما أحكمت عبارته بأن حفظت عن الاحتمال والاشتباه ، والمتشابه بما تكون عبارته مشتبهة محتملة ؛ فقوله والاشتباه عطف تفسيرى كما تشعر به عبارته فى تفسير المتشابه ، فالمحكم عنده ما ليس فيه اشتباه والتباس : أى هو المتضح المعنى ، والمتشابه خلافه فيندرج فى المحكم النص والظاهر ، وفى المتشابه المجمل والمؤول كما هو المصطلح عليه فى أصول الشافعية ، ولتقابلهما يشملان جميع أقسام النظم المذكور فى أصول الحنفية (وفصله سورا وسوره آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات) سورا إما حال أو مفعول ثان على التضمين : أى جعله سورا أو تمييزا : أى فصل سوره ، وسيرد عليك فى الكتاب معنى السورة فى تفسير قوله ـ فأتوا بسورة من مثله ـ وهناك تذكر ما قيل فى معنى الآية والضمير فى بينهن للسور والآيات معا . وأراد بالفصول أواخر الآى لأنها تسمى فواصل ، وبالغايات أواخر السور ، والمعنى أوقع التمييز بين السور بعضها مع بعض بالغايات ، وبين الآيات بعضها مع بعض بالفصول . وقد يقال الضمير للآيات وحدها وأراد بالفصول الوقوف وبالغايات فواصل الآى .

فإن قلت : مساق الكلام يقتضى أن يكون لما وصف به الله تعالى كالإنزال والتنزيل ولما وصف به القرآن من التأليف والتنظيم مدخل فى اقتضاء الحمد فما وجهه ؟

قلت : لما كان القرآن مرشدا للعباد إلى مصالح المعاش والمعاد كان إنزاله عليهم نعمة جزيلة وكونه مؤلفا منظما من مفردات وجمل على أحسن وجوه البلاغة وسيلة إلى أن تدرك منه مقاصد دينية ودنيوية على أبلغ وجه وأكمله فيوجب زيادة فى تلك النعمة ، وتنزيله منجما على حسب الحوادث فيه تسهيل ضبط الأحكام والوقوف على دقائق نظم الآيات . وفى الافتتاح بالتحميد تنبيه للتالى على أن يحمد الله على نعمة التوفيق استجلابا للمزيد واستدامة للعتيد ، وفى الاختتام

وما هي إلا صفات مبتدإ مبتدع ، وسمات منشأ مخترع فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم .

بالاستعاذة حثّ لمن ختم القرآن على أن يستعيذ بربه من وسوسة الشيطان ونفخه ، وإشارة لطيفة إلى أن العود إلى بدئه أحمد . وأما إيجاده محكما متشابها فني المحكم سهولة الاطلاع على المقصود مع طمأنينة قلب وثلج صدر ، وفي المتشابه فوائد أشار إليها العلامة يعني المصنف : منها مافي تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات . وأما تفصيله سورا وسوره آيات فسيأتي في الكتاب أن فيه تنشيط القارئ واغتباط الحافظ وتلاحق الأشكال والنظائر إلى غير ذلك (قوله وماهي إلا صفات مبتدإ مبتدع وسمات منشأ مخترع) أشار به إلى أن هذه الصفات المذكورة للقرآن من كونه مؤلفا منظما ، وكونه منزلا منجما ، وصيرورته مفتتحا ومختتما ، وانقسامه إلى متشابه ومحكم ، وكونه مميزا مفصلا تدل على حدوثه لاستلزامه تركيبه من أجزاء يمتنع اجتماعها في الوجود ، فالمتأخر عند وجود المتقدم معدوم ، والمتقدم عند وجود المتأخر منتف ، وكل واحد منهما حادث ، لأن العدم ينافي القدم سابقا ولاحقا : وأيضا المتأخر مسبوق بعدمه المقارن لوجود المتقدم فهو حادث قطعا ، والمتقدم لايتقدمه إلا بزمان قليل ، فيكون حادثا أيضا ، وكذا المركب منهما . لايقال الاستدلال بهذا الطريق يكفيه تركبه من الحروف والكلمات الممتنعة الاجتماع كما هو المشهور في الكتب الكلامية ، فأيّ فائدة لسائر الأوصاف . لأنا نقول : قد سبق أن هذه الصفات كلها مسرودة ، لكونها أوصافا كمالية للقرآن ، مناسبة للإعجاز مقتضية للحمد عليه ؛ فليس إثبات حدوثه مقصودا بالذات ، ولذلك جعله جملة معترضة فلا استدراك ، على أن الاستظهار في إثباته مطلوب عنده ؛ فكأنه قال : لايجتمع من القرآن مفرد مع مفرد ، ولا جملة مع جملة ، ولا مانزل في حادثة مع مانزل في أخرى ، ولا فاتحة مع خاتمة ، ولا متشابه مع محكم ، ولا سورة مع سورة ، ولا آية مع آية ، وفي ذلك مع رعاية تلك المقاصد مبالغة في ذكر الصفات المستلزمة للتحرى ، كما بالغ في اقتضائها الحدوث بقوله « وما هي » الخ . وقد وجه الكلام بأن دلالة الإنزال على الحدوث من حيث إن الحركة المكانية مختصة بالأجسام وما يحل فيها وهي حادثة اتفاقا ؛ وأما دلالة سائر الأوصاف من حيث إنها مستلزمة للتركيب المستلزم للإمكان الذي يلزمه الحدوث بناء على امتناع تعدد القديم ، وردّ عليه بأن الخصم لايساعده على أن كل ممكن حادث ، ويجوّز تعدد القدماء . ثم إن الاستدلال بهذه الصفات إنما هو على حدوث العبارات المنظومة ردا على الحنابلة ومن يحذو حذوهم حيث زعموا أنها قديمة قائمة بذاته ، لا على القائلين بالكلام النفسي لاعترافهم بحدوث هذه العبارات ويسمونها كلاما لفظيا لكنهم يدّعون أن هناك كلاما نفسيا قديما قائما به تعالى ، ولا خفاء أن الصفات التي استدل بها على الحدوث مخصوصة بالقرآن اللفظي ، ولا دلالة لها على انتفاء القرآن بمعنى الكلام النفسي . ومن حكم بأن قوله « وما هي إلا صفات » من قصر الصفة على الموصوف ، فقد نظر إلى حاصل المعنى كأنه قال : محصول كلامه أن هذه الصفات مختصة بالحادث لاتوجد في غيره ، وكل مايوصف بها كان حادثا ؛ فالرد عليه بأنه من قصر الموصوف على الصفة دون العكس قصور على ظاهر مفهوم العبارة « المبتدأ » ماله بدء زمان : أي أوّل زمان وجود و « المبتدع » ما أخرج عن العدم بديعا أي ممتازا بنوع حكمة فيه . و « المنشأ » المحدث من النشء وهو الظهور والارتفاع « و « المخترع » ماروعى تأنق وتعمل في إخراجه من العدم مأخوذ من الخرع بمعنى الشق ، وإذا استعمل بالنسبة إليه تعالى مايدل على تكلف وطلب يراد به مايلزمه من كمال الصنع وجودة المصنوع لأنه تعالى منزّه عن التروّى والاعمال (قوله فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم) هذه

أنشأه كتابا ساطعا تبيانه ، قاطعا برهانه ، وحيا ناطقا ببينات وحجج ، قرآنا عربيا غير ذى عوج ، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقا لما بين يديه ، من الكتب السماوية ، معجزا

الفاء فصيحة من باب : فقد جئنا من خراسانا : أى إذا كان القرآن مع علوّ شأنه ورفعة مكانه وكونه أقرب الأشياء إليه تعالى محدثا ، فليتعجب المتعجبون من تفرّده تعالى بصفة القدم ووسم جميع ماعداه بنقيصة سبق العدم ، أو إذا كان كذلك فأنزهه عن كل وصمة وأبرئه عن كل نقيصة ، وفيه رمز كما مر إلى أن الحدوث إنما لزم القرآن لاقتضاء ذاته تعالى التنزّه عن الشركة فى صفة القدم لا لنقصانه فى نفسه ، بل هو كامل فى بابه كما نبه عليه حيث أردف المبتدأ بالمبتدع ، والمنشأ بالمخترع . و « الاستئثار » التفرّد والاستبداد . و « الأولية » السبق على ماسواه . و « القدم » على المسبوقية بالعدم ، وهما متلازمان وجودا لا مفهوما ، فإن ما كان سابقا على جميع ماعداه كان قديما إذ لو كان حادثا لم يكن سابقا مطلقا لوجود القديم ، وما كان قديما كان سابقا على جميع ماسواه لامتناع تعدد القدماء المتغايرة . ولما كان القدم هو المقصود جعل الأولية توطئة له ترقيا فى الكلام . و « الشىء » فى اللغة كما صرح به فى سورة البقرة والأنعام يقع على المحال والمستقيم والجرم والعرض ، فيختص هاهنا بالموجود بقرينة الحدوث عن العدم كما خص بالمستقيم فى قوله تعالى ـ والله على كل شىء قدير ـ بقرينة القدرة ، وأما الشىء بالمعنى المذكور فى علم الكلام ، فمما لايلتفت إليه فى أمثال هذا المقام وفى دعوى استئثار الذات بالقدم واتسام كل موجود سواه بالحدوث زيادة مبالغة فى حدوث القرآن ، وردّ على مثبتى صفات زائدة على ذاته تعالى قديمة . والمراد بالسبق والقدم والحدوث ماهو بحسب الزمان ، لأنه المتبادر عند الإطلاق ؛ فقوله « بالحدوث عن العدم » تنصيص على المراد بعد ظهوره ورعاية للسجع (قوله أنشأه كتابا) هو مع مافى حيزه بدل من أنزل ، وما عطف عليه رجع به إلى ما كان فيه من بيان اتصاف القرآن بصفات الكمال بعد ماوقع فى البين من إثبات الحدوث وما تبعه من تنزيه الله تعالى ، وقصد فى هذا البدل أن اتصافه بتلك الأوصاف الجليلة من التأليف والتنظيم والتنجيم والافتتاح والاختتام والتفصيل والتمييز إنما كان ليكون نظمه فى إفادة معناه كاملا بسطوع تبيانه ، ومعناه وافيا بما قصد به من الغرض بقطعية برهانه ، واشتماله على بينات المنقول وحجج المعقول ، وتباعده عن شوائب العوج ، وكونه مفتاحا لمنافع الدارين ، ومصداقا لسائر الكتب المنزلة قبله ، بل ليكون نظمه البليغ فى إفادة ذلك المعنى الوفىّ بالغا حد الإعجاز ، ويقترن بذلك وعد كونه تبيانا لكل شىء بالإيجاز ، وإنما قال أنشأه : أى أحدثه ابتهاجا بما أثبته من معتقده ، وإن كان المقصود الأصلى هو القيود المذكورة لا كونه محدثا ، وهذه المنصوبات : أعنى كتابا ووحيا وقرآنا ومفتاحا ومصداقا ، أحوال مترادفة أو مفاعيل ثانية بأن يضمن أنشأ معنى جعل وصير ، والمراد إنشاؤه على هذا الوجه لا نقله من وجه آخر إليه ، وفى ترك العطف إشارة إلى أن كل واحدة منها صفة كمال على حدة (قوله معجزا) إما أن ينخرط معها فى سلكها ، وإما أن يكون بدلا منها بأسرها ، كأنه قال أنشأه معجزا . يقال سطع الصبح يسطع سطوعا : إذا ارتفع ، شبه تبيان القرآن بتباشير الصبح المرتفعة فى الوضوح والانجلاء ، وأثبت له السطوع تخييلا ، وعبر عن الدلائل النقلية بالبينات لظهورها ، وعن العقلية بالحجج ، إذ بها الغلبة على المخالف مطلقا ، وقدم الأولى لأنها أكثر فى القرآن وللترقى ورعاية السجع . وقيل مايثبت به الدعوى يسمى بينة من حيث إفادته للبيان ، وحجة من حيث يغلب به على الخصم ، فالعاطف بينهما حينئذ قد توسط بين صفات ذات واحدة ، والقرآن مفتاح ينفتح به باب الشريعة المشتملة على كل خير وسعادة فى الآخرة والأولى ، ومصداق

باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائر من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان ، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى

الشيء مايصدقه ويبين صدقه كأنه آلة لصدقه ، والقرآن بإعجازه مستغن فى صدقه عن شهادة غيره ، وبتصديقه لما تقدمه من الكتب السماوية شاهد صادق لها ومصداقها (بين يديه) حقيقة فى المكان ثم اشتهر للزمان المتقدم مستعارا (قوله دون كل معجز) ظرف مستقر وقع حالا من المستكن فى باقيان : أى متجاوزا فى البقاء سائر المعجزات ، وكذا قوله من بين مستقر وقع حالا من المستتر فى دائرا : أى منفردا فى الدوران من بين سائر الكتب الإلهية ، إذلم يعهد جريان باقى الكتب على ألسنة أرباب اللغات المتخالفة فى الدهور المتطاولة (قوله وجه الزمان) استعارة بالكناية وتخييل ، شبه الزمان لظهور بعض الأشياء الموجودة فيه دون بعض بشيء له ظاهر يبدو ماعليه وباطن يستتر ما فيه ، فأثبت له الوجه من قولهم وجه الأرض لظاهرها فإنه شائع الاستعمال فيه ، وجعل القرآن موضوعا عليه مبالغة فى ظهوره . وقد تخيل بعضهم أن الوجه إما تخييل وإما مستعار للظاهر المكشوف من الزمان ، وذهب عليه أن الزمان لاينقسم إلى ظاهر مكشوف وإلى باطن مستور ، فإذا جعل الوجه بمعنى الظاهر كان تخييلا لا قسما له (قوله أفحم به) إما صفة ثالثة لمعجزا عدل فيها إلى الجملة الفعلية لملاحظة الحدوث وجاز وصفه لكونه بمنزلة الاسم كالممكن ونظائره ، وإما استئناف بيان لإعجازه على سبيل الإجمال كأنه قيل : لم قلت إنه معجز وبم عرفت ذلك ؟ فأجاب بأنه أفحم : أى أسكت ، ثم ترقى فقال أبكم ، وأخذه من بكم قياسا إذلم يشتهر فعل بنى منه سوى مانقله فى الأساس من قوله : تكلم فلان فتبكم عليه : إذا أرتج عليه ، وقد يجعل استعماله إياه بمنزلة روايته له فإنه ثقة فى اللغة (المعارضة) أن يأتى إلى صاحبه بمثل ما أتى به و (العرب العرباء) هم الخلص منهم كالعرب العاربة ، أخذ من لفظه فأكد به كقولك : ظل ظليل ، وليل أليل . وفائدة لفظة به بعد أفحم وأبكم الإشعار بأن إعجاز القرآن كما هو المختار المشار إليه بسياق كلامه إنما هو بكلام بلاغته ، لا بالصرفة كما يتوهم من إسناد الإفحام والإبكام إليه تعالى لولا تقييدهما بالظرف . والتحدى طلب المعارضة وأصله فى الحاديين . يقال خطيب مصقع : أى بليغ مجهر بخطبته ، إما من صقع الديك إذا صاح ، وإما من الصقع بمعنى الجانب ، لأنه يأخذ فى كل جانب من الكلام ، وإما من صقعه إذا ضرب صوقعته : أى وسط رأسه كما يأتى فى قراءة من قرأ ـ من الصواقع حذر الموت ـ (فلم يتصد) يتعلق بأفحم ولم ينهض بأبكم ، وتلخيص معناه أنه طولب بمعارضته فصحاء العرب فأفحمهم ، فلم يتعرض للإتيان بما يساوى القرآن أو يقاربه واحد منهم ، وتحدى به بلغاؤهم فأبكمهم به ، فلم يقم بمقدار أقصر سورة ناهض منهم . ففي الكلام ترق حيث نسب الإفحام إلى فصحائهم وأظهر عجزهم عن مجموعه ، ثم نسب الإبكام إلى بلغائهم وبين قصورهم عن أقصر سورة (على أنهم) حال من البلغاء لأنه فاعل فى المعنى : أى لم ينهض بلغاؤهم على أنهم كانوا : فالضمير لهم أو من البلغاء والفصحاء معا فالضمير لهما جميعا ، فالعامل فى الحال على الوجهين معنى النفى : أى تركوا التصدى والنهوض حال كونهم كذا ، لا المنفى لفساد المعنى ، وجدوى هذه الحال إزالة ماعسى أن يتوهم من أنهم ربما كانوا قليلين يمكن أن يغلب عليهم واحد من جنسهم فلا يثبت الإعجاز لعجزهم وكلمة على فى « على أنهم » تدل على رسوخهم فى صفة الكثرة واستقرارهم واستعلائهم عليها ؛ فما قيل من أنها بمعنى

البطحاء ، وأوفر عددا من رمال الدهناء ، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط فى المضادة والمضارة وإلقائهم الشراشر على المعازة والمعارة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط ، وركوبهم فى كل مايرومونه الشطط ، إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر ، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر ، وقد جرّد لهم الحجة أوّلا والسيف

مع فهوحاصل المعنى ، وسيأتيك فى نظيرتها زيادة تحقيق لها ، و(البطحاء) مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، و (الدهناء) بالمد وقد تقصر أرض ببلاد تميم ذات رمال كثيرة ، و(لم ينبض) أى لم يتحرك عطف على لم يتصد مع ماعطف عليه والضمير فى (منهم) للفصحاء والبلغاء مضافين إلى العرب العرباء كأنه قيل : ولم ينبض من فصحائهم وبلغائهم ؛ فيظهر رجوع الضمائر فى قوله « مع اشتهارهم » وما بعده إلى العرب العرباء مطلقا على ما ينبغى من غير تفكيك بينها فى النظم ، و (العصبية) الحماماة وإضافة العرق لأدنى ملابسة : أى العرق الذى يتحرك عندها ، وجاز أن يكون عرق العصبية استعارة مكنية وتخييلا ولم ينبض ترشيحا (مع اشتهارهم) حال من الضمير المجرور فى منهم ، وفائدتها دفع ما ربما يتخيل فيهم من المساهلة فى تلك المعارضة والمحاماة (المضادة) المعاداة (والمضارة) الضرار ، و(الشراشر) الأثقال واحده شرشرة ، يقال ألقى عليه شراشره : أى ثقله وجملته حرصا ومحبة (المعازة) بالزاى المعجمة المغالبة ، وبالراء المهملة المضارة ، من قولهم فلان يعرّ قومه : أى يدخل عليهم مكروها ، أراد أنهم كانوا أعلاما فى المغالبة والعصبية ، يتحركون فى المحاماة حرصا بالكلية ، ثم لم يتحرك فى معارضة القرآن أضعف عضو منهم لتناهى عجزهم فى هذه القضية ، وإنما تنجلى هذه النكتة على تقدير الإضافة لأدنى ملابسة لا على التخييل ، لأن العرق حينئذ للعصبية لا لهم (دون المناضلة) أى قدام المراماة والمدافعة وفى أدنى مكان منها ، و (الحسب) مايحسبه الإنسان : أى يعدّه من مفاخر نفسه أو آبائه ، و(الخطط)عظائم الأمور وشدائدها جمع خطة بالضم ، و(الشطط) مجاوزة الحد ، و (المفخرة) بفتح الخاء وضمها وكسرها كل خصلة يفتخر بها ، و (المأثرة) بالضم والفتح المكرمة لأنها تؤثر : أى تذكر ، والشرطيتان أعنى إن أتاهم وإن رماهم بيان وتحقيق لما تقدمهما من الإفراط فى المضادة وإلقاء الشراشر على المعازة ولقاء الخطط فى المحافظة على الأحساب والذبّ عنها وركوب الشطط فى كل مرام ، ولفظة أحد بمعنى الواحد من العدد ، وجاز أن يكون اسما لمن يصلح أن يخاطب به مطلقا إذا أول الكلام بالنفى : أى ما أتاهم آت بمفخرة إلا أتوه بمفاخر ، إذ لايستعمل فى الإثبات إلا مع لفظة كل (قوله وقد جرد) جملة معترضة ذيل بها الكلام تقريرا وتأكيدا لجميع ماتقدم من أفحم إلى هذا المقام ، وفائدتها نفى أن يتوهم أنهم أهملوا فى المعارضة طريقتهم المعهودة قلة مبالاة بها ، إذ لايتصور إهمالهم فيها مع إلجائهم عليها ، وقيل جملة حالية وعاملها إما فحم : أى أسكتهم عن المعارضة قاسرا لهم عليها بتجريد السيف عقيب الحجة ، وإما لم يتصد : أى لم يتعرضوا لها حال كونهم مقسورين عليها ، وفيه بحث لأن قوله « فلم يعارضوا » معطوف على « قد جرد » فهو حينئذ من تتمة الحال وتقييد الإفحام وترك التصدى بعدم المعارضة مما لاطائل فيه ، وتجريد الحجة : تعريتها عن ملابس الشبهات ، وتجريد السيف : انتضاؤه وتعريته عن غمده ، فأريد به القدر المشترك بينهما ، وأسند إلى الله مجازا لأنه الآمر به . وقيل تجريد الحجة منسوب إلى الله حقيقة ، ويضمن فى المعطوف فعل مثله ويسند إليه مجازا . وجاز أن يراد بالتجريد الإظهار مجازا ويسند إلى الله حقيقة : أى أظهر الحجة على لسان رسوله والسيف على يده : أى يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، و (أوّلا) نصب على الظرفية بمعنى قبل : أى أبدأ بهذا أوّل ، فيضم على الغاية كقوله افعله قبل

آخرا ، فلم يعارضوا إلا السيف وحده ، على أن السيف القاضب مخراق لاعب إن لم تمض الحجة حده ، فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطمّ على الكواكب ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب ، والصلاة على خير من أوحى إليه حبيب الله أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، ذي اللواء المرفوع في بنى لؤيّ ، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصيّ ، المثبت بالعصمة ، المؤيد بالحكمة ، الشادخ

وأما الذى مؤنثه الأولى فغير منصرف (إلا السيف وحده) من قبيل وضع المظهر موضع المضمر زيادة تصوير لمتعلق المعارضة . وأما قوله (على أن السيف) فليس من هذا القبيل إذ المراد به الجنس لا السيف الذى جرّد . الظرف حال يبين أن معارضتهم بالسيف مع الخلو عن الحجة مما لا يعتد بها ، وقد أحاطوا بذلك علما ، والعامل فيها لم يعارضوا بعد انتقاض النفى : أى عارضوا بالسيف وحده عالمين بهذه القضية مستعلين عليها : شبه حالهم فى العلم بها وإتقانها بحال من اعتلى الشىء وركبه ، فاستعير لها كلمة على ، هذا ما وعدناك تحقيقه ، والقاضب : القاطع (والمخراق) منديل يلفّ ليضرب به عند اللعب (وإمضاء الحجة حدّ السيف) تقوية شأنه وترجيح جانبه كأنها تجعل حده : أى غراره قاضبا : أى قاطعا ، ولا يخفى على كل ذى مسكة أنهم إذا آثروا المحاربة بالسيف والسنان وبذل الأرواح على المقاولة باللسان مع علمهم بأنهم ليسوا فى ذلك على شىء ، فقد شاهدوا عجزهم عن المعارضة بالمرة وأحاطوا به علما ، فلذلك فرعه عليه قائلا (فما أعرضوا الخ) (زخر البحر) أى ماج وامتلأ (وطم) أى غلب وعلا ، يقال جاء السيل فطم على الركية : أى دفنها وسواها (والكواكب) الأول جمع كوكب الماء وهو مجتمعه والثانى جمع كوكب السماء . مثل أوّلا حالهم فى تلاشى شبههم واضمحلال مزخرفاتهم لظهور المعجزة الباهرة والحجة البالغة الظاهرة بحال كواكب المياه وغدرانها فى اندراسها بزخر البحر الخضم وطمه عليها ، وثانيا بحال الكواكب حين أشرقت عليها الشمس وطمست أنوارها ومحت آثارها . وقد يقال استعير البحر والشمس لبلاغة القرآن والكواكب بالمعنيين لبلاغاتهم ، ثم رشحت باستعارة الزخر والإشراق لظهورها ، واستعارة الطم والطمس لغلبتها عليها ، وهو تكلف مستغنى عنه (قوله والصلاة) معطوف على التحمد الذى بناه على الإنزال والإيحاء . ولما قصد زيادة الملاءمة بينهما قال (خير من أوحى إليه) دون أرسل ، وليس فى أوحى ضمير راجع إلى القرآن لفساد المعنى ، بل الظرف قائم مقام فاعله . فضله أوّلا على الأنبياء ثم وصفه بما هو منشأ كل سعادة وكمال ، ثم كناه وسماه استلذاذا وتبركا ، ثم ذكر نسبة العالى إلى هاشم ، ثم شرع فى حسبه فذكر علوّ شأنه وظهور سلطانه ، وقدم فيه الجد الأعلى وهو لؤى على الأدنى وهو قصى ، لأن رفعة القطر ونفاذ الأمر فى أعلى القبائل أدل على عظم المكانة . ثم عقب بذكر باقى أحسابه من كونه مثبتا بالعصمة مؤيدا بالحكمة : أى العلم المشفوع بالعمل واشتهار فضائله وكونه نبيا أميا مبشرا به فى الكتب السابقة (اللواء) العلم (وذى اللواء المرفوع فى بنى لؤىّ) كناية عن سيادته عليهم وكونه مطاعا فيهم (ذى الفرع) أى ذى العلوّ والرفعة من قولهم فرعت القوم : علوتهم بالشرف أو بالجمال ، و (المنيف) المشرف العالى من أناف على كذا أشرف عليه ، ويجوز أن يراد بالفرع الغصن ، فشبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء مستظلّ بها ، فذى استعارة مكنية ، والفرع تخييل ، والمنيف ترشيح . وأن يراد به السيد يقال هو فرع قومه : أى سيدهم فيكون تجريدا مبالغة فى سيادته . وقد يقال الفرع مستعار لأولاده ، إشارة إلى شرف فروعه كأصوله أو للنبىّ ، وذى الفرع صفة لؤىّ ، وذى اللواء صفة هاشم ، ولا

الغرّة ، الواضح التحجيل ، النبي الأميّ المكتوب فى التوراة والإنجيل ، وعلى آله الأطهار وخلفائه من الأختان والأصهار ، وعلى جميع المهاجرين والأنصار .

اعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة .

يخفى بعدهما (الغرة) البياض فى جبهة الفرس يقال شدخت الغرة اتسعت (والتحجيل) البياض فى قوائمه يقال فرس محجل ، وقد حجلت قوائمه تحجيلا ، وهو أعنى الغرّة والتحجيل مستعاران ههنا للشرف والكمال ، كما أن الشدوخ والوضوح مستعاران لاشتهارهما ، فقد أشير إلى اشتهار جميع أنواع فضائله وكمالاته من قرنه إلى قدمه ، وتستعمل الغرّة وحدها فى الشرف مستعارا مشهورا ، يقال رجل أغرّ : أى شريف ، وفى الاشتهار وفى الامتياز مجازا مرسلا كقوله « مبارك الاسم أغرّ اللقب » أى مشهور اللقب دون التحجيل وحده . وأما قوله عليه الصلاة والسلام « إن أمتى يأتون يوم القيامة غرّا محجلين من أثر الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل » فالظاهر منه أن المراد الأنوار المتلألئة من آثار الوضوء على تلك المواضع ، وقد يحمل على امتيازهم واشتهارهم بين الأمم فى ذلك اليوم بسبب هذه العبادة ، و (الأمىّ) من لايكتب منسوب إلى أمة العرب المشهورين فيما بين الأمم بعدم الخط والكتابة أو إلى أمّ القرى لأن أهلها كانوا أشهر بذلك ، أو إلى الأمّ : أى كما ولدته أمه ، وكونه عليه الصلاة والسلام أميا صفة مدح له تشهد بنبوّته وتنفى ارتياب المبطلين ، حيث أتى بالعلوم الجمة والحكم الوافرة وأخبار القرون الخالية بلا تعلم خط واستفادة من كتاب ، وقد طابق بين الأمىّ والمكتوب : أى ليس بكاتب بل هو مكتوب (قوله وعلى آله) أراد أهل بيته لتبادره عند الإطلاق ، و (الأطهار) جمع طهر بمعنى طاهر كعدل بمعنى عادل ، فإن فاعلا لايجمع على أفعال كما نص عليه الجوهرى (من الأختان والأصهار) فى الصحاح أن الختن عند العامة : زوج الابنة ، وعند العرب : كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ . والصهر أهل بيت المرأة ، وأراد الزمخشرى بالأختان متعارف العامة ، وبالأصهار حقيقته ، وتقديم الأختان للسجع ، ومن للتبعيض لأن الخلفاء الراشدين كانوا بعض أصهاره وأختانه ، وجاز أن تجعل للبيان لأن أقل الجمع عنده اثنان (وعلى جميع المهاجرين والأنصار) أى على جميع الصحابة ، كما يقال الله خالق السموات والأرض : أى خالق كل شىء ، وفى تخصيص الخلفاء من بينهم وتقديمهم عليهم تنويه بشأنهم (قوله اعلم أن متن كل علم) شرع فى فن آخر من الكلام فلذلك فصله عما تقدمه ، وإنما صدره بالأمر مؤكدا بأنّ حثا على التشمر لتحقيقه ، فإنه أساس لما هو بصدده من انحصار بيان تفاوت الرتب فى النكت . والمتن هو الظهر ، وهو قوام البدن ينبنى عليه سائر أعضائه ، فاستعير لأصل العلم وهو أمهات مسائله ، إذ يتقوّم بها نكته ولطائفه . والعمود : الخشبة التى فى وسط الخيمة يستند إليها قيامها ، فاستعير لعمدة الصناعة لأنه يتفرّع عليها شعبها ودقائقها . والعلم إن لم يتعلق بكيفية عمل كان المقصود فى نفسه ويسمى علما ، وإن كان متعلقا بها كان المقصود منه ذلك العمل ، ويسمى صناعة فى عرف الخاصة وينقسم إلى قسمين : مايمكن حصوله بمجرد النظر والاستدلال كالطب مثلا ، وما لايمكن حصوله إلا بمزاولة العمل كالخياطة . وهذا القسم يخص باسم الصناعة فى عرف العامة . والوجه فى التسمية على العرفين أن حقيقة الصناعة صفة نفسانية راسخة يقتدر بها على استعمال موضوعات ما نحو غرض من الأغراض على وجه البصيرة بحسب الإمكان كما يشعر به كلام المصنف حيث قال : كل عامل لايسمى صانعا ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرّب ، ولا شك أن العمل المقصود من العلم لايتم كماله إلا بأن يتمرّن صاحبه فى ذلك العلم ويصير العمل ملكة له . ولما كان علم التفسير مشتملا على المعارف الإلهية والأحكام العملية جاز أن يطلق عليه كل

طبقات العلماء فيه متدانية ، واقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية . إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة ، أو تقدم الصانع الصانع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة ، وإنما الذى

من هذين الاسمين ، وإطلاق العلم أولى لأنه الأكثر والأشهر والأشرف . ثم الظاهر أن المراد بالصناعة ههنا متعارف العامة ، وأن ذكر الصناعات لمشابهتها العلوم فى أن تفاضل مراتب أصحابها بحسب الدقائق دون الأصول .

فإن قلت : علم الكلام لاتعلق له بكيفية عمل فكيف سماه صناعة ؟ قلت : ذلك على سبيل التشبيه لأنه لدقته وغموضه لايتحصل إلا بمناظرات متعاقبة ومراجعات متطاولة ولذلك سمى كلاماً فله نوع تعلق بالعمل . وقد يقال : كل علم مارسه الرجل حتى نسب إليه وصار كالحرفة له يسمى صناعة سواء كان متعلقا بالعمل أولا (طبقات العلماء) درجاتهم (فيه) أى فى متن العلوم (وأقدام الصناع) منازلهم (فيه) أى فى عمود الصناعات . وقد أشار بتخصيص كل من الطبقات والأقدام بموضعه إلى إنافة العلوم على الصناعات ، واقتصر فى طبقات العلماء على التدانى ، وردد فى أقدام الصناع بين التقارب والتساوى بناء على استبعاد التساوى فى قواعد العلوم دون الصناعات . لايقال قوله طبقات العلماء مع مافى حيزه مغير عن المعطوف عليه وحده ، أعنى متن . وقوله « وأقدام الصناع » مع مافى حيزه خبر عن المعطوف وحده أعنى عمود كل صناعة ، فكيف جاز عطف أحد الخبرين على الآخر . لأنا نقول : قد صرح النحاة بأن الخبر إذا تعدد لتعدد المخبر عنه حقيقة وإن كان متحدا لفظا لايستعمل الخبران بغير عطف كقوله :

يداك يد خيرها يرتجى وأخرى لأعدائها غائظه

فإذا كان المخبر عنه متعددا حقيقة ولفظا معطوفا بعضه على بعض كان العطف فى الخبر أولى ليكون على وتيرة المخبر عنه ، والسر فى العطف أن مآل المعنى وإن كان إلى التوزيع إلا أن القصد بحسب الظاهر لأمن الإلباس إلى ربط المجموع بالمجموع ، فلا بد من أداة الجمع ، كأنه قيل : مراتب العلماء والصناع فى أصول العلوم والصناعات متقاربة ، وقد توهم أنه نظير قولك : زيد وعمرو قام أبوه وذهب أخوه . على أن يكون أحد الضميرين لزيد والآخر لعمرو ، وأنه لابد فى مثله من اعتبار تقديم وتأخير وهو منظور فيه . لأنه إذا اعتبر تقديم خبر المعطوف عليه على المعطوف لم يبق للواو فى خبر المعطوف وجه . وجعله لتأكيد لصوق الخبر بالمخبر عنه قصور وعجز . ثم إن المثال المشبه به إنما يصح إذا لم يكن القياس فى اختصاص كل خبر بما هو له . ويكون حينئذ محمولا على ماقدرناه من ربط المجموع بالمجموع اعتمادا على فهم السامع (إن سبق) هو مع ماعطف عليه بيان وتأكيد للتدانى والتقارب المذكورين ، واختار صيغة الماضى لأن المعنى على المضى أوقع . كأنه قيل إن كان سبق ، ويشهد له قوله تباينت وتحاكت . واستعملت إن دون إذ لأن الشك فى السبق أقرب إلى قلة التفاوت وثبوت التضارب ، وذكر الخطا والمسافة تشبيها للسبق فى المراتب العقلية بالسبق فى المسافات الحسية تصويرا له وتمكينا فى الأذهان ، ولا شبهة فى أن الخط أنسب بالأقدام والمسافة بالطبقات . إلا أنه لاحظ جانب المعنى فقط (قوله وإنما الذى) هذا الخ معطوف على اعلم ، وما فى حيزه عطف قصة على قصة لايلاحظ فيه مناسبة لخصوص جملة مع أخرى . ولك أن تقول : كلمة اعلم حث على التوجه نحو الخبر الذى هو المقصود ، فهو عطف بحسب المعنى على ذلك المقصود مجردا عن هذه الكلمة ، كأنه قال : إن متن كل علم وعمود كل صناعة ليس فيه تفاوت يعتد به وإنما الذى تباينت ، وهذا أدق وأحسن . وقد يتخيل أن الهمزة مفتوحة عطفا على مابعد اعلم . وفيه وجوه من المبالغة التخصيص ، فإنه بالقياس إلى القواعد والأصول وقد علم انتفاء التباين فيهما ، ودلالة إنما على ظهور الحصر وإيراد المبتدإ موصولا

تباينت فيه الرتب وتحاكت فيه الركب ، ووقع فيه الاستباق والتناضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل ، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد وترقى إلى أن عدّ ألف بواحد ، مافى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر ومن لطائف معان يدقّ فيها مباحث الفكر ، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار ، لايكشف عنهم من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطتهم وفصهم ؛ وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها

تشتمل صلته على مايشوق إلى الخبر تشويقا تاما ، وإيراد الخبر بينهما وتعقيبه بالتفسير . (تحاكت) أى تصاكت كناية عن شدة السعى وفرط المجاهدة فى المسابقة . وقيل كناية عن تحاثى المتناظرين للمباحثة وبعده ظاهر . وقوله (حتى انتهى الأمر) أى فى التباين والتفاضل غاية لقوله تباينت وما عطف عليه ، أو لقوله عظم التفاوت والتفاضل وحده . وقوله (إلى أن عدّ) ناظر إلى قول البحترى :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا لدى المجد حتى عد ألف بواحد

وفى عدّ ألف بواحد مبالغة ليست فى عكسه حيث جعل الواحد أصلا قوبل به الألف ، مع أن لفظ العد بالكثير أولى (المحاسن) جمع حسن على غير القياس كأنه قيل محسن (والنكتة) من النكت كالنقطة من النقط ، ونكت الكلام أسراره ولطائفه لحصولها بالفكرة التى لايخلو صاحبها عن نكت فى الأرض بنحو الأصبع ، بل لحصولها بالحالة الفكرية الشبيهة بالنكت (والفقر) جمع فقرة بسكون القاف ، وهى فى الأصل حلى يصاغ من ذهب على هيئة فقار الظهر ، يستعار أوّلا لدقائق المعانى الشبيهة بذلك المصوغ ، وثانيا لما هو فى النثر بمنزلة البيت ، إذ لايخلو عن دقيق معنى غالبا عبر عن دقائق العلوم والصناعات بعبارات مختلفة نظرا إلى جهات متفاوتة ، فسماها أوّلا بمحاسن النكت والفقر ، وثانيا بلطائف معان ، وثالثا بغوامض أسرار . ونكر الأخيرين قصدا إلى التفنن بإيراد طريقين التعريف والتنكير ، وأيضا المنكر بالوصف أولى ، وكرّر الجار أعنى كلمة من تنزيلا لتغاير الجهات منزلة تغاير الذوات . وقوله (لايكشف) تأكيد وتقرير لمعنى الأحجاب ، ومفعوله محذوف : أى لايكشف الأستار (عنها) أى عن غوامض الأسرار ، ومن ههنا يعلم أن مؤدى تلك العبارات ذات واحدة وإلا اختلّ نظام الكلام (من الخاصة) صفة مقدر هو فاعل : أى لايكشف عنها أحد من الخاصة ، و(أوحدهم) بدل منه وقد يجعل هو فاعلا من الخاصة حالا منه قدمت مرجعا للضمير ، وفيه أن الأوحدى المضاف إلى ضمير الخاصة لامحالة يكون بينهم ، فلا فائدة فى هذه الحال سوى تأكيد نسبته إليهم ، وياء النسبة فى الأوحدى للمبالغة كالأحمرى منسوب إلى اللفظ تنبيها على أنه عريق فى معنى الواحدة يستحق أن يعبر عنه بالأوحد وينسب إليه (واسطتهم) أى خيرهم وأفضلهم من واسطة القلادة لأجود جوهرة فى وسطها (وفصهم) أى مختارهم من فص الخاتم عقب الأوحدى بالأخص والواسطة بالفص لشدّة ملاءمة بينهما ، وأعاد كلمة إلا فى الأخيرين إشارة إلى أنه باعتبار اتصافه بهما كأنه شخص آخر يستحق أن يستثنى مرة أخرى مبالغة فى إثبات الحكم له من جهات متعددة ، أو إلى أنه قصد استثناء آخر فلم يجد غيره ، فاستثناء بحسب صفة أخرى تأكيدا لنفى الحكم عن غيره . وقيل الإعادة لعدم مجانستهما للأولين فلا يحسن انخراطهما فى سلكهما ، وهو قصور على ملاحظة اللفظ ، والضمير فى (عامتهم) للخاصة أى أكثر الخاصة عماة ، والعمى يستعمل فى البصر يقال رجل أعمى وقوم عمى ، وفى البصيرة يقال رجل عمى القلب وقوم عمون ، فإن حمل على الأول كان مستعار العمى البصر والأحداق ترشيحا ، وإن حمل على الثانى كان الأحداق مستعارا للبصائر ، وإنما عدل عن قياس الجمع إلى عماة جمع عام لمشاكلة عناة ، وضمير (حقائقها)

بأحداقهم ، عناة فى يد التقليد لايمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم . ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذى لايتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن ؛ فالفقيه وإن برز على

الغوامض الأسرار ، و(بأحداقهم) متعلق بإدراك : أى لايظهر لهم ظهور المحسوس ، و(عناة) جمع عان وهو الأسير : أى هم أسراء فى يد التقليد لا خلاص لهم أصلا ، وكانت عادة العرب فى إطلاق أسراهم جز نواصيهم إهانة وإذلالا . وقوله (ثم إن أملأ العلوم) عطف على اعلم مع ماعطف عليه ، وفيه مبالغات من وجوه لتقرير مايدعيه فى ذهن السامع ونفى الشبهة عنه التأكيد بإن وإيراد المسند إليه مبهما مشوقا إلى المسند مع الإطناب فيه وتوصيف المسند إجمالا بما يزيده فخامة ويجل موقعه فى الأذهان وإردافه بتفصيله مبسوطا ومشروحا ، وفائدة لفظ ثم التنبيه على أنه ينبغى أن يتئد السامع فى تحقيق ماقدمناه من أن التفاوت بنكت العلوم لا بأصولها حتى يصير منه على ثقة وطمأنينة ، ثم يتحقق أن أشمل العلوم على النكت واللطائف علم التفسير ، فيكون الاختلاف بين مراتب المفسرين أكثر (أملأ) أفعل من ملئ بالكسر : أى امتلأ فهو ملآن على ماذكره فى المقدمة : أى أشد العلوم امتلاء ، وأخذه من ملؤ بالضم : أى غنى بعيد لاستلزامه تشبيه النكت بالأموال ، وكذا أخذه من ملأ بالفتح على أنه للمفعول لأنه قليل . وأما كونه بمعنى الفاعل : أى أملأ العلوم للقرائح بما يغمرها فلا منع منه ، لأن ملأت الإناء من الماء وبالماء كلاهما صحيح ، لأن الملء يبتدئ منه وهو آلة له ولعله أظهر ، وذلك لأن ملأ بالفتح أشهر استعمالا من ملئ بالكسر ، وإن جعل العلوم ظرفا لدقائقها على خلاف ماهو المعتاد من أن المظروف ليس جزءا من الظرف ، وأن الغمر الذى هو ترشيح الاستعارة حيث كان منسوبا إلى القرائح ، فالظاهر أن الامتلاء منسوب إليها أيضا فإنها تمتلئ أولا ثم تصير مغمورة : أى مستورة ، وأن لطائف العلوم تحيى القلوب ، فهى بالقياس إليها أشبه بالماء منها بالقياس إلى العلوم (والقريحة) الطبيعة وهى فى الأصل أول ماء يستخرج من البئر لحصوله بالكدح والتأثير ، وأطلقت على مايقع فى القلب بغتة بعد سابقة طلب ، ثم نقلت منه إلى محله أعنى القلب (وأنهض) أفعل من نهض بالأمر قام به (يبهر) يغلب ، و(القوارح) الكوامل الثوابت جمع قارح ، وهو من ذى الحافر : أى ماتكامل سنه وبلغ أشده (يلطف مسلكها) أى يدق طريق الوصول إليها فلا تسلك إلا بفكرة صائبة (والسلك) الخيط ودقته كناية عن لطافة الجواهر المنظومة فلا يدرك إلا ببصيرة ثاقبة ، جمع بين غرابة النكت ولطف المسلك إشارة إلى معنى قوله من محاسن النكت ، ومن لطائف معان ، وجعل قوله (ومستودعات أسرار) بإزاء قوله « ومن غوامض أسرار » (التفسير) علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث دلالته على مراده ، وينقسم إلى تفسير وهو مالا يدرك إلا بالنقل كأسباب النزول والقصص فهو مايتعلق بالرواية ، وإلى تأويل وهو مايمكن إدراكه بالقواعد العربية وهو مايتعلق بالدراية ؛ فالقول فى الأول بلانقل خطأ ، وكذا القول فى الثانى بمجرد التشهى وإن أصاب فيهما . وأما استنباط المعانى على قوانين اللغة فمما يعد فضلا وكمالا (لايتم) أى لايكمل ولا يصلح (لتعاطيه) لتناوله (كما ذكر) نصب على المصدر : أى أذكر لك عدم صلاحية كل ذى علم لتعاطيه كل ذى علم إشارة إلى أن الجاحظ ذكرا مثل ذكره ، ولا نقل هاهنا لكلام الجاحظ أصلا بل لما ادعى إجمالا أنه لايتم لتعاطيه كل إلى أن الجاحظ ذكر هذا المعنى فى كتابه تأييدا لما ادعاه . ثم فصل كلامه المجمل بقوله (فالفقيه الخ) وهذا الفاء أعدل شاهد لما ذكرناه عند من له دربة بأساليب الكلام وذكر بعض من أثق به أنه رأى كتاب نظم القرآن فلم يكن شىء من هذه العبارات فيه ؛ وعلى هذا فقد سقط مؤنة تعيين منتهى كلامه وتوجيه ماقيل فيه (برز عليه) أى

الأقران فى علم الفتاوى والأحكام . والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار . وإن كان من ابن القرّية أحفظ . والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوىّ وإن كان أنحى من سيبويه واللغوى وإن علك اللغات بقوّة لحييه . لايتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح

فاق ، و (الأقران) الأكفاء جمع قرن بالكسر ، وفى المغرب أن اشتقاق الفتوى من الفتى لأنه جواب فى حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل . يعنى أنه يلاحظ فى الفتوى ما ينبئ عنه الفتى من الحدوث والقوة (بز) غلب ، و (القصص) بكسر القاف جمع قصة ، و (ابن القرّية) بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة أحد فصحاء العرب واسمه أيوب . والقرية اسم أمه . وهى فى الأصل حويصلة الطائر كان من الحفاظ ، نقل الكتب القديمة إلى العربية . قتله الحجاج فقال عند القتل : لكل جواد كبوة ، ولكل شجاع نبوة ، ولكل حكيم هفوة . فصارت أمثالا (الحسن البصرى) هو المكنى أبا سعيد من أكابر التابعين ، لقى عليا عليه السلام فى المدينة ، وكان مشهورا بالحكم والمواعظ ، فإذا أطلق الحسن فى الكتاب فهو المراد ، قدم المصنف كلمة من على أفعل التفضيل فى موضعين محافظة على السجع ، و (أنحى) من نحا ينحو إذا نظر فى علم النحو وتكلم فيه ، ومنه النحاة جمع ناح (واللحى) منبت اللحية ، عبر بعلك اللغات عن ضبطها وإتقانها ودل على سهولة مأخذها : أى يكفى فيها تحريك اللحيين باستعمال اللسان ، و (لايتصدى) خبر لقوله « فالفقيه » وما عطف عليه ، وهذه الشروط : أعنى قوله « وإن بزر » وأخواته وقعت أحوالا ، وقد جردت عن معنى الشرط فلا تحتاج إلى تقدير جزاء ، فإن جوّز انتصاب الحال من المبتدإ بمعنى انتساب الخبر إليه فى حال كونه كذا ، فكل واحد من الفقيه وما عطف عليه صاحب الحال التى تليه ، وإلا فصاحب الحال هو أحد بحسب تفصيل معناه : أى لايتصدى منهم الفقيه مبرزا على أقرانه وكذا ، وإبراز الحال فى صورة الشرط إيذان بأن هذه الأمور غير واقعة بل مفروضة ، كأنه قيل مفروضا تبريزه على أقرانه وغلبته على أهل زمانه ، وفى التقييد بأهل الدنيا إشعار بعظم التفاوت فى صناعة الكلام ، و (تلك الطرائق) إشارة إلى قوله تسلكها ، و (تلك الحقائق) إلى قوله مستودعات أسرار ، يقال غاص فى الماء على اللؤلؤ : أى حصله واستعلى عليه (إلا رجل) مستثنى من أحد فهو فى المعنى استثناء من كل ذى علم (برع) بالضم والفتح فاق ، والباء فى قوله (مختصين بالقرآن) إن كانت داخلة على المقصور عليه كما هو أصل اللغة : فالمعنى أن استعمالهما فى القرآن أكثر وكأنهما حوّنا لمعرفة أسرار بلاغته ودلائل إعجازه فهما للقرآن لا لغيره . وإن جعلت داخلة على المقصور كما هو المشهور فى الاستعمال فالمعنى : أن الاطلاع على فرائده والكشف عن وجوه خرائده لايحصل إلا بهما فهو لهما لالغيرهما (تمهل) أى اتأد من المهل بسكون الهاء ، أو سبق من المهل بفتحها (والارتياد) من راد الكلأ . وارتاده إذا طلبه (آونة وأزمنة) جمعا أوان وزمان للتكرير : أى أوانا بعد أوان وزمانا بعد زمان كقوله تعالى ـ أولئك عليهم صلوات من ربهم ـ أى صلاة بعد صلاة كما يجىء . ولا نظر إلى كونهما جمعا قلة إذ لايناسب المقام أصلا (التنقير) عن الأمر البحث عنه (ومظنة الشىء) مألفه الذى يظن كونه فيه ، ومظان العلمين تراكيب البلغاء ، والقرآن حجة الله على خلقه ومعجزة لرسوله فى إثبات نبوته ، فيستحق أن يعتنى بشأنه وتتحمل المشاق فى معرفة

معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورجع إليه ، ورد ورد عليه ، فارسا فى علم الإعراب ، مقدما فى حملة الكتاب وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها لا كزا جاسيا ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دربة بأساليب النظم والنثر ، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقة ووقع فى مضاحضة ومزالقة . ولقد رأيت

لطائفه واستيضاح إعجازه بعد أن يكون ظرف لبرع وما عطف عليه (بحظ) مفعول آخذا ، يقال : خذ الخطام . وخذ بالخطام ، ترك العطف بين الإخبار يكون تنبيها على أن كل واحد منها أمر مستند بنفسه يستأهل أن يثبت استقلالا (قد رجع) بيان لقوله (طويل المراجعات) أى رجع زمانا طويلا فى التعلم (ورجع إليه) فى التعليم (ورد) على غيره فى المناظرات (ورد عليه ، فارسا فى علم الإعراب) تخصيص للنحو من بين سائر العلوم : أى يكون مع أخذه منها بحظ وافر كاملا فى علم الإعراب فإنه العمدة فى هذا الباب (مقدما) فى معرفة كتاب سيبويه على حملته فإنه أحسن كتاب وضع فيه ، قال السيرافى : ماسبقه بمثله من قبله ولا لحقه من بعده (وكان) عطف على قد برع (مع ذلك) أى مع ماذكر من براعته فى العلمين بعد كونه كذا وكذا (مسترسل الطبيعة) أى سلس الطبيعة فى الحركات الفكرية نحو دقائق العلوم سهل القبول لها لانقيادها من قولهم بعير رسل بفتح الراء : سهل السير . وناقة رسلة ، فيها لين (مشتعل القريحة) فى استجلاء الدقائق وانتقادها عند الوصول إليها ، وقوله (وقادها) دفع لتوهم الخمود كنار العرفج بعد سرعة الاشتعال ، كما أن منقادها دفع لتخييل الضعف من الاسترسال . وقد يقال : حاصله أن له طبيعة كالماء فى السلاسة والقبول ، وكالنار فى النفوذ والتوقد (اللمحة) الإشارة الخفية (والرمز) الإيماء بالشفتين والحاجبين (والكزازة) الانقباض واليبس . يقال رجل كز ، وقوم كز بالضم وفرس كزة ، إذا كان فى عودها يبس عن الانعطاف (والجاسى) الصلب من جسأت يده من العمل : أى صلبت (الجافى) النابى من الجفاء وهو الغلظة فى العشرة وترك الرفق فى المعاملة والكلام . أثبت أولا سلاسة الطبيعة وصفاءها وجودة القريحة وذكاءها بحسب الفطرة ، ثم نفى أضدادها مبالغة فى إثباتها . ثم شرع بقوله (متصرفا) فى الصفات العملية المتفرعة على تلك الغرائز الخلقية . ولا شبهة فى أن ذلك ترتيب أنيق لا فتور فيه ولا إلباس ، فمن لا يعجبه مثل هذا التركيب فليتهم نفسه (والدربة) العادة والتجربة (أساليب الكلام) فنونه (والمرتاض) ماتمت رياضته (والريض) ماكان أهلا لها ولم يرض بعد . وقوله (غير ريض) دفع لتوهم التجوز فى المرتاض (بنات الفكر) أما المقدمات وتلقيحها ترتيبها على وجه يؤدى إلى المطلوب . وأما النتائج كما اشتهر فى الاستعمال أو يراد استخراج نتيجة من أخرى دلالة على قوة الفطانة وكمال الرياضة ، أو يراد التلقيح لأجلها ، و (قد علم) بيان وتقرير لقوله مرتاضا بتلقيح بنات الفكر : أى قد علم كيف يرتب أجزاء الكلام ، ويؤلف بينها وكيف ينظم أفرادها ويرصف فى نظمها ، أى علم كيفية التلقيح فى المقدمات وأجزائها (الترصيف) الضم والإحكام (طالما) تأكيد لقوله قد علم ، وكلمة «ما» فى طالما وقلما إما مصدرية : أى طال اندفاعه ، وإما كافة تكفهما عن طلب الفاعل لفظا وتهيئهما لوقوع الفعل بعدهما . ويؤيده أنها كتبت موصولة كما فى إنما ، وجاز الفصل بينها وبين الفعل قال : الكميت :

وقد طال ما يا آل مروان أنتم ﴿ (ولقد رأيت) هو إلى آخر الخطبة معطوف على قوله ثم إن أملأ العلوم ،

إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضمّ أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إلىّ مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن [حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل] فاستعفيت ، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد . والذى حدانى على الاستعفاء على علمى

عطفا لقصة على قصة علم التفسير : أى كان طبقات المفسرين فى غاية التباين الكثرة نكته وتوقف إدراكها على شرائط قلما تجتمع فى واحد ، وكنت أنا فى أعلى طبقة منها قادرا على كشف سرائر هذا الفن وفوائده ، ووجدت الناس محتاجين إلى ذلك غاية الاحتياج ، ملحين علىّ فى وضع هذا الباب ، فتصديت لوضع هذا الكتاب ، فأتمه الله على يدىّ فى أدنى مدة . واللام فى لقد جواب قسم مقدر دفعا لما عسى يختلج فى وهم من له ريبة فى صدقه ، وتوحيد الضمير فى رأيت لأن الرأية له خاصة ، وجمعه فى (إخواننا) لإرادة أنهم أخوة للطائفة العدلية عامة ، وبيان الأخوة الذى هو جمع قلة بالأفاضل الذى هو جمع كثرة تنبيه على أنهم وإن قلوا صورة فهم الكثيرون حقيقة أى شرفا وفضيلة ، وذكر (الفئة الناجية) إشارة إلى أنهم الذين حكم فى الحديث بنجاتهم . وقوله (فى الدين) ظرف لإخواننا لتضمنه معنى الموافقة والمعاونة (الجامعين) صفة لأفاضل (وعلم العربية) يتناول أقسامها من اللغة وغيرها (والأصول الدينية) علم الكلام والشرطية أعنى (كلما رجعوا) مفعول ثان لرأيت . وفى هذا التعميم مبالغة (بعض الحقائق) أى بعض حقائقها أو بعض ماعندى منها (أفاضوا) أى شرعوا دفعة فى استحسان ما أبرزته لهم ، وفى التعجب منى (استطيروا) استفزوا كأنهم حملوا على الطيران (شوقا) مفعول له لاتمييز ، إذ لامعنى لقولك استطير شوقه (أطراف) المدينة نواحيها وسوادها فاستعيرت لجوانب الكلام : أى يضم أشياء كثيرة من ذلك : أى من جنس ما أبرزت لهم ، وقد يقال : أراد ضم ذلك المبرز المتفرق (حتى اجتمعوا) أى أدى تعجبهم وشوقهم إلى الاجتماع (والاقتراح) السؤال من غير روية ويدل على كمال الشغف (والإملاء) متعد ، فإما أن يقدر مفعوله : أى أملى كتابا فى الكشف ، أو نزل منزلة اللازم : أى أفعل الإملاء فى الكشف (حقائق التنزيل) معانيه التى ينساق إليها بلاصرف عن ظاهره ، وتأويله أن يصرف إلى خلاف ظاهره لأمارة تدل عليه (وعيون الأقاويل) خيارها عطف على حقائق التنزيل : أى الكشف عن الحقائق بإبرازها وعن العيون بتفصيلها وتوجيهها أو عطف على الكشف . والأقاويل جمع أقوال جمع قول ، والظرف أعنى (فى وجوه) متعلق بالأقاويل ، وما أحسن هذه العيون فى الوجوه (فاستعفيت) أى طلبت الإعفاء ، يقال أعفنى من الخروج معك : أى دعنى منه (استشفعه) واستشفع به : أى سأله أن يكون شفيعا له ، وعطف علماء العدل على عظماء الدين من قبيل عطف الصفات ، وأراد بعظماء الدين الزهاد والعباد . والمعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل لأنهم أوجبوا على الله تعالى ماهو عدل عندهم من ثواب المطيع وعقاب العاصى وتيسير أسباب الطاعات وزواجر المعاصى ورعاية ماهو الأصلح للعباد ، ولم يجوّزوا شيئا مما يعدّ ظلما وأهل التوحيد إذ لم يثبتوا له تعالى صفات قديمة زائدة على ذاته لاستلزامه تعدد القدماء المنافى للتوحيد (والذى حدانى) مبتدأ خبره : ما أرى عليه ، وهو جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، أعنى فأبوا فأمليت . وفائدتها تأكيد حقيقة الاقتراح والاستشفاع وإظهار أن استعفاءه لم يكن عن قصور بل عن استقصاره من يستضىء بنوره . حدانى : ساقنى ، وعدى بعلى لتضمين معنى الحمل والبعث (على علمى) حال من المفعول وقد سبق لك

أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علىّ واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين ، ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رحاله ، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلا أن تترقى .

جلية حالها، كلمة (ما) موصولة ، والجملة الآتية صلتها : أى طلبوا الأمر الذى يجب على صاحبه الإجابة إليه (لأن الخوض) تعليل لتخصيص الوجوب وإشارة إلى أن هذا الأمر وإن كان من فروض الكفايات إلا أنه صار عليه كفرض العين إذ كان متعينا له فى زمانه (ما أرى) إما موصوفة : أى شئ أرى عليه ، و (من رثاثة) بيان لما وصفة أخرى لها وإما موصولة ، ومن رثاثة بيان للضمير فى عليه ، وحال منه للموصولة إذ لاينتصب حال من خبر المبتدإ . وقيل المعنى : لايساعد على جعله حالا من ضمير عليه ، فإما لأن المعنى : ما أرى الزمان على رثاثة حاله ، وهو مردود بأن المبين ليس فى حكم الساقط بالمرة ، وهذا ممنوع فى البدل فكيف فى البيان . وإما لأن تقييد الرؤية بحال كونه رثاثة لافائدة فيه ، وجوابه أن مايرى عليه الزمان يتناول بمفهومه مالا يكون رثاثة ، كما أن الرجس يتناول بمفهومه مالا يكون وثنا ؛ فكما أن من الأوثان حال من الرجس مقيدة للعامل يكون الرجس وثنا كذلك من رثاثة حال من الضمير فى عليه مقيدة للرؤية بكون المرئى رثاثة وهى البذاذة ، يقال ثوب رثّ : أى خلق (والركاكة) الضعف ؛ قال رحمه الله : الركة والرقة من باب واحد ، إلا أن الركة غلبت فى ذم المعانى والأقوال ؛ يقال معنى ركيك ، وقول ركيك ، واستعيرت لذمّ الأعيان . ورجل ركيك : أى ضعيف لاعتلاله (قوله أدنى عدد هذا العلم) هو اللغة والصرف والنحو مما يتوصل به إلى المعانى الوضعية (فضلا) مصدر يتوسط بين أدنى وأعلى للتنبيه بنفى الأدنى واستبعاده عن الوقوع على نفى الأعلى واستحالته : أى عدّه محالا عرفا فيقع بعد نفى إما صريح كقولك فلان لايعطى الدرهم فضلا عن أن يعطى الدينار ، فإعطاء الدرهم منفىّ عنه ومستبعد ، فكيف يتصوّر منه إعطاء الدينار . وإما ضمنى كقوله وتقاصر هممهم الخ ، يعنى أن هممهم تقاصرت عن بلوغ أدنى عدد هذا العلم وصار منفيا مستبعدا عنهم ، فكيف يترقى إلى ماذكر من الكلام المؤسس ، وهو مصدر قولك فضل عن المال كذا : إذا ذهب أكثره وبقى أقله . ولما اشتمل على معنى الذهاب والبقاء ومعنى الكثرة والقلة نظر بعضهم إلى معنى الذهاب والبقاء فقال : تقدير الكلام فى المثال الأوّل فضل عدم إعطاء الدرهم عن الدينار : أى ذهب إعطاء الدينار بالكلية وبقى عدم إعطاء الدرهم . وفى المثال الثانى فضل تقاصر الهمم عن بلوغ أدنى العدد عن الترقى بالمرة : أى ذهب الترقى بالمرّة وبقى التقاصر ، فالباقى هو نفى الأدنى المذكور قبل فضلا ، والذاهب نفس الأعلى المذكور بعده ، وحينئذ يفوت شيئان من أصل الاستعمال : الأول كون الباقى من جنس الذاهب ، إذ ليس انتفاء الأدنى من جنس الأعلى . الثانى كون الباقى أقل من الذاهب ، إذ لامعنى لكون انتفاء الأدنى أقلّ من نفس الأعلى . فإن قلت : المفهوم من فضلا حينئذ أن مابعده ذاهب منتف بتمامه ، وأما أنه أدخل فى الانتفاء وأقوى فيه مما نفى قبله كما هو المقصود فلا . قلت : قد يفهم ذلك من كونه أعلى وأدنى ، إذ الأعلى أولى بالانتفاء من الأدنى . ونظر آخرون إلى معنى القلة والكثرة فقالوا : التقدير فى المثال الأول فضل عدم إعطاء الدرهم عن عدم إعطاء الدينار : أى العدم الأوّل قليل بالقياس إلى العدم الثانى . فإن الأول عدم ممكن ويستبعد وقوعه . والثانى عدم مستحيل فهو أكثر قوّة وأرسخ من الأول . وفى المثال الثانى فضل تقاصر الهمم عن الأدنى عن تقاصرها عن الترقى : أى التقاصر الأول قليل بالقياس إلى الثانى ، فإن التقاصر عن الترقى واجبى ، وعلى هذا التوجيه يفوت من أصل الاستعمال معنى الذهاب والبقاء . ويلزم أن لاتكون كلمة عن صلة له بحسب معناه المراد ، بل بحسب أصله ، ويحتاج إلى

إلى الكلام المؤسس على علمى المعانى والبيان ، فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح . وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة ، وكان كلامامبسوطاكثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والأذناب وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم ، وأن يكون لهم منارا ينتحونه ومثالا يحتذونه ، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله ، فتوجهت تلقاء مكة وجدت فى مجتازى بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ، وقليل ماهم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى ، متطلعين إلى إيناسه حراصا على اقتباسه . فهزّ مارأيت من عطفى ، وحرّك الساكن من نشاطى . فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية ، الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبى الحسن على بن حمزة بن وهاس ، أدام الله مجده ، وهو النكتة

تقدير النفى فيما بعد فضلا . ولبعضهم توجيه ثالث مبنىّ على اعتبار ورود النفى على الأدنى بعد توسط فضلا بينه وبين الأعلى ، كأنه قيل : يعطى الدرهم فضلا عن الدينار : أى فضل إعطاء الدرهم عن إعطاء الدينار على معنى : ذهب إعطاء الدينار وبقى من جنسه بقية هى إعطاء الدرهم . ثم أورد النفى على البقية . وإذا انتفت بقية الشىء كان ماعداها أقدم منها فى الانتفاء . ويرجع حاصل المعنى إلى أن إعطاء الدينار انتفى أولا ثم تبعه فى الانتفاء إعطاء الدرهم وهكذا بلوغ الهمم إلى أدنى العدد بقية من جنس الترقى ، فإذا تقاصرت عن البلوغ كان تقاصرها عن الترقى مقدما عليه . وناصب فضلا محذوف وجوبا لجريه مجرى تتمة الأول بمنزلة لا سيما ، ولا محل لذلك المحذوف من الإعراب وإن زعم بعضهم أنه حال ، ولا يلتبس عليك أن فاعل ذلك الفعل المحذوف هو الأدنى على الوجه الأخير ، ونفيه على الوجهين الأولين (إلى الكلام المؤسس) أى إلى إدراكه بتحصيل عدده . ويريد به كلامه فى الكشف عن حقائق التنزيل لأنه بصدد إبداء عذر الاستعفاء عن إملائه ، وأيضا قوله (وطائفة من الكلام) يرشد إليه ، فمن قال : المراد به القرآن فقد سها (فى الفواتح) أى الحروف المقطعة فى أوائل السور . وقيل أراد الفاتحة وصيغة الجمع تعظيم لها وهو بعيد جدا ، والأولى أن يراد فاتحة الكتاب مع فواتح السور (وكان) أى المملى (حاولت به) قصدت بذلك المبسوط (منارا) علما (ينتحونه) يقصدونه و (يحتذونه) يقتدون به ويقيسون عليه (صمم العزم) أى خلص عن التردد وصار ماضيا لا فتور فيه . يقال صمم السيف : إذا مضى فى العظم وقطعه ، وصمم فلان على أمره : أى مضى على رأيه فيه (وجدت) جواب لما (فى مجتازى) إما مصدر فيتعلق به الجار : أى فى اجتيازى بكل بلد ، وإما مكان فيتعلق الجار بوجدت (والمسكة) مقدار مايتمسك به من عقل أو علم أو قوّة ، والضمير فى أهلها للبلد بتأويل البلدة ، ولقد تفنن بإراءة معنى واحد فى صور مختلفة ، فوحد الضمير مذكرا فى قوله فيه نظرا إلى لفظ من ، وجمعه فى (قليل ماهم) نظرا إلى معناه ، وأفراد قليل مع أنه خبر لقوله (هم) قدم عليه اهتماما به بناء على أنه صفة لمقدر لفظه مفرد ومعناه جمع مثل فريق أو حزب . وقال (عطشى الأكباد) لأنهم جماعة واستعمل جمع السلامة والتكسير (التطلع) التشوّف (والإيناس) الإبصار (العطف) الجانب وهزّ العطف كناية عن السرور ، لأن الفرحان يتحرك جانباه نشاطا ، و (من) للتبعيض ، ومن (عطفى) مفعول هز : أى حصل فى بعض الارتياح لأن تمامه كان باستدعاء الشريف . وقد يقال هز العطف كناية عن إزالة الغفلة ، فإن الغافل ينبه بتحريك جانبه والمقام ناب عنه (إذا) للمفاجأة : أى فاجأت زمان أنا ملتبس (بالشعبة) فإذا مفعول به لفاجأت وهو جواب لما (السنية) الرفيعة (والدوحة) الشجرة العظيمة (والأمير) بدل من الشعبة أو بيان ، وبه خرج الكلام عن الاستعارة إلى التشبيه كقوله تعالى - من الفجر - (والنكتة) كل نقطة من بياض فى سواد أو عكسه

والشامة فى بنى الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم ، أعطش الناس كبدا وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة ، حتى ذكر أنه كان يحدّث نفسه فى مدّة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ماهوفيه من المشاده بقطع الفيافى وطىّ المهامه ، والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض ، فقلت قد ضاقت على المستعفى الحيل وعيت به العلل ، ورأيتنى قد أخذت منى السنّ وتقعقع الشنّ ، وناهزت العشر التى سمّاها العرب دقاقة الرقاب ، فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر ، ووفق الله وسدد ، ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وكان يقدّر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة ، وما هى إلا

(والشامة) الخال يقال هو النكتة والشامة فى قومه : أى العلم المشار إليه (اعطش الناس) قيل حال ، وإنما يصح عند من يجعل إضافته لفظية ولم يذهب إليه المصنف ، فالأولى أن يكون مفعولا لما دل عليه المفاجأة من معنى وجدت ، وهذا جائز عند الكوفية مطلقا . وعند البصرية فى مثل هذا المحل لتقدم قوله وجدت (المشاده) المشاغل وقياس واحده مشده بضم الميم وكسر الدال من أشده ، كما أن المشاغل جمع مشغل من أشغله ، وهو لغة ضعيفة فى شغله إلا أن مشدها لم يستعمل أصلا ، وإنما المستعمل شده الرجل : أى شغل أو دهش فهو مشدوه ، وجاز أن يكون من الثلاثى جمع مشده بفتح الميم والدال : أى مقمن الشده ، فإن المشاغل مقامن الحيرة والدهش ، كما يقال : الولد مجبنة مبخلة : أى مخلقة ومقمنة لذلك (الفيفاء) الصحراء الملساء (والمهمه) المفازة البعيدة والجمع الفيافى والمهامه (وفد) فلان على الأمير : أى ورد عليه رسولا فى خطب من تهنئة ونحوها ، جمع الضمير فى (علينا) تعظيما لتناسب لفظ الوفادة ، والقول بأنه للتواضع والإشارة إلى أن وفادته لاتكون علىّ وحدى بل مع إخوانى من الأفاضل يدفعه قوله ليتوصل إلى هذا الغرض فإنه منحصر فيه كما مر ، والقصد إلى جعل الإخوان شفعاء عنده لايلائم المقام (فقلت) عطف على جواب لما أعنى وجدت (على المستعفى) أراد نفسه والتفت لأن الحيل والعلل يناسبان وصف الاستعفاء لاذات المتكلم ، يقال عيى بالأمر : إذا لم يهتد لوجهه ؛ فمعنى عيت به العلل أنها لم تهتد إليه ليكن له التمسك بها ، وهذا أبلغ من أن يقال عيى بالعلل : أى لم يهتد إليها كأن عدم الاهتداء سرى منه إليها ، وقد تجعل الباء للتعدية : أى أعجزته العلل فلم يجد مايتعلل به وحينئذ تفوت تلك المبالغة ، والاستعمال المشهور : أعنى كون الباء صلة للفعل (ورأيتنى) معطوف على قلت وبيان لسبب العدول عن طريقة المملى والأخذ فى طريقة أخصر منها (أخذت منىّ السن) أثرت فى وأخذت من قواى ونقصت منها (الشنّ) القربة البالية ، وتقعقع الشنّ : تصويته ليبسه ، أراد استيلاء اليبس على جلده لكبر سنه (ناهزت) شارفت وقاربت ، و (العشر) المسماة (بدقاقة الرقاب) مابين الستين إلى السبعين ، وقد حكم سيد البرايا بأنها معترك المنايا (فأخذت) عطف على رأيتنى (مع ضمان) حال من أخذت : أى مقارنا لضمانى وكفالتى بذلك دفعا لما يتوهم فى الاختصار من فوت الفوائد (السرائر) جمع سريرة بمعنى السر (سدد) أى وفق للسداد وهو الصواب من القول والعمل (ففرغ منه) أى من الكتاب لدلالة السياق عليه بل لكونه مذكورا معنى ، لأن قوله طريقة أخصر عبارة عنه ، ولم يصرح بإسناده الفراغ إلى نفسه تنبيها على أن الفراغ منه فى مثل ذلك الزمان لايتصوّر من إنسان ، بل هو محض موهبة من عند الله المنان (مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه) سنتان وأربعة أشهر أو ثلاثة أشهر وتسع ليال : أى كان يقدر تمامه فى أكثر من مدة خلافة الأربعة ، فاتفق فى مدة خلافة أقلهم مدة (وما هى) أى الفراغ فى تلك المدة القليلة ، وتأنيث الضمير باعتبار الخبر

آية من آيات هذا البيت المحرم ، وبركة أفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظم ، **أسأل الله أن يجعل ماتعبت فيه منه سببا ينجيني** ، ونورا لى على الصراط يسعى بين يدىّ وبيميني ، ونعم المسئول .

سورة فاتحة الكتاب

الذى هو (آية) وقوله (من آيات هذا البيت المحرم) ناظر إلى قوله تعالى ـ فيه آيات بينات ـ (ماتعبت فيه منه) الضمير الأول لما ، والثانى للكتاب ، فتجعل من بيانية لا تبعيضية لأنه تعب فى مجموعه لا فى بعضه فقط . وقيل بالعكس : أى ماتعبت منه فى تصنيف الكتاب . وقيل الأول لله تعالى ، والثانى لما : أى ماتعبت فيه : أى فى ذات الله ومرضاته كقوله تعالى ـ جاهدوا فينا ـ وقيل بالعكس ، فيكون منه صفة لسببا فلما قدمت صارت حالا : أى يجعل المتعوب فيه وهو الكتاب سببا من الله تعالى . وقد يقال الأول للحرم ، والثانى لما : أى ماتعبت منه فى الحرم ، والباء فى (بيميني) بمعنى فى : أى يسعى بين يدى وفى يميني ، وهو مقتبس من قوله تعالى ـ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ـ (ونعم المسئول) عطف على أسأل الله ، فإما أن يجعل أسأل الله إنشاء للسؤال ، أو يقدر القول فى نعم : أى وأقول نعم والمخصوص بالمدح محذوف : أى نعم المسئول : أى المدعو هو : أى الله تعالى ، أو نعم المطلوب هو : أى الجعل المذكور .

سورة فاتحة الكتاب

فاتحة الشىء أوله ، فقيل الفاتحة فى الأصل مصدر بمعنى الفتح كالكاذبة بمعنى الكذب ، ثم أطلقت على أول الشىء تسمية للمفعول بالمصدر ، لأن الفتح يتعلق به أولا وبواسطته يتعلق بالمجموع ، فهو المفتوح الأول . وقيل الفاتحة صفة ، ثم جعلت اسما لأول الشىء إذ به يتعلق الفتح بمجموعه ، فهو كالباعث على الفتح ، وأدخل التاء علامة للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما فى النطيحة ، وهذا هو الوجه لأن فاعلة فى المصادر قليلة ، وقس على الفاتحة حال الخاتمة (قوله الكتاب) كالقرآن يطلق على مجموع المنزل المكتوب فى المصحف وعلى القدر المشترك بينه وبين أجزائه المخصوصة ، ومعنى فاتحة الكتاب أوله ، ثم صارت بالغلبة علما لسورة الحمد ، وقد تطلق عليها الفاتحة وحدها ، فإما أن يكون علما آخر بالغلبة أيضا لكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصارا لفاتحة الكتاب واللام كالخلف عن الإضافة إلى الكتاب مع لمح الوصفية الأصلية . قال صاحب الكشف رحمه الله تعالى : وهذه الإضافة بمعنى من لأن أول الشىء بعضه . ورد عليه بأن البعض قد يطلق على ماهو فرد الشىء كما يقال : زيد بعض الإنسان ، وعلى ماهو جزء له كما يقال : اليد بعض زيد . وإضافة الأول إلى الشىء بمعنى من دون الثانى ، ومن ثمة اشترط فى الإضافة بمعنى من كون المضاف إليه جنسا للمضاف صادقا عليه ، وجعل من بيانية كخاتم فضة . فإن قلت : لعله يجعل الكتاب بمعنى القدر المشترك الصادق على سورة الحمد وغيرها : أى فاتحة هى الكتاب قلت : يأباه أن كونها فاتحة وأوّلا بالقياس إلى مجموع المنزل لا القدر المشترك . فإن قلت : جوّز العلامة فى سورة لقمان الإضافة بمعنى من التبعيضية وجعلها قسيم الإضافة بمعنى من البيانية حيث قال : معنى إضافة اللهو إلى الحديث التبيين ، وهى الإضافة بمعنى من كقولك : باب ساج ، والمعنى : من يشترى اللهو من الحديث ، واللهو

سورة فاتحة الكتاب

مكية . وقيل مكية ومدنية لأنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى . وتسمى أمّ القرآن ؛ لاشتمالها على المعانى التى فى القرآن من الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التعبد بالأمر والنهى ، ومن الوعد والوعيد . وسورة الكنز والوافية لذلك . وسورة الحمد والمثانى لأنها تثنى فى كل ركعة . وسورة الصلاة لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها . وسورة الشفاء والشافية . وهى سبع آيات بالاتفاق ، إلا أنّ منهم من عدّ (أنعمت عليهم) دون التسمية ، ومنهم من مذهبه على العكس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

قرّاء المدينة والبصرة والشأم وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها ، كما بدئ بذكرها فى كل أمر ذى بال ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ومن تابعه ، ولذلك لا يجهر بها عندهم فى الصلاة . وقرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ، وعليه الشافعى وأصحابه رحمهم الله ، ولذلك يجهرون بها . وقالوا : قد أثبتها السلف فى المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن ، ولذلك لم يثبتوا (آمين) فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها . وعن ابن عباس : « من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى » .[1]

---

(١) موقوف ، ليس بمعروف عنه ، والذى فى الشعب للبيهقى عنه : « من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك آية من كتاب الله » . وتعقب ابن الحاجب ما أورده الزمخشرى بأن قال : « الصواب مائة وثلاث عشرة » وبهذا اللفظ ذكر الشهرزورى فى المصباح . وزاد : وإنما لم يقل « أربع عشرة » لأن براءة لا بسملة فيها ، انتهى . روى البيهقى فى الشعب عن أحمد بن حنبل أنه قال : « من لم يقل مع كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى » . قلت : وقفت على سبب الغلط فى منقول الزمخشرى . وذلك أن الحاكم روى فى ترجمة عبد الله بن المبارك بسند له عن على القاشانى قال : « رأيت عبد الله بن المبارك يرفع يديه فى أول تكبيرة على الجنازة ثم الثانية أخفض قليلا والصلوات مثل ذلك » . قال على قال عبد الله « من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فى فواتح السور فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية » . قال عبد الله : وأخبرنا حنظلة بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك آية من كتاب الله تعالى » . فلما لم يخص ابن عباس سورة حمله ابن المبارك على الكل إلا براءة فكان مائة وثلاث عشرة .

فإن قلت : بم تعلقت الباء ؟ قلت : بمحذوف تقديره : بسم الله أقرأ أو أتلو ؛ [١] لأنّ الذى يتلو التسمية مقروء ، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كان المعنى : بسم الله أحل وبسم الله أرتحل ؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ فى فعله ؛ « بسم الله » كان مضمرا ماجعل التسمية مبدأ له . ونظيره فى حذف متعلق الجارّ قوله عزّ وجلّ : (فى تسع آيات إلى فرعون وقومه) ، أى اذهب فى تسع آيات . وكذلك قول العرب فى الدعاء للمعرس : بالرفاء والبنين ، وقول الأعرابى : باليمن والبركة ، بمعنى أعرست ، أو نكحت . ومنه قوله :

فقُلْتُ إلى الطَّعام فقَالَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ نَحْسُدُ الإنْسَ الطَّعامَا [٢]

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : « الباء فى البسملة تتعلق بمحذوف تقديره : بسم الله أقرأ أو أتلو » قال أحمد : رحمه الله تعالى : الذى يقدره النحاة «أبتدئ» وهو المختار لوجوه : الأول : أن فعل الابتداء يصح تقديره فى كل بسملة ابتدئ بها فعل ما من الأفعال خلاف فعل القراءة ، والعام صحة تقديره أولى أن يقدر ، ألا تراهم يقدرون متعلق الجار الواقع خبراً أو صفة أو صلة أو حالا بالكون والاستقرار حيثما وقع ويؤثرونه لعموم صحة تقديره ، والثانى : أن تقدير فعل الابتداء مستقل بالغرض من البسملة إذ الغرض منها أن تقع مبدأ فتقدير فعل الابتداء أوقع بالمحل ، وأنت إذا قدرت «أقرأ» فإنما تعنى أبتدئ القراءة والواقع فى أثناء التلاوة قراءة أيضا لكن البسملة غير مشروعة فى غير الابتداء . ومنها ظهور فعل الابتداء فى قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) . وقال عليه السلام : « كل أمر خطير ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر » . ولا يعارض هذا ما ذكره من ظهور فعل القراءة فى قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) فان فعل القراءة إنما ظهر ثم لأن الأهم هو القراءة غير منظور إلى الابتداء بها . ألا ترى إلى تقدم الفعل فيها على متعلقه لأنه الأهم ولا كذلك فى البسملة ؛ فان الفعل المقدر كائنا ما كان إنما يقدر بعدها ، ولو قدر قبل الاسم لفات الغرض من قصد الابتداء إذاً على أنه الأهم فى البسملة ، فوجب تقديره ، وسيأتى الكلام على هذه النكتة .

(٢)
ونار قد حضأت بعيد وهن بدار ما أريد بها مقاما
سوى ترحيل راحلة وعين أكالئها مخافة أن تناما
أتوا نارى فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الانس الطعاما
لقد فضلتم فى الأكل فينا ولكن ذاك يعقبكم سقاما

لسمير بن الحارث الضبي ، وقيل لتأبط شراً ، وقيل لشمر الغسانى ، وقيل للفرزدق يصف نفسه بالجرأة واقتحام المخاوف . يقول : ورب نار قد حضأتها بالحاء المهملة : أشعلتها وسعرتها ، وقيل هو خضأتها ، بالمعجمة ، ولا أعلمه وإن ذكره بعض النحاة فى باب الحكاية ، وبعيد : تصغير بعد ، والوهن والموهن : بمعنى الفتور أو النوم أو هدوء الصوت ، وقيل : نحو نصف الليل . أى أوقدتها فى جوف الليل فى مفازة لا أريد إقامة بها سوى تجهيز ما يلزم لراحلتى فى السفر ولأجل عين أكالئها أى أساهرها أو أحافظها ، فأنا أحفظها من النوم وهى تحفظنى من العدو ، والضمير فى أتوا : لهم . ومنون استفهام ، وكان حقه : من أنتم ، لأنه لا يأتى بصورة الجمع إلا فى الوقف ، والأصل فى نونه الأخيرة السكون ═

فإن قلت : لم قدّرت المحذوف متأخراً ؟ [1] قلت : لأنّ الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به ، لأنهم كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات ، باسم العزى ، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله : (إياك نعبد) ، حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص . والدليل عليه قوله : (بسم الله مجراها ومرساها) . فإن قلت : فقد قال : (اقرأ باسم ربك) ، فقدّم الفعل . قلت : هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أوّل سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم . فإن قلت : مامعنى تعلق اسم الله بالقراءة ؟ [2] قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتبة في قولك : كتبت بالقلم ، على معنى أن المؤمن لما اعتقد أنّ فعله لا يجيء معتدا به في الشرع واقعا على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله عليه الصلاة والسلام : « كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه

= للوزن ، على أن إجراء الوصل مجرى الوقف كثير في النظم كما صرحوا به وجعلوا هذا منه ، وكأن هناك قول مقدر مثل « جئناك » لحكى إعراب ضمير الفاعل فيه حتى يظهر استشهاد يونس به في الحكاية . فقالوا : نحن الجن . وكان الظاهر : فقلت عموا . ولكن أتى به مستأنفاً جواب سؤال مقدر تقديره : فما ذا قلت لهم؟ فقال : قلت عموا ، أي تنعموا في وقت الظلام ، وعطف قوله « فقلت » بالفاء دلالة على التعقيب . وأما رواية « عموا صباحا » فمن قصيدة أخرى تعزى إلى خديج بن سنان الغساني ومنها :

نزلت بشعب وادي الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناحا

وشبه الليل بطائر ، فأثبت له ما للطائر . أو شبه الظلمة بالجناح . وقوله « إلى الطعام » أي هلموا وأقبلوا إليه . دل المقام على ذلك ، فقال زعيم منهم ، أي سيد وشريف : نحن نحسد الانس في الطعام أو على الطعام ، فهو نصب على نزع الخافض . ويجوز أنه بدل ، ويجيء « حسد » متعديا لاثنين ، والطعاما : مفعوله الثاني . وقال الجوهري : الأنس هنا بالتحريك : لغة في الانس . ويجوز قراءته « الانس » على اللغة المشهورة . لقد فضلتم عنا في الأكل حال كونكم فينا أي فيما بيننا ، ولكن ذلك يلحقكم سقاما في العاقبة . وهذا كله من أكاذيب العرب .

(١) قال محمود : « لم قدرت المحذوف متأخراً .. إلخ » قال أحمد رحمه الله : لأنك لو ابتدأت بالفعل في التقدير لما كان الاسم مبتدأ به فيفوت الغرض من التبرك باسم الله تعالى أول نطقك . وأما إفادة التقديم الاختصاص ففيه نظر سيأتي إن شاء الله تعالى .

(٢) قال محمود : « فإن قلت مامعنى تعلق اسم الله تعالى بالقراءة ... إلخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : وفي قوله « إن اسم الله هو الذي صير فعله معتبراً شرعا » حيد عن الحق المعتقد لأهل السنة في قاعدتين : إحداهما أن الاسم هو المسمى ، والأخرى أن فعل العبد موجود بقدرة الله تعالى لا غير ؛ فعلى هذا تكون الاستعانة باسم الله معناها اعتراف العبد في أول فعله بأنه جار على يديه ، وهو محل له لا غير ؛ وأما وجود الفعل فيه فبالله تعالى أي بقدرته تسليما لله في أول كل فعل ؛ والزمخشري رحمه الله لا يستطيع هذا التحقيق لاتباعه الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين ، فيعتقد أن اسم الله تعالى الذي هو التسمية معتبر في شرعية الفعل لا في وجوده ؛ إذ وجوده على زعمه بقدرة العبد ، فعلى ذلك بنى كلامه . أقول : دعواه أن عند أهل السنة الاسم غير المسمى ممنوعة ، وتحقيقه قد ذكر في غير هذا الكتاب .

باسم الله فهو أبتر »[1] إلا كان فعلا كلا فعل، جعل فعله مفعولا باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم. والثانى أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات[2] فى قوله: (تنبت بالدهن) على معنى: متبركا باسم الله أقرأ، وكذلك قول الداعى للمعرس: بالرفاء والبنين، معناه أعرست ملتبسا بالرفاء والبنين، وهذا الوجه أعرب وأحسن؛ فإن قلت: فكيف قال الله تبارك وتعالى متبركا باسم الله أقرأ؟ قلت: هذا مقول على ألسنة العباد، كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك: (الحمد لله رب العالمين ـ إلى آخره)، وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه ويمجدونه ويعظمونه. فإن قلت: من حق حروف المعانى التى جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التى هى أخت السكون، نحو كاف التشبيه ولام الابتداء وواو العطف وفائه وغير ذلك، فما بال لام الإضافة وبائها بنيتا على الكسر؟ قلت: أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء، وأما الباء فلكونها لازمة للحرفية والجر، والاسم أحد الأسماء العشرة التى بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة، لئلا يقع ابتداؤهم بالساكن إذا كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة، ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة، وإذا وقعت فى الدرج لم تفتقر إلى زيادة شىء. ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سم وسم. قال:

* بِاسْمِ الذِي فى كلِّ سُورةٍ سِمُهْ *[3]

---

(١) لم أره هكذا. والمشهور فيه حديث أبى هريرة من رواية قرة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع » أخرجه أبو عوانة فى صحيحه، وأصحاب السنن. ولأحمد من هذا الوجه « لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع » وللخطيب فى الجامع من طريق مبشر بن إسماعيل عن الزهرى بلفظ « لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » والراوى له عن مبشر ـ مجهول

(٢) قوله « تعلق الدهن بالانبات » هذا يناسب قراءة « تنبت » من أنبت الرباعي: كما يأتى. (ع)

(٣)
باسم الذى فى كل سورة سمه قد وردت على طريق تعلمه
أرسل فيها بازلا يقرمه فهو بها ينحو طريقاً يعلمه

لرؤبة بن العجاج يصف إبلا. ولفظ « اسم » من الألفاظ العشرة التى سمع بناء أوائلها على السكون كابن وامرىء، فاذا ابتدءوا بها زادوا همزة الوصل ولا حاجة لها فى الدرج، وسمع تحريك أول بعضها كما فى سمه بتثليث أوله. وباسم متعلق بأرسل وباؤه للملابسة. وضمير وردت للسورة. وضمير تعلمه بالفوقية لله على طريق الالتفات إلى الخطاب، ويمكن أنه لمخاطب مبهم، وعلى روايته بالتحتية فالضمير لله فقط. ويحتمل من بعد أن ضمير وردت للابل فكذلك تعلمه بالفوقية، وأما بالتحتية فضميره لله أو للراعى. والبازل: الذى انشق نابه من الابل وذلك فى السنة التاسعة وربما بزل فى الثامنة. وقرم إلى اللحم ونحوه: اشتاق إليه. والتقريم والاقرام: التشويق ===

وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز : كيد ودم ، وأصله : سمو ، بدليل تصريفه : كأسماء ، وسمى ، وسميت . واشتقاقه من السمو ، لأنّ التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره ، ومنه قيل للقب النبز : من النبز بمعنى النبر ، وهو رفع الصوت . والنبز قشر النخلة الأعلى . فإن قلت : فلم حذفت الألف فى الخط وأثبتت فى قوله : باسم ربك ؟ قلت : قد اتبعوا فى حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذى عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال ، وقالوا : طولت الباء تعويضا من طرح الألف . وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكاتبه : طوّل الباء وأظهر السنات ودوّر الميم . و ﴿الله﴾ أصله الإله . قال :

* مَعَاذَ الإِلٰهِ أَنْ تَكُونَ كَظَبْيَةٍ *[1]

ونظيره : الناس ، أصله الأناس . قال :

إِنَّ الْمَنَايَا يَطَّلِعْـ نَ عَلَى الأُنَاسِ الآمِنِينَا[2]

فحذفت الهمزة وعوّض منها حرف التعريف ، ولذلك قيل فى النداء : يا أَلله بالقطع ، كما يقال :

= إليه والجملة حال من الراعى المرسل أو صفة لبازل ، وعليه فلم يبرز ضمير الفاعل لأمن اللبس . فهو أى البازل ؛ وينحو : أى يقصد بها ، والباء للظرفية أو للتعدية إلى المفعول به كذهبت بزيد ، ويجوز أن الضمير للراعى فالباء للتعدية فقط . وروى «نزلت» بدل «وردت» وهو يؤيد جعل الضمير للسورة ، وروى البيت الثانى قبل الأول . والمعنى أرسل فيها الراعى ملتبساً بذكر اسم الله بازلا حال كونه يشوقه إليها باعفائه من العمل وحبسه عن الابل ثم إرساله فيها ، فذلك البازل يقصد بها طريق يعرفه وهو طريق الضراب ، وعلم ما لا يعقل مجاز عن اهتدائه إلى منافعه ، على طريق الاستعارة التصريحية والمجاز المرسل ، أو شبهه بالعاقل على طريق المكنية ، فالعلم تخييل لذلك التشبيه . وكون اسمه تعالى فى كل سورة ظاهر على القول بأن البسملة آية من كل سورة ، وإلا ورد مثل سورة العصر . وربما يدفع إيطاء القافية باختلافها فى الفاعل وفى معنى المفعول وفى الحقيقة والمجاز .

(١) معاذ الاله أن تكون كظبية ولا دمية ولا عقيلة ربرب
ولكنها زادت على الحسن كله كمالا ومن طيب على كل طيب

للبعيث بن حريث فى محبوبته أم السلسبيل ، يقال : عاذ عياذاً وعياذة ومعاذاً وعوذاً ، إذا التجأ إلى غيره ، فالمعاذ مصدر نائب عن اللفظ بفعله ، والدمية : الصنم والصورة من العاج ونحوه المنقوشة بالجواهر . وعقيلة كل شىء : أكرمه . والربرب : القطيع من بقر الوحش : شبه محبوبته بالظبية وبالدمية وبالعقيلة فى نفسه ، ثم وجدها أحسن منها فرجع عن ذلك والتجأ إلى الله منه كأنه أثم ؛ أو المعنى لا أشبهها بذلك وإن وقع من الشعراء . وأتى بلا المؤكدة لما قبلها من معنى النفى أى ليست كظبية ولا دمية ولا عقيلة ربرب ولكنها زادت كمالا على الحسن المعروف كله ، أو زادت على الحسن الحسى كمالا معنويا ، وزادت من الطيب على كل طيب .

(٢) شبه المنايا بأناس يبحثون عمن استحق الموت على طريق المكنية والاطلاع تخييل . والمعنى : أن المنايا تأتى الناس على حين غفلة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها . والأناس : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من الايناس وهو الابصار لظهورها ، أو من الأنس ضد الوحشة . والآمنون : الغافلون عن مجىء المنايا ، فهو مجاز مرسل .

ياإله ، والإله ـ من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ـ اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق ، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا ، وكذلك السنة على عام القحط ، والبيت على الكعبة ، والكتاب على كتاب سيبويه . وأما (الله) بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق ، لم يطلق على غيره . ومن هذا الاسم اشتق: تأله ،وأله، واستأله . كما قيل: استنوق ، واستحجر ، فى الاشتقاق من الناقة والحجر . فإن قلت : أاسم هو أم صفة ؟ قلت : بل اسم غير صفة ، ألا تراك تصفه ولا تصف به ، لاتقول : شىء إله ، كما لاتقول : شىء رجل . وتقول : إله واحد صمد ، كما تقول : رجل كريم خير . وأيضا فإنّ صفاته تعالى لا بدّ لها من موصوف تجرى عليه ، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال . فإن قلت : هل لهذا الاسم اشتقاق ؟ قلت : معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعدا معنى واحد ، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم : أله ، إذا تحير ، ومن أخواته: دله، وعله ، ينتظمهما معنى التحير والدهشة ، وذلك أنّ الأوهام تتحير فى معرفة المعبود وتدهش الفطن ، ولذلك كثر الضلال ، وفشا الباطل ، وقل النظر الصحيح . فإن قلت : هل تفخم لامه ؟ قلت : نعم قد ذكر الزجاج أنّ تفخيمها سنة ، وعلى ذلك العرب كلهم ، وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابرا عن كابر .

و﴿الرحمن﴾ فعلان من رحم ، كغضبان وسكران، من غضب وسكر ، وكذلك الرحيم فعيل منه، كمريض وسقيم، من مرض وسقم ، وفى (الرحمن) من المبالغة ما ليس فى (الرحيم) ، [1] ولذلك قالوا : رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيم الدنيا ، ويقولون : إنّ الزيادة فى البناء لزيادة المعنى . وقال الزجاج فى الغضبان : هو الممتلىء غضبا . ومما طنّ على أذنى من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقدف ، وهو مركب خفيف ليس فى ثقل محامل العراق ، فقلت فى طريق الطائف لرجل منهم : مااسم هذا المحمل؟أردت المحمل العراقى ، فقال : أليس ذاك اسمه الشقدف ؟ قلت : بلى ، فقال : هذا اسمه الشقنداف ، فزاد فى بناء الاسم لزيادة المسمى ، وهو من الصفات الغالبة ـ كالدبران ، والعيوق ، والصعق ـ لم يستعمل فى غير الله عزّ وجلّ ، كما أنّ (الله) من الأسماء

---

(١) قال محمود : « وفى الرحمن من المبالغة ماليس فى الرحيم... الخ » . قال أحمد رحمه الله : لا يتم الاستدلال بقصر البناء وطوله على نقصان المبالغة وتمامها ، ألا ترى بعض صيغ المبالغة كفعل أحد الأمثلة أقصر من فاعل الذى لامبالغة فيه البتة . وأما قولهم : رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ، فلا دلالة فيه أيضا على مبالغة رحمن بالنسبة إلى رحيم ؛ فإن حاصله أن الرحمة منه بالدلالة على إتمامها ؛ ألا ترى أن ضاربا لما كان أعم من ضراب، كان ضراب أبلغ منه لخصوصه ، فلا يلزم إذاً من خصوص رحيم أن يكون أقصر مبالغة من رحمن لعمومه .

الغالبة . وأما قول بنى حنيفة فى مسيلمة : رحمان اليمامة ، وقول شاعرهم فيه :

* وأَنْتَ غَيْثُ الوَرَى لازِلْتَ رَحْمَانَا * (١)

فباب من تعنتهم فى كفرهم . فإن قلت : كيف تقول : الله رحمن ، أتصرفه أم لا ؟ (١) قلت : أقيسه على أخواته من بابه ، أعنى نحو عطشان وغرثان وسكران ، فلا أصرفه .

---

(١) سموت بالمجد يابن الأكرمين أبا   وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

لرجل من بنى حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب ، يقول : علوت بسبب المجد يابن الأكرمين من جهة الأب ، وليس المراد خصوصه ، بل مطلق الأصل ، ولو كان المراد خصوصه لأشعر بالذم ، وهو تمييز الأكرمين أو تمييز لسموت ، وأنت كالغيث للورى فى كثرة النفع ، ولا زلت رحمانا : دعا بدوامه رحيما عليهم ؛ ورحمن خاص بالله فاطلاقه على غيره جهل أو عناد . وقيل : إن الخاص به المحلى بأل .

(٢) قال محمود رحمه الله تعالى : «فان قلت كيف تقول الله رحمن أتصرفه أم لا ... الخ» ؟ قال أحمد : ليت شعرى بعد امتناع فعلانة وفعلى ما الذى عين قياسه على عطشان دون ندمان مع أن قياسه على ندمان معتضد بالأصل فى الأسماء وهو الصرف ؟ أقول : الذى عينه هو أن باب سكران وعطشان أكثر من باب ندمان ، وإذا احتمل أن يكون من كل واحد منهما لحمله على ماهو الأكثر أولى ؛ ولأن رحمن وعطشان مشتركان فى عدم وجود فعلانة، بخلاف ندمان فلهذا كان حمله على عطشان أولى ، ثم قال : وقد نقل غيره خلافا فى صرف رحمن مجرداً من التعريف، وبناه على تعيين العلة فى منع صرف عطشان هل هى وجود فعلى فيصرف رحمن ، أو امتناع فعلانة فيمتنع الصرف ؟ وهو أيضاً نظر قاصر . وأتم منهما أن يقال : امتنع صرف عطشان وفاقا وامتناع صرفه معلل بشبه زيادتيه بألفى التأنيث ، والشبه دائر على وجود فعلى وامتناع فعلانة ؛ فاما أن يجعل الأمران وصفى شبه بهما بمجموعهما مستقل ، أو كل واحد منهما مستقلا ببيان الشبه ، أو أحدهما دون الآخر على البدل ؛ فهذه أربع احتمالات. فان كان مقتضى الشبه المجموع أو وجود فعلى خاصة انصرف رحمن ، وإن كان كل واحد من الأمرين مستقلا أو الشبه بامتناع فعلانة خاصة منع رحمن من الصرف ؛ فلم يبق إلا تعيين ما به حصل الشبه فى عطشان بين زيادتيه وبين ألفى التأنيث من الاحتمالات الأربعة، وعليه ينبنى الصرف وعدمه . والتحقيق أن كل واحد من الأمرين المذكورين مستقل باقتضاء الشبه فيمتنع صرف رحمن لوجود إحدى العلتين المتعلقتين فى الشبه وهى امتناع فعلانة على هذا التقدير؛ وإنما قلنا ذلك لأن امتناع فعلانة فيه حاصله امتناع دخول تاء التأنيث على زيادتيه كامتناع دخولها على ألفى التأنيث لحصل الشبه بهذا الوجه . ووجود فعلى يحقق أن مذكره مختص ببناء ومؤنثه مختص ببناء آخر ، فيشبه أفعل وفعلى فى اختصاص كل واحد منهما ببناء غير الآخر، فهذا وجه آخر من الشبه . ومن تأمل كلام سيبويه فهم منه ماقررته . فان قيل : يحصل ذلك مناسبة كل واحد من الأمرين المذكورين لاقتضاء الشبه ، فما الذى دل على استقلال كل واحد منهما علة فى الشبه ؟ وهلا كان المجموع علة وحينئذ ينصرف رحمن وهو أحد الاحتمالات الأربعة المتقدمة ؟ قلت : امتناع صرف عمران العلم يدل على استقلال كل واحد من الأمرين بالشبه المانع من الصرف ؛ إذ عمران علما لا فعلى له وهو غير منصرف وفاقا . أقول: قد عثر ههنا رحمه الله وإن الجواد قد يعثر لأن اعتبار وجود فعلى أو انتفاء فعلانة إنما كان فى الصفة ، أما فى الاسم فشرطه العلمية لا وجود فعلى ولا انتفاء فعلانة .

فإن قلت : قد شرط فى امتناع صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان فعلى ، فلم تمنعه الصرف ؟ قلت : كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشى فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلانة كندمانة ، فإذاً لا عبرة بامتناع التأنيث للاختصاص العارض فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص وهو القياس على نظائره . فإن قلت : مامعنى وصف الله تعالى بالرحمة [1] ومعناها العطف والحنو ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها ؟ قلت : هو مجاز عن إنعامه على عباده ؛ لأنّ الملك إذا عطف على رعيته ورق لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه ، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعروفه . فإن قلت : فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ماهو دونه ، [2] والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم : فلان عالم نحرير، وشجاع باسل ، وجواد فياض ؟ قلت : لما قال (الرحمن) فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه (الرحيم) كالتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها ولطف .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

الحمد والمدح أخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها . تقول : حمدت الرجل على إنعامه ، وحمدته على حسبه وشجاعته .

وأمّا الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّى ثَلاثَةً يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا[3]

(١) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت : مامعنى وصف الله تعالى بالرحمة...الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : فالرحمة على هذا من صفات الأفعال ولك أن تفسرها بإرادة الخير فيرجع إلى صفات الذات وكلا الأمرين قال به الأشعرية فى الرحمة وأمثالها مما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على الله تعالى ؛ فنهم من صرفه إلى صفة الذات، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت : فلم قدم ماهو أبلغ من الوصفين على ماهو دونه ... إلخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين ؛ لأن فى تقديم أعلاهما ثم الارداف بأدناهما نوعا من التكرار ؛ إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى؛ فذكره بعده غير مفيد ولا كذلك العكس؛ فانه ترق من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم مايستلزمه ، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالاثبات . وأما النفى فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى . تقول : ما فلان نحريراً ولا عالما ، ولو عكست لوقعت فى التكرار؛ إذ يلزم من نفى الأدنى عنه نفى الأعلى وكل ذلك مستمده فى عموم الأدنى وخصوص الأبلغ ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم ، ونفى الأعم يستلزم نفى الأخص .

(٣) وما كان شكرى وافيا بنوالكم ولكننى حاولت فى الجهد مذهبا
أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

أى لم يكن تعظيمي إياكم وافيا بحق عطائكم ، ولكنني أردت من الاجتهاد فى تعظيمكم مذهبا ، وبينه بقوله : إن =

والحمد باللسان وحده ، فهو إحدى شعب الشكر ، ومنه قوله عليه السلام : « الحمد رأس الشكر ، ماشكر الله عبد لم يحمده »[١] وإنما جعله رأس الشكر ؛ لأنّ ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها ، أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب ، ومافى عمل الجوارح من الاحتمال ، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذى يفصح عن كلّ خفى ويجلى كل مشتبه .

والحمد نقيضه الذمّ ، والشكر نقيضه الكفران ، وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذى هو لله وأصله النصب[٢] الذى هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التى تنصبها العرب بأفعال مضمرة فى معنى الإخبار، كقولهم : شكراً ، وكفراً ، وعجباً ، وما أشبه ذلك ، ومنها : سبحانك ، ومعاذ الله ، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدّون بها مسدّها ، لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة ، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره . ومنه قوله تعالى : (قالوا سلاما قال سلام) ، رفع السلام الثانى للدلالة على أنّ إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم ؛ لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدّده وحدوثه . والمعنى : نحمد الله حمداً ، ولذلك قيل : (إياك نعبد وإياك نستعين) ؛ لأنه بيان لحمدهم له ، كأنه قيل : كيف تحمدون؟ فقيل: إياك نعبد . فإن قلت : ما معنى التعريف فيه ؟ قلت : هو نحو التعريف فى أرسلها العراك ،[٣] وهو تعريف الجنس ،

= نعمتكم على أفادتكم من يدى ولسانى وجنانى ، فهى وأعمالها لكم ، قال السيد الشريف : هو استشهاد معنوى على أن الشكر يطلق على أفعال الموارد الثلاثة ، وبيان أنه جعلها جزاء للنعمة ، وكل ما هو جزاء للنعمة عرفا يطلق عليه الشكر لغة ، فكأنه قال : كثرت نعمتكم عندى فوجب على استيفاء أنواع الشكر لكم ، وبالغ فى ذلك حتى جعل مواردها ملكا لهم ، وقيل : النعماء جمع للنعمة ، لكن ظاهر عبارة اليد أنها بمعناها ، ورواية البيت الأول بعد الثانى أحسن موقعا وأظهر استشهاداً .

(١) أخرجه عبد الرازق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما به مرفوعا . وفيه انقطاع ؛ وعن ابن عباس مثله . رواه البغوى فى تفسير (سبحان) وفيه نصر بن حماد . وهو ضعيف .

(٢) قال محمود رحمه الله : « الأصل فى الحمد النصب ... إلخ » قال أحمد : ولأن الرفع أثبت اختار سيبويه فى قول القائل : رأيت زيداً فاذا له علم علم الفقهاء : الرفع ، وفى مثل : رأيت زيداً فاذا له صوت صوت حمار : النصب ، والسر فى الفرق بين الرفع والنصب أن فى النصب إشعاراً بالفعل ، وفى صيغة الفعل إشعار بالتجدد والطرو ، ولا كذلك الرفع ، فانه إنما يستدعى اسما : ذلك الاسم صفة ثابتة ، ألا ترى أن المقدر مع النصب نحمد الله الحمد . ومع الرفع الحمد ثابت لله أو مستقر .

(٣) قال محمود رحمه الله : « وتعريف الحمد نحو التعريف فى أرسلها العراك وهو تعريف الجنس ومعناه الخ » قال أحمد رحمه الله : تعريف التكرار باللام إما عهدى وإما جنسى ، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس باعتبار يميزه عن غيره من الأفراد كالتعريف فى نحو (فعصى فرعون الرسول) ، وإما أن ينصرف العهد فيه الى =

ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو ، والعراك ما هو ، من بين أجناس الأفعال . والاستغراق الذى يتوهمه كثير من الناس وهم منهم . وقرأ الحسن البصرى : (الحمدِ لله) بكسر الدال لإتباعها اللام . وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة : (الحمدُ لُله) بضم اللام لإتباعها الدال ، والذى جسرهما على ذلك ـ والإتباع إنما يكون فى كلمة واحدة كقولهم منحدر الجبل ومغيرة ـ تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالها مقترنتين ، وأشف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التى هى أقوى ، بخلاف قراءة الحسن .

الرب : المالك . ومنه قول صفوان لأبى سفيان : لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن . [(١)] تقول : ربه يربه فهو رب ، كما تقول : نمّ عليه ينمّ فهو نمّ . ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل ، ولم يطلقوا الرب إلا فى الله وحده ، وهو فى غيره على التقييد بالإضافة ، كقولهم : رب الدار ، ورب الناقة ، وقوله تعالى : (ارجع إلى ربك) ، (إنه ربى أحسن مثواى) . وقرأ زيد بن على رضى الله عنهما : (رب العالمين) بالنصب على المدح ، وقيل بما دل عليه (الحمد لله) ، كأنه قيل : نحمد الله رب العالمين .

العالم : اسم لذوى العلم من الملائكة والثقلين ، [(٢)] وقيل : كل ما علم به الخالق من الأجسام

ـــــــــــــــ

= الماهية باعتبار تميزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف فى نحو « أكلت الخبز ، وشربت الماء » ، والجنسى هو الذى ينضم إليه شمول الآحاد ، نحو : الرجل أفضل من المرأة ، وكلا نوعى العهد لا يوجب استغراقها ، وإنما يوجبه الجنسى خاصة ؛ فالزمخشرى جعل تعريف الحمد من النوع الثانى من نوعى العهد ، وإن كان قد عبر عنه بتعريف الجنس ؛ لعدم اعتنائه باصطلاح أصول الفقه . وغير الزمخشرى جعله للجنس فقضى بإفادته ، لاستغراق جميع أنواع الحمد وليس ببعيد .

(١) موقوف . قال ابن إسحاق فى المغازى : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه فى قصة حنين . وفيه قول صفوان هذا . ومن طريقه أخرجه ابن حبان فى صحيحه . والبيهقى فى الدلائل . ورواه جويرية عن مالك عن الزهرى مرسلا . وأخرجه الدارقطنى فى الغرائب .

(تنبيه) وقع فيه أن صفوان قال ذلك لأبى سفيان . والذى فى مرسل الزهرى أنه قال لابن أخيه . والذى فى المغازى : أنه قال لأخيه ابن أمه كلدة . وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن إسحاق .

(٢) قال محمود رحمه الله : « العالم اسم لذوى العلم من الملائكة ...الخ » . قال أحمد رحمه الله : تعليله الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر ؛ فان « عالما » كما قرره : اسم جنس عرف باللام الجنسية ، فصار العالم ـ وهو مفرد ـ أدل على الاستغراق منه جمعاً . قال إمام الحرمين رحمه الله : التمر أحرى باستغراق الجنس من التمور ؛ فإن التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية ، والتمور ترده إلى تخيل الوحدان ، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع ، وفى صيغة الجمع مضطرب . انتهى كلامه . والتحقيق فى هذا وفى كل ما يجمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس : أنه يفيد أمرين : أحدهما أن ذلك الجنس تحته أنواع مختلفة . والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحته منها ؛ لكن المفيد =

والأعراض . فإن قلت : لم جمع ؟ قلت : ليشمل كل جنس مما سمى به . فإن قلت : هو اسم غير صفة ، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما فى حكمها من الأعلام . قلت : ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه وهى الدلالة على معنى العلم .

مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

قرئ : ملك يوم الدين ، ومالك ، وملك بتخفيف اللام . وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه : ملك يوم الدين ، بلفظ الفعل ونصب اليوم ، وقرأ أبو هريرة رضى الله عنه : مالك بالنصب . وقرأ غيره : ملك ، وهو نصب على المدح؛ ومنهم من قرأ : مالك ، بالرفع . وملك : هو الاختيار ، لأنه قراءة أهل الحرمين ، ولقوله : (لمن الملك اليوم) ، ولقوله : (ملك الناس) ، ولأن الملك يعم والملك يخص . ويوم الدين : يوم الجزاء . ومنه قولهم : «كما تدين تدان»[1] وبيت الحماسة :

ـــ لاختلاف الأنواع الجمع ، والمفيد لاستغراق جميعها التعريف ؛ ألا ترى أنه إذا جمع مجردا من التعريف دل على اختلاف الأنواع ، ثم إذا عرف أفاد استغراقا غير موقوف على الجمعية ، إذ هذا حكم مفرده إذا عرف ؛ فقول الزمخشرى إذاً «إن فائدة جمع العالمين الاستغراق» مردود بثبوت هذه الفائدة وإن لم يجمع ؛ وقول إمام الحرمين «إن الجمع يؤيد الاشعار بالاستغراق لما تتخيله من الرد إلى الوجدان» مردود بأن فائدة الجمع الاشعار باختلاف الأنواع ، واختلافها لا ينافى استغراقها بصيغة المفرد المقر من تعريف الجنس ، وإن أراد أن الجمع يخيل الاشارة إلى أنواع محله معهودة فهذا الخيال بعينه من المفرد ، فالعالم إذاً جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والانس والملائكة ، وعرف ليفيد عموم الربوبية لله تعالى فى كل أنواعه ؛ وتوضيح هذا التقرير : أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا آحاد متساوية وهو الذى يسميه غير النحاة النوع الأسفل ، لما جاز جمع هذا بحال ، لا معرفا ولا منكراً ، وبهذه الفائدة يرد قول إمام الحرمين « إن التمور جمع من حيث اللفظ » لا معنى تحته لجمع الجمع فى نحو نوق ونياق وأنيق ؛ وأما تعليل الزمخشرى جمعه بالواو والنون باشعاره لصفة العلم فيلحق بصفات من يعقل ، فصحيح إذا بنى الأمر على أنه لا يتناول إلا أولى العلم : وأما على القول بأنه اسم لكل موجود سوى الله ، فيحتاج إلى مزيد نظر فى تغليب العاقل فى الجمع على غير العاقل

(١) هو طرف من حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبى قلابة مرسلا . هكذا أخرجه البيهقى فى الزهد ؛ ورواه الامام أحمد عن عبد الرزاق بسنده عن أبى قلابة عن أبى الدرداء ، وهذا منقطع مع وقفه . وله شاهد موصول من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، أخرجه ابن عدى فى ترجمة محمد بن عبد الملك وضعفه . قلت : وأخرج ابن أبى عاصم فى السنة عن أبى أيوب الجبائرى عن سعيد بن موسى عن رباح بن زيد عن معمر عن الزهرى عن أنس حديثا موضوعا، وفيه : إن الله تعالى قال « ياموسى كما تدين تدان » والمتهم

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا[١]

فإن قلت : ماهذه الإضافة ؟ قلت : هى إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع ، مُجرى مَجرى المفعول به كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار ، والمعنى على الظرفية . ومعناه : مالك الأمر كله فى يوم الدين ، كقوله : (لمن الملك اليوم) . فإن قلت : فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف ، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة ؟ قلت : إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال ، فكان فى تقدير الانفصال ، كقولك : مالك الساعة ، أو غدا . فأمّا إذا قصد معنى الماضى ، كقولك : هو مالك عبده أمس ، أو زمان مستمرّ ، كقولك : زيد مالك العبيد ، كانت الإضافة حقيقية ، كقولك : مولى العبيد ، وهذا هو المعنى فى (مالك يوم الدين) ، ويجوز أن يكون المعنى : ملك الأمور يوم الدين ، كقوله : (ونادى أصحاب الجنة) ، (ونادى أصحاب الأعراف) ، والدليل عليه قراءة أبى حنيفة : (مَلَكَ يومَ الدين) ، وهذه الأوصاف التى أجريت على الله سبحانه ـ من كونه ربا مالكا للعالمين لا يخرج منهم شىء من ملكوته وربوبيته ، ومن كونه منعما بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق ، ومن كونه مالكا الأمر كله فى العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة

---

(١)
صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان
فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

لشهل بن شيبان بن ربيعة . وليس فى العرب شهل بالمعجمة غيره هو وشهل بن أنمار بن أراش . يقول : صفحنا عن بنى ذهل رحمة بهم لعلهم يرجعون ، فلما ظهر الشر بيننا وبالغ فى الظهور حتى كأنه رجل عريان عن ثيابه ، فشبه الشر بانسان على طريق المكنية وأثبت له العرى تخييلا . ويروى : وهو غرثان ، أى : جائع ، فهو على التشبيه أيضا . وقيل : أراد بالشر : السيف ، وعريه : تجرده عن غمده . وزيدت الواو قبل الجملة الواقعة خبر لأمسى لتأكيد الربط ، تشبيها لها بالجملة الواقعة حالا ، ولم يبق بيننا سوى عدوان بعضنا على بعض ، أو سوى عدوانهم علينا جازيناهم كما ظلمونا ، وسمي الثانى دينا مشاكلة ، وهى مجاز لعلاقة المجاورة وقسم برأسه خلاف بين القوم ، ومذهب الجمهور أن سوى لا تخرج عن النصب على الظرفية المكانية إلا فى الضرورة كما هنا ، ومذهب ابن مالك كالزجاجي أنها بمعنى غير فتتصرف فى الاختيار ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « سألت الله أن لا يسلط على أمتى عدوا من سوى أنفسها » وقول بعض العرب : أتانى سواك ، أى : غيرك . وصرح صراحا بالتحريك : خلص خلوصا وظهر ، وصرح تصريحا : خلص تخليصا وأظهر ، فما هنا من الأول . ويروى بدل الشطر الثانى : بدا والشر عريان ، وفيه إظهار الشر فى مقام الاضمار ، و « بدا » بدل من صرح ، وفيه تبيين وتفسير لمعناه ، وأما جواب « لما » فهو قوله : دناهم كما دانوا .

على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق فى قوله الحمد لله ـ دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

(إيا) ضمير منفصل للمنصوب ، واللواحق التى تلحقه من الكاف والهاء والياء فى قولك : إياك ، وإياه ، وإياى ، لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب ، كما لا محل للكاف فى أرأيتك ، وليست بأسماء مضمرة ، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون ، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب : « إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب » فشىء شاذ لا يعول عليه ، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : (قل أفغير الله تأمرونى أعبد) ، (قل أغير الله أبغى ربا) . والمعنى نخصك بالعبادة ، ونخصك بطلب المعونة . وقرئ : إياك بتخفيف الياء ، وأياك بفتح الهمزة والتشديد ، وهياك بقلب الهمزة هاء . قال طفيل الغنوى :

فَهِيَّاكَ والأَمْرَ الَّذِى إِنْ تَرَاحَبَتْ مَوَارِدُهُ ضاقَتْ عليْكَ مَصادِرُهْ [1]

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل . ومنه ثوب ذو عبدة إذا كان فى غاية الصفاقة وقوة النسج ، ولذلك لم تستعمل إلا فى الخضوع لله تعالى ، لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع . فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟ قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان قد يكون [2] من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ،

---

(١) لمضرس بن ربعي ، وقيل لطفيل ، وهياك : أصله إياك ، قلبت همزته هاء ، وهو فى محل نصب بمحذوف وجوبا ، والأمر : عطف عليه ، والأصل : احذر تلاق نفسك والأمر فحذف ما عدا ضمير الخطاب وما عطف عليه لكثرة الاستعمال . ولأن مقام التحذير يقتضى السرعة وإيجاز الكلام ، وقيل أصله : باعد نفسك من الأمر وباعد الأمر من نفسك ، فحذف لذلك ، وشبه أسباب الدخول فى الأمر بالموارد : أى مواضع الورود إلى نحو الماء ، وأسباب الخروج منه بالمصادر : أى مواضع الصدور : أى الرجوع ، فكل منهما استعارة تصريحية ، وأما تشبيه الأمر بشىء له موارد ومصادر كالماء على طريقة المكنية ، فهو خارج عن قانون البيان ؛ لأن الأمر يطلق على كل شىء ، فتخصيصه بغير نحو الماء ثم تشبيهه به . بالقصد لا بالوضع . ويروى هكذا :

فاياك والأمر الذى إن توسعت مواردة ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

أى فليس عذر المرء لنفسه حسناً : أى قبوله لاعتذارها بعد وقوعها فى الورطة ، وقوله : وليس له الخ : جملة حالية وعلى هذا فحقه حرف الراء .

(٢) قوله « فى علم البيان قد يكون » لعله وقد ، وعبارة النسفى : وهو قد يكون . (ع)

كقوله تعالى : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) . وقوله تعالى : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه) . وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات فى ثلاثة أبيات : [١]

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْمَدِ ونَامَ الخَلِيُّ ولَمْ تَرْقُدِ
وبَاتَ وباتَتْ لهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلةِ ذِى العائِرِ الأَرْمَدِ
وذلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِى وخُبِّرْتُهُ عنْ أَبِى الأَسْوَدِ [٢]

وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه ، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، وقد تختص مواقعه بفوائد . ومما اختص به هذا الموضع : أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات ، فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة ، لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به . فإن قلت : لم قرنت الاستعانة بالعبادة ؟ قلت : ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته . فإن قلت : فلم قدّمت العبادة على الاستعانة ؟ [٣] قلت : لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة

---

(١) قال محمود رحمه الله : « وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات فى ثلاثة أبيات ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : يعنى أنه ابتدأ بالخطاب ثم التفت إلى الغيبة ، ثم إلى التكلم وعلى هذا فهما التفاتان لا غير ، وإنما أراد الزمخشرى والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب : خطاب لحاضر ، وغائب ، ولنفسه ، فوهم بقوله ثلاث التفاتات ، أو تجعل الأخير ملتفتا التفاتين عن الثانى وعن الأول فيكون ثلاثا ، والأمر فيه سهل .

(٢) لامرىء القيس بن حجر الجاهلى ، وقال ابن هشام : هو غلط ، وقائله امرؤ القيس بن عابس الصحابى ، وقيل لعمرو بن معديكرب ، والأثمد كأحمد ، وقد تضم ميمه ، وقد يروى بكسرها : اسم موضع ، والعائر اسم جامد يطلق على قذى تدمع منه العين ، وعلى الرمد ، وعلى كل ما أعل العين ، وفى الشعر ثلاث التفاتات ، لكن الأول على مذهب السكاكى فقط : وهو أنه كان الظاهر التعبد بطريق التكلم فالتفت إلى الخطاب وذلك فى البيت الأول . والثانى : عدوله عن الخطاب إلى الغيبة فى الثانى . والثالث : التفاته عن الغيبة إلى التكلم فى الثالث . والجمهور يجعلون الأول من قبيل التجريد . وأبو الأسود : كنية صاحب الشاعر الذى يرثيه ، وقيل هو المخبر واسمه ظالم بن عمرو وهو عم امرىء القيس . وقيل أبى مضاف لياء المتكلم والأسود صفته ، ويروى : عن بنى الأسود .

(٣) قال محمود رحمه الله : « فان قلت لم قدمت العبادة على الاستعانة ... الخ » . قال أحمد : معتقد أهل السنة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء ـ تعالى الله عن ذلك ـ والثواب عندنا ـ من الاعانة فى الدنيا على العبادة ومن صنوف النعيم فى الآخرة ـ ليس بواجب على الله تعالى ، بل فضل منه وإحسان . وفى الحديث « أنه عليه الصلاة والسلام قال : =

ليستوجبوا الإجابة إليها . فإن قلت : لم أطلقت الاستعانة ؟ قلت : ليتناول كل مستعان فيه ، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ، ويكون قوله : (اهدنا) بيانا للمطلوب من المعونة ، كأنه قيل: كيف أعينكم ؟ فقالوا : اهدنا الصراط المستقيم ، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض . وقرأ ابن حبيش : نستعين ، بكسر النون .

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦)

هدى أصله أن يتعدى باللام أو بإلى ، كقوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ، (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ، فعومل معاملة ـ اختار ـ فى قوله تعالى : (واختار موسى قومه) . ومعنى طلب الهداية ـ وهم مهتدون ـ طلب زيادة الهدى بمنح الإلطاف ، كقوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . وعن على وأبىّ رضى الله عنهما : اهدنا ثبتنا ، وصيغة الأمر والدعاء واحدة ، لأنّ كل واحد منهما طلب ، وإنما يتفاوتان فى الرتبة . وقرأ عبد الله : أرشدنا .

﴿السراط﴾ الجادة ، من سرط الشيء إذا ابتلعه ، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه ، كما سمى : لقما ، لأنه يلتقمهم . والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء ، كقوله : مصيطر ، فى مسيطر ، وقد تشم الصاد صوت الزاى ، وقرئ بهنّ جميعا ، وفصاحهنّ إخلاص الصاد ، وهى لغة قريش وهى الثابتة فى الإمام ، ويجمع سرطا ، نحو كتاب وكتب ، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل ، والمراد طريق الحق وهو ملة الإسلام .

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الصراط المستقيم ، وهو فى حكم تكرير العامل ، كأنه قيل : اهدنا الصراط المستقيم ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، كما قال : (الذين استضعفوا لمن آمن منهم). فإن قلت : مافائدة البدل ؟ وهلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ؟ قلت : فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير ، والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره :

ـــ لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » مضافا إلى دليل العقل المحيل أن يجب على الله تعالى شيء ، لكن قام الدليل عقلا وشرعا على أنه تعالى لا يجب عليه شيء ، فقد قام عقلا وشرعا على أن خبره تعالى صدق ووعده حق ، أى يجب عقلا أن يقع ، فاما أن يكون الزمخشرى تسامح فى إطلاق الاستيجاب وأراد وجوب صدق الخبر ، وإما أن يكون أخرجه على قواعد البدعية فى اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى وإن لم يكن وعد .

صراط المسلمين ؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده ، كما تقول : هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ؟ فلان ؛ فيكون ذلك أبلغ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك : هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل ، لأنك ثنيت ذكره مجملا أولا ، ومفصلا ثانيا ، وأوقعت فلانا تفسيراً وإيضاحا الأكرم الأفضل فجعلته علما فى الكرم والفضل ، فكأنك قلت : من أراد رجلا جامعا للخصلتين فعليه بفلان ، فهو المشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولامنازع . والذين أنعمت عليهم : هم المؤمنون ، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام ؛ [1] لأنّ من أنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه . وعن ابن عباس : هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا ، وقيل هم الأنبياء . وقرأ ابن مسعود : (صراط من أنعمت عليهم)

﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم ، على معنى أنّ المنعم عليهم : هم الذين سلموا من غضب الله والضلال ، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال . فإن قلت : كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرّف وإن أضيف إلى المعارف ؟ قلت : (الذين أنعمت عليهم) لاتوقيت فيه كقوله :

* وَلَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيمِ يَسُبُّنِى * [2]

---

(١) قال محمود رحمه الله : وأطلق الانعام ليشمل كل إنعام . قال أحمد رحمه الله : إن إطلاق الانعام يفيد الشمول كقوله : إن إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه ، وليس بمسلم فان الفعل لاعموم لمصدره ، والتحقيق أن الاطلاق إنما يقتضى إبهاما وشيوعا ، والنفس إلى المبهم أشوق منها إلى المقيد لتعلق الأمل مع الابهام لكل نعمة تخطر بالبال

(٢) ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثمة قلت لايعنينى
غضبان ممتلىء على إهابه إنى وربك سخطه يرضينى

لرجل من بنى سلول ، ويسبنى صفة للئيم وإن قرن بأل ، لأنه ليس المراد لئيما بعينه بدليل مقام التمدح فأل فيه للعهد الذهنى لا الخارجي ، ومدخولها فى المعنى كالنكرة ، فجاز وصفه بالجملة وإن كانت لايوصف بها إلا النكرة ، وهذا يفيد اتصافه بالسب دائما لاحال المرور فقط وهو المراد ، وكان الظاهر أن يقول : فأمضى ثم أقول ، ولكن أتى بالماضى دلالة على تحقق ذلك منه ، وروى : فأعف ثم أقول : أى أكف عنه وعن مكافأته ، ويحتمل أنه أراد صررت على صيغة الماضى بالمضارع لحكاية الحال ، هذا والظاهر أن الجملة حالية ، أى : أمر على اللئيم حال كونه يسبنى وأنا أسمع فأعرض عنه وأقول إنه لايقصدنى بذلك السب الذى سمعته منه ، وليس المراد وصفه بالسب الدائم ، لأنه لايظهر مع تخصيص السب بوقوعه على ضمير المار ، على أنه يمكن جعل الحال لازمة فتفيد الدوام . هو غضبان ممتلىء جلده غضبا على لكن لا أبالى بذلك ، فانى وحق ربك غضبه يرضينى ، فليدم عليه وليزدد منه ، والاهاب : الجلد قبل دبغه

ولأنّ المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم ، فليس فى ـ غير ـ إذاً الإبهام الذى يأبى عليه أن يتعرّف ، وقرئ بالنصب على الحال وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب ، ورويت عن ابن كثير . وذوالحال الضمير فى عليهم ، والعامل أنعمت ، وقيل المغضوب عليهم : هم اليهود ؛ لقوله عزوجل : (من لعنه الله وغضب عليه) . والضالون : هم النصارى ؛ لقوله تعالى : (قد ضلوا من قبل) . فإن قلت : مامعنى غضب الله ؟ قلت : هو إرادة الانتقام [1] من العصاة ، وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم مايفعله الملك إذا غضب على من تحت يده ـ نعوذ بالله من غضبه ، ونسأله رضاه ورحمته . فإن قلت : أى فرق بين (عليهم) الأولى و (عليهم) الثانية ؟ قلت : الأولى محلها النصب على المفعولية ، والثانية محلها الرفع على الفاعلية . فإن قلت : لم دخلت (لا) فى (ولا الضالين) ؟ قلت : لما فى ـ غير ـ من معنى النفى ، كأنه قيل : لا المغضوب عليهم ولا الضالين . وتقول : أنا زيداً غير ضارب ، مع امتناع قولك : أنا زيداً مثل ضارب ؛ لأنه بمنزلة قولك : أنا زيداً لاضارب . وعن عمر وعلى رضى الله عنهما أنهما قرآ : وغير الضالين . وقرأ أيوب السختيانى : ولاالضألين ـ بالهمز ، كما قرأ عمرو بن عبيد : (ولاجأن) وهذه لغة من جدّ فى الهرب من التقاء الساكنين . ومنها ماحكاه أبوزيد من قولهم : شأبة ، ودأبة . آمين : صوت سمى به الفعل الذى هو استجب ، كما أنّ « رويد ، وحيهل ، وهلم » أصوات سميت بها الأفعال التى هى « أمهل ، وأسرع ، وأقبل » . وعن ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين [2] فقال : «افعل» وفيه لغتان : مدّ ألفه ، وقصرها . قال :

* وَيَرْحَمُ ٱللهُ عَبْداً قالَ آمِينَا [3] *

---

(١) قال محمود رحمه الله : « ومعنى الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام ... الخ » قال أحمد : أدرج فى هذا مايقتضى عنده وجوب وعيد العصاة ، وليس مذهب أهل السنة ، بل الأمر عندهم فى المؤمن العاصى موكول إلى المشيئة : فمنهم من أراد الله تعالى عقوبته والانتقام منه فيقع ذلك لامحالة ، ومنهم من أراد العفو عنه وإثابته فضلا منه تعالى ، على أن المغضوب عليهم والضالين واقعان على الكفار ، ووعيدهم واقع لامحالة ومراد ، والله الموفق . أقول : قال الزمخشرى رحمه الله : الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام من العصاة الخ لايدل على ماقدره ، فان وجوب وعيد العصاة لايعلم منه . والغضب من الله عند أهل السنة والمعتزلة : عبارة عما ذكره الزمخشرى رحمه الله ، إلا أن عند أهل السنة أن الله تعالى إن شاء عذب صاحب الكبيرة وإن شاء غفر له ، وعند المعتزلة وجوب عذابه ؛ فعند المعتزلة ظاهر أن الغضب عبارة عن إرادة الانتقام ، وعند أهل السنة : إن غفر له فلا غضب ، وإن لم يغفر له فغضبه عبارة عما ذكره .

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية أبى صالح عنه باسناد واه

(٣) يارب إنك ذو من ومغفرة بيت بعافية ليل المحبينا
الذاكرين الهوى من بعدمارقدوا الساقطين على الأيدى المكبينا

وقال :

* أَمِينَ فَزَادَ اللهُ ما بَيْنَنَا بُعْدَا [(١)] *

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « لقنني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب[(٢)] وقال : إنه كالختم على الكتاب » ، وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف. وعن الحسن : لا يقولها الإمام لأنه الداعي . وعن أبي حنيفة رحمه الله مثله ، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها . وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٣)]. وعند الشافعي يجهر بها . وعن وائل بن حجر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ : ولا الضالين ، قال آمين ورفع بها صوته [(٤)] . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٥)]

= يارب لا تسلبني حبها أبداً ويرحم الله عبداً قال آمينا

لقيس بن معاذ الملوح مجنون ليلى العامرية ، اشتد وجده بها ، فأخذه أبوه إلى الكعبة ليدعو الله عسى أن يشفيه ، فأخذ بحلقة بابها وقال ذلك . والدعاء لليل المحبين مجاز عقلي ، وهو في الحقيقة لهم ، وبين أن رقادهم ليس على المعتاد بقوله : الساقطين على الأيدي ، المكبين على الوجوه حيرة وسكرة ، ثم دعا بأن يديم الله حبها ، ودعا لمن يؤمن على دعائه بأن يقول : آمين ، وهو اسم فعل ، أي استجب يا ألله هذا الدعاء ، وهو بالمد ، ويجوز قصره .

(١) تباعد مني فطحل إذ دعوته أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

لجبير كان قد سأل فطحلا الأسدي فأعرض عنه فدعا عليه ، ويروى تباعد مني فطحل وأبي ، وأمين : بقصر الهمزة على اللغة العربية الأصلية ، وأما بالمد فقيل أعجمي ؛ لأنه ليس في لغة العرب فاعيل . وقيل : أصله بالقصر فأشبعت همزته : اسم فعل بمعنى استجب ، ورتبته بعد ما بعده . قدمه حرصا على طلب الاجابة ووقوع الدعاء مجابا من أول وهلة . والفاء للسببية عما قبلها ، أي : حيثما تباعد عني فزد ما بيننا بعداً يا ألله ، وبعداً : يجوز أن يكون تمييزاً ، وأن يكون منقولا .

(٢) لم أجده هكذا . وفي الدعاء لابن أبي شيبة من رواية أبي ميسرة أحد كبار التابعين قال : « أقرأ جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فلما قال (ولا الضالين) قال له قل : آمين . فقال آمين » قلت وعند أبي داود عن أبي زهير قال « آمين مثل الطابع على الصحيفة » وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا « آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين » وهو في الدعاء للطبراني

(٣) لم أجده عن واحد منهما

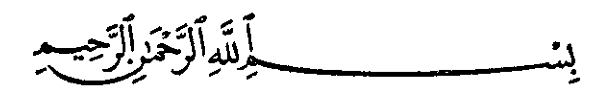
(٤) أخرجه أبو داود من رواية حجر بن عنبسة عنه . وإسناده حسن

(٥) قوله : وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعلم أن صاحب الكتاب التزم أن يذكر آخر كل سورة حديثا لبيان فضلها ، ولكن ليست كلها صحيحة فقد قال الجلال السيوطي : اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها : الفاتحة ، والزهراوان ، والأنعام ، والسبع الطوال مجملا ، والكهف ، ويس ، والدخان ، والملك ، والزلزلة ، والنصر ، والكافرون ، والاخلاص ، والمعوذتان . وما عداها لم يصح فيه شيء اهـ والزهراوان : البقرة ، وآل عمران . والسبع الطوال : من أول البقرة إلى آخر براءة ـ بعدها مع الأنفال سورة واحدة ـ قاله الأجهوري على البيقونية في مصطلح الحديث . (ع)

أنه قال لأبيّ بن كعب : « ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والإنجيل والقرآن مثلها ؟ [١] قلت : بلى يارسول الله . قال : « فاتحة الكتاب إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » وعن حذيفة بن اليمان أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا [٢] فيقرأ صبيّ من صبيانهم فى الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة »

سـورة البقرة

مدنية ، وهى مائتان وست وثمانون آية



الٓمٓ ﴿١﴾

(الٓمٓ) اعلم أنّ الألفاظ التى يتهجى بها أسماء ، مسمياتها الحروف المبسوطة التى منها ركبت الكلم ، فقولك ـ ضاد ـ اسم سمى به « ضه » من ضرب إذا تهجيته ، وكذلك : را ، با : اسمان لقولك : ره ، به ؛ وقد روعيت فى هذه التسمية لطيفة ، وهى أن المسميات لما كانت ألفاظا كأساميها وهى حروف وحدان والأسامى عدد حروفها مرتق إلى الثلاثة ، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا فى التسمية

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم من رواية عبد الحميد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة . ورواه مالك فى الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن : أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبره « أن النبى صلى الله عليه وسلم نادى أبى بن كعب ـ فذكره » وهو مرسل ؛ لأن أبا سعيد هذا تابعى . وهذا الحديث قد أخرجه البخارى من وجه آخر عن أبى سعيد بن المعلى « أن النبى صلى الله عليه وسلم مر به وهو يصلى ، فدعاه ـ فذكر الحديث » ووهم صاحب جامع الأصول فجعلهما واحدا وأخطأ . لأن الأول مكى مولى تابعى . والثانى أنصارى مدنى من أنفسهم . صحابى . قال البيهقى : يحتمل أن يكون ذلك صدر منه صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب مرة ، ولسعيد بن المعلى مرة أخرى

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية أبى معاوية عن أبى مالك الأشجعى عن ربعى عنه . قلت : إلا أن دون أبى معاوية من لا يحتج به . وله شاهد فى مسند الدارمى عن ثابت بن عجلان قال « كان يقال إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فاذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم » يعنى بالحكمة : القرآن ، وحديث أبى بن كعب رضى الله عنه فى فضائل القرآن سورة سورة . أخرجه الثعلبى من طرق عن أبى بن كعب رضى الله عنه كلها ساقطة . وأخرجه ابن مردويه من طريقين . وأخرجه الواحدى فى الوسيط . وله قصة ذكرها الخطيب ثم ابن الصلاح عمن اعترف بوضعه . ولهذا روى عن أبى عصمة أنه وضعه .

على المسمى فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى، إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماها؛ لأنه لا يكون إلا ساكنا. ومما يضاهيها فى إيداع اللفظ دلالة على المعنى: التهليل، والحولقة، والحيعلة، والبسملة؛ وحكمها - مالم تلها العوامل - أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفة كأسماء الأعداد، فيقال: ألف لام ميم، كما يقال: واحد اثنان ثلاثة؛ فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب. تقول: هذه ألف، وكتبت ألفاً، ونظرت إلى ألف؛ وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب، قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شىء من تأثيراتها، فحقك أن تلفظ به موقوفا. ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقى على الحاسب أجناسا مختلفة ليرفع حسبانها، كيف تصنع وكيف تلقيها أغفالا من سمة الإعراب؟ فتقول: دار، غلام، جارية، ثوب، بساط. ولو أعربت ركبت شططا. فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالإسمية؟ وهلا زعمت أنها حروف كما وقع فى عبارات المتقدمين؟ قلت: قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين فى تسمية كثير من الأسماء التى لا يقدح إشكال فى اسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف فى معنى الكلمة، وذلك أن قولك: «ألف» دلالته على أوسط حروف «قال، وقام» دلالة «فرس» على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدلالتين. ألا ترى أن الحرف: مادلّ على معنى فى غيره، وهذا كما ترى دال على معنى فى نفسه؛ ولأنها متصرف فيها بالإمالة كقولك: با، تا. وبالتفخيم كقولك: يا، ها. وبالتعريف، والتنكير، والجمع والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المتصرفة. ثم إنى عثرت من جانب الخليل على نص فى ذلك. قال سيبويه: قال الخليل يوما - وسأل أصحابه -: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف [1] التى فى لك، والباء التى فى ضرب؟ فقيل: نقول: باء، كاف؛ فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف. وقال: أقول: كه، به. وذكر أبو على فى كتاب الحجة فى (يسٓ): وإمالة يا، أنهم قالوا: يازيد، فى النداء؛ فأمالوا وإن كان حرفا، قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء، فلأن يميلوا الاسم الذى هو يسٓ أجدر.

---

(١) قال محمود رحمه الله: «وقد سأل الخليل أصحابه كيف ينطقون بالكاف ... الخ». قال أحمد رحمه الله: وسألهم أيضا كيف ينطقون بالقاف من يقبل؟ فقالوا: قاف، كقولهم الاول، فأجابهم بجوابه الأول وقال: أما أنا فأقول: اقه، فألحق رضى الله عنه أولا هاء السكت؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك، وثانيا همزة الوصل؛ لأنه ساكن.

ألا ترى أنّ هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها ؟ فإن قلت : من أى قبيل هى من الأسماء ، أمعربة أم مبنية ؟ قلت : بل هى أسماء معربة ، وإنما سكنت سكون زيد وعمرو وغيرهما من الأسماء حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه وموجبه . والدليل على أنّ سكونها وقف وليس ببناء : أنها لو بنيت لحذى بها حذو : كيف ، وأين ، وهؤلاء . ولم يقل : صٓ ، قٓ ، نٓ مجموعا فيها بين الساكنين . فإن قلت : فلم لفظ المتهجى بما آخره ألف منها مقصورا ، فلما أعرب مدّ فقال هذه باء ، وياء ، وهاء ؛ وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك « لا » مقصورة ؛ فإذا جعلتها اسما مددت فقلت : كتبت لاء ؟ قلت : هذا التخيل يضمحل بما لخصته من الدليل ؛ والسبب فى أن قصرت متهجاة ، ومدّت حين مسها الإعراب : أنّ حال التهجى خليقة بالأخف الأوجز ، واستعمالها فيه أكثر . فإن قلت : قد تبين أنها أسماء لحروف المعجم ، وأنها من قبيل المعربة ، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف ، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور ؟ قلت : فيه أوجه : أحدها وعليه إطباق الأكثر : أنها أسماء السور . وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذى كسره على ذكرها فى حد مالا ينصرف بـ « باب أسماء السور » وهى فى ذلك على ضربين : أحدهما مالا يتأتى فيه إعراب ، نحو : كهيعٓصٓ ، والمٓرٓ . والثانى : ما يتأتى فيه الإعراب ، وهو إما أن يكون اسما فردا كصٓ وقٓ ونٓ ، أو أسماء عدّة مجموعها على زنة مفرد كـ « حمٓ وطسٓ ويسٓ » ؛ فإنها موازنة لقابيل وهابيل ، وكذلك طسٓمٓ يتأتى فيها أن تفتح نونها ، وتصير ميم مضمومة إلى طسٓ فيجعلا اسما واحدا ؛ كدارا بجرد ؛ فالنوع الأول محكى ليس إلا ؛ وأما النوع الثانى فسائغ فيه الأمران : الإعراب ، والحكاية ؛ قال قاتل محمد بن طلحة السجاد وهو شريح ابن أوفى العبسى [1]

---

(١) قوله « قال قاتل محمد بن طلحة ... الخ » هكذا نسبه البخارى لشريح فى تفسير غافر . ولفظه : ويقال إن (حم) اسم . لقول شريح بن أبى أوفى ، فذكره . ونسب ذلك لغير شريح ، فى الطبقات لابن سعد والمستدرك للحاكم من رواية الواقدى عن محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه قال : كان محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه ، فنهى على رضى الله عنه عن قتله وقال : من رأى صاحب البرنس الأسود فلا يقتله ـ يعنيه ـ فقتله رجل من بنى أسد بن خزيمة يقال له : طلحة بن مدلج ، وقيل : شداد بن معاوية العبسى . وقيل عصام بن متشمر وعليه الأكثر . وهو الذى يقول فى قتله . فذكره . قلت : وهو من جملة أبيات . أولها :

وأشعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ ... فَهَلاَّ تَلاَ حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ (١)

فأعرب حاميم ومنعها الصرف ، وهكذا كل ما أعرب من أخواتها ؛ لاجتماع سببي منع الصرف فيها ، وهما : العلمية ، والتأنيث . والحكاية أن تجيء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى . كقولك : دعني من تمرتان ، وبدأت بالحمد لله ، وقرأت سورة أنزلناها . قال :

وَجَدْنَا فِى كِتَابِ بَنِى تَمِيمٍ ... أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارُ (٢)

---

(١) وأشعث قوام بآيات ربه ... قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه ... فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعا ... عليا ومن لا يتبع الحق يظلم
يذكرنى حاميم والرمح شاجر ... فهلا تلا حاميم قبل التقدم

لشريح بن أوفى العبسى يوم الجمل ، حين أمر أبو طلحة محمد بن طلحة أن يبرز للقتال ، وكان من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كلما حمل عليه رجل قال : نشدتك بحم لما فيها من آية (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) حتى حمل عليه العبسى فقتله وأنشأ يقول : ورب أشعث من أثر العبادة كثير القيام والعمل بآيات ربه ، أو القيام فى الليل بتلاوتها ، قليل الأذى ، وروى الكرى : أى النوم ، وروى القذى : وهو ما يتساقط فى العين فيغمضها : كنى بقلته عن قلة النوم فيما ترى العين : أى فى رأى العين . شككت : أى خرقت له بالرمح جيب : أى طوق قميصه ، كناية عن طعنه به فى صدره أو من خلفه حتى نفذ من صدره ، أو نظمت وربطت جيب قميصه بصدره فسقط مطروحا على يديه ووجهه . وعبر بالفم مبالغة فى التنكيل ؛ ولأنه أول ما يلقى الأرض من الوجه ، وذلك بلا سبب غير أنه ليس تابعاً لعلى بن أبى طالب ، وهكذا حال كل من لا يتبع الحق ، وهو أنه يعاقب ويهان . يذكرنى حاميم ، والحال أن رمحى مختلط فى ثيابه وأضلاعه . وقيل المعنى : والحال أن الرماح مختلطة والحرب قائمة ، وقوله فهلا ، فيه نوع توبيخ : أى كان من حقه أن يذكرنى بها قبل التقدم للحرب .

(٢) وجدنا فى كتاب بنى تميم ... أحق الخيل بالركض المعار
يضمر بالأصائل فهو نهد ... أقب مقلص فيه اقورار
كأن سراته والخيل شعث ... غداة وجيفها مسد مغار
كأن حفيف منخره إذا ما ... كتمن الربو كير مستعار

لبشر بن أبى خازم الأسدى ، وقيل للطرماح . والركض : ضرب الراكب دابته برجله ، وعار الفرس : ذهب هنا وهنا مرحا عند انفلاته ، وأعاره صاحبه فهو معار . قال أبو عبيدة : والناس يرونه أى يظنون المعار من العارية وهو خطأ . ويروى : المعار بكسر الميم . ويروى : يشمر ، بدل يضمر . والأصائل جمع أصيل كالآصال وهي أواخر النهار . أى يترك بلا علف من أول النهار فيجوع حتى يكون ضامر البطن فى آخره ، أو يهيأ ويرسل للقتال فى آخر النهار فما بال أوله . والنهد : غليظ الجنبين مرتفع الأضلاع ، والأقب ، رقيق الخصر ، والمقلص ـ كمعظم على اسم المفعول ـ المشمر المشرف طويل القوائم ، ويجوز جعله على اسم الفاعل بمعنى المتشمر المكتنز اللحم . يقال : قلصه بالتشديد شمره ، فقلص هو أيضا : أى تشمر ، ويقال قلصت الناقة كذلك : إذا استمرت على السير . والاقورار : رقة الجسم ونحافته . والسراة : أعلى الظهر . والوجيف : سرعة سير الخيل . والمسد : الحبل . شبه السراة به =

وقال ذو الرّمّة :

سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثًا   فَقُلْتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعِى بِلَالَا[1]

وقال آخر :

تَنَادَوْا بالرَّحِـــيلِ غَـداً   وَفِى تَرَحَالِهِـــمْ نَفْسِى[2]

وروى منصوبا ومجرورا . ويقول أهل الحجاز فى استعلام من يقول : رأيت زيدا ، من زيداً ؟ وقال سيبويه : سمعت من العرب : لا من أين ياقى . فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ : صٓ ، وقٓ ، ونٓ مفتوحات ؟[3] قلت : الأوجه أن يقال : ذاك نصب وليس بفتح ، وإنما لم يصحبه التنوين لامتناع الصرف على ماذكرت . وانتصابها بفعل مضمر. نحو : اذكر ؛ وقد أجاز

═ فى الامتداد والصلابة ، وقوله : والخيل شعث ، جملة حالية ، والشعث جمع أشعث، أو شعث ، وغداة : ظرف له . والحفيف : دوى الجرى والطيران . يقال : حف الفرس حفيفاً ، وأحففته : إذا حملته على الحفيف ، وضمير كتمن للخيل . والربو : الزيادة وما ارتفع من الأرض ، والنفس العالى ، وانتفاخ الفرس من عدو أو فزع . يقال منه : ربا يربو ، إذا أخذه الربو : أى إذا ضاقت مناخر الخيل عن إخراج النفس لعجزها ، كان منخر فرسى واسعاً كالكير ـ وهو منفخة الحداد ـ لعلو نفسه وتردده . وجعله مستعارا ليدل على أنه تداولته الأيدى . يقول : وجدنا فى كلام جدودنا هذا الكلام ، فأحق مبتدأ ، والمعار خبره ، والجملة محكية محلها نصب بوجدنا .

(١) لذى الرمة يمدح بلالا أبا بريدة ، وهما لقب وكنية لعامر بن أبى موسى الأشعرى ، كان أمير البصرة وقاضيها ، وصيدح : اسم ناقة الشاعر . والناس رفع بالابتداء : أى سمعت هذا الكلام فحكاه على ما كان عليه ، ولم ينصب الناس ، لأنه يقتضى أن فعل الانتجاع مما يسمع وليس كذلك ، لأنه بمعنى يرتحلون طالبين غيثاً ، أو بمعنى يطلبون غيثاً أى مطراً أو كلأ نابتاً منه . وروى بنصب الناس ، فيكون ينتجعون غيثاً : بمعنى يتكلمون بطلبه . وروى رأيت الناس . قال ابن القطاع : ولا يصح معه الرفع ، وذلك لأن الرؤية لا تقع على اللفظ ، وشبه تهيئتها وإعدادها للسير إليه ليسوقها أو سوقها إليه بأمره لها بالسير إليه ، وطلبه لترتب السير على كل على طريق التصريح ، ويجوز أنه شبهها بالعاقل فخاطبها بذلك على سبيل المكنية : أى اطلبى بلالا ، فانه أنفع مما يطالبه الناس ، ولما سمع بلال ذلك قال : يا غلام اعلف صيدح قتا ونوى ، والقت : نوع من النبات الطرى .

(٢) روى الرحيل بالرفع على أنه مبتدأ ، وغداً ـ أى فى غد ـ خبره ، وبالنصب : مصدر لفعل محذوف ، وذلك كله على الحكاية . وروى بالجر على الأصل ، وغدا . ظرف للرحيل ، وفى ترحالهم : أى مع رحيلهم نفسى ـ أى روحى ـ فكأن محبوبه أخذ روحه وغادره ميتا لتعلق قلبه به ، ويجوز أنه استعارها لمحبوبه على طريق التصريحية ، لأن به حياته وسروره ، فكأنه يموت بمفارقته لاغتمامه

(٣) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فما وجه من قرأ ص وق ون مفتوحات ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله تعالى : كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة ، وعلى الوجه الثانى يحتمل أن يكون أراد أن الفتحة ـ لالتقاء الساكنين ـ نشأت عن سكون الحكاية . فانها إنما تحكى ساكنة مجردة من سمة الاعراب ، فلا تكون الحركة إذاً إعرابا ، إذ لا مقتضى له مع الحكاية ، ولا بناء إذ هى معربة عنده على هذا التقدير . ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية فتكون الحركة ═

سيبويه مثل ذلك فى : حمٓ ، وطسٓ ، ويسٓ لو قرئ به . وحكى أبو سعيد السيرافى أن بعضهم قرأ : يسٓ . ويجوز أن يقال : حرّكت لالتقاء الساكنين ، كما قرأ من قرأ : (ولا الضألين) .
فإن قلت : هلا زعمت أنها مقسم بها ؟ [1] وأنها نصبت قولهم : نعم الله لأفعلن ، وآى الله لأفعلن ، على حذف حرف الجر وإعمال فعل القسم ؟ وقال ذو الرمة :

* أَلَا رُبَّ مَنْ قَلْبِى لَهُ ٱللَّهَ نَاصِحٌ * [2]

وقال آخر :

* فَذَاكَ أَمَانَةَ اللهِ الثَّرِيدُ * [3] ؟

ـــ مثلها فى أين وكيف حركة بناء ، والأول هو الظاهر من مراده إذ حتم قبل أنها معربة ، على أن سيبويه نص فى كتابه على ما أورده بلفظه قال : وأما (صٓ) فلا يحتاج إلى أن يجعل اسما أعجميا ، لأن وزنه فى كلامهم . ولكنه يجوز أن يكون اسما للسورة فلا يصرف . ويجوز أن يكون أيضا (يسٓ وصٓ) اسمين غير متمكنين فيلزمان الفتح كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو : كيف ، وأين ، وحيث ، وأمس اه كلام سيبويه . وفيه رد على الزمخشرى رحمه الله فى حتمه أن تكون معربة وأن فتحتها نصب أو لالتقاء الساكنين العارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً ، وسيأتى له أيضا ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البتة . أقول : بعد تسليم أن الأول هو الظاهر من مراده ، فما ذكره ـ حكاية عن سيبويه ـ غير وارد عليه ، لأنه اختار أحد الوجهين .

(١) قال محمود رحمه الله : «هلا زعمت أنها مقسم بها . . . الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : وله البقاء على أنها منصوبة على القسم ، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل وسيبويه فى أمثاله ، ويسلك حينئذ فى العطف سبيل :

* ولا سابق شيئا إذا كان جائياً *

فان المقسم به وإن كان منصوباً لأنه محل يعهد وفيه الخبر ، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد ، وههنا أولى بالصحة منه بيت زهير المذكور لأن انتصاب المقسم به إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذى هو أصل فى القسم ، وانتصاب خبر ليس أصل فى نفسه ، ليس ناشئا عن حذف . غايته أن حرف الجر قد يصحب خبرها دخيلا ، فراعاة الأصل أجدر من مراعاة العارض ، فقد تحرر فى فتح صٓ وجهان : أحدهما أن يكون إعرابا وهو إما جرى على الوجه الذى أبداه الزمخشرى ، أو نصب على الوجه الذى نقلته عن سيبويه ، ثانيهما أنه لا إعراب ولا بناء وهو عروضه على الوقف فى الحكاية .

(٢) ألا رب من قلبى له الله ناصح ومن قلبه لى فى الظباء السوانح
لذى الرمة . و «من» نكرة موصوفة . و «قلبى» مبتدأ . «الله» قسم نصب على حذف الجار وإعمال فعل القسم المقدر . و «ناصح» خبر ، والجملة صفة «من» و «السوانح» المسرعات جهة اليمين ، كما أن «البوارح» المسرعات جهة الشمال . يقول : رب شخص قلبى له ناصح خالص والله . ورب شخص قلبه لى غير خالص بل نافر عنى كأنه من الظباء المسرعات نفوراً . وأعاد الموصوف ـ وإن كان المقصود ذكر الصفة فقط ـ تنبيها على استقلال كل من الصفتين بقصد الاخبار به . هذا ، ويحتمل أن المعنى : أن قلبه لى ناصح أيضا ؛ لأن بعض العرب يتيمن بالسوانح . وفيه تلويح بتشبيه محبوبته بالظبية .

(٣) إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك أمانة الله الثريد
«ما» زائدة . وأدم يأدم كضرب يضرب ، إذا وفق وأصلح ، وكذلك آدم بمد الهمزة ، فتأدمه : تصلحه ـــ

قلت : إنّ القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما ، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على مقسم واحد وقد استكرهوا ذلك . قال الخليل فى قوله عزّ وجلّ : (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى) : الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى ، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء فى قولك : مررت بزيد وعمرو ، والأولى بمنزلة الباء والتاء . قال سيبويه : قلت للخليل : فلم لاتكون الأخريان بمنزلة الأولى ؟ فقال : إنما أقسم بهذه الأشياء على شىء ، ولو كان انقضى قسمه بالأول على شىء لجاز أن يستعمل كلاما آخر ، فيكون كقولك بالله لأفعلنّ ، بالله لأخرجنّ اليوم . ولا يقوى أن تقول : وحقك وحق زيد لأفعلنّ . والواو الأخيرة واو قسم لايجوز إلا مستكرها قال : وتقول وحياتى ثم حياتك لأفعلنّ ، فثم ههنا بمنزلة الواو . هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن تجعل الواو للعطف ؛ لمخالفة الثانى الأول فى الإعراب . فان قلت : فقدّرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لابحذفها ، فقد جاء عنهم : الله لأفعلن مجرورا ، ونظيره قولهم : لاه أبوك ؛ غير أنها فتحت فى موضع الجر لكونها غير مصروفة ، واجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه . قلت : هذا لايبعد عن الصواب ، ويعضده ماروا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : أقسم الله بهذه الحروف .[1]

فإن قلت : فما وجه قراءة بعضهم صَ وقَ بالكسر[2] ؟ قلت : وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين . والذى يبسط من عذر المحرّك : أن الوقف لما استمر بهذه الأسامى ، شاكلت لذلك ما اجتمع فى آخره ساكنان من المبنيات ، فعوملت تارة معاملة «الآن» ، وأخرى معاملة «هؤلاء» . فإن قلت : هل تسوغ لى فى المحكية مثل ما سوّغت لى فى

ـــ وتهيئه للأكل . وأمانة الله رفع على الابتداء ، والخبر محذوف ، أى : قسمى ؛ أونصب بفعل القسم المقدر بعد حذف الجار ، أى : أقسم بأمانة الله ؛ أو جر بواو القسم مقدرة ، لكن البصريون خصوا هذا بلفظ الجلالة . يقول : إذا كان الخبز مأدوما باللحم وممزوجا به ، فذلك هو الثريد دون ما عداه وحق أمانة الله .

(١) موقوف رواه البيهقى فى الأسماء والصفات ، من طريق معاوية بن صالح ، عن على بن طلحة عنه بلفظ : الحروف المقطعة فى أوائل السور كلها أقسام أقسم الله بها . ورواه ابن مردويه من هذا الوجه فى تفسير طه . قال : طه وأشباهها قسم أقسم الله بها . وهى من أسماء الله تعالى .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت فما وجه قراءة بعضهم ص و ق بالكسر... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا تحقق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكنة . ويدلك على أن فتحتها التى قال قبل إنها لالتقاء الساكنين فتحة بناء ، أنه إنما أراد السكون العارض فى الحكاية لا سكون البناء وهو مخالف لنص سيبويه كما نبهت عليه أيضا .

المعربة [١] من إرادة معنى القسم ؟ قلت : لا عليك فى ذلك ، وأن تقدّر حرف القسم مضمراً فى نحو قوله عز وجل : (حمٓ والكتاب المبين) ، كأنه قيل : أقسم بهذه السورة ، وبالكتاب المبين : إنا جعلناه . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « حم لا يبصرون » [٢] فيصلح أن يقضى له بالجرّ والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره . فان قلت : فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة ؟ قلت : كأن المعنى فى ذلك الإشعار بأن الفرقان ليس إلا كلما عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، كما قال عز من قائل : (قرآناً عربياً) . فان قلت : فما بالها مكتوبة فى المصحف على صور الحروف [٣] أنفسها ، لا على صور أساميها ؟ قلت : لأنّ الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف ، واستمرت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب : اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع فى الكتابة الحروف أنفسها ، عمل على تلك الشاكلة المألوفة فى كتابة هذه الفواتح . وأيضاً فإن شهرة أمرها ، وإقامة ألسن الأسود والأحمر لها ،

---

(١) قال محمود رحمه الله : « هل تسوغ لى فى المحكية إرادة القسم كما سوغت لى فى المعربة ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : وقد منع الزمخشرى أن يكون ص منصوبا على القسم لما تقدم ، وأجاز أن يكون حم فى الحديث المذكور منصوبة على القسم ، بخلاف حم فى القرآن ، فتلك يتعين أن يكون نصبها على إضمار الفعل ، أو مجرورة على القسم . وأما النصب مع القسم فلا يجيزه إلا فى الحديث ، والفرق عنده أن المانع من إجازته فى القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفا له فى الاعراب ، إذ المعطوفات كلها مجرورة ، ويتعذر عنده القسم فى الثوانى خوفا من جمع قسمين على مقسم واحد ، ولا كذلك الحديث فانه لم يأت بعده ما يأباه ؛ فلذلك خص جواز هذا الوجه بالحديث . وأما على الوجه الذى أوضحته فيعم جواز ذلك القرآن والحديث جميعاً .

(٢) أخرجه أصحاب السنن الثلاثة ، من رواية المهلب عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن بيتكم العدو فليكن شعاركم حم لا يبصرون » قال الحاكم : المبهم هو البراء بن عازب رضى الله عنهما . ثم أخرجه كذلك وهو فى النسائى أيضاً ، وفى الباب عن أنس رضى الله عنه فى الأوسط للطبرانى . وفى الدلائل لأبى نعيم عنه فى غزوة حنين . وعن شيبة بن عثمان فى الطبرانى أيضاً وعن أبى دجانة الأنصارى فى آخر الدلائل للبيهقى ، فى حديث طويل

(٣) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : فما بالها مكتوبة فى المصحف على صورة الحروف ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضى رضى الله عنه فى كتاب الانتصار ، فى الجواب عما نقل عن عثمان رضى الله عنه : أن عكرمة لما عرض عليه المصحف وجد فيه حروفا من اللحن فقال : لا تغيروها فان العرب ستقيمها بألسنتها . فلو كان الكاتب من ثقيف والمملل من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف ، قال القاضى : وإنما قال عثمان رضى الله عنه ذلك ؛ لأن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء ، وهذيلا كانت تظهر الهمزة . والهمزة إذا ظهرت فى لفظ المملل كتبها الكاتب على صورتها فما أراد عثمان رضى الله عنه إلا أن تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط ، مثل كتابة : الصلوة ، والزكوة ، بالواو لا بالألف ؛ قال القاضى : وإنما أخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة ، أما الخط فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه ، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم الخط اهـ كلامه

وأنّ اللافظ بها غير متهجاة لا يحلى بطائل منها [١] وأنّ بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده : أمنت وقوع اللبس فيها ؛ [٢] وقد اتفقت فى خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التى بنى عليها علم الخط والهجاء ؛ ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان ؛ لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ . وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف . قال عبد الله بن درستويه فى كتابه : المترجم بكتاب الكتاب المتمم : فى الخط والهجاء خطان لا يقاسان : خط المصحف ، لأنه سنة ، وخط العروض ؛ لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه . الوجه الثانى: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد [٣] كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدّى بالقرآن وبغرابة نظمه ؛ وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم تظهر معجزتهم [٤] عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار ، وهم الحراص على التساجل [٥] فى اقتضاب الخطب ، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التى بزت بلاغة [٦] كل ناطق ، وشقت غبار كل سابق ، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى [٧] الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء ؛ إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر . وهذا

---

(١) قوله «ولا يحلى بطائل منها» فى الصحاح : وقولهم لم يحل منه بطائل: أى لم يستفد منه كبير فائدة ولا يتكلم به إلا مع الجحد (ع)

(٢) قوله «أمنت وقوع اللبس فيها» أى تلك الأمور الأربعة ، أمنت القارىء وقوع اللبس فى الفواتح . (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «الوجه الثانى أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد ...الخ» قال أحمد رحمه الله : إنما أردت هذا الفصل فى كلام الزمخشرى ؛ لأنه غاية الصناعة ، ونهاية البراعة ، لولا الاخلال بلطيفة لو سلكها لتمت فصاحته ، وهى أنه بنى أول الكلام على النفى وطاول فيه، حتى انتهى إلى الاثبات ، فكان أول الكلام رهيناً لآخره يفهم على الضد حتى ينقضى على البعد ، فهو كما انتقد على أبى الطيب قوله فى الخيل :

ولا ركبت بها إلا إلى ظفر ولا حصلت بها إلا على أمل

فانه صدر الصدر والعجز بما صورته الدعاء على المخاطب فى العرض مستدركا بعد ، وإنما يؤاخذ بهذا مثل أبى الطيب والزمخشرى لأن لهما فى مراتب الفصاحة علوا يفطن السامع لمثل هذا النقد

(٤) قوله «ولم تظهر معجزتهم» لعله بفتح الميم والجيم مقابل مقدرة (ع)

(٥) قوله «على التساجل» أى التفاخر بأن تصنع مثل صنعه فى جرى أو سقى ، وأصله من السجل : بمعنى الدلو الذى فيه ماء . واقتضاب الخطب : ارتجالها ؛ أفاده الصحاح (ع)

(٦) قوله «التى بزت بلاغة» أى غلبت وسلبت (ع)

(٧) قوله «الخارج من قوى» لعله عن (ع)

القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل ، ولناصره على الأول أن يقول : إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصبوبا فى أساليبهم واستعمالاتهم ، والعرب لم تتجاوز ما سموا به [1] بمجموع اسمين ، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة ، والقول بأنها أسماء السور حقيقة : يخرج إلى ماليس فى لغة العرب ، ويؤدى أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً . فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر وأنه لا سبيل إلى رده ، أجابك بأن له محملا سوى ما يذهب إليه ، وأنه نظير قول الناس : فلان يروى : قفا نبك ، وعفت الديار . ويقول الرجل لصاحبه : ما قرأت ؟ فيقول (الحمد لله) و (براءة من الله ورسوله) و (يوصيكم الله فى أولادكم) و (الله نور السموات والأرض) . وليست هذه الجمل بأسامى هذه القصائد وهذه السور والآى ، وإنما تعنى رواية القصيدة التى ذاك استهلالها ، وتلاوة السورة أو الآية التى تلك فاتحتها . فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية ، واستفيد منها ما يستفاد من التسمية ، قالوا ذلك على سبيل المجاز دون الحقيقة . وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول : التسمية بثلاثة أسماء فصاعدا مستنكرة لعمرى وخروج عن كلام العرب ، ولكن إذا جعلت اسما واحداً على طريقة حضرموت ، فأما غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها ؛ لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية ، كما سموا : بتأبط شراً ، وبرق نحره ، وشاب قرناها . وكما لو سمى : بزيد منطلق ، أو بيت شعر . وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر ، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم ، دلالة قاطعة على صحة ذلك . وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها ، فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً ، لأنها تسمية مؤلف بمفرده ، والمؤلف غير المفرد . ألاترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه ، كقولهم : صاد ، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً . الوجه الثالث : أن ترد السور مصدرة بذلك ليكون أوّل ما يقرع الأسماع مستقلا بوجه من الإعراب ، وتقدمة من دلائل الإعجاز . وذلك أنّ النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب ، بخلاف النطق بأسامى الحروف . فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم ، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمى التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة ، كما قال عز وجل: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) . فكان حكم النطق بذلك

(١) قوله « لم تتجاوز ما سموا به » لعله : بما ، أو لعله : فيما . (ع)

ـ مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئا من أهله ـ حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن، التى لم تكن قريش ومن دان بدينها فى شيء من الإحاطة بها، فى أن ذلك حاصل له من جهة الوحى، وشاهد بصحة نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالرطانة من غير أن يسمعها من أحد. واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه فى الفواتح من هذه الأسماء. وجدتها نصف أسامى حروف المعجم [1] أربعة عشر سواء، وهى: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون ـ فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء،

---

(١) قال محمود رحمه الله: «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه فى الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامى حروف المعجم ... الخ». قال أحمد: بقى عليه من الأصناف الحروف الشديدة، وقد ذكر تعالى نصفها: الهمزة المعبر عنها بالألف، والكاف، والقاف، والطاء. والمطبقة، وقد ذكر تعالى نصفها: الصاد، والطاء. والمنفتحة، وقد ذكر نصفها: الألف، والحاء، والراء، والسين، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء. وحروف الصفير لما كانت ثلاثا: السين، والصاد، والزاى؛ لم يكن لها نصف فذكر منها اثنين: السين، والصاد. وتلك العادة المأنوسة فيما يقصد إلى تنصيفه فلا يمكن فيتم الكسر. ألا ترى طلاق العبد وعدة الأمة ونحو ذلك؟ والحروف اللينة وهى ثلاثة: الألف، والياء، والواو. وذكر منها اثنين: الألف، والياء كحروف الصفير. والمكرر وهو الراء. والهاوى وهو الألف. والمنحرف وهو اللام. وقد ذكرها. ولم يبق من أصناف الحروف خارجا عن هذا النمط إلا ما بين الشديد والرخو، فانه لم يقتصر منها على النصف؛ لأن ما ذكر منها زائداً على النصف اندرج فى غيرها من الأصناف، فلم يمكن الاقتصار لها كالشديدة والرخوة فلم يكن بها عناية. وأما حروف الذلاقة والمصمتة فالصحيح أن لا يعدا صنفين، ولمن عدهما صنفين متميزين خبط طويل فى جهة تميزهما، حتى أبعد الزمخشرى فى مفصله فى تميزهما فقال: حروف الذلاقة التى يعتمد الناطق فيها على ذلق اللسان ـ أى طرفه ـ وهو تميز مردود جداً؛ لأن من جملتها: الميم، والباء، والفاء. ولا مدخل لطرف اللسان فيها، ثم لا يتم على هذا التميز مطابقتها للمصمتة، إذ المصمتة مفسرة عنده بأنها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية فما زاد منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان وبين الصمت؟ فالحق أنهما صنفان ضعيف تميزهما، فلم يعتبر جريانهما على النمط المستمر فى غيرهما من الأصناف البين امتيازها. وعد الزمخشرى فى هذا النمط حروف القلقلة، وذكر أن المذكور منها النصف: القاف، والطاء؛ ووهم فانها خمسة أحرف، لم يذكر منها فى الفواتح سوى الحرفين المذكورين. وعلى الجملة فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه يمكن الاستئناس إليه.

والياء ، والنون . ومن المطبقة نصفها : الصاد ، والطاء . ومن المنفتحة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والياء ، والنون . ومن المستعلية نصفها : القاف ، والصاد ، والطاء . ومن المنخفضة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والنون . ومن حروف القلقلة نصفها : القاف ، والطاء . ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها ، رأيت الحروف التى ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ، فسبحان الذى دقت فى كل شيء حكمته . وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله ، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته ، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم ، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم . ومما يدل على أنه تغمد[1] بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا فى تراكيب الكلم[2] ، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررتين ، وهى : فواتح سورة البقرة ، وآل عمران ، والروم ، والعنكبوت ولقمان ، والسجدة ، والأعراف ، والرعد ، ويونس ، وإبراهيم ، وهود ، ويوسف ، والحجر. فان قلت : فهلا عددت بأجمعها فى أول القرآن ؟ وما لها جاءت مفرقة على السور ؟ قلت : لأنّ إعادة التنبيه على أنّ المتحدى به مؤلف منها لا غير ، وتجديده فى غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقرّ له فى الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة ، وكذلك مذهب كل تكرير جاء فى القرآن فمطلوب به تمكين المكرر فى النفوس وتقريره . فان قلت : فهلا جاءت على وتيرة واحدة ؟ ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت صٓ وقٓ ونٓ على حرف ، وطه وطسٓ ويسٓ وحمٓ على حرفين ، والمٓ والرٓ وطسمٓ على ثلاثة أحرف ، والمصٓ والمرٓ على أربعة أحرف ،

(١) قوله « تغمد » لعله « تعمد » بالعين المهملة . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : « ومما يدل على أنه تغمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا فى تراكيب الكلم أن الألف واللام... الخ » قال أحمد رحمه الله : الألف المذكورة فى الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة ، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشرى فى هذا الفصل ، فعند ما عد الحروف أربعة عشر حرفا فى الفواتح قال : إنها نصف حروف العربية ، فهذا يدل على أن جملتها ثمانية وعشرون حرفا ، فلا بد من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد إما اللينة أو الهمزة ، وإلا كانت تسعة وعشرين . والظاهر أن الساقط الهمزة وعندما قال : فى تسع وعشرين على عدد الحروف اقتضى هذا دخول الألفين فى العدد . والظاهر من كلامه أن الألف عنده هى اللينة ، فلذلك علل تسميتها بالألف بأن النطق لما تعذر بها أولا استقرت الهمزة مكانها وفاء بمراعاة تلك اللطيفة التى قدمها من جعل مسمى الحرف أول اسمه . وأما عند النحاة فالألف المعدودة فى حروف المعجم مفردة هي الهمزة ؛ وأما اللينة فهى المعدودة مع اللام حيث يقولون : لام ألف ، ويكتبونها على صورة « لا » .

وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف ؟ قلت : هذا على إعادة افتنانهم فى أساليب الكلام ، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوّعة . وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك ، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك . فإن قلت : فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التى اختصت بها ؟ قلت : إذا كان الغرض هو التنبيه ـ والمبادى كلها فى تأدية هذا الغرض سواء لامفاضلة ـ كان تطلب وجه الاختصاص ساقطا ، كما إذا سمى الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً ، لم يقل له : لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو ؟ لأنّ الغرض هو التميز وهو حاصل أية سلك ؛ ولذلك لا يقال : لم سمى هذا الجنس بالرجل وذاك بالفرس ؟ ولم قيل للاعتماد الضرب ؟ وللانتصاب القيام ؟ ولنقيضه القعود ؟ فإن قلت : ما بالهم عدّوا بعض هذه الفواتح آية دون بعض ؟ قلت : هذا علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور . أمّا الم فآية حيث وقعت من السور المفتتحة بها . وهى ست . وكذلك المص آية ، والمر لم تعدّ آية ، والر ليست بآية فى سورها الخمس ، وطسم آية فى سورتيها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية فى سورها كلها ، وحم عسق آيتان ، وكهيعص آية واحدة ، وص وق ون ثلاثتها لم تعدّ آية . هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم ، لم يعدّوا شيئا منها آية . فإن قلت : فكيف عدّ ما هو فى حكم كلمة واحدة آية ؟ قلت : كما عدّ الرحمن وحده ومدهامّتان وحدها آيتين على طريق التوقيف . فإن قلت : ما حكمها فى باب الوقف ؟ قلت : يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده ، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعق بها كما ينعق بالأصوات أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله عزقائلا : (الم الله) أى هذه الم ثم ابتدأ فقال (الله لا إله إلا هو) . فإن قلت : هل لهذه الفواتح محل من الإعراب ؟ [1] قلت : نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام . فإن قلت : ما محلها ؟ قلت : يحتمل الأوجه الثلاثة ، أما الرفع : فعلى الابتداء ، وأما النصب والجرّ ، فلما مرّ من صحة القسم بها وكونها بمنزلة الله والله على اللغتين . ومن لم يجعلها أسماء للسور ، لم يتصوّر أن يكون لها محل فى مذهبه ، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدّدة .

---

(١) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : ما محل هذه الفواتح من الاعراب ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : وإنما جاز النصب مع القسم فيما لا يعقبه معطوف مجرور . فأما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص وق ون فانه لا يجيز فيه النصب مع القسم البتة ، ويحمله على إضمار فعل ، أو على أن الفتح فى موضع الجر . وأما على وجه بدئه فيما تقدم فيجوز النصب مع القسم فى جميعها لجدد به عهداً . وعلى النصب باضمار فعل أعربها سيبويه فى كتابه .

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

فإن قلت : لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد ؟ [1] قلت : وقعت الإشارة إلى الۤـم بعد ماسبق التكلم به وتقضى ، والمتقضى فى حكم المتباعد ، وهذا فى كل كلام . يحدّث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك مالاشك فيه . ويحسب الحاسب ثم يقول : فذلك كذا وكذا . وقال الله تعالى : (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) . وقال : (ذلكما مما علمنى ربى) ، ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه ، وقع فى حد البعد ، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئا : احتفظ بذلك . وقيل معناه : ذلك الكتاب الذى وعدوا به . فإن قلت : لم ذكر اسم الإشارة ـ والمشار إليه مؤنث وهو السورة ـ ؟ [2] قلت : لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته . فإن جعلته خبره ، كان ذلك فى معناه ومسماه مسماه ، فجاز إجراء حكمه عليه فى التذكير ، كما أجرى عليه فى التأنيث فى قولهم : من كانت أمك . وإن جعلته صفته ، فإنما أشير به إلى الكتاب صريحاً ؛ لأنّ اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له . تقول : هند ذلك الإنسان ، أو ذلك الشخص فعل كذا . وقال الذبيانى :

نُبِّئْتُ نُعمَى على الهِجْرانِ عاتِبةً * سُقْيًا ورُعْيًا لِذاكَ العاتِبِ الزَّارِى [3]

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إن قلت لم صحت الاشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة ، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه كما يقطعون بثم للاشعار بتراخي المراتب . وقد يكون المعطوف سابقا فى الوجود على المعطوف عليه وسيأتى أمثاله .

(٢) قال محمود رحمه الله : « فإن قلت : لم ذكر اسم الاشارة... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : ولو مثل ذلك بقول القائل : حسان كانت دابتك ، لكان أقوم وأسلم من الفرق بها فى لفظ « من » من الابهام الصالح للمذكر والمؤنث . ومثل هذا قوله تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) فيمن وصل الكلام لجعل (هم العدو) جملة فى موضع المفعول الثانى للحسبان ، وعدل عن أن يقول : هى العدو ، نظراً إلى المفعول الثانى الذى هو فى المعنى خبر عن الصيحة ، فذكر وجمع لما كان المبتدأ هو الخبر فى المعنى . وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشرى ، وتسمى الجملة بالتاء والياء عقيب قوله : والكلام هو المركب من كلمتين ـ بهذا التوجيه

(٣)
عوجوا لحيوا لنعم دمنة الدار ... ماذا يحيون من نؤى وأحجار
لقد أرانى ونعمى لاهيين بها ... والدهر والعيش لم يهمم بامرار
نبئت نعمى على الهجران عاتبة ... سقيا ورعيا لذاك العاتب الزارى

للنابغة الذبيانى . والعوج : عطف رأس البعير بالزمام . ونعم : اسم محبوبته . والدمنة : ما تلبد من البعر والرماد والقمامة ، والمراد مطلق الآثار . والنؤى : الحاجز حول الخباء لئلا يدخله الماء . والمراد بالأحجار : الأثافى التى تنصب عليها القدور ، أو بقية الجدران . وهم بالشىء : أراده ، وأصله الادغام ، وفكه هنا لغة ، أى لم يهم كل منهما ،

فإن قلت : أخبرنى عن تأليف ﴿ ذلك الكتاب ﴾ مع (الٓمٓ) . قلت : إن جعلت (الٓمٓ) اسما للسورة ففى التأليف وجوه : أن يكون (الٓمٓ) مبتدأ ، و (ذلك). مبتدأ ثانيا ، و (الكتاب) خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول . ومعناه : أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص ، وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتابا ، كما تقول : هو الرجل ، أى الكامل فى الرجولية ، الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال . وكما قال :

* هُمُ الْقَوْمُ كلُّ الْقَوْمِ يا أُمَّ خَالِدِ * (1)

وأن يكون الكتاب صفة . ومعناه : هو ذلك الكتاب الموعود ، وأن يكون (الٓمٓ) خبر مبتدإ محذوف ، أى هذه الٓمٓ ، ويكون ذلك خبرا ثانيا أو بدلا ، على أن الكتاب صفة ، وأن يكون : هذه الٓمٓ جملة ، وذلك الكتاب جملة أخرى . وإن جعلت الٓمٓ بمنزلة الصوت ، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب ، أى ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل . أو الكتاب صفة والخبر ما بعده ، أو قدّر مبتدأ محذوف ، أى هو ـ يعنى المؤلف من هذه الحروف ـ ذلك الكتاب . وقرأ عبدالله : الٓمٓ تنزيل الكتاب لاريب فيه . وتأليف هذا ظاهر .

== والامرار : صيرورة الشيء مرا ، والاحلاء : صيرورته حلوا ، وجعل الطعم مرآ ، وجعله حلوآ . ويروى زارية بدل عاتبة . والزارى : العاتب ، يقال : زرى عليه يزرى إذا عاب عليه . وقوله ماذا تحيون : استفهام للخطأ فى الأمر بالتحية ورجوع عنه لأنه لا يجدى شيئا . و «من» بيان لماذا ، وفيه معنى التحقير . ونعمى : عطف على ضمير النصب ، والواو للحال ، أى والحال أن الدهر والعيش لم يتغير كل منهما إلى البؤس ، شبههما بما تصح منه الارادة على طريق الكناية ، فأسند لها الهم تخييلا ، أو استعار الهم الشارفة والقرب تصريحا ، وشبههما بالمطعوم فأثبت لهما الامرار ، أو استعاره لتكدرهما ونغصهما بجامع كراهية النفس لكل . وعلى الهجران : أى مع هجرانها ، أو لاجل هجرانى لها . وسقيا ، ورعيا : منصوبان على المصدرية ، أى سقاها الله ورعاها . وذلك إشارة إلى الانسان أو الشخص وهى المراد ، ووصفها بما للمذكر تعظيما لها وتفخيما لشأنها .

(1) وإن الذى حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد

للأشهب بن رميلة . وقيل لحريث بن مخفض . والذى : أصله الذين ، فحذفت النون تخفيفاً . وروى : وإن الألى ، وهو بمعنى الذين ، وهم المذكورون فى أول الأبيات وهو :

ألم تر أنى بعد عمرو ومالك   وعروة وابن الهول لست بخالد

وحانت : أتى حين هلاكها ، وهو كناية عن الهلاك . ويقال : حان حينا : هلك ، وأحانه الله : أهلكه ، فهو حقيقة . وفلج ـ بالفتح ـ اسم موضع بطريق البصرة . ودماؤهم : نفوسهم . وهم القوم كل القوم : أى هم المختصون بجميع صفات الرجال الحيدة دون غيرهم .

والريب : مصدر رابنى ، إذا حصل فيك الريبة . وحقيقة الريبة : قلق النفس واضطرابها . ومنه ماروى الحسن بن على قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « دع مايريبك إلى ما لايريبك [١] فإن الشك ريبة ، وإنّ الصدق طمأنينة » أى فإن كون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولاتستقر . وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن . ومنه : ريب الزمان ، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه . ومنه أنه مر بظبي حاقف [٢] فقال : « لا يربه أحد بشىء [٣] . فإن قلت : كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق ؟ وكم من مرتاب فيه ؟ قلت : مانفى أنّ أحدا لايرتاب فيه [٤] وإنما المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له ؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لاينبغى لمرتاب أن يقع فيه . ألاترى إلى قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) ، فما أبعد وجود الريب منهم ؟ وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب ، وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم فى البلاغة ، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها ؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة . فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب ، كما قدم على الغول فى قوله تعالى : (لا فيها غول) ؟ قلت : لأنّ القصد فى إيلاء الريب حرف النفى ، نفى الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدّعونه ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد ، وهو أنّ كتابا آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد فى قوله (لافيها غول) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى ، كأنه قيل : ليس فيها

---

(١) أخرجه الترمذى فى آخر الطب ، والحاكم فى الأحكام وفى البيوع . والطبرانى والبزار . ورواه البيهقى فى الشعب بلفظ « فان الشر ريبة والخير طمأنينة »

(٢) قوله «أنه مر بظبي حاقف» لعله : أنه صلى الله عليه وسلم الخ . وفى الصحاح أنه عليه السلام مر بظبي حاقف فى ظل شجرة ، وهو الذى انحنى وتثنى فى نومه اه (ع)

(٣) أخرجه فى الموطأ . والنسائى فى الحج . وابن حبان من رواية عمر بن سلمة الضمرى عن البهزى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يريد مكة وهو محرم ، حتى إذا كان بالاثاية بين الرويثة والعرج ، إذا ظبى خائف فى ظل وفيه سهم . فأمر رجلا أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزوه . ولاسحاق فى مسنده : فقال لبعض القوم : « كن حتى يمر الناس ولا يريبه أحد بشىء » اه . البهزى وقع فى مسند أبى يعلى أن اسمه مخول ، ولفظه : تيممت حبائل لى بالأبواء فوقع فيها ظبى ، فأفلت والحبل فى رجله ، فخرجت أقفوه فسبقنى إليه رجل فاحتضنها ، ثم ترافعنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فجعله بيننا نصفين .

(٤) قوله « أن أحداً لا يرتاب فيه » لعله أن أحداً يرتاب فيه . وقد يقال المراد ما نفى الريب على معنى أن أحداً لا يرتاب فيه . (ع)

ما فى غيرها من هذا العيب والنقيصة : وقرأ أبو الشعثاء : ﴿ لا ريب فيه ﴾ بالرفع : والفرق بينها وبين المشهورة ، أنّ المشهورة توجب الاستغراق ، وهذه تجوّزه . والوقف على (فيه) هو المشهور . وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على (لاريب) ولا بد للواقف من أن ينوى خبرا . ونظيره قوله تعالى: (قالوا لاضير) ، وقول العرب : لابأس ، وهى كثيرة فى لسان أهل الحجاز . والتقدير : لا ريب فيه .

﴿ فيه هدى ﴾ الهدى مصدر على فعل ، كالسرى والبكى ، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية ، بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته . قال الله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) . وقال تعالى : (لعلى هدى أو فى ضلال مبين) . ويقال : مهدى ، فى موضع المدح كمهتد ؛ ولأن اهتدى مطاوع هدى ـ ولن يكون المطاوع فى خلاف معنى أصله ـ ألاترى إلى نحو : غمه فاغتم ، وكسره فانكسر ، وأشباه ذلك : فإن قلت : فلم قيل : ﴿ هدى للمتقين ﴾ والمتقون مهتدون ؟ [1] قلت : هو كقولك للعزيز المكرم : أعزك الله وأكرمك ، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته ، كقوله : (اهدنا الصراط المستقيم) . ووجه آخر ، وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى : متقين ، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » [2] وعن ابن عباس : « إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة ، وتكتف الحاجة » [3] فسمى المشارف للقتل والمرض والضلال :

---

(١) قال محمود رحمه الله : « فإن قلت : فلم قيل هدى للمتقين والمتقون مهتدون ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : الهدى يطلق فى القرآن على معنيين : أحدهما الارشاد وإيضاح سبيل الحق . ومنه قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) . وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رشد إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أولا . والآخر خلق الله تعالى الاهتداء فى قلب العبد ، ومنه: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فاذا ثبت وروده على المعنيين فهو فى هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً . وأما قول الزمخشرى : إن القرآن لا يكون هدى للمعلوم بقاؤهم على الضلالة ، فإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء فى قلوبهم . وأما إذا أريد معناه الأول ، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين ، وبين للناس ما نزل إليهم ، فنهم من اهتدى ، ومنهم من حقت عليهم الضلالة . هذا مذهب أهل السنة .

(٢) متفق عليه من حديث أبى قتادة . وفيه قصته . وغلط الطيبي فقرأه لأبى داود عن ابن عباس رضى الله عنهما ، والذى فيه أنه قال يوم بدر « من قتل قتيلا فله كذا أو كذا » لم يقل « فله سلبه » .

(٣) موقوف . عزاه الطيبي لأبى داود وحده مرفوعا وقال : ليس فيه الزيادات ، يعنى قوله : فيه يمرض إلى آخره . انتهى . والحديث بتمامه عند ابن ماجه ، وأحمد وإسحاق فى مسنديهما مرفوعا ، وفيه أبو إسرائيل الملكى ، وهو صدوق سيء الحفظ .

قتيلا ومريضاً وضالا . ومنه قوله تعالى : (ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) ، أى صائراً إلى الفجور والكفر . فإن قلت : فهلا قيل هدى للضالين ؟ قلت : لأن الضالين فريقان : فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم ، وفريق علم أنّ مصيرهم إلى الهدى ؛ فلا يكون هدى للفريق الباقين على الضلالة ، فبقى أن يكون هدى لهؤلاء ، فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل : هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، فاختصر الكلام باجرائه على الطريقة التى ذكرنا ، فقيل : هدى للمتقين . وأيضاً فقد جعل ذلك سلما إلى تصدير السورة التى هى أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثانى ، بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده .

والمتقى فى اللغة اسم فاعل ، من قولهم : وقاه فاتقى . والوقاية : فرط الصيانة . ومنه : فرس واق ، وهذه الدابة تقى من وجاها ، إذا أصابه ضلع [1] من غلظ الأرض ورقة الحافر ، فهو يقى حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه . وهو فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك . واختلف فى الصغائر [2] وقيل الصحيح أنه لايتناولها ، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر . وقيل : يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال ، والمتقى لايطلق إلا عن خبرة ، كما لايجوز إطلاق العدل إلا على المختبر .

ومحل (هدى للمتقين) الرفع ، لأنه خبر مبتدإ محذوف ، أو خبر مع (لاريب فيه) لذلك ، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه . ويجوز أن ينصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف . والذى هو أرسخ عرقا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال إن قوله (الٓمٓ) جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها . و (ذلك الكتاب) جملة ثانية . و (لاريب فيه) ثالثة . و (هدى للمتقين) رابعة .

---

(١) قوله «من وجاها إذا أصابه ضلع» فى الصحاح : الوجي : الوجع فى الحافر . والضلع : الميل والاعوجاج : والظالع : غمز فى مشية البعير . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «واختلف فى الصغائر ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : ومن تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر ، كما يجب عندهم أن لايعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح ، والمحادة لآيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصحاح . والحق أن غفران الصغائر ـ وإن اجتنبت الكبائر ـ موكول إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضا . ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فانه ناطق بالمؤاخذة بالصغائر . ويتحيرون عند قوله تعالى : (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فانه مصرح بمغفرة الكبائر . أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فان التقييد بالمشيئة فى هذه يقضى على الآيتين المطلقتين .

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة . بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدّى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال . فكان تقريراً لجهة التحدى ، وشداً من أعضاده . ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة . وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك ؟ فقال : فى حجة تتبختر اتضاحا ، وفى شبهة تتضاءل افتضاحا . ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم لم تخل كل واحدة من الأربع ، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السرى ، من نكتة ذات جزالة . ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه . وفى الثانية مافى التعريف من الفخامة . وفى الثالثة مافى تقديم الريب على الظرف . وفى الرابعة الحذف . ووضع المصدر الذى هو « هدى » موضع الوصف الذى هو « هاد » وإيراده منكراً . والإيجاز فى ذكر المتقين .

زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه ، وتبيينا لنكت تنزيله ، وتوفيقاً للعمل بما فيه .

ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿ الذين يؤمنون ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة ، أو مدح منصوب ، أو مرفوع بتقدير : أعنى الذين يؤمنون ، أوهم الذين يؤمنون . وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ (أولئك على هدى) . فإذا كان موصولا ، كان الوقف على المتقين حسناً غير تامّ . وإذا كان مقتطعاً ، كان وقفاً تاما . فإن قلت : ماهذه الصفة ، أواردة بيانا وكشفا للمتقين ؟ أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها ؟ أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيداً ؟ قلت : يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتمالها على ماأسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات . أمّا الفعل فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذى هو أساس الحسنات ومنصبها ، وذكر الصلاة والصدقة ؛ لأنّ هاتين أمّا العبادات البدنية والمالية ، وهما العيار على غيرهما . ألم تر كيف سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عماد الدين ، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة ؟ وسمى الزكاة قنطرة

الإسلام ؟ [١] وقال الله تعالى : (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) . فلما كانتا بهذه المثابة كان من شأنهما استجرار سائر العبادات واستتباعها . ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً ، بأن استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ماهو كالعنوان لها ، والذى إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به ، مع مافى ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين . وأما الترك فكذلك . ألا ترى إلى قوله تعالى : (إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ؟ ويحتمل أن لاتكون بيانا للمتقين ، وتكون صفة برأسها دالة على فعل الطاعات ، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصى . ويحتمل أن تكون مدحا للموصوفين بالتقوى ، وتخصيصاً للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر ؛ إظهاراً لإنافتها على سائر مايدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات

والإيمان : إفعال من الأمن . يقال : أمنته وآمنته غيرى . ثم يقال : آمنه إذا صدّقه . وحقيقته : آمنه التكذيب والمخالفة . وأمّا تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقرّ وأعترف . وأمّا ماحكى أبو زيد عن العرب : ما آمنت أن أجد صحابة ـ أى ماوثقت ـ فحقيقته : صرت ذا أمن به ، أى ذا سكون وطمأنينة ، وكلا الوجهين حسن فى (يؤمنون بالغيب) أى يعترفون به أو يثقون بأنه حق . ويجوز أن لايكون (بالغيب) صلة للإيمان ، وأن يكون فى موضع الحال ، أى يؤمنون غائبين عن المؤمن به . وحقيقته : ملتبسين بالغيب ، كقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب) ، (ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) . ويعضده ماروى « أن أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] وإيمانهم ، فقال ابن مسعود : إنّ أمر محمد كان بيناً لمن رآه . والذى لاإله غيره ، ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ هذه الآية . فإن قلت : فما المراد بالغيب إن جعلته صلة ؟ وإن جعلته حالا ؟ قلت : إن جعلته صلة كان بمعنى

---

(١) أما الحديث الأول ، فأخرجه البيهقى فى الشعب من طريق عكرمة عن عمر رضى الله عنه فى حديث فى آخره « والصلاة عماد الدين » قال : وعكرمة لم يسمع من عمر . قال : وأراه عن ابن عمر رضى الله عنهما . وله شاهد من حديث على رضى الله عنه بلفظ « الصلاة عماد الاسلام » أخرجه الأصبهانى فى الترغيب . وغفل ابن الصلاح فى مشكل الوسيط فقال : هذا حديث غير معروف . قلت : والطيبى عزاه لتخريج الترمذى فى حديث معاذ ففيه « وعموده الصلاة » ولا يخفى بعده .

وأما الحديث الثانى ، فرواه مسلم من حديث جابر رضى الله عنه بلفظ « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » .
وأما الحديث الثالث ، فرواه إسحق فى مسنده من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه به سواء . وفيه الضحاك ابن حق . وهو ضعيف .

(٢) موقوف . أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن زيد « ذكروا عند عبد الله بن مسعود . الخ » وإسناده صحيح .

الغائب ، إمّا تسمية بالمصدر من قولك . غاب الشيء غيبا ، كما سمى الشاهد بالشهادة . قال الله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) . والعرب تسمى المطمئن من الأرض غيباً . وعن النضر بن شميل : شربت الإبل حتى وارت غيوب كلاها . يريد بالغيب : الخمصة التى تكون فى موضع الكلية ، إذا بطنت الدابة انتفخت . وإما أن يكون فيعلا مخفف ، كما قيل ، قيل ، وأصله : قيل . والمراد به الخفى الذى لاينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير ، وإنما نعلم منه نحن ماأعلمناه ، أونصب لنا دليلا عليه . ولهذا لايجوز أن يطلق فيقال : فلان يعلم الغيب . وذلك نحو الصانع وصفاته ، والنبوات ومايتعلق بها ، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد ، وغير ذلك . وإن جعلته حالا كان بمعنى الغيبة والخفاء . فإن قلت : ما الإيمان الصحيح ؟ (١) قلت : أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ، ويصدّقه بعمله . فمن أخل بالاعتقاد ـ وإن شهد وعمل ـ فهو منافق . ومن أخل بالشهادة فهو كافر . ومن أخل بالعمل فهو فاسق .

ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العود ـ إذا قومه ـ أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عز وعلا : (الذين هم على صلاتهم دائمون) ، (والذين هم على صلواتهم يحافظون) من قامت السوق إذا نفقت ، وأقامها . قال :

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : « إن قلت مامعنى الايمان الصحيح ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : يعنى بالفاسق غير مؤمن ولا كافر ، وهذا من الأسماء التى سماها القدرية وما أنزل الله بها من سلطان . ومعتقد أهل السنة أن الموحد لله الذى لاخلل فى عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر . وهذا هو الصحيح لغة وشرعا . أما لغة فان الايمان هو التصديق وهو مصدق . وأما شرعا فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فانه لما عطف فيها العمل الصالح على الايمان دل على أن الايمان معقول بدونه . ولو كان العمل الصالح من الايمان لكان العطف تكراراً . وانظر حيلة الزمخشرى على تقريب معتقده من اللغة بقوله : المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدقه بعمله . فجمل التصديق من حظ العمل حتى يتم له أن من لم يعمل فقد فوت التصديق الذى هو الايمان لغة . ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح ؛ مما يحقق معتقد أهل السنة أن من آمن بالله ورسوله ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح فهو مؤمن باتفاق وإن لم يعمل . وأصدق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فواق ناقة عمل بعمل أهل الجنة فكتب من أهل الجنة » وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بفواق الناقة لأنه الغاية فى القصر ، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة ، ومع ذلك فقد عده من أهل الجنة . وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين ، والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطرا . أقول : تفسير الفاسق بغير مؤمن ولا كافر كما هو مذهب المعتزلة غير موجه والشيء الذى هو لم يصرح به لايجب علينا تصريحه وتعريفه ؛ فان عندنا « الضال » من أخل بالعمل فهو فاسق ،

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابِ * لِأَهْلِ العِرَاقَيْنِ حَولاً قَمِيطَا [١]

لأنها إذا حوفظ عليها ، كانت كالشيء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون . وإذا عطلت وأضيعت ، كانت كالشيء الكاسد الذى لا يرغب فيه . أو التجلد والتشمر لأدائها . وأن لا يكون فى مؤدّيها فتور عنها ولا توان ، من قولهم : قام بالأمر ، وقامت الحرب على ساقها . وفى ضده : قعد عن الأمر ، وتقاعد عنه ـ إذا تقاعس وتثبط ـ أو أداؤها ، فعبر عن الأداء بالإقامة ؛ لأنّ القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ـ والقنوت القيام ـ وبالركوع وبالسجود . وقالوا : سبح ، إذا صلى ؛ لوجود التسبيح فيها . (فلولا أنه كان من المسبحين) .

والصلاة : فعلة من صلى ، كالزكاة من زكى . وكتابتها بالواو على لفظ المفخم . وحقيقة صلى : حرّك الصلوين ؛ لأن المصلى يفعل ذلك فى ركوعه وسجوده . ونظيره كفر اليهودى إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه ؛ لأنه ينثنى على الكاذتين [٢] وهما الكافرتان. وقيل للداعى : مصلّ ، تشبيها فى تخشعه بالراكع والساجد .

وإسناد الرزق إلى نفسه [٣] للإعلام بأنهم ينفقون الحلال [٤] الطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله ، ويسمى رزقا منه . وأدخل من التبعيضة صيانة لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهى عنه . وقدّم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به . وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة ، لاقترانه بأخت الزكاة وشقيقتها وهى الصلاة

(١) لأيمن بن خزيم . وغزالة : امرأة شبيب الخارجى ، قتله الحجاج فحاربته سنة كاملة ، فسوق الضراب : مجاز عن ميدان المحاربة ، أو شبه المطاعنة بالرماح والمضاربة بالسيوف بالأمتعة التى تباع وتشترى فى السوق على سبيل المكنية والسوق تخييل . والعراقان : البصرة والكوفة . والقميط : التام نعت مؤكد ، ويقال : قمط الطائر أنثاه : سفدها . والقماط : حبل تشد به الأسرى والأخصاص ، فالمادة دالة على الاحاطة والضم .

(٢) قوله « على الكاذتين » فى الصحاح : الكاذتان ما نشأ من اللحم فى أعالى الفخذ اه (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : « أضاف الرزق إلى نفسه للاعلام بأنهم إنما ينفقون من الحلال الطلق... الخ » . قال أحمد رحمه الله : فهذه بدعة قدرية ، فانهم يرون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال ، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه حتى يقسمون الأرزاق قسمين : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائه . وإذا أثبتوا خالقا غير الله ، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره . أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق فى عقدهم إلا الله سبحانه ، تصديقا بقوله تعالى (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) أيها القدرية .

(٤) قوله « بأنهم ينفقون الحلال » مبنى على أن الرزق مختص بالحلال ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : الرزق أعم . (ع)

وأن تراد هى وغيرها من النفقات فى سبل الخير . لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق . وأنفق الشيء وأنفده أخوان . وعن يعقوب : نفق الشيء ، ونفد واحد . وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء ، فدالّ على معنى الخروج والذهاب ونحو ذلك إذا تأملت .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

فإن قلت: ﴿ والذين يؤمنون ﴾ أهم غير الأولين أم هم الأولون ؟ وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات فى قولك هو الشجاع والجواد ، وفى قوله :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِى الْمُزْدَحَمْ (١)

وقوله :

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ ؟ (٢)

قلت : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا ، فاشتمل إيمانهم على كل وحي أنزل من عند الله ، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأنّ النار لن تمسهم إلا أياما

---

(١) الجار والمجرور متعلق بما قبله فى الشعر . والقرم ـ بالفتح ـ فى الأصل : الفحل المكرم الذى يعفى من العمل لتقديمه وتشويقه إلى ضراب الابل ، استعاره للسيد الرئيس أو للفارس المعد للمكاره . وظاهر القاموس أنه بمعنى السيد حقيقة . ووسط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت . والهمام : العظيم الهمة ، النافذ العزيمة . واستعار الليث للشجاع على طريق التصريح . والكتيبة : الجيش المنضم المنتظم . والمزدحم : المعركة ؛ لأنها محل الازدحام ، وأصله «مزتحم» من الافتعال قلبت تاؤه دالا .

(٢) يا لهف زيابة للحارث الصـــابح فالغانم فالآيب
والله لو لاقيته خاليا لآب سيفانا مع الغالب

لابن زيابة فى جواب الحرث بن هشام حين قال له :

أيا ابن زيابة إن تلقنى لا تلقنى فى النعم العازب
وتلقنى يشتد بى أجرد مستقدم البركة كالراكب

والعازب ـ بالزاى ـ البعيد عن أهله . يعرض بأن زيابة راع للنعم لا شجاع . والأجرد : المنجرد الشعر . والبركة فى البعير والفرس : العظم الناتىء فى صدرهما وعظمه ممدوح فيهما ، وشبهه بالراكب فى طول عنقه وامتداده ويجوز أن المعنى أن راكبه أيضا مستقدم البركة لا متخشع منكمش . يقول : ياحسرة أبى على من أجل الحارث الذى بلغ مراده منى . وفيه ضرب من التهكم فان كان توعده ثم نكص على عقبيه . وقيل : هو على ظاهره ، ثم حلف أنه لو وجده لقتله ، ولكنه أبرز الكلام فى صورة الابهام للانصاف فى الكلام ورجوع السيفين مع الغالب : كناية عن قتل المغلوب واستلاب سلاحه .

معدودات ، واجتماعهم على الإقرار [١] بالنشأة الأخرى وإعادة الأرواح فى الأجساد ، ثم افتراقهم فرقتين : منهم من قال : تجرى حالهم فى التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها فى الدنيا ؛ ودفعه آخرون فزعموا أن ذلك إنما احتيج إليه فى هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل ، وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ والفرح والسرور ، واختلافهم فى الدوام والانقطاع ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه . ويحتمل أن يراد وصف الأولين . ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه . فإن قلت : فإن أريد بهؤلاء غير أولئك ، فهل يدخلون فى جملة المتقين أم لا ؟ . قلت : إن عطفتهم على (الذين يؤمنون بالغيب) دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزمرتين من مؤمنى أهل الكتاب وغيرهم . وإن عطفتهم على (المتقين) لم يدخلوا . وكأنه قيل : هدى للمتقين ، وهدى الذين يؤمنون بما أنزل إليك . فإن قلت : قوله ﴿ بما أنزل إليك ﴾ إن عنى به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها ، فلم يكن ذلك منزلا وقت إيمانهم ، فكيف قيل أنزل بلفظ المضىّ ؟ وإن أريد المقدار الذى سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومترقبه واجب . قلت : المراد المنزل كله وإنما عبر عنه بلفظ المضىّ وإن كان بعضه مترقباً ، تغليبا للموجود على مالم يوجد ، كما يغلب المتكلم على المخاطب ، والمخاطب على الغائب فيقال : أنا وأنت فعلنا ، وأنت وزيد تفعلان . ولأنه إذا كان بعضه نازلا وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله ، ويدل عليه قوله تعالى (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) ولم يسمعوا جميع الكتاب ، ولا كان كله منزلا ، ولكن سبيله سبيل ماذكرنا . ونظيره قولك : كل ما خطب به فلان فهو فصيح ، وما تكلم بشىء إلا وهو نادر . ولا تريد بهذا الماضى منه فحسب دون الآتى ، لكونه معقوداً بعضه ببعض ، ومربوطا آتيه بماضيه . وقرأ يزيد بن قطيب ﴿ بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ على لفظ ماسمى فاعله . وفى تقديم (الآخرة) وبناء (يوقنون) على (هم) تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأنّ قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . والإيقان : إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه . و﴿ الآخرة ﴾ تأنيث الآخر الذى هو

(١) قوله « واجتماعهم على الاقرار » لعله عطف على مجرور « من » البيانية ، باعتبار ما عطف عليه من افتراقهم واختلافهم الآتيين فتدبر . (ع)

نقيض الأول ، وهي صفة الدار بدليل قوله : (تلك الدار الآخرة) وهي من الصفات الغالبة ، وكذلك الدنيا . وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام ، كقوله (دابة الأرض) وقرأ أبو حية [1] النميرى ﴿ يؤقنون ﴾ بالهمز ، جعل الضمة فى جار الواو كأنها فيه ، فقلبها قلب واو « وجوه » و « وقتت » . ونحوه :

لَحُبُّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ [2]

* * *

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿أولئك على هدى﴾ الجملة فى محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ ؛ وإلا فلا محل لها . ونظم الكلام على الوجهين : أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب . فقد ذهبت به مذهب الاستئناف . وذلك أنه لما قيل : (هدى للمتقين) واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى ، اتجه لسائل أن يسأل فيقول : ما بال المتقين مخصوصين بذلك ؟ فوقع قوله : (الذين يؤمنون بالغيب) إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر . وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التى استوجبوا بها من الله أن يلطف بهم ، ويفعل بهم مالا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أى الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم ، أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح . ونظيره

---

(١) قوله « وقرأ أبو حية » لعله : أبو حيوة . (ع)

(٢) لجرير فى مدح هشام بن عبد الملك وموسى ابنه وجعدة بنته ، وقيل ابنه أيضا وليس كذلك . واللام للقسم . وحب أصله حبب ـ كظرف ـ نقلت حركة الباء إلى الحاء ثم أدغمت فى الأخرى . ومعناه : إنشاء المدح كنعم ، ويفيد التعجب أيضا كـ « ما أحب » . وقد تفتح حاؤه إذا كان فاعله ذا والمؤقدان بالهمز فاعل . ومؤسى بالهمز أيضا . وجعدة المخصوص بالمدح على طريقة : نعم لرجل زيد . و « حب » : محول من « حب » الثلاثى كضرب ، وإن كان الكثير « أحب » الرباعى ؛ لأنه لا يصاغ المدح إلا من الثلاثى . فان قلت : أهو محول من « حب » المسند للفاعل ، أم من « حب » المبنى للمجهول ؟ قلت : إن كان من المسند للفاعل فالمؤقدان محبوبان ، وإن كان من المسند للمفعول فالتحويل تقديرى . فالظاهر أنه مصوغ من المادة من غير ملاحظة إسناد . ويجوز أن « حب » أصله « حبب » ـ كضرب مبنى للمجهول ـ فالمؤقدان نائب فاعل ، ومؤسى وجعدة بدل أو بيان . والمعنى على الخبر لا الانشاء . وروى : أحب الموقدين ، باضافة أفعل التفضيل إلى صيغة الجمع ؛ فمؤسى وجعدة خبر . وسوغ قلب واو الموقدين وموسى همزة ، ضم ما قبلها ، فكأنها مضمومة ، وهى إذا ضمت تبدل همزة . ويقال : أضاء المكان وأضاءه السراج . وما هنا من الثانى ، فهو متعد بمعنى أنارهما الوقود بالضم : أى توقد نار القرى وتلتهبها ، وأما بالفتح فهو ما توقد به . وأصل فعول أنه مبالغة فى الفاعل كضروب ، وكثر بمعنى ما يفعل به الفعل كوقود وسحور ، فيحتمل أنه من قبيل اسم المفعول ، وأنه من قبيل اسم الآلة شذوذاً . والمعنى : ما أحبهما إلى وقت بأن أظهرتهما النار التى يوقدانها لقرى الأضياف

قولك : أحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار الذين قارعوا دونه ، وكشفوا الكرب عن وجهه ، أولئك أهل للمحبة . وإن جعلته تابعاً للمتقين ، وقع الاستئناف على أولئك ؛ كأنه قيل : ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين ، غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا ، وبالفلاح آجلا . واعلم أنّ هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ، كقولك : قد أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان . وتارة بإعادة صفته ، كقولك : أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ؛ فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ ، لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه . فإن قلت : هل يجوز أن يجرى الموصول الأوّل على المتقين ، وأن يرتفع الثانى على الابتداء وأولئك خبره ؟ قلت : نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله . وفى اسم الإشارة الذى هو (أولئك) إيذان بأنّ ما يرد عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التى عدّدت لهم ، كما قال حاتم : ولله صعلوك ثم عدّد له خصالا فاضلة ، ثم عقب تعديدها بقوله :

فَذٰلِكَ إِنْ يَهْلِكْ فَحُسْنَى ثَنَاؤُهُ وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفاً مُذَمَّمَا [1]

ومعنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى ، واستقرارهم عليه ، وتمسكهم به . شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه . ونحوه : هو على الحق وعلى الباطل .

---

(١) ويغشى إذا ما كان يوم كريهة صدور العوالى وهو مختضب دما
أو الحرب أبدت ناجذيها وشمرت وولى هدان القوم أقدم معلما
فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

لحاتم الطائى ، يرثى رجلا بأنه عالى الهمة ، وإذا كان يوم حرب يذهب إلى صدور الرماح وينزل فيما بينها ، والحال أنه مختضب بالدم منها . وقوله « أو الحرب » عطف على قوله « كان يوم كريهة » وإسناد إبداء الناجذ والتشمير عن الساعد مثلا إلى الحرب مجاز عقلى ، لأنها سبب فى أن الفرسان يفعلون ذلك . ويجوز أنه شبهها فى قوتها واشتدادها بشجاع يفعل ذلك على طريق الكناية وإبداء الناجذ والتشمير تخييل . والناجذ : آخر الأضراس وهو ضرس الحلم . والهدان ـ ككتاب ـ : الأحمق الثقيل ، وجمعه هدون ـ من الهدنة وهى السكون ـ . وأقدم : جواب الشرط ، معلما للناس بأنه فلان على عادة الفرسان ، أو معلما فرسه مسومها . فذلك الموصوف بتلك الصفات المختص بتلك الخصال ، هو المستحق لأن يقال فيه إن يهلك ويمت فيكفى ثناؤه فخراً : أى ذكره بين الناس بالجميل . وقوله « إن عاش » شرط لا يقتضى الوقوع ، لكن ذكره دلالة على أنه محمود الفعال على أى حال . وقوله « لم يقعد » قليل المدح فى الظاهر كثيره عند أولى البصائر : أى بل يقعد على حاله المشهورة وخصاله الجيدة .

وقد صرّحوا بذلك فى قولهم : جعل الغواية مركباً ، وامتطى الجهل [1] واقتعد غارب الهوى .

ومعنى ﴿هدى من ربهم﴾ أى منحوه من عنده وأوتوه من قبله ، وهو اللطف والتوفيق الذى اعتضدوا به على أعمال الخير ، والترقى إلى الأفضل فالأفضل . ونكر (هدى) ليفيد ضربا مبهماً لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره ؛ كأنه قيل : على أى هدى ، كما تقول : لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا . وقال الهذلى :

فَلَا وَأَبِي الطَّيْرِ الْمُرِبَّةِ بِالضُّحَى [2] عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتِ عَلَى لَحْمِ [3]

والنون فى (من ربهم) أدغمت بغنة وبغير غنة . فالكسائى ، وحمزة ، ويزيد ، وورش فى رواية والهاشمى عن ابن كثير لم يغنوها . وقد أغنها الباقون إلا أباعمرو ، فقد روى عنه فيها روايتان .

وفى تكرير ﴿أولئك﴾ تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى ، فهى ثابتة لهم بالفلاح ؛ فجعلت كلّ واحدة من الأثرتين فى تميزهم بالمثابة التى لو انفردت كفت مميزة على حيالها . فإن قلت : لم جاء مع العاطف ؟ وما الفرق بينه وبين قوله : (أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) ؟ قلت : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف ، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان ؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شىء واحد ، فكانت الجملة الثانية مقررة لما فى الأولى فهى من العطف بمعزل

---

(١) قوله « وامتطى الجهل » أى اتخذ الجهل مطية ، واتخذ الهوى قعوداً . والقعود من الابل : البكر حين يركب . والغارب : ما بين السنام إلى العنق ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله « وأبى الطير المربة بالضحى » أى المجتمعة العاكفة . أفاده الصحاح (ع)

(٣) فلا وأبى الطير المربة بالضحى على خالد لقد وقعت على لحم
فلا وأبى لا يأكل الطير مثله عشية أمسى لا يبين من السلم

لأبى كبير الهذلى يرثى خالد بن زهير . ولا زائدة قبل القسم . واستعظم الطير الواقعة عليه فأقسم بها ، وكنى عنها بأبى الطير كما يكنى عن العظيم بأبى فلان . وأصل أبى هنا : أبين ، على صيغة جمع المذكر السالم ، سقطت نونه للاضافة . ويحتمل أنه مفرد والمراد به النسر ؛ لأنه يكنى بأبى الطير . ويجوز أن يريد بأبى الطير خالداً لوقوعها عليه ، ويجوز أن يريد به أصلها . ويروى : لعمر أبى الطير المربة غدوة ... الخ . ويروى هذا برفع الطير . ولعله على الابتداء أو الخبرية لمحذوف ، أو على تقدير النداء ، وإلى مضاف إلى ضمير المتكلم كالذى بعده . ويقال : أرب بالمكان وألب به . أقام فيه ولازمه ، فالمربة المقيمة العاكفة وقت الضحى على خالد القتيل . والتفت إلى خطاب الطير فقال لها : لقد وقعت . ويروى علقت ، على لحم ـ بالتحريك ـ على لمة وتنكيره للتعظيم : أى على لحم عظيم . وأنثها لأنها جماعة فى المعنى . فان قرىء بفتح التاء فظاهر ، وخاطبه لتنزيله منزلة العاقل ، ثم أقسم بأبيه أن الطير لا يأكل مثل خالد فى العظم عشية أمسى لا يظهر لنا من السلم ـ وهو شجر العضاه ـ كناية عن كونه قتيلا فيه والطير حوله على ذلك الشجر . وفى البيتين التفاتان .

و ﴿هم﴾ فصل : وفائدته : الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره . أو هو مبتدأ والمفلحون خبره ، والجملة خبر أولئك .

ومعنى التعريف فى ﴿المفلحون﴾ : الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون فى الآخرة كما إذا بلغك أن إنسانا قد تاب من أهل بلدك ، فاستخبرت من هو ؟ فقيل زيد التائب ، أى هو الذى أخبرت بتوبته . أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ماهم ، وتصوروا بصورتهم الحقيقية ، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة . كما تقول لصاحبك : هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام ؟ إن زيداً هو هو . فانظر كيف كرر الله عزّ وجلّ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل مالا يناله أحد على طرق شتى ، وهى : ذكر اسم الإشارة ، وتكريره ، وتعريف المفلحين ، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ؛ ليبصرك مراتبهم ويرغبك فى طلب ما طلبوا ، وينشطك لتقديم ما قدموا ، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمنى على الله مالا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته . اللهمّ زينا بلباس التقوى ، واحشرنا فى زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة . والمفلح : الفائز بالبغية كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه . والمفلج ـ بالجيم ـ مثله . ومنه قولهم المطلقة : استفلحى بأمرك بالحاء والجيم . والتركيب دال على معنى الشق والفتح ، وكذلك أخواته فى الفاء والعين ، نحو : فلق ، وفلذ ، وفلى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لما قدم ذكر أوليائه وخالصة عباده بصفاتهم التى أهلتهم لإصابة الزلفى عنده ، وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة ، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى ، ولا يجدى عليهم اللطف ، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه ، وإنذار الرسول وسكوته . فإن قلت : لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله : (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) وغيره من الآى الكثيرة ؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت ؛ لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين ، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت ، فبين الجملتين تباين فى الغرض والأسلوب ، وهما على حدّ لا مجال فيه للعاطف . فإن قلت : هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين ، فأمّا إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين ، ثم عقبته بكلام آخر فى صفة أضدادهم ، كان

مثل تلك الآى المتلوة . قلت : قد مرّ لى أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف ، وأنه مبنىّ على تقدير سؤال ، فذلك إدراج له فى حكم المتقين ، وتابع [١] له فى المعنى ؛ وإن كان مبتدأ فى اللفظ فهو فى الحقيقة كالجارى عليه .

والتعريف فى ﴿ الذين كفروا ﴾ يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم ، وأن يكون للجنس متناولا كلّ من صمم على كفره تصميما لايرعوى بعده [٢] وغيرهم ، ودل على تناوله المصرين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم ، و ﴿ سواء ﴾ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر . ومنه قوله تعالى : (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) ، (فى أربعة أيام سواء للسائلين) بمعنى مستوية وارتفاعه على أنه خبر لإنّ ، و ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ فى موضع المرتفع به على الفاعلية ؛ كأنه قيل : إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه . كما تقول : إنّ زيدا مختصم أخوه وابن عمه . أو يكون أأنذرتهم أم لم تنذرهم فى موضع الابتداء ، وسواء خبراً مقدما بمعنى : سواء عليهم إنذارك وعدمه ، والجملة خبر لإنّ . فإن قلت : الفعل أبداً خبر لامخبر عنه فكيف صحّ الإخبار عنه فى هذا الكلام ؟ قلت : هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى ، وقد وجدنا العرب يميلون فى مواضع من كلامهم مع المعانى ميلا بيناً ، من ذلك قولهم : لاتأكل السمك وتشرب اللبن ، معناه لايكن منك أكل السمك وشرب اللبن ، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل . والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء [٣] وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً . قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك : اللهمّ اغفر لنا أيتها العصابة ، يعنى أنّ هذا جرى على صورة

---

(١) قوله « وتابع له فى المعنى » لعله واتباع له (ع)

(٢) قوله « بعده وغيرهم » لعله كهؤلاء وغيرهم (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : « والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وحاصل هذا النقل استعمال الحرف فى أعم معناه ، فالهمزة المعادلة لأم موضوعة فى الأصل للاستفهام عن أحد متداولين فى عدم علم التعين فنقلت إلى مطلق المعادلة وإن لم يكن استفهاما ، واستعملت فى الجزء الحقيقى . وكذلك حرف النداء موضوع فى الأصل لتخصيص المبادئ بالدعاء ، ثم نقل إلى مطلق التخصيص ولا نداء ، كما يكون المجاز بالتخصيص والقصر مثل تخصيص الدابة بذوات الأربع وإن كانت فى الأصل لكل ما دب ، فقد يكون بالتعميم والتعدى مثل تسمية الرجل الشجاع أسداً نقلا لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص وهو الحيوان المعروف ، إلى كل موصوف بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلى .

الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء . ومعنى الاستواء استواؤهما فى علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن ، إمّا الإنذار وإمّا عدمه ، ولكن لابعينه ، فكلاهما معلوم بعلم غير معين . وقرئ : (أأنذرتهم) بتحقيق الهمزتين ، والتخفيف أعرب وأكثر ، وبتخفيف الثانية بين بين ، وبتوسيط ألف بينهما محققتين ، وبتوسيطها والثانية بين بين ، وبحذف حرف الاستفهام ، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله ، كما قرئ (قد أفلح) . فإن قلت : ماتقول فيمن يقلب الثانية ألفاً ؟ قلت : هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين : أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّه ـ وحدّه أن يكون الأوّل حرف لين والثانى حرفاً مدغماً نحو قوله : الضالين ، وخويصة[1] ؛ والثانى : إخطاء طريق التخفيف ؛ لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ماقبلها أن تخرج بين بين ، فأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ماقبلها كهمزة رأس . والإنذار : التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصى . فإن قلت : ماموقع ﴿ لايؤمنون ﴾ ؟ قلت : إمّا أن يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها ، أو خبراً لإنّ والجملة قبلها اعتراض .

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

الختم والكتم أخوان ؛ لأن فى الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتما له وتغطية لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه .

والغشاوة الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه ، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة . فإن قلت : مامعنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ قلت : لاختم ولا تغشية[2] ثم على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل . أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لاينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم ، وأبصارهم لأنها لاتجتلى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحجبت ، وحيل بينها وبين الإدراك . وأمّا التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها فى الأغراض الدينية التى كلفوها وخلقوا من

---

(١) قوله « وخويصة » مسلم من رواية زياد بن رياح عن أبى هريرة رضى الله عنه : « بادروا بالأعمال ستا ... » فذكره . وفيه « وخويصة أحدكم » .

(٢) قوله « لا ختم ولا تغشية » ولا تغطية .

أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية . وقد جعل بعض المازنيين الحبسة فى اللسان والعىّ ختما عليه فقال :

خَتَمَ الإِلٰهُ عَلى لِسانِ عُذَافِرٍ   خَتْماً فَلَيْسَ عَلى الكَلامِ بِقَادِرِ
وإِذا أَرادَ النُّطْقَ خِلْتَ لِسانَهُ   لَحْماً يُحَرِّكُهُ لِصَقْرٍ نَاقِرِ [(١)]

فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى[(٢)] وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل

---

(١) لرجل من فزارة واستعار الختم المانع من زيادة الكتاب ونقصه للمنع من الكلام . وعذافر ـ بالضم ـ اسم رجل . ويطلق على الشديد العظيم ، وعلى الأسد . والبيت معناه الاخبار عن حال عذافر ، وهو الظاهر من التفريع ويبعد أنه دعاء عليه . وفاعل يحرك لعذافر . شبه لسانه باللحم الذى ينقره الصقر بجامع تحرك كل بغير استقامة مع عدم التلفظ ، وهذا مما يدل على أن البيت إخبار لا دعاء .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت فلم أسند الختم إلى الله تعالى ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : هذا أول عشواء خبطها فى مهواة من الأهواء هبطها ، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويله ؛ ابتغاء الفتنة استبقاء لما كتب عليه من المحنة ، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردها :

الأولى : مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى . ومقتضاه أنه لاحادث إلا بقدرة الله تعالى لاشريك له ، والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث ؛ فوجب انتظامه فى سلك متعلقات القدرة العامة المتعلق بالكائنات والممكنات .

الثانية : مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل كأمثال قوله تعالى : (الله خالق كل شيء) ، (هل من خالق غير الله) وهذه الآية أيضا ؛ فان الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصا . والزمخشرى رحمه الله لايأبى ذلك ، ولكنه يدعى الالتجاء إلى تأويلها لدليل قام عنده عليه . فاذا أثبت أن الدليل العقلى على وفق مادلت عليه ، وجب عليه إبقاؤها على ظاهرها بل لووردت على خلاف ذلك ظاهرا ، لوجب تأويلها بالدليل جمعاً بين العقل والنقل .

الثالثة : الفرار من نسبة ما اعتقده قبحاً إلى الله تعالى تنزيها ، على زعمه أن الاشراك به فى اعتقاد أن الشيطان هو الذى يخلق الختم والكافر يخلقه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه . فلقد استوخم من السنة المناهل العذاب وورد من حميم البدعة موارد العذاب .

الرابعة : الغلط باعتقاد أن مايقبح شاهدا يقبح غائبا ، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحا فى الشاهد وجب على زعمه أن يكون قبيحا من الغائب . وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها فى فنها .

الخامسة : اعتقاده أن ذلك لوفرض وجوده بقدرة الله تعالى لكان ظلما ، والله تعالى منزه عن الظلم بقوله تعالى (وما أنا بظلام للعبيد) ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم ؛ فانه التصرف فى ملك الغير بغير إذنه . فكيف يتصور ثبوت حقيقته لله تعالى ؟ وكل مفروض محصور بسور ملكه عز وجل : الملك لله الواحد القهار .

السادسة : أنه فر من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى فتورط فيه إلى عنقه ؛ لأنه قد جزم بأن المنع من قبول الحق لو كان من فعل الله تعالى لكان ظلما . فيقال له : وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى فيلزمك أن يكون ظلما ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ـ

والخيال الذى يدندن حوله هؤلاء : أن أفعال العبد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها على عباده ولاعاقبهم

إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح [1] علوا كبيرا لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: (وما أنا بظلام للعبيد)، (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين)، (إنّ الله لا يأمر بالفحشاء) ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أنّ هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ فى الثبات عليه. وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم؟ ويجوز أن تضرب الجملة كما هى، وهى ختم الله على قلوبهم مثلا كقولهم: سال به الوادى، إذا هلك. وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادى ولا للعنقاء عمل فى هلاكه ولا فى

= ولا قامت حجة الله عليهم. وهذه الشبه قد أجراها فى أدراج كلامه المتقدم، فيقال لهم: لم قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله لما نعاها على عباده؟ فان أسندوا هذه الملازمة ـ وكذلك يفعلون ـ إلى قاعدة التحسين والتقبيح وقالوا: معاقبة الانسان بفعل غيره قبيحة فى الشاهد لاسيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل فيلزم طرد ذلك غائباً. قيل لهم: ويقبح فى الشاهد أيضاً أن يمكن الانسان عبده من القبائح والفواحش بمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك من القدرة على ردعه ورده من الأول عنها. وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن القدرة التى بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى، على علم منه عز وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو بمثابة إعطاء سيف باتر لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل ويسبي به الحريم، وذلك فى الشاهد قبيح جزما. فسيقولون: أجل إنه لقبيح فى الشاهد، ولكن هناك حكمة استأثر الله تعالى بعلمها فرقت بين الشاهد والغائب، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع القدرة على أن لا يقع منه شيء، ولم يحسن ذلك فى الشاهد. وفى هذا الموطن تتزلزل أقدامهم وتتنكس أعلامهم، إذا لاحت لهم قواطع اليقين وبوارق البراهين؛ فيقال لهم: ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى ويعاقب العبد عليها لمصلحة وحكمة استأثر الله بها كما فرغتم منه الآن سواء؟ فلم لا يسلك أحدكم الطريق الأعدل وينظر عاقبة هذا الأمر فيصير آخر أول، وليفوض من الابتداء إلى خالقه، ويتلق حجة الله تعالى عليه بالقبول والتسليم، ويسلك مهتديا بنور العقل ومقتديا بدليل الشرع الصراط المستقيم؛ فان نازعته النفس وحادثته الهواجس ورغب فى مستند من حيث النظر يأنس به من مفاوز الفكر، فليخطر بباله ما ذكر عند كل عاقل من التمييز بين الحركة الاختيارية والقسرية، فلا يجد عنده فى هذه التفرقة ريباً. فاذا استشعر ذلك فليتنبه فقد لطف به إلى أن انحرف عن مضايق الجبر، فاذا أن يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال، فليمسك نفسه دونها بزمام دليل الوحدانية على أن لا فاعل ولا خالق إلا الله تعالى، فاذا وقف لم يقف إلا وهو على الصراط المستقيم والطريقة المثلى، ماراً عليها فى أسرع من البرق الخاطف والريح العاصف؟ فليتأمل الناظر هذا الفصل، ويتخذه وزره فى قاعدة الأفعال، يقف على الحق إن شاء الله تعالى.

(١) قوله «والله يتعالى عن فعل القبيح» هذا مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فيجوز عليه تعالى خلق الشر وإرادته كالخير، وإن كان لا يأمر إلا بالخير. والختم على القلوب عندهم. خلق الضلال فيها كما بين فى علم التوحيد. (ع)

طول غيبته ؛ وإنما هو تمثيل مثلت حاله فى هلاكه بحال من سال به الوادى ، وفى طول غيبته بحال من طارت به العنقاء ؛ فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافى عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغتام [1] التى هى فى خلوها عن الفطن كقلوب البهائم ، أو بحال قلوب البهائم أنفسها ، أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لاتعى شيئا ولا تفقه ، وليس له عز وجل فعل فى تجافيها عن الحق ونبوّها عن قبوله ، وهو متعال عن ذلك . ويجوز أن يستعار الإسناد فى نفسه من غير الله لله ، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز . وهو لغيره حقيقة . تفسير هذا : أنّ للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له ؛ فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة ؛ وذلك لمضاهاتها للفاعل فى ملابسة الفعل ، كما يضاهى الرجل الأسد فى جراءته فيستعار له اسمه ، فيقال فى المفعول به : عيشة راضية ، وماء دافق . وفى عكسه : سيل مفعم [2] . وفى المصدر : شعر شاعر ، وذيل ذائل . وفى الزمان : نهاره صائم . وليله قائم . وفى المكان : طريق سائر ، ونهر جار . وأهل مكة يقولون : صلى المقام . وفى المسبب : بنى الأمير المدينة ، وناقة ضبوث [3] وحلوب . وقال :

* إِذَا رَدَّ عَافِى الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا [4] *

---

(١) قوله « نحو قلوب الأغتام » الذى فى الصحاح : الغتمة العجمة ، والأغتم الأعجم الذى لايفصح شيئا ، والجمع غتم . (ع)

(٢) قوله « سيل مفعم » فى الصحاح : أفعمت الاناء ملأته ، وفيه أيضاً : يقال : ذيل ذائل ، وهو الهوان والخزى . (ع)

(٣) قوله « وناقة ضبوث » فى الصحاح : ناقة ضبوث ، يشك فى سمنها فتضبث ، أى تجس باليد . (ع)

(٤)
فلا تسأليني واسألى عن خليقتى ... إذا رد عافى القدر من يستعيرها
فكانوا قعوداً فوقها يرقبونها ... وكانت فتاة الحى ممن يعيرها

لعوف بن الأحوص الباهلى . وقيل : للكميت . يقول : فلا تسأليني عن طبيعتى واسألى غيرى عنها ، وقت أن يمنع عافى القدر ـ أى طالب الرزق الذى فيها ـ من يستعيرها ليطبخ فيها . وإسناد الرد للعافى مجاز عقلى ؛ لأن المانع فى الحقيقة هو صاحب القدر بسبب طالب الرزق ، ولم يسنده إلى نفسه تبرءاً من نسبة الرد إليها ، إلا أن يراد جنس القدر لا قدره هو فقط ؛ فالمعنى : إذا أجدب الزمان على ما سيأتى . وجمع الضمير فى قوله « فكانوا » لأن العافى متعدد فى المعنى : أى فكأن العفاة قاعدين حولها ينتظرون نضج ما فيها . وكانت فتاة الحى ـ يعنى حيه ـ من جملة من يعير القدر . ويجوز أن ضمير « كانوا » لمن يستعيرها . ويحتمل أن « عافى القدر » بقية ما كان فيها من المرق ، والاسناد مجازى أيضا على معنى أن من يستعيرها يجدها مشغولة ، وهو دليل على كثرة طبخه للضيفان .

فالشيطان هو الخاتم فى الحقيقة أو الكافر ؛ إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذى أقدره ومكنه ، أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب . ووجه رابع : وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغنى عنهم الآيات والنذر ، ولا تجدى عليهم الألطاف المحصلة ولا المقربة إن أعطوها ، لم يبق ـ بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعا واختياراً ـ طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء . وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجئهم ثم لم يقسرهم ولم يلجئهم لئلا ينتقض الغرض فى التكليف ، عبر عن ترك القسر والإلجاء بالختم ، إشعاراً بأنهم الذين ترامى أمرهم فى التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حدّ لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإلجاء ، وهى الغاية القصوى فى وصف لجاجهم فى الغى واستشرائهم فى الضلال والبغى . ووجه خامس : وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه تهكما بهم من قولهم : (فى قلوبنا أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب) ونظيره فى الحكاية والتهكم قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) . فإن قلت : اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة فى حكم الختم وفى حكم التغشية [1] فعلى أيهما يعوّل ؟ قلت : على دخولها فى حكم الختم لقوله تعالى : (وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة) ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم . فإن قلت : أىّ فائدة فى تكرير الجارّ فى قوله (وعلى سمعهم) ؟ قلت : لو لم يكرر لكان انتظاما للقلوب والأسماع فى تعدية واحدة ؛ وحين استجدّ للأسماع تعدية على حدة ، كان أدل على شدة الختم فى الموضعين . ووحد السمع كما وحد البطن فى قوله : كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ، يفعلون ذلك إذا أمن اللبس . فإذا لم يؤمن كقولك : فرسهم ،

= ويجوز أن المراد أن الحالة جدب حتى أن صاحب القدر يرد المستعير حرصا على ما فيها من بقية المرق ولو قليلة ؛ فضمير «كانوا» لمن يستعيرها ويجوز أن عافى القدر : مفعول لم يظهر نصبه للوزن ، و «من يستعيرها» فاعل ؛ لأنه كان من عادة العرب فى الجدب أن يرد المستعير بقية من المرق فى القدر للمعير ، فهو كناية عن الجدب ؛ لكن لا تتم مناسبة لما بعده : ويجوز أن يكون المعنى إذا منع مستعير القدر عافيها أى طالب الرزق منها لبخله وعدم نزول الضيفان عنده ، لا يملك لنفسه قدرا ، فاذا استعار قدرا ليطبخ فيها مرة منع طالب الرزق منها . وعلى هذا يحتمل أنه جمع حذفت نونه للاضافة فنصبه بالياء ، فهذه أربعة وجوه .

(١) قال محمود رحمه الله : «اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة فى حكم الختم وفى حكم التغشية ... الخ» . قال أحمد رحمه الله وكان جدى رحمه الله يذكر هذا ويزيد عليه أن الأسماع والقلوب لما كانت محوية كان استعمال الختم لها أولى ، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق بظاهرها كان الغشاء لها أليق .

وثوبهم ، وأنت تريد الجمع رفضوه . ولك أن تقول : السمع مصدر فى أصله ، والمصادر لاتجمع . فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن فى قوله : (وفى آذاننا وقر) وأن تقدّر مضافا محذوفا : أى وعلى حواس سمعهم . وقرأ ابن أبى عبلة : وعلى أسماعهم . فإن قلت : هلا منع أبا عمرو والكسائى من إمالة أبصارهم مافيه من حرف الاستعلاء وهو الصاد ؟ قلت : لأنّ الراء المكسورة تغلب المستعلية ، لما فيها من التكرير كأن فيها كسرتين ، وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لايمال . والبصر نور العين ، وهو مايبصر به الرائى ويدرك المرئيات . كما أن البصيرة نور القلب ، وهوما به يستبصر ويتأمل . وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار .

وقرئ ﴿غشاوة﴾ بالكسر والنصب . وغشاوة : بالضم والرفع . وغشاوة : بالفتح والنصب . وغشوة : بالكسر والرفع . وغشوة: بالفتح والرفع والنصب . وعشاوة : بالعين غير المعجمة والرفع ، من العشا .

والعذاب : مثل النكال بناء ومعنى ؛ لأنك تقول : أعذب عن الشيء ، إذا أمسك عنه . كما تقول : نكل عنه . ومنه العذب ؛ لأنه يقمع العطش ويردعه ، بخلاف الملح فإنه يزيده . ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخا ؛ لأنه ينقخ العطش أى يكسره . وفراتا ، لأنه يرفته على القلب . ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذابا ، وإن لم يكن نكالا - أى عقاباً يرتدع به الجانى عن المعاودة .

والفرق بين العظيم والكبير ، أن العظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير . فكأن العظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير . ويستعملان فى الجثث والأحداث جميعاً . تقول : رجل عظيم وكبير ، تريد جثته أو خطره . ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعا من الأغطية غير مايتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله . ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لايعلم كنهه إلا الله .

اللهم أجرنا من عذابك ولا تبلنا بسخطك ياواسع المغفرة .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ووافق سرهم علنهم وفعلهم قولهم. ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوبا وألسنة. ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم: (مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) وسماهم المنافقين ، وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده ؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً ، وبالشرك استهزاء وخداعا . ولذلك أنزل فيهم (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ووصف حال الذين كفروا فى آيتين ، وحال الذين نافقوا فى ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم ، وفضحهم وسفههم ، واستجهلهم واستهزأبهم ، وتهكم بفعلهم ، وسجل بطغيانهم ، وعمههم ودعاهم صما بكما عمياً ، وضرب لهم الأمثال الشنيعة . وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة .

وأصل (ناس) أناس ، حذفت همزته تخفيفاً كما قيل : لوقة ، فى ألوقة [1] . وحذفها مع لام التعريف كاللازم لا يكاد يقال الأناس . ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسى وإنس . وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون ، كما سمى الجنّ لاجتنانهم . ولذلك سموا بشراً . ووزن ناس فعال ؛ لأن الزنة على الأصول . ألا تراك تقول فى وزن « قه » افعل ، وليس معك إلا العين وحدها ؟ وهو من أسماء الجمع كرخال [2] . وأما نويس فمن المصغر الآتى على خلاف مكبره كأنيسيان ورويجل . ولام التعريف فيه للجنس . ويجوز أن تكون للعهد ، والإشارة إلى الذين كفروا المارّ ذكرهم ؛ كأنه قيل : ومن هؤلاء من يقول . وهم عبدالله بن أبىّ وأصحابه ومن كان فى حالهم من أهل التصميم على النفاق . ونظير موقعه موقع القوم فى قولك : نزلت ببنى فلان فلم يقرونى والقوم لئام .

ومن فى ﴿ من يقول ﴾ موصوفة ، كأنه قيل : ومن الناس ناس يقولون كذا ، كقوله (من المؤمنين رجال) إن جعلت اللام للجنس . وإن جعلتها للعهد فموصولة ، كقوله : (ومنهم الذين يؤذون النبي) . فإن قلت : كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم ؟ قلت : الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً . وكون المنافقين نوعا من نوعى هذا

(١) قوله «كما قيل لوقة فى ألوقة» اللوقة والألوقة : الزبدة . أفاده الصحاح (ع)

(٢) قوله «من أسماء الجمع كرخال» الرخل - بالكسر - : الأنثى من ولد الضأن ، والجمع رخال بالكسر ، وبالضم كذا فى الصحاح . (ع)

الجنس - مغايراً للنوع الآخر بزيادةزادوها على الكفر الجامع بينهمامن الخديعة والاستهزاء - لايخرجهم من أن يكونوا بعضا من الجنس ؛ فإن الأجناس إنما تتنوّعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض . وتلك المغايرات إنما تأتى بالنوعية ولا تأبى الدخول تحت الجنسية . فإن قلت : لم اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ؟ قلت : اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم فى الخبث وتماديهم فى الدعارة ؛ لأن القوم كانوا يهوداً ، وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان ، لقولهم : (عزير ابن الله) . وكذلك إيمانهم باليوم الآخر ، لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته ، فكان قولهم : (آمنا بالله وباليوم الآخر) خبثاً مضاعفاً وكفراً موجهاً ، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم ، فهو كفر لا إيمان . فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم ، وأروهم أنهم مثلهم فى الإيمان الحقيقى ، كان خبثا إلى خبث ، وكفراً إلى كفر . وأيضا فقد أوهموا فى هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان [١] من جانبيه ، واكتنفوه من قطريه ، وأحاطوا بأوّله وآخره . وفى تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام . فإن قلت : كيف طابق قوله : (وما هم بمؤمنين) قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) والأول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟ قلت : القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه ، فسلك فى ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلوب . وفيه من التوكيد والمبالغة ماليس فى غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين فى الإيمان . وإذا شهد عليهم بأنهم فى أنفسهم على هذه الصفة ، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع . ونحوه قوله تعالى : (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) هو أبلغ من قولك : وما يخرجون منها . فإن قلت : فلم جاء الإيمان مطلقا فى الثانى وهو مقيد فى الأول ؟ قلت : يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه ، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان فى شىء قط ، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ، ولا من الإيمان بغيرهما . فإن قلت : ما المراد باليوم الآخر ؟ قلت : يجوز أن يراد به الوقت الذى لا حدّ له وهو الأبد الدائم الذى لا ينقطع ، لتأخره عن الأوقات المنقضية . وأن يراد الوقت المحدود من

---

(١) قوله «واختاروا الإيمان» لعله احتازوا - بالحاء المهملة والزاى - كما فى عبارة البيضاوى (ع)

النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، لأنه آخر الأوقات المحدودة الذى لا حدّ للوقت بعده .

والخدع : أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه . من قولهم : ضب خادع وخدع ، إذا أمر الحارش يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر . فإن قلت : كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لاتصح [1] لأن العالم الذى لاتخفى عليه خافية لايخدع ، والحكيم الذى لايفعل القبيح لايخدع ، والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم يجز أن يخدعوا . ألا ترى إلى قوله :

---

(١) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لاتصح .. الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : هذا الفصل من كلام الزمخشرى جمع فيه بين الغث والسمين . ونحن ننبه على ما فيه من الزبد ، ليتم للناظر أخذ ما فيه من السنة ، آمنا من التورط فى وضر البدعة ، مستعينين بالله وهو خير معين . فما خالف فيه السنة قوله : إن الله تعالى عالم بذاته ، يريد لا يعلم . وهذا مما وسمت به المعتزلة فى المقدمة من أنهم يجحدون صفات الكمال الالهى ، يبغون بذلك زعمهم التوحيد والتنزيه . ومعتقد أهل السنة أن الله تعالى عالم بعلم قديم أزلى ، متعلق بكل معلوم واجب أو ممكن أو مستحيل ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين . وحسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم فى ثبوت صفة العلم له تعالى وفى عموم تعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك . ولسنا بصدد ذكرها فى هذا الكتاب . ومما خالف فيه السنة : اعتقاده أن فى الكائنات ما ليس مخلوقا لله تعالى ؛ لأنه قبيح على زعمه كالمفهوم من الخداع فى هذه الآية . وما جره إلى هاتين النزغتين إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعا ، إلا بأنه عالم بذاته حتى تعم عالميته كل كائن فلا يخدع ؛ إذ نسبة الذات إلى الكائنات نسبة واحدة ، ولا يتم استحالة كونه تعالى خادعا إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه لأنه قبيح على زعمهم . ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه ولا شرط فيه : ونحن معاشر أهل السنة نعتقد أن الله تعالى عالم بعلم ، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعا ؛ لأن علمه عندنا عام التعلق كما وصفنا . ونعتقد أنه لا يصدر كائن فى الوجود إلا عن قدرته لا غير ، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة وإظهار المكتوم . هذا هو الموهوم منه فى الاطلاق ، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلا لما ذكره من خداع المنافقين كمقابلة المكر بمكرهم ، علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلا سماه خداعا مقابلة ومشاكلة ؛ وإلا فهو قادر على هتك سترهم وإنزال العذاب بهم رأى العين فهذا معتقد أهل السنة فى هذه الآية وأمثالها لا كالزمخشرى وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحدون فيجحدون ، وينزهون فيشركون . والله الموفق للحق . وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصدق شاهد فى أنه مجاز نفيه بعقب إثباته فى قوله (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ففى هذه التتمة نفى احتمال الحقيقة حتى تتعين جهة المجاز . ومما عده البيانيون من أدلة المجاز صدق نفيه فتأمل هذا الفصل فله على سائر الفصول الفضل .

* وَٱسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّ مُنْخَدِعٍ * (١)

وقول ذى الرمّة :

* إنَّ ٱلحَليمَ وذَا الإِسْلامِ يُخْتَلَبُ * (٢)

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع . قلت : فيه وجوه . أحدها : أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون ، صورة صنع الخادعين . وصورة صنع الله معهم ـ حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده فى عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار ـ صورة صنع الخادع ، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم . والثانى : أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه ؛ لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقا لم يكن عارفا بالله ولا بصفاته ، ولا أن لذاته تعلقا بكل معلوم ، ولا أنه غنى عن فعل القبائح ؛ فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله فى زعمه مخدوعا ومصابا بالمكروه من وجه خفى ، وتجويز أن يدلس على عباده ويخدعهم . والثالث : أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خليفته فى أرضه ، والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده ، كما يقال : قال الملك كذا ورسم كذا ؛

---

(١) واستمطروا من قريش كل منخدع . إن الكريم إذا خادعته انخدعا

كانت العرب إذا أصابها جدب فزعت إلى قريش ليستسقوا لهم ، لأنهم ولاة بيت الله وحماة حرمه ، كما فعل قوم عاد لما قحطوا . وكذلك استسقى عمر بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم . واستسقى أبو سفيان النبي صلى الله عليه وسلم فأجابه واستسقى له مع ما كان بينهما من العداوة . يقول : طلب القوم من كل منخدع من قريش المطر : أى أن يطلب لهم المطر . وقال السيد : واستمطروا ، أى استقوا وطلبوا ، فأفاد أنه على صيغة الأمر . وفى الصحاح : أى سلوه أن يعطي كالمطر مثلا ، وهو يؤيد كلام السيد . ويجوز تشبيه كل منخدع من قريش بالسحاب على سبيل المكنية ، فيطلب منه المطر . والمنخدع المغلوب لكرمه ، ويبينه قوله : إن الكريم . ويروى البيت هكذا

لا خير فى الحب لا ترجى نوافله فاستمطروا من قريش كل منخدع

ويروى «من فريق» بدل «قريش» . وقوله «لا ترجى الخ» جملة حالية للحب . وفريق موضع بعينه من الحجاز .

(٢) تزداد للعين إبهاجا إذا سفرت وتحرج العين فيها حين تنتقب

تلك الفتاة التى علقتها عرضا إن الحليم وذا الاسلام يختلب

لذى الرمة فى محبوبته مى . وسفرت المرأة : كشفت عن وجهها . وروى : إسفاراً ، بدل إبهاجا . والمراد أن إبهاجها بسفرها لعينى يزداد إذا كشفت عن وجهها . وحرجت العين ـ كتعبت ـ حارت . وروى «منها» بدل «فيها» أى من أجلها . وتنتقب : أى ترسل النقاب على وجهها . وعرضاً أى من غير قصد ولا شعور . وخلب ـ من باب قتل ـ : خدع أى هى الشابة التى اعترضنى حبها حيث لا أشعر . ثم تسلى بأن العاقل المسلم كثيراً ما يخدع .

وإنما القائل والراسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه . مصداقه قوله : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم) وقوله : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) . والرابع : أن يكون من قولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، فيكون المعنى يخادعون الذين آمنوا بالله . وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص ، ولما كان المؤمنون من الله بمكان ، سلك بهم ذلك المسلك . ومثله : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وكذلك : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) ونظيره فى كلامهم : علمت زيدا فاضلا ، والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه ؛ لأنه كان معلوما له قديما ؛ كأنه قيل : علمت فضل زيد ؛ ولكن ذكر زيد توطئة وتمهيد لذكر فضله . فإن قلت : هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح ؟ قلت : وجهه أن يقال : عنى به « فعلت » إلا أنه أخرج فى زنة « فاعلت » لأن الزنة فى أصلها للمغالبة والمباراة ، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعى إليه . ويعضده قراءة من قرأ : (يخدعون الله والذين آمنوا) وهو أبو حيوة . و (يخادعون) بيان ليقول . ويجوز أن يكون مستأنفا كأنه قيل : ولم يدعون الإيمان كاذبين وما رفقهم فى ذلك ؟ فقيل يخادعون . فان قلت : عمّ كانوا يخادعون ؟ قلت : كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإعفاؤهم عن المحاربة وعما كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار . ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغانم ونحو ذلك من الفوائد ، ومنها اطلاعهم - لاختلاطهم بهم - على الأسرار التى كانوا حراصا على إذاعتها إلى منابذيهم . فإن قلت : فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها . قلت : لم يظهر عليهم لما أحاط به علما من المصالح التى لو أظهر عليهم لانقلبت مفاسد واستبقاء إبليس وذريته ومتاركتهم وماهم عليه من إغواء المنافقين وتلقينهم النفاق أشدّ من ذلك . ولكن السبب فيه ماعلمه تعالى من المصلحة . فإن قلت : ما المراد بقوله : (وما يخادعون إلا أنفسهم) ؟ قلت : يجوز أن يراد : ومايعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها يلحقهم ، ومكرها يحيق بهم ، كما تقول : فلان يضارّ فلانا وما يضارّ إلا نفسه ، أى : دائرة الضرار راجعة إليه وغير متخطية إياه ، وأن يراد حقيقة المخادعة أى : وهم فى ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به ، وأنفسهم كذلك تمنيهم وتحدثهم بالأمانى وأن يراد : ومايخدعون فجىء به على لفظ « يفاعلون » للمبالغة . وقرئ : ومايخدعون ،

ويخدعون من خدع . ويخدعون ـ بفتح الياء ـ بمعنى يخدعون . ويخدعون . ويخادعون على لفظ مالم يسم فاعله . والنفس : ذات الشيء وحقيقته . يقال عندى كذا نفسا . ثم قيل للقلب : نفس ؛ لأن النفس به . ألا ترى إلى قولهم : المرأ بأصغريه . وكذلك بمعنى الروح وللدم نفس ؛ لأن قوامها بالدم . وللماء نفس ؛ لفرط حاجتها إليه : قال الله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حيّ) وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه ، كقولهم : فلان يؤامر نفسيه ـ إذا تردّد في الأمر اتجه له رأيان وداعيان لايدرى على أيهما يعرج كأنهم أرادوا داعي النفس ، وهاجسي النفس فسموهما : نفسين ، إما لصدورهما عن النفس ، وإما لأن الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والآمرين له ، شبهوهما بذاتين فسموهما نفسين . والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم . والمعنى بمخادعتهم ذواتهم : أن الخداع لاصق بهم لايعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم . ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم .

والشعور علم الشيء علم حس [1] من الشعار . ومشاعر الإنسان : حواسه . والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس ، وهم لتمادى غفلتهم كالذى لاحسّ له .

واستعمال المرض فى القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازا ، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول : فى جوفه مرض . والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب ، كسوء الاعتقاد ، والغل ، والحسد والميل إلى المعاصى ، والعزم عليها ، واستشعار الهوى ، والجبن ، والضعف ، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة فى نقائض ذلك . والمراد به هنا مافى قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر ، أو من الغل والحسد والبغضاء ، لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين غلا وحنقاً ويبغضونهم البغضاء التى وصفها الله تعالى فى قوله : (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) ويتحرقون عليهم حسدا (إن تمسسكم حسنة تسؤهم) وناهيك مما كان [2] من ابن أبىّ وقول سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : واعف عنه يارسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الذى أعطاك ،

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : « والشعور علم الشيء علم حس ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس الخ : أنه لما كانت مفسدة النفاق عائدة على المنافق عوداً بيناً جليا محسوساً ، نعى عليهم جهلهم بالمحسوس فنفى شعورهم به ولا كذلك معرفة الحق وتمييزه عن الباطل فانه أمر عقلى نظرى .

(٢) قوله « وناهيك مما كان » لعله : بما كان . (ع)

ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرق بذلك [١]. أو يراد ماتداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور، لأن قلوبهم كانت قوية، إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به: أن ريح الاسلام تهب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياما ثم يقرّ، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله. وإما لجراءتهم وجسارتهم فى الحروب فضعفت جبناً وخوراً [٢] حين قذف الله فى قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» [٣]. ومعنى زيادة الله إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحى فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكأن الله هو الذى زادهم ما ازدادوه إسنادا للفعل إلى المسبب له، كما أسنده إلى السورة فى قوله: (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) لكونها سببا. أوكلما زاد رسوله نصرة وتبسطا فى البلاد ونقصا من أطراف الأرض ازدادوا حسدا وغلا وبغضا وازدادت قلوبهم ضعفا وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم وجبناً وخورا. ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع. وقرأ أبو عمرو فى رواية الأصمعى: مرض، ومرضا، بسكون الراء:

يقال ألم فهو ﴿أليم﴾ كوجع فهو وجيع ووصف العذاب به نحو قوله:

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ * [٤]

---

(١) متفق عليه من رواية عروة عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فركبه وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة. فذكره مطولا

(٢) قوله «جبنا وخوراً» الخور بالتحريك: الضعف، كما فى الصحاح. (ع)

(٣) متفق عليه من حديث جابر رضى الله عنه.

(٤) أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع
وسوق كتيبة دلفت لأخرى كأن زهاءها رأس صليع
وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

لعمرو بن معديكرب صاحب ريحانة أخت دريد بن الصمة، التمس منه زواجها فأجابه ومطله. وقيل: ريحانة اسم موضع بعينه. والسميع: المسمع على اسم المفعول، أو المسموع، أو المسمع على اسم الفاعل، أو السامع وأصل فعيل أن يكون بمعنى فاعل كعليم. وكذا ماجاء بمعنى مفعول كجريح وقتيل. وندر من الرباعى بمعنى مفعل اسم فاعل كوجيع، وبمعنى مفعل اسم مفعول كسميع بمعنى مسمع اسم مفعول. وكثر سماعا بمعنى مفاعل كجليس وشريك. وسميع: مبتدأ، خبره يؤرقنى أى هل داعى الشوق من ريحانة يسهرنى والحال أن أصحابى نيام؟ والاستفهام للتعجب «وسوق كتيبة» عطف على الداعى أو على ضمير يؤرقنى. والكتيبة: الجماعة المنضمة المنتظمة. ودلف دلفاً من باب =

وهذا على طريقة قولهم : جد جده . والألم فى الحقيقة للمؤلم كما أن الجدّ للجادّ .

والمراد بكذبهم قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر . وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم . ونحوه قوله تعالى : (مما خطيآتهم أغرقوا) والقوم كفرة . وإنما خصت الخطيآت استعظاما لها وتنفيرا عن ارتكابها . والكذب : الإخبار عن الشيء على خلاف ماهو به وهو قبيح كله . وأما ما يروى عن إبراهيم عليه السلام أنه كذب ثلاث كذبات [1] . فالمراد التعريض . ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمى به . وعن أبى بكر رضى الله عنه وروى مرفوعا : « إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان » [2] وقرئ : يكذبون ، من كذبه الذى هو نقيض صدقه ؛ أو من كذّب الذى هو مبالغة فى كذب ، كما بولغ فى صدق فقيل : صدّق . ونظيرهما : بان الشيء وبين ، وقلص الثوب وقلص . أو بمعنى الكثرة كقولهم : موتت البهائم ، وبركت الإبل ، أو من قولهم : كذب الوحشى إذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ما وراءه ؛ لأن المنافق متوقف متردد فى أمره ، ولذلك قيل له مذبذب . وقال عليه السلام : « مثل المنافق كمثل الشاة [3] العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة » .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ

= تعب مشى بتؤدة . وقيل تقدم وأسرع . كان زهاءها : أى مقدارها . والصليع : الذى لا شعر فيه ، ولعله شبهها بذلك الرأس فى التجرد والانكشاف والظهور والتمام كما يقال : جيش أقرع ، وألف أقرع : أى تام مجازاً . وخيل : أى وأصحاب خيل قد تقدمت لها بمثلها . والتحية : الدعاء بالحياة ، فأخبر عنها بالضرب الوجيع على سبيل التهكم . وضمير « بينهم » للخيل بمعنى الجيش . وانتقل من ذكر ريحانة إلى ذكر الحرب لأنه كان أغار على دريد فى طلبها .

(١) متفق عليه واللفظ للبخارى من رواية ابن سيرين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه رفعه « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : اثنتين منهن فى ذات الله عز وجل » الحديث . وأخرجه الترمذى فى تفسير الأنبياء ، من طريق أبى الزناد عن الأعرج عنه .

(٢) روى مرفوعا وموقوفا على أبى بكر الصديق رضى الله عنه . أما المرفوع فأخرجه ابن عدى من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن قيس عنه . قال الدارقطنى فى العلل : رفعه يحيى بن عبد الملك وجعفر الأحمر وعمر بن ثابت عن إسماعيل . ووقفه غيرهم وهو أصح . ويروى عن أبى أسامة ويزيد بن هرون عنه أيضا مرفوعا . ولا يثبت عنهما اه . وأما الموقوف فأخرجه أحمد وابن أبى شيبة فى الأدب كلاهما عن وكيع عن إسماعيل وابن المبارك فى الزهد عن إسماعيل كذلك . ولم يجد الطيبى المرفوع فأخرج بدله عن صفوان بن سليم . قيل : يارسول الله ، المؤمن يكون جبانا ؟ قال : نعم . يكون بخيلا ؟ قال : نعم . يكون كذاباً ؟ قال : لا . أخرجه مالك وهو مرسل .

(٣) أخرجه مسلم من رواية موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ; قوله تعير بمهملة أى تتردد .

هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ معطوف على يكذبون . ويجوز أن يعطف على (يقول آمنا) لأنك لو قلت : ومن الناس من إذا قيل لهم لاتفسدوا ، كان صحيحا ، والأول أوجه .

والفساد : خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعا به ، ونقيضه : الصلاح ، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة . والفساد فى الأرض : هيج الحروب والفتن ، لأن فى ذلك فساد مافى الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية . قال الله تعالى : (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) ، (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) . ومنه قيل لحرب كانت بين طيئ : حرب الفساد . وكان فساد المنافقين فى الأرض . أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم ، وذلك مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم . فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم : لاتفسدوا ، كما تقول للرجل : لاتقتل نفسك بيدك ، ولاتلق نفسك فى النار ، إذا أقدم على ما هذه عاقبته . و « إنما » لقصر الحكم على شيء ، كقولك : إنما ينطلق زيد ، أو لقصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد كاتب . ومعنى ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد . و﴿ألا﴾ مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفى ، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق مابعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفى أفاد تحقيقا كقوله : (أليس ذلك بقادر) ؟ ولكونها فى هذا المنصب من التحقيق ، لاتكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو مايتلقى به القسم . وأختها التى هى « أما » من مقدمات اليمين وطلائعها :

* أَمَا والّذِى لا يَعْلَمُ الغيبَ غيرُهُ * (١)

* * *

* أَمَا والّذِى أَبْكَى وأَضْحَكَ * (٢)

ردّ الله مادعوه من الانتظام فى جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدله على سخط عظيم ، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما فى كلتا الكلمتين ألا . وإن من التأكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل . وقوله : ﴿ لايشعرون ﴾ أتوهم فىالنصيحة من وجهين : أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده من الصواب وجرّه إلى الفسادوالفتنة . والثانى : تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوى الأحلام ، ودخولهم فى عدادهم ؛ فكان من جوابهم أن سفهوهم لفرط سفههم ، وجهلوهم لتمادى

(١) أما والذى لايعلم الغيب غيره ... ويحيي العظام البيض وهى رميم
لقدكنت أختار القرى طاوى الحشا ... محاذرة من أن يقال لئيم
وإنى لأستحيي يمينى وبينها ... وبين فمى داجى الظلام بهيم

لحاتم الطائى . وأصل «أما» مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ، فصارت حرفا لاستفتاح القسم وتوكيد الكلام وأقسم بالذى يعلم الغيب والضمائر وهو الله تعالى ، لأن جواب القسم من هذا القبيل . وذكر البيض دفعا لتوهم أنها المكسية باللحم أو كناية عن طول مدتها عارية عنه ، فيشتد بياضها لجفاف دمها وهى رميم بالية . واستواء المذكر والمؤنث فى فعيل بمعنى فاعل كما هنا قليل ، والكثير فى الذى بمعنى مفعول . لقد كنت أختار القرى : أى جمع الضيفان وإكرامهم . ويجوز أن يروى : أجتاز القرى بالجيم والزاى وضم القاف : يصف نفسه بالعفة . ويروى : أختار الجوى بمعنى حرقة القلب من الجوع ونحوه حال كونى عفوفا . وعلى الأولى فالمعنى : حال كونى جائعا ، فطى الحشا أى المعدة والأمعاء كناية عن ذلك ، وكثر استعمال الطى فى هذا المعنى ، حتى قيل منه : طوى يطوى كرضى يرضى بمعنى جاع ، فهو طيان كجوعان وزنا ومعنى . محاذرة : أى حذرا من قول الناس إنه لئيم لا كريم . وكان يستحى أن يمد يده للطعام إلى فمه ، مع أن الليل شديد الظلمة حائل بينهما فيمنعه أن يراها . والبهيم : الذى انبهمت فيه الأشياء لظلمته .

(٢) أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لايروعهما الذعر

لأبى صخر عبد الله بن سلمي الهذلى . و «أما» استفتاحية ومقدمة وطليعة لليمين . والواو بعدها للقسم : أى وحق الذى أبكى وأضحك حقيقة ، أو الذى سر وضر كناية ، وهو أنسب بالمقام . والذى أمره : أى مقدره هو المقدر النافذ ، أوالذى أمره إذا أراد شيئاً الأمر : أىقوله كن . ويروى «أمر» بلالام : أى أمرحق عظيم . لقد تركتنى جواب القسم : أى صيرتنى أحسد الوحش على رؤيتى متآلفين منها ، أى الوحش ؛ لأنه فى معنى الجماعة . لايروعهما أى لايخيفهما ، لأن الخوف يحل الروع ـ بالضم ـ وهو القلب . وذعر ذعراً ، كتعب : خاف خوفا . وذعرته ذعرا كضربته ضربا أخفته . أى لاتخيفهما الاخافة . ويجوز أن يراد بالذعر : الأمر المخيف . ويروى : لايروعهما النفر : أى لاينفر أحدهما من الآخر فيروعه بذلك .

جهلهم . وفى ذلك تسلية للعالم مما يلق من الجهلة . فإن قلت : كيف صح أن يسند « قيل » إلى « لاتفسدوا » ، « آمنوا » ، وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح ؟ قلت : الذى لايصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل ، وهذا إسناد له إلى لفظه ، كأنه قيل : وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام . فهو نحو قولك : « ألف » ضرب من ثلاثة أحرف . ومنه : زعموا مطية الكذب[1].

و « ما » فى « كما » يجوز أن تكون كافة مثلها فى (ربما) ، ومصدرية مثلها فى (بما رحبت) .

واللام فى « الناس » للعهد ، أى كما آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه . أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم ، أى : كما آمن أصحابكم وإخوانكم ، أو للجنس أى : كما آمن الكاملون فى الإنسانية . أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ، ومن عداهم كالبهائم فى فقد التمييز بين الحق والباطل .

والاستفهام فى ﴿أنؤمن﴾ فى معنى الإنكار . واللام فى ﴿السفهاء﴾ مشار بها إلى الناس ، كما تقول لصاحبك : إن زيداً قد سعى بك ، فيقول : أو قد فعل السفيه . ويجوز أن تكون للجنس ، وينطوى تحته الجارى ذكرهم على زعمهم واعتقادهم ؛ لأنهم عندهم أعرق الناس فى السفه . فإن قلت : لم سفهوهم واستركوا عقولهم ، وهم العقلاء المراجيح ؟ قلت : لأنهم لجهلهم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم ، اعتقدوا أن ماهم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل ، ومن ركب متن الباطل كان سفيها ؛ ولأنهم كانوا فى رياسة وسطة فى قومهم ويسار ، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب ، فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم . أو أرادوا عبدالله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم وماغاظهم من إسلامهم وفت فى أعضادهم . قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفه بمعزل ، والسفه سخافة العقل وخفة الحلم . فإن قلت : فلم فصلت هذه الآية بـ(لا يعلمون) ، والتى قبلها بـ(لا يشعرون) ؟ قلت : لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحقّ وهم على الباطل ، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة . وأما النفاق وما فيه من البغى المؤدى إلى الفتنة والفساد فى الارض فأمر دنيوىّ مبنى على

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات من رواية الأعمش عن شريح قال : زعموا كنية الكذب . وقد ذكره المصنف مرفوعا فى سورة التغابن ولم أجده بهذا اللفظ . والذى فى الأدب المفرد للبخارى من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه مرفوعا : « بئس مطية الرجل زعموا » وكذا أخرجه أحمد وإسحاق وأبو يعلى ، وهو من رواية أبى قلابة عنه . وفى رواية البخارى بين أبى قلابة وبين أبى مسعود : أبو المهلب .

العادات ، معلوم عند الناس ، خصوصا عندالعرب فى جاهليتهم وما كان قائما بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب ، فهو كالمحسوس المشاهد ؛ ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له . مساقهذه الآية بخلاف ما سيقت له أوّل قصة المنافقين فليس بتكرير ، لأن تلك فى بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ، وهذه فى بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم ، فاذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم ما فى قلوبهم . وروى أن عبدالله بن أبىّ وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم[1] نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبدالله : انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبى بكر فقال : مرحبا بالصدّيق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد بنى عدىّ الفاروق القوىّ فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد علىّ فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بنى هاشم ماخلا رسول الله . ثم افترقوا فقال لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت ؟ فأثنوا عليه خيراً ، فنزلت .

ويقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريباً منه ، وهو جارى ملاقىّ ومراوقى . وقرأ أبو حنيفة : وإذا لاقوا .

وخلوت بفلان وإليه ، إذا انفردت معه . ويجوز أن يكون من « خلا » بمعنى : مضى ، وخلاك ذم : أى عداك ومضى عنك . ومنه : القرون الخالية ، ومن « خلوت به » إذا سخرت منه . وهو من قولك : خلافلان بعرض فلان يعبث به . ومعناه : وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدثوهم بها . كما تقول : أحمد إليك فلانا ، وأذمه إليك . وشياطينهم : الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم . وقد جعل سيبويه نون الشيطان فى موضع من كتابه أصلية ، وفى آخر زائدة . والدليل على أصالتها قولهم : تشيطن ، واشتقاقه من « شطن » إذا بعد ؛ لبعده من الصلاح والخير . ومن « شاط » إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة . ومن أسمائه الباطل .

---

(١) أخرجه الواحدى فى الأسباب من رواية السدى الصغير . ومحمد بن مروان ، عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : « نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى وأصحابه . وذلك أنهم خرجوا ذات يوم » فذكره وفى آخره « فرجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فنزلت » . ومحمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث وسياقه فى غاية النكارة .

﴿ إنا معكم ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم . فإن قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن ؟ [1] قلت : ليس ماخاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما ، لأنهم فى ادّعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم ، لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم ، وذلك إما لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه ، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك ، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد . وإما لأنه لايروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة . وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه وهم بين ظهرانى المهاجرين والأنصار الذين مثلهم فى التوراة والإنجيل . ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين : (ربنا إننا آمنا) . وأما مخاطبة إخوانهم ، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر ، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به ، وماقالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم ، فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد . فإن قلت : أنى تعلق قوله : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ بقوله (إنا معكم) قلت : هو توكيد له ، لأن قوله (إنا معكم) معناه الثبات على اليهودية . وقوله : (إنما نحن مستهزئون) ردّ للإسلام ودفع له منهم ، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتدا به ، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر . أو استئناف ، كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم : (إنا معكم ، فقالوا : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام فقالوا : إنما نحن مستهزئون . والاستهزاء : السخرية والاستخفاف ، وأصل الباب الخفة ـ من الهزء وهو القتل السريع ـ وهزأ يهزأ : مات على المكان . عن بعض العرب : مشيت فلغبت فظننت لأهزأنّ على مكانى . وناقته تهزأ به : أى تسرع وتخف . فإن قلت : لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى ، لأنه متعال عن القبيح ، والسخرية من باب العيب والجهل . ألا ترى إلى قوله : (قالوا أتتخذنا هزؤا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) ، فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم ، لأنّ المستهزئ غرضه الذى يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ،

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إن قلت لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : وبنى هذا التقرير على أن الجملة الاسمية أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بأن مردفة بإنما على أنه قد حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضا فى قوله (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول) . وعلى الجملة فلقد أحسن الزمخشرى رحمه الله فى تقريره ماشاء وأجل ماأراد .

وإدخال الهوان والحقارة عليه ، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك . وقد كثر التهكم فى كلام الله تعالى بالكفرة . والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون . ويجوز أن يراد به ما مر فى (يخادعون) من أنه يجرى عليهم أحكام المسلمين فى الظاهر ، وهو مبطن بادخار ما يراد بهم ، وقيل : سمى جزاء الاستهزاء باسمه كقوله : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) . فإن قلت : كيف ابتدئ قوله : (الله يستهزئ بهم) ولم يعطف على الكلام قبله . [1] قلت : هو استئناف فى غاية الجزالة والفخامة . وفيه أن الله عز وجل هو الذى يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ ، الذى ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له فى مقابلته ، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل . وفيه أن الله هو الذى يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين ، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله . فان قلت : فهلا قيل الله مستهزئ بهم ليكون طبقا لقوله (إنما نحن مستهزئون)[2] قلت : لأن (يستهزئ) يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت ، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) وما كانوا يخلون فى أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار ، ونزول فى شأنهم واستشعار حذر من أن ينزل فيهم (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) ، (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) . ﴿ويمدهم فى طغيانهم﴾ من مد الجيش وأمده إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره . وكذلك مد الدواة وأمدها : زادها ما يصلحها . ومددت السرج والأرض : إذا استصلحتهما بالزيت والسماد . ومده الشيطان فى الغى وأمده : إذا واصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهما كا فيه . فإن قلت : لم زعمت أنه من المدد دون المد فى العمر والإملاء والإمهال؟ قلت : كفاك دليلا على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن محيصن : (ويمدهم) ، وقراءة نافع : (وإخوانهم يمدونهم) على أن الذى بمعنى أمهله

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إن قلت : كيف ابتدئ قوله : الله يستهزئ بهم ولم يجعله معطوفا ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : فان قال قائل : أفلا يستفاد هذا المعنى من العطف ؟ قيل له : لو عطف لأشعر بأن الغرض كل الغرض اجتماع مضمون الجملتين وإعراض عن هذا المعنى الذى ينفرد به الاستئناف

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : فهلا قيل الله مستهزئ بهم ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : ولهذا الفرق بين الفعل والاسم ورد قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ، والطير محشورة) لما كان التسبيح من الفوائد متكرراً متجدداً شيئاً فشيئا وحشر الطير معه أمر دائم ، ذكر التسبيح بصيغة الفعل ، والحشر بصيغة الاسم . وسيأتى إن شاء الله تعالى مزيد تقرير فيه .

إنما هو مدّ له مع اللام كأملى له . فان قلت : فكيف جاز أن يوليهم الله مددا فى الطغيان وهو فعل الشياطين ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى : (وإخوانهم يمدّونهم فى الغىّ) ؟ (١) قلت : إما أن يحمل على أنهم لما منعهم الله ألطافه التى يمنحها المؤمنين ، وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه ، بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها ، تزايد الانشراح والنور فى قلوب المؤمنين فسمى ذلك التزايد مدداً . وأسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم . وإما على منع القسر والإلجاء وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده . فإن قلت : فما حملهم على تفسير المدّ فى الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه ؟ قلت : استجرّهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته ، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام . ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز ، أن يتعاهد فى مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدّى سليما من القادح ، فاذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل . ويعضد ما قلناه قول الحسن فى تفسيره : فى ضلالتهم يتمادون ، وأن هؤلاء من أهل الطبع . والطغيان : الغلو فى الكفر ، ومجاوزة الحدّ فى العتو . وقرأ زيد بن على رضى الله عنه : (فى طغيانهم) بالكسر وهما لغتان ، كلقيان ولقيان ، وغنيان وغنيان . فان قلت : أى نكتة فى إضافته اليهم ؟ (٢) قلت : فيها أن الطغيان والتمادى فى الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم ، وأن الله برىء منه رداً لاعتقاد الكفرة القائلين : لو شاء

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إن قلت : كيف جاز أن يوليهم الله مدداً من الطغيان ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : ما يمنعه أن يقره على ظاهره ويبقيه فى نصابه إلا أنه توحيد محض وحق صرف ، والقدرية من التوحيد على مراحل

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : ما النكتة فى إضافة الطغيان إليهم ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : كل فعل صدر من العبد اختياراً فله اعتباران : إن نظرت إلى وجوده وحدوثه وما هو عليه من وجوه التخصيص ، فانسب ذلك إلى قدرة الله وحده وإرادته لا شريك له . وإن نظرت إلى تميزه عن القسر الضرورى فانسبه فى هذه الجهة إلى العبد ، وهى النسبة المعبر عنها شرعا بالكسب فى أمثاله قوله تعالى : (بما كسبت أيديكم) ، وهى المتحققة أيضاً إذا عرضت على ذهنك الحركتين الضرورية الرعشية مثلا والاختيارية ، فانك تميز بينهما لا محالة بتلك النسبة . فاذا تقرر تعدد الاعتبار فدم فى الطغيان مخلوق لله تعالى فأضافه إليه . ومن حيث كونه واقعاً منهم على وجه الاختيار المعبر عنه بالكسب أضافه إليهم . ففرع على أصول السنة بحسن ثمار فروعك فى الجنة ، لا كما تفرع القدرية فانهم يجنون ولكن على أنفسهم . ألهمنا الله التحقيق وأيدنا بالتوفيق .

الله ما أشركنا ، ونفياً لوهم من عسى يتوهم [1] عند إسناد المد إلى ذاته لو لم يضف الطغيان إليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع فى صدر من يلحد فى صفاته . ومصداق ذلك أنه حين أسند المدّ إلى الشياطين ، أطلق الغىّ ولم يقيده بالإضافة فى قوله : (وإخوانهم يمدّونهم فى الغىّ). والعمه : مثل العمى ، إلا أن العمى عام فى البصر والرأى ، والعمه فى الرأى خاصة ، وهو التحير والتردّد ، لا يدرى أين يتوجه . ومنه قوله : بالجاهلين العمه ، أى الذين لا رأى لهم ولا دراية بالطرق . وسلك أرضاً عمهاء : لا منار بها [2]

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى : اختيارها عليه واستبدالها به ، على سبيل الاستعارة ، لأنّ الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر . [3] ومنه :

أَخَــذْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْساً أَزْعَرَا وبِالثَّنَايَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَرَا

وبِالطَّوِيلِ الْعُمْرِ عُمْراً حَيْـدَرَا كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا [4]

وعن وهب : قال الله عز وجل فيما يعيب به بنى إسرائيل : « تفقهون لغير الدين ، وتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة » . فإن قلت : كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ قلت : جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم [5] كأنه فى أيديهم ، فإذا تركوه إلى

---

(١) قوله « ونفياً لوهم من عسى ... الخ » يريد الرد على أهل السنة القائلين : إن الله تعالى هو الفاعل فى الحقيقة للخير والشر . وينتصر للمعتزلة القائلين بأنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده (ع)

(٢) قوله « وسلك أرضاً عمهاء » أى ومنه قولهم سلك ... الخ (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : « الشراء يستدعي بذل العوض ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : ومن هذا القبيل منع مالك رضى الله عنه أن يشترى إحدى أوزتين مذبوحتين يختارها المشترى منهما ، لأنه يعد مختاراً لكل واحدة منهما ، ثم بائعاً لها بالأخرى فيدخله الربا ، وهو الذى يعبر عنه متأخرو أصحابه بأن من ملك أن يملك هل يعد مالكا أولا ؟ وربما قالوا : من خير بين شيئين عد منتقلا على أحد القولين .

(٤) « الجمة » : كثيرة الشعر ، والباء للبدل ، و « زعر » كتعب فهو أزعر ، أى قليل الشعر . ويقال للموضع الذى لا نبات فيه . والثنايا : مقدم الأسنان . والمراد الثغر كله . والدردر ـ بالفتح ـ مغارز الأسنان . والحيدر : القصير . واشترى : استبدل . والمراد أنه أخذ امرأة عجوزاً قبيحة بدل امرأة شابة جميلة ، وروى أن جبلة بن الأيهم قدم مكة فطاف بالكعبة ، فوطىء رجل إزاره ، فلطمه فشكى إلى عمر رضى الله عنه فحكم بالقصاص من جبلة ، فاستمهله إلى الغد وهرب ليلا إلى الروم ، وتنصر بعد الاسلام ، ثم ندم على ما فعل فضرب به المثل .

(٥) قوله « وإعراضه لهم » فى الصحاح : اعترض لك الخير ، إذا أمكنك (ع)

الضلالة فقدعطلوه واستبدلوها به ، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة

﴿والضلالة﴾ الجور عن القصد وفقد الاهتداء . يقال . ضلّ منزله ، وضل دريص نفقه[1] فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين . والربح : الفضل على رأس المال ، ولذلك سمى : الشف ، من قولك : أشف بعض ولده على بعض ، إذا فضله . ولهذا على هذا شف . والتجارة : صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشترى للربح . وناقة تاجرة : كأنها من حسنها وسمنها تبيع نفسها . وقرأ ابن أبي عبلة (تجاراتهم) . فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ قلت : هو من الإسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له ، كما تلبست التجارة بالمشترين . فإن قلت : هل يصح : ربح عبدك وخسرت جاريتك ، على الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال . وكذلك الشرط في صحة : رأيت أسداً ، وأنت تريد المقدام ؛ إن لم تقم حال دالة لم يصح . فإن قلت : هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ؟ كأن ثمّ مبايعة على الحقيقة[2] . قلت : هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح . وذلك نحو قول العرب في البليد : كأن أذنى قلبه خطلا ، وإن جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين ، وادعوا لها الخطل[3] ، ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة . ونحوه :

---

(١) قوله « وضل دريص نفقه » في الصحاح : الدرص ولد الفأرة واليربوع وأشباه ذلك . وفي المثل « ضل دريص نفقه » أي جحره . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وهذا النوع قريب من التتميم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

لما شبهته في الاهتداء به بالعلم المرتفع ، أتبعت ذلك ما يناسبه ويحققه ، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر باشتمال النار في رأسه .

(٣) قوله « وادعوا لها الخطل » أي الاسترخاء . (ع)

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ٱبْنَ دَأْيَةٍ وَعَشَّشَ فِى وَكْرَيْهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِى[(١)]

لما شبه الشيب بالنسر ، والشعر الفاحم بالغراب ، أتبعه ذكر التعشيش والوكر . ونحوه قول بعض فتاكهم فى أمه :

فَمَا أُمُّ الرُّدَيْنِ وإِنْ أَدَلَّتْ بِعالِمَةٍ بِأَخْلَاقِ الْكِرَامِ

إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِى قَفَاهَا تَنَفَّقْنَاهُ بِالْحَبْلِ التُّؤَامِ[(٢)]

أى إذا دخل الشيطان فى قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثنى المحكم . يريد : إذا حردت[(٣)] وأساءت الخلق اجتهدنا فى إزالة غضبها وإماطة مايسوء من خلقها . استعار التقصيع أوّلا ، ثم ضم إليه التنفق ، ثم الحبل التوام . فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه مايشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه ، تمثيلا لخسارهم وتصويراً لحقيقته . فإن قلت : فما معنى قوله (فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين) . قلت : معناه أنّ الذى يطلبه التجار فى متصرفاتهم

---

(١) شبه الشيب بالنسر بجامع البياض ، واستعاره له تصريحاً . وشبه الشباب بالغراب ـ وهو ابن دأية ـ بجامع السواد كذلك . وعزه يعزه عزاً ، كنصره نصراً : إذا غلبه وقهره . والتعشيش فى الوكرين ترشيح للاستعارتين ، والمراد بهما الرأس واللحية . ويحتمل أن التركيب كله استعارة تمثيلية . يقول : لما رأيت الشيب غلب الشباب وحل محله ، تحرك لأجله قلبي واضطرب ، فالصدر مجاز . ويروى : جاشت له نفسى .

(٢) دلت المرأة وأدلت : حسن تمنعها مع رضاها . ودلت وأدلت أيضاً : تغنجت وتشكلت . والاسم : الدل ، والدالة ، والدلال . وقيل : هو قريب من معنى الهدى . ومنه : كانوا ينظرون إلى هدى عمر ودله فيتشبهون به . ونفى علمها بأخلاق الكرام : كناية عن إساءتها الخلق . ويروى : بقائلة بأخلاق الكرام ، أى بمكترثة ولا معتنية بها ، أو ليست فاعلة لها والمآل واحد . وقصع اليربوع : اتخذ القاصعاء أو دخل فيها ، وهى جحره الذى يدخل فيه . وتنفق : اتخذ النافقاء أو خرج منها ، وهى الطرف الثانى من الجحر الذى يخرج منه . وتنفقه الصائد : استخرجه منها ، فلجحره بابان إذا أتاه الصائد من الأول خرج من الثانى فاستعار التقصيع الذى هو فعل اليربوع لدخول الشيطان فى قفاها ، واستعار التنفق لاخراجه منه على طريق التصريحية والثانية ترشيح للأولى وبالعكس . والحبل : جمع حبال جمع حبل ككتب جمع كتاب . والتوام : الثنى من الحبل ، وجمعه : توائم ، وتوام كغراب . أى بالحبل المثناة المفتولة ، وهى على رواية الحبل بالافراد ، فيخرج على أن التوام ليس جمعاً بل اسم جمع يعامل معاملة المفرد ، أى بالحبل القوي لأنه مجموع حبال مفتولة ، وهذا ترشيح للتنفق وترشيح الترشيح ترشيح ، فيكون ترشيحاً للتقصيع أيضاً ، والحبال من ملائمات التنفق فى نحو الاصطياد . ويجوز أن يشبه الشيطان باليربوع ، فاذا أردنا اصطياده من جهة هرب من جهة أخرى حتى نصطاده بأقوى حيلة ، فتكون مكنية والتقصيع والتنفق بالحبل تخييل . وجعل ذلك كله فى قفاها لأن الحق ينسب إليه عادة ، أو لأن الشيطان يأتيها من حيث لا تشعر ، كأنه من خلفها . ثم إن هذا الكلام كناية أو تمثيل للمراد ، وهو أنها إذا أساءت الخلق ترضيناها بالتحيل والترفق .

(٣) قوله « يريد إذا حردت » فى الصحاح : الحرد ـ بالتحريك ـ الغضب (ع)

شيئان : سلامة رأس المال ، والربح . وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً ، لأن رأس مالهم كان هو الهدى ، فلم يبق لهم مع الضلالة . وحين لم يبق فى أيديهم إلا الضلالة ، لم يوصفوا بإصابة الربح . وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية ؛ لأن الضال خاسر دامر ، ولأنه لايقال لمن لم يسلم له رأس ماله : قد ربح ، وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف وتتميما للبيان . ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر ـ شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد . وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبىّ ، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله ، وفشت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ومن سور الإنجيل سورة الأمثال . والمثل فى أصل كلامهم : بمعنى المثل ، وهو النظير . يقال : مثل ومثل ومثيل ، كشبه وشبه وشبيه . ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده : مثل . ولم يضربوا مثلا ، ولا رأوه أهلا للتسيير ، ولا جديرا بالتداول والقبول ، إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه . ومن ثمّ حوفظ عليه وحمى من التغيير . فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، وما مثل المنافقين ومثل الذى استوقد نارا حتى شبه أحد المثلين بصاحبه ؟ قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام ، للحال أو الصفة أو القصة ، إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد نارا . وكذلك قوله : (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى وفيما قصصنا عليك من العجائب : قصة الجنة العجيبة . ثم أخذ فى بيان عجائبها . ولله المثل الأعلى : أى الوصف الذى له شأن من العظمة والجلالة . (مثلهم فى التوراة) : أى صفتهم وشأنهم المتعجب منه . ولما فى المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثلة فى الخير والشر ، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن . فإن قلت : كيف مثلت الجماعة بالواحد ؟ قلت : وضع الذى موضع الذين ، كقوله : (وخضتم كالذى خاضوا) والذى سوغ

وضع الذى موضع الذين ، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولانحوه من الصفات أمران : أحدهما : أنّ « الذى » لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة ، وتكاثر وقوعه فى كلامهم ، ولكونه مستطالا بصلته ، حقيق بالتخفيف ، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا به على اللام وحدها فى أسماء الفاعلين والمفعولين . والثانى : أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون . وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة. ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع ، والواحد فيهن واحد . أو قصد جنس المستوقدين . أو أريد الجمع أو الفوج الذى استوقد نارا . على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد ؛ إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد . ونحوه قوله : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ، وقوله : (ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت) . ووقود النار : سطوعها وارتفاع لهبها . ومن أخواته : وقل فى الجبل إذا صعد وعلا ، والنار : جوهر لطيف مضىء حارّ محرق . والنور : ضوءها وضوء كل نير ، وهو نقيض الظلمة . واشتقاقها من نار ينور إذا نفر ؛ لأنّ فيها حركة واضطرابا ، والنور مشتق منها . والإضاءة : فرط الإنارة . ومصداق ذلك قوله : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ، وهى فى الآية متعدية . ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندة إلى ما حوله . والتأنيث للحمل على المعنى ؛ لأنّ ما حول المستوقد أماكن وأشياء . ويعضده قراءة ابن أبى عبلة (ضاءت) . وفيه وجه آخر ، وهو أن يستتر فى الفعل ضمير النار . ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها ، على أنّ ما مزيدة أو موصولة فى معنى الأمكنة . و ﴿ حوله ﴾ نصب على الظرف وتأليفه للدوران والإطافة . وقيل للعام : حول ؛ لأنه يدور . فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن جوابه ﴿ذهب الله بنورهم﴾ . والثانى : أنه محذوف كما حذف فى قوله : (فلما ذهبوا به) . وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدالّ عليه ، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة ، مع الإعراب عن الصفة التى حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ فى أداء المعنى ، كأنه قيل : فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين فى ظلام ، متحيرين متحسرين على فوت الضوء ، خائبين بعد الكدح فى إحياء النار . فإن قلت : فإذا قدر الجواب محذوفا فبم يتعلق (ذهب الله بنورهم) ؟ قلت : يكون كلاما مستأنفا . كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذى طفئت ناره ، اعترض سائل فقال : ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد ؟ فقيل له : ذهب الله بنورهم . أو يكون بدلا من

جملة التمثيل على سبيل البيان . فإن قلت : قد رجع الضمير فى هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه فى الوجه الثانى ؟ [١] قلت : مرجعه الذى استوقد ؛ لأنه فى معنى الجمع . وأما جمع هذا الضمير وتوحيده فى (حوله) ، فللحمل على اللفظ تارة ، وعلى المعنى أخرى . فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى فى قوله : (ذهب الله بنورهم) ؟ قلت : إذا طفئت النار بسبب سماوى ريح أو مطر ، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد . ووجه آخر ، وهو أن يكون المستوقد فى هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله . ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام ، وتلك النار متقاصرة مدّة اشتعالها قليلة البقاء . ألا ترى إلى قوله : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) ، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصى ، ويتهدوا بها فى طرق العبث ، فأطفأها الله وخيب أمانيهم . فإن قلت : كيف صح فى النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد ؟ قلت : هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تدبره . فإن قلت : هلا قيل ذهب الله بضوئهم ؟ لقوله (فلما أضاءت) ؟ قلت : ذكر النور أبلغ ؛ لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة . فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً ، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلا . ألا ترى كيف ذكر عقيبه ﴿ وتركهم فى ظلمات ﴾ والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكرها ، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله ﴿ لا يبصرون ﴾ . فان قلت : فلم وصفت بالإضاءة ؟ قلت : هذا على مذهب قولهم : للباطل صولة ثم يضمحل . ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت ، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح . والفرق بين أذهبه وذهب به ، أن معنى أذهبه : أزاله وجعله ذاهبا . ويقال : ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه . وذهب السلطان بماله : أخذه (فلما ذهبوا به) ، (إذاً لذهب كل إله بما خلق) . ومنه : ذهبت به الخيلاء . والمعنى : أخذ الله نورهم وأمسكه ، (وما يمسك فلا مرسل له) فهو أبلغ من الإذهاب . وقرأ اليمانى : أذهب الله نورهم . وترك : بمعنى طرح وخلى ، إذا علق بواحد ، كقولهم : تركه ترك ظبي ظله . فاذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير ، فيجرى مجرى أفعال القلوب كقول عنترة :

---

(١) قوله « فما مرجعه في الوجه الثانى » لعله السابق . (ع)

* فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ * (١)

ومنه قوله : (وتركهم فى ظلمات) أصله : هم فى ظلمات ، ثم دخل ترك فنصب الجزأين . والظلمة عدم النور . وقيل : عرض ينافى النور . واشتقاقها من قولهم : ما ظلمك أن تفعل كذا : أى ما منعك وشغلك ، لأنها تسدّ البصر وتمنع الرؤية . وقرأ الحسن (ظلمات) بسكون اللام وقرأ اليمانى (فى ظلمة) على التوحيد . والمفعول الساقط من (لا يبصرون) من قبيل المتروك المطرح الذى لا يلتفت إلى إخطاره بالبال ، لا من قبيل المقدر المنوى ، كأنّ الفعل غير متعدّ أصلا ، نحو (يعمهون) فى قوله (ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) . فإن قلت : فيم شبهت حالهم بحال المستوقد ؟ قلت : فى أنهم غب الإضاءة خبطوا فى ظلمة وتورّطوا فى حيرة . فان قلت : وأين الإضاءة فى حال المنافق ؟ وهل هو أبداً إلا حائر خابط فى ظلماء الكفر ؟ قلت : المراد ما استضاءوا به قليلا من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التى ترمى بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد . ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق . والأوجه أن يراد الطبع ، لقوله : (صم بكم عمى) . وفى الآية تفسير آخر : وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ، والضلالة التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم فى الظلمات . وتنكير النار للتعظيم . كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم ، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التى بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله :

---

(١) فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه ... يقضمن حسن بنانه والمعصم

لعنترة بن شداد العبسى من معلقته . يقول : نحرقت بالرمح اليابس الصلب ثيابه ، أى قلبه وأحشاءه ، فهي كناية عنها . أو شككت ثيابه بمعنى نظمتها ببدنه بادخال الرمح فيها . ويروى : إهابه ، أى جلده . وليس الكريم ... إلى آخره : اعتراض دال على أن عادة الكرام أن يجودوا بكل شىء حتى بالأرواح للرماح . وفيه نوع تهكم . فتركته : أى صيرته. جزر السباع ـ بالتحريك ـ أى نصيبها وطعمتها من اللحم . ونهشه وناشه : تناوله بفمه وكدمه . وقضمه يقضمه ، من بابى علم وضرب : عضه بمقدم أسنانه . فقوله « يقضمن» بدل. وعبر بالحسن عن الشىء الحسن مبالغة : أى يأكلن بنانه الحسن ومعصمه الحسن . ويروى بدل هذا الشطر : ما بين قلة رأسه والمعصم . وما زائدة ، و«بين» ظرف للنوش . ويجوز أن « ما » موصولة بدل من ضمير المفعول . وقلة الرأس : أعلاه ، كقلة الجبل وقنته ،

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ   وإنْ ذُكِرْتُ بسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا (١)

* * *

* أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ *

* * *

أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِى لا أُرِيدُهُ   وأَسْمَعُ خَلْقِ اللهِ حِينَ أُرِيدُ (٢)

* * *

فأَصْمَمْتُ عَمْراً وأَعْمَيْتُهُ   عَنِ الجُودِ والفَخْرِ يَوْمَ الفَخَارِ (٣)

فإن قلت : كيف طريقته عند علماء البيان ؟ قلت : طريقة قولهم « هم ليوث » للشجعان ، وبحور للأسخياء . إلا أنّ هذا فى الصفات ، وذاك فى الأسماء ، وقد جاءت الاستعارة فى الأسماء والصفات والأفعال جميعاً . تقول : رأيت ليوثا ، ولقيت صما عن الخير ، ودجا الإسلام . وأضاء الحق . فإن قلت : هل يسمى ما فى الآية استعارة ؟ قلت : مختلف فيه . والمحققون على

---

(١)
إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا   منى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به   وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلا على وجبنا عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

لقعنب بن أم صاحب بن ضمرة . وضمرة أبوه . وأم صاحب : كنية أمه . يقول : إن يسمعوا . وروى : يأذنوا ، كيسمعوا وزنا ومعنى ، من جهتى كلمة بهتان وزور أذاعوها ، فكأنهم يطيرون بها بين الناس من فرحهم بما تقل عنى . فالطيران استعارة مصرحة لذلك . قال ابن مالك تبعا للفراء : ويجوز إجابة المضارع بالماضى وإن منعه الجمهور فى الاختيار . وأى شيء سمعوه من قول صالح كتموه . فالدفن استعارة تصريحية أيضاً . وهم صم : أى كالصم ، فهو تشبيه بليغ واستعارة على الخلاف . وإن ذكرت عندهم بسوء أذنوا وأنصتوا . ويروى «سبة» بالضم : مايسب به . وقد يروى : سيأة ، بتحتية ساكنة فهمزة . ويروى : ومايسمعوا . ويروى : سمعوا ، على لفظ الماضى ، بدل صم . ويروى بسوء كلهم أذن : أى فكلهم أذن ؛ فهو على تقدير الفاء ، لأنه جواب الشرط . ويحتمل أنه على التقديم والتأخير : أى كلهم أذن إن ذكرت بسوء وهو أنسب بما قبله . وجعلهم نفس الأذن مبالغة . ويجوز أن الأذن وصف يقع على الواحد والمتعدد ، وذلك لجهلهم وبأسهم على ، وجبنهم وضعفهم عن عدوهم . وقيل : هو على تقدير جمعوا جهلا . والخلتان الخصلتان . والجبن بضمتين لغة فيه . وفيه إطاب بالتوشيع ، لأنه أتى بمثنى وفسره باسمين ثانيهما معطوف على الأول وهو حسن .

(٢) صم صمما ، كتعب تعباً . فأصم - بفتح الصاد - فعل مضارع . ولو جعلته اسما على الخبرية لضمير محذوف لكانت مناسبة لأسمع المعطوف عليه . والمعنى أن حالى تكون كحال الأصم ؛ فهو مجاز عن ذلك . وأسمع : أى أفعل بمقتضى السماع ، فهو مجاز أيضا . ويجوز أنه كناية . يقول : لا أستمع لما أكره . وأسمع كلام خلق الله حين أريده ، بأن يكون محبوبا إلى ، أو حين أريد السماع .

(٣) يقول : لما أظهرت مفاخرى ومكارمى ، أصممت عمرا : أى صيرته كالأصم . وأعميته : أى صيرته كالأعمى فالصم والعمى : استعارتان مصرحتان . والمراد أبهته وأسكته عن الكلام فى الفخر والجود حين مفاخرتى إياه . وقيل أصممته وأعميته : وجدته أصم ووجدته أعمى ؛ أى كأنه كذلك على مامر .

تسميته تشبيها بليغاً لا استعارة ؛ لأنّ المستعار له مذكور وهم المنافقون . والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه ، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، كقول زهير :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ (١)

ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً قال أبو تمام :

وَيُصْعِدُ حَتَّى يَظُنَّ الجَهُولُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ (٢)

وبعضهم :

لا تَحْسَبُوا أَنَّ فِي سِرْبَالِهِ رَجُلًا فَفِيهِ غَيْثٌ وَلَيْثٌ مُسْبِلٌ مُشْبِلُ (٣)

---

(١) فشد فلم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

لزهير بن أبي سلمى من معلقته يمدح حصين بن ضمضم بأنه شد على عدوه بحسن تدبير فلم يفزع بيوتا كثيرة . أو المعنى شد عليه وحده ، فلم يفزع بيوتا ، أى أهل بيوت تساعده . و « حيث » بدل من « لدى » ، ويحتمل أن لدى لمكان مبهم مضاف لحيث المعنى باضافته للجملة . وأم قشعم : اسم للمنية . شبهها بالمسافر على طريق المكنية . والرحل تخييل و « لدى » الثانى بدل من الأول . وجرد من الممدوح لكماله فى الشجاعة شخصا آخر ، فاستعار له الأسد استعارة تصريحية . وشاكى : أى تام السلاح تجريد ؛ لأنه يلائم المشبه . قال الفراء : هو مقلوب شايك : أى ذى شوكة وحدة . ومقذف : أى ضخم ، كأنه قذف باللحم ورمى به . له لبد : أى شعور متلبدة على منكبيه . أظفاره لم تقلم : كل هذا ترشيح لأنه يلائم المشبه به . وفى قوله أظفاره لم تقلم : نوع من الاطناب يسمى الايغال ختم به البيت للمبالغة فى التشبيه ، كقول الخنساء فى أخيها صخر : كانه علم فى رأسه نار .

(٢) لأبى تمام يمدح خالد بن يزيد الشيبانى ويذكر أباه . فضمير « يصعد » ليزيد . واستعار الصعود من العلو الحسى للعلو المعنوى على طريق التصريح ، ثم بنى عليه ماينبنى على العلو فى المكان ترشيحا وتتميا للمبالغة فى التشبيه ، لأن ذلك الظن لاينبنى إلا على رؤيته صاعدا حقيقة . والظن ـ كالعلم ـ يتعدى بنفسه تارة وبالحرف أخرى . وخص الجهول ليفيد أن ذلك الظن خطأ ، ويشبه أنْ يكون تجريداً للاستعارة ، لكن أخفاه ظهور الترشيح . وأفاد السعد أن ذكر الجهول احتراس من توهم احتياج الممدوح والمقام ، لدعوى أنه فى غاية الكمال . واشتهرت روايته لظن بالماضى ، وهو على تقدير القسم وقد : أى والله لقد ظن الجهول ذلك .

(٣) الزمخشرى . شبه الممدوح بالغيث فى كثرة الخير والكرم ، وبالليث فى كثرة الشجاعة ، واستعارهما له على طريق الاستعارة التصريحية ، وبنى على ذلك نهى الناس عن أن يظنوا أن فى ثوبه رجلا ، للدلالة على تنامى التشبيه وادعاء الاتحاد . والمسبل : كثير الانسياب ، فهو راجع للغيث . والمشبل الذى كثرت أشباله : أى أولاده من الأسود ، فهو راجع لليث ، ففيه لف ونشر ، وفيه شبه التضاد حيث جمع بين مايخشى وما يرجى . وفيه الجناس اللاحق بين غيث وليث ، وبين مسبل ومشبل .

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدإ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه فى حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحجاج :

أَسَدٌ عَلَىَّ وفى الُحروبِ نَعَامَةٌ . فَتْخاءُ تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ (١)

ومعنى ﴿ لايرجعون ﴾ أنهم لايعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها ، تسجيلا عليهم بالطبع . أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين فى مكانهم لايبرحون ، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخرون ؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه ؟

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

ثم ثنى الله سبحانه فى شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا غب إيضاح . وكما يجب على البليغ فى مظانّ الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز ؛ فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع . أنشد الجاحظ :

---

(١) أسد على وفى الحروب نعامة . فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا كررت على غزالة فى الوغى . بل كان قلبك فى جناحى طائر
لعمران بن حطان قاتل الحجاج . روى أن شبيب الخارجى وأمه جهيزة وامرأته غزالة ، كانوا فى غاية الفراسة فدخلوا الكوفة فى ألف وثلاثين فارسا ، وفيها حينئذ الحجاج ومعه ثلاثون ألف مقاتل فحاربوه سنة كاملة حتى هرب منهم فعيره عمران بذلك : أى أنت كالأسد ، ولا يصح استعارة عند الجمهور لنية ذكر المشبه . وجوزها التفتازانى على أن المذكور فرد من أفراده لاعينه . و « على » متعلق بأسد ، لمـا فيه من معنى الشجاعة والقوة . و « فى الحروب » متعلق بنعامة ، لمـا فيه من معنى الجبن والضعف . وهذا ظاهر على مذهب العلامة ، لأن الأسد مستعار لمطلق شجاع ، والنعامة لمطلق جبان . وأما على مذهب الجمهور فهما جامدان لبقائهما على حقيقتهما ، إلا أن يقال : لما وقع فى مقام التشبيه لوحظ فيهما الوصف الذى بنيت عليه المشابهة . ويجوز تعلقهما بمعنى التشبيه ، أو بمحذوف حال من المبتدأ المحذوف على رأى سيبويه . والفتخ ـ بالتحريك ـ لين وانفراج فى الأصابع والأجنحة . والفتخاء : وصف منه . وتنفر : صفة نعامة ، أى تفزع وتهلع خوفا من أدنى صوت تسمعه . وصفها بغاية الضعف ليدل على أن المشبه كذلك ثم وبخه بقوله : هلا كررت على تلك المرأة فى الحرب . لم تفعل ذلك بل كان قلبك يخفق ويضطرب ، كأنه فى جناحي طائر ، وهو من التشبيه البليغ . ويروى : هلا برزت إلى غزالة .

يُوحُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارَةً   وَحْىَ المَلاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ [(١)]

ومما ثنى من التمثيل فى التنزيل قوله : (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات) وألا ترى إلى ذى الرمة كيف صنع فى قصيدته ؟ :

أَذَاكَ أَمْ نَمِشٌ بالوَشْيِ أَكْرُعُهُ   ... ...
أَذَاكَ أَمْ خَاضِبٌ بالسِّيِّ مَرْتَعُهُ   ... ... [(٢)]

فإن قلت : قد شبه المنافق فى التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فما ذا شبه فى التمثيل الثانى بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق ؟ قلت : لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب ، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر . وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات . وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق . وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . والمعنى : أو كمثل ذوى صيب . والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا . فإن قلت : هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات ؟ وهلا صرح به كما

---

(١) أنشده الجاحظ . وروى « يرمون » استعار الرمى لاخراج الكلام من الفم بكثرة على طريق التصريح . ويقال : وحى له ، وإليه وحيا ، وأوحى له وإليه إيحاء : إذا ألقى إليه الكلام ، أو أشار له به ، وألهمه إياه . فالوحى مصدر وحى أو اسم مصدر أوحى ، واللحظ : الاشارة بطرف العين يمنة أو يسرة . واللاحظ وصف بحسب الأصل ، وهو اسم لطرف العين . ولذلك جمع على لواحظ ، ونسب الوحى إليها لأنها آلة . ويجوز أنه جمع لاحظة عنق للنسائى أى يتكلمون بالخطب الطوال تارة عند الأمن ، ويوحون وحيا باللواحظ تارة أخرى ، لخوفهم من الرقباء ، فلكل مقام عندهم مقال .

(٢)
أذاك أم نمش بالوشى أكرعه   مسفع الخد عاد ناسط شبب
أذاك أم خاضب بالسى مرتعه   أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب

لذى الرمة يصف ناقته شبهها أولا بحمار الوحش ، ثم قال : أذاك الحمار تشبهه ناقتى أم نمش . والنمش بالتحريك ـ : تفرق اللون . وكحذر : متفرق اللون . والوشى : لون يخالف لون بقية الشىء . والأكرع : جمع كراع وهو الساق والمسفع : الأسود ـ من السفعة ـ وهى السواد . والناشط : الخارج من أرض لأخرى . والشبب ـ كحذر أيضا ـ المسن من بقر الوحش . ثم قال أذاك الثور يشبهها ، أم خاضب ؟ وهو الظليم الذى احمرت ساقاه ، أو اصفرتا من أكل الربيع . والسى : المستوى من الأرض ، واسم موضع بعينه . والمرتع : مصدر أو اسم مكان مظروف فى أوسع منه . ومنقلب : راجع من المرعى إلى أفراخه الثلاثين . فيكون أسرع ما يكون ، فهى كذلك سريعة السير . وأكرعه فاعل بالظرف أو فاعل نمش . ومرتعه : فاعله بالظرف ، أو مبتدأ والظرف خبر له .

فى قوله : (ومايستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) ، وفى قول امرئ القيس :

كأنَّ قُلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابِساً لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِى ؟ [1]

قلت : كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطويا ذكره على سنن الاستعارة ، كقوله تعالى : (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) ، (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلاسلما لرجل) . والصحيح الذى عليه علماء البيان لايتخطونه : أنّ التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرّقة ، لايتكلف الواحد واحد شىء يقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل ، بيانه : أنّ العرب تأخذ أشياء فرادى ، معزولا بعضها من بعض ، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها ، كما فعل امرؤ القيس وجاء فى القرآن ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا ، بأخرى مثلها كقوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة) الآية . الغرض تشبيه حال اليهود فى جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة ، بحال الحمار فى جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار ، لايشعر من ذلك إلا بما يمرّ بدفيه من الكدّ والتعب . وكقوله : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر . فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئا واحدا ، فلا . فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق . فإن قلت : الذى كنت تقدره فى المفرّق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك « أو كمثل ذوى صيب » هل تقدر مثله فى المركب منه ؟ قلت : لولا طلب

---

(١) لامرىء القيس يصف العقاب وهى تأكل صغار الطير إلا قلوبها ، فلذلك كثرت عندها ، ويصف نفسه بالشجاعة ، حيث وصل إلى رؤية ذلك فقال : كأن قلوب الطير حال كونها رطبا بعضها ويابسا بعضها ، حال كونها عند وكر العقاب ـ أى عشها ـ : العناب ، وهو ثمر أحمر رطب ، فهو راجع للبعض الرطب . والحشف : الجاف الردىء من التمر البالى الهالك ، فهو راجع للبعض اليابس ، ففيه لف ونشر مرتب ، وفيه طباق التضاد بين الرطب واليابس . ويجوز أن رطباً ويابسا نصب على البدل من قلوب الطير ، أى كأن الرطب واليابس منها : العناب والحشف . وبدل البعض لا يجب فيه ضمير يرجع للمبدل منه ، وإن كانت الأولى ذلك .

الراجع فى قوله تعالى : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) ما يرجع إليه لكنت مستغنيا عن تقديره ؛ لأنى أراعى الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا علىّ أوَلِىَ حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله . ألا ترى إلى قوله : (إنما مثل الحياة الدنيا) الآية ، كيف ولى الماء الكاف ، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره . ومما هو بين فى هذا قول لبيد :

وما النَّاسُ إلّا كالدِّيَارِ وأَهْلُهَا ... بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وغَدْوًا بَلَاقِعُ [1]

لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم فى الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم ، بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها ، وتركها خلاء خاوية . فان قلت : أى التمثيلين أبلغ ؟ قلت : الثانى ، لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ، ولذلك أُخر ، وهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ . فإن قلت : لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك ؟ قلت : أو فى أصلها لتساوى شيئين فصاعدا فى الشك ، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوى فى غير الشك ، وذلك قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، تريد أنهما سيان فى استصواب أن يجالسا ، ومنه قوله تعالى : (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) ، أى الآثم والكفور متساويان فى وجوب عصيانهما ، فكذلك قوله (أو كصيب) معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتى هاتين القصتين ، وأن القصتين سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل ، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب ، وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك . والصيب : المطر الذى يصوب ، أى ينزل ويقع . ويقال للسحاب : صيب أيضا . قال الشماخ :

* وأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرَّعْدِ صَيِّبِ * [2]

---

(١) لم يرد تشبيه الناس بالديار ذاتها ، وإنما أراد تشبيه حالهم مع الدنيا بحال الديار مع أهلها . وقوله : « وأهلها بها » جملة حالية . و « يوم حلوها » نصب بعامل المجرور قبله المحذوف . و « غدوا بلاقع » أى وهى فى غد بلاقع ، جمع بلقع : أى قفر خالى . والشائع استعمال « الغد » كاليد ، فظهرت واوه هنا على الأصل . وعبر بالغد ومراده به الزمن القريب ، كما يقال أفعله بكرة . والمراد بعد أيام قليلة ، فالجامع سرعة الفناء والزوال بعد البهجة والنضرة . ولك جعله من تشبيه المفرد بالمفرد بجامع أن الناس تكون فيها الارواح ، فهى زاهية باهية ، ثم تنزع منها فتصير خالية خاوية كالدار تكون عامرة بأهلها فتصبح خرابا . وهذا على رفع أهلها . وأما على جره عطفاً على الديار فيتعين الأول ، ويكون « بها » متعلق بمحذوف حال من أهلها . والباء بمعنى « فى » على التقديرين .

(٢) أرسما جديداً من سعاد تجنب ... عفت روضة الأجداد منه فينقب

عفا آية نسج الجنوب مع الصبا ... وأسحم دان صادق الوعد صيب

للشماخ . وقيل للنابغة الذبيانى وقيل للهيثم بن خوار . يقال : جنبه ، باعده أو أصاب جانبه . وعنى المنزل :

وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل . كما نكرت النار فى التمثيل الأول . وقرئ : كصائب ، والصيب أبلغ . والسماء : هذه المظلة . وعن الحسن : أنها موج مكفوف . فان قلت : قوله (من السماء) ما الفائدة فى ذكره ؟ والصيب لا يكون إلا من السماء . قلت : الفائدة فيه أنه جاء بالسماء معرفة فنفى أن يتصوب من سماء ، أى من أفق واحد من بين سائر الآفاق ، لأنّ كل أفق من آفاقها سماء ، كما أن كل طبقة من الطباق سماء فى قوله : (وأوحى فى كل سماء أمرها) . الدليل عليه قوله :

* ومِنْ بُعدِ أَرْضٍ بَيْنَنا وسَمَاءِ * [1]

والمعنى أنه غمام مطبق آخذ بآفاق السماء ، كما جاء بصيب . وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتنكير . أمد ذلك بأن جعله مطبقا . وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر . ويؤيده قوله تعالى : (وينزل من السماء من

--- دوس وهلك ، وعفته الريح : أهلكته ودرسته . والجد - بالضم - البئر التى فى موضع كثير الكلأ . والجدد : الأرض الصلبة ، ضد الجبار . والأجداد جمع للأول أو للثانى . والجدد : الطرائق المنعطفة من الرمل . ويجوز أن الأجداد جمعه أيضاً ، لكن على روايته « روضة » بالنصب والاضافة للضمير . والأجداد بالرفع . والنقب - كالشعب - : الطريق المطمئن فى الجبل . ونقب المكان ينقب : صار ذا نقب . وكذلك يشعب صار ذا شعب . هذا والمتبادر أنه بالعين بدل القاف ، أى يقفر ، من النقبة وهى الاقفار . والآى واحده آية ، بمعنى العلامات والآثار . وشبه اختلاف الرياح على وجوه منضبطة بالنسج على طريق التصريحية . والأسحم : الأسود ، وهو صفة السحاب . والدانى : القريب . وروى « داج » والداجى المظلم . والصيب : كثير الأمطار . والاستفهام تعجبى . يقول : أتعجب من مباعدتنا الرسم الجديد من دار سعاد ؟ أو أتعجب من مرورنا بجانب رسم سعاد الجديد الذى هلكت آثاره فصار طرقا متسعة ؟ والذى عفا آثره هو اختلاف الرياح وتتابع الأمطار . فعفا استئناف بيانى . وشبه السحاب برجل صدق وعده على طريق المكنية . والصدق والوعد تخييل . وروى الرعد بالراء ، شبه رعده بالخبر الصادق . وصيب : فيعل من صاب يصوب ، إذا نزل مائلا إلى جهة ، كسيد من ساد يسود .

(١) فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها ومن بعد أرض بيننا وسماء

« أوه » بالتشديد مع فتح الواو وكسرها مبنى على السكون . وروى بضم الهمزة وسكون الواو . وفيه لغة ثالثة بابدال الواو ألف مد مبنى فيهما على الكسر : اسم فعل للتوجع . وما زائدة بعد إذا للدلالة على تعميم الأوقات . يقول : أتوجع من تذكر المحبوبة كلما تذكرتها ، ومن بعد ما بيننا من قطعة أرض وقطعة سماء تقابل تلك القطعة فأطلق الأرض والسماء على بعض كل منهما ، وذكرهما لافادة ذلك ، لكن المقرر عندهم أن التنوين إنما يفيد التبعيض فى الأفراد لا فى الأجزاء ، فلا يتم ماتقدم إلا بعد ادعاء أن السماء تطلق على بعض تلك المظلة ، والأرض على بعض هذه المقلة ؛ ليكون البعض فرداً من الأفراد لا جزءاً من الأجزاء . وذكر السماء دلالة على تناهى البعد فى الأرض ، لأنه يظهر فيها قبل ظهوره فى السماء . ويجوز أن المراد تشبيه البعد بينهما بالبعد بين السماء والأرض . وعليه فالتنوين للتهويل والتعظيم .

جبال فيها من برد). فان قلت : بم ارتفع ظلمات ؟ قلت : بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف . والرعد : الصوت الذى يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد . والبرق الذى يلمع من السحاب ، من برق الشيء بريقا إذا لمع . فان قلت : قد جعل الصيب مكانا للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر ، فأيهما أريد فما ظلماته ؟ قلت : أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقا فظلمتا سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل . وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر ، وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل . فان قلت : كيف يكون المطر مكانا للبرق والرعد وإنما مكانهما السحاب ؟ قلت إذا كانا فى أعلاه ومصبه وملتبسين فى الجملة فهما فيه . ألا تراك تقول : فلان فى البلد ، وما هو منه إلا فى حيز يشغله جرمه . فان قلت : هلا جمع الرعد والبرق أخذا بالأبلغ كقول البحترى :

يَاعَارِضًا مُتَلَفِّعًا بِبُرُودِهِ يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ ورُعُودِهِ (١)

وكما قيل ظلمات ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يراد العينان ، ولكنهما لما كانا مصدرين فى الأصل ـ يقال : رعدت السماء رعداً وبرقت برقا ـ روعى حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع . والثانى : أن يراد الحدثان كأنه قيل : وإرعاد وإبراق . وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات ، لأن المراد أنواع منها ، كأنه قيل : فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف . وجاز رجوع الضمير فى يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفا قائما مقامه الصيب ، كما قال : (أوهم قائلون) ، لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه . ألا ترى إلى حسان كيف عوّل على بقاء معناه فى قوله :

---

(١) ياعارضا متلفعا ببروده يختال بين بروقه ورعوده
إن شئت عدت لأرض نجد عودة فحللت بين عقيقه وزروده
لتجود فى ربع بمنعرج اللوى قفر تبدل وحشة من غيده

للبحترى يخاطب السحاب لأنه شبهه لتكاثفه وتراكمه بانسان متلفع بثيابه . وإثبات التلفع بالبرود والاختيال تخييل وبنى على ذلك إثبات المشية له وجمع البرق والرعد مع أنهما مصدران للدلالة على الكثرة والتعدد المرات . والعقيق والزرود موضعان بعينهما . والمنعرج ـ على زنة اسم المفعول ـ المكان الذى ينعطف فيه السائر يمنة ويسرة . واللوى الرمل الملتوى . والأغيد : الناعم الجيل ، مؤنثه غيداء ، والغيد ـ كالبيض ـ جمعه . والجود : الامطار .

يلتمس من السحاب المعترض فى الأفق أن يمطر فى ربع الأحبة بالمكان المنعطف ، ثم وصف الربع بأنها قفر لانبات فيه ، وصار فيه وحشة بالوحوش بدل الأنس بالأحبة .

يُسْقَوْنَ مِنْ وِرْدِ البَرِيصِ عَلَيْهِمُ بَرَدَي يُصَفِّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ [١]

حيث ذكر يصفق ؛ لأن المعنى ؛ ماء بردى ، ولا محل لقوله (يجعلون) لكونه مستأنفا ، لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدّة والهول ، فكأن قائلا قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد ؟ فقيل : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) ثم قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق ؟ فقيل : يكاد البرق يخطف أبصارهم . فان قلت : رأيس الأصبع هو الذى يجعل فى الأذن [٢] فهلا قيل أناملهم ؟ قلت : هذا من الاتساعات فى اللغة التى لا يكاد الحاصر يحصرها ، كقوله : (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم) ، (فاقطعوا أيديهما) أراد البعض الذى هو إلى المرفق والذى إلى الرسغ . وأيضا فى ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس فى ذكر الأنامل . فان قلت : فالأصبع التى تسدّ بها الأذن أصبع خاصة ، [٣] فلم ذكر الاسم العام دون الخاص ؟ قلت : لأن السبابة

---

(١) لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

لحسان بن ثابت يذكر أيام ملوك الشام الغسانيين . والعصابة : الجماعة على رأى واحد . وجلق - بالتشديد - اسم أعجمى لبلد . « وفى الزمان » متعلق بمحذوف صفة ليوم الواقع ظرفا للنادمة ، وهى المحادثة على الشراب . والبريص اسم واد . ويروى - بفتحتان - : علم لنهر بدمشق وجبل بالحجاز واسم للبحر . ويصفق : أى يمتزج . وقيل « يتصفى » ينقله من إناء إلى آخر . ولعله رواه « يصفى » من التصفية . والرحيق : الصافى . والسلسل : السهل المساغ « ومن ورد » مفعول أول ، و « عليهم » قيل متعلق بمحذوف حال من الضمير المنوى فى ورد . والظاهر أنه متعلق بورد أى أقبل ونزل . و « بردى » مفعول ثان . و « يصفق » جملة حالية . والمعنى : أن كل من ورد عليهم البريص يسقونه ماء بردى حال كونه يصفق على مامر . ويجوز أن يكون معناه تتلاطم أمواجه فالباء للملابسة . ويحتمل أن فيه قلبا . والأصل يصفق الرحيق السلسل به ، ولعل ذلك كناية عن كرمهم لا كثارهم العطاء . وقيل الرحيق السلسل الخمر الصافية السهلة . والمعنى على التشبيه ، أى بماء كأنه الخمر . والظاهر بقاؤه على حقيقته ، ويكون ذلك قبل تحريمها وهو أوقع فى مقام المدح . فان قلت : « بردى » مؤنث ، فلم قال « يصفق » بالتذكير ؟ قلت : هناك مضاف مذكر حذف ، فقام المضاف إليه مقامه فى الاعراب والتذكير . والأصل : ماء بردى .

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت المجعول من الأصابع فى الآذان رؤسها ... الخ » قال أحمد رحمه الله : لأن فيه إشعارا بأنهم يبالغون فى إدخال أصابعهم فى آذانهم فوق العادة المعتادة فى ذلك فرارا من شدة الصوت .

(٣) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : فالأصبع التى تسد بها الأذن . . الخ » . قال أحمد رحمه الله : لا ورود لهذين السؤالين . أما الأول فلأنه غير لازم أن يسدوا فى تلك الحالة بالسبابة ولابد فانها حالة حيرة ودهش ، فأى أصبع اتفق أن يسدوا بها فعلوا غير معرجين على ترتيب معتاد فى ذلك ، فذكر مطلق الأصابع أدل على الدهش والحيرة . أو فلعلهم يؤثرون فى هذا الحال سد آذانهم بالوسطى ، لأنها أصم للأذن وأحجب للصوت فلم يلزم اقتصارهم على السبابة . وأما السؤال الثانى فمفرع على الأول ، وقد ظهر بطلانه ؛ وأيضا ففيه مزيد ركاكة ، إذ الغرض تشبيه حال المنافقين بحال أمثالهم من ذوى الحيرة ، فكيف يليق أن يكنى عن أصابعهم بالمسبحات ؟ ولعل ألسنتهم ماسبحت =

فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن . ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدّعاءة . فان قلت : فهلا ذكر بعض هذه الكنايات ؟ قلت : هى ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس فى ذلك العهد ، وإنما أحدثوها بعد . وقوله ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون ، أى : من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، كقولك : سقاه من العيمة [1] . والصاعقة : قصفة رعد تنقض معها شقة من نار ، قالوا : تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه ، وهى نار لطيفة حديدة . لاتمر بشىء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود . يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت . ويقال : صعقته الصاعقة إذا أهلكته ، فصعق ؛ أى مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق . ومنه قوله تعالى : (وخرّ موسى صعقا) . وقرأ الحسن : من الصواقع ؛ وليس بقلب للصواعق ، لأنّ كلا البناءين سواء فى التصرف ، وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله . ألا تراك تقول : صقعه على رأسه ، وصقع الديك ، وخطيب مصقع : مجهر بخطبته . ونظيره « جبذ » فى « جذب » ليس بقلبه لاستوائهما فى التصرف . وبناؤها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد ، أو للرعد ، والتاء مبالغة كما فى الراوية ، أو مصدرا كالكاذبة والعافية . وقرأ ابن أبى ليلى : حذار الموت ، وانتصب على أنه مفعول له كقوله :

* وأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الكَرِيمِ ادِّخَارَهُ * [2]

والموت فساد بنية الحيوان . وقيل : عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة . وإحاطة الله بالكافرين مجاز . والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة . وهذه الجملة

= الله قط . ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعانى فى الأذهان تصوير المحسوسات ، فذلك خليق بذكر الصرائح واجتناب الكنايات والرموز .

(١) قوله « سقاه من العيمة » هى شهوة اللبن ، وقيل شدة شهوته . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر ... وذى أود قومته فتقوما
وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

لحاتم الطائى . وقيل للأحنف بن قيس . يقول : ورب عوراء ، أى كلمة قبيحة ، قد أعرضت عن المؤاخذة بها فلم تضرنى . ورب ذى أود ـ أى اعوجاج ـ كالعصى المعوجة ، قومته وعدلته بالمحاربة فتقوم . وقسم الأعراض إلى قسمين : لكل منهما علة مخصوصة فقال : وأغفر عوراء الكريم ، أى قبيحته ، لأجل ادخارى إياه . فادخاره : مفعول له نصب بأغفر ، وإن عرف بالاضافة . وأعرض عن شتمى للرجل اللئيم تكرما منى كى لا أكون مثله . ويجوز أن المعنى : عن مؤاخذة اللئيم لشتمه لى تكرما منى . فتكرما : مفعول نصب بأعرض . والقول بأن تكرما علة لأعرض وأغفر : قول من لم يذق طعم الكلام .

اعتراض لا محل لها . والخطف : الأخذ بسرعة . وقرأ مجاهد ﴿يخطف﴾ بكسر الطاء ، والفتح أفصح وأعلى ، وعن ابن مسعود : يختطف . وعن الحسن : يخطف ، بفتح الياء والخاء ، وأصله يختطف . وعنه : يخطف ، بكسرهما على إتباع اليـاء الخاء . وعن زيد بن على : يخطف ، من خطف . وعن أبيّ : يتخطف ، من قوله : (يتخطف الناس من حولهم) . ﴿كلما أضاء لهم﴾ استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول : كيف يصنعون فى تارتى خفوق البرق وخفيته ؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وماهم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة ، مع خوف أن يخطف أبصارهم ، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فاذا خفى وفتر لمعـانه بقوا واقفين متقيـدين عن الحركة ، ولو شاء الله لزاد فى قصيف الرعد فأصمهم ، أو فى ضوء البرق [1] فأعماهم . وأضاء : إما متعد بمعنى : كلما نور لهم ممشى ومسلكا أخذوه والمفعول محذوف . وإما غير متعـد بمعنى : كلما لمع لهم ﴿مشوا﴾ فى مطرح نوره وملقى ضوئه . ويعضده قراءة ابن أبى عبلة : كلماضاء لهم والمشى : جنس الحركة المخصوصة . فإذا اشتـد فهو سعى . فإذا ازداد فهو عدو . فإن قلت : كيف قيل مع الإضاءة : كلما ، ومع الإظلام : إذا ؟ قلت : لأنهم حراص على وجود ما هممهم به معقود من إمكان المشى وتأتيه ، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف والتحبس . وأظلم : يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر ، وأن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل ، [2] وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب : أظلم ، على مالم يسم فاعله . وجاء فى شعر حبيب ابن أوس :

هُمَا أَظْلَمَا حالَىَّ ثُمّتَ أَجْلَيَا ظَلَامَيْهِمَا عنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ [3]

---

(١) قوله « أوفى ضوء البرق » لعله وفى . (ع)

(٢) قوله « منقولا من ظلم الليل » فى الصحاح «ظلم الليل بالكسر وأظلم » بمعنى ، عن الفراء (ع)

(٣) أحاولت إرشادى فعقلى مرشدى ... أم استمت تأديبي فدهرى مؤدبى
هما أظلما حالى ثمت أجليا ... ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب
شجي فى حلوق الحادثات مشرق ... به عزمه فى الترهات مغرب

لأبى تمام . ويقال لحبيب بن أوس . وحاول الشيء : أراده وحام حول تحصيله . واستام الشيء : قصده وتتبع سماته وتعرفه بها . ويروى : أم اشتقت . وقوله « عن وجه أمرد أشيب » فيه تجريد ، أى عن وجه رجل أمرد كناية عن حسن الخلق . أشيب كناية عن جودة الرأى اللازمة لكمال الرجولية . والأول كناية عن المضى فى طرق الهزل . والثانى كناية عن المضى فى طرق الجد ، فلذلك اجتمعا معا فى زمان واحد . ويحتمل أنه شاب مع أنه أمرد من كثرة حوادث =

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه . ومعنى ﴿قاموا﴾ وقفوا وثبتوا فى مكانهم . ومنه : قامت السوق ، إذا ركدت وقام الماء : جمد . ومفعول ﴿شاء﴾ محذوف ، لأن الجواب يدل عليه . والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، ولقد تكاثر هذا الحذف فى « شاء » و « أراد » لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشيء المستغرب كنحو قوله :

* فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ * (١)

وقوله تعالى « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ، (لو أراد الله أن يتخذ ولدا) . وأراد : ولو شاء الله لذهب بسمعهم بقصيف الرعد ، وأبصارهم بوميض البرق . وقرأ ابن أبى عبلة : لأذهب بأسماعهم ، بزيادة الباء كقوله : (ولا تلقوا بأيديكم) . والشيء : ما صح أن يعلم ويخبر عنه . قال سيبويه ـ فى ساقة الباب المترجم بباب مجارى أواخر الكلم من العربية ـ : وإنما يخرج التأنيث من التذكير . ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى ؟ . والشيء : مذكر ، وهو أعم العام ؛ كما أن الله أخص الخاص يجرى على الجسم والعرض

ـــ الدهر . والشجي : ما نشب فى الحلق لا يصعد ولا ينزل . والمشرق المغرب : الذاهب شرقا وغربا . والمراد التعميم . والترهة : فارسى معرب بمعنى الطريق الصغيرة غير الجادة ، والجمع ترهات وتراريه . ثم استعير للباطل وصار اسما له ، والمعنى : إن أردت مرشدى فهو عقلى ، أو مؤدبى فدهرى . فالاستفهام بمعنى الشرط مجازاً ، ويحتمل أنه توبيخى والفاء تعليلية لمحذوف ، أى لا ينبغى إرادة إرشادى ولا تأديبى ، فان دهرى وعقلى تكفلا بذلك . وبين ذلك بقوله « هما أظلما » واستعمال أظلم متعديا لغة رديئة . وحالى : مفعول . والاظلام استعارة لتنغيص العيش وتكدير الخاطر . وأجليا : أزالا وكشفا ظلاميهما . والظلامان : استعارة للتكدر والتنغص . وقوله « شجى » بدل من الأمرد ، أى كالشجى . وشبه الحوادث بحيوانات لها حلوق على طريق المكنية والحلوق تخييل لذلك . والمعنى أن الحوادث صارت لا تؤثر فيه ومضى به عزمه فى جميع طرق الهزل كما مضى به فى الجد ، وبين مشرق مغرب طباق التضاد .

(١) ملكت دموع العين حين رددتها ... إلى ناظرى والعين كالقلب تدمع

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

لابن يعقوب إسحاق بن حسان الخذيمى ، يرثى أبا الهيذام عامر بن عمار أمير عرب الشام . يقول : غلبت دموع عينى وقدرت عليها حين رددتها إلى مكانها . ويروى « ثم رددتها » والحال أنها تدمع دمعا كالقلب فى الحرة والحرقة ، أو تدمع على وجه التبعية للقلب . ويروى « فالعين فى القلب » مبالغة فى فكره وحزنه المضمر فيه . وذكر مفعول المشيئة مع أنه صار فى استعمالهم نسيا منسياً لأنه شيء مستغرب فحسن ذكره . وضمن « أبكى » معنى أدمع ، فعداه إلى الدم مع أنه لا يتعدى إلا إلى المبكى عليه . وشبه الصبر بكريم أو ببيت له ساحة على سبيل المكنية . والمراد أنه يترك الجزع ويعدل إلى الصبر فيتصف به .

والقديم. تقول: شيء لا كالأشياء؛ أي معلوم لا كسائر المعلومات، وعلى المعدوم والمحال فإن قلت: كيف قيل ﴿على كل شيء قدير﴾ وفي الأشياء مالا تعلق به للقادر كالمستحيل [1] وفعل قادر آخر [2]؟ قلت: مشروط في حد القادر أن لا يكون الفعل مستحيلا؛ فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها، فكأنه قيل: على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره: فلان أمير على الناس أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس. وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه. فإن قلت: ممّ اشتقاق القدير؟ قلت: من التقدير، لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

لما عدّد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله (إياك نعبد وإياك نستعين)، وهو فنّ من الكلام جزل، فيه هزّ وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكيا عن ثالث لكما: إنّ فلانا من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت

(١) قال محمود رحمه الله: «وفي الأشياء مالا تعلق به للقادر كالمستحيل ... الخ». قال أحمد رحمه الله: هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع. أما على الأصل، فلأن الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنة. وأما على الفرع، فلأنا وإن فرعنا على معتقد القدرية ـ والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم الذي يصح وجوده فلا يتناول المستحيل ـ إذاً على هذا التفريع مايراده إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين. وأما المقدور بين قادرين، فانها ورطة إنما يساق إليها القدرية الذين يعتقدون أن ماتعلقت به قدرة العبد استحال أن يتعلق به قدرة الرب، إذ قدرة العبد خالقة فيستغنى الفعل بها عن قدرة خالق آخر ـ تعالى الله عما يشركون علوا كبيرا ـ وأما أهل السنة فالقادر الخالق عندهم واحد، وهو الله الواحد الأحد، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل فيخلقه، وتتعلق به قدرة العبد تعلق اقتران لا تأثير؛ فلذلك لم يخلق مقدور بين قادرين على هذا التفسير. وقد حشى الزمخشري في أدراج كلامه. هذا سلب القدرة القديمة وجحدها، وجعل الله تعالى قادراً بالذات لا بالقدرة، دس ذلك تحت قوله: وفي الأشياء مالا تعلق به لذات القادر، ولم يقل لقدرة القادر، فليتفطن لدفائنه. وكم من ضلالة استدسها في هذه المقالة والله الموفق. فان قيل: أيها الأشعرية، إذا كان الشيء عندكم هو الموجود، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين (إن الله على كل شيء قدير)؟ قلنا: القدرة تتعلق بمقدورها فتوجده فيكون حينئذ شيئا؛ فلما كان مآل ماتعلقت به القدرة إلى الشيء حتما، صح إطلاق الشيء عليه، وهو من وادي: «من قتل قتيلا فله سلبه»، وإذا سموا الشيء باسم مايؤول إليه غالباً، فما يؤول إليه حتما أجدر.

(٢) قوله «وفعل قادر آخر» لعله مبني على مذهب المعتزلة أن العبد هو الفاعل لأفعاله الاختيارية. ومذهب أهل السنة أن فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى. (ع)

بخطابك إلى الثالث فقلت : يافلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة فى مجارى أمورك ، وتستوى على جادّة السداد فى مصادرك ومواردك . نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه ، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء ، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه مالا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة ، وهكذا الافتنان فى الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف ، يستفتح الآذان للاستماع ، ويستهش الأنفس للقبول ، وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة : أنّ كل شىء نزل فيه : (يأيها الناس)[1] فهو مكى ، و(يأيها الذين آمنوا) فهو مدنى ، فقوله : ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم﴾ خطاب لمشركى مكة ، و« يا » حرف وضع فى أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه . وأما نداء القريب فله أى والهمزة ، ثم استعمل فى مناداة من سها وغفل وإن قرب . تنزيلا له منزلة من بعد ، فإذا نودى به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنىّ به جداً . فإن قلت : فما بال الداعى يقول فى جؤاره : يارب ،[2] ويا ألله ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأسمع به وأبصر ؟ قلت : هو استقصار منه لنفسه ، واستبعاد لها من مظانّ الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين ، هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط فى جنب الله ، مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله ، و« أى » وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ، كما أنّ « ذو » و « الذى » وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل. وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء ، فالذى يعمل فيه حرف النداء هو « أىّ » ، والاسم التابع له صفته ، كقولك : يازيد الظريف؛ إلا أن « أيا » لايستقل بنفسه استقلال « زيد » فلم ينفك من الصفة . وفى هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد . وكلمة التنبيه

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة قال : حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم بهذا . وأخرجه البزار من رواية الأقيس ابن الربيع عن الأعمش موصولا بذكر عبد الله بن مسعود فيه . وقال : لانعلم أحدا أسنده إلا الاقيس واعترض بما رواه الحاكم والبيهقى فى الدلائل عنه . وابن مردويه فى تفسير الحج . كلهم من طريق وكيع أيضا قال : حدثنا أبى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله . (فائدة) هذا محمول على أن المراد بالمكى ماوقع خطابا لأهل مكة ، والمدنى ماوقع خطابا لأهل المدينة ؛ لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخوطبوا (يا أيها الناس) . وكان الغالب على أهل المدينة الايمان فخوطبوا (يا أيها الذين آمنوا) . أفاده الشيخ بهاء الدين ابن عقيل .

(٢) قوله « يقول فى جؤاره : يارب » فى الصحاح : جأر الثور يجأر ، أى صاح . وجأر الرجل إلى الله عزوجل : أى تضرع . (ع)

المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضا مما يستحقه أىّ من الإضافة . فان قلت : لم كثر فى كتاب الله النداء على هذه الطريقة مالم يكثر فى غيره ؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة : لأن كل ما نادىَ الله له عباده ـ من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق به كتابه ـ أمورعظام، وخطوب جسام ، ومعان ـ عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم عنها غافلون . فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ . فإن قلت : لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجها إلى المؤمنين والكافرين جميعاً ، أو إلى كفار مكة خاصة ، على ما روى عن علقمة والحسن ، فالمؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به ؟ وهل هو إلا كقول القائل :

فَلَوَ ٱنِّى فَعَلْتُ كُنْتُ مَنْ تَسْـــأَلُهُ وهُوَ قَائِمٌ أَنْ يَقُوما [1]

وأما الكفار فلا يعرفون الله ، ولا يقرون به فكيف يعبدونه ؟ قلت : المراد بعبادة المؤمنين : ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها . وأما عبادة الكفار فمشروط فيها مالا بد لها منه وهو الإقرار : كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهماومالا بد للفعل منه ، فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر ، حيث لم ينفعل إلا به ، وكان من لوازمه . على أنّ مشركى مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) . فان قلت : فقد جعلت قوله (اعبدوا) متناولا شيئين معاً : الأمر بالعبادة ، والأمر بازديادها . قلت : الازدياد من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر . فإن قلت (ربكم) ما المراد به ؟ قلت : كان المشركون معتقدين ربوبيتين : ربوبية الله ، وربوبية آلهتهم . فإن خصوا بالخطاب فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والأرض والآلهة التى كانوا يسمونها أربابا وكان قوله ﴿الذى خلقكم﴾ صفة موضحة مميزة . وإن كان الخطاب للفرق جميعاً ، فالمراد به « ربكم »

---

(١) نعمة الله فيك لا أسأل الله إليها نعمي سوى أن تدوما
فلوانى فعلت كنت كمن تسـأله وهو قائم أن يقوما

النعمة بالكسر ، والنعمى بالضم ، وكذلك النعماء بالفتح بمعنى واحد . يقول : نعمة الله علينا فيك كافية لانطلب من الله نعمة أخرى منضمة إليها ، سوى أن تدوم هى أو أنت أو أنتما . فلوانى ـ بالنقل للوزن ـ فعلت ، أى سألت الله غيرها كانت حالى مع الله كحالك مع من تسأله القيام وهو قائم ، فهو تشبيه مركب ، وإلا فهو سائل ومن تسأله مسؤل . يعنى أن السؤال يكون تحصيلا للحاصل ، لأنه لانعمة سواها أعظم منها فى ظنه . وفيه مبالغة فى تعظيمها .

على الحقيقة . والذى خلقكم : صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم . ولا يمتنع هذا الوجه فى خطاب الكفرة خاصة ، إلا أن الأول أوضح وأصح . والخلق : إيجاد الشيء على تقدير واستواء . يقال : خلق النعل ، إذا قدرها وسواها بالمقياس . وقرأ أبو عمرو : (خلقكم) بالإدغام . وقرأ أبو السميفع : وخلق من قبلكم . وفى قراءة زيد بن على : ﴿والذين من قبلكم﴾ وهى قراءة مشكلة ، ووجهها على إشكالها أن يقال : أقحم الموصول الثانى بين الأول وصلته تأكيداً ، كما أقحم جرير فى قوله :

* يَا تَيْمُ تَيْمَ عَدِيٍّ لاأَبَالَكُمُ * (١)

تيما الثانى بين الأول وما أضيف إليه ، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه فى : لا أبالك : ولعل للترجى أو الإشفاق . تقول : لعل زيداً يكرمنى . ولعله يهيننى .

---

(١) يا تيم تيم عدى لا أبالكم لا يلقينكم فى سوءة عمر
تعرضت تيم لى جهلا لأهجوها كما تعرض لاست الخارىء الحجر

لجرير ، تعرض له عمر بن لجأ ، ويقال بن لجام التيمى بالهجو فخاطب قبيلته بذلك . وحذف المضاف إليه مع بقاء المضاف على حالة الاضافة مضطرد ، إن اقترن بذكر مثله ليدل عليه ؛ وإلا فهو سماعى . ومثل هذا التركيب يجوز فيه ضم الأول فهو مفرد والثانى مضاف لما بعده ، وفتحه على أنه مضاف للمذكور ، أو لمحذوف مماثل له ، أو على أنهما مركبان اسما واحداً مضافا لما بعدهما ؛ فتيم الأول هنا مضاف لعدى ، والثانى مقحم بينهما مضاف لعدى محذوفا عند سيبويه أو مضاف للمذكور ، والأول مضاف لمحذوف مثل المذكور عند المبرد وتبعه ابن مالك ، أو هما معا مركبان كخمسة عشر ، مضافان لعدى عند الفراء وتبعه الأعلم . ولو كان الثانى بدلا أو بيانا أو توكيداً والأول مفرد ، لضم الأول وهم غير تيم قريش . وقولهم « لا أباله » دعاء بعدم الأب . وقيل يحتمل للذم ، أى لا أبله رشيداً ، بل هو ابن زنا . ويحتمل المدح ، أى ليس محتاجا إلى الأب بل مفاخره ذاتية ، لكن ماهنا من الأول . و«لكم» خبر «لا» عند ابن الحاجب . وخبرها محذوف عند غيره ولكم متعلق بمحذوف صفة . أو اللام زائدة والضمير مضاف إليه . وأما على الأول مبنى على فتح مقدر وحذف تنوينه للبناء . وعلى الثانى منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه لشبه الاضافة . وعلى الثالث منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه للاضافة . وهذا كله على لغة قصره كفتى . وأما نصبه بالألف على لغة إعرابه بالحروف فلا يظهر إلا فى الثالث ، وفيه أن المضاف معرفة و « لا » لا تعمل إلا فى النكرات ، إلا أن يقال زيادة اللام صيرته فى صورة النكرة فعملت فيه . و « لا يلقينكم » نهى عن الالقاء فى المكروه . وروى بالفاء بدل القاف ، من ألفى إذا وجد لكن روى « لا يوقعنكم » وهو يؤيد الأول . والمراد النهى عن إقرار عمر على هجوه الموقع لهم فى السوءة وهى هجو جرير لهم . واللام فى لأهجوها لام العاقبة . وقد شبه نفسه ـ بل فمه ـ باست الخارىء ، أى دبره . ومهد لذلك التشبيه فيما تقدم بالتعبير بالسوءة . ولقد هجا نفسه من حيث لم يشعر . والاست : من الأسماء العشرة التى بنوا أوائلها على السكون فزادوها همزة الوصل .

وقال الله تعالى : (لعله يتذكر أو يخشى) ، (لعل الساعة قريب) . ألا ترى إلى قوله : (والذين آمنوا مشفقون منها) . وقد جاءت على سبيل الإطماع فى مواضع من القرآن ، ولكن لأنه إطماع من كريم رحيم ، إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة ، لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به . قال من قال : إن «لعل» بمعنى «كى» ، و «لعل» لا تكون بمعنى «كى» ، ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك . وأيضا فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا فى مواعيدهم التى يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا : عسى ، ولعل ، ونحوهما من الكلمات أو يخيلوا إخالة . أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة ، فإذا عثر على شيء من ذلك منهم ، لم يبق للطالب ما عندهم شك فى النجاح والفوز بالمطلوب . فعلى مثله ورد كلام مالك الملوك ذى العز والكبرياء . أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد ، كقوله : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم . فان قلت : فـ « لعل » التى فى الآية ما معناها وما موقعها ؟ قلت : ليست مما ذكرناه فى شيء ، لأن قوله : (خلقكم) ، (لعلكم تتقون) ، لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة : وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضا . ولكن « لعل » واقعة فى الآية موقع المجاز [1] لا الحقيقة ، لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف ، وركب فيهم العقول والشهوات ، وأزاح العلة فى أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ، ووضع فى أيديهم زمام الاختيار ، وأراد منهم الخير والتقوى [2] . فهم فى صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم ـ وهم مختارون بين الطاعة والعصيان ـ كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل ، ومصداقه قوله عز وجل : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار . فإن قلت : كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون ، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك ، فلم قصره عليهم

---

(١) قال محمود رحمه الله : « لعل واقعة فى الآية موقع المجاز ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : كلام سديد إلا قوله : وأراد منهم التقوى والخير ؛ فانه كلام أبرزه على قاعدة القدرية . والصحيح والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره ، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين . والطلب والأمر عند أهل السنة مباين للارادة ، ألهمنا الله صواب القول وسداده .

(٢) قوله « وأراد منهم الخير والتقوى » مبنى على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد إلا الخير وإن وقع خلافه . ومذهب أهل السنة أنه يريد الخير والشر ، وكل ما أراده يقع ، لاجماع السلف على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . (ع)

دون من قبلهم ؟ قلت : لم يقصره عليهم ، ولكن غلب المخاطبين على الغائبين فى اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعا . فان قلت : فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا ؟ [1] أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم . قلت : ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدّى ذلك إلى تنافر النظم . وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده . فإذا قال (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة ، وأشدّ إلزاما لها ، وأثبت لها فى النفوس . ونحوه أن تقول لعبدك : احمل خريطة الكتب ، فما ملكتك يمينى إلا لجر الأثقال . ولو قلت : لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أوّلا ؛ لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها ، والسبب فى التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ، ثم خلق الأرض التى هى مكانهم ومستقرّهم الذى لابدّ لهم منه ، وهى بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ، ثم خلق السماء التى هى كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار ، ثم ماسوّاه عزّ وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها . والإخراج به من بطنها ـ أشباه النسل المنتج من الحيوان ـ من ألوان الثمار رزقا لبنى آدم ، ليكون لهم ذلك معتبرا : ومتسلقا إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ؛ ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكرون فى خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم . وأن شيئا من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شىء منها ، فيتيقنوا عند ذلك أن لا بدّ لها من خالق ليس كمثلها ، حتى لا يجعلوا المخلوقات له أندادا وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ماهو عليه قادر . والموصول مع صلته إمّا أن يكون فى محل النصب وصفا كالذى خلقكم ، أو على المدح والتعظيم . وإمّا أن يكون رفعا على الابتداء وفيه ما فى النصب من المدح . وقرأ يزيد الشامى : بساطا . وقرأ

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت فهلا قيل تعبدون ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : كلام حسن إلا قوله خلقكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة ؛ فانه مفرع على تلك النزغة المتقدمة آنفا . والعبارة المحررة فى ذلك على قاعدة السنة أن يقال : اعبدوا ربكم الذى خلقكم على حالة من حقكم معها أن تستولوا على أقصى غاية العبادة وهى التقوى لما ركب فيكم من العقول ، وبينه لكم من البواعث على تقواه ، فكان جديرا بكم أن لا تدعوا من جهدكم فى التقوى شيئا .

طلحة : مهادا . ومعنى جعلها فراشا وبساطا ومهادا للناس : أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده . فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الأرض مسطحة وليست بكرية ؟ قلت : ليس فيه إلا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش ، وسواء كانت على شكل السطح . أو شكل الكرة ، فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع ، لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها . وإذا كان متسهلا فى الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض ، فهو فى الأرض ذات الطول والعرض أسهل . والبناء مصدر سمى به المبنى ـ بيتا كان أو قبة أو خباء أو طرافا ـ وأبنية العرب : أخبيتهم ، ومنه بنى على امرأته ، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديدا . فإن قلت : ما معنى إخراج الثمرات بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيئته ؟ قلت : المعنى أنه جعل الماء سببا فى خروجها ومادّة لها ، كماء الفحل فى خلق الولد ، وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا موادّ كما أنشأ نفوس الأسباب والموادّ ، ولكن له فى إنشاء الأشياء مدرجا لها من حال إلى حال ، وناقلا من مرتبة إلى مرتبة حكما ودواعى يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبرا وأفكارا صالحة ، وزيادة طمأنينة ، وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته ، ليس ذلك فى إنشائها بغتة من غير تدريج وترتيب . و «من» فى ﴿ من الثمرات ﴾ للتبعيض بشهادة قوله : (فأخرجنا به من كل الثمرات) ، وقوله : (فأخرجنا به ثمرات) . ولأنّ المنكرين أعنى : ماء ، ورزقا ، يكتنفانه . وقد قصد بتنكيرهما معنى البعضية فكأنه قيل : وأنزلنا من السماء بعض الماء ، فأخرجنا به بعض الثمرات ، ليكون بعض رزقكم . وهذا هو المطابق لصحة المعنى ، لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ، ولا جعل الرزق كله فى الثمرات . ويجوز أن تكون للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم ألفا . فإن قلت : فيم انتصب ﴿ رزقا ﴾ ؟ قلت : إن كانت « من » للتبعيض . كان انتصابه بأنه مفعول له . وإن كانت مبنية ، كان مفعولا لأخرج . فإن قلت : فالثمر المخرج بماء السماء كثير جمّ فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التى فى قولك : فلان أدركت ثمرة بستانه ، تريد ثماره . ونظيره قولهم : كلمة الحويدرة ، لقصيدته . وقولهم للقرية : المدرة ، وإنما هى مدر متلاحق . والثانى : أنّ الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها فى الجمعية ، كقوله : (كم تركوا من جنات) و (ثلاثة قروء) . ويعضد الوجه الأوّل قراءة محمد بن السميفع : من الثمرة ، على التوحيد . و ﴿ لكم ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين ، وإن جعل

اسما للمعنى فهو مفعول به ، كأنه قيل : رزقا إياكم . فإن قلت : بم تعلق ﴿ فلا تجعلوا ﴾ ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه : أن يتعلق بالأمر . أى اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له ﴿ أندادا ﴾ لأنّ أصل العبادة وأساسها التوحيد ، وأن لا يجعل لله ندّ ولاشريك . أو بلعل ، على أن ينتصب تجعلوا انتصاب «فأطلع» فى قوله عز وجل : (لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) فى رواية حفص عن عاصم ، أى خلقكم لكى تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه ، أو بالذى جعل لكم ، إذا رفعته على الابتداء : أى هو الذى خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية ، فلا تتخذوا له شركاء . والند : المثل . ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ . قال جرير :

أَتَيْماً تَجْعَلُونَ إِلَىَّ نِدًّا ... وما تَيْمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدَا [1]

ونادَدت الرجل : خالفته ونافرته ، من ندّ ندودا إذا نفر . ومعنى قولهم : ليس لله ندّ ولا ضدّ نفى ما يسدّ مسدّه ، ونفى ما ينافيه . فإن قلت : كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب ، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه . قلت : لما تقرّبوا إليها وعظموها وسموها آلهة ، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله ، قادرة على مخالفته ومضادّته فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم . كما تهكم بهم بلفظ الندّ ، شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن جعلوا أندادا كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ندّ قط . وفى ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه :

أَرَبًّا واحِداً أَمْ أَلْفُ رَبٍّ ... أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ [2]

---

(١) الاستفهام إنكارى . وتيم : اسم رجل واسم قبيلة ، وهو مفعول مقدم . و «إلى» متعلق بتجعلون على طريق التضمين ، أى تنسبونه إلى أو إلى بمعنى لى . ويجوز تعلقه بندا وهو مفعول ثان . والواو للحال أى والحال أن تيما ليس ندا لصاحب حسب ومآثر ، فكيف يكون ندا لى . ويروى : أتيم تجعلون ، فهو مبتدأ والمعنى ماتقدم وقبل إلى متعلق بمحذوف حال من تيما أو من ندا . والند : الكفؤ والضد .

(٢)
أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل البصير

لعمرو بن زيد بن نفيل بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن ربيعة . والهمزة للاستفهام . وفيه ضرب من التعجب وإظهار الخطأ فى عبادة الأرباب وتشنيع على عبادهم . «وربا» مفعول . أدين : أى أطيع . والمراد بالألف الكثرة ، لاخصوص ذلك العدد . إذا تقسمت الأمور : أى إذا اتخذت كل طائفة دينا من الأديان . وقوله: اللات العزى : أى وغيرهما من الأصنام ؛ لأنه لافرق بينها . والبصير : المتبصر فى الأمر .

وقرأ محمد بن السميفع: فلا تجعلوا لله ندا. فإن قلت: ما معنى ﴿ وأنتم تعلمون ﴾. قلت: معناه: وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة فى التدابير، والدهاء والفطنة، بمنزل لا تدفعون عنه. وهكذا كانت العرب، خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة، لا يصطلى بنارهم [1] فى استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها. ومفعول (تعلمون) متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة. والتوبيخ فيه آكد، أى أنتم العرّافون المميزون. ثم إنّ ما أنتم عليه فى أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أندادا، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر: وأنتم تعلمون أنه لا يماثل. أو: وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت. أو: وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله، كقوله: (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء)

وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويحققها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه ـ عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدحض الشبهة فى كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عندالله كما يدعى، أم هو من عند نفسه كما يدعون. بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته. فان قلت: لم قيل: (مما نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من محازه لمكان التحدى. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة وآيات غب آيات، على حسب النوازل وكفاء الحوادث [2] وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقا حيناً فحيناً، وشيئا فشيئا حسب ما يعنّ لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة،

(١) قوله «لا يصطلى بنارهم» لعله يصطلى بدون «لا» أو لعله: لا يصطلى إلا بنارهم، بزيادة «إلا» فليحرر. ويمكن أن يراد اختصاصهم بكمال المعرفة، وأن غيرهم لا يصل إلى شىء مما لديهم من ذلك. (ع)

(٢) قوله «وكفاء الحوادث» أى مقابلها ومساويها. أفاده الصحاح. (ع)

ولا يرمى الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة ، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة : قال الله تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) ، فقيل : إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج ، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه ، وهلموا نجما فردا من نجومه : سورة من أصغر السور ، أو آيات شتى مفتريات . وهذه غاية التبكيت ، ومنتهى إزاحة العلل . وقرئ (على عبادنا) يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته . والسورة : الطائفة من القرآن المترجمة التى أقلها ثلاث آيات . وواوها إن كانت أصلا ، فإما أن تسمى بسورة المدينة وهى حائطها ، لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها ، كالبلد المسوّر ، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد ، كاحتواء سورة المدينة على ما فيها . وإما أن تسمى بالسورة التى هى الرتبة . قال النابغة :

وَلِرَهْطِ حَرَّابٍ وَقَدٍّ سُورَةٌ ... فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمُطَارِ [(١)]

لأحد معنيين ، لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ : وهى أيضاً فى أنفسها مترتبة : طوال وأوساط وقصار ، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها فى الدين . وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة ، فلأنها قطعة وطائفة من القرآن ، كالسؤرة التى هى البقية من الشيء والفضلة منه . فان قلت : ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً ؟ قلت : ليست الفائدة فى ذلك واحدة . ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسوّرة مترجمة السور . وبوّب المصنفون فى كل فن كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم . ومن فوائده : أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع ، واشتمل على أصناف ، كان

---

(١) ولرهط حراب وقد سورة ... فى المجد ليس غرابها بمطار
قوم إذا كثر الصياح رأيتهم ... وقرا غداة الروع والانفار

للنابغة الذبيانى . والسورة ـ بالضم ـ : الرتبة ، يقول : ولقوم حراب بن زهير وقد بن مالك درجة فى الشرف دائمة العز . وحراب بالراء . وروى بالزاى . وقد بالمهملة . وروى بالمعجمة . وقد وقد : أخوان . وليس غرابها بمطار استعارة تمثيلية لدوام العز لهم ؛ أو كناية عنه ، لأن أصله : أنه إذا كثر الشجر والنبات ، يقيم فيه الغراب ولا يطيره شيء لحب الخصب وعدم الجدب . والأوجه أن السورة أصلها المرتبة الحسية ، فاستعيرت للمعنوية ، ثم جرت فيها المكنية حيث شبهت بمكان الخصب ، وإثبات الغراب والاطارة تخييل لذلك التشبيه . ثم قال : هم قوم إذا كثر الصياح فى الحرب رأيتهم وقرا أى صما ، فهو من الوقر أى ثقل الأذن ، بمعنى أن كثرة الصياح لاتزعجهم كأنهم صم وقيل من الوقار والسكينة . وغداة الروع والانفار : صبيحة الخوف والافزاع . وقيل : أصله أن الغراب يقع على رأس البعير يتلقط منها الهوام ، فلا يحرك رأسه لئلا ينفر الغراب فشبه مرتبتهم برأس البعير على طريق المكنية . وقيل لارتفاعها لايصلها الغراب حتى يطار من فوقها . فالمعنى لاغراب فوقها فيطار .

أحسن وأنبل وأفخم [١] من أن يكون بيانا واحدا . ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ فى آخر كان أنشط له وأهز لعطفه ، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله . ومثله المسافر ، إذا علم أنه قطع ميلا ، أو طوى فرسخا ، أو انتهى إلى رأس بريد : نفس ذلك منه ونشطه للسير . ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعا وأجزاء وعشورا وأخماسا . ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة [٢] ، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة ، فيعظم عنده ما حفظه ، ويجل فى نفسه ويغتبط به . ومنه حديث أنس رضى الله عنه : «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران ، جد فينا [٣]» ومن ثمة كانت القراءة فى الصلاة بسورة تامة أفضل . ومنها أنّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض . وبذلك تتلاحظ المعانى ويتجاوب النظم ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع ﴿من مثله﴾ متعلق بسورة صفة لها أى بسورة كائنة من مثله . والضمير لما نزلنا [٤] ، أو لعبدنا . ويجوز أن يتعلق بقوله (فأتوا) والضمير للعبد . فإن قلت : وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل ؟ قلت : معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته فى البيان الغريب وعلو الطبقة فى حسن النظم . أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرا عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء ، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك . ولكنه نحو قول القبعثرى للحجاج ـ وقد قال له : لأحملنك على الأدهم ـ : مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب . أراد

---

(١) قوله «وأنبل وأفخم» أى أفضل وأعظم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «إذا حذق السورة» حذق الشيء ، أى مهر فيه . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه أحمد وابن أبى شيبة قال : حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس رضى الله عنه «أن رجلا كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قرأ البقرة وآل عمران ، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا ـ أى عظم : الحديث» . وأخرجه ابن حبان من هذا الوجه بلفظ «عد فينا ذو شأن» وقد ذكره الجوهرى فى الصحاح من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ المصنف . وأصله عند البخارى من رواية عبد العزيز ابن صهيب . وعند مسلم فى رواية ثابت ، كلاهما عن أنس دون القدر الذى اقتصر عليه المصنف . ولم يصب الطيبى فى عزوه له إلى الصحيحين . وعزاه الزمخشرى فى تفسير الجن إلى رواية عمر رضى الله عنه أيضا كما سيأتى .

(٤) قال محمود رحمه الله : «الضمير يحتمل عوده لما نزلناه ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : ومعنى هذا الترجيح أن المتحدى عليهم فى التفسير الأوجه جملة المخاطبين ، أى أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضا ، عجزة عن الاتيان بطائفة منه . وأما على التفسير المرجوح ، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم يكون معارضاً المتحدى بأنه يأتى بمثل ما أوتى به أو ببعضه . ولا شك أن عجز الخلائق أجمعين أبهى من عجز واحد منهم . ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد . ولم يقصد أحدا يجعله مثلا للحجاج . وردّ الضمير إلى المنزل أوجه ، لقوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) . (فأتوا بعشر سور مثله) ، (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) ، ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب ، والكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيبا . وذلك أن الحديث فى المنزل لا فى المنزل عليه ، وهو مسوق إليه ومربوط به ، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره . ألا ترى أن المعنى : وإن ارتبتم فى أنّ القرآن منزل من عند الله . فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه . وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال : وإن ارتبتم فى أنّ محمداً منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله . ولأنهم إذا خوطبوا جميعاً ـ وهم الجم الغفير ـ بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ماأتى به واحد منهم ، كان أبلغ فى التحدّى من أن يقال لهم : ليأتى واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ، ولأنّ هذا التفسير هو الملائم لقوله : (وادعوا شهداءكم) والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة . ومعنى (دون) أدنى مكان من الشيء . ومنه الشيء الدون ، وهو الدنىّ الحقير ، ودوّن الكتب ، إذا جمعها ، لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها . يقال : هذا دون ذاك ، إذا كان أحط منه قليلا . ودونك هذا : أصله خذه من دونك . أى من أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت فى الأحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو فى الشرف والعلم . ومنه قول من قال لعدوّه[1] وقد رآه بالثناء عليه : أنا دون هذا وفوق ما فى نفسك، واتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حدّ إلى حدّ وتخطى حكم إلى حكم . قال الله تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين . وقال أمية :

* يا نَفْسُ مالَكِ دُونَ اللهِ مِنْ وَاقِى *[2]

(١) أخرجه البزار من رواية على بن أبى ربيعة قال : « جاء رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فجعل يثنى عليه . وكان يبلغه عنه خلاف ذلك . فقال : أنا دون هذا الذى تقوله ولكنى فوق ما فى نفسك » .

(٢) يا نفس مالك دون الله من واق ولا للسع بنات الدهر من راق

لأمية بن أبى الصلت يقول : يانفس ليس لك حافظ دون الله ، أى متجاوز الله ، أو متجاوزة الله ، فهو حال من الواق أو من النفس . واستعار البنات للحوادث بجامع ملازمة كل لمنشئه على طريق التصريحية ، ثم شبه الحوادث بالأفاعى بجامع إيذاء كل لغيره على طريق المكنية ولسعها تخييل . ويجوز أنه استعار اللسع للاصابة على طريق التصريحية . والراق طبيب اللسع ، ومن زائدة فى الموضعين لتوكيد الاستغراق : أى لا حافظ لك إلا الله ، ولا جابر لك إلا هو .

أى إذا تجاوزت وقاية الله ولم تناليها لم يقك غيره . و (من دون الله) متعلق بادعوا أو بشهداءكم . فإن علقته بشهداءكم فمعناه : ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق . أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدى الله من قول الأعشى :

* تُرِيكَ القَذَى مِنْ دُونِهَا وهِىَ دُونَهُ * (١)

أى تريك القذى قدّامها وهى قدّام القذى ، لرقتها وصفائها . وفى أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذى لا ينطق فى معارضة القرآن بفصاحته : غاية التهكم بهم . وادعوا شهداءكم من دون الله ، أى من دون أوليائه ومن غير المؤمنين ، ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله . وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأنّ شهداءهم وهم مدارة القوم ،(٢) الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقاولة والمناقلة ، تأبى عليهم الطباع وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده واستقامة المحال الجلى فى عقولهم إحالته ، وتعليقه بالدعاء فى هذا الوجه جائز . وإن علقته بالدعاء فمعناه : ادعوا من دون الله شهداءكم ، يعنى لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا : الله يشهد أنّ ما ندعيه حق ، كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام . وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم . وأنّ الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثاً غير قولهم : الله يشهد أنا صادقون . وقولهم هذا : تسجيل منهم على أنفسهم بتناهى العجز وسقوط القدرة .

---

(١) وساق إذا شئنا كميش بمعشر وصهباء زباد إذا ما ترقرق
تريك القذى من دونها وهى دونه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

للأعشى فى مدح المحلق عبد الرحيم بن خيثم بن شداد . والكميش : السريع . وماضى العزم : أى سريع فى سق الناس ولو كثروا . والزباد ـ كرمان ـ : رغوة اللبن ونحوه . والترقرق : الترشرش والانصباب . وترقرق : أصله تترقرق ، فحذف منه إحدى التاءين ، أى تتحرك . تريك : أى الصهباء وهى الخمر ، لأن فيها لون الصهبة . والقذى مايتساقط فى الشراب والعين . دونها : أى قدمها حائلا بينها وبينك ، والحال أنها دونه أى قدمه حائلة بينه وبينك إذا ذاقها : أى الخمر ، من ذاقها : من أراد ذوقها ، يتمطق : أى يصوت بفتح فمه ومص لسانه وشفتيه ، أو يطبق فمه ويفتحه تلذذاً بها فيصوت . وقيل إن ضمير «تريك» عائد للزجاجة يصفها بالصفاء ، فلعله أطلق الصهباء عليه لتلونها بلون الخمرة . وضمير «ذاقها» عائد لها بمعنى الخمرة ، فيكون فى الكلام استخدام . وروى «وهى فوقه» بدل «دونه» وفيه نوع تأييد لعود الضمير على الخمرة .

(٢) قوله «مدارة القوم» المدارة جلد يدار ويخرز على هيئة الدلو ، لكنها تكون واسعة الجوف قصيرة الجوانب لتنغمس فى الماء وإن كان قليلا فتمتلىء منه . أفاده الصحاح فهى هنا مجاز . (ع)

وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال : قرشي والحمد لله . فقيل له : قولك « والحمد لله » فى هذا المقام ريبة . أو ادعوا من دون الله شهداءكم : يعنى أنّ الله شاهدكم لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد ، وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم . والجن والإنس شاهدوكم فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى ، لأنه القادر وحده على أن يأتى بمثله دون كل شاهد من شهدائكم ، فهو فى معنى قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن ... الآية) .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

لما أرشدهم إلى الجهة التى منها يتعرّفون أمر النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسرّه وامتياز حقه من باطله . قال لهم فإذا لم تعارضوه ولم يتسهل لكم ما تبغون وبان لكم أنه معجوز عنه ، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق ، فآمنوا وخافوا العذاب المعدّ لمن كذب . وفيه دليلان على إثبات النبوّة : صحة كون المتحدى به معجزاً ، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله . فان قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب ، فهلا جيء بـ « إذا » الذى للوجوب دون « إن » الذى للشك . قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمّل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام . والثانى : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكما به . فإن قلت : لم عبر عن الإتيان بالفعل وأى فائدة فى تركه إليه ؟ قلت : لأنه فعل من الأفعال . تقول : أتيت فلانا ، فيقال لك : نعم ما فعلت . والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التى تعطيك اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه . ألا ترى أنّ الرجل يقول : ضربت زيداً فى موضع كذا على صفة كذا ، وشتمته ونكلت به ، ويعد كيفيات وأفعالا ، فتقول : بئسما فعلت . ولو ذكرت ما أنبته عنه ، لطال عليك ، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل ، لاستطيل أن يقال : فإن لم تأتوا بسورة من مثله . ولن تأتوا بسورة من مثله . فإن قلت : ﴿ولن تفعلوا﴾ ما محلها ؟ قلت : لامحل لها لأنها جملة اعتراضية . فإن قلت : ماحقيقة « لن » فى باب النفى ؟ قلت : « لا » و « لن » أختان فى نفى المستقبل ، إلا أن فى « لن » توكيداً وتشديداً . تقول لصاحبك : لا أقيم غداً ، فإن أنكر عليك قلت : لن أقيم غداً ؛ كما تفعل فى : أنا مقيم ، وإنى مقيم . وهى عند الخليل فى إحدى الروايتين عنه

أصلها «لا أن» ، وعند الفراء «لا» ، أبدلت ألفها نونا . وعنـد سيبويه وإحدى الروايتين عن الخليل : حرف مقتضب لتأكيد نفي المستقبل . فإن قلت : من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة ؟ قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لاسيما والطاعنون فيـه أكثف عدداً من الذابين عنـه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ماهو به فكان معجزة . فإن قلت : ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثـله ؟ قلت : إنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة ، صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا ، استوجبوا العقاب بالنار ؛ فقيل لهم : إن استبنتم العجز فاتركوا العناد ؛ فوضع ﴿فاتقوا النار﴾ موضعه ، لأنّ اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد ، من حيث أنه من نتائجه ؛ لأنّ من اتقى النار ترك المعاندة . ونظيره أن يقول الملك لحشمه : إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي . يريد : فأطيعوني واتبعوا أمري ، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط . وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة . وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن ، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منابه وإبرازه في صورته ، مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها .

والوقود : ماترفع به النار . وأمّا المصدر فمضموم ، وقد جاء فيه الفتح . قال سيبويه : وسمعنا من العرب من يقول : وقدت النار وقوداً عاليا . ثم قال : والوقود أكثر ، والوقود الحطب . وقرأ عيسى بن عمر الهمدانيّ ـ بالضم ـ تسمية بالمصدر ، كما يقال : فلان فخر قومه وزين بلده . ويجوز أن يكون مثل قولك : حياة المصباح السليط ، أي ليست حياته إلا به ؛ فكأنّ نفس السليط حياته ، فإن قلت : صلة «الذي» و «التي» يجب أن تكون قصة معلومة ، للمخاطب ، فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟ قلت : لايمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب ، أو سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم (ناراً وقودها الناس والحجارة) فإن قلت : فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكرة في سورة التحريم ، وههنا معرّفة ؟ قلت : تلك الآية نزلت بمكة ، فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة . ثم نزلت هذه بالمدينة [1] مشاراً بها إلى ماعرفوه أولا .

---

(١) قال محمود رحمه الله : «وهذه الآية نزلت بالمدينة بعد نزول آية التحريم بمكة ... الخ» . قال أحمد رحمه الله يعني بالآية قوله تعالى : (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) لكني لم أقف على خلاف بين المفسرين =

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ؟ قلت : معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران ، بأنها لاتتقد إلا بالناس والحجارة ، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أولا بوقود ثم طرح فيها مايراد إحراقه أو إحماؤه ، وتلك ـ أعاذنا الله منها برحمته الواسعة ـ توقد بنفس مايحرق ويحمى بالنار ، وبأنها لإفراط حرّها وشدّة ذكائها إذا اتصلت بما لاتشتعل به نار ، اشتعلت وارتفع لهبها . فإن قلت : أنار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة ، أم هى نيران شتى منها نار بهذه الصفة ؟ قلت : بل هى نيران شتى ، منها نار توقد بالناس والحجارة ، يدل على ذلك تنكيرها فى قوله تعالى : (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) ، (فأنذرتكم ناراً تلظى) . ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين ، كما أنّ لكفرة الإنس ناراً وقودها هم ، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب . فإن قلت : لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً . قلت : لأنهم قرنوا بها أنفسهم فى الدنيا ، حيث نحتوها أصناما وجعلوها لله أنداداً أو عبدوها من دونه : قال الله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه . فقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) فى معنى الناس والحجارة ، و (حصب جهنم) فى معنى وقودها . ولما اعتقد الكفار فى حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضارّ عن أنفسهم بمكانهم ، جعلها الله عذابهم ، فقرنهم بها محماة فى نار جهنم ، إبلاغا فى إيلامهم وإعراقا فى تحسيرهم [1] ، ونحوهم ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدّة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق ، حيث يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم . وقيل : هى حجارة الكبريت ، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعانى التنزيل ﴿ أعدت ﴾ هيئت لهم وجعلت عدّة لعذابهم . وقرأ عبدالله ، أعتدت ، من العتاد بمعنى العدة .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥)

= أن سورة التحريم مدنية وما اشتملت عليه من القصة المشهورة أصدق شاهد على ذلك . فالظاهر أن الزمخشرى وهم فى نقله أنها مكية .

(١) قوله « وإعراقا فى تحسيرهم » لعله : وإغراقا ، بالغين المعجمة . (ع)

من عادته عز وجل فى كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالانذار إرادة التنشيط ، لاكتساب ما يزلف ، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف . فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب ، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصى ، وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب . فإن قلت : من المأمور بقوله تعالى: ﴿ وبشر ﴾ ؟ قلت : يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون كل أحد . كما قال عليه الصلاة والسلام « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة [1] » لم يأمر بذلك واحداً بعينه . وإنما كل أحد مأمور به ، وهذا الوجه أحسن وأجزل ؛ لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به . فإن قلت : علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ؛ إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق ، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق . ولك أن تقول : هو معطوف على قوله (فاتقوا) كما تقول : يا بنى تميم احذروا عقوبة ماجنيتم ، وبشر يا فلان بنى أسد بإحسانى إليهم . وفى قراءة زيد بن علىّ رضى الله عنه : (وبشر) على لفظ المبنىّ للمفعول عطفاً على (أعدت) . والبشارة : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به . ومن ثم قال العلماء : إذا قال لعبيده : أيكم بشرنى بقدوم فلان فهو حر ، فبشروه فرادى ، عتق أولهم ، لأنه هو الذى أظهر سروره بخبره دون الباقين . ولو قال مكان « بشرنى » ، « أخبرنى » عتقوا جميعاً ، لأنهم جميعاً أخبروه . ومنه : البشرة لظاهر الجلد . وتباشير الصبح : ماظهر من أوائل ضوئه . وأما (فبشرهم بعذاب أليم) فمن العكس فى الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد فى غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوه : أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك . ومنه قوله :

---

(١) أخرجه أبو داود . والترمذى والبزار . من طريق إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس عن بريدة وقال الدارقطنى : تفرد به إسماعيل . وله شاهد من رواية ثابت عن أنس وسهل بن سعد رضى الله عنهما ، أخرجه ابن ماجه والحاكم . وأخرجه ابن حبان عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، والطبرانى من رواية ابن عباس وابن عمر وزيد بن حارثة وأبى موسى وأبى أمامة رضى الله عنهم بأسانيد ضعيفة . وحديث زيد فى الكامل لابن عدى . وحديث أبى موسى عند البزار . ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة فى ترجمة أحمد بن محمد بن صدقة . وقال : تفرد به قتادة بن الفضل عن الحسن بن على البيروتى . ورواه الطيالسى وأبو يعلى من حديث أبى سعيد وإسناده ضعيف أيضا . ورواه عمر بن شاهين فى الترغيب له من حديث حارثة بن وهب الخزاعى .

* فَأَعْتَبُـــوا بِالصَّيْلَمِ * (١)

والصالحة نحو الحسنة فى جريها مجرى الاسم . قال الحطيئة :

كَيْفَ الهِجَاءُ وما تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ مِنْ آلِ لَأْمٍ بظَهْرِ الغَيْبِ تَأْتِينِي (٢)

والصالحات : كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة ، واللام للجنس . فإن قلت : أى فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد ، وبينها داخلة على المجموع ؟ قلت : إذا دخلت على المفرد كان صالحا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به ، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه . وإذا دخلت على المجموع ، صلح أن يراد به جميع الجنس ، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه ؛ لأن وزانه فى تناول الجمعية فى الجنس وزان المفرد فى تناول الجنسية ، والجمعية فى جمل الجنس لا فى وحدانه . فإن قلت : فما المراد بهذا المجموع مع اللام ؟ قلت : الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة فى الدين على حسب حال المؤمن فى مواجب التكليف .

والجنة : البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه . قال زهير :

* تَسقِي جَنَّـةً سُحُقَا * (٣)

---

(١) غضبت تميم أن نقتل عامراً يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

لبشر بن أبى حازم الأسدى . وتميم ، وعامر : قبيلتان . وهل : استفهام إنكارى . أى ليس المجرب للأمور مثلهما كمن لم يجربها . ويجوز أنه أمره بالسؤال لأن الذى يسأل ويعلم ليس كمن لم يعلم . وأن نقتل : أى من أن نقتل . وروى : تقتل عامر ، بالبناء للمجهول . والنسار اسم ماء لبنى عامر ، أى غضبت علينا تميم من قتل حلفائهم فكأنها عتبت علينا لضعفها . فأعتبناهم ، أى أزلنا عتابهم بالصيلم : وهو السيف الكثير القطع ، من صلمه إذا قطعه . وشبه إجابتهم بالمحاربة بالسيف بإجابة من يزيل العتاب على سبيل التصريحية التهكمية . لأن الأول مكروه والثانى محبوب .

(٢) للحطيئة واسمه جرول بن أوس بن حومة بن مخذوم بن مالك الغطفانى ، حين وفدت العرب على النعمان بن المنذر فأحضر حللا عظيمة وقال : إنى ملبسها غداً لمن شئت ، فلما كان الغد تخلف ابن سعدى خوف إلباسها غيره وهو حاضر فطلبه الملك وألبسه الحلل ، فحسدته سادات العرب من قومه ، وضمنوا للحطيئة مائة بعير لو هجاه ، فقال : كيف الهجاء له ، والحال أن لا تنفك فعلة صالحة تأتينى من آل لأم حال كونى ملتبسا بظهر الغيب ، أو حال كونهم ملتبسين بظهر الغيب . وأقحم الظهر لأن الغائب كأنه وراء الظهر ، أو لتقوية الغيب ، لأنهم إذا أرادوا تقوية شىء أسندوا له الظهر لقوته ، وكثيراً ما يجرون الصفة مجرى الاسم ، إما لعدم الاحتياج إلى ذكره كما فى صالحة ، أو لأنها كافية فى تعيين الموصوف إن احتيج إليه .

(٣) إن الخليط أجدوا البين فافترقا وعلق القلب من أسماء ما علقا
وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا
كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

لزهير بن أبى سلمى . والخليط المعاشر . والبين : الانفصال والبعد ، وأسماء : اسم محبوبته . وأصله من الوسامة وهى =

أى نخلا طوالا . والتركيب دائر على معنى الستر ، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التى هى المرة ، من مصدر جنه إذا ستره ، كأنها سترة واحدة لفرط التفافها . وسميت دار الثواب «جنة» لما فيها من الجنان . فإن قلت : الجنة مخلوقة أم لا ؟ قلت : قد اختلف فى ذلك . والذى يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها فى القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام ، كالنبى والرسول والكتاب ونحوها . فان قلت : ما معنى جمع الجنة وتنكيرها ؟ قلت : الجنة اسم لدار الثواب كلها ، وهى مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين ، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان . فان قلت : أما يشترط فى استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح أن لا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر ؛ وأن لا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية ؟ فهلا شرط ذلك ؟ قلت : لما جعل الثواب مستحقا بالإيمان والعمل الصالح ، والبشارة مختصة بمن يتولاهما ، وركز فى العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء ، إذا لم يتعقبه بما يفسده ويذهب بحسنه ، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً ، وأعلم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الناس عليه وأعزهم : (لئن أشركت ليحبطنّ عملك) ، وقال تعالى للمؤمنين : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم) كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالداخل تحت الذكر . فان قلت : كيف صورة جرى الأنهار من تحتها ؟ قلت : كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية . وعن مسروق : أن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود . وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظللة ، والأنهار فى خلالها مطردة . ولولا أن الماء الجارى من النعمة العظمى واللذة الكبرى ، وأن الجنان والرياض وإن كانت آنق شىء وأحسنه لاتروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية

= علامة الحسن . وقبل أصله جمع اسم . وعلق : مبنى للمجهول . والقلب : نائب فاعل . وما علق ـ بالتخفيف ـ : مفعوله ، أى ما تعلق به منها وهو الحب والتحسر والتحزن على سفرها . ولم يعينه دلالة على التكثير والتهويل ولما اشتغل قلبه بها ، فكأنها أخذته معها ؛ ولذلك ادعى أنها أخذته رهنا على سبيل الاستعارة المصرحة ، ورشحها بقوله : لا فكاك له : وغلق الرهن ـ بالكسر ـ : إذا امتلكه الدائن ويأس صاحبه من رجوعه إليه ، ثم قال : كأن عينى من شدة البكاء وكثرة الدموع عينان فى دلوين عظيمتين ممتلئتين ماء ، تحملهما ناقة مقتلة مذللة معتادة على العمل من الابل النواضح التى يستقى عليها ، تسقى تلك الناقة جنة « سحقا » بضمتين : جمع سحوق ، أى نخلا طوالا جهة السماء ، أو بعيدة عن محل الماء ، فهى دائمة ذاهبة آية . ولقد خاطب نفسه أولا كأنه يخبرها بسفر أسماء لفرط جزعه ، ثم التفت كأنه يشتكى للناس فى قوله : كأن عينى .

والنشاط حتى يجرى فيها الماء ، وإلا كان الأنس الأعظم فائتا ، والسرور الأوفر مفقوداً ، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها ، وصور لاحياة لها ، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعا بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قرن واحد كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه ، ولما قدّمه على سائر نعوتها . والنهر : المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر . يقال لبردى : نهر دمشق ، وللنيل : نهر مصر . واللغة العالية « النهر » بفتح الهاء . ومدار التركيب على السعة ، وإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد المجازى كقولهم : بنو فلان يطؤهم الطريق ، وصيد عليه يومان . فإن قلت : لم نكرت الجنات وعرّفت الأنهار . قلت : أما تنكير الجنات فقد ذكر . وأما تعريف الأنهار فأن يراد الجنس ، كما تقول : لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب وألوان الفواكه ، تشير إلى الأجناس التى فى علم المخاطب . أو يراد أنهارها ، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله : (واشتعل الرأس شيبا) . أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة فى قوله : (فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ـ الآية) .

وقوله ﴿ كلما رزقوا ﴾ لايخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستأنفة ؛ لأنه لما قيل إن لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا ، أم أجناس أخر لاتشابه هذه الأجناس ؟ فقيل إنّ ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا ، أى أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله . فإن قلت : ما موقع ﴿ من ثمرة ﴾ ؟ قلت : هو كقولك : كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئا حمدتك . فموقع (من ثمرة) موقع قولك من الرمان ، كأنه قيل : كلما رزقوا من الجنات من أى ثمرة كانت من تفاحها أو رمّانها أو عنبها أو غير ذلك رزقا قالوا ذلك . فمن الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية لأنّ الرزق قد ابتدئ من الجنات ، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة . وتنزيله تنزيل أن تقول : رزقنى فلان ، فيقال لك : من أين ؟ فتقول : من بستانه ، فيقال : من أى ثمرة رزقك من بستانه ؟ فتقول : من رمّان . وتحريره أن « رزقوا » جعل مطلقا مبتدأ من ضمير الجنات ، ثم جعل مقيدا بالابتداء من ضمير الجنات ، مبتدأ من ثمرة ، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة على هذا التفسير ، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار . ووجه آخر : وهو أن يكون (من ثمرة) بيانا على منهاج قولك : رأيت منك أسداً . تريد

أنت أسد . وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار ، والجنات الواحدة . فإن قلت : كيف قيل ﴿ هذا الذى رزقنا من قبل ﴾ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم فى الجنة هى ذات الذى رزقوه فى الدنيا ؟ قلت : معناه هذا مثل الذى رزقناه من قبل [١] وشبهه بدليل قوله وأتوا به متشابها ، وهذا كقولك : أبو يوسف أبو حنيفة ، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته . فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله : ﴿ وأتوا به ﴾ ؟ قلت : إلى المرزوق فى الدنيا والآخرة جميعاً ؛ لأنّ قوله : (هـذا الذى رزقنا من قبل) انطوى تحته ذكر مارزقوه فى الدارين . ونظيره قوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) أى بجنسى الغنى والفقير لدلالة قوله : غنيا أو فقيرا على الجنسين . ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقيل أولى به على التوحيد . فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ، وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسا أخر ؟ قلت : لأنّ الإنسان بالمألوف آنس ، وإلى المعهود أميل ، وإذا رأى مالم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشىء من جنس ماسلف له به عهد وتقدّم له معه ألف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بينة ، وتفاوتا بينه وبين ماعهد بليغاً ، أفرط ابتهاجه واغتباطه ، وطال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار الغبطة به . ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقا ، حسب أنّ ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين . فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها فى الحجم ، وأن الكبرى لاتفضل عن حدّ البطيخة الصغيرة ، ثم يبصرون رمّانة الجنة تشبع السكن . والنبقة من نبق الدنيا فى حجم الفلكة ، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر ، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده ، ثم يرون الشجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعه ، كان ذلك أبين للفضل ، وأظهر للمزية ، وأجلب للسرور ، وأزيد فى التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما . وترديدهم هـذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ، دليل على تناهى الأمر وتمادى الحال فى ظهور المزية وتمام الفضيلة ، وعلى أنّ ذلك التفاوت العظم هو الذى يستملى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم فى كل أوان . عن مسروق : « نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال القلال ، كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وأنهارها تجرى فى غير أخدود ، والعنقود اثنتا عشرة

(١) قال محمود رحمه الله : «معناه هذا مثل الذى رزقناه من قبل ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وهذا من التشبيه بغير الأداة ، وهو أبلغ مراتب التشبيه ، كقولهم : أبو يوسف أبو حنيفة .

ذراعا » . ويجوز أن يرجع الضمير فى (أتوا به) إلى الرزق ، كما أن هذا إشارة إليه ، ويكون المعنى : أن مايرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً فى نفسه ، كما يحكى عن الحسن : يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ، ثم يؤتى بالأخرى فيقول : هذا الذى أتينا به من قبل ، فيقول الملك : كل ، فاللون واحد والطعم مختلف . وعنه صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده [1] ، إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى بواصلة إلى فيه حتى يبدّل الله مكانها مثلها » فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك . والتفسير الأوّل هو هو . فإن قلت : كيف موقع قوله : (وأتوا به متشابها) من نظم الكلام ؟ قلت : هو كقولك : فلان أحسن بفلان ونعم مافعل . ورأى من الرأى كذا وكان صوابا . ومنه قوله تعالى : (وجعلوا أعزّة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وماأشبه ذلك من الجمل التى تساق فى الكلام معترضة للتقرير . والمراد بتطهير الأزواج : أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة ، وما لايختص بهنّ من الأقذار والأدناس . ويجوز لمجيئه مطلقاً : أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذى عليه نساء الدنيا ، مما يكتسبن بأنفسهنّ ، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة ، ومن سائر عيوبهنّ ومثالبهنّ وخبثهنّ وكيدهنّ . فان قلت : فهلا جاءت الصفة مجموعة كما فى الموصوف ؟ قلت : هما لغتان فصيحتان . يقال : النساء فعلن ، وهنّ فاعلات وفواعل ، والنساء فعلت ، وهى فاعلة . ومنه بيت الحماسة :

وإذَا العَذَارَى بِالدُّخَانِ تَقَنَّعَتْ ... واسْتَعْجَلَتْ نَصْبَ القُدُورِ فملَّتِ [2]

---

(١) أخرجه الطبرانى والبزار والحاكم من حديث ثوبان بلفظ « لاينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها شيئا إلا أخاف الله مكانها مثلها » ولفظ البزار : « إلا أعيد فى مكانها مثلها » على التثنية . وسيأتى فى آخر الزخرف .

(٢)
وإذا العذارى بالدخان تقنعت ... واستعجلت نصب القدور فلت
دارت بأرزاق العفاة مغالق ... يدى من قمع العشار الجلة
ولقد رأبت ثأى العشيرة بينها ... وكفيت جانبها اللتيا والتى

لسلمى بن ربيعة بن جفنة الضبي وشبه استتار الأبكار بالدخان أوسوادهن به باستتارهن بالقناع على طريق التصريح أو شبه الدخان به على طريق المكنية . وملت : شوت المليل بأن تضع اللحم أو الخبز على الجمر فينضج . ويروى « درت » بدل « دارت » أى كثر بذلها . والعفاة : طلاب الرزق . والمغالق : سهام الميسر التى تغلق الخطر وتثبته للغالب . والقمع : قطع السنام جمع قمع . والعشار : النوق التى مضى على حملها عشرة أشهر . والجلة : السمان العظيمات السنام ، جمع جليل كصبية جمع صبي ، أى إذا جدب الزمان ، حتى أن الأبكار مع فرط حيائهن وصونهن ، يقبلن على الدخان ويشتوين على الجمر ، ويأكلن ولا يصبرن لنضج القدور من الجوع بذلت للناس بكثرة . ويحتمل أن مخدراته تباشر تنضيج قرى الضيفان بأنفسهن فيبذله لهم . والأول أبلغ . ورأبت : أصلحت . والثأى الفساد وكفيت

والمعنى وجماعة أزواج مطهرة [1] . وقرأ زيد بن على (مطهرات) وقرأ عبيد بن عمير : مطهرة ، بمعنى متطهرة . وفى كلام بعض العرب : ماأحوجنى إلى بيت الله . فأطهر به أطهرة . أى فأتطهر به تطهرة . فإن قلت : هلا قيل طاهرة ؟ قلت : فى «مطهرة» فخامة لصفتهنّ ليست فى طاهرة ، وهى الإشعار بأن مطهراً طهرهنّ . وليس ذلك إلا الله عزّ وجلّ المريد بعباده الصالحين أن يخوّلهم كلّ مزية فيما أعدّ لهم .

والخلد : الثبات الدائم والبقاء اللازم الذى لاينقطع . قال الله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن متّ فهم الخالدون) . وقال امرؤ القيس :

أَلَا ٱنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي ... وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العُصُرِ الخَالِى

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ ... قَلِيلُ الهُمُومِ مَا يَبِيتُ بأَوْجَالِ [2]

* * *

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا

ـــــــ

= من جنى منها . ويروى «جانبها» بالموحدة الداهية الصغيرة والكبيرة . واللتيا : تصغير التى كغيرها من الموصولات التى سمع تصغيرها ، وزيدت الألف فى آخرها عوضا عن ضم التصغير ، وهى بفتح اللام . وقال الأخفش بضمها على قياس التصغير وإن كان شاذا فى الأسماء المبنية كما هنا . واستغنت عن الصلة لنقلها بالتصغير عن معنى الموصولية وحمل عليها «التى» لأنها لما ذكرت فى مقابلتها كان معناها الداهية العظيمة فلم يكن قصد إلى معنى الموصولية أيضا . وقيل يجوز حذف الصلة لدليل ، فيقدر هنا : اللتيا صغرت ، والتى عظمت . ثم إن هذا من قبيل الأمثال السائرة . وأصله أن رجلا تزوج امرأة قصيرة فقاسى منها الشدائد ، ثم زوج طويلة أيضا فقاسى ضعف ذلك ، فطلقهما وقال : بعد اللتيا والتى لاأتزوج أبداً .

(١) قوله «وجماعة أزواج مطهرة» لعل الواو مزيدة من الناسخ . أو لعل أصله ولهم فيها جماعة أزواج . (ع)

(٢) لامرىء القيس . وألا استفتاحية . وأنعم صباحا : تحية الجاهلية ، أى طاب عيشك . ويخفف فيقال عم ، كما روى هنا . وكذلك «يعمن» روى هنا أيضا . ونعم ينعم كضرب يضرب : ونعم ينعم كسهل يسهل . ونعم ينعم كعلم يعلم . ونعم ينعم بكسر عينهما وهو قليل ، بمعنى صار ناعما لينا . وخص الصباح لأنه وقت الغارات . والطلل : مابقى من آثار الديار . والبالى : الفانى . والمراد تحية أهل الطلل ثم تذكر الخطأ فى تحيتهم فقال : لايتنعم من كان فى الزمن الماضى وهو اليوم فان ، فالاستفهام إنكارى : والخلد : طويل العمر بحيث لايفنى . والأوجال : جمع وجل وهو الخوف ، والباء للملابسة . ويجوز أنها للظرفية تخييلا .

يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

سيقت هذه الآية لبيان أنّ مااستنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبا بها المثل ، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب ، من قبل أنّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد . فان كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك . فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إذاً إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية . ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج ، كيف تمثل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته ، كيف تمثل له بالظلمة ؟ ولما كانت حال الآلهة التى جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لاحال أحقر منها وأقلّ ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها فى الضعف والوهن ، وجعلت أقلّ من الذباب وأخس قدرا ، وضربت لها البعوضة فالذى دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع ، ولم يقل للمتمثل : استحى من تمثيلها بالبعوضة ، لأنه مصيب فى تمثيله ، محق فى قوله ، سائق للمثل على قضية مضربه ، محتذ على مثال مايحتكمه ويستدعيه ، ولبيان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر فى الأمور بناظر العقل ، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذى لاتمر الشبهة بساحته ، والصواب الذى لايرتع الخطأ حوله . وأنّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم ، وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم ، أوعرفوا أنه الحق إلاأنّ حب الرياسة وهوى الألف والعادة لايخليهم أن ينصفوا ، فإذا سمعوه عاندوا [1] وكابروا وقضوا عليه بالبطلان ، وقابلوه بالإنكار ، وأنّ ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين فى غيهم وضلالهم . والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة فى حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء

---

(١) قوله « فاذا سمعوه عاندوا » لعل زيادة الفاء فى خبر أن لشبه اسمها بالشرط . (ع)

فقالوا : أجمع من ذرّة ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد . وأصرد من جرادة [1] ، وأضعف من فراشة ، وآكل من السوس . وقالوا فى البعوضة : أضعف من بعوضة ، وأعز من مخ البعوض . وكلفتنى مخ البعوض . ولقد ضربت الأمثال فى الإنجيل بالأشياء المحقرة ، كالزوان والنخالة [2] وحبة الخردل ، والحصاة ، والأرضة ، والدود ، والزنابير . والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لاتغنى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة ، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذى لايبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمارة ولا إقناع ، أن يرمى لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معولا . وعن الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للمشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : مايشبه هذا كلام الله . فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

والحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف مايعاب به ويذم . واشتقاقه من الحياة . يقال : حيي الرجل ، كما يقال : نسي وحشي وشظي الفرس ، إذا اعتلت هذه الأعضاء [3] جعل الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير ، منتكس القوة منتقص الحياة ، كما قالوا : هلك فلان حياء من كذا ، ومات حياء ، ورأيت الهلاك فى وجهه من شدّة الحياء . وذاب حياء ، وجمد فى مكانه خجلا . فإن قلت : كيف جاز وصف القديم سبحانه به [4] ولا يجوز عليه التغير والخوف والذم ، وذلك فى حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله حيي كريم [5] يستحيي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردّهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا » . قلت :

---

(١) قوله « وأصرد من جرادة » فى الصحاح : صرد الرجل بالكسر فهو صرد ومصراد : يجد البرد سريعا (ع)

(٢) قوله « كالزوان والنخالة » فى الصحاح : الزوان حب يخالط البر (ع)

(٣) قوله « إذا اعتلت هذه الأعضاء » عرق النسا والحشا والشظى . وفى الصحاح : الشظى عظم مستدق ملزق بالذراع ، فاذا تحرك فى موضعه قيل : قد شظى الفرس (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : « إن قلت كيف جاز وصف الله تعالى بالاستحيائية ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : ولقائل أن يقول : ما الذى دعاه إلى تأويل الآية مع أن الحياء الذى يخشى نسبة ظاهره إلى الله تعالى مسلوب فى الآية كقولنا : الله ليس بجسم ولا بجوهر فى معرض التنزيه والتقديس . وأما تأويل الحديث فمستقيم ، لأن الحياء فيه ثبت لله تعالى . وللزمخشرى أن يجيب بأن السلب فى مثل هذا إنما يطرأ على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه . إذ مفهوم نفى الاستحياء عنه فى شىء خاص ، ثبوت الاستحياء فى غيره ، فالحاجة داعية إلى تأويله لما أفضى إليه مفهومه . وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوبا مطلقا ، كقولنا : الله لا يحول ولا يزول ؛ فان ذلك لايثبت ومحال ، بل يقال : هو مقدس منزه مطلقا ،

(٥) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديثه بلفظ « إن ربكم حيي كريم يستحيي ــــ

هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخييب العبد وأنه لا يرد يديه صفرا من عطائه لكرمه بترك من يترك رد المحتاج إليه حياء منه . وكذلك معنى قوله : ﴿ إنّ الله لا يستحيي ﴾ أى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها . ويجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة ، فقالوا : أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال . وهو فنّ من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، منه قول أبى تمام :

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلَّهَا أَنِّى بَنَيْتُ الجارَ قبْلَ المَنْزِلِ ؟ (١)

وشهد رجل عند شريح . فقال : إنك لسبط الشهادة . فقال الرجل : إنها لم تجعدعنى . فقال : لله بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة . ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار . وسبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها . ولله درّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسدّ مدارجه . وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه :

إِذَا مَا ٱسْتَحَيْنَ المَاءَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنَ بِسِبْتٍ (٢) فى إِناءٍ مِنَ الوَرْدِ (٣)

ـــ من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً » قال الترمذى : حسن غريب . ورواه بعضهم ولم يرفعه . وفى الباب عن أنس رضى الله عنه . أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبان عنه . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من طريق أبان . وأخرجه الحاكم من طريق حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة قال : حدثنى أنس بن مالك رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله رحيم حى كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه ثم لا يضع فيهما خيراً » وعن جابر أخرجه أبو يعلى . وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وهو متروك وعن ابن عمر رضى الله عنهما أخرجه الطبرانى .

(١) لأبى تمام . وفناء الدار : ما امتد من جوانبها ، وجمعه أفنية . ويقال : هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم من أى قبيلة هو ، أى من أطرافهم . ويعرب : اسم قبيلة ، وبناء الجار : اتخاذه ، سماه بناء للمشاكلة التقديرية حيث قرنه بما ينى وهو المنزل وهو مجاز بجامع مطلق الاتخاذ أو علاقته المجاورة الذهنية أو اللفظية ، وهذه العلاقة تجرى فى كل مشاكلة . ولم يرتضه بعضهم ، واختار أنها إن لم يوجد لها علاقة فهى قسم رابع لا حقيقة ولا مجاز ولا كناية .

(٢) (قوله بسبت فى إناء من الورد) فى الصحاح : السبت بالكسر جلود البقر المدبوغة بالقرظ اه وهو فى البيت مجاز كالإناء من الورد (ع)

(٣) كفانا الربيع العيس من بركاته فجاءته لم تسمع حداء سوى الرعد
إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت فى إناء من الورد

للمتنبي . والعيس : الابل . والربيع : المطر . والحداء : الغناء للابل ، والاستثناء متصل على تشبيه الرعد بالحداء ، وجعله من أفراده ، أى : كفانا حاجة العيس لكثرته ، حتى كأنه يعرض نفسه على النوق . ويقال : استحي واستحى كما هنا ـــ

وقرأ ابن كثير فى رواية شبل (يستحى) بياء واحدة . وفيه لغتان : التعدى بالجار والتعدى بنفسه . يقولون : استحييت منه واستحييته ، وهما محتملتان ههنا .

وضرب المثل : اعتماده وصنعه ، من ضرب اللبن وضرب الخاتم . وفى الحديث «اضطرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من ذهب»[1] و ﴿ما﴾ هذه إبهامية[2] وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعا وعموما ، كقولك : أعطنى كتابا ما ، تريد أى كتاب كان . أو صلة للتأكيد ، كالتى فى قوله : (فبما نقضهم ميثاقهم) كأنه قيل : لا يستحيي أن يضرب مثلا حقاً أو البتة ، هذا إذا نصبت ﴿بعوضة﴾ فإن رفعتها فهى موصولة ،[3] صلتها

ـــ أى إذا خشين من عرض نفسه عليهن ، أو امتنعن منه . وروى « استجبن » بالجيم فالموحدة ، أى أطعنه فى عرض نفسه عليهن . وجملة « يعرض نفسه » حالية . واستعار السبت بالكسر ـ وهو الجلد المدبوغ بالقرظ ـ لمشافر النوق على طريق التصريح . وكذلك استعار الاناء من الورد للبركة التى كثر زهرها ونورها ، وإن لم يكن ذلك الاناء موجوداً و « فى » بمعنى « من » . ويجوز أنه جعل الأرض ظرفا للشرب .

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) قال محمود رحمه الله : « وما هذه إبهامية ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وفيها وهم إمام الحرمين فى تقرير نصوصية العموم فى قوله عليه الصلاة والسلام : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها ... الحديث » فانه قرر العموم والابهام فى أى ، ثم قال : فاذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ فى اقتضاء العموم ، فاعتقد أن المؤكدة هى الشرطية ، وإنما هى حرف مزيد لهذا الغرض . وأما « ما » الشرطية فاسم كمن . والله الموفق .

(٣) قال محمود : « هذا إذا نصبت بعوضة ، فان رفعتها فهى موصولة ... إلى قوله : ووجه آخر جميل وهو أن تكون ... الخ » . قال أحمد : حملها على الاستفهامية بالمعنى الذى قرره : فيه نظر ؛ لأن قوله تعالى « فما فوقها » فى الحقارة فيكون معناه : فما دونها . وإما أن يراد فما هو أكبر منها حجما . وعلى كلا التقديرين يتقدر الاستفهام ؛ لأنه إنما يستعمل فى مثل : ما دينار وديناران ، أى إذا جاد بالكثير فما القليل . وإذا ذهبت فى الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالا ، إذ يكون المراد : إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا بالمحقرات ، فما البعوضة وما هو أحقر منها . وقد فرضنا أنها فى أحد الوجهين نهاية فى المحقرات ، وفى الوجه الآخر ليست نهاية ، بل النهاية فى قوله (فما فوقها) أى دونها . فاذا حمل ما بعد الاستفهام على النهاية فى الوجهين جميعاً لم ينتظم التنبيه المذكور ، بل ينعكس الغرض فيه ؛ إذ المقصود فى مثل قولنا : فلان لايبالى بعطاء الألوف فما الدينار الواحد ـ التنبيه على أن إعطاء القليل منه محقق بعطائه الكثير بطريق الأولى ، ولايتحقق فى الآية على هذا التقدير أنه لايستحيي من ضرب المثل بالمحقرات التى لاتبلغ النهاية ، فكيف يستحى من ضرب المثل بما يبلغ النهاية فى الحقارة كالبعوضة . هذا عكس لنظم الأولوية ، ولو كانت الآية مثلا واردة على غير هذا التكلم كقول القائل : إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا بالبعوضة التى هى نهاية فى الحقارة ، فما الأنعام التى هى أبهى من البعوضة أو أبعد منها عن الحقارة بما لايخفى ، لكان تقرير الزمخشرى متوجها . وما أراه والله أعلم إلا واهما فى هذا الوجه . وما طولت النفس ووسعت العبارة فى الاعتراض عليه ، إلا أنه محل ضيق ومعنى متعاص لايخلص إلى الفهم إلا بهذا المزيد من البسط . وناهيك بموضع العكس على فهم الزمخشرى بل مع تعود فهمه وإصابة نسجه ، خصوصا فى تنسيق المعانى وتفصيلها والله الموفق . وما تبجحه بالعثور على الوجه ـــ

الجملة ؛ لأن التقدير : هو بعوضة ، فحذف صدر الجملة كما حذف فى (تماما على الذى أحسن) ووجه آخر حسن جميل ، وهو أن تكون التى فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال : إنّ الله لا يستحيي أن يضرب للأنداد ماشاء من الأشياء المحقرة مثلا ، بله البعوضة فما فوقها ، كما يقال : فلان لا يبالى بما وهب ما دينار وديناران . والمعنى : أن لله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بمالا شيء أصغر منه وأقل ، كما لو تمثل بالجزء الذى لا يتجزأ وبما لا يدركه[1] لتناهيه فى صغره إلا هو وحده بلطفه ، أو بالمعدوم ، كما تقول العرب : فلان أقل من لا شيء فى العدد . ولقد ألم به قوله تعالى (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) وهذه القراءة تعزى إلى رؤبة بن العجاج ، وهو أمضغ العرب للشيح والقيصوم ، والمشهود له بالفصاحة ، وكانوا يشبهون به الحسن ، وما أظنه ذهب فى هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه ، وهو المطابق لفصاحته . وانتصب (بعوضة) بأنها عطف بيان لمثلا . أو مفعول ليضرب ، و (مثلا) حال عن النكرة مقدمة عليه . أو انتصبا مفعولين لجرى « ضرب » مجرى « جعل » . واشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب . يقال : بعضه البعوض . وأنشد :

لَنِعْمَ البَيْتُ بَيْتُ أَبِى دِثَارٍ إِذَا مَاخَافَ بَعْضُ القَوْمِ بَعْضَا[2]

ومنه : بعض الشيء لأنه قطعه منه . والبعوض فى أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت ، وكذلك الخموش[3] ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان : أحدهما : فما تجاوزها وزاد عليها فى المعنى الذى ضربت فيه مثلا ، وهو القلة والحقارة ، نحو قولك ـ لمن يقول : فلان أسفل الناس وأنذلهم ـ :

ـــــــ

== الذى ظن أن رؤبة بن العجاج راعاه فى قراءته ، فكلام ركيك توهم أن القراءة موكولة إلى رأى القارئ وتوجيهه لها ونصرته بالعربية وفصاحته فى اللغة ، وليس الأمر كذلك ، بل القراءة على اختلاف وجوهها وبعد حروفها : سنة تتبع ، وسماع يقضى بنقله ، الفصيح وغيره على حد سواء ، لا حيلة للفصيح فى تعسر شيء منه عما سمعه عليه ، وما يصنع بفصاحته فى القرآن الذى بدد كل فصاحة وعزل كل بلاغة . فالصحيح والمعتقد أن كل قارئ معزول إلا عما سمعه فوعاه ، وتلقنه من الأفواه ، فأداه إلى أن ينتهى ذلك إلى استماع من أنصح من نطق بالضاد : سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فتأمل هذا الفصل فان فاهمه قليل

(١) قوله « وبما لا يدركه » لعله : أو بما . (ع)

(٢) المراد بالبيت : الكله التى تمنع البعوض ليالى الصيف عن فيها : وأبو دثار : اسم رجل . والدثار : ما يلبس فوق الثياب إذا خاف بعض القوم بعض البعوض ، أى قطعه ولسعه . ويحتمل أن المعنى : نعم المأوى والملجأ بيت أبى دثار ، أخاف بعض الناس من شر بعضهم . ففيه التورية وهى من بديع الكلام .

(٣) قوله « وكذلك الخموش » فى الصحاح : الخموش ـ بالفتح ـ : البعوض . (ع)

هو فوق ذاك ، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة . والثانى : فما زاد عليها فى الحجم ، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، لأنهما أكبر من البعوضة . كما تقول لصاحبك ـ وقد ذمّ من عرفته يشح بأدنى شىء فقال : فلان بخل بالدرهم والدرهمين ـ : هو لا يبالى أن يبخل بنصف درهم فما فوقه ، تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان ، كأنك قلت : فضلا عن الدرهم والدرهمين . ونحوه فى الاحتمالين ما سمعناه فى صحيح مسلم عن إبراهيم عن الأسود قال : دخل شباب من قريش على عائشة رضى الله عنها وهى بمنى وهم يضحكون . فقالت : ما يضحككم ؟ قالوا : فلان خرّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب . فقالت : لا تضحكوا . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت بها عنه خطيئة »[1] يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها فى القلة وهى نحو نخبة النملة فى قوله عليه الصلاة والسلام : « ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة[2] » ، وهى عضتها . ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع كالخرور على طنب الفسطاط . فإن قلت : كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهى النهاية فى الصغر ؟ قلت : ليس كذلك ، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات ، وقد ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للدنيا[3] ، وفى خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها ، ربما رأيت فى تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تحركها ، فإذا سكنت فالسكون يواريها ، ثم إذا لوحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها ، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة وتفاصيل خلقتها ويبصر بصرها ويطلع على ضميرها ، ولعل فى خلقه ما هو أصغر منها وأصغر (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وأنشدت لبعضهم :

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَها ... فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَاطِهَا فى نَحْرِهَا ... وَالْمُخَّ فى تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فى الزَّمَانِ الأَوَّلِ[4]

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة .

(٢) لم أجده . وأصل الحديث ـ دون ما فى آخره ـ مروى بطرق كثيرة .

(٣) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعا « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » . أخرجه الترمذى .

(٤) للزمخشرى ، وإن كانت عادته فى الكتاب أن لا ينسب شعره لنفسه . يقول : يا ألله يا مبصر الخفيات حتى

و ﴿ أمّا ﴾ حرف فيه معنى الشرط ، ولذلك يجاب بالفاء . وفائدته فى الكلام أن يعطيه فضل توكيد . تقول : زيد ذاهب . فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت : أمّا زيد فذاهب . ولذلك قال سيبويه فى تفسيره : مهما يكن من شىء فزيد ذاهب . وهذا التفسير مدل لفائدتين : بيان كونه توكيداً ، وأنه فى معنى الشرط . ففى إيراد الجملتين مصدرتين به ـ وإن لم يقل : فالذين آمنوا يعلمون ، والذين كفروا يقولون ـ إحماد عظيم لأمر المؤمنين ، واعتداد بعلمهم أنه الحق ، ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء . و ﴿ الحق ﴾ الثابت الذى لا يسوغ إنكاره . يقال : حق الأمر ، إذا ثبت ووجب . وحقت كلمة ربك ، وثوب محقق : محكم النسج : و ﴿ ماذا ﴾ فيه وجهان : أن يكون ذا اسماً موصولا بمعنى الذى ، فيكون كلمتين . وأن يكون (ذا) مركبة مع (ما) مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة ، فهو على الوجه الأول مرفوع المحل على الابتداء وخبره ذا مع صلته . وعلى الثانى منصوب المحل فى حكم (ما) وحده لو قلت : ما أراد الله . والأصوب فى جوابه أن يجىء على الأول مرفوعا ، وعلى الثانى منصوباً ، ليطابق الجواب السؤال . وقد جوزوا عكس ذلك تقول ـ فى جواب من قال : ما رأيت ؟ ـ خير ، أى المرئى خير . وفى جواب ما الذى رأيت ؟ خيراً ، أى رأيت خيراً . وقرئ قوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) بالرفع والنصب على التقديرين . والإرادة نقيض الكراهة ، وهى مصدر أردت الشىء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك . وفى حدود المتكلمين : الإرادة معنى يوجب للحىّ حالا لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه . وقد اختلفوا فى إرادة الله ، فبعضهم على أنّ للبارى مثل صفة المريد منا التى هى القصد ، وهو أمر زائد على كونه عالما غير ساه . وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها وهو غير ساه ولا مكره . ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها . والضمير فى ﴿ أنه الحق ﴾ للمثل ، أو لأن يضرب . وفى قولهم (ماذا أراد الله بهذا مثلا) استرذال واستحقار كما قالت عائشة رضى الله عنها فى عبدالله بن عمرو بن العاصى [١] يا عجباً لابن عمرو

ــــ مد البعوض جناحها فى ظلمة الليل . والبهيم : المظلم ، لانبهام الأشياء فيه . والأليل : أفعل تفضيل من الليل ـ وإن كان جامداً ـ للبالغة فى الظلمة . والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق رقيقة . والنحر : أسفل العنق والمخ : ما فى وسط العظام . والنحل : جمع ناحل ، أى دقيق . والفرطات : ذنوبه التى فرطت منه . و « ما كان » مفعول « أغفر » . والزمان الأول : زمن الشباب .

(١) هو قطعة من حديث أخرجه مسلم فى كتاب الحيض من رواية عبيد بن عمير قال « بلغ عائشة أن عبد الله ابن عمرو بن العاص كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن ، فقالت عائشة : يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء . . . الحديث » .

هذا؟ ﴿ مثلا ﴾ نصب على التميز كقولك لمن أجاب بجواب غث : ماذا أردت بهذا جوابا. ولمن حمل سلاحا رديا. كيف تنتفع بهذا سلاحا؟ أو على الحال، كقوله : (هذه ناقة الله لكم آية). وقوله : ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما، وأن فريق العالمين بأنه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذى ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأن الجهل بحسن مورده من باب الضلالة التى زادت الجهلة خبطا فى ظلمائهم. فإن قلت : لم وصف المهديون بالكثرة ـ والقلة صفتهم [1]، (وقليل من عبادى الشكور)، (وقليل ماهم)، الناس كإبل مائة لاتجد فيها راحلة، وجدت الناس أخبر تقله؟ قلت : أهل الهدى كثير فى أنفسهم، وحين يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال. وأيضاً فإن القليل من المهديين كثير فى الحقيقة وإن قلوا فى الصورة، فسموا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً :

إِنَّ الكِرَامَ كَثِيرٌ فى البِلادِ وإنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وإِنْ كَثُرُوا [2]

وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب [3] : لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم

---

(١) قال محمود رحمه الله : فان قلت : كيف وصف المهديون بالكثرة ... الخ »؟ قال أحمد رحمه الله : جوابه صحيح، وتنظيره بالبيت وهم : لأن الشاعر إنما ذهب إلى أن عدد الكرام وإن كان قليلا فى نفسه فالواحد منهم لعموم نفعه وانبساط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلا. وعدد اللئام وإن كثروا فالأكثرون منهم يعدون بواحد من غيرهم، لغل أيديهم وانقباضها عن الجود، وعدم تعدى نفع منهم إلى غيرهم، كقول ابن يزيد :

الناس ألف منهم كواحد وواحد كألف ان أمر عرا

وأما الآية فمضمونها أن عدد المهديين كثير فى نفسه، ومضمون الآيات الأخرأنهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين، فعبر عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته، وتارة بالقلة نظراً إلى غيره، فليس معنى البيت من الآية فى شىء.

(٢) القل ـ بالفتح ـ : القليل، وهو المراد. وبالضم : بمعنى القلة، ويستعمل بمعنى القليل أيضا. وبالكسر : الارتعاد غضباً. يقول : إن الكرام فى الدنيا كثير لكثرة خيرهم، لأن الكريم يقاوم ألف لئيم، والحال أنهم قليل فى العدد كما أن غيرهم ـ يعنى اللئام ـ قليل فى الخير وإن كثروا فى العدد. فوجه الشبه اجتماع الكثرة والقلة فى كل على التوزيع.

(٣) قال محمود رحمه الله : « ونسبة الاضلال إلى الله تعالى من إسناد الفعل إلى السبب ... الخ ». قال أحمد رحمه الله : جرى على سنة السببية فى اعتقاد أن الاشراك بالله وأن الاضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل، بل من مخلوقات العبد لنفسه على زعم هذه الطائفة ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وانظر إلى ضيق الخناق، فغلبة الحكايات لاطلاقات المشايخ فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى واقتحام الهلكة. وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الاضلال لا خالقه كما أن السلة سبب فى وضع القيود فى رجلى المحبوس، وإسناد الفعل لله عز وجل مجاز لا حقيقة، كما أن إسناد الفعل إلى البلد كذلك! يا له من تمثيل صار به مثلة، وتنظير صار به حائداً عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة. نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة، وهو ولى التوفيق.

واهتدى به قوم ، تسبب لضلالهم وهداهم . وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد ، فقال : يا أبا يحيى ، أما ترى مانحن فيه من القيود ؟ فرفع مالك رأسه فرأى سلة . فقال : لمن هذه السلة ؟ فقال : لى ، فأمر بها تنزل ، فإذا دجاج وأخبصة ، فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك . وقرأ زيد بن على : يَضل به كثير . وكذلك : وما يَضل به إلا الفاسقون . والفسق : الخروج عن القصد . قال رؤبة :

* فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِها جَوَائرَا * [1]

والفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ، وهو النازل بين المنزلتين [2] أى بين منزلة المؤمن والكافر ، وقالوا : إنّ أوّل من حدّ له هذا الحد : أبو حذيفة واصل بن عطاء رضى الله عنه وعن أشياعه [3] . وكونه بين بين أنّ حكمه حكم المؤمن فى أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين . وهو كالكافر فى الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته ، وأن لا تقبل له شهادة . ومذهب مالك بن أنس والزيدية : أنّ الصلاة لاتجزئ خلفه . ويقال للخلفاء المردة من الكفار : الفسقة . وقد جاء الاستعمالان فى كتاب الله . (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) . يريد اللمز والتنابز (إنّ المنافقين هم الفاسقون) .

النقض : الفسخ وفك التركيب . فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . ومنه قول ابن التيهان فى بيعة العقبة : يارسول الله ، إنّ بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها ، فنخشى إن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك [4] ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من

---

(١) فواسقا عن قصدها جوائرا يذهبن فى نجد وغورا غائرا
لرؤبة بن العجاج ، وقيل لذى الرمة ، يصف نوقا تمشى فى المفاوز ، خارجات عن طريق الاستقامة ، مجاوزات حده . وبين ذلك بقوله : يذهبن : وروى : يهوين ، أى يسرعن تارة فى مكان مرتفع ، وتارة فى غور : أى فى مكان كثير الانخفاض . فغورا : نصب على الظرفية . وغائرا : وصف مؤكد .

(٢) قوله « وهو النازل بين المنزلتين » هذا عند المعتزلة ، وأما عند أهل السنة فهو مؤمن ، والفسق لايخرجه عن الايمان . (ع)

(٣) قوله « وعن أشياعه » هم المعتزلة . (ع)

(٤) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى فى قصة العقبة من رواية كعب بن مالك ـ فذكر القصه وفيها « فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فذكره بطوله . وأخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الدلائل ، كلهم من طريقه .

روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امرأة فاستوثرها. لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش [١]

والعهد: الموثق. وعهد إليه فى كذا: إذا وصاه به ووثقه عليه. واستعهد منه: إذا اشترط عليه واستوثق منه: والمراد بهؤلاء الناقضين لعهدالله: أحبار اليهود المتعنتون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً. فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول ـ يصدقه الله بمعجزاته ـ صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا ذكره فيما تقدمه من الكتب المنزلة عليهم، كقوله: (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم). وقوله فى الإنجيل لعيسى صلوات الله عليه: «سأنزّل عليك كتاباً فيه نبأ بنى إسرائيل، وما أريته إياهم من الآيات، وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذى واثقوا به، وما ضيعوا من عهده إليهم، وحسن صنعه الذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهده، ونصره إياهم، وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غدروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده، لأنّ اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد صلى الله عليهما وسلم من التحريف والجحود وكفروا به كما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم. وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأوّل الذى أخذه على جميع ذرّية آدم، الإقرار بربوبيته [٢] وهو قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك)، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولا يتفرّقوا فيه، وهو قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم)، وعهد خصّ به العلماء وهو قوله: (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لیبيننه للناس ولا يكتمونه). والضمير فى ميثاقه للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم. ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه، كما أنّ الميعاد والميلاد، بمعنى الوعد والولادة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، أى من بعد توثقته عليهم، أو من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه وإنذار رسله. ومعنى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل: قطعهم الأرحام وموالاة المؤمنين، وقيل قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة

(١) قوله «وعلى المرأة بأنها فراش» بناء على أن الوثارة لين الفراش خاصة. (ع)
(٢) قوله «الاقرار بربوبيته» لعله من الاقرار. (ع)

والاتحاد والاجتماع على الحق ، فى إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض . فإن قلت : ما الأمر ؟ قلت : طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه . وبه سمى الأمر الذى هو واحد الأمور ؛ لأن الداعى الذى يدعو إليه من يتولاه شبه بآمر يأمره به ، فقيل له : أمر ، تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به ، كما قيل له شأن . والشأن : الطلب والقصد . يقال : شأنت شأنه ، أى قصدت قصده ﴿هم الخاسرون﴾ لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح وعقابها بثوابها .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

معنى الهمزة التى فى ﴿ كيف ﴾ مثله فى قولك : أتكفرون بالله ومعكم مايصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ، وهو الإنكار والتعجب . ونظيره قولك : أتطير بغير جناح ، وكيف تطير بغير جناح ؟ فإن قلت : قولك : أتطير بغير جناح إنكار للطيران ، لأنه مستحيل بغير جناح ، وأما الكفر فغير مستحيل مع ماذكر من الإماتة والإحياء . قلت : قد أخرج فى صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداعى إلى الإيمان . فإن قلت : فقد تبين أمر الهمزة وأنها لإنكار الفعل والإيذان باستحالته فى نفسه ، أو لقوة الصارف عنه ، فما تقول فى « كيف » حيث كان إنكاراً للحال التى يقع عليها كفرهم ؟ قلت : حال الشىء تابعة لذاته ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ؛ فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر ، وثباتها على طريق الكناية ، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ . وتحريره : أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها . وقد علم أنّ كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده . ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهانى .

والواو فى قوله ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ للحال . فإن قلت : فكيف صح أن يكون حالا وهو ماض ، ولايقال جئت وقام الأمير ، ولكن وقد قام ، لا أن يضمر قد ؟ قلت : لم تدخل الواو على (كنتم أمواتا) وحده ، ولكن على جملة قوله : (كنتم أمواتا) إلى (ترجعون) ، كأنه قيل : كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه وحالكم أنكم كنتم أمواتا نطفا فى أصلاب

آبائكم لجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم . فإن قلت : بعض القصة ماض وبعضها مستقبل ، والماضى والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالا حتى يكون فعلا حاضرا وقت وجود ما هو حال عنه . فما الحاضر الذى وقع حالا ؟ قلت : هو العلم بالقصة ، كأنه قيل : كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها . فإن قلت : فقد آل المعنى إلى قولك : على أى حال تكفرون فى حال علمكم بهذه القصة فما وجه صحته ؟ قلت : قد ذكرنا أنّ معنى الاستفهام فى «كيف» الإنكار . وأنّ إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية ، فكأنه قيل : ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه ! فإن قلت : إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم ، فلم يتصل بالإحياء الثانى والرجوع ؟ قلت : قد تمكنوا من العلم بهما بالدلائل الموصلة إليه ، فكان ذلك بمنزلة حصول العلم . وكثير منهم علموا ثم عاندوا . والأموات : جمع ميت ، كالأقوال فى جمع قيل [1] . فإن قلت : كيف قيل لهم أموات فى حال كونهم جمادا ، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البنى ؟ قلت : بل يقال ذلك لعادم الحياة ، كقوله (بلدة ميتا) ، (وآية لهم الأرض الميتة) ، (أموات غير أحياء) . ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما فى أن لا روح ولا إحساس . فإن قلت : ما المراد بالإحياء الثانى ؟ قلت : يجوز أن يراد به الإحياء فى القبر ، وبالرجوع : النشور . وأن يراد به النشور ، وبالرجوع : المصير إلى الجزاء . فإن قلت : لم كان العطف الأوّل بالفاء والإعقاب بثم ؟ قلت : لأنّ الإحياء الأوّل قد تعقب الموت بغير تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء . والإحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت ـ إن أريد به النشور ـ تراخيا ظاهرا . وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع إلى الجزاء أيضا متراخ عن النشور . فإن قلت : من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التى ذكرها الله ، ألأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر ، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعا ، لأنّ ما عدّده آيات وهى مع كونها آيات من أعظم النعم . ﴿لكم﴾ لأجلكم ولانتفاعكم به فى دنياكم ودينكم . أما الانتفاع الدنيوى فظاهر . وأمّا الانتفاع الدينى فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم ، وما فيه من التذكير بالآخرة وبثوابها وعقابها ، لاشتماله على أسباب الأنس واللذة

(١) قوله «كالأقوال فى جمع قيل» ملك من ملوك حمير . وأصله «قيل» بالتشديد . ومن جمعه على أقيال لم يجعل أصله مشدداً . كذا فى الصحاح . (ع)

من فنون المطاعم والمشارب والفواكه والمناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية ، وعلى أسباب الوحشة والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغموم والمخاوف . وقد استدل بقوله : (خلق لكم) على أنّ الأشياء التي يصح أن ينتفع بها [1] ولم تجر مجرى المحظورات فى العقل خلقت فى الأصل مباحة مطلقا لكل أحد أن يتناولها ويستنفع بها . فإن قلت : هل لقول من زعم أنّ المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة ؟ قلت : إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية : جاز ذلك ، فإنّ الغبراء وما فيها واقعة فى الجهات السفلية . و﴿ جميعا ﴾ نصب على الحال من الموصول الثانى . والاستواء : الاعتدال والاستقامة . يقال : استوى العود وغيره ، إذا قام واعتدل ، ثم قيل : استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً ، من غير أن يلوى على شيء . ومنه استعير قوله : (ثم استوى إلى السماء) ، أى قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما فى الأرض ، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر . والمراد بالسماء : جهات العلو ، كأنه قيل : ثم استوى إلى فوق . والضمير فى ﴿ فسواهن ﴾ ضمير مبهم . و ﴿ سبع سموات ﴾ تفسيره ، كقولهم : ربه رجلا . وقيل الضمير راجع إلى السماء . والسماء فى معنى الجنس . وقيل جمع سماءة ، والوجه العربى هو الأول . ومعنى تسويتهن : تعديل خلقهن ، وتقديمه ، وإخلاؤه من العوج والفطور ، أو إتمام خلقهن ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ فمن ثم خلقهن خلقاً مستوياً محكما من غير تفاوت ، مع خلق ما فى الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم . فإن قلت : ما فسرت به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه « ثم » لإعطائه معنى التراخى والمهلة قلت : « ثم » ههنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السماوات على خلق الأرض ، لا للتراخى فى الوقت كقوله : (ثم كان من الذين آمنوا) . على أنه لو كان لمعنى التراخى فى الوقت لم يلزم ما اعترضت به ، لأن المعنى أنه حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك ـ أى فى تضاعيف القصد إليها ـ

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «وقد استدل بقوله (خلق لكم) على أن الأشياء التى يصح أن ينتفع بها ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : هذا استدلال فرقة من القدرية ذهبت إلى أن حكم الله تعالى الاباحة فى ذوات المنافع التى لا يدل العقل على تحريمها قبل ورود الرسل تلقيها من العقل وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق داعية إليها ، فخلقها مع حظرها على العباد خلاف مقتضى الحكمة ؛ فوجب عندهم بمقتضى العقل أن يعتقدوا إباحتها فى حكم الله عز وجل ، وهذا زلل ناشيء عن قاعدة التحسين والتقبيح الباطلة . وأما استدلال الزمخشرى لهذه الفرقة بالآية فغير مستقيم ، فان دعواهم أن العقل كاف فى إباحة هذه الأشياء . فان دلت الآية على الاباحة فنحن نقول بموجبها ويكون إذاً إباحة شرعية سمعية . وإن لم تدل على الاباحة لم يبق فى الاستدلال بها مطمع .

خلقاً آخر. فإن قلت: أما يناقض هذا قوله: (والأرض بعد ذلك دحاها)؟ قلت: لا؛ لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء. وأمّا دحوها فتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر. عليها دخان ملتزق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض، فذلك قوله: (كانتا رتقا) وهو الالتزاق.

وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَآءِ هَٰؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

﴿ وإذ ﴾ نصب بإضمار اذكر. ويجوز أن ينتصب بقالوا. والملائكة: جمع ملأك على الأصل، كالشمائل فى جمع شمأل. وإلحاق التاء لتأنيث الجمع. و﴿ جاعل ﴾ من جعل الذى له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله ﴿ فى الأرض خليفة ﴾ فكانا مفعوليه. ومعناه مُصير فى الأرض خليفة. والخليفة: من يخلف غيره. والمعنى خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذرّيته. فإن قلت: فهلا قيل: خلائف، أو خلفاء؟ قلت: أريد بالخليفة آدم. واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما استغنى بذكر أبى القبيلة فى قولك: مضر وهاشم. أو أريد من يخلفكم، أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك. وقرئ: خليقة بالقاف ويجوز أن يريد: خليفة منى، لأنّ آدم كان خليفة الله فى أرضه وكذلك كل نبىّ (إنا جعلناك خليفة فى الأرض). فإن قلت: لأى غرض أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته فى استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة فى وقت استخلافهم. وقيل ليعلم عباده المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة ﴿أتجعل فيها﴾ تعجب من أن

يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذى لايفعل إلا الخير [١] ولايريد إلا الخير . فإن قلت : من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب ؟ قلت : عرفوه بإخبار من الله ، أو من جهة اللوح ، أو ثبت فى علمهم أنّ الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون ، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم : أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة . وقرئ : يسفك ، بضم الفاء . ويُسفك . ويَسفك ، من أسفك . وسفك . والواو فى ﴿ ونحن ﴾ للحال ، كما تقول : أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان . والتسبيح : تبعيد الله عن السوء ، وكذلك تقديسه ، من سبح فى الأرض والماء . وقدس فى الأرض : إذا ذهب فيها وأبعد . و ﴿ بحمدك ﴾ فى موضع الحال ، أى نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك ؛ لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك . ﴿ أعلم مالا تعلمون ﴾ أى أعلم من المصالح فى ذلك ماهو خفى عليكم. فإن قلت : هلا بين لهم تلك المصالح ؟ قلت : كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة ، وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة . على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ واشتقاقهم «آدم» من الأدمة ، ومن أديم الأرض ، نحو اشتقاقهم «يعقوب» من العقب ، و«إدريس» من الدرس ، و«إبليس» من الإبلاس . وما آدم إلا اسم أعجمى : وأقرب أمره أن يكون على فاعل ، كآزر ، وعازر ، وعابر وشالخ . وفالغ ، وأشباه ذلك (الأسماء كلها) أى أسماء المسميات [٢]

---

(١) قوله «وهو الحكيم الذى لايفعل إلا الخير» هذا وما بعده عند المعتزلة . وأما عند أهل السنة فهو تعالى يفعل الخير والشر ويريدهما (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «أى أسماء المسميات ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وهو يفر من اعتقاد أن الاسم هو المسمى ، لأن ذلك معتقد أهل السنة ، فيعمل الحيلة فى إبعاده عن مقتضى الآية بقوله (أنبئهم بأسمائهم) ويتغافل عن قوله (ثم عرضهم على الملائكة) فان الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقا ، ولم يجر إلا ذكر الأسماء ، فدل على أنها المسميات ، ويعرض أيضا عن حكمة التعليم ، وأن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات وإطلاعه على حقائقها وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار وعلى تسميتها أيضاً فان طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها فقد ثبت بهاتين النكتتين أن المراد بالأسماء المسميات . وأما استدلاله بقوله (أنبئونى بأسماء هؤلاء) فغايته إضافة الأسماء إلى الذوات ، فلهم أن يقولوا لو كانت الأسماء هى الذوات لزمت إضافة الشىء إلى نفسه ، وهذا مالا مطمع فيه فان هذه الاضافة مثلها فى قولك : نفس زيد وحقيقته ، فالمراد إذاً نبؤنى بحقائق هؤلاء ، ولا نكير فى هذه الاضافة ؛ فان الأسماء بمعنى المسميات . والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم والمضاف إليهم فصحت الاضافة لما بين الأعم والأخص من التغاير ، وهذا هو المصحح للاضافة فى مثل نفس زيد وأشباهه . فهذه نبذة من مسألة الاسم والمسمى تختص بهذه الآية . وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عدها المتكلمون من فن الكلام ، فالغالب عليها أنها مسألة لفظية لايرجع اختلاف الأشعرية والمعتزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة ،

فحذف المضاف اليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء ، لأن الاسم لا بد له من مسمى ، وعوض منه اللام كقوله : (واشتعل الرأس) . فان قلت : هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، وأن الأصل : وعلم آدم مسميات الأسماء ؟ قلت : لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله : (أنبئونى بأسماء هؤلاء) ، (أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم) فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل : أنبئونى بهؤلاء ، وأنبئهم بهم ، وجب تعليق التعليم بها . فان قلت : فما معنى تعليمه أسماء المسميات ؟ قلت : أراه الأجناس التى خلقها ، وعلمه أن هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا ، وهذا اسمه كذا ، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ثم عرضهم﴾ أى عرض المسميات . وإنما ذكر لأن فى المسميات العقلاء فغلبهم . وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعنى فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم ، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التى هى أصول الفوائد كلها ، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا . فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح فى استخلافهم فى قوله (إنى أعلم مالا تعلمون) . وقوله (ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض) استحضار لقوله لهم (إنى أعلم مالا تعلمون) ، إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح . وقرئ : وعُلم آدم ، على البناء للمفعول . وقرأ عبدالله : عرضهن . وقرأ أُبىّ : عرضها . والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها : لأن العرض لا يصح فى الأسماء . وقرئ : أنبيهم ، بقلب الهمزة ياء . وأنبهم ، بحذفها والهاء مكسورة فيهما .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

السجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة

لآدم ، وأبو يوسف [١] وإخوته له ؟ ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه . وقرأ أبو جعفر ﴿للملائكة اسجدوا﴾ بضم التاء للاتباع . ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتباع إلا فى لغة ضعيفة ، كقولهم : (الحمد لله) . ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل ، لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم، فغلبوا عليه فى قوله (فسجدوا) ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم . ويجوز أن يجعل منقطعا ﴿أبى﴾ امتنع مما أمر به ﴿واستكبر﴾ عنه ﴿وكان من الكافرين﴾ من جنس كفرة الجن وشياطينهم ، فكذلك أبى واستكبر كقوله : (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) . السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار . و﴿أنت﴾ تأكيد للمستكن فى (اسكن) ليصح العطف عليه . و﴿رغداً﴾ وصف للمصدر ، أى أكلا رغداً واسعا رافها . و﴿حيث﴾ للمكان المبهم ، أى : أى مكان من الجنة ﴿شئتما﴾ أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة، حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة ، حتى لا يبقى لهما عذر فى التناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفائتة للحصر ، وكانت الشجرة فيما قيل « الحنطة » أو « الكرمة » أو « التينة » . وقرئ ﴿ولا تِقربا﴾ بكسر التاء . وهذى ، والشجرة ، بكسر الشين . والشيرة بكسر الشين والياء . وعن أبى عمرو أنه كرهها ، وقال : يقرأ بها برابرة مكة وسودانها . ﴿من الظالمين﴾ من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فتكونا﴾ جزم عطف على (تقربا) أو نصب جواب للنهى . الضمير فى (عنها) للشجرة . أى فحملهما الشيطان على الزلة بسببها . وتحقيقه : فأصدر الشيطان زلتهما عنها . و «عن» هذه ، مثلها فى قوله تعالى : (وما فعلته عن أمرى) . وقوله :

* يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ [٢] وَعَنْ شُرْبٍ * [٣]

وقيل : فأزلهما عن الجنة [٤] بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما ، كما تقول : زل عن مرتبته . وزل عنى ذاك :

(١) قوله « لآدم وأبو يوسف » لعله وأبوى يوسف . (ع)

(٢) قوله « وقوله ينهون عن أكل » فى الصحاح : جزور نهية ـ على فعيلة ـ : أى ضخمة سمينة .

(٣) يمشون رسما فوق قنته ينهون عن أكل وعن شرب

يصف مضيافا أشبع أضيافه ، فهم يمشون ويرسمون رسما فوق أعلى الجبل . وقنة الجبل وقلته : أعلاه ، حال كونهم متناهين فى السمن تناهيا ناشئا عن أكل كثير وشرب كثير .

(٤) قال محمود رحمه الله : « وقيل فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما ، كما تقول زل ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : ويشهد له قوله تعالى (كما أخرج أبويكم من الجنة) .

إذا ذهب عنك وزل من الشهر كذا . وقرئ : فأزالهما . ﴿مما كانا فيه﴾ من النعيم والكرامة . أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة فى عنها . وقرأ عبدالله : فوسوس لهما الشيطان عنها . وهذا دليل على أن الضمير للشجرة ، لأن المعنى صدرت وسوسته عنها . فان قلت : كيف توصل إلى إزلالهما ووسوسته لهما بعدما قيل له (اخرج منها فإنك رجيم) . قلت : يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة ، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء . وقيل كان يدنو من السماء فيكلمهما . وقيل : قام عند الباب فنادى . وروى أنه أراد الدخول فمنعته الخزنة ، فدخل فى فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون . قيل ﴿اهبطوا﴾ خطاب لآدم وحواء وإبليس : وقيل والحية . والصحيح أنه لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما ، لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم . والدليل عليه قوله : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو . ويدل على ذلك قوله : فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم . ومعنى بعضكم لبعض ﴿عدوّ﴾ ما عليه الناس من التعادى والتباغى وتضليل بعضهم لبعض . والهبوط : النزول إلى الأرض ﴿مستقرّ﴾ موضع استقرار ، أو استقرار و﴿متاع﴾ وتمتع بالعيش ﴿إلى حين﴾ يريد إلى يوم القيامة . وقيل إلى الموت .

فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

معنى تلقى الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها . وقرئ بنصب آدم ورفع الكلمات ، على أنها استقبلته بأن بلغتـه واتصلت به . فإن قلت : ماهن ؟ قلت : قوله تعالى (ربنا ظلمنا أنفسنا ... الآية) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : « إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم[1] حين اقترف الخطيئة : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى

(١) موقوف . أخرجه ابن أبى شيبة فى أوائل الصلاة من رواية إبراهيم التيمى عن الحارث بن سويد قال : قال ابن مسعود : فذكره ولم يقل « ماقال أبونا آدم حين اقترف الخطيئة » .

جدك ، لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى . قال : يارب ألم تنفخ فىّ الروح من روحك ؟ قال : بلى . قال : يارب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى . قال : ألم تسكنى جنتك ؟ قال : بلى . قال : يارب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم[١] » واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء ، لأنها كانت تبعا له ، كما طوى ذكر النساء فى أكثر القرآن والسنة لذلك . وقد ذكرها فى قوله (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) . ﴿فتاب عليه﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول . فإن قلت : لم كرر : (قلنا اهبطوا) ؟ قلت : للتأكيد ولما نيط به من زيادة قوله : ﴿فإما يأتينكم منى هدى﴾ . فإن قلت : ما جواب الشرط الأول ؟ قلت : الشرط الثانى مع جوابه كقولك : إن جئتنى فان قدرت أحسنت إليك . والمعنى : فإما يأتينكم منى هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم ؛ بدليل قوله : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) فى مقابلة قوله (فمن اتبع هداى) فإن قلت : فلم جىء بكلمة الشك[٢] وإتيان الهدى كائن لا محالة لوجوبه ؟ قلت : للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وأنه إن لم يبعث رسولا ولم ينزل كتابا ، كان الإيمان به وتوحيده واجباً ؛ لما ركب فيهم[٣] من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكنهم من النظر والاستدلال . فإن قلت : الخطيئة التى أهبط بها آدم[٤] إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء ، وإن كانت

(١) موقوف . أخرجه الحاكم فى ترجمة آدم ، من فضائل الأنبياء ، من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه .

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت لم جىء بكلمة الشك وإتيان الهدى كائن ... الخ ؟ » . قال أحمد رحمه الله : هاتان زلتان زلها فلزهما فى قرن : الأولى : إيراد السؤال بناء على أن الهدى على الله تعالى واجب . والثانية : بناء الجواب على أن الوجوب الشرعى يثبت بالعقل قبل ورود الشرع . والحق أن الله تعالى لا يجب عليه شىء ـ تعالى عن الايجاب رب الأرباب ـ . وإنما يدخل تحت ربقة التكاليف المربوب لا الرب . وأما وجوب النظر فى أدلة التوحيد ، فانما يثبت بالسمع لا بالعقل ، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع ، بل محض العقل كاف فيه باتفاق .

(٣) قوله « واجبا لما ركب فيهم » هذا عند المعتزلة . وأما عند أهل السنة فلا حكم قبل الشرع . (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : « فان قلت الخطيئة التى أهبط بها آدم من الجنة ... الخ » . قال أحمد رحمه الله تعالى : مقتضاه تأويل الآى المشعر ظاهرها بوقوع الصغائر من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها . على أن تجويز الصغائر عليهم قد قال به طوائف من أهل السنة . وفى طى وقوعها إلطاف وزيادة فى الالتجاء إلى الله تعالى والتواضع له والاشفاق على الخطائين والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة ، كما نقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له يدعو للخطائين كثيراً . وعلى الجملة فالقدرى يجوز الصغائر على الأنبياء ويقول : إن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر فى حق الناس =

صغيرة ، فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء ، كما فعل بابليس ونسبته إلى الغيّ والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة ؟ قلت : ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات . وإنما جرى عليه ما جرى ، تعظيما للخطيئة وتفظيعاً لشأنها وتهويلا ، ليكون ذلك لطفاً له ولذريته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم ، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة ، فكيف يدخلها ذو خطايا جمة . وقرئ : فمن تبع هُدَيَّ ، على لغة هذيل ، فلا خوف ـ بالفتح .

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

﴿ إسرائيل ﴾ هو يعقوب عليه السلام لقب له ، ومعناه في لسانهم : صفوة الله ، وقيل عبدالله . وهو بزنة إبراهيم وإسمعيل غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة . وقرئ إسرائل ، وإسرائلّ . وذكرهم النعمة : أن لايخلوا بشكرها ، ويعتدّوا بها ، ويستعظموها ، ويطيعوا مانحها . وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم : من الإنجاء من فرعون وعذابه ومن الغرق . ومن العفو عن اتخاذ العجل ، والتوبة عليهم ، وغير ذلك ، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم المبشر به في التوراة والإنجيل . والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد جميعا . يقال أوفيت بعهدي ، أي بما عاهدت عليه كقوله : (ومن أوفى بعهده من الله) وأوفيت بعهدك : أي بما عاهدتك عليه . ومعنى ﴿ وأوفوا بعهدي ﴾ وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي ، كقوله : (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) ، (ومنهم من عاهد الله) ، (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) ، ﴿ أوف بعهدكم ﴾

ـــ فلاجرم التزم الزمخشري ورود السؤال ؛ لأن آدم عليه السلام معصوم من الكبائر باتفاق فيلزم على قاعدة القدرية أن تكون صغيرة واجبة التكفير والمحو ، غير مؤاخذ عليها ولا مستوجب بسببها عقوبة ولا شيئاً مما وقع . وهذا لاجواب للزمخشري عنه إلا الانصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة والمذاهب الماحلة ولقد شنع السؤال بقوله إن الذي جرى على آدم عليه السلام كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة . ومعاذ الله أن يكون الحالان سواء والعاقبتان كما تعلم : أن آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم ؛ وأن إبليس خالد في العذاب الأليم .

بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم ﴿ وإياى فارهبون ﴾ فلا تنقضوا عهدى . وهو من قولك : زيدا رهبته . وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من (إياك نعبد) . وقرئ (أوفّ) بالتشديد : أى أبالغ فى الوفاء بعهدكم ، كقوله (من جاء بالحسنة فله خير منها) . ويجوز أن يريد بقوله (وأوفوا بعهدى) ما عاهدوا عليه ووعدوه من الإيمان بنبىّ الرحمة والكتاب المعجز . ويدل عليه قوله : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ﴾ أوّل من كفر به ، أو أول فريق أو فوج كافر به ، أو : ولا يكن كل واحد منكم أوّل كافر به ، كقولك : كسانا حلة ، أى كل واحد منا . وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أوّل من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته . ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه والمستفتحين على الذين كفروا به ، وكانوا يعدون اتباعه أول الناس كلهم ، فلما بعث كان أمرهم على العكس كقوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) إلى قوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) ، (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) . ويجوز أن يراد : ولا تكونوا مثل أول كافر به ، يعنى من أشرك به من أهل مكة . أى : ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكورا فى التوراة موصوفا ، مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له . وقيل : الضمير فى « به » لما معكم ، لأنهم إذا كفروا بما يصدّقه فقد كفروا به . والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى (اشتروا الضلالة بالهدى) وقوله :

* كَمَا آشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا * (١)

وقوله :

* فإِنِّى شَرَيْتُ الحِلْمَ بَعْدَكَ بِالجَهْلِ * (٢)

---

(١) مر شرح هذا الشاهد صفحة ٦٩ من هذا الجزء فراجعه إن شئت . اه مصححه

(٢)
ألا زعمت أسماء أن لا أحبها ... فقلت بلى لولا ينازعنى شغلى
جزيتك ضعف الود لولا اشتكيته ... وما إن جزاك الضعف من أحد قبلى
فان تزعمينى كنت أجهل فيكم ... فانى شريت الحلم بعدك بالجهل

لأبى ذؤيب الهذلى . وزعمت : أى ظنت أنه الحال والشأن لا أحبها ، فقلت لها : بلى أحبك لولا ينازعنى : أى لولا أن ينازعنى شغلى ويصرفنى عن مودتك ، أو لو لم ينازعنى شغلى لوددتك : جزيتك ضعف الود : أى وددتك قدر المعتاد مرتين ، أو قدر ودك مرتين . لولا اشتكيته : أى لولا أن مللته وسئمته ، أو لو لم تشتكيه لضاعفته وأكثرته ، فلولا هنا يحتمل أنها كلمة واحدة فيقدر بعدها « أن » المصدرية ، ويحتمل أنها كلمتان بمعنى لو لم ، لكنه ــ

يعنى ولا تستبدلوا بآياتى ثمنا وإلا فالثمن هو المشترى به . والثمن القليل الرياسة التى كانت لهم فى قومهم ، خافوا عليها الفوات لو أصبحوا أتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبدلوها ـ وهى بدل قليل ومتاع يسير ـ بآيات الله وبالحق الذى كل كثير إليه قليل ، وكل كبير إليه حقير ، فما بال القليل الحقير . وقيل كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم ، ويهدون إليهم الهدايا ، ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلم ، وتسهيلهم لهم ماصعب عليهم من الشرائع . وكان ملوكهم يدرّون عليهم الأموال ليكتموا أو يحرّفوا .

وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣)

الباء التى فى ﴿ بالباطل ﴾ إن كانت صلة مثلها فى قولك : لبست الشيء بالشيء خلطته به ، كأن المعنى : ولا تكتبوا فى التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذى كتبتم ، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم ، وإن كانت باء الاستعانة كالتى فى قولك : كتبت بالقلم ، كان المعنى : ولا تجعلوا الحق ملتبسا مشتبها بباطلكم الذى تكتبونه ﴿ وتكتموا ﴾ جزم داخل تحت حكم النهى بمعنى : ولا تكتموا . أو منصوب بإضمار أن ، والواو بمعنى الجمع ، أى ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان الحق ، كقولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . فإن قلت : لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى ينهوا عن الجمع بينهما ، لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتموا الحق [1] ؟ قلت : بل هما متميزان ، لأن لبس الحق بالباطل ماذكرنا

= استعمال نادر . ويجوز فى «لولا» الثانية أنها حرف تحضيض وتوبيخ كهلا ، يعنى كان الأحق بالشكوى كثرة المودة الموجبة للتهمة ، لا كثرة الهجر . و « ما » نافية ، و « إن » و « من » زائدتان . وأجهل : فعل مضارع مرفوع . وقيل : أفعل تفضيل منصوب . فيكم : أى بسببكم ، أو فيما بين قبيلتكم . وعبر بضمير جمع المذكر للتعظيم . فأنى شريت : جواب الشرط ، واشترى الشيء : أخذه بالثمن ، وشراه : باعه به ، فالمراد هنا : استبدلت العقل بعد فراقك بالجهل ، فهو مجاز مرسل علاقته الاطلاق . والمعنى : أنه اعتذر عن عدم ودها بشغله وشكواها وعقله .

(١) قال محمود رحمه الله : «وإن قلت لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : السؤال غير موجه ، لأنه ادعى فيه عدم التميز بين الفعلين . وغاية ما قدره تلازمهما . والمتلازمان متغايران متميزان ، إلا أن يعنى بعدم التميز عدم الانفكاك ، فلا نسلم له تعذر جمعهما فى النهى إذاً بل النهى عن أحدهما على هذا التقدير مستلزم للنهى عن الآخر ، وإن لم يصرح به .

من كتابتهم فى التوراة ماليس منها . وكتمانهم الحق أن يقولوا : لانجد فى التوارة صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو حكم كذا . أو يمحوا ذلك . أو يكتبوه على خلاف ماهو عليه . وفى مصحف عبد الله : وتكتمون ، بمعنى كاتمين ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فى حال علمكم أنكم لابسون كاتمون ، وهو أقبح لهم ، لأنّ الجهل بالقبيح ربما عذر راكبه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعنى صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ منهم ، لأنّ اليهود لا ركوع فى صلاتهم . وقيل « الركوع » الخضوع والانقياد لما يلزمهم فى دين الله . ويجوز أن يراد بالركوع : الصلاة ، كما يعبر عنها بالسجود ، وأن يكون أمرا بأن يصلى مع المصلين ، يعنى فى الجماعة ، كأنه قيل : وأقيموا الصلاة وصلوها مع المصلين ، لامنفردين .

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿أتأمرون﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم . والبرّ سعة الخير والمعروف . ومنه البر لسعته ، ويتناول كل خير . ومنه قولهم : صدقت وبررت . وكان الأحبار يأمرون من نصحوه فى السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه . وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون ، وإذا أتوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها . وعن محمد بن واسع : بلغنى أنّ ناسا من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم : قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة . قالوا كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها ﴿وتنسون أنفسكم﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ تبكيت مثل قوله (وأنتم تعلمون) يعنى تتلون التوراة وفيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أفلا تعقلون﴾ توبيخ عظيم بمعنى : أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه . ونحوه (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلاتعقلون) . ﴿واستعينوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بالصبر والصلاة﴾ أى بالجمع بينهما ، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة ، محتملين لمشاقها وما يجب فيها ـ من إخلاص القلب ، وحفظ النيات، ودفع الوساوس

ومراعاة الآداب ، والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع ، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدى جبار السموات ، ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه . ومنه قوله تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أو : واستعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » [1] وعن ابن عباس أنه نعى إليه أخوه «قثم» وهو فى سفر ، فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : واستعينوا بالصبر والصلاة » [2] وقيل : الصبر الصوم ، لأنه حبس عن المفطرات . ومنه قيل لشهر رمضان : شهر الصبر . ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء ، وأن يستعان على البلايا بالصبر ، والالتجاء إلى الدعاء ، والابتهال إلى الله تعالى فى دفعه ﴿وإنها﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة . ويجوز أن يكون لجميع الأمور التى أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله (اذكروا نعمتى) إلى (واستعينوا) . ﴿لكبيرة﴾ لشاقة ثقيلة من قولك : كبر علىّ هذا الأمر ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) . فإن قلت : مالها لم تثقل على الخاشعين والخشوع فى نفسه مما يثقل ؟ قلت : لأنهم يتوقعون ما ادّخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ أى يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ، ويطمعون فيه . وفى مصحف عبدالله : يعلمون . ومعناه : يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك . ولذلك فسر « يظنون » بيتيقنون . وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب ، كانت عليه مشقة خالصة فثقلت عليه كالمنافقين والمرائين بأعمالهم . ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجرة زائدة على مقدار عمله ، فتراه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صدر ومضاحكة لحاضريه ، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة . ومن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » [3] وكان يقول « يا بلال

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ . فأخرجه أبو داود وأحمد من رواية عبد العزيز أخى حذيفة عن حذيفة بلفظ «كان إذا حزبه أمر صلى» . وأخرجه البيهقى فى الدلائل فى قصة الخندق مطولا .

(٢) موقوف . أخرجه سعيد بن منصور . والطبرى من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه «أن ابن عباس ... فذكره» . وأخرجه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه

(٣) أخرجه النسائى والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والبزار من حديث أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وسيأتى فى آل عمران .

روّحنا »[1] والخشوع . الإخبات والتطامن . ومنه : الخشعة للرملة المتطامنة . وأما الخضوع فاللين والانقياد . ومنه : خضعت بقولها إذا لينته .

يَـٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ وأنى فضلتكم ﴾ نصب عطف على (نعمتى) أى اذكروا نعمتى وتفضيلى ﴿ على العالمين ﴾ على الجم الغفير من الناس ، كقوله تعالى (باركنا فيها للعالمين) يقال : رأيت عالما من الناس يراد الكثرة ﴿ يوما ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ لا تجزى ﴾ لا تقضى عنها شيأ من الحقوق . ومنه الحديث فى جذعة بن نيار : «تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك»[2] و﴿ شيئا ﴾ مفعول به ويجوز أن يكون فى موضع مصدر ، أى قليلا من الجزاء ، كقوله تعالى (ولا يظلمون شيأ) ومن قرأ (لا تجزئ) من أجزأ عنه إذا أغنى عنه ، فلا يكون فى قراءته إلا بمعنى شيئا من الإجزاء . وقرأ أبو السرار الغنوى : لا تجزى نسمة عن نسمة شيئا . وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوما . فإن قلت : فأين العائد منها إلى الموصوف ؟ قلت : هو محذوف تقديره : لا تجزى فيه . ونحوه ما أنشده أبو على :

* تَرَوَّحِي أَجْدَرُ أَنْ تَقِيلِي *[3]

---

(١) أخرجه أبو داود من رواية سالم بن أبى الجعد . قال : قال رجل من خزاعة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يابلال أقم الصلاة وأرحنا بها » ورجاله ثقات : لكن اختلف فيه على سالم اختلافا كثيراً . ذكره الدارقطنى فى العلل . ورواه أحمد من رواية سالم المذكور عن رجل من أسلم به . ورواه أحمد أيضا وأبو داود من وجه آخر عن سالم « أن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار . فحضرت الصلاة ، فذكر قصة . وفيها . أقم يا بلال ، فأرحنا بالصلاة » أخرجه الدارقطنى فى العلل من رواية سالم عن ابن الحنفية عن على رضى الله عنه . وقال : تفرد أبو خالد القرى عن الثورى هكذا ومن طريق حمزة الثمالى عن ابن الحنفية عن بلال . وأخرجه ابراهيم الحربى من رواية سالم عن ابن الحنفية مرسلا . وقال : معناه : نصلى ونروح إلى منازلنا . وليس من الاستراحة والانتقال وإلانقال أرحنا منها « انتهى . ويعكر على هذا أن فى رواية أحمد : أن الأنصارى قال يا جارية . إيتينى بوضوئى لعلى أصلى فأستريح .

(٢) متفق عليه من حديث البراء رضى الله عنه . قال «ضحى خال لى يقال له أبو بردة بن نيار ـ فذكر الحديث »

(٣) تروحي ياخيرة الفسيل تروحى أجدر أن تقيلى غدا بجنبي بارد ظليل

لأبى على أحيحة بن الجلاح . يقول لناقته : بكرى بالرواح : أو جدى السير فيه . والفسيل : صنوان النخل . شبه

أى ماء أجدر بأن تقيلى فيه . ومنهم من ينزل فيقول : اتسع فيه ، فأجرى مجرى المفعول به لحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله : أم مال أصابوا . ومعنى التنكير أن نفسا من الأنفس لا تجزى عن نفس منها شيئا من الأشياء ، وهو الإقناط الكلى القطاع للمطامع . وكذلك قوله : ﴿ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ أى فدية لأنها معادلة للمفدى . ومنه الحديث «لا يقبل منه صرف ولا عدل»[١] أى توبة ولا فدية . وقرأ قتادة : ولا يقبل منها شفاعة ، على بناء الفعل للفاعل وهو الله عز وجل ، ونصب الشفاعة . وقيل : كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا . فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تقبل للعصاة[٢] ؟ قلت : نعم ، لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل

ـــــــــــــــ

= ناقته بالمختار منه لمراقتها فى الكرم وارتفاعها . وكرر الأمر للتوكيد . هذا ويقال : تروح النبت إذا طال . فتروحى : أى امتدى وارتفعى . والخطاب لمنعار البخل لا للناقة قاله العينى مخالفا جميع الشراح لهذا الرجز . وقد يؤكده أنه روى بدل «تروحى» الأول «تأبرى» والتأبير : وضع طلع الذكور من النخل فى الاناث لتنمو ثمرتها ويمكن أن يقال : إنه ترشيح للتشبيه . والظاهر أنه انتقل من رجز إلى آخر لأحيحة ، فقد روى عنه :

تأبرى ياخيرة الفسيل تأبرى من حنذ فشولى إذ ضن أهل النخل بالفحول

هذا هو خطاب الفسيل . وحنذ ـ بالتحريك ـ موضع قريب من المدينة . وقيل اسم قرية . وقيل اسم ماء . والمعنى : أن ريح الصبا تهب من جهته فتحمل طلع الذكور منه إلى الاناث فيغنيها عن التأبير الصناعى . وشولى أى ارتفعى وامتدى ، أى تأبرى بنفسك ، حيث بخل أهل النخل بطلع الذكور التى تلقح الاناث . وأجدر : نصب بمحذوف ، أى وأتى مكانا أجدر وأحق بأن تقيلى فيه وتستريحى من السير . ويجوز نصبه بتروحي ، بتضمينه معنى اطلبى . لحذف باء الجر ولفظ فيه لعلمها . وغدا نصب بتقيلى ، بجنبى : أى فى جنبى ، فهو بدل من فيه المحذوفة ، أى : فى حافتى ماء بارد ظليل ، أى مظلل بالأشجار ، أو فى جانبى مكان ذى ظل لا حر فيه . وحينئذ فالمعنى أجدر أن تقيلى بجانبيه ، فأظهر فى محل الاضمار لاظهار صفة المكان . وأفعل التفضيل المجرد إن لم تتصل به «من» لفظا فهى متصلة به تقديراً ، على أن محل ذلك إذا أريد به التفضيل على معين . والظاهر أن أجدر هنا ليس كذلك ، فلا حاجة لتقديرها . ويجوز أن يكون أجدر فعلا ماضياً أى دخل فى الجدارة والحقية «أن تقيلى» أى حقت ووجبت قيلولتك ، فلا حذف أصلا . وقال العينى : يجوز أن يكون بارد ظليل على حذف حرف العطف للضرورة ، أى بجنب بارد وجنب ظليل .

(١) متفق عليه من حديث على رضى الله عنه رفعه «المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا ، فمن أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ـ الحديث» ورواه عبد الرزاق وقال فى آخره : والصرف والعدل : التطوع والفريضة . واتفقا عليه من حديث أنس نحوه . ولمسلم من حديث أبى صالح عن أبى هريرة رفعه : «المدينة حرم . فمن أحدث ـ فذكره» وغفل الطيبى فعزاه لأبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، بلفظ «من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» .

(٢) قال محمود رحمه الله : «وهل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : أما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله . ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم . وليس فى الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله يوما =

أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لاتقبل للعصاة . فإن قلت : الضمير فى (ولايقبل منها) إلى أى النفسين يرجع ؟ قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهى التى لا يؤخذ منها عدل . ومعنى لايقبل منها شفاعة : إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها . ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى ، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئا ، ولو أعطت عدلا عنها لم يؤخذ منها ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ يعنى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة والتذكير بمعنى العباد والأناسى ، كما تقول : ثلاثة أنفس .

وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

أصل ﴿ آل ﴾ أهل ، ولذلك يصغر بأهيل ، فأبدلت هاؤه ألفاً . وخص استعماله بأولى الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام . و ﴿ فرعون ﴾ علم لمن ملك العمالقة ، كقيصر : لملك الروم ، وكسرى : لملك الفرس . ولعتو الفراعنة اشتقوا : تفرعن فلان ، إذا عتا وتجبر . وفى ملح بعضهم :

قَدْ جَاءَهُ الْمُوسَى الْكَلُومُ فَزَادَ فِى ... أَقْصَى تَفَــرْعُنِهِ وَفَرْطِ عُرَامِهِ (١)

وقرئ : أنجيناكم ، ونجيتكم ﴿ يسومونكم ﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلما . قال عمرو بن كلثوم :

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أَنْ يَقِرَّ الْخَسْفُ فِينَا (٢)

ـــ أخرجه منكرا ، ولا شك أن فى القيامة مواطن ، ويومها ممدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام . قد وردت آى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها . منها قوله تعالى : (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) مع قوله : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ، متغايرين : أحدهما محل للتساؤل ؛ والآخر ليس محلا له ، وكذلك الشفاعة ، وأدلة ثبوتها لاتحصى كثرة ، رزقنا الله الشفاعة وحشرنا فى زمرة أهل السنة والجماعة

(١) الضمير للصبى . وقيل لذكره . والموسى : آلة الحلق والختان ، من أوسى رأسه حلقه . وقال الفراء وغيره هى فعلى ويؤنث . يقال . رجل ماس مثل مال ، أى خفيف طياش . وقيل : هو مفعل . وذلك كناية عن ختانه به ، لأنه يورث النمو والفتوة . وقيل : عن حلق العانة ، لأنه زمن بلوغ الأشد . واختار السعد الأول لأنه أنسب بالمقام . والكلوم : كثير الكلم ــ أى الجرح ــ والتفرعن : العتو والتجبر ، مأخوذ من فرعون لشهرته بالطغيان والظلم والتكبر . والعرام كغراب : الشدة والحدة والخبث . ويمكن أنه من الفرع ، لارتفاعه وعلوه على غيره .

(٢) لعمرو بن كلثوم من معلقته . «وما» زائدة . «والملك» بالسكون : لغة فيه . ويقال : سامه ذلا ، إذا أولاه إياه وألحقه به . وقيل : إذا كلفه مافيه ذل وأكرهه عليه . والخسف ــ بفتح الخاء وضمها ــ : الذل . يقول إذا ألحق بالناس الذل منعناه إقرار الذل فينا ، ولم ننقد له كسائر الناس ، لشجاعتنا على جميع من سوانا .

وأصله من سام السلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى يبغونكم ﴿ سوء العذاب ﴾ ويريدونكم عليه . والسوء : مصدر السيئ : يقال أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل ، يراد قبحهما . ومعنى سوء العذاب ـ والعذاب كله سيئ ـ : أشدّه وأفظعه ، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائره . و ﴿ يذبحون ﴾ : بيان لقوله يسومونكم . ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا ﴾ وقرأ الزهرى (يذبحون) بالتخفيف كقولك : قطعت الثياب وقطعتها . وقرأ عبدالله : يقتلون . وإنما فعلوا بهم ذلك لأنّ الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه ، كما أنذر نمروذ . فلم يغن عنهما اجتهادهما فى التحفظ ، وكان ماشاء الله. والبلاء المحنة إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون . والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)

﴿ فرقنا ﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم . وقرئ : فرّقنا ، بمعنى فصلنا . يقال : فرق بين الشيئين ، وفرّق بين الأشياء ، لأن المسالك كانت اثنى عشر على عدد الأسباط . فإن قلت : مامعنى ﴿ بكم ﴾ ؟ قلت : فيه أوجه : أن يراد أنهم كانوا يسلكونه ،[1] ويتفرّق الماء عند سلوكهم ، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما ، وأن يراد فرقناه بسببكم[2] وبسبب إنجائكم ، وأن يكون فى موضع الحال[3] بمعنى فرقناه ملتبسا بكم كقوله :

* تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَا * (٤)

---

(١) قال محمود رحمه الله : «يحتمل أنهم كانوا يسلكون ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : فتكون الباء على هذا الوجه استعانة مثلها فى كتبت بالقلم .

(٢) قال محمود رحمه الله : «ويحتمل أن يكون المراد فرقناه بسببكم» . قال أحمد رحمه الله : وهي على هذا الوجه سببية ، كما تقول : أكرمتك باحسانك إلى .

(٣) قال محمود رحمه الله : « ويحتمل أن يكون فى موضع الحال ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وهى على هذا الوجه للمصاحبة مثلها فى : أسندت ظهرى بالحائط ، والوجه الأول ضعيف من حيث أن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببنى إسرائيل . والمنقول بل المنصوص عليه فى الكتاب العزيز : أن البحر إنما انفرق بعصا موسى ، يشهد لذلك قوله تعالى : (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) ، فآلة التفريق العصا ، لابنو إسرائيل

(٤) كأن خيولنا كانت قديما ... تسقى فى قحوفهم الحليبا
فمرت غير نافرة عليهم ... تدوس بنا الجماجم والتريبا

لأبى الطيب المتنبى . وتسقى : بالتضعيف . والقحوف : جمع قحف بالكسر ، وقيل بالفتح : وهو العظم الذى فوق

أى تدوسها ونحن راكبوها . وروى أنّ بنى إسرائيل قالوا لموسى : أين أصحابنا لانراهم ؟ قال : سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم . قالوا : لانرضى حتى نراهم . فقال : اللهم أعنى على أخلاقهم السيئة . فأوحى إليه : أن قل بعصاك هكذا ، فقال بها على الحيطان ، فصارت فيها كوى . فتراموا وتسامعوا كلامهم ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه لاتشكون فيه .

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه ، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة ، وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة . وقيل ﴿ أربعين ليلة ﴾ لأنّ الشهور غررها بالليالى . وقرئ ﴿ واعدنا ﴾ لأن الله تعالى وعده الوحى ووعد المجىء للميقات إلى الطور ﴿ من بعده ﴾ من بعد مضيه إلى الطور ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ بإشراككم ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ حين تبتم ﴿ من بعد ذلك ﴾ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ إرادة أن تشكروا [1] النعمة فى العفو عنكم .

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

ـــ الدماغ وإناء صغير من خشب . والحليب : اللبن المحلوب ، أى كأنها كانت معتادة بهم فرقت لهم مطمئنة . دوس جماجمهم : أى رؤسهم ونحن على ظهورها . والتريب : لغة فى التراب

(١) قال محمود : « ومعناه إرادة أن تشكروا » . قال أحمد رحمه الله : أخطأ فى تفسير « لعل » بالارادة ؛ لأن مراد الله تعالى كائن لامحالة . فلو أراد منهم الشكر لشكروا ولا بد . وإنما أجراه الزمخشرى على قاعدته الفاسدة فى اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد ، منه مايقع ومنه مايتعذر ـ تعالى الله عن ذلك ـ ، ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . والتفسير الصحيح فى « لعل » هو الذى حرره سيبويه رحمه الله فى قوله : (لعله يتذكر أو يخشى) قال سيبويه : الرجاء منصرف إلى المخاطب كأنه قال : كونا على رجائكما فى تذكره وخشيته وكذلك هذه الآية معناها لتكونوا على رجاء الشكر لله عز وجل ونعمه ، فينصرف الرجاء إليهم وينزه الله تعالى .

﴿ الكتاب والفرقان ﴾ يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل : يعنى التوراة ، كقولك : رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة . ونحوه قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا) يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكراً : أو التوراة . والبرهان : الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام ، وقيل الفرقان : انفراق البحر . وقيل : النصر الذى فرّق بينه وبين عدوّه ، كقوله تعالى : (يوم الفرقان) يريد به يوم بدر . حمل قوله ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ على الظاهر وهو البخع [1] . وقيل : معناه قتل بعضهم بعضا . وقيل : أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة . وروى أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه ، فلم يمكنهم المضى لأمر الله ، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم ، وقيل لهم : اصبروا ، فلعن الله من مدّ طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل ، فيقولون : آمين ، فقتلوهم إلى المساء حتى دعا موسى وهرون وقالا : يارب ، هلكت بنو إسرائيل ، البقية البقية ، فكشفت السحابة ونزلت التوبة . فسقطت الشفار من أيديهم ، وكانت القتلى سبعين ألفا . فإن قلت : ما الفرق بين الفاآت ؟ قلت : الأولى للتسبيب لا غير ، لأن الظلم سبب التوبة . والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم ، من قبل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم . ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم . فيكون المعنى : فتوبوا ، فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم ، والثالثة متعلقة بمحذوف ، ولا يخلو إما أن ينتظم فى قول موسى لهم فتتعلق بشرط محذوف ، كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم . وإمّا أن يكون خطابا من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات . فيكون التقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارؤكم . فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ ؟ قلت : البارئ هو الذى خلق الخلق بريئا من التفاوت (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ومتميزا بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر ، إلى عباد البقرة التى هى مثل فى الغباوة والبلادة . ــ فى أمثال العرب : أبلد من ثور ــ حتى عرضوا أنفسهم لسخط

---

(١) قوله «وهو البخع» فى الصحاح : بخع نفسه بخعا ، أي قتلها غما . (ع)

الله ونزول أمره بأن يفك ماركبه من خلقهم ، وينثر مانظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة فى ذلك ، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

قيل : القائلون السبعون الذين صعقوا . وقيل قاله عشرة آلاف منهم ﴿ جهرة ﴾ عيانا . وهى مصدر من قولك : جهر بالقراءة وبالدعاء ، كأنّ الذى يرى بالعين جاهر بالرؤية ، والذى يرى بالقلب مخافت بها ، وانتصابها على المصدر ، لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس ، أو على الحال بمعنى ذوى جهرة . وقرئ «جهرة» بفتح الهاء ، وهى إمّا مصدر كالغلبة . وإما جمع جاهر . وفى هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رادّهم القول وعرّفهم أن رؤية مالا يجوز عليه أن يكون فى جهة محال [1] وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام [2] أو الأعراض ، فرادّوه بعد بيان

(١) قوله « أن يكون فى جهة محال » هذا مذهب المعتزلة . ومن استجاز عليه الرؤية هم أهل السنة ، والجهة ليست شرطا للرؤية عندهم ، فلا يلزم كونه من جملة الأجسام أو الأعراض كما بين فى علم التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : « فيه دليل على أن موسى عليه السلام رادهم القول ، وعرفهم أن رؤية من لايجوز عليه .. الخ » . قال أحمد رحمه الله : لقد انتهز الزمخشرى ما اعتقده فرصة من هذه الآية التى لامطمع له عند التحقيق فى التشبث بها ، فبنى الأمر على أن العقوبة سببها طلب مالا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنه ، وأنى له ذلك وثم سبب ظاهر فى العقوبة سوى مادعاه هو كل السبب . وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها فى آية الأعراف فى دار الدنيا ، فأخبره الله تعالى أنه لايراه فى الدنيا ، وصار ذلك عنده وعند بنى إسرائيل أصلا مقرراً ، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة أن الله تعالى لايرى فى دار الدنيا ، لأنه أخبر أنه لايرى والخبر واجب الصدق وكما أخبر أنه لايرى فى دار الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته فى الدار الآخرة وتخصيص ذلك بالمؤمنين ، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤية فى الدنيا تعنتا أو شكا فى الخبر ، فأنزل الله تعالى بهم تلك العقوبة . وكيف تخيل الزمخشرى وشيعته أن موسى عليه السلام طلب من الله مالا يجوز عليه . وهل هو لوكان الأمر على ماتخيل إلا كبنى إسرائيل . ومعاذ الله ، لقد برأه من ذلك وكان عند الله وجيها . وأما الأدلة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلا والسمعية على وقوعها فى الدار الآخرة ، فأكثر من أن تحصى وهى مستقصاة فى فن الكلام . وإنما غرضنا فى هذا الباب مباحثة الزمخشرى والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه وأخذه قوما منه . والله الموفق .

الحجة ووضوح البرهان ، ولجوا فكانوا فى الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكفرين ودلالة على عظمهما بعظم المحنة . و﴿الصاعقة﴾ ماصعقهم ، أى أماتهم . قيل : نار وقعت من السماء فأحرقتهم . وقيل : صيحة جاءت من السماء . وقيل : أرسل الله جنودا سمعوا بحسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة . وموسى عليه السلام ، لم تكن صعقته موتا ولكن غشية ، بدليل قوله : فلما أفاق . والظاهر أنه أصابهم ماينظرون إليه لقوله ﴿وأنتم تنظرون﴾ . وقرأ علىّ رضى الله عنه فأخذتكم الصاعقة . ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة البعث بعد الموت ، أو نعمة الله بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله فى رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت . ﴿وظللنا﴾ وجعلنا الغمام يظلكم . وذلك فى التيه ، سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس ؛ وينزل بالليل عمود من نار يسيرون فى ضوئه ، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ، وينزل عليهم ﴿المنّ﴾ وهو الترنجبين مثل الثلج . من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لكل إنسان صاع ، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم ﴿السلوى﴾ وهى السمانى فيذبح الرجل منها مايكفيه ﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿وماظلمونا﴾ يعنى فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا ، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة (وماظلمونا) عليه .

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

﴿القرية﴾ بيت المقدس . وقيل أريحاء من قرى الشأم ، أمروا بدخولها بعد التيه ﴿الباب﴾ باب القرية . وقيل هو باب القبة التى كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه الصلاة والسلام . أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً . وقيل ، السجود ، أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ، ليكون دخولهم بخشوع وإخبات . وقيل : طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤسهم فلم يخفضوها ، ودخلوا متزحفين على أوراكهم ﴿حطة﴾ فعلة من الحط كالجلسة والركبة ، وهى خبر مبتدأ محذوف ، أى مسألتنا حطة ، وأمرك حطة . والأصل : النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة . وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات ، كقوله :

* صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلَانَا مُبْتَلَى * [1]

والأصل صبراً ، على : اصبر صبراً . وقرأ ابن أبى عبلة بالنصب على الأصل . وقيل معناه : أمرنا حطة ، أى أن نحط فى هذه القرية ونستقر فيها . فإن قلت : هل يجوز أن تنصب حطة فى قراءة من نصبها بقولوا ، على معنى : قولوا هذه الكلمة ؟ قلت : لايبعد . والأجود أن تنصب بإضمار فعلها ، وينتصب محل ذلك المضمر بقولوا . وقرئ ﴿ يُغفر لكم ﴾ على البناء للمفعول بالياء والتاء ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ أى من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً فى زيادة ثوابه ، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة ﴿ فبدّل الذين ظلموا ﴾ أى وضعوا مكان حطة ﴿ قولا ﴾ غيرها . يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار ، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله . وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاؤا بلفظ آخر . لأنهم لو جاؤا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به ، لم يؤاخذوا به . كما لو قالوا مكان حطة : نستغفرك ونتوب إليك . أو اللهم اعف عنا وما أشبه ذلك . وقيل : قالوا مكان حطة : حنطة . وقيل : قالوا بالنبطية : «حطا سمقاثا» أى حنطه حمراء ، استهزاء منهم بما قيل لهم ، وعدولا عن طلب ماعند الله إلى طلب مايشتهون من أغراض الدنيا . وفى تكرير ﴿ الذين ظلموا ﴾ زيادة فى تقبيح أمرهم [2] وإيذان بأنّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم . وقد جاء فى سورة الأعراف : (فأرسلنا عليهم) على الإضمار . والرجز : العذاب . وقرئ ـ بضم الراء ـ وروى أنه مات منهم فى ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً . وقيل : سبعون ألفاً .

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

---

(١) شكى إلى جملى طول السرى صبراً جميلا فكلانا مبتلى

يقول : اشتكى بعيرى إلى تعبه من طول سير الليل . وصبراً : مصدر قام مقام فعله ، أى اصبر يابعير صبراً جميلا ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . أو التقدير : فقلت له اصبر صبراً ، فكل منا مصاب بالبلاء . أو مختبر وممتحن هل يصبر على مشاق السفر أم لا . ويروى : صبر جميل ، أى أحق بنا على حذف الخبر . أو أمرنا صبر ، فيكون من المواضع التى يجب فيها حذف المبتدأ لنيابة الخبر عن الفعل . والصبر الجميل : هو مالا شكوى فيه إلى الخلق .

(٢) قال محمود رحمه الله : «وفى تكرير (الذين ظلموا) زيادة فى تقبيح ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمر ، وهو مفيد لذلك ، إذ هو من قبيل الاشهار لهذا المعين مع إمكان الاختصار بالاضمار .

عطشوا فى التيه ، فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له ﴿ اضرب بعصاك الحجر ﴾ واللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم ، فقد روى أنه حجر طورى حمله معه ، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين ، لكل سبط عين تسيل فى جدول إلى السبط الذى أمر أن يسقيهم ، وكانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا . وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه ، حتى وقع إلى شعيب ، فدفعه إليه مع العصا . وقيل هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ، ففرّ به ، فقال له جبريل : يقول لك الله تعالى : ارفع هذا الحجر ، فإنّ لى فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله فى مخلاته . وإمّا للجنس ، أى اضرب الشيء الذى يقال له الحجر . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر فى الحجة وأبين فى القدرة . وروى أنهم قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة ، فحمل حجراً فى مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه . وقيل كان يضربه بعصاه فينفجر ، ويضربه بها فييبس . فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى إليه : لاتقرع الحجارة ، وكلمها تطعك ، لعلهم يعتبرون . وقيل : كان من رخام وكان ذراعا فى ذراع . وقيل مثل رأس الإنسان . وقيل : كان من آس الجنة [1] طوله عشرة أذرع على طول موسى ، وله شعبتان تتقدان فى الظلمة ، وكان يحمل على حمار ﴿ فانفجرت ﴾ الفاء متعلقة بمحذوف ، أى فضرب فانفجرت . أو فإن ضربت فقد انفجرت ، كما ذكرنا فى قوله (فتاب عليكم) وهى على هذا فاء فصيحة لاتقع إلا فى كلام بليغ . وقرئ (عشرة) بكسر الشين وبفتحها وهما لغتان ﴿ كل أناس ﴾ كل سبط ﴿ مشربهم ﴾ عينهم التى يشربون منها ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول ﴿ من رزق الله ﴾ مما رزقكم من الطعام وهو المنّ والسلوى ومن ماء العيون . وقيل الماء ينبت منه الزروع والثمار ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب . والعثىّ : أشدّ الفساد ، فقيل لهم : لا تمادوا فى الفساد فى حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ

---

(١) قوله « من آس الجنة » : ضبط فى بعض النسخ بالضم والتشديد وكتب على هامشه : « كذا بخط جار الله ومعناه الأساس ، والصواب ضبطه بالفتح والمد والتخفيف أى شجر الآس لأنه صفة العصا سها فيها المصنف كذا بهامشه» اه عليان . والظاهر أن ضبطه بالضم والتشديد بمعنى الأساس أليق لأن الكلام فى وصف الحجر لا العصا . اه مصححه .

بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه [١] من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء ﴿ على طعام واحد ﴾ أرادوا ما رزقوا فى التيه من المنّ والسلوى . فإن قلت : هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد ؟ قلت : أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدّة يداوم عليها كل يوم لا يبدّلها ، قيل : لا يأكل فلان إلا طعاما واحدا يراد بالوحدة نفى التبدّل والاختلاف . ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد ، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والترف ، ونحن قوم فلاحة أهل زراعات ، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك . ومعنى ﴿ يخرج لنا ﴾ يظهر لنا ويوجد والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر . والمراد به أطايب البقول التى يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها . وقرئ (وقثائها) بالضم . والفوم : الحنطة . ومنه فوّموا لنا ، أى : اخبزوا . وقيل الثوم . ويدل عليه قراءة ابن مسعود : وثومها ، وهو للعدس والبصل أوفق ﴿ الذى هو أدنى ﴾ الذى هو أقرب منزلة وأدون مقداراً . والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال : هو دانى المحل وقريب المنزلة ، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك فيقال : هو بعيد المحل وبعيد الهمة يريدون الرفعة والعلو . وقرأ زهير الفرقبى : أدنأ بالهمزة من الدناءة ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ وقرئ اهبطوا ، بالضم : أى انحدروا إليه من التيه . يقال : هبط الوادى إذا نزل به ، وهبط منه ، إذا خرج . وبلاد التيه : ما بين بيت المقدس إلى قنسرين ، وهى اثنا عشر فرسخا فى ثمانية فراسخ . ويحتمل أن يريد العلم وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث ، لسكون وسطه كقوله : ونوحا ولوطا . وفيهما العجمة والتعريف ، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد ، وأن يريد مصراً من الأمصار . وفى مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش : اهبطوا مصر ـ بغير تنوين ـ كقوله : ادخلوا مصر . وقيل هو «مصرائيم» فعرّب ﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم فيها كما يكون فى القبة من ضربت عليه . أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب ، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ،

(١) قوله «فأجموا ما كانوا فيه» أى كرهوا . أفاده الصحاح . (ع)

فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة [١] إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم، خيفة أن تضاعف عليهم الجزية ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، أى صاروا أحقاء بغضبه ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والخلاقة بالغضب، أى ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وقد قتلت اليهود ـ لعنوا ـ شعيا وزكريا ويحيى وغيرهم: فان قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا. وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم. وقرأ علىّ رضى الله عنه ويقتلون بالتشديد ﴿ذلك﴾ تكرار للإشارة ﴿ بما عصوا ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصى واعتدائهم حدود الله فى كل شىء، مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم فى السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم، لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

إن الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون ﴿والذين هادوا﴾ والذين تهوّدوا. يقال: هاد يهود. وتهوّد إذا دخل فى اليهودية، وهو هائد. والجمع هود. ﴿والنصارى﴾ وهو جمع نصران. يقال: رجل نصران، وامرأة نصرانة، قال: نصرانة لم تحنف. والياء فى نصرانىّ للمبالغة كالتى فى أحمرىّ. سموا لأنهم نصروا المسيح. ﴿والصابئين﴾ وهو من صبأ إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿من آمن﴾ من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصا ودخل فى ملة الإسلام دخولا أصيلا ﴿وعمل صالحا فلهم أجرهم﴾ الذى يستوجبونه بإيمانهم وعملهم. فإن قلت: ما محل من آمن؟ قلت: الرفع إن جعلته مبتدأ خبره (فلهم أجرهم) والنصب إن جعلته بدلا من اسم إنّ والمعطوف عليه. فخبر إنّ فى الوجه الأول الجملة كما هى وفى الثانى فلهم أجرهم. والفاء لتضمن «من» معنى الشرط.

(١) قوله «وأهل مسكنة ومدقعة» أى متربة. أفاده الصحاح. (ع)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

﴿وإذا أخذنا ميثاقكم﴾ بالعمل على ما فى التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا مافيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعه وظلله فوقهم وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقى عليكم، حتى قبلوا. ﴿خذوا﴾ على إرادة القول ﴿ما آتينا كم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ واحفظوا ما فى الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا. ﴿ثم توليتم﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم. وقرئ: خذوا ما آتيتكم، وتذكروا، واذّكروا[1] و ﴿السبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت. وإن ناساً منهم اعتدوا فيه أى جاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله ابتلاهم فما كان يبقى حوت فى البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرقت. كما قال: (تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم) فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد. فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم: ﴿قردة خاسئين﴾ خبران أى كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرد ﴿فجعلناها﴾ يعنى المسخة ﴿نكالا﴾ عبرة تنكل من اعتبر بها أى تمنعه. ومنه النكل: القيد ﴿لما بين يديها﴾ لما قبلها ﴿وما خلفها﴾ وما بعدها من الأمم والقرون[2] لأن مسختهم ذكرت فى كتب الأولين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين: أو أريد

(١) قوله «وتذكروا واذكروا» أى بتشديد الذال والكاف، وأصله: وتذكروا. (ع)

(٢) قوله «وما بعدها من الأمم والقرون» لعله: والقرى، نظير قوله الآتى: من القرى والأمم. (ع)

بما بين يديها : ما بحضرتها من القرى والأمم . وقيل نكالا : عقوبة منكلة لما بين يديها . لأجل ما تقدمها من ذنوبهم وما تأخر منها (وموعظة للمتقين) للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم ، أو لكل متق سمعها .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه ، وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله ﴿قالوا أتتخذنا هزواً﴾ أتجعلنا مكان هزو ، أو أهل هزو ، أو مهزوا بنا ، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء ﴿من الجاهلين﴾ لأن الهزو فى مثل هذا من باب الجهل والسفه . وقرئ « هزؤا » بضمتين . « وهزءاً » بسكون الزاى ، نحو كفؤا وكفؤا . وقرأ حفص « هزوا » بالضمتين والواو وكذلك « كفوا » . والعياذ واللياذ من واد واحد .

فى قراءة عبد الله : سل لنا ربك ما هى؟ سؤال عن حالها وصفتها . وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر . والفارض : المسنة ، وقد فرضت فروضا فهى فارض . قال خفاف بن ندبة :

لَعَمْرِى لَقَدْ أَعْطَيْتُ ضَيْفَكَ فَارِضًا تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ [١]

وكأنها سميت فارضا لأنها فرضت سنها أى قطعتها و بلغت آخرها . والبكر : الفتية . والعوان النصف . قال :

* نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُونِ [٢] *

وقد عوّنت [٣] . فإن قلت : ﴿ بين ﴾ يقتضى شيئين فصاعدا [٤] فمن أين جاز دخوله على ﴿ ذلك ﴾ : قلت لأنه فى معنى شيئين حيث وقع مشارا به إلى ما ذكر من الفارض والبكر . فإن قلت : كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين ، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر ؟ قلت : جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدّم ، للاختصار فى الكلام ، كما جعلوا « فعل » نائبا عن أفعال جمة تذكر قبله : تقول للرجل : نعم ما فعلت ، وقد ذكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة ، كما تقول له : ما أحسن ذلك . وقد يجرى الضمير مجرى اسم الإشارة فى هذا . قال أبو عبيدة قلت لرؤبة فى قوله :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ فِى الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ [٥]

(١) لخفاف بن ندبة يهجو العباس بن مرداس بالبخل . والفارض : الناقة المسنة تساق إليه ، أى لا تركب ، بل تحتاج إلى من يضربها ويسوقها من خلفها . لا تقوم على رجل : أى لا رجل لها قوية تعتمد عليها فى قيامها .

(٢) ظعائن كنت أعهدهن قدما وهن لدى الاقامة غير جون
حصان مواضع النقب الأعالى نواعم بين أبكار وعون

للطرماح . والظعائن النساء فى الهوادج . والضعائن ـ بالضاد ـ : المطايا . والضغائن ـ بالغين ـ : جمع ضغينة ، وهى الحقد والميل والاعوجاج . وضغنته : إذا أخذته فى حضنك . وفرس ضاغن : لا يعطى ما عنده من الجرى . وناقة ذات ضغن : أى حنين إلى وطنها . وامرأة ذات ضغن تحب غير زوجها . والجون ـ بالضم جمع جوناء أى سوداء . والحصان ـ بالفتح ـ : المحصنة . والنقب : جمع نقاب ، ككتب وكتاب . والعون أصله بضم الواو جمع عوان ، وهى النصف ـ بفتحتين ـ أى الوسط من النساء والبهائم ، فسكن تخفيفاً . يقول : تلك النساء ظعائن أى مسافرات غير لونهن السفر ، وكنت أعهدهن فى قديم الزمان حين الاقامة غير سود وهن محصنات الوجوه ، وإذا حفظت حفظن كلهن عادة . والأعالى : صفة للنقب أو المواضع ، وهذا لا يكون إلا فى النساء كما ترى . وروى بعضهم « ضغائن » بدل « ظعائن » ولعله تحريف . وهن ناعمات ، دائرات بين أبكار صغيرات وعون أواسط .

(٣) قوله « وقد عونت » فى الصحاح : وتقول منه عونت المرأة تعوينا ، وعانت تعون عونا . (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : « فان قلت بين يقتضى شيئين . . . الخ » قال أحمد رحمه الله : وقد مر نظير هذا عند قوله (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) فجدد به عهدا .

(٥) لرؤبة بن العجاج يصف بقرة وحشية ، وقيل فرساً ، وقيل خيلا فيها لون السواد ولون البلق ـ أى البياض ـ ويروى : من بياض وبلق ؛ فلعل البياض بياض يرهقه قترة ، كأنه : أى ذلك المذكور أو المجتمع منهما ، توليع

إن أردت الخطوط فقل : كأنها . وإن أردت السواد والبلق فقل : كأنهما . فقال : أردت كأن ذاك ، ويلك ! والذى حسن منه أنّ أسماء الإشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة وكذلك الموصولات . ولذلك جاء الذى بمعنى الجمع ﴿ ماتؤمرون ﴾ أى ماتؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله أمرتك الخير أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول به بالمصدر ، كضرب الأمير .

الفقوع أشد مايكون من الصفرة وأنصعه . يقال فى التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال أسود حالك وحانك ، وأبيض يقق ولهق . وأحمر قانى وذريحى . وأخضر ناضر ومدهام . وأورق خطبانىّ وأرمك ردانىّ . فإن قلت : فاقع ههنا واقع خبرا عن اللون ، فلم يقع توكيداً لصفراء قلت : لم يقع خبرا عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء ، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون من سببها وملتبس بها ، فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها . فإن قلت : فهلا قيل صفراء فاقعة ؟ وأى فائدة فى ذكر اللون ؟ قلت : الفائدة فيه التوكيد ، لأنّ اللون اسم للهيئة وهى الصفرة ، فكأنه قيل : شديدة الصفرة صفرتها ، فهو من قولك : جدّ جدّه ، وجنونك مجنون . وعن وهب : إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه . وعن على رضى الله عنه : « من لبس نعلا صفراء قل همه [1] لقوله تعالى تسرّ الناظرين » وعن الحسن البصرى ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾ سوداء شديدة السواد . ولعله مستعار من صفة الإبل ؛ لأن سوادها تعلوه صفرة . وبه فسر قوله تعالى (جمالات صفر) . قال الأعشى :

تِلْكَ خَيْـــلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ [2]

ـــ البهق فى الجلد . أو كأنه حال كونه فى الجلد توليع البهق ، أى تخطيطه من البياض المشوب بكدرة الناشىء من البهق ، وهو داء يتغير منه لون الجلد . روى أن أبا عبيدة قال له : إن أردت الخطوط فقل : كأنها . وإن أردت السواد والبلق فقل : كأنهما . فقال أردت كأن ذاك ، فقد أجرى الضمير مجرى اسم الاشارة فى صحة الاشارة بالمفرد منه إلى المتعدد بتأويله بالمذكور ونحوه .

(١) موقوف لم أجده : لكن أخرجه العقيلى والطبرانى والخطيب من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . قال «من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور مادام لابسها» وقال إبن أبى حاتم : سألت أبى عنه : فقال : كذب . موضوع .

(٢) إن قيساقيس الفعال أبا الأشـــعث أمست أصداؤه لشعوب
كل عام يمـــدنى بجموم ... عند وضع للضأن أو بنجيب
تلك خيلى منه وتلك ركابى ... هن صفر أولادها كالزبيب

للأعشى فى أبى الأشعث بن قيس . والفعال ـ بالفتح ـ : فعل الخير . والأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر البوم . كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة وتصيح : أدركونى ، حتى يؤخذ بثأره ، وشعوب : اسم للمنية ، ـــ

﴿ماهى﴾ مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بيانا لوصفها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم،[1] ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم» والاستقصاء شؤم. وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم، فكتب إليه: بأيهما أبدأ؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتنى: بأى نوع منها أبدأ؟ وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطى فلانا شاة سألتنى: أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعنى. وفى الحديث «أعظم الناس جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسئلته»[2] ﴿إنّ البقر تشابه علينا﴾ أى إنّ البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح. وقرئ: تشابه، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها فى الشين. وتشابهت ومتشابهة ومتشابه. وقرأ محمد ذو الشامة: إن الباقر يشابه، بالياء والتشديد. جاء فى الحديث «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»[3] أى: لو لم يقولوا إن شاء الله. والمعنى: إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ماخفى علينا من أمر القاتل ﴿لاذلول﴾ صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول، يعنى لم تذلل للكراب[4] وإثارة الأرض، ولا هى من النواضح التى يسنى عليها لسقى الحروث، و«لا» الأولى للنفى، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسق. على أنّ الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لاذلول مثيرة وساقية. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى: لاذلول، بمعنى لاذلول هناك: أى حيث هى، وهو نفى لذلها؛ ولأن توصف به فيقال: هى ذلول. ونحوه قولك: مررت بقوم لا بخيل ولاجبان. أى فيهم، أو حيث هم.

ـــــــــــــــ

= ويمكن أنه جمع شعب بمعنى طريق، أى أمست متفرقة فى الطرق. وذلك كناية عن قتله. والجمع للتعظيم، أو اعتبارى. والجوم: جمع جم بتثليث أوله بمعنى الكثير. والنجيب: الكريم من الخيل والابل. والركاب: المطايا. من أى الركاب، صفر: جمع أصفر أو صفراء، أولادها يغلب عليها السواد كالزبيب. والمراد بالصفرة سواد ترهقه صفرة، لأن هذا أعز ألوان الابل عندهم.

(١) ابن مردويه والبزار وابن أبى حاتم كلهم من طريق الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة مرفوعا وفى سنده عباد بن منصور، وفيه ضعف والطبرى من كلام ابن عباس موقوفا. ومن كلام أبى العالية، دون قوله «والاستقصاء شؤم» فليس هو فى المرفوع ولا الموقوف قلت قوله «والاستقصاء شؤم» من كلام الزمخشرى

(٢) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

(٣) قلت: أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعا. وهو معضل.

(٤) قوله «لم تذلل للكراب» فى الصحاح: كربت الأرض إذا قلبتها للحرث. وفى المثل: الكراب على البقر، ويقال: الكلاب على البقر. (ع)

وقرئ تسقى بضم التاء من أسقى ﴿ مسلمة ﴾ سلمها الله من العيوب أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه كقوله :

أَوْ مُعْبَرَ الظَّهْرِ يُنْبِي عَنْ وَلِيَّتِهِ ... مَا حَجَّ رَبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا اعْتَمَرَا [١]

أو مخلصة اللون ، من سلم له كذا إذا خلص له ، لم يشب صفرتها شيء من الألوان ﴿ لاشية فيها ﴾ لا لمعة فى نقبتها [٢] من لون آخر سوى الصفرة ، فهى صفراء كلها حتى قرنها وظلفها . وهي فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لونا آخر ، ومنه ثور موشى القوائم ﴿ جئت بالحق ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة ، وما بقى إشكال فى أمرها ﴿ فذبحوها ﴾ أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها . وقوله ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ، ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهى سؤالاتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم . وقيل : وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها . وقيل : لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل . وروى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة [٣] وقال : اللهم إنى أستودعكها لابنى حتى يكبر ، وكان براً بوالديه ، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه ، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير

---

(١) أنشده سيبويه . ويقال : أعبرت الشاة فهي معبرة ، ، إذا كثر صوفها لتركها سنة من غير جز ، فالظهر المعبر : المتروك من الجز فيكثر وبره ، أو لأنه لا وبر عليه فيجز . ولعل المراد هنا المتروك من الحمل عليه . وقيل : المتجرد الشعر . ونبا عنه ينبو : انحرف . وأنبيته : حرفته وأبعدته ، فما هنا معناه يمنع غيره عن ركوب وليته . وظاهر كلام بعضهم أنه يقال : نبي ينبي ، كرمى يرمى ، إذا انحرف . وأن ما هنا منه ، أى ينفر عن وليته : أى برذعته ، لأنها تلى الجلد . وربه باختلاس الحركة للوزن ، بمعنى صاحبه . والمعنى : أنه بعير متروك من العمل فهو مصعب ينفر من الراكب ، لأنه لم يسافر أصلا حتى أن صاحبه لاحج ولا اعتمر : وظاهر كلام بعضهم أن « ربه » هي رب التى هى حرف جر ، فتكون جارة للضمير بلا تمييز لتقدم مرجعه ، ودالة على تحقيق النفى مجازاً عن معنى التكثير وهي اعتراض بين المتعاطفين . وإسناد الفعلين لضمير البعير مجاز عقلى ، لأنه من آلات الحج والاعتمار . وقائل ذلك فسره بأنه متجرد الظهر ينفر من برذعته لدبره من كثرة الأسفار . ما سافر لحج ولا اعتمار ، وإنما يسافر إلى الأعداء . ولو جعل معناه كما تقدم لجاز . فالمعنى أنه مصعب لم يركب ولم يسافر أصلا ، حتى أنه لم يسافر لحج ولا عمرة وهو ظاهر .

(٢) قوله « لا لمعة فى نقبتها » فى الصحاح : النقبة اللون والوجه . (ع)

(٣) قوله « فأتى بها الغيضة » فى الصحاح : الغيضة الأجمة ، وهى مغيض ماء يجتمع فيه فينبت فيه الشجر . (ع)

وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة . فإن قلت : كانت البقرة التى تناولها الأمر بقرة من شق البقر غير مخصوصة ، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات ، فذبحوا المخصوصة ، فما فعل الأمر الأول ؟ قلت : رجع منسوخا لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة ، والنسخ قبل الفعل جائز . على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولا لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها . ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالا له ، فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿فادارأتم﴾ فاختلفتم واختصمتم فى شأنها ، لأنّ المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً ، أى يدفعه ويزحمه . أو تدافعتم ، بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض ، فدفع المطروح عليه الطارح . أو لأنّ الطرح فى نفسه دفع . أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً . فإن قلت : كيف أعمل مخرج وهو فى معنى المضىّ ؟ قلت : وقد حكى ما كان [1] مستقبلا فى وقت التدارؤ . كما حكى الحاضر فى قوله : (باسط ذراعيه) وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما (ادارأتم) و(فقلنا) والضمير فى ﴿اضربوه﴾ إمّا أن يرجع إلى النفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان ، وإمّا إلى القتيل لما دل عليه من قوله (ما كنتم تكتمون) . ﴿ببعضها﴾ ببعض البقرة . واختلف فى البعض الذى ضرب به ، فقيل : لسانها ، وقيل : فخذها اليمنى ، وقيل : عجبها ، وقيل : العظم الذى يلى الغضروف وهو أصل الأذن ، وقيل : الأذن ، وقيل : البضعة بين الكتفين . والمعنى : فضربوه فحيى ، فحذف ذلك لدلالة قوله : (كذلك يحيى الله الموتى) . وروى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً وقال : قتلنى فلان وفلان لابنى عمه ، ثم سقط ميتاً ، فأخذا وقتلا ولم يورّث قاتل بعد ذلك . ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ إما أن يكون خطابا للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم : كذلك يحيى الله الموتى يوم القيامة ﴿ويريكم آياته﴾ ودلائله على أنه قادر على كل شىء ﴿لعلكم تعقلون﴾ تعملون على قضية عقولكم . وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث . وإما أن يكون خطابا للمنكرين فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : هلا أحياه ابتداء ؟ ولم شرط فى إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها ؟ قلت : فى الأسباب والشروط

(١) قوله « قلت وقد حكى ما كان » لعله « قد » بدون واو . (ع)

حكم وفوائد . وإنما شرط ذلك لما فى ذبح البقرة من التقرب وأداء التكاليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب ، وما فى التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ، ولآخرين فى ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور ، من غير تفتيش وتكثير سؤال ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البرّ بالوالدين ، والشفقة على الأولاد ، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء ، وبيان أنّ من حق المتقرب إلى ربه أن يتنوق [1] فى اختيار ما يتقرب به ، وأن يختاره فتىّ السنّ غير قحم ولا ضرع ، حسن اللون بريا من العيوب يونق من ينظر إليه ، وأن يغالى بثمنه ، كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة [2] بثلاثمائة دينار ، وأنّ الزيادة فى الخطاب نسخ له ، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البداء ، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ، لأن الموتين الحاصلين فى الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة . فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟ قلت : كلما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعا لهم عليها ، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض فى تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى ، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله : (اضربوه ببعضها) حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها ، وأنهما قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة .

---

(١) قوله «أن يتنوق» فى الصحاح : تنوق فى الأمر ، أى تأنق فيه . ويفيد أيضاً أن «القحم» المسن الفانى ، و«الضرع» بالتحريك الضعيف النحيف . و«الأنق» الفرح والسرور . (ع)

(٢) أخرجه أبو داود من رواية الجهم بن الجارود عن سالم عن أبيه . قال : «أهدى عمر رضى الله عنه نجيبة فأعطى بها ثلاثمائة دينار . فقال يا رسول الله أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا ؟ قال : لا ، انحرها إياها» .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

معنى ﴿ ثم قست ﴾ استبعاد القسوة من بعد ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها ونحوه : (ثم أنتم تمترون) وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوّها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها . و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى إحياء القتيل ، أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة ﴿فهى كالحجارة﴾ فهى فى قسوتها مثل الحجارة ﴿أو أشدّ قسوة﴾ منها . وأشد معطوف على الكاف ، إما على معنى أو مثل أشد قسوة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة . وإما على : أو هى أنفسها أشدّ قسوة . والمعنى : أن من عرف حالها شبهها بالحجارة ، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلا . أو من عرفها شبهها بالحجارة ، أو قال : هى أقسى من الحجارة . فإن قلت : لم قيل : أشد قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب [1] ؟ قلت : لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة . ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة ، كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشدّ قسوة . وقرئ : قساوة . وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس ، كقولك : زيد كريم وعمرو أكرم . وقوله ﴿ وإنّ من الحجارة ﴾ بيان لفضل قلوبهم على الحجارة فى شدّة القسوة ، وتقرير لقوله (أو أشدّ قسوة) . وقرئ «وإن» بالتخفيف ، وهى «إن» المخففة من الثقيلة التى تلزمها اللام الفارقة . ومنها قوله تعالى : (وإن كل لما جميع) . والتفجر : التفتح بالسعة والكثرة . وقرأ مالك بن دينار (ينفجر) بالنون . ﴿ يشقق ﴾ يتشقق . وبه قرأ الأعمش . والمعنى إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير ، ومنها ما ينشق انشقاقا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضا ﴿يهبط﴾ يتردّى من أعلى الجبل . وقرئ بضم الباء . والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى ، وأنها

---

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : لم قيل : أشد قسوة ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : ولأن سياق هذه الأقاصيص قصد فيه الاسهاب لزيادة التقريع ، حتى جعلت القصة الواحدة قصتين كما مر الآن . ولا شك أن قوله (أو أشد قسوة) أدخل فى الاسهاب من قول القائل : أو أقسى .

لاتمتنع على ما يريد فيها ، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ماأمرت به . وقرئ (يعملون) بالياء والتاء ، وهو وعيد .

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ أفتطمعون ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ أن يؤمنوا لكم ﴾ أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم ، كقوله (فآمن له لوط) يعنى اليهود ، ﴿ وقد كان فريق ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ وهو ما يتلونه من التوراة ﴿ ثم يحرّفونه ﴾ كما حرّفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الرجم ، وقيل كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى ، ثم قالوا : سمعنا الله يقول فى آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس . وقرئ : كلم الله ، ﴿ من بعد ماعقلوه ﴾ من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة فى صحته ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون مفترون . والمعنى : إن كفر هؤلاء وحرّفوا فلهم سابقة فى ذلك . ﴿ وإذا لقوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ قالوا ﴾ قال منافقوهم [1] ﴿ آمنا ﴾ بأنكم على الحق ، وأنّ محمدا هو الرسول المبشر به ﴿ وإذا خلا بعضهم ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿ إلى بعض ﴾ الذين نافقوا ﴿ قالوا ﴾ عاتبين عليهم ﴿ أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ بما بين لكم فى التوراة من صفة محمد . أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلب فى دينهم : أتحدّثونهم ، إنكارا عليهم أن يفتحوا عليهم شيئا فى كتابهم فينافقون المؤمنين وينافقون اليهود ﴿ ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم فى

---

(١) قال محمود رحمه الله : «قال منافقوهم ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وصح عود الضمير فى اللفظ إلى جهة واحدة مع اختلاف المرجوع إليه ، لأنهما صنفان مندرجان فى الأول . ونظيره قوله تعالى : (إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) فالضمير الأول للأزواج ، والثانى للأولياء وهو راجع إلى جهة واحدة وهى جهة المخاطبين لاشتمالهم على الصنفين جميعا ، والله أعلم .

كتابه، جعلوا محاجتهم به، وقولهم هو فى كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول: هو فى كتاب الله هكذا. وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد ﴿ يعلم ﴾ جميع ﴿ مايسرون وما يعلنون ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

﴿ ومنهم أميون ﴾ لايحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها ﴿ لايعلمون الكتاب ﴾ التوراة ﴿ إلا أمانىّ ﴾ إلا ماهم عليه من أمانيهم، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولايؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيهم أحبارهم من أنّ النار لاتمسهم إلا أياما معدودة. وقيل: إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد. قال أعرابى لابن دأب فى شىء حدث به: أهذا شىء رويته، أم تمنيته، أم اختلقته[1] وقيل: إلا مايقرؤن من قوله:

* تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ [2] *

والاشتقاق من منى إذا قدّر، لأن المتمنى يقدّر فى نفسه ويحزر ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. وإلا أمانىّ: من الاستثناء المنقطع. وقرئ: أمانى، بالتخفيف. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان، ثم العوامّ الذين قلدوهم، ونبه على أنهم فى الضلال سواء، لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العامى أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم. ﴿ يكتبون الكتاب ﴾ المحرف ﴿ بأيديهم ﴾ [3] تأكيد، وهو

---

(١) قوله «أم تمنيته أم اختلقته» لعله أى أم الخ (ع)

(٢) تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

لحسان بن ثابت فى مرثية عثمان بن عفان رضى الله عنهما. يقول: تمنى كتاب الله، أى تلاه وتابع فى تلاوته كتمنى داود عليه السلام الزبور: أى كتلاوته الزبور على رسل بالكسر: أى تؤدة وسكينة. وروى بدل الشطر الثانى

* وآخرها لاقى حمام المقادر * والحمام: الموت، لأنه مقدر، من حم الله الشىء: قدره.

(٣) قال محمود: «إن قلت: مافائدة قوله بأيديهم ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله: وربما قال الزمخشرى فى مثل هذا: إن فائدته تصوير الحالة فى النفس كما وقعت، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة.

من مجاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه : يا هذا كتبته بيمينك هذه. ﴿مما يكسبون﴾ من الرشا .

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ إلا أياما معدودة ﴾ أربعين يوما عدد أيام عبادة العجل . وعن مجاهد : كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوما . ﴿ فلن يخلف الله ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده . و ﴿أم﴾ إمّا أن تكون معادلة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير ، لأن العلم واقع بكون أحدهما . ويجوز أن تكون منقطعة ﴿ بلى ﴾ إثبات لما بعد حرف النفى وهو قوله (لن تمسنا النار) أى بلى تمسكم أبدا ، بدليل قوله (هم فيها خالدون) . ﴿ من كسب سيئة ﴾ من السيئات ، يعنى كبيرة من الكبائر [١] ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ تلك واستولت عليه ، كما يحيط العدو ولم يتفص عنها [٢] بالتوبة . وقرئ : خطاياه ، وخطيئاته . وقيل فى الإحاطة : كان ذنبه أغلب من طاعته . وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال : سبحان الله : ألا أراك ذا لحية وما تدرى ما الخطيئة ، انظر فى المصحف فكل آية نهى فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهى الخطيئة المحيطة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

---

(١) قوله « يعنى كبيرة من الكبائر » فسرها بذلك لتنطبق الآية على مذهب المعتزلة ، وهو أن فاعل الكبيرة مخلد فى النار ، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد فيها إلا الكافر . وفسروا الخطيئة بالشرك . وفى الخازن قال ابن عباس : هى الشرك يموت عليه صاحبه اه وهو الذى يحيط بفاعله ويسد أبواب النجاة أمامه فى كل جهة . (ع)

(٢) قوله « ولم يتفص عنها » أى يتخلص . (ع)

﴿ لا تعبدون ﴾ إخبار فى معنى النهى [١] ، كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء ، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبدالله وأبىّ (لا تعبدوا) ولا بدّ من إرادة القول ، ويدل عليه أيضا قوله (وقولوا) . وقوله ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ إما أن يقدر : وتحسنون بالوالدين إحسانا . أو وأحسنوا . وقيل : هو جواب قوله (أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) [٢] إجراء له مجرى القسم ، كأنه قيل : وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون . وقيل : معناه أن لا تعبدوا ، فلما حذفت « أن » رفع ، كقوله :

* أَلاَ أَيُّهَـذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الْوَغَى * [٣]

ويدل عليه قراءة عبدالله (أن لا تعبدوا) ويحتمل (أن لا تعبدوا) أن تكون « إن » فيه مفسرة . وأن تكون أن مع الفعل بدلا عن الميثاق ، كأنه قيل : أخذنا ميثاق بنى إسرائيل توحيدهم وقرئ بالتاء حكاية لما خوطبوا به ، وبالياء لأنهم غيب . ﴿ حسنا ﴾ قولا هو حسن فى نفسه [٤] لإفراط حسنه . وقرئ حسنا . وحسنى ـ على المصدر ـ كبشرى . ﴿ ثم توليتم ﴾ على طريقة الالتفات أى توليتم عن الميثاق ورفضتموه . ﴿ إلا قليلا منكم ﴾ قيل : هم الذين أسلموا منهم ﴿ وأنتم معرضون ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق ، والتولية .

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : « لا تعبدون إخبار فى معنى النهى ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وجه الدليل منه أن الأول لو لم يكن فى معنى النهى لما حسن عطف الأمر عليه ، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر . ولا كذلك الأمر والنهى لالتقائهما فى معنى الطلب .

(٢) قال محمود رحمه الله : « وقيل هو جواب قوله (وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) . . . الخ » . قال أحمد رحمه الله : لو قدر القسم مضافا إلى المذكورين لكان أوجه ، فيقول (وإذ أقسمتم لا تعبدون إلا الله ... الخ)

(٣) ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

لطرفة بن العبد من معلقته . وألا أداة استفتاح . وحرف النداء محذوف . وأى منادى . واسم الاشارة نعت له . والزاجر نعت لاسم الاشارة مضاف لياء المتكلم إضافة الوصف لمفعوله . وروى بدله « اللائمى » : وروى « أحضر » منصوبا باضمار أن ، ومرفوعا على إهمالها وحسن حذفها ذكرها فيما بعد . يقول : يا أيها الزاجر لى عن حضور الحرب وشهود لذات النصر والظفر والغنيمة ، أو شهود لذات الشراب ومغازلة النساء المستدعين لاتلاف المال ، لست مخلداً لى لو طاوعتك . فالاستفهام إنكارى .

(٤) قال محمود : « أى قولا هو حسن فى نفسه . . . الخ » . قال أحمد : وفيه من التأكيد والتخصيص على إحسان مقاولة الناس ، أنه وضع المصدر فيه موضع الاسم . وهذا إنما يستعمل المبالغة فى تأكيد الوصف ، كرجل عدل ، وصوم وفطر . وقرئ حسنا فهو على هذا من الصفات المشبهة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

﴿لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم﴾ لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه. إذا اتصل به أصلا أو دينا. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه، لأنه يقتص منه ﴿ثم أقررتم﴾ بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه ﴿وأنتم تشهدون﴾ عليها كقولك: فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها. وقيل: وأنتم تشهدون اليوم يامعشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ استبعاد لما أسند اليهم [١] من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعنى أنكم قوم آخرون [٢] غير أولئك المقرين تنزيلا. لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذى خرجت به. وقوله ﴿تقتلون﴾ بيان لقوله ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ وقيل: هؤلاء موصول بمعنى الذى. [٣] وقرئ (تظاهرون) بحذف التاء وإدغامها، وتتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تتظهرون: أى تتعاونون عليهم. وقرئ: تفدوهم، وتفادوهم. وأسرى، وأسارى ﴿وهو﴾ ضمير الشأن. ويجوز أن يكون مبهما تفسيره ﴿إخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾

---

(١) قال محمود رحمه الله: أدخل ثم استبعاداً ... الخ؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا نظير ما تقدم آنفا فى قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم) الآية.

(٢) قال محمود رحمه الله: «والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء الشاهدون، يعنى أنكم قوم آخرون غير أولئك ... الخ». قال أحمد رحمه الله: هو بيان لتغير الصفة الموجب لتنزيلهم منزلة المغايرين لهم بالذات.

(٣) قوله «موصول بمعنى الذى» لعله الذين. (ع)

الكتاب ﴾ أى بالفداء ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ أى بالقتال والإجلاء. وذلك أنّ قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا خلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه. فعيرتهم العرب وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم، فيقولون: أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، ولكنا نستحيي أن نذل حلفاءنا. والخزى: قتل بنى قريظة وأسرهم وإجلاء بنى النضير. وقيل الجزية. وإنما ردّ من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب، لأن عصيانه أشدّ. وقرئ: يردّون، ويعملون - بالياء والتاء - ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم. وكذلك عذاب الآخرة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ الكتاب ﴾ التوراة، آتاه إياها جملة واحدة. ويقال: قفاه إذا أتبعه من القفا. نحو ذنبه، من الذنب. وقفاه به: أتبعه إياه، يعنى: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل، كقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. وقيل ﴿ عيسى ﴾ بالسريانية أيشوع. و﴿ مريم ﴾ بمعنى الخادم. وقيل: المريم بالعربية من النساء، كالزير من الرجال [1]. وبه فسر قول رؤبة:

* قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُهْ [2] *

---

(١) قوله «كالزير من الرجال» فى الصحاح: هو الذى يحب محادثة النساء ومجالستهن. (ع)

(٢) قلت لزير لم تصله مريمه ضليل أهواء الصبا تندمه

لرؤبة بن العجاج يعاتب أبا جعفر الدوانيقى على البطالة ومغازلة النساء. سمى بذلك لأنه زاد فى الخراج دوانق أيام خلافته، كذا فى الكشف. والزير من يكثر مودة النساء وزيارتهن. والمريم: من تكثر مودة الرجال وزيارتهم. =

ووزن «مريم» عند النحويين «مفعل» لأن فعيلا بفتح الفاء لم يثبت فى الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب[١] ﴿البينات﴾ المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرئ: وآيدناه. ومنه: آجده بالجيم[٢] إذا قواه. يقال: الحمد لله الذى آجدنى بعد ضعف، وأوجدنى بعد فقر. ﴿بروح القدس﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال (وروح منه) فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطوامث. وقيل بجبريل. وقيل بالإنجيل كما قال فى القرآن: (وروحا من أمرنا) وقيل باسم الله الأعظم الذى كان يحيي الموتى بذكره. والمعنى: ولقد آتينا يا بنى إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ منهم بالحق ﴿استكبرتم﴾ عن الإيمان به، فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يريد: ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم. ثم وبخهم على ذلك. ودخول الفاء لعطفه على المقدر. فإن قلت: هلا قيل وفريقا قتلتم؟[٣]. قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية،[٤] لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره فى النفوس وتصويره فى القلوب، وأن يراد: وفريقا تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنى أعصمه منكم. ولذلك سحرتموه وسممتم

= قال أبو عمرو: من رام بريم، ومعناه بقى أو ذهب. وريمت السحابة تريما: دامت. لدوامها على المودة، أو لخروجها من بيتها. والضليل كثير الضلال. والصبا: الميل إلى الجهل والفتوة. وتندمه: بمعنى ندمه، فهو مصدر مرفوع فاعل ضليل. ولعل معناه أن ندمه ضال ضائع فى أهواء الصبا. ويروى «مندمه» بصيغة اسم الفاعل. وضليل: مرفوع على الابتداء، ومندمه خبره. ولعل معناه أن الرجل كثير الضلال يعنى نفسه هو الذى يندمه ويجعله نادما، أى يأمره بالندم. وقال عبد الحكيم على البيضاوى نقلا عن الكشف: أى قلت له من كثر ضلاله يكون مندم نفسه وموقعها فى الندامة. واللام فى قوله لزير للتعليل؛ أى قلت ذلك القول لأجله، هذا توجيه ما قيل فيه. ولو جعلت ضليل صفة زير كالوجه الأول، وتندمه فعل أمر مقول القول، حرك بالضم لالتقائه ساكناً مع هاء السكت ولمناسبة القافية لجاز: أى قلت له تندم وتب، لكن فيه تكلف شاذ.

(١) قوله «عثير وعليب» العثير: الغبار. وعليب: اسم واد. (ع)

(٢) قوله «ومنه آجده بالجيم» وأصله ما يقال: ناقة أجد، أى قوية موثقة الخلق أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «إن قلت هلا قيل وفريقاً قتلتم ... الخ» قال أحمد رحمه الله: والتعبير بالمضارع يفيد ذلك دون الماضى، كقوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) فعبر بالماضى ثم قال: فتصبح الأرض مخضرة، فعدل عنه إلى المضارع إرادة لتصوير اخضرارها فى النفس. وعليه قوله ابن معديكرب يصور شجاعته وجرأته:

فإنى قد لقيت القرن أسعى بسهب كالصحيفة صحصحان
فآخذه فأضربه فيهوى صريعا لليدين وللجران

(٤) قوله «أن تراد الحال الماضية» لعله: أن تراد حكاية الحال. (ع)

له الشاة . وقال صلى الله عليه وسلم عند موته ، ما زالت أُكلة خيبر تعادّنى ، فهذا أوان قطعت أبهرى »[1] ﴿غلف﴾ جمع أغلف ، أى هى خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه ، مستعار من الأغلف الذى لم يختن ،

(١) أخرجه البزار وأبو نعيم فى الطب وابن عدى فى الكامل . من طريق سعيد بن محمد الوراق عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه . وسعيد ضعيف ، لكن رواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن عمر بسنده « أن امرأة يهودية أتت النبى صلى الله عليه وسلم بشاة مصلية ـ فذكر القصة ـ وفيها : أن هذه الشاة مسمومة ، وأن بشر بن البراء مات منها . فقتلها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وأخرج هذا القدر أبو داود من رواية خالد الطحان عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة مرسلا . ورواه الطبرى من حديث بريدة قال « خرجنا إلى خيبر ـ فذكر القصة . قال : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعنى بخيبر ـ أهدت زينب بنت الحارث إليه شاة ـ فذكر القصة فيه وقال : يا أم بشر ، ما زالت أكلة خيبر التى أكلت مع ابنك تعادنى . فهذا أوان قطعت أبهرى » قلت : من قوله « فلما اطمأن الخ » ليس هو فى حديث بريدة ، وإنما هو من كلام الطبرى . وهو فى مغازى ابن إسحاق بهذا اللفظ الأول . وفيه قال ابن إسحق : فحدثنى مروان بن عثمان عن أبى سعيد بن المعلى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأم بشر ـ وقد دخلت عليه : يا أم بشر إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهرى ـ الحديث » وكذا أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الدلائل من رواية أبى الأسود عن عروة مختصراً . وذكره الواقدى فى المغازى مطولا بغير سند . وذكره ابن سعد فى الطبقات عنه بأسانيد وفيه : ورفعها إلى ولاة بشر بن البراء فقتلوها . وروى أبو عبيدة والحربى فى غريبهما من حديث أبى جعفر الباقر نحو الأول مرسلا . قال الأصمعى : تعادنى من العداد . وهو الشيء الذى يأتى لوقت دون وقت وذكره البخارى تعليقا من رواية عيينة عن يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ووصله البزار والحاكم من هذا الوجه واتفق الشيخان على حديث أنس رضى الله عنه « أن امرأة يهودية أتت النبى صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة » فأكل منها الحديث وفيه : فقال : مازلت أعرفها فى لهوات النبى صلى الله عليه وسلم » وروى أحمد والحاكم من حديث الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن أم بشر قالت « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجعه الذى قبض فيه ، فقلت : ما يتهم نفسك ، فانى لا أتهم بابنى إلا الطعام الذى أكله معك بخيبر . قال : وأنا لا أتهم غيرها . فهذا أوان انقطع أبهرى » وأخرج البيهقى فى الدلائل هذه القصة عن الزهرى وفيها قال الزهرى : قال جابر : « واحتجم يومئذ على الكاهل وبقى ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى فيه . قال : ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عدادا حتى كان هذا أوان انقطاع الأبهر منى » وأخرج أبو داود من رواية الزهرى عن جابر كذلك . وروى الطبرانى والدارقطنى من رواية يحيى بن عبد الرحمن بن لبيبة عن أبيه عن جده لبيبة الأنصارى رضى الله عنه قال « أهدت يهودية إلى النبى صلى الله عليه وسلم شاة مصلية مسمومة . فأكل منها هو وبشر ابن البراء بن معرور ، فرضا مرضا شديداً ـ فذكر القصة . وفيها : ثم أمر بها فصلبت » وروى معمر عن الزهرى أنه قال : أسلمت . فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال معمر : هكذا قال . والناس يقولون : أنها لم تسلم وأنها قتلت . قال البيهقى : ثم السهيلى : يجمع بينهما بأنه صفح عنها فلم يقتلها ، لأنه كان لا ينتقم لنفسه . فلما مات بشر من تلك الأكلة قتلها به قصاصاً .

كقولهم : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة [١] كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم ، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التى تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾ فإيمانا قليلا يؤمنون . وما مزيدة ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب . ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم . وقيل « غلف » تخفيف « غلف » جمع غلاف ، أى قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره . وروى عن أبى عمرو : قلوبنا غلف ، بضمتين ﴿ كتاب من عند الله ﴾ هو القرآن ﴿ مصدق لما معهم ﴾ من كتابهم لا يخالفه . وقرئ : مصدقا ، على الحال . فإن قلت : كيف جاز نصبها عن النكرة ؟ قلت : إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه ، وقد وصف « كتاب » بقوله « من عند الله » وجواب لما محذوف وهو نحو: كذبوا به ، واستهانوا بمجيئه ، وما أشبه ذلك ﴿ يستفتحون على الذين كفروا ﴾ يستنصرون على المشركين ، إذا قاتلوهم قالوا : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته وصفته فى التوراة ، ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبىّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم : وقيل معنى (يستفتحون) يفتحون عليهم ويعرفونهم أنّ نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه . والسين للمبالغة ، أى يسألون أنفسهم الفتح عليهم ، كالسين فى استعجب واستسخر ، أو يسأل بعضهم بعضا أن يفتح عليهم ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا ﴾ من الحق ﴿ كفروا به ﴾ بغيا وحسداً وحرصا على الرياسة . ﴿ على الكافرين ﴾ أى عليهم وضعا للظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ

---

(١) قال محمود رحمه الله : « ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وهذا من بوائب الزمخشرى على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة ، وأنى له ذلك فى الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ألا تراه كيف أخذ من رد الله على هذه الطائفة أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر ، أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم ، تمهيداً لقاعدته الفاسدة فى خلق الأعمال . وسبيل الرد عليه : أن الله تعالى إنما كذبهم ورد عليهم فى ادعائهم عدم الاستطاعة للايمان وسلب التمكن وعللوا ذلك بأن قلوبهم غلف وصدق الله ورسوله فى أنه إنما خلقهم على الفطرة والتمكن من الايمان والتأتى والتيسر له . وإنما هم اختاروا الكفر على الايمان فوقع اختيارهم الكفر مقارناً لخلق الله تعالى إياه فى قلوبهم بعد ما أنشأهم على الفطرة ، وقيام حجة الله تعالى عليهم : بأنه خلقهم متمكنين من الايمان غير مقسورين على الكفر ، وذلك لا ينافى توجيه أهل السنة فى اعتقاد أن الله تعالى خالق ذلك فى قلوبهم على وفق اختيارهم . هذا هو الحق الأبلج والصراط الأبهج والله الموفق . وقول الزمخشرى : إن كفرهم إنما خلقوه لأنفسهم بسبب منع ألطاف الله تعالى التى تسبب المؤمنون فى حصولها لهم وكانت سبباً فى خلقهم الايمان فى قلوبهم : كل هذا تستر من الاشراك واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر تعالى الله عما يشركون علواً كبيرا .

اللعنة لحقتهم لكفرهم . واللام للعهد . ويجوز أن تكون للجنس ويدخلوا فيه دخولا أوليا .

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)

﴿ ما ﴾ نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئا ﴿ اشتروا به أنفسهم ﴾ والمخصوص بالذم ﴿ أن يكفروا ﴾ واشتروا بمعنى باعوا ﴿ بغيا ﴾ حسداً وطلبا لما ليس لهم ، وهو علة اشتروا ﴿ أن ينزل ﴾ لأن ينزل أو على أن ينزل ، أى حسدوه على أن ينزّل الله ﴿ من فضله ﴾ الذى هو الوحى ﴿ على من يشاء ﴾ وتقتضى حكمته إرساله ﴿ فباءوا بغضب على غضب ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف ، لأنهم كفروا بنبيّ الحق وبغوا عليه . وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى . وقيل بعد قولهم : عزير ابن الله ، وقولهم : يد الله مغلولة ، وغير ذلك من أنواع كفرهم ﴿ بما أنزل الله ﴾ مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ مقيد بالتوراة ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ أى قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة ﴿ وهو الحق مصدقا لما معهم ﴾ منها غير مخالف له ، وفيه ردّ لمقالتهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها[1] ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوّغ قتل الأنبياء

وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)

(١) قال محمود رحمه الله : «وأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية على أحد قولى مالك والشافعى والقاضى رضى الله عنهم ، فان العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقة يصدق بعضها بعضاً ، فجحد أحدها كفر به ثم كفر بالجميع ، نسأل الله تعالى العصمة .

﴿ وأنتم ظالمون ﴾ يجوز أن يكون حالا ، أى عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها . وأن يكون اعتراضا بمعنى : وأنتم قوم عادتكم الظلم . وكرّر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد ﴿ واسمعوا ﴾ ما أمرتم به فى التوراة ﴿ قالوا سمعنا ﴾ قولك ﴿ وعصينا ﴾ أمرك . فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت : طابقه من حيث أنه قال لهم : اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ، فقالوا : سمعنا ، ولكن لا سماع طاعة ﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل ﴾ أى تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغ . وقوله ﴿ فى قلوبهم ﴾ بيان لمكان الإشراب كقوله : (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) . ﴿ بكفرهم ﴾ بسبب كفرهم ﴿ بئس ما يأمركم به إيمانكم ﴾ بالتوراة ، لأنه ليس فى التوراة عبادة العجاجيل . وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم ، كما قال قوم شعيب (أصلاتك تأمرك) وكذلك إضافة الإيمان إليهم . وقوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ تشكيك فى إيمانهم وقدح فى صحة دعواهم له .

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِنْدَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ خالصة ﴾ نصب على الحال من الدار الآخرة . والمراد الجنة ، أى سالمة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق . يعنى إن صحّ قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً . و﴿ الناس ﴾ للجنس وقيل للعهد وهم المسلمون ﴿ فتمنوا الموت ﴾ لأنّ من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب ، كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى . كان على رضى الله عنه يطوف بين الصفين فى غلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزىّ المحاربين . فقال : يا بنىّ لا يبالى أبوك على الموت سقط ، أم عليه سقط الموت . وعن حذيفة رضى الله عنه أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم [1] . يعنى

(١) أخرجه الحاكم من طريق زيد بن سلام عن أبيه عن جده وأن حذيفة لما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة ، .

على التمنى . وقال عمار بصفين : «الآن ألاقى الأحبة محمداً وحزبه» .[1] وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحنّ إليه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقى على وجه الأرض يهودى» [2] ﴿بما قدمت أيديهم﴾ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به ، وتحريف كتاب الله ، وسائر أنواع الكفر والعصيان . وقوله ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما أخبر به ، كقوله : (ولن تفعلوا) فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا ؟ قلت : لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الاسلام أكثر من الذر ، وليس أحد منهم نقل ذلك . فإن قلت : التمنى من أعمال القلوب وهو سرّ لا يطلع عليه أحد ، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا ؟ قلت : ليس التمنى من أعمال القلوب ، إنما هو قول الإنسان بلسانه : ليت لى كذا ، فإذا قاله قالوا : تمنى ، وليت : كلمة التمنى ، ومحال أن يقع التحدى بما فى الضمائر والقلوب ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا لقالوا : قد تمنينا الموت فى قلوبنا ، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك فإن قلت : لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون . قلت : كم حكى عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا . فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنّ التمنى من أفعال القلوب وقد فعلناه ، مع احتمال أن يكونوا صادقين فى قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم ، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدّق مع احتمال أن يكون كاذبا لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه ﴿والله عليم بالظالمين﴾ تهديد لهم ﴿ولتجدنهم﴾ هو من وجد بمعنى علم المتعدى إلى مفعولين فى قولهم : وجدت زيداً

---

(١) أخرجه الطبرانى والبزار من رواية ربيعة بن ناجد قال قال لى عمار يوم صفين : «اليوم ألاقى الأحبة : محمدا وحزبه» ورواه أبو نعيم فى الحلية . من رواية أبى سنان قال «رأيت عمار بن ياسر يوم صفين دعا بشراب فأتى بقدح من لبن فشرب منه ، ثم قال : صدق الله ورسوله : اليوم ألاقى الأحبة : محمدا وحزبه»

(٢) لم يخرجه . وقد أخرجه الطبرى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما موقوفا . وأخرج البيهقى فى الدلائل من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود «إن كنتم صادقين فى مقالتكم فقولوا : اللهم أمتنا . فو الذى نفسى بيده ، لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه ومات مكانه . قالوا : فأنزل الله (ولن يتمنوه أبداً) وفى البخارى من رواية عبد الكريم الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال أبو جهل «إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لو فعل لأخذته الملائكة - زاد الاسماعيلى - : عيانا . قال ابن عباس : ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه مثله . وزاد بعد قوله «لماتوا» «ورأوا مقاعدهم من النار» .

ذا الحفاظ [١] ومفعولاه «هم أحرص» . فإن قلت : لم قال : ﴿ على حياة ﴾ بالتنكير ؟ قلت : لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبيّ (على الحياة) ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس : أحرص من الناس . فإن قلت : ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس ؟ قلت : بلى ، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد . ويجوز أن يراد : وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه . وفيه توبيخ عظيم : لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ . فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين ؟ قلت : لأنهم علموا ـ لعلمهم بحالهم ـ أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك . وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس ، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم : عش ألف نيروز وألف مهرجان . وعن ابن عباس رضى الله عنه : هو قول الأعاجم : زى هزار سال . [٢] وقيل (ومن الذين أشركوا) كلام مبتدأ ، أي ومنهم ناس ﴿ يودّ أحدهم ﴾ على حذف الموصوف كقوله : (وما منا إلا له مقام معلوم) والذين أشركوا ـ على هذا ـ : مشارٌ به إلى اليهود ، لأنهم قالوا : عزير ابن الله . والضمير في ﴿ وما هو ﴾ لأحدهم و ﴿ أن يعمر ﴾ فاعل بمزحزحه ، أي : وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره . وقيل : الضمير لما دل عليه يعمر من مصدره ، وأن يعمر بدل منه . ويجوز أن يكون «هو» مبهما ، و «أن يعمر» موضحه . والزحزحة : التبعيد والإنحاء . فإن قلت (يودّ أحدهم) ما موقعه ؟ قلت : هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف . فإن قلت : كيف اتصل لو يعمر بيودّ أحدهم ؟ قلت : هو حكاية لودادتهم . و «لو» في معنى التمني ، وكان القياس : لو أعمر ، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله (يودّ أحدهم) كقولك : حلف بالله ليفعلن .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

---

(١) قوله «وجدت زيداً ذا الحفاظ» في الصحاح : يقال إنه لذو حفاظ ، وذو محافظة ، إذا كانت له أنفة . (ع)

(٢) قوله «زى هزار سال» زى بالفارسية بمعنى : عش . وهزار بمعنى : ألف . وسال بمعنى : عام . (ع)

روى أنّ عبدالله بن صوريا من أحبار فدك حاجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحى ، فقال : جبريل ، فقال : ذاك عدوّنا ، ولو كان غيره لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا ، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيخربه بختنصر ، فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا ، فدفع عنه جبريل وقال : إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ، وإن لم يكن إياه فعلى أى حق تقتلونه [1] . وقيل : أمره الله تعالى أن يجعل النبوّة فينا فجعلها فى غيرنا . وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممرّه على مدارس اليهود ، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم ، فقالوا يا عمر ، قد أحببناك ، وإنا لنطمع فيك فقال : والله ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لأنى شاك فى دينى ، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأرى آثاره فى كتابكم ، ثم سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدوّنا يطلع محمداً على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وإنّ ميكائيل يجىء بالخصب والسلام . فقال لهم : وما منزلتهما من الله تعالى قالوا : أقرب منزلة ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره . وميكائيل عدوّ لجبريل . فقال عمر : لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوّين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر ، ومن كان عدواً لهما كان عدوّاً لله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد وافقك ربك يا عمر . فقال عمر : لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر [2] . وقرئ : جبرئيل ، بوزن قفشليل [3] وجبرئل بحذف الياء ، وجبريل بحذف الهمزة ، وجبريل بوزن قنديل ، وجبرالّ بلام شديدة . وجبرائيل بوزن جبراعيل ، وجبرائل بوزن جبراعل . ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة . وقيل معناه : عبدالله . الضمير فى ﴿نزله﴾ للقرآن . ونحو هذا الإضمار ـ أعنى إضمار ما لم يسبق ذكره ـ فيه فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شىء من صفاته ﴿على قلبك﴾ أى حفظه إياك وفهمكه ﴿بإذن الله﴾ بتيسيره

(١) هكذا ذكره الثعلبي والواحدى والبغوى فقالوا روى ابن عباس «أن حبرا من أحبار اليهود من فدك يقال له عبد الله بن صوريا فذكره» ولم أقف له على سند . ولعله من تفسير الكلبي عن أبى صالح عنه .

(٢) أخرجه الواحدى فى الأسباب من رواية داود بن أبى هند عن الشعبي ، قال «كان لعمر . فذكره سواء» وأخرجه الطبرى من طريق أسباط عن السدى . قال فى قوله (قل من كان عدوا لجبريل) الآية قال «كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ـ إلى آخره ـ إلا أنه قال فقال عمر : والذى بعثك بالحق لقد جئتك وما أريد إلا أن أخبرك» .

(٣) قوله «بوزن قفشليل» فى الصحاح : القفشليل المغرفة ، فارسى معرب . (ع)

وتسهيله . فإن قلت : كان حق الكلام أن يقال : على قلبي [١] . قلت : جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به ، كأنه قيل : قل ما تكلمت به من قولي : من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك . فإن قلت : كيف استقام قوله (فإنه نزله) جزاء للشرط [٢]؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم . والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتابهم وموافقا له ، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم ، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له ، كقولك : إن عاداك فلان فقد أذيته وأسأت إليه . أفرد الملكان بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر ، وهو مما ذكر أن التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات . وقرئ : ميكال ، بوزن قنطار . وميكائيل كميكاعيل . وميكائل كميكاعل . وميكئل كميكعل . وميكئيل كميكعيل . قال ابن جني : العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه . ﴿عدو للكافرين﴾ أراد عدو لهم فجاء بالظاهر ، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر ، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف [٣] والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

---

(١) قال محمود رحمه الله : « فإن قلت : كان حق الكلام أن يقال على قلبي ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ ، ومرة تكون بالمعنى غير متبعة للفظ ، فلعل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام أن يحكي معنى قول الله تعالى له (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك) بلفظ المتكلم ونظير هذا قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً إلى قوله (والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً) فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم مما يفهم أنه قول الله عز وجل لا على سبيل الحكاية عنهم ، إذهم لا يقولون : فأنشرنا ، وإنما يقولون : فأنشره ، على لفظ الغيبة ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى ، لأن معنى قولهم : فأنشر الله ، هو معنى قول الله عن ذاته : فأنشرنا ، ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة إلى التكلم الذي يسمى التفاتا ، فان في هذا مزيداً . ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكم الأرض) إلى قوله (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فأول الكلام يفهم قول موسى وآخره يفهم قول الله تعالى . والطريق الجامع في ذلك ماقررته والله أعلم .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت كيف استقام قوله فانه نزله جزاء للشرط ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله: ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقا لسببين : أحدهما أنه جملة إسمية . والآخر أنه ماض صحيح .

(٣) قوله « فما بال الملائكة وهم أشرف » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فالأنبياء أشرف . (ع)

أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)
وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

﴿إلا الفاسقون﴾ إلا المتمردون من الكفرة . وعن الحسن : إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره . وعن ابن عباس رضى الله عنه : قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها [١] فنزلت . واللام فى (الفاسقون) للجنس والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب ﴿أوكلما﴾ الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا . وقرأ أبو السمال بسكون الواو على أنّ الفاسقون بمعنى الذين فسقوا ، فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا الذين فسقوا ، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة . وقرئ عوهدوا وعهدوا واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا . وكم عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفوا (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) . والنبذ الرمى بالذمام [٢] ورفضه . وقرأ عبد الله نقضه ﴿فريق منهم﴾ وقال فريق منهم ، لأنّ منهم من لم ينقض ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ بالتوارة وليسوا من الدين فى شيء ، فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به ﴿كتاب الله﴾ يعنى التوراة ، لأنهم بكفرهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها . وقيل: كتاب الله القرآن ، نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول . ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك [٣] . يعنى أنّ علمهم بذلك رصين ، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم ، مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه . وعن الشعبي : هو بين أيديهم يقرؤنه ، ولكنهم نبذوا العمل به . وعن سفيان : أدرجوه فى الديباج والحرير وحلوه بالذهب ، ولم يحلوا حلاله ولم يحرّموا حرامه .

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ

(١) أخرجه الطبرى من طريق ابن اسحاق . حدثنى محمد بن أبى محمد حدثنى سعيد بن جبير عنه بهذا .
(٢) قوله « بالذمام » فى الصحاح : الذمام الحرمة . (ع)
(٣) قوله « لا يدخلهم فيه شك » لعله علما لا يدخلهم فيه شك . (ع)

الشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿واتبعوا﴾ أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ﴿ماتتلو الشياطين﴾ يعنى واتبعوا كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها ﴿على ملك سليمان﴾ أى على عهد ملكه وفى زمانه. وذلك أنّ الشياطين كانو يسترقون السمع ثم يضمون إلى ماسمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دوّنوها فى كتب يقرؤنها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك فى زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره ﴿وما كفر سليمان﴾ تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به[1] سليمان من اعتقاد السحر والعمل به وسماه كفراً ﴿ولكن الشياطين﴾ هم الذين ﴿كفروا﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم ﴿وما أنزل على الملكين﴾ عطف على السحر، أى ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. وقيل: هو عطف على ما تتلو، أى واتبعوا ما أنزل. ﴿هاروت وماروت﴾ عطف بيان الملكين علمان لهما، والذى أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس. من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمنا:

* عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَـٰكِنْ لِتَوَقِّيهِ * [2]

---

(١) قوله «لما بهتت به» أى قالت عليه ما لم يفعله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

لأبى نواس. ومعنى «لكن» هنا. للاضراب الانتقالى. ويمكن أن يتوهم من قوله «لا للشر» أنه لم يعرف الشر لأجل شىء من متعلقاته رأساً فدفع هذا التوهم بقوله: لكن عرفته لتوقيه، فهى للاستدراك، أى عرفته لأجل التحفظ منه. و «من الناس» بيان لمن مؤكد للعموم، ويقع جزم فى جواب الشرط، أى من جهل الشر وقع فيه، كالمار إذا جهل البئر المغطاة فى طريقه. واستروحوا بذلك لجواز تعلم نحو السحر للتمكن من تجنبه. ويجوز أن «من الناس» صفة للشر، و «من» بيانية أو ابتدائية. ويروى «من الخير» أى من لم يميز الشر من الخير يقع فى الشر.

كما ابتلى قوم طالوت بالنهر، (فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى . وقرأ الحسن: (على الملكين) بكسر اللام، على أنّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل . وما يعلم الملكان أحدا حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له ﴿إنما نحن فتنة﴾ أى ابتلاء واختبار من الله ﴿فلا تكفر﴾ فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر ﴿فيتعلمون﴾ الضمير لما دلّ عليه من أحد . أى فيتعلم الناس من الملكين ﴿ما يفرّقون به بين المرء وزوجه﴾ أى علم السحر الذى يكون سببا فى التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنفث فى العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز والخلاف [1] ابتلاء منه، لا أنّ السحر له فى نفسه بدليل قوله تعالى: ﴿وماهم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله﴾ لأنه ربما أحدث الله عنده فعلا من أفعاله وربما لم يحدث ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ لأنهم يقصدون به الشر . وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التى لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية . ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أى استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿ماله فى الآخرة من خلاق﴾ من نصيب ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أى باعوها . وقرأ الحسن: الشياطون . وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون . وقد ذكر وجهه فيما بعد . وقرأ الزهرى (هاروت وماروت) بالرفع على: هما هاروت وماروت . وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت ـ وهو الكسر كما زعم بعضهم ـ لانصرفا . وقرأ طلحة (وما يعلمان) من أعلم، وقرئ (بين المرء) بضم الميم وكسرها مع الهمز . والمرّ، بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف، [2] كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف . وقرأ الأعمش . وماهم بضارّى، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفصل بينهما بالظرف . فإن قلت: كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن؟ قلت: جعل الجار جزءاً [3] من المجرور . فإن قلت: كيف أثبت لهم العلم أولا فى قوله (ولقد علموا) على سبيل التوكيد القسمى ثم نفاه عنهم فى قوله (لو كانوا يعلمون)؟ قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه .

---

(١) قوله «الفرك والنشوز» فى الصحاح الفرك بالكسر البغض ولا يستعمل إلا بين الزوجين وقوله لا أن السحر الخ: مبنى على مذهب المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير له . وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره وإن كان تأثير كل شىء فى غيره لا يكون إلا باذنه تعالى وهذا هو ظاهر الكتاب وظاهر السنة . (ع)

(٢) قوله «على تقدير التخفيف والوقف» أى فى لغة من وقف بالتضعيف (ع)

(٣) قوله «قلت جعل الجار جزءاً» ونظيره لا أبالك . (ع)

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ برسول الله والقرآن ﴿واتقوا﴾ الله فتركوا ماهم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ وقرئ: لمثوبة، كمشورة ومشورة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم. فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية فى جواب لو؟ قلت: لما فى ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع فى سلام عليكم لذلك. فإن قلت: فهلا قيل لمثوبة الله خير؟ قلت: لأن المعنى: لشيء من الثواب خير لهم. ويجوز أن يكون قوله (ولو أنهم آمنوا) تمنيا[1] لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: وليتهم آمنوا: ، ثم ابتدئ لمثوبة من عند الله خير. كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئا من العلم: راعنا يارسول الله، أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهى «راعينا» فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا. افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعنون به تلك المسبة، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو فى معناها وهو ﴿انظرنا﴾ من نظره إذا انتظره. وقرأ أبىّ: أنظرنا من النظرة، أى أمهلنا حتى نحفظ وقرأ عبدالله بن مسعود: راعونا، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير: وقرأ الحسن: راعنا، بالتنوين من الرعن وهو الهوج، أى لا تقولوا قولا راعنا منسوبا إلى الرعن بمعنى رعنيا، كدارع ولابن لأنه لما أشبه قولهم: راعينا، وكان سببا فى السب اتصف بالرعن ﴿واسمعوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان

(١) قال محمود رحمه الله: «ويجوز أن يكون قوله تعالى (ولو أنهم آمنوا) تمنيا ...الخ» قال أحمد رحمه الله: التمنى مجاز عن إرادة الله تعالى لايمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعل بالارادة والرد عليه على سبيل تم.

حاضرة ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعانة وطلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة ، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا ، أو واسمعوا ما أمرتم به بجدّ حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه ، تأكيدا عليهم ترك تلك الكلمة . وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه . فقالوا : أولستم تقولونها[1] فنزلت . ﴿ وللكافرين ﴾ ولليهود الذين تهاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه ﴿ عذاب أليم ﴾ من الأولى للبيان لأنّ الذين كفروا جنس تحته نوعان : أهل الكتاب ، والمشركون ، كقوله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) والثانية مزيدة لاستغراق الخير ، والثالثة لابتداء الغاية . والخير الوحى ، وكذلك الرحمة كقوله تعالى : (أهم يقسمون رحمة ربك) والمعنى : أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شىء من الوحى ﴿ والله يختص بالنبوة ﴿ من يشاء ﴾ ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ إشعار بأنّ إيتاء النبوة من الفضل العظيم كقوله تعالى : (إن فضله كان عليك كبيرا) .

مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل من رواية محمد بن مروان السدى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . فى قوله تعالى (لا تقولوا راعنا) قال « راعنا » بلسان اليهود السب القبيح ـ فكانت اليهود تقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم سراً . فلما سمعها أصحابه أعلنوا بها . فكانوا يقولونها ويضحكون منها : فسمعها سعد بن معاذ منهم . قال فذكره . والسدى هذا الصغير متروك . وكذا شيخه .

روى أنهم طعنوا فى النسخ فقالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ؟ فنزلت . وقرئ ﴿ما ننسخ من آية﴾ وما ننسخ : بضم النون ، من أنسخ . أو ننسأها . وقرئ (ننسها) وننسها بالتشديد . وتنسها وتنسها ، على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأ عبد الله . ما ننسك من آية أو ننسخها وقرأ حذيفة : ما ننسخ من آية أو ننسكها . ونسخ الآية : إزالتها بإبدال أخرى مكانها وإنساخها . الأمر بنسخها ، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها . ونسؤها ، تأخيرها وإذهابها . لا إلى بدل . وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب . والمعنى أن كل آية يذهب بها على ما توجبه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معا ، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل ﴿نأت﴾ بآية خير منها للعباد ، أى بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها فى ذلك ﴿على كل شىء قدير﴾ فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه . وعلى مثله فى الخير ﴿له ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم ، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ . لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره ، وقررهم على ذلك بقوله (ألم تعلم) أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التى كانت عاقبتها وبالا عليهم كقولهم : اجعل لنا إلها ، أرنا الله جهرة ، وغير ذلك ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة ، وشك فيها ، واقترح غيرها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم يروا ما أصابكم . ولو كنتم على الحق ما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد . قال : فإنى قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ماعشت : فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ . وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله ربا ، وبمحمد نبيا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين إخوانا . ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيرا وأفلحتما [١] . فنزلت . فإن قلت : بم تعلق قوله : ﴿من عند أنفسهم﴾ ؟ [٢] قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يتعلق بود ، على معنى أنهم تمنوا

---

(١) لم أجده مسنداً . وهو فى تفسير الثعلبى كذلك بلا سند ولا راو .

(٢) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : بم تعلق قوله من عند أنفسهم ... الخ ؟» . قال أحمد رحمه الله : يبعد الوجه الثانى دخول عند . ويقرب الأول قوله تعالى (تلك أمانيهم) .

أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم ، لامن قبل التدين والميل مع الحق ، لأنهم ودّوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق ، فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق ؟ وإما أن يتعلق بحسدا ، أى حسدا متبالغا منبعثا من أصل أنفسهم ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ الذى هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم ﴿إنّ الله على كل شىء قدير﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم ﴿من خير﴾ من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما ﴿تجدوه عند الله﴾ تجدوا ثوابه عند الله ﴿إنّ الله بما تعملون بصير﴾ عالم لا يضيع عنده عمل عامل .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

الضمير فى ﴿وقالوا﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى . والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين القولين ثقة بأنّ السامع يردّ إلى كل فريق قوله ، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه . ونحوه (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) ، والهود : جمع هائد ، كعائذ وعُوذ ، وبازل وبُزل . فإن قلت : كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر ؟ قلت : حمل الاسم على لفظ «من» والخبر على معناه ، كقراءة الحسن إلا من هو صالو الجحيم . وقوله : (فإن له نار جهنم خالدين فيها) . وقرأ أبىّ بن كعب : إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . فإن قلت : لم قيل ﴿تلك أمانيهم﴾ وقولهم (لن يدخل الجنة) أمنية واحدة [1] ؟ قلت :

---

(١) قال محمود رحمه الله : « فإن قلت : لم قيل تلك أمانيهم وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فان البرهان المطلوب منهم ههنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم . ويحقق هذا قوله (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) فانما يعنى الجنة ونعيمها ، ردّاً عليهم فى نفى غيرهم عن دخولها فهذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها ليس إلا ما طولبوا باقامة البرهان على صحته وهو أمنية واحدة والله أعلم . والجواب القريب : أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها فى نفوسهم جمعت ، ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً . ونظيره قولهم : معاً جياع ، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد ، لأن موصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها . وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) فانه جمع قليلا وقد كان الأصل إفراده ، فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى : (كم من فئة قليلة) لو لا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها . ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد ، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعاً ، فتدبر هذا الفصل فانه من نفائس صناعة البيان والله الموفق .

أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو أمنيتهم [١] أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم : أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم . وقوله (قل هاتوا برهانكم) متصل بقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . وتلك أمانيهم : اعتراض ، أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . يريد أن أمانيهم جميعا فى البطلان مثل أمنيتهم هذه . والأمنية أفعولة من التمنى ، مثل الأضحوكة والأعجوبة ﴿هاتوا برهانكم﴾ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى دعواكم ، وهذا أهدم شىء لمذهب المقلدين . وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت . و«هات» صوت بمنزلة هاء ، بمعنى أحضر ﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿من أسلم وجهه لله﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره ﴿وهو محسن﴾ فى عمله ﴿فله أجره﴾ الذى يستوجبه . فإن قلت : من أسلم وجهه كيف موقعه ؟ قلت : يجوز أن يكون (بلى) رداً لقولهم ، ثم يقع (من أسلم) كلاما مبتدأ ، ويكون (من) متضمنا لمعنى الشرط ، وجوابه (فله أجره) ، وأن يكون (من أسلم) فاعلا لفعل محذوف ، أى بلى يدخلها من أسلم ، ويكون قوله (فله أجره) كلاما معطوفا على يدخلها من أسلم .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿على شىء﴾ أى على شىء يصح ويعتد به . وهذه مبالغة عظيمة ، لأنّ المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشىء [٢] ، فإذا نفى إطلاق اسم الشىء عليه ، فقد بولغ فى ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده [٣] . وهذا كقولهم : أقل من لا شىء ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ الواو للحال . والكتاب

(١) قوله «وهو أمنيتهم» لعله : وهى . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «هذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشىء ...الخ» . قال أحمد رحمه الله : وتفسيره الشىء مخالف لفريقى أهل السنة والبدعة ، فانه عند أهل السنة قاصر على الموجود وعند المعتزلة يطلق على الموجود وعلى المعدوم الذى يصح وجوده ، فليس متناولا للمحال بحال عندهما ، وقد تقدم له مثله .

(٣) قوله «إلى ما ليس بعده» لعل المعنى : إلى حد ليس بعده حد . (ع)

للجنس . أى قالوا ذلك ، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب . وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقى ؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدّق للثانى شاهد بصحته ، وكذلك كتب الله جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الذى سمعت به على ذلك المنهاج ﴿قال﴾ الجهلة ﴿الذين﴾ لاعلم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم قالوا لأهل كل دين : ليسوا على شىء . وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لا يعلم . وروى أنّ وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ما أنتم على شىء من الدين ، وكفروا بعيسى والإنجيل . وقالت النصارى لهم نحوه ، وكفروا بموسى والتوراة [1] ﴿فالله يحكم﴾ بين اليهود والنصارى ﴿يوم القيامة﴾ بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه . وعن الحسن : حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار ﴿أن يذكر﴾ ثانى مفعولى منع . لأنك تقول : منعته كذا . ومثله (ومامنعنا أن نرسل) ، (ومامنع الناس أن يؤمنوا) ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن ، ولك أن تنصبه مفعولا له بمعنى كراهة أن يذكر ، وهو حكم عام لجنس مساجد الله ، وأن مانعها من ذكر الله مفرط فى الظلم ، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا . وقيل أراد به منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية . فإن قلت : فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام ؟ قلت : لا بأس أن يجىء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا ، كما تقول لمن أذى صالحا واحداً : ومن أظلم ممن أذى الصالحين . وكما قال الله عز وجل (ويل لكل همزة لمزة) والمنزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وسعى فى خرابها﴾ بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان . وينبغى أن يراد بـ «من» منع العموم كما أريد بمساجد الله ، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين ﴿أولئك﴾ المانعون ﴿ما كان لهم أن يدخلوها﴾ أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إلا خائفين﴾ على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم . وقيل ما كان لهم فى حكم الله ، يعنى أن الله قد حكم وكتب فى اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقويهم حتى

---

(١) أخرجه الطبرى من رواية ابن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد حدثنى سعيد أو عكرمة عن ابن عباس به وفيه «أن قائل اليهود اسمه رافع بن حريملة» .

لايدخلوها إلا خائفين. روى أنه لايدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً مسارقة. وقال قتادة: لا يوجد نصرانى فى بيت المقدس إلا أنهك ضربا وأبلغ إليه فى العقوبة. وقيل: نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان»[1]. وقرأ عبدالله: إلا خيفا، وهو مثل صيم[2]. وقد اختلف الفقهاء فى دخول الكافر المسجد: فجوزه أبو حنيفة رحمه الله، ولم يجوزه مالك، وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره. وقيل: معناه النهى عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله: (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله). ﴿خزى﴾ قتلٌ وسبىٌ، أو ذلة بضرب الجزية. وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية ورومية وعمورية.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله هو مالكها ومتوليها ﴿فأينما تولوا﴾ ففى أى مكان فعلتم التولية، يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى: (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره). ﴿فثم وجه الله﴾ أى جهته التى أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام أو فى بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا فى أى بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة فى كل مكان لايختص إسكانها فى مسجد دون مسجد ولا فى مكان دون مكان ﴿إنّ الله واسع﴾ الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم ﴿عليم﴾ بمصالحهم. وعن ابن عمر نزلت فى صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا. وقيل: معناه فأينما تولوا للدعاء والذكر ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن: فأينما تولوا، بفتح التاء من التولى يريد: فأينما توجهوا القبلة.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾

﴿وقالوا﴾ وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله والملائكة بنات الله. ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد ﴿بل له ما فى السموات والأرض﴾ هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كل له قانتون﴾ منقادون، لايمتنع شىء منه على

(١) متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن: عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) قوله «وهو مثل صيم» فى الصحاح: قوم صوم وصيم. (ع)

تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس ، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد . والتنوين فى (كلّ) عوض من المضاف إليه ، أى كل مافى السموات والأرض . ويجوز أن يراد كلّ من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم . فإن قلت : كيف جاء بما التى لغير أولى العلم مع قوله قانتون ؟ قلت : هو كقوله : سبحان ماسخركنّ لنا . وكأنه جاء بـ « ما » دون « من » تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم ، كقوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

يقال بدع الشيء فهو بديع ، كقولك : بزع الرجل [1] فهو بزيع . و ﴿ بديع السموات ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أى بديع سمواته وأرضه . وقيل البديع بمعنى المبدع ، كما أنّ السميع فى قول عمرو :

* أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ * [2]

بمعنى المسمع وفيه نظر ﴿ كن فيكون ﴾ من كان التامّة ، أى احدث فيحدث . وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثم ، كالاقول فى قوله :

* إذْ قَالَتِ الْأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ ٱلْحَقِ * [3]

وإنما المعنى أنّ ماقضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ، كما أنّ المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء .

---

(١) قوله « بزع الرجل » بزع بالزاى كظرف وزنا ومعنى . أفاده الصحاح وصرح كقولك بأنه لا يوصف به الأحداث . (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد صفحة ٦٠ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) إذا قالت الأنساع للبطن الحق ... قدوما فآضت كالفنيق المحنق

لأبى النجم العجلى . والنسع - بالكسر - : حزام عريض يشد به وسط الدابة وستر الهودج . والحق : فعل أمر ، أى التصق يا بطن بالظهر وانضمر . وقدوما : نصب على المصدر بمحذوف أو بما قبله على أنه مفعول له . وآض يئيض أيضا : إذا صار يصير ، أو رجع يرجع ، أى صارت الناقة كالفنيق . ويروى : فأحنت ، أى حقدت واغتاظت الناقة ، وأصله بكسر الحاء فسكن تخفيفاً كما تقدم فى ضجر ودبر . والفنيق : الفحل المنعم المكرم . يقال : أفنقه ، إذا نعمه . وجارية فنقة : ناعمة . والمحنق : المغيظ ، من الحنق وهو الحقد والغيظ . ويروى « إذ قالت » بدل « إذا قالت » . والحق : بوصل الهمزة وقطعها . والمحنق بسكون الحاء ، فيكون من الرجز ، لا من الطويل . وقدم قدما ، كنصر نصراً ، إذا تقدم . والظاهر أن هذه الرواية هى الصواب لكثرة رجز أبى النجم . وإثبات القول للأنساع ومخاطبتها البطن من باب التمثيل . والمعنى أنه شد عليها أدوات السفر فاغتاظت غيظاً شديداً ، كالفحل المكرم الذى غاظه غيره .

أكد بهذا استبعاد الولادة لأنّ من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام فى توالدها. وقرئ (بديع السموات) مجروراً على أنه بدل من الضمير فى له. وقرأ المنصور بالنصب على المدح.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ وقال الجهلة من المشركين، وقيل من أهل الكتاب، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به: ﴿لولا يكلمنا الله﴾ هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ استكباراً منهم وعتوا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى، كقوله (أتواصوا به). ﴿قد بينا الآيات لقوم﴾ ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

﴿ إنا أرسلناك ﴾ لأن تبشر وتنذر لا لتجبر على الإيمان، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. ولا نسألك ﴿عن أصحاب الجحيم﴾ مالهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك فى دعوتهم، كقوله (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقرئ: (ولا تسأل) على النهى. روى أنه قال: ليت شعرى ما فعل أبواى، فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله. وقيل: معناه تعظيم ماوقع فيه الكفار من العذاب كما تقول: كيف فلان؟ سائلا عن الواقع فى بلية، فيقال لك: لا تسأل عنه. ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجرى على لسانه ماهو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه مايضجره، أو أنت يامستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل. وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله: ولن تسئل، وقراءة أبىّ: وما تسئل.

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

كأنهم قالوا: لن نرضى عنك وإن أبلغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا. إقناطا منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخولهم فى الإسلام، فحكى الله عزّ وجلّ كلامهم، ولذلك قال: ﴿قل

إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ على طريقة إجابتهم عن قولهم ، يعنى أن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى بالحق والذى يصح أن يسمى هدى ، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى ، وما تدعون إلى اتباعه ماهو بهدى إنما هو هوى . ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أى أقوالهم التى هى أهواء وبدع ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة .

الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم مؤمنون أهل الكتاب ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ لايحرفونه ولا يغيرون مافيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أولئك يؤمنون ﴾ بكتابهم دون المحرفين ﴿ ومن يكفر به ﴾ من المحرفين ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى

وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

﴿ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ اختبره بأوامر ونواه . واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار[١] أحد الأمرين: مايريد الله، ومايشتهيه العبد ، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك . وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه وهى قراءة ابن عباس رضى الله عنه :(إبراهيمُ ربَّه) رفع إبراهيم ونصب ربه . والمعنى : أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أم لا ؟ فإن قلت : الفاعل فى القراءة المشهورة يلى الفعل فى التقدير ، فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر . قلت : الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربه إبراهيم . فأما ابتلى إبراهيم ربه ، أو ابتلى ربه إبراهيم ، فليس واحداً منهما بإضمار قبل الذكر. أما الأول فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكرا ظاهرا . وأما الثانى فإبراهيم فيه مقدم فى المعنى ، وليس كذلك : ابتلى ربه إبراهيم . فإن الضمير فيه قد تقدم لفظا ومعنى فلا سبيل إلى

(١) قوله « تمكينه عن اختيار » لعله من .

صحته . والمستكن فى ﴿ فأتمهنّ ﴾ فى إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى : فقام بهنّ حق القيام وأداهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان . ونحوه (وإبراهيم الذى وفى) وفى الأخرى لله تعالى بمعنى فأعطاه ماطلبه لم ينقص منه شيأ . ويعضده ماروى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه فى قوله : (رب اجعل هذا بلداً آمنا) ، (واجعلنا مسلمين لك) ، (وابعث فيهم رسولا منهم) . (ربنا تقبل منا) فإن قلت: ماالعامل فى إذ ؟ قلت : إما مضمر نحو : واذكر إذ ابتلى أو وإذ ابتلاه كان كيت وكيت ، وإما ﴿ قال إنى جاعلك ﴾ . فإن قلت : فما موقع قال ؟ قلت : هو على الأول استئناف، كأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فقيل : قال إنى جاعلك للناس إماما . وعلى الثانى جملة معطوفة على ما قبلها . ويجوز أن يكون بيانا لقوله (ابتلى) وتفسيراً له فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده . والإسلام قبل ذلك فى قوله (إذ قال له ربه أسلم) وقيل فى الكلمات : هنّ خمس فى الرأس : الفرق ، وقص الشارب ، والسواك ، والمضمضة والاستنشاق . وخمس فى البدن : الختان ، والاستحداد ، والاستنجاء ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط . وقيل ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهما : عشر فى براءة (التائبون العابدون) ، وعشر فى الأحزاب (إنّ المسلمين والمسلمات) ؛ وعشر فى المؤمنون وسأل سائل إلى قوله (والذين هم على صلاتهم يحافظون) وقيل هى مناسك الحج ، كالطواف والسعى والرمى والإحرام والتعريف وغيرهنّ . وقيل : ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والختان وذبح ابنه والنار والهجرة . والإمام اسم من يؤتم به على زنة الآلة ، كالإزار لما يؤتزر به ، أى يأتمون بك فى دينهم ﴿ ومن ذريتى ﴾ عطف على الكاف ، كأنه قال : وجاعل بعض ذريتى ، كما يقال لك : سأكرمك ، فتقول: وزيدا ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ وقرئ : الظالمون ، أى من كان ظالما من ذريتك . لا يناله استخلافى وعهدى إليه بالإمامة ، وإنما ينال من كان عادلا بريئا من الظلم . وقالوا : فى هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة . وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته . ولا تجب طاعته ؛ ولا يقبل خبره ، ولا يقدّم للصلاة . وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتى سراً بوجوب نصرة زيد بن علىّ رضوان الله عليهما ، وحمل المال إليه ، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة ، كالدوانيق وأشباهه . وقالت له امرأة : أشرت على ابنى بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابنى عبدالله بن الحسن حتى قتل . فقال : ليتنى مكان ابنك . وكان يقول فى المنصور وأشياعه : لو أرادوا بناء مسجد وأرادونى على عدّ آجره لما فعلت . وعن ابن عيينة : لا يكون الظالم إماما قط . وكيف يجوز نصب الظالم للامامة ، والإمام إنما هو لكف الظلمة . فاذا نصب من كان ظالما فى نفسه فقد جاء المثل السائر : من استرعى الذئب ظلم . و﴿ البيت ﴾

اسم غالب للكعبة، كالنجم للثريا ﴿ مثابة للناس ﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه أى يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم ﴿ وأمنا ﴾ موضع أمن، كقوله (حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) ولأن الجانى يأوى إليه فلا يتعرض له حتى يخرج. وقرئ: مثابات، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم (سواء العاكف فيه والباد) ﴿ واتخذوا ﴾ على إرادة القول، أى وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام ابراهيم، فقال عمر أفلا نتخذه مصلى ـ يريد أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركا به وتيمنا بموطئ قدم إبراهيم ـ فقال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت»[1] وعن جابر بن عبد الله «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)»[2] وقيل: مصلى مدعى. ومقام إبراهيم: الحجر الذى فيه أثر قدميه، والموضع الذى كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذى يسمى مقام إبراهيم. وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل المطلب بن أبى وداعة: هل تدرى أين كان موضعه الأوّل؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم. وعن عطاء (مقام ابراهيم) عرفة والمزدلفة والجمار، لأنه قام فى هذه المواضع ودعا فيها. وعن النخعى: الحرم كله مقام إبراهيم. وقرئ (واتخذوا) بلفظ الماضى عطفا على (جعلنا) أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذى وسم به لاهتمامه به وإسكان ذرّيته عنده قبلة يصلون إليها ﴿ عهدنا ﴾ أمرناهما ﴿ أن طهرا بيتى ﴾ بأن طهرا، أو أى طهرا. والمعنى طهراه من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض والخبائث كلها، أو أخلصاه لهؤلاء لا يغشه غيرهم ﴿ والعاكفين ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أى أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين. ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعنى القائمين فى الصلاة، كما قال: (للطائفين والقائمين والركع السجود)، والمعنى: للطائفين والمصلين، لأنّ القيام والركوع والسجود هيآت المصلى.

---

(١) أخرجه أبو نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر «أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فمر على المقام فقال له: يا نبى الله هذا مقام ابراهيم؟ قال نعم. قال ألا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ـ الآية) وقال: غريب من رواية ـ مجاهد. تفرد به جعفر بن محمد المدائنى عن أبيه عن هارون الأعور عن أبان بن تغلب عن الحكم عن مجاهد. وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال: قال عمر رضى الله عنه «وافقنى ربى فى ثلاث ـ فذكر الحديث» وفيه «قلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت».

(٢) هكذا ذكره. والذى فى صحيح مسلم فى الحديث الطويل فى صفة الحج «أنه قرأ الآية لما فرغ من الطواف ثم صلى»

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

أى اجعل هذا البلد أو هذا المكان ﴿ بلداً آمناً ﴾ ذا أمن ، كقوله (عيشة راضية) . أو آمنا من فيه ، كقوله : ليل نائم . و﴿ من آمن منهم ﴾ بدل من أهله ، يعنى وارزق المؤمنين من أهله خاصة . ﴿ ومن كفر ﴾ عطف على من آمن كما عطف (ومن ذريتى) على الكاف فى جاعلك فإن قلت : لم خص إبراهيم صلوات الله عليه المؤمنين حتى ردّ عليه ؟ قلت : قاس الرزق على الإمامة فعرّف الفرق بينهما ، لأنّ الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى ، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم ، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجا للمرزوق وإلزاما للحجة له . والمعنى : وأرزق من كفر فأمتعه . ويجوز أن يكون (ومن كفر) مبتدأ متضمنا معنى الشرط . وقوله (فأمتعه) جوابا للشرط ، أى ومن كفر فأنا أمتعه . وقرئ فأمتعه فأضطره [١] فألزه إلى عذاب النار لزّ المضطر الذى لا يملك الامتناع مما اضطر إليه ، وقرأ أبىّ : فنمتعه قليلا ثم نضطره . وقرأ يحيى بن وثاب : فإضطره ، بكسر الهمزة . وقرأ ابن عباس فأمتعه قليلا ثم اضطره . على لفظ الأمر . والمراد الدعاء من إبراهيم دعا ربه بذلك . فإن قلت : فكيف تقدير الكلام على هذه القراءة ؟ قلت : فى (قال) ضمير إبراهيم ، أى قال إبراهيم بعد مسئلته اختصاص المؤمنين بالرزق : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره . وقرأ ابن محيصن : فأطره ، بإدغام الضاد فى الطاء كما قالوا : اطجع ، وهى لغة مرذولة ، لأنّ الضاد من الحروف الخمسة التى يدغم فيها ما يجاورها ولا تدغم هى فيما يجاورها ، وهى حروف « ضم شفر » .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

---

(١) قوله « فأضطره » التلاوة : ثم أضطره (ع)

﴿يرفع﴾ حكاية حال ماضية. و﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهى الأساس والأصل لما فوقه، وهى صفة غالبة، ومعناها الثابتة. ومنه قعدك الله، أى أسأل الله أن يقعدك أى يثبتك. ورفع الأساس: البناء[1] عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر. ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء[2] لأنّ كل ساف قاعدة للذى يبنى عليه ويوضع فوقه. ومعنى رفع القواعد: رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافا فوق ساف فقد رفع السافات. ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت ـ أى استوطأ ـ يعنى جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية بالبناء، وروى أنه كان مؤسسا قبل إبراهيم فبنى على الأساس. وروى أن الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد: شرقى وغربى، وقال لآدم عليه السلام: أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشى، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشيا، وتلقته الملائكة فقالوا: بر حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام[3] وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه وعرّفه جبريل مكانه. وقيل بعث الله سحابة أظلته: ونودى: أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص. وقيل: بناه من خمسة أجبل طورسينا، وطورزيتا، ولبنان، والجودى، وأسسه من حراء. وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء. وقيل: تمخض أبو قبيس فانشق عنه، وقد خبئ فيه فى أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من الجنة، فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسودّ. وقيل كان إبراهيم يبنى وإسمعيل يناوله الحجارة ﴿ربنا﴾ أى يقولان ربنا. وهذا الفعل فى محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله فى قراءته،

---

(١) قوله «ورفع الأساس البناء» لعله الأسس ـ بضمتين. (ع)

(٢) قوله «المراد بها سافات البناء» قوله «سافات» عبارة أبى السعود. والفخر «ساقات» بالقاف بدل الفاء. والصواب أنه بالفاء كما فى الصحاح فى باب الفاء: الساف: كل عرق من الحائط. (ع)

(٣) أخرجه الفاكهى فى كتاب مكة من رواية الضحاك هو ابن مزاحم. قال: قال حذيفة: وسلمان الفارسى «سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله أنزل البيت من ياقوتة حمراء نزلت به الملائكة مع آدم، فنزلت به فى الحرم ونزل آدم فى الهند فى جبل يقال له واشب بأرض الهند ونزل إبليس بالحرم فحول الله إبليس إلى أرض الهند وحول آدم إلى الحرم. الحديث. وفى إسناده ضعف وانقطاع. ورواه أيضا من طريق ابن إدريس عن أبيه عن عطاء أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبا قال: أخبرنى عن بناء هذا البيت ما كان أمره؟ فقال: إن هذا البيت، أنزله الله من السماء ياقوتة حمراء مجوفة مع آدم، وفى رواية النهاس بن قهم: سمعت عطاء يقول «قال آدم يارب أين توجهنى؟ قال تبنى لى بتهامة بيتا مما يلى البحر يطاف حوله، كما تطوف الملائكة حول عرشى. ويصلى عنده كما تصلى الملائكة عند عرشى. فأقبل نحو البيت. مما يلى الصفا. فطاف بالبيت وصلى عنده. قال النهاس: وحدثنى عقيل على بن سفيان. حدثنا عطاء عن عبد الله بن عمرو بمثله وقال الفاكهى فى كتاب مكة أيضا: حدثنا ابن عمرو. حدثنا سفيان عن ابن أبى لبيد قال «حج آدم فتلقته الملائكة فقالوا: أبر نسكك. فقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام» وهكذا هو فى جامع سفيان بن عيينة.

ومعناه : يرفعانها قائلين ربنا ﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائنا ﴿العليم﴾ بضمائرنا ونياتنا . فإن قلت : هلا قيل : قواعد البيت ، وأى فرق بين العبارتين ؟ قلت : فى إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس فى إضافتها لما فى الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين ﴿مسلمين لك﴾ مخلصين لك أوجهنا ، من قوله (أسلم وجهه لله) أو مستسلمين . يقال : أسلم له وسلم واستسلم ، إذا خضع وأذعن . والمعنى : زدنا إخلاصا أو إذعانا لك . وقرئ (مسلمين) على الجمع ، كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر ، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه ﴿ومن ذريتنا﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أمة مسلمة لك﴾ و (من) للتبعيض أوللتبيين ، كقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم) . فإن قلت : لم خصا ذريتهما بالدعاء ؟ قلت : لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ، ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير . ألا ترى أن المقدمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد ، كيف يتسببون لسداد من وراءهم ؟ وقيل : أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وأرنا﴾ منقول من رأى بمعنى أبصر أوعرف . ولذلك لم يتجاوز مفعولين ، أى وبصرنا متعبداتنا فى الحج ، أو وعرفناها . وقيل : مذابحنا . وقرئ : وأرنا ، بسكون الراء قياسا على فخذ فى فخذ . وقد استرذلت ، لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها ، فإسقاطها إجحاف . وقرأ أبو عمرو بإشمام الكسرة . وقرأ عبد الله : وأرهم مناسكهم . ﴿وتب علينا﴾ مافرط منا [1] من الصغائر أو استتابا لذريتهما ﴿وابعث فيهم﴾ فى الأمة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾ من أنفسهم . وروى أنه قيل له : قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان . فبعث الله فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم . قال عليه الصلاة والسلام « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى ورؤيا أمى [2]

---

(١) قوله « وتب علينا ما فرط منا » لعله على تضمين تب معنى اغفر . (ع)

(٢) أخرجه أحمد والبزار وابن حبان . والطبرانى والحاكم من حديث العرباض بن سارية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى عبد الله وخاتم النبيين ، وأبى آدم منجدل فى طينته و أخبركم عن ذلك . دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ـ الحديث » ولأحمد من حديث أبى أمامة رضى الله عنه «قلت : يا رسول الله . ما كان بدؤ أمرك قال : دعوة أبى إبراهيم ؛ وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام» ورواه البيهقى فى الشعب . ثم قال « أما دعوة إبراهيم فهى قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وأما بشارة عيسى فهى قوله تعالى (يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) . قال : وأما رؤيا أمه فذكر ابن اسحق فى السيرة قال « كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث أنها أتيت » ولأبى يعلى عن شداد بن أوس رفعه « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ابن مريم ، وأن أمى رأت فى المنام نوراً قالت : فجعلت أتبع بصرى النور فجعل النور يسبق بصرى حتى أضاء لى مشارق الأرض ومغاربها » والحاكم فى المستدرك من طريق ابن اسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك قال : دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » .

﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ القرآن ﴿ والحكمة ﴾ الشريعة وبيان الأحكام ﴿ ويزكيهم ﴾ ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، كقوله: (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث).

وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)

﴿ ومن يرغب ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذى هو ملة إبراهيم. و ﴿ من سفه ﴾ فى محل الرفع على البدل من الضمير فى يرغب، وصح البدل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد (سفه نفسه) امتهنها واستخف بها. وأصل السفه: الخفة. ومنه زمام سفيه. وقيل انتصاب النفس على التميز، نحو: غبن رأيه وألم رأسه. ويجوز أن يكون فى شذوذ تعريف المميز نحو قوله:

* وَلاَ بِفَزَارَةَ الشُّعُرِ الرِّقَابَا * (١)

* * *

* أَجَبَّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ * (٢)

---

(١) فما قومى بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشعر الرقابا
وقومى - إن سألت - بنو لؤى بمكة علموا مضر الصوابا

لحارث بن ظالم المرى، يدعى أنه من قريش، وأن أمه خرجت به إلى مرة وهو صغير، فنسب إليهم. وثعلبة وفزارة ومضر: أسماء قبائل، ووصف ثعلبة بابن لها للأصل فانه اسم أبى القبيلة. والشعر: جمع أشعر كحمر وأحمر. والرقاب: تميز معرفة على رأى الكوفيين. وأشعر الرقبة يطلق على الأسد، وعلى أغم القفا ـ وهو المراد. يقول: ليس قومى هؤلاء الأخسة، وإنما أنا من بنى لؤى. وإن سألت: اعتراض بين المبتدأ وخبره. ومضر، والصواب: مفعولان لعلموا.

(٢) فان يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

للنابغة الذبيانى يرثى النعمان المنافى بن الحارث الأصغر ملك العرب. وقيل لجرير، وليس بذاك. يقول: فان يتبين هلاك النعمان يتبين هلاك ربيع الناس. شبهه بالربيع وهو المطر، أو النهر، أو فصل الربيع. أو الخصب، فى أن كلا يعم خيره الناس. وشبهه بالشهر الحرام فى أن كلا أمان للناس من الحروب والمخاوف. وروى: والبلد الحرام. أى مكة. شبهه بها فى الأمان أيضا. ويجوز أن المعنى إن يهلك هو يهلك تبعا له عطاؤه وجاهه الشبيهان بالربيع وبالشهر الحرام فى النفع والأمان، وكل ذلك على سبيل الاستعارة التصريحية. ويجوز أنه كان يحفظهم ربيعهم عن =

وقيل معناه: سفه فى نفسه ، فحذف الجار، كقولهم : زيد ظنى مقيم ، أى فى ظنى . والوجه هو الأول . وكفى شاهداً له بما جاء فى الحديث [١] «الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس [٢]» وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ فى إذالة نفسه [٣] وتعجيزها ، حيث خالف بها كل نفس عاقة ﴿ولقد اصطفيناه﴾ بيان لخطإ رأى من رغب عن ملته ، لأنّ من جمع

ـــ رعى غيرهم وحرمة شهرهم عن هتكها ، بأن يغار عليهم فيه ، فلا استعارة إلا فى هلاك الشهر . وروى نأخذ : بالحركات الثلاث ، وكذلك كل مضارع معطوف على جواب الشرط ، فالجزم على العطف ، والرفع على الاستئناف . والنصب باضمار إن لشبه الشرط بالنفى ، لكنه قليل . والذناب ـ بالكسر ـ : ذنب البعير والفرس ، وعقب كل شىء . وشبه العيش الضنك الضيق الناقص ببعير مهزول على طريق المكنية . والذناب ، والظهر ، والسنام ـ بالفتح ـ تخييل . وأجب الظهر : منقطعه ، أى وتتمسك بعده بطرف عيش وبقية منه ضيقة قليلة ، كالبعير المقطوع الظهر . وبين ذلك بقوله : ليس له سنام . وأجب : صفة مشبهة ممنوع من الصرف ، فيجر بالفتحة على الصفة لعيش . وقيل نصب على الحال . وروى بالرفع على الخبرية لمحذوف . ويروى الظهر بالرفع ، فاعلا للصفة ، أو بدلا من الضمير فيها وفتحه النحاة ، وبالنصب تشبيها بالمفعول أو تمييزاً على مذهب من ميز بالمعرفة وضعفوه وبالجر باضافة أجب إليه فيجر أجب بالكسرة ، وحسنوا هذا .

(١) أخرجه البزار من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عمر «قيل : يا رسول الله ، أمن الكبر أن يتخذ الرجل الطعام فيكون عليه الجماعة ، ويلبس القميص النظيف ، قال : ليس ذلك بالكبر . وإنما الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس » وذكر فيه قصة . وقال : لا نعلم رواه عن عمرو عن ابن عمر إلا ابن إسحاق اهـ . وأخرجه الطبرانى من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «قلت يارسول الله أمن الكبر أن ألبس الثوب الحسن ؟ قال : لا . قلت : فما الكبر ؟ فذكره » ورواه البخارى فى الأدب المفرد . من طريق الصعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال لانعلمه إلا عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال «جاء رجل فقال يارسول الله : الكبر أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : لا ... الحديث » وأخرجه أيضاً من رواية عبد العزيز ابن محمد . وأخرجه البزار من رواية أبى بكر بن أبى سبرة . وأخرجه أحمد فى الزهد من رواية هشام بن سعد كلهم عن زيد به . وقال عبد بن حميد فى مسنده : أخبرنا عبد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر فذكر حديثا وفيه : فقال معاذ «يا رسول الله أمن الكبر أن يكون لأحدنا الدابة فيركبها ، أو النعلان ، أو الثياب يلبسها ، أو الطعام يجمع عليه أصحابه ؟ قال : لا . ولكن الكبر أن يسفه الحق ويغمص المؤمنين » وموسى ضعيف . وفى الطبرانى من رواية عبد الحميد بن سليمان . عن عمارة بن غزية عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها . أن عبد الله ابن عمرو قال «يا رسول الله ، أمن الكبر أن ألبس الحلة الحسنة ؟ الحديث» وأخرجه الطبرانى فى الأوسط . ومسند الشاميين عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر نحوه . وفى الباب عن أبى هريرة : أخرجه ابن حبان والحاكم من طريق ابن سيرين عنه . وعن ابن مسعود . أخرجه إسحاق وأبو يعلى والحاكم : أن مالك بن مرارة الرهاوى . قال «يا رسول الله إن لى من الجمال ماترى ، وإنى لا أحب أحداً أن يفضلنى بشراكين فما فوقهما . أفهذا من البغى ؟ قال : لا . الحديث » وعن أبى ريحانة . أخرجه أحمد والطبرانى . وعن ثابت بن قيس . أخرجه الدارمى والطبرانى . وعن سوداء بن عمرو والحسين بن على أخرجهما الطبرانى . وعن ابن عباس . أخرجه عبد بن حميد وعن عقبة بن عامر أخرجه أبو مسلم فى الجامع من السنن له .

(٢) قوله «وتغمص الناس» أى تستصغرهم وتعيبهم . أفاده الصحاح (ع)

(٣) قوله «فى إذالة نفسه» أى إهانتها . أفاده الصحاح (ع)

الكرامة عند الله فى الدارين ، بأن كان صفوته وخيرته فى الدنيا وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير فى الآخرة ، لم يكن أحد أولى بالرغبة فى طريقته منه ﴿إذ قال﴾ ظرف لاصطفيناه ، أى : اخترناه فى ذلك الوقت . أو انتصب بإضمار «اذكر» استشهاداً على ماذكر من حاله . كأنه قيل : اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذى لايرغب عن ملة مثله . ومعنى قال له : أسلم ، أخطر بباله النظر فى الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام ﴿قال أسلمت﴾ أى فنظر وعرف . وقيل أسلمْ : أى أذعنْ وأطعْ . وروى أنّ عبدالله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما : قد علمنا أنّ الله تعالى قال فى التوراة : إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون . فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم ، فنزلت .

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

قرئ : وأوصى ، وهى فى مصاحف أهل الحجاز والشام . والضمير فى ﴿بها﴾ لقوله أسلمت لرب العالمين على تأويل الكلمة والجملة ، ونحوه رجوع الضمير فى قوله (وجعلها كلمة باقية) إلى قوله (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) وقوله : كلمة باقية . دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة ﴿ويعقوب﴾ عطف على إبراهيم ، داخل فى حكمه . والمعنى : ووصى بها يعقوب بنيه أيضا . وقرئ : ويعقوب ، بالنصب عطفا على بنيه . ومعناه : ووصى بها إبراهيم بنيه ونافلته يعقوب ﴿يا بنىّ﴾ على إضمار القول عند البصريين . وعند الكوفيين يتعلق بوصى ، لأنه فى معنى القول . ونحوه قول القائل :

رَجْلَانِ مِنْ ضَبَّةَ أَخْبَرَانَا إِنَّا رَأَيْنَا رَجُلًا عُرْيَانَا [1]

بكسر الهمزة : فهو بتقدير القول عندنا ، وعندهم يتعلق بفعل الإخبار . وفى قراءة أبىّ وابن مسعود : أن يا بنىّ ﴿اصطفى لكم الدين﴾ أعطاكم الدين الذى هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام . ووفقكم للأخذ به ﴿فلا تموتنّ﴾ معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام ، فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، كقولك : لاتصلّ إلا وأنت

(١) رجلان بالسكون للتخفيف والوزن ، كما يسكن عضد . وضبة : اسم قبيلة . وروى بدله «من مكة» والاخبار فيه معنى القول ، فلذلك كسرت بعده إن على الحكاية ، أى قالا لنا ذلك القول وهو : أنا رأينا . ومذهب الكوفيين أن الجملة المحكية فى محل نصب بالفعل المذكور . ومذهب البصريين بقول مقدر . وقال بعضهم : الظاهر أنها مفسرة فلا محل لها . وروى بالفتح على حذف الجار ، أى بأنا رأينا .

خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته . فإن قلت : فأى نكتة فى إدخال حرف النهى على الصلاة وليس بمنهى عنها ؟ قلت : النكتة فيه إظهار أن الصلاة التى لاخشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة . ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام «لاصلاة لجار المسجد إلافى المسجد» [1] فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد : لاتصلّ إلافى المسجد : وكذلك المعنى فى الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لاخير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لايحل فيهم . وتقول فى الأمر أيضا : مت وأنت شهيد . وليس مرادك الأمر بالموت . ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ؛ وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وأنها حقيقة بأن يحث عليها .

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَٰحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)

﴿أم كنتم شهداء﴾ هى أم المنقطعة . [2] ومعنى الهمزة فيها الإنكار . والشهداء جمع شهيد ، بمعنى الحاضر : أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت ، أى حين احتضر والخطاب للمؤمنين بمعنى : ماشاهدتم ذلك [3] وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى . وقيل

---

(١) أخرجه الدارقطنى والحاكم من رواية أبى سلمة . عن أبى هريرة وفيه سليمان بن داود اليمانى . وهو ضعيف . والدارقطنى وابن عدى . والعقيلى من حديث جابر . وفيه محمد بن مسكين . وهو ضعيف . وأخرجه ابن حبان فى الضعفاء فى ترجمة عمر بن راشد عن ابن أبى ذئب عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، وقال كان عمر بن راشد يضع الحديث . وقد صح موقوفا عن على رضى الله عنه . أخرجه ابن أبى شيبة

(٢) قوله «هى أم المنقطعة ، هى تفسر ببل والهمزة» . (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «والخطاب فيه للمؤمنين بمعنى ماشاهدتم ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة ، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول ، لكان مضمون الكلام نفى شهود المخاطبين وهم اليهود على هذا التفسير الثانى ، لوفاة يعقوب والوصية بالاسلام ، وحينئذ يكون ذلك كاقامة حجتهم على جحد الاسلام وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين والغرض ضد ذلك . وإنما كان الكلام يقتضى النفى حينئذ ، لأن الاستفهام من الله تعالى لايحمل على ظاهره ، فتعين صرفه إلى الانكار ، لأن السياق يقتضيه . ولهذا كان نفيا لشهود المسلمين وفاة يعقوب ووصيته على التفسير الأول ، لاسيما والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبى عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم ، تنزيلا لملئهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم ، كقوله تعالى : (وإذ قتلتم نفساً) ، (وإذ قلتم ياموسى) إلى أشباه ذلك ، فاذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر فى خطابهم على المعتاد ، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر .

الخطاب لليهود، لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ماقاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية. فالآية منافية لقولهم، فكيف يقال لهم: أم كنتم شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية؟ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، يعنى أن أوائلكم من بنى إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه برآء؟ وقرئ (حضر) بكسر الضاد وهى لغة. ﴿ماتعبدون﴾ أى شيء تعبدون؟ و (ما) عام فى كل شيء فإذا علم فرق بما ومن، وكفاك دليلا قول العلماء «من» لما يعقل. ولو قيل: من تعبدون، لم يعم إلا أولى العلم وحدهم. ويجوز أن يقال (ماتعبدون) سؤال عن صفة المعبود. كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات؟ و ﴿إبراهيم وإسمعيل وإسحق﴾ عطف بيان لآبائك. وجعل إسمعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأن العم أب والخالة أم، لانخراطهما فى سلك واحد وهو الأخوة لاتفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام «عم الرجل صنو أبيه» [1] أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوى النخلة. وقال عليه الصلاة والسلام فى العباس «هذا بقية [2] آبائى» وقال «ردوا على أبى، فإنى أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود» [3] وقرأ أبى: وإله إبراهيم، بطرح آبائك. وقرئ: أبيك. وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف بيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون. قال: * وَفَدَّيْنَنَا بِالْأَبِينَا * [4]

﴿إلهاً واحداً﴾ بدل من إله آبائك، كقوله تعالى (بالناصية ناصية كاذبة) أو على

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة. فى قصة العباس وخالد بن الوليد وابن جميل لما امتنعوا من إعطاء الصدقة.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة. حدثنا ابن عيينة عن داود بن سابور عن مجاهد. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «احفظونى فى العباس فانه بقية آبائى. وإن عم الرجل صنو أبيه» ورواه الطبرانى فى الأوسط من رواية موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جده عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «احفظونى - فذكر مثله» ورواه فى الكبير من حديث ابن عباس من وجهين.

(٣) قال ابن أبى شيبة فى المغازى فى مصنفه: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب. عن عكرمة. قال: «لما وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة الحديث» إلى أن قال «فانطلق العباس فركب بغلة النبي صلى الله عليه وسلم الشهباء وانطلق إلى قريش ليدعوهم إلى الله فأبطأ عليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ردوا على أبى فان عم الرجل صنو أبيه. إنى أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود: دعاهم إلى الله فقتلوه. أما والله لئن ركبوها منه لأضرمنها عليهم ناراً.

(٤) فلما تبين أصواتنا ... بكين وفديننا بالأبينا

يقول لما تبين النساء أصواتنا فى الحرب وعرفنها، بكين شفقة علينا ورحمة لنا، وفديننا: أى كل واحدة تقول: فداكم أبى، أو تقول لصاحبتها: فداك أبى. والأبينا: جمع أب معرب إعراب جمع التصحيح.

الاختصاص ، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد ، أو من مفعوله ، لرجوع الهاء إليه فى له . ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد ، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة ، أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التى هى إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون . والمعنى : أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً ، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم . وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم . ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا بنى هاشم ، لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم[١] » ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ ولا تؤاخذون بسيآتهم كما لا تنفعكم حسناتهم .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿بل ملة إبراهيم﴾ بل تكون ملة إبراهيم أى أهل ملته كقول عدىّ بن حاتم «إنى من دين[٢]» يريد من أهل دين . وقيل : بل نتبع ملة إبراهيم . وقرئ : (ملة إبراهيم) بالرفع ، أى ملته ملتنا ، أو أمرنا ملته ، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته . و﴿حنيفا﴾ حال من المضاف إليه ، كقولك : رأيت وجه هند قائمة . والحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق . والحنف : الميل فى القدمين . وتحنف إذا مال . وأنشد :

وَلَٰكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ[٣]

﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدعى اتباع إبراهيم

---

(١) لم أجده .

(٢) أخرجه ابن سعد من رواية ابن سيرين عن أبى عبيدة بن حذيفة . قال : قال عدى بن حاتم . فذكر قصة إسلامه . وفيه فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم «يا عدى ، أسلم تسلم . قال : إنى من دين . قال أنا أعلم بدينك منك»

(٣) الحنف والتحنف : الميل . والحنيف : المائل عن الباطل إلى الحق . يقول : خلقنا حال كوننا مائلا ديننا عن الأديان الباطلة كلها إلى دين أبينا إبراهيم ، لأن العرب اتفقت على أنه حق ، وذلك من وقت ابتداء خلقنا ، فإذا : ظرف للخلق الأول بعد تقييده بالحال بعده .

وهو على الشرك ﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين . ويجوز أن يكون خطابا للكافرين ، أى قولوا لتكونوا على الحق ، وإلا فأنتم على الباطل وكذلك قوله (بل ملة إبراهيم) يجوز أن يكون على : بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم ، أو كونوا أهل ملته .

قُولُوا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

والسبط : الحافد . وكان الحسن والحسين سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿والأسباط﴾ حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى . و (أحد) فى معنى الجماعة [1] . ولذلك صح دخول (بين) عليه ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ من باب التبكيت ، لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام فى كونه حقاً ، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين ، فقيل : فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير ، أى : فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا . وفيه أنّ دينهم الذى هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل ، لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال . ونحو هذا قولك للرجل الذى تشير عليه . هذا هو الرأى الصواب ، فإن كان عندك رأى أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك . ولكنك تريد تبكيت صاحبك ، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأى وراءه . ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة ، كقولك : كتبت بالقلم ، وعملت بالقدوم أى فإن دخلوا فى الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التى آمنتم بها . وقرأ ابن عباس وابن مسعود : بما آمنتم به ، وقرأ أبى : بالذى آمنتم به . ﴿ وإن تولوا ﴾ عما تقولون لهم ولم ينصفوا فما هم إلا

(١) قال محمود رحمه الله : «وأحد فى معنى الجماعة ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وفيه دليل على أن النكرة الواقعة فى سياق النفى تفيد العموم لفظاً حتى يتنزل المفرد فيها منزلة الجمع فى تناوله الآحاد مطابقة ، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن مدلولها بطريق المطابقة فى النفى كمدلولها فى الإثبات . وذلك الدلالة على الماهية . وإنما لزم فيها العموم من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الافراد لما بين الأعم والأخص من التلازم فى جانب النفى ، إذ سلب الأعم أخص من سلب الأخص فيستلزمه ، فلو كان لفظا مالا إشعارله بالتعدد والعموم وضعا لما جاز دخول بين عليها .

﴿في شقاق﴾ أى فى مناوأة ومعاندة [1] لا غير، وليسوا من طلب الحق فى شيء. أو: وإن تولوا عن الشهادة والدخول فى الإيمان بها ﴿فسيكفيكهم الله﴾ ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بنى النضير. ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين ﴿وهو السميع العليم﴾ وعيد لهم، أى يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه. أو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى: يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿صبغة الله﴾ مصدر مؤكد منتصب على قوله (آمنا بالله) كما انتصب (وعد الله) عما تقدمه، وهى «فعلة» من صبغ، كالجلسة من جلس، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ والمعنى: تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانيا حقا، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا. أو يقول المسلمون. صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم. وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة، كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان، تريد رجلا يصطنع الكرم ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان، ويطهرهم به من أوضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته. وقوله ﴿ونحن له عابدون﴾ عطف على آمنا بالله. وهذا العطف يرد قول من زعم أن (صبغة الله) بدل من (ملة إبراهيم) أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التئامه واتساقه، [2] وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) قوله: «فى مناوأة ومعاندة» فى الصحاح: ناوأت الرجل مناوأة ونواء، عاديته. وربما لم يهمز. وأصله الهمز. (ع)

(٢) قوله «واتساقه» فى الصحاح: الاتساق الانتظام. وفيه أيضا: التنسيق التنظيم. (ع)

وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

قرأ زيد بن ثابت ﴿أتحاجونا﴾ بإدغام النون . والمعنى : أتجادلوننا فى شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم ، وتقولون : لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا،وترونكم أحق بالنبوّة منا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ نشترك جميعا فى أننا عباده ، وهو ربنا ، وهويصيب برحمتهوكرامته من يشاء من عباده ، هم فوضى فى ذلك لا يختص به عجمى دون عربى إذا كان أهلا للكرامة ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ يعنى أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة ، وكما أن لكم أعمالا يعتبرها الله فى إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك . ثم قال ﴿ونحن له مخلصون﴾ فجاء بما هو سبب الكرامة ، أى ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة ، وكانوا يقولون : نحن أحق بأن تكون النبوة فينا ، لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أو ثان ﴿ أم تقولون ﴾ يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلة للهمزة فى (أتحاجوننا) بمعنى أىّ الأمرين تأتون : المحاجة فى حكمة الله أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء ؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً ، وأن تكون منقطعة بمعنى : بل أتقولون ، والهمزة للإنكار أيضا ، وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة ﴿قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ يعنى أن الله شهد لهم بملة الإسلام فى قوله (ما كان إبراهيم يهودياًولا نصرانياولكن كان حنيفا مسلما) . ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ أى كتم شهادة الله التى عنده أنه شهد بها وهى شهادته لإبراهيم بالحنيفية . ويحتمل معنيين : أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم ، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها . والثانى : أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها . وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوّة فى كتبهم وسائر شهاداته . (ومن) فى قوله (شهادة عنده من الله) مثلها فى قولك : هذه شهادة منى لفلان إذا شهدت له ، ومثله (براءة من الله ورسوله)

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿سيقول السفهاء﴾ الخفاف الأحلام وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة ، وأنهم لا يرون النسخ . وقيل : المنافقون ، لحرصهم على الطعن والاستهزاء . وقيل : المشركون ، قالوا رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها ، والله ليرجعن إلى دينهم . فإن قلت : أى فائدة فى الإخبار بقولهم قبل وقوعه [1] ؟ قلت : فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدّمه من توطين النفس ، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه ، وقبل الرمى يراش السهم ﴿ماولاهم﴾ ماصرفهم ﴿عن قبلتهم﴾ وهى بيت المقدس ﴿لله المشرق والمغرب﴾ أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها ﴿يهدى من يشاء﴾ من أهلها ﴿إلى صراط مستقيم﴾ وهو ماتوجبه الحكمة والمصلحة ، من توجيههم تارة إلى بيت المقدس ، وأخرى إلى الكعبة ﴿وكذلك جعلناكم﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم ﴿أمة وسطا﴾ خيارا ، وهى صفة بالاسم الذى هو وسط الشيء . ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ونحوه قوله عليه السلام : « وأنطوا [2] الثبجة [3] » يريد الوسيطة بين السمينة والعجفاء وصفا بالثبج وهو وسط الظهر ، إلاأنه ألحق تاء التأنيث مراعاة لحق الوصف . وقيل : للخيار : وسط [4] لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل ، والأعوار والأوساط محمية محوطة . ومنه قول الطائى :

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ فَاكْتَنَفَتْ بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفَا [5]

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : « وأى فائدة فى الاخبار بقولهم قبل وقوعه ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله تعالى : ولهذه النكتة أجرى من حذق النظار فى إدراج مناظرتهم العمل بمقتضى الذى هو كذا ، السالم عن معارضة كذا ، فيقول : درء المعارض قبل ذكر الخصم له ، وهى نكتة بديعة أحسن مايستدل على صحتها بهذه الآية ، فتفطن لها فانها من الملح .

(٢) قوله « وأنطوا الثبجة » لغة فى أعطوا . (ع)

(٣) يأتى فى الكوثر

(٤) قال محمود رحمه الله : « وقيل للخيار وسط ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وهذا مما اقتضى المجاز فيه التعميم

(٥) وغيضة الموت أعنى البذ قدت لها عرمرما لخروق الأرض معتسفا
كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

لأبى تمام ، يخاطب المعتصم . والغيضة : مغيض الماء ، يجتمع فيه ثم يغيض ويذهب فينبت فيه الشجر والنبات . والمراد =

وقد اكتريت بمكة جمل أعرابى للحج فقال : أعطنى من سطاتهنه ، أراد من خيار الدنانير . أو عدولا . لأنّ الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ روى ، أنّ الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون ، فتقول الأمم : من أين عرفتم ؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم [1]، وذلك قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) . فإن قلت : فهلا قيل لكم شهيدا وشهادته لهم لا عليهم [2]؟ قلت : لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له ، جيء بكلمة الاستعلاء . ومنه قوله تعالى : (والله على كل شيء شهيد) ، (كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) . وقيل : لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ يزكيكم ويعلم بعدالتكم . فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا [3]؟ قلت : لأن الغرض فى

ـــ هنا : موضع العسكر . والبذ : اسم قلعة لبابك الخرمى . والعرمرم : الجيش الكثير . وخروق الأرض : طرائقها . والمعتسف : الحائد عن الطريق لكثرته . شبه ذلك الموضع بالغيضة على سبيل التهكم بأصحابه ، لأنها تضاف للماء ، فأضافها للموت . وشبه الجيش فى الانقياد بالابل على طريق المكنية وقودهم تخييل ، وكنى بالوسط عن التى لا يصل إليها الخلل لأنها محمية بالأطراف فاكتنفت وأحاطت بها الحوادث ، يعنى جيوش المعتصم ، حتى أصبحت تلك الغيضة طرفا فلحقها الخلل ومكاره الجيش .

(١) موقوف : أخرجه الطبرى عن زيد بن أسلم موقوفا . وأخرجه فى تفسير النسائى من قول السدى أيضا . وفى البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى . قال « يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهدلك ؟ فيقول : محمدا وأمته . فيشهدون أنه بلغ ثم قرأ (وكذلك جعلناكم أمة وسطا ـ الآية) ورواه البيهقى فى البعث والنشور من رواية أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيء النبى يوم القيامة ومعه الثلاثة والأربعة والرجلان ، حتى يجيء النبى وليس معه أحد ، فتدعى أمة محمد فيشهدون أنهم بلغوا . فيقال لهم : وما علمكم أنهم بلغوا فيقولون : جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا فيه أنهم قد بلغوا فصدقنا . قال فيقال : صدقتم . وذلك قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم . . . الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : وجه الاستدلال بالآية أنه وصف الله تعالى فى أولها بالرقيب وفى آخرها بالشهيد على وجه التخصيص أولا ثم التعميم ثانيا : وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد ، إذ الآية فى مثل قول القائل لمن شكره : كنت محسنا إلى وأنت كل أحد محسن . وكأنه لما قال (كنت أنت الرقيب عليهم) وكان ذلك مخصصا لرقيبته تعالى على بنى إسرائيل ، أراد أن يصفه بما هو أهله حتى ينفى وهم الخصوصية فقال فى التقدير: وأنت على كل شيء كذلك ، فوضع « شهيداً » موضع « كذلك » المشار به إلى رقيبيته ، فلا يتم الاستدلال بها إلا على هذا الوجه . وفيه غموض على كثير من الأفهام والله الموفق .

(٣) قال محمود رحمه الله : « فان قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخراً . . الخ ؟ » قال أحمد رحمه الله : ـــ

الأول إثبات شهادتهم على الأمم . وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم ﴿التى كنت عليها﴾ ليست بصفة للقبلة إنما هى ثانى مفعولى جعل . يريد : وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها وهى الكعبة ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى بمكة إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفا لليهود ، ثم حوّل إلى الكعبة فيقول : وماجعلنا القبلة التى تجب أن تستقبلها الجهة التى كنت عليها أوّلا بمكة ، يعنى : ومارددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء ﴿لنعلم﴾ الثابت على الإسلام الصادق فيه ، ممن هو على حرف ينكص ﴿على عقبيه﴾ لقلقه فيرتد ، كقوله : (وماجعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا ـ الآية) ويجوز أن يكون بيانا للحكمة فى جعل بيت المقدس قبلته . يعنى أنّ أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمرا عارضا لغرض . وإنما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها قبل وقتك هذا ـ وهى بيت المقدس ، لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : «كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه»[1] . فإن قلت : كيف قال (لنعلم) ولم يزل عالما بذلك؟ قلت : معناه : لنعلمه علما يتعلق به الجزاء ، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلا ونحوه : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) . وقيل : ليعلم رسول الله والمؤمنون . وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده . وقيل : معناه لنميز التابع من الناكص ، كما قال : (ليميز الله الخبيث من الطيب) فوضع العلم موضع التمييز لأنّ العلم به يقع التمييز به ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ هى إن المخففة التى تلزمها اللام الفارقة . والضمير فى (كانت) لما دل عليه قوله : (وماجعلنا القبلة التى كنت عليها) من الردّة ، أو التحويلة ، أو الجعلة . ويجوز أن يكون للقبلة (لكبيرة) لثقيلة شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ إلا على الثابتين الصادقين فى اتباع الرسول الذين لطف الله بهم وكانوا أهلا للطفه ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أى ثباتكم على الإيمان وأنكم لم تزلوا ولم ترتابوا ، بل شكر صنيعكم وأعدّ لكم الثواب العظيم . ويجوز أن يراد : وما كان الله ليترك تحويلكم لعلمه أن تركه مفسدة وإضاعة لإيمانكم . وقيل : من كان صلى إلى بيت المقدس قبل

ـــ لأن المنة عليهم فى الطرفين ، ففى الأول بثبوت كونهم شهداء ، وفى الثانى بثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية خصوصاً من هذا الرسول المعظم ، ولو قدم شهيداً لانتقل الغرض إلى الامتنان على النبى عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد . وسياق الخطاب لهم والامتنان عليهم يأباه . وإنما أخذ الزمخشرى الاختصاص من التقديم لأن فيه إشعار بالأهمية والعناية ، وكثيراً ما يجرى أى ذلك فى أثناء كلامه ، وفيه نظر .

(١) أخرجه إسحق وابن سعد والبزار . والطبرانى من رواية مجاهد عن ابن عباس : قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة نحو بيت المقدس . والكعبة بين يديه . وبعد ما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً» قال البزار لا يعلم رواه عنه إلا الأعمش ولا عنه إلا أبو عوانة .

التحويل فصلاته غير ضائعة [١] . عن ابن عباس رضى الله عنه : لما وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكعبة [٢] قالوا : كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا فنزلت . ﴿لرؤف رحيم﴾ لا يضيع أجورهم ولا يترك ما يصلحهم . ويحكى عن الحجاج أنه قال للحسن : ما رأيك فى أبى تراب ، فقرأ قوله : (إلا على الذين هدى الله) ثم قال : وعلىٌّ منهم ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، وأقرب الناس إليه ، وأحبهم . وقرئ : إلا ليعلم على البناء للمفعول . ومعنى العلم : المعرفة . ويجوز أن يكون «من» متضمنة لمعنى الاستفهام معلقا عنها العلم ، كقولك : علمت أزيد فى الدار أم عمرو . وقرأ ابن أبى إسحق (على عقبيه) بسكون القاف . وقرأ اليزيدى (لكبيرة) بالرفع . ووجهها أن تكون «كان» مزيدة ، كما فى قوله :

* وَجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامِ * [٣]

والأصل : وإن هى لكبيرة ، كقولك : إن زيد لمنطلق ثم ، وإن كانت لكبيرة وقرئ : ليضيع بالتشديد

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿قد نرى﴾ ربما نرى ، ومعناه : كثرة الرؤية . [٤] كقوله :

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى . وصححه الحاكم من رواية سماك عن عكرمة عنه .

(٢) هو فى الذى بعده .

(٣) فكيف إذا مررت بدار قوم وجيران لنا كانوا كرام

للفرزدق . يقول : فكيف يكون الحال إذا مررت بدار قوم وجيران لنا كرام ، فكانوا : زائدة للدلالة على المضى ، وأن الجيران كانوا ثم انقرضوا . وكرام ـ بالجر ـ : صفة جيران .

(٤) قال محمود رحمه الله : « معناه كثرة الرؤية ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وهذا من المواضع التى تبالغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته . ومنه : (ربما يود الذين كفروا) والمراد كثرة مودتهم للاسلام فى القيامة وعند معاينة جزائه وثوابه ، وكذلك : (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته يقينى مؤكد ، ومع ذلك يكفرون به .

* قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ *[١]

﴿تقلب وجهك﴾ تردد وجهك وتصرف نظرك فى جهة السماء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ، ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل عليه السلام والوحى بالتحويل ﴿فلنولينك﴾ فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها ، من قولك : وليته كذا . إذا جعلته والياً له ، أو فلنجعلنك تلى سمتها دون سمت بيت المقدس ﴿ترضاها﴾ تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التى أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته ﴿شطر المسجد الحرام﴾ نحوه . قال :

* وَأَظْعَنُ بِالْقَوْمِ شَطْرَ الْمُلُوكِ *

وقرأ أبىّ : تلقاء المسجد الحرام . وعن البراء بن عازب قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم وجه إلى الكعبة[٢] وقيل : كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب ، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ، فسمى المسجد مسجد القبلتين[٣] . و(شطر المسجد) نصب على الظرف ، أى اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أى فى جهته وسمته[٤] لأن

---

(١) قد أترك القرن مصفرا أنامله ... كأن أثوابه مجت بفرصاد
أوجرته ونواصى الخيل معلمة ... سمر أعاملها من خلفها نادى

للهزلى . وقيل لعبيد بن الأبرص . وقد للتكثير والترك بمعنى التصيير . واصفرار الأنامل : كناية عن الموت . والفرصاد : ماء التوت ، وهو أحمر . والايجار : السقى كرها . ونواصى الخيل : شعور رؤسها . والمعلمة : المشهورة بعلامات . والسمراء : القناة . وعاملها فى الأصل : هو مايلى السنان منها ، فاستعاره لما يأتى مبالغة . ويقال : نأدته الداهية نأداً ، إذا فدحته وبلغت منه ، وخفف الناد هنا بابدال الهمزة ألفا ، أى كثيراً ماأترك قرينى فى الشجاعة قتيلا ملطخة أثوابه بدمه أسقيته رمحا عاملها من خلفها شدة ضربى . ويروى : ثادى ، بالمثلثة . والثأد ـ بالهمز وقد يخفف ـ : الندى والمطر . وأما الثادى ـ اسم فاعل ـ فهو السحاب الكثير المطر ، أى سقيته ، والحال أن نواصى الخيل مسومة رمحاً عاملها من خلفها شدة ضربى الشبيهة بالندى أو بالسحاب ، وذلك مناسب للايجار . ويروى : سمر ، كحمر ، فهو خبر ثان . وأعاملها : مضارع . وناد : مفعول أوجرته وفيه نوع التهكم . وروى لزهير تكميل البيت الأول بقوله * يميد فى الرمح ميد المائح الأسن * أى المنتن . يقال : أسن الماء فهو آسن ، بالمد وتركه ، إذا أنتن .

(٢) متفق عليه من طريق أبى إسحاق عنه . وفيه «وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ـ الحديث» وفى رواية لابن حبان «وكان يحب أن يحول نحو البيت»

(٣) أخرجه الواقدى فى المغازى ونقله عن ابن سعد ثم أبو الفتح اليعمرى

(٤) قال محمود رحمه الله : «الشطر النحو والسمت ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وقد نقل أصحابنا المالكية

استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد. وذكر المسجد الحرام دون الكعبة: دليل في أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ﴿ليعلمون أنه الحق﴾ أن التحويل إلى الكعبة هو الحق لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلى إلى القبلتين ﴿يعملون﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿ما تبعوا﴾ جواب القسم المحذوف سدّ مسدّ جواب الشرط. ﴿بكل آية﴾ بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق، ما تبعوا ﴿قبلتك﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. وقرئ (بتابع قبلتهم) على الإضافة ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ يعنى أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم، كما لا ترجى موافقتهم لك. وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس. أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه، فالمحق منهم لا يزل عن مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته في عناده. وقوله ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله وما أنت بتابع قبلتهم كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتبعتهم مثلا بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾ المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير. واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق. فإن قلت: كيف قال (وما أنت بتابع [1] قبلتهم) ولهم قبلتان

= خلافا عن المذهب في الواجب فقيل: الجهة. وقيل: العين، هذا مع البعد. وأما حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام فمن خرج عن السمت ثم لم تصح صلاته قولا واحداً، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال. أما على قول العين فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل زيادة على مسامتة الكعبة شرفها الله تعالى، لأنا نعلم بالضرورة - وإن لم نشاهد - أن بعضهم يصلي إلى غير عينها، إذ لا يفي سمتها بذلك على هذا التقدير، لكن الجواز في مثل هذا مع البعد متفق عليه. وأما على قول الجهة فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلا إلى الجهات الثلاث، لأنها كلها جهات الكعبة، والسمت غير مراعي على هذا المذهب، وإنما جاء هذا الخبط من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسمت، ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هندسي في كتاب الاحياء فلا نطول بذكره. والتحقيق عند الفتوى: أن المعتبر مع البعد الجهة لا السمت.

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لم جاء على التوحيد وهما قبلتان... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا ما أجيب به عن قوله تعالى (لن نصبر على طعام واحد) مع أنه متعدد وهو المن والسلوى، فقيل إنهم أرادوا أنهما من طعام الترفه، وآثروا طعام الفلاحة والأجلاف، فلما اتحد الطعامان المذكوران في الرفاهية جعلوهما طعاما واحداً. وهذا المعنى في إنكار الطعام أبلغ، لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم (لن نصبر على طعام) حتى أكدوه بقولهم (واحد) وللزمخشري عنه جواب آخر سلف بمكانه.

لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟ قلت : كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق ، فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

(يعرفونه) يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ لايشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم . وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبدالله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منى بابنى . قال : ولم ؟ قال : لأنى لست أشك فى محمد أنه نبى . فأما ولدى ، فلعل والدته خانت ، فقبل عمر رأسه . وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع . ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوما بغير إعلام . وقيل الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة . وقوله (كما يعرفون أبناءهم) يشهد للأول وينصره الحديث عن عبدالله بن سلام . فإن قلت : لم اختص الأبناء[1] ؟ قلت : لأنّ الذكور أشهر وأعرف ، وهم لصحبة الآباء ألزم ، وبقلوبهم ألصق . وقال ﴿فريق منهم﴾ استثناء لمن آمن منهم ، أو لجهالهم الذين قالوا : يقال فيهم : (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب) . ﴿الحق من ربك﴾ يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدإ محذوف . أى هو الحق . أومبتدأ خبره (من ربك) وفيه وجهان : أن تكون اللام للعهد ، والإشارة إلى الحق الذى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى الحق الذى فى قوله ليكتمون الحق . أى : هذا الذى يكتمونه هو الحق من ربك ، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لامن غيره . يعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذى أنت عليه ، ومالم يثبت أنه من الله كالذى عليه أهل الكتاب فهو الباطل . فإن قلت : إذا جعلت الحق خبر مبتدإ فما محل من ربك ؟ قلت : يجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وأن يكون حالا . وقرأ علىّ رضى الله عنه : الحق من ربك .

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إن قلت لم خص الأبناء ولم يقل أولادهم . . . الخ » . قال أحمد رحمه الله : بنى كلامه هذا على أن الاناث لايدخلن فى لفظ الأبناء كما يدخلن فى لفظ الأولاد ، وليس الأمر كذلك ، بل اللفظان سواء فى شمول الاناث ، ولذلك يدخلن فى لفظ الواقف إذا وقف على بنيه وبنى بنيه ، كما يدخلن فى لفظ الأولاد . هذا مذهب الامام مالك رضى الله عنه .

على الإبدال من الأول، أى يكتمون الحق، الحق من ربك، ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ الشاكين فى كتمانهم الحق مع علمهم، أوفى أنه من ربك ﴿ولكل﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وجهة﴾ قبلة. وفى قراءة أبىّ: ولكل قبلة ﴿هو موليها﴾ وجهه، فحذف أحد المفعولين. وقيل هو لله تعالى، أى الله موليها إياه. وقرئ: (ولكل وجهة) على الإضافة. والمعنى وكل وجهة الله موليها، فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك: لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه. وقرأ ابن عامر: هو مولاها، أى هو مولى تلك الجهة وقد وليها. والمعنى: لكل أمة قبلة تتوجه إليها، منكم ومن غيركم ﴿فاستبقوا﴾ أنتم ﴿الخيرات﴾ واستبقوا إليها [1] غيركم من أمر القبلة وغيره. ومعنى آخر: وهو أن يراد: ولكل منكم يا أمة محمد وجهة أى جهة يصلى إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الخيرات ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه. ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهى الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت، أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعا يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضرى المسجد الحرام.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

﴿ومن حيث خرجت﴾ أى ومن أى بلد خرجت للسفر ﴿فولّ وجهك شطر المسجد

(١) قوله «واستبقوا إليها» لعله واسبقوا. (ع)

الحرام﴾ إذا صليت ﴿وإنه﴾ وإن هذا المأمور به. وقرئ ﴿يعملون﴾ بالتاء والياء. وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأنّ النسخ من مظانّ الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدّوا. ولأنه نيط بكل واحد مالم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها ﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه، لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء. فإن قلت: أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحوّل حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين؟ قلت: كانوا يقولون ماله لا يحوّل إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة. ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى ترككم التوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم وإسمعيل أبى العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بداله فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وقرأ زيد بن على رضى الله عنهما: ألا الذين ظلموا منهم، على أنّ ألا للتنبيه ووقف على حجة، ثم استأنف منبها ﴿فلا تخشوهم﴾ فلا تخافوا مطاعنهم فى قبلتكم فإنهم لا يضرونكم ﴿واخشونى﴾ فلا تخالفوا أمرى وما رأيته مصلحة لكم. ومتعلق اللام محذوف، معناه: ولإتمامى النعمة عليكم وإرادتى اهتداءكم أمرتكم بذلك؛ أو يعطف على علة مقدرة، كأنه قيل. واخشونى لأوفقكم ولأتمّ نعمتى عليكم. وقيل: هو معطوف على (لئلا يكون). وفى الحديث «تمام النعمة دخول الجنة»[1] وعن على رضى الله عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام» ﴿كما أرسلنا﴾ إما أن يتعلق بما قبله، أى: ولأتم نعمتى عليكم فى الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم فى الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده: أى كما ذكرتكم بإرسال الرسول ﴿فاذكرونى﴾ بالطاعة ﴿أذكركم﴾ بالثواب ﴿واشكروا لى﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿ولا تكفرون﴾ ولا تجحدوا نعمائى. ﴿أموات بل أحياء﴾ هم أموات بل هم أحياء ﴿ولكن لا تشعرون﴾ كيف حالهم فى حياتهم. وعن الحسن: أنّ الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشيا، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها. وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ويوصل إليها النعيم وإن كانت فى حجم الذرّة. وقيل: نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر.

(١) أخرجه أحمد والترمذى والبزار من حديث معاذ وسيأتى فى سورة الرحمن.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ولنبلونكم﴾ ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم ، هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا ؟ ﴿بشيء﴾ بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه ﴿وبشر الصابرين﴾ المسترجعين عند البلاء ؛ لأنّ الاسترجاع تسليم وإذعان . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحاً يرضاه»[1] . وروى أنه طفىء سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقيل : أمصيبة هي ؟ قال «نعم كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»[2] وإنما قلل في قوله (بشيء) ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه ، وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزايلهم وإنما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم . (ونقص) عطف على (شيء) أو على الخوف ، بمعنى : وشيء من نقص الأموال . والخطاب في (وبشر) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يتأتى منه البشارة . وعن الشافعي رحمه الله في الخوف : خوف الله . والجوع : صيام شهر رمضان ؛ والنقص من الأموال : الزكوات والصدقات ، ومن الأنفس : الأمراض ، ومن الثمرات : موت الأولاد[3] . وعن النبي صلى الله

---

(١) أخرجه الطبري والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال في قوله تعالى (الذين إذا أصابتهم مصيبة) الآية : إن المؤمن إذا أسلم لأمر الله واسترجع عند المصيبة أحرز ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله ، والرحمة . وتحقيق سبيل الهدى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استرجع ... فذكره .

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عمران القصير قال طفىء مصباح النبي صلى الله عليه وسلم فاسترجع فقالت عائشة رضي الله عنها : إنما هذا مصباح . فقال : كل ماساء المؤمن فهو مصيبة .

(٣) قال محمود رحمه الله : «وعن الشافعي رضي الله عنه : الخوف خوف الله ، والجوع : صيام شهر رمضان ، والنقص من الأموال : الزكوات ، ومن الأنفس : الأمراض ، ومن الثمرات : موت الأولاد» قال أحمد : وفي تفسيره هذا نظر ، لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل ، مذكور قبل وقوعه توطنا عليه عند الوقوع ، ولعله مامن بلية ذكرها إلا وقد تقدمت لهم قبل نزول الآية ، إذ الخوف من الله تعالى لم يزل متمكنا في قلوب المؤمنين ، ويبعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص وقد عبر عنها الشرع بالزكاة التي هي النمو ضد النقص وورد « مانقص مال من صدقة » ويمكن أن يقال هي نقص حساً ؛ وإنما سميت زكاة باعتبار مايؤول إليه حال القيام بها من النمو فالعوض المرجو من كرم الله خلف =

عليه وسلم «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة قلبه ؟ فيقولون : نعم ، فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد»[1] . والصلاة : الحنو والتعطف ، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة . كقوله تعالى : (رأفة ورحمة) (رؤف رحيم) . والمعنى : عليهم رأفة بعد رأفة . ورحمة أىّ رحمة . ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا وسلموا لأمر الله .

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

والصفا والمروة : علمان للجبلين ، كالصمان والمقطم ، والشعائر : جمع شعيرة وهى العلامة ، أى من أعلام مناسكه ومتعبداته : والحج : القصد . والاعتمار : الزيارة . فغلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين ، وهما فى المعانى كالنجم والبيت فى الأعيان . وأصل ﴿يطّوّف﴾ يتطوف فأدغم . وقرئ (أن يطوف) من طاف . فإن قلت : كيف قيل إنهما من شعائر الله ثم قيل لا جناح عليه أن يطوف بهما ؟ قلت : كان على الصفا أساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة ، فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما ، فلما طالت المدة عُبدا من دون الله . فكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما ، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية وأن لا يكون عليهم جناح فى ذلك ، فرفع عنهم الجناح . واختلف فى السعى ، فمن قائل : هو تطوع بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل والترك ، كقوله : (فلا جناح عليهما أن يتراجعا) وغير ذلك ، ولقوله ﴿ومن تطوع خيراً﴾ كقوله (فمن تطوّع خيراً فهو خير له) . ويروى ذلك عن أنس وابن عباس وابن الزبير ، وتنصره قراءة ابن مسعود : فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما . وعن أبى حنيفة رحمه الله أنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم . وعند الأوّلين لاشىء عليه . وعند مالك والشافعى : هو ركن ، لقوله عليه السلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى»[2] وقرئ : ومن يطوّع بمعنى : ومن يتطوع ، فأدغم .

== فلما ذكرها الله تعالى فى سياق الابتلاء الموعود بها عبر عنها بالزكاة تسهيلا لاخراجها على المكلف لأنه إذا استشعر العوض من الله تعالى ونمو ماله بذلك ، هان عليه بذلها وسمحت نفسه لذلك .

(١) أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب . وأخرجه أحمد وغيره من حديث . وصححه ابن حبان . ورواه البيهقى فى الشعب مرفوعا وموقوفا .

(٢) أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حج عن ==

وفى قراءة عبدالله : ومن يتطوّع بخير .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)

﴿ إنّ الذين يكتمون ﴾ من أحبار اليهود ﴿ ما أنزلنا فى التوراة من البينات ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والهدى ﴾ والهداية بوصفه إلى اتباعه والإيمان به ﴿ من بعد ما بيناه ﴾ ولخصناه ﴿ للناس فى الكتاب ﴾ فى التوراة ، لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم ، فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولبسوا على الناس ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

﴿ وأصلحوا ﴾ ما أفسدوا من أحوالهم ، وتداركوا ما فرط منهم ﴿ وبينوا ﴾ ما بينه الله فى كتابهم فكتموه . أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم ليمحوا سمة الكفر عنهم ، ويعرفوا بضدّ ما كانوا يعرفون به ، ويقتدى بهم غيرهم من المفسدين .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

﴿ إنّ الذين كفروا ﴾ يعنى الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبوا ، ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً . وقرأ الحسن : والملائكة والناس أجمعون ، بالرفع عطفاً على محل اسم الله ، لأنه

ـــ الرمل فذكره . رواه الشافعى وأحمد وإسحاق والطبرانى والدارقطنى والحاكم من رواية عبد الله بن المؤمل عن عمر بن عبد الرحمن ابن محيص عن عطاء بن أبى رباح عن حبيبة بنت أبى تجراة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه ، وهو وراءهم يسعى حتى إنى لأرى ركبتيه من شدة السعى ، وهو يقول « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » وعبيد الله ضعيف . وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن عبدالله بن شيبه عن جدته صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبى تجراة . قالت : اطلعت بكرة بين الصفا والمروة فأشرفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو يسعى ، ويقول لأصحابه « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » وأخرجه الطبرانى والبيهقى من رواية ابن عيينة عن المثنى بن الصباح عن المغيرة بن حكيم ، عن صفية عن تملك العبدرية قالت نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى غرفة لى بين الصفا والمروة وهو يقول : « أيها الناس إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا » والمثنى ضعيف . وأخرجه الطبرانى من رواية حميد بن عبد الرحمن عن المثنى بن الصباح فلم يذكر تملك .

فاعل فى التقدير ، كقولك : عجبت من ضرب زيد وعمرو ، تريد من أن ضرب زيد وعمرو ، كأنه قيل : أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ والناس أجمعين ﴾ وفى الناس المسلم والكافر . قلت : أراد بالناس من يعتدّ بلعنه وهم المؤمنون . وقيل : يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿ خالدين فيها ﴾ فى اللعنة . وقيل فى النار إلا أنها أضمرت تفخيما لشأنها وتهويلا ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ من الإنظار أى لا يمهلون ولا يؤجلون ، أو لا ينتظرون ليعتذروا . ولا ينظر إليهم نظر رحمة .

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿ إله واحد ﴾ فرد فى الإلهية لا شريك له فيها ولا يصح أن يسمى غيره إلها . و ﴿ لا إله إلا هو ﴾ تقرير للوحدانية بنفى غيره وإثباته ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ المولى لجميع النعم أصولها وفروعها ، ولا شىء سواه بهذه الصفة ، فإن كلّ ما سواه إمّا نعمة وإمّا منعم عليه . وقيل كان للمشركين حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما ، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا : إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت .

إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿ إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ واعتقابهما لأن كلّ واحد منهما يعقب الآخر ، كقوله : (جعل الليل والنهار خلفة) ﴿ بما ينفع الناس ﴾ بالذى ينفعهم مما يحمل فيها أو ينفع الناس . فإن قلت : قوله ﴿ وبثّ فيها ﴾ عطف على أنزل أم أحيا ؟ قلت : الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة ، لأنّ قوله (فأحيا به الأرض) عطف على أنزل ، فاتصل به وصارا جميعاً كالشىء الواحد ، فكأنه قيل : وما أنزل فى الأرض من ماء وبثّ فيها من كل دابة . ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الأرض وبثّ فيها من كل دابة ؛ لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا .[1] ﴿ وتصريف الرياح ﴾ فى مهابها : قبولا ، ودبورا ، وجنوبا ، وشمالا . وفى

(١) قوله « ويعيشون بالحيا » فى الصحاح : الحيا ـ مقصور ـ : المطر والخصب . (ع)

أحوالها: حارّة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقيما، ولواقح. وقيل تارة بالرحمة، وتارة بالعذاب ﴿والسحاب المسخر﴾ سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يمطر حيث شاء ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة. وعن النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها» أي لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها. وقرئ: والفلك، بضمتين. وتصريف الريح، على الإفراد

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿أندادا﴾ أمثالا من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم. واستدلّ بقوله ﴿إذ تبرّأ الذين اتبعوا﴾. ومعنى: ﴿يحبونهم﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كحب الله﴾ كتعظيم الله[1] والخضوع له، أي كما يحب الله تعالى، على أنه مصدر من المبنى للمفعول. وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس. وقيل: كحبهم الله، أي يسوّون بينه وبينهم في محبتهم، لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴿أشدّ حبا لله﴾ لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره؛ بخلاف المشركين فإنهم يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره، أو يأكلونه كما أكلت باهلة إلهها من حيس عام المجاعة ﴿الذين ظلموا﴾ إشارة إلى متخذي الأنداد أي لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أنّ القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم ويعلمون شدّة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم

(١) قال محمود رحمه الله: «يحبونهم كحب الله: يعظمونهم كما يعظم الله ... الخ» قال أحمد: فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأول، ولكن هذا الفاعل مسمى وفعله مبنى للفاعل عند فكه من السبك.

مالا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم ، فحذف الجواب كما فى قوله (ولو ترى إذ وقفوا) ، وقولهم : لو رأيت فلانا والسياط تأخذه . وقرئ : ولو ترى ، بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب ، أى ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيما . وقرئ : إذ يرون ، على البناء للمفعول . وإذ فى المستقبل كقوله : (ونادى أصحاب الجنة) . ﴿إذ تبرأ﴾ بدل من (إذ يرون العذاب) أى تبرأ المتبوعون وهم الرؤساء من الأتباع . وقرأ مجاهد الأوّل على البناء للفاعل والثانى على البناء للمفعول ، أى تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿ورأوا العـذاب﴾ الواو للحال ، أى تبرؤا فى حال رؤيتهم العذاب ﴿وتقطعت﴾ عطف على تبرأ . و ﴿الأسباب﴾ الوصل التى كانت بينهم : من الاتفاق على دين واحد ، ومن الأنساب ، والمحاب ، والأتباع ، والاستتباع ، كقوله : (لقد تقطع بينكم) ﴿لو﴾ فى معنى التمنى . ولذلك أجيب بالفاء الذى يجاب به التمنى ، كأنه قيل : ليت لنا كرّة فنتبرأ منهم ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الإراء الفظيع ﴿يريهم الله أعمالهم حسرات﴾ أى ندامات وحسرات ، ثالث مفاعيل أرى : ومعناه أنّ أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وما هم بخارجين﴾ هم بمنزلته فى قوله :

* هُمْ يَفْرِشُونَ اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ * [1]

فى دلالته على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

---

(١) قال محمود رحمه الله : « هم ههنا بمنزلته فى قوله هم يفرشون ... الخ » قال أحمد رحمه الله : أشد ما أخفى فى هذه الكلمات معتقداً ورب صدره كلمات فهو ينفس عن نفسه خناق الكتمان بما ينفثه منه فى بعض الأحيان ، وكشف ذلك أن يقال : لما استشعر دلالة الآية لأهل السنة على أنه لا يخلد فى النار إلا الكافر . وأما العاصى ـ وإن أصر على الكبائر ـ فتوحيده يخرجه منها ولا بد وفاء بالوعد . ووجه الدلالة منها على ذلك أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ ، ومثل هذا النظم يقتضى الاختصاص والحصر لغة . وستمر للزمخشرى مواضع يستدل فيها على الحصر بذلك ، فقد قال فى قوله تعالى : (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أن معناه لا ينشر إلا هم ، وأن المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الألوهية فيهم . وكذلك يقول فى أمثال قولهم (وهم بالآخرة هم يوقنون) أن معناه الحصر أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم ، فاذا ابقى الأمر على ذلك لزم حصر نفى الخروج من النار فى هؤلاء الكفار دون غيرهم من الموحدين . لكن الزمخشرى يأبى ذلك ، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة بفائدة تتم له على القاعدة ، فيجعل الضمير المذكور يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم لاختصاصه بهم ، وهم عنده بهذه المثابة ، لأن العصاة وإن خلدوا على زعمه إلا أن الكفار أحق بالخلود وأدخل فى استحقاقه منهم . فسبحان من امتحنه بهذه المحنة على حذقه وفطنته . والله ولى التوفيق .

﴿حلالا﴾ مفعول كلوا ، أو حال مما فى الأرض ﴿طيبا﴾ طاهرا من كل شبهة ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فتدخلوا فى حرام ، أو شبهة ، أو تحريم حلال ، أو تحليل حرام . و «من» للتبعيض ؛ لأن كل ما فى الأرض ليس بمأكول . وقرئ خطوات بضمتين ، وخطوات بضمة وسكون ، وخطؤات بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو ؛ وخطوات بفتحتين ، وخطوات بفتحة وسكون . والخطوة : المرة من الخطو . والخطوة : ما بين قدمى الخاطى . وهما كالغرفة والغرفة ، والقبضة والقبضة . يقال : اتبع خطواته ، ووطئ على عقبه . إذا اقتدى به واستن بسنته ﴿مبين﴾ ظاهر العداوة لاخفاء به ﴿إنما يأمركم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته . أى لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم ﴿بالسوء﴾ بالقبيح ﴿والفحشاء﴾ وما يتجاوز الحد فى القبح من العظائم ، وقيل : السوء مالا حدّ فيه . والفحشاء : مايجب الحدّ فيه ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ وهو قولكم : هذا حلال وهذا حرام ، بغير علم . ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه . فإن قلت : كيف كان الشيطان آمرا مع قوله : (ليس لك عليهم سلطان)؟ قلت : شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر ، كما تقول : أمرتنى نفسى بكذا . وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه ؛ ولذلك قال : (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله) وقال الله تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء) لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ماشتهت .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآأَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآأَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿لهم﴾ الضمير للناس . وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم ، لأنه لاضال أضل من المقلد ، كأنه يقول للعقلاء : انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون . قيل : هم المشركون . وقيل : هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا : ﴿بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا﴾ فإنهم كانوا خيرا منا وأعلم . وألفينا : بمعنى وجدنا ، بدليل قوله : (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) . ﴿أو لو كان آباؤهم﴾ الواو للحال ، والهمزة بمعنى الرد والتعجيب ، معناه : أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

لا بدّ من مضاف محذوف تقديره . ومثل داعي الذين كفروا ﴿كمثل الذى ينعق﴾ أو : ومثل الذين كفروا كبهائم الذى ينعق . والمعنى : ومثل داعيهم إلى الإيمان ـ فى أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوى الصوت ، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار ـ كمثل الناعق بالبهائم ، التى لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذى هو تصويت بها وزجر لها ، ولا تفقه شيئا آخر ولا تعى ، كما يفهم العقلاء ويعون . ويجوز أن يراد بما لا يسمع : الأصم الأصلخ ، الذى لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير ، من غير فهم للحروف . وقيل معناه : ومثلهم فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم ، كمثل البهائم التى لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته ، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل ؟ وقيل معناه : ومثلهم فى دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع ، إلا أنّ قوله ﴿إلا دعاء ونداء﴾ لا يساعد عليه ، لأنّ الأصنام لا تسمع شيئا . والنعيق : التصويت . يقال : نعق المؤذن ، ونعق الراعى بالضأن . قال الأخطل :

فَانْعِقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِى الْخَلَاءِ ضَلَالَا [1]

وأما «نغق الغراب» فبالغين المعجمة ﴿صم﴾ هم صم ، وهو رفع على الذم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ من مستلذاته ، لأنّ كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالا [2] ﴿واشكروا لله﴾ الذى رزقكموها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة . وتقرّون أنه مولى النعم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «يقول الله تعالى : إنى والجنّ والإنس فى نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيرى وأرزق ويُشكر غيرى [3] .

---

(١) للأخطل . ونعق ينعق نعيقا ـ بالعين المهملة ـ إذا صوت بغنمه . ونغق الغراب نغاقا ـ بالمعجمة ـ إذا صاح . أى : صوت لغنمك يا جرير ، واكتف بذلك عن المفاخر فلست من أهلها ، إنما أنت راعى غنم . منتك : حدثتك نفسك ووعدتك وسولت لك فى الفضاء الخالى عن الناس ضلالا وكذبا . لا هدى وصدقا كما تزعم ، وذمه جرير بقوله :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

ورد عليه الأخطل بقوله :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

(٢) قوله «كل ما يرزقه الله لا يكون إلا حلالا» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فقد يكون حراما ، كما بين فى موضعه . (ع)

(٣) أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين والبيهقى فى الشعب من رواية بقية ، حدثنا صفوان ابن عمر . حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير . وشريح بن عبيد عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال «قال الله عز وجل «إنى والجن والانس ...» فذكره سواء .

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)

قرئ ﴿حَرَم﴾ على البناء للفاعل، وحُرِّم على البناء للمفعول، وحَرُم بوزن كرم ﴿أُهلّ به لغير الله﴾ أى رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزى ﴿غير باغ﴾ على مضطر آخر بالاستيثار عليه ﴿ولا عاد﴾ سدّ الجوعة. فإن قلت: فى الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحلت لنا ميتتان ودمان»[1]؟ قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه فى العادة. ألا ترى أنّ القائل إذا قال: أكل فلان ميتة، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دما، لم يسبق إلى الكبد والطحال. ولاعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لم يحنث ـ وإن أكل لحما فى الحقيقة، قال الله تعالى: (لتأكلوا منه لحما طريا) وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافرا لم يحنث ـ وإن سماه الله تعالى دابة فى قوله: (إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا). فإن قلت: فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلت: لأنّ الشحم داخل فى ذكر اللحم، لكونه تابعا له وصفة فيه، بدليل قولهم: لحم سمين، يريدون أنه شحيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (١٧٦)

﴿فى بطونهم﴾ ملء بطونهم. يقال: أكل فلان فى بطنه، وأكل فى بعض بطنه ﴿إلا النار﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار. ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل الدية التى هى بدل منه. قال:

* أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ *[2]

---

(١) أخرجه أحمد والشافعى. وابن ماجه والدار قطنى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) دمشق خذيها واعلمى أن ليلة ... تمر بعودى نعشها ليلة القدر
أكلت دما إن لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

وقال : [١]

* يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافَا * [٢]

أراد ثمن الإكاف ، فسماه إكافا لتلبسه بكونه ثمنا له ﴿ولا يكلمهم الله﴾ تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة فى تكرمة الله إياهم بكلامه وتزكيتهم بالثناء عليهم . وقيل : نفى الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه . وقيل : لايكلمهم بما يحبون ، ولكن بنحو قوله : (اخسئوا فيها ولاتكلمون) . ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجب من حالهم فى التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم ، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن ، تريد أنه لايتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب . وقيل : فما أصبرهم ، فأى شىء صبرهم . يقال : أصبره على كذا وصبره بمعنى .

ـــ لأعرابى تزوج امرأة فلم توافقه ، فقيل له : إن حمى دمشق سريعة فى موت النساء ، فحملها إليها وقال لها ذلك ، ونزل دمشق ـ وهى مدينة بالشام ـ منزلة العاقل فناداها . والظاهر أن هذا التنزيل من باب الاستعارة المكنية والنداء تخييل ، وكذلك الأمر بالعلم ، والمرور : المشى ، فاسناده لليلة مجاز عقلى من الاسناد للزمان ، وهو فى الحقيقة لحملة النعش ، أو بمعنى المضى فهو حقيقة والباء للملابسة ، وهو كناية عن موتها . والعودان : طرفا النعش . وجعل تلك الليلة كليلة القدر عنده لشدة ترقبها وتمنيها والتشوق إليها ، ثم التفت إلى خطابها ودعا على نفسه بقوله : أكلت دما ، أى دية ، لأنها بدل الدم وأخذها عار عند العرب ، لدلالتها على الجبن وحب المال دون الثأر . وإن لم أرعك : من راعه يروعه إذا أخافه . والمراد أنه يغيظها بتزوج ضرة عليها جميلة طويلة العنق . فبعد مهوى القرط : كناية عن ذلك . والقرط : حلى الأذن . ومهواه : مسقطه من المنكب . والنشر : الرائحة الطيبة . ويحتمل أنه دعا على نفسه بالجدب حتى يحتاج لفصد النوق وأكل دمها ، وكذلك كانت تفعل الجاهلية فى الجدب . ويحتمل أن المراد : شربت دما ، فهو تعليق على الممتنع عنده دلالة على تحقيق التزوج ، لأنه يرجع إلى أن عدم التزوج ممتنع كما أن شرب الدم ممتنع . ونظيره ما أنشده أبو إياس :

أمالك عمر إنما أنت حية ... إذا هى لم تقتل تعش آخر العمر
ثلاثين حولا لا أرى منك راحة ... لهنك فى الدنيا لباقية العمر
دمشق خذيها لا تفتك قليلة ... تمر بعودى نعشها ليلة القدر
فان أنفلت من عمر صعبة سالما ... تكن من نساء الناس لى بيضة العقر

ولعل « العمر » فى القافية الأولى بمعنى الدهر . ولهنك هاؤه بدل من همزة إن عند البصريين ، وعند غيرهم أصله : لله إنك . وبيضة العقر : زعموا أنها بيضة الديك لايبيض فى عمره غيرها . وقيل : هى مثل لما لاوجود له أصلا . فالمعنى : أنه يتزوج جميلة لا يتزوج غيرها ، أو أنه لا يتزوج أصلا . وصعبة هى امرأته .

(١) إن لنا أحمرة عجافا ... يأكلن كل ليلة إكافا

الأحمرة : الحمير . والعجاف : المهازيل . والأكاف : البرذعة ، فالمراد : يأكلن كل ليلة علفا مشترى بثمن إكاف ، بأن يباع الأكاف ثم يشترى بثمنه علفا لها ، فأوقع الأكل على الأكاف بواسطتين ، ولعل بيع براذعها لضعفها عن العمل . ويمكن أنه مجرد تقديم ، وإنما خص الاكاف لاختصاصه بالحمير .

(٢) قوله « كل ليلة إكافا » هو ما يوضع على ظهر الحمار عند ركوبه أو تحميله . أفاده الصحاح . (ع)

وهذا أصل معنى فعل التعجب . والذى روى عن الكسائى أنه قال : قال لى قاضى اليمن بمكة . اختصم إلىّ رجلان من العرب لحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له : ما أصبرك على الله ، فمعناه : ما أصبرك على عذاب الله ﴿ذلك بأن الله نزل﴾ أى ذلك العذاب بسبب أنّ الله نزل ما نزل من الكتب بالحق ﴿وإن الذين اختلفوا﴾ فى كتب الله فقالوا فى بعضها حق وفى بعضها باطل وهم أهل الكتاب ﴿لفى شقاق﴾ لفى خلاف ﴿بعيد﴾ عن الحق ، والكتاب للجنس . أو كفرهم ذلك بسبب أنّ الله نزّل القرآن بالحق كما يعلمون ، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين ـ فقال بعضهم : سحر ، وبعضهم : شعر ، وبعضهم : أساطير ـ لفى شقاق بعيد . يعنى أنّ أولئك لو لم يختلفوا ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا .

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَالصَّٰبِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

﴿البر﴾ اسم للخير ولكل فعل مرضىّ ﴿أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ الخطاب لأهل الكتاب [1] لأن اليهود تصلى قبل المغرب إلى بيت المقدس ، والنصارى قبل المشرق . وذلك أنهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، وزعم كل واحد من الفريقين أنّ البرّ التوجه إلى قبلته ، فردّ عليهم . وقيل : ليس البرّ فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البرّ ، ولكن البرّ ما نبينه . وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب فى أمر

---

(١) قال محمود رحمه الله : « الخطاب فيه لليهود والنصارى ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : هذا منقول عن المبرد ، مصمى بسهام الرد ، فان فيه إيهاما بأن اختلاف وجوه القراءة موكول إلى الاجتهاد ، وأنه مهما اقتضاه قياس اللغة جازت القراءة به لمن يعد أهلا للاجتهاد فى العربية واللغة . وهذا خطأ محض ، فالقراآت سنة متبعة لامجال فيها للدراية . على أن ماقاله وقدر أنه الأوجه ليس يبالغ ذروة فصاحة الآية إلا على القراآت المستفيضة ، لأن الكلام مصدر بذكر البر الذى هو المصدر قولا واحدا ، فلو عدل إلى ذكر البر الذى هو الوصف لايفك المطابقة ومعنى النظام . ولذلك كان تأويل الآية بحذف المضاف من الثانى على تأويل : بر من آمن ، أوجه وأحسن وأبق على السياق . ومن ظن أنه يشق غبارا أو يتعلق بأذيال فصاحة المعجز للفصحاء ، فقد سولت له نفسه محالا ومنته ضلالا .

القبلة ، فقيل : ليس البرّ العظيم الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ أمر القبلة ، ولكن البرّ الذى يجب الاهتمام به وصرف الهمة برّ من آمن وقام بهذه الأعمال . وقرئ : وليس البرّ ـ بالنصب على أنه خبر مقدم ـ وقرأ عبد الله : بأن تولوا ، على إدخال الباء على الخبر للتأكيد كقولك : ليس المنطلق بزيد ﴿ ولكنّ البرّ من آمن بالله ﴾ على تأويل حذف المضاف ، أى برّ من آمن ، أو يتأول البرّ بمعنى ذى البرّ ، أو كما قالت :

* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ * (١)

وعن المبرّد : لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت : ولكنّ البرّ ، بفتح الباء . وقرئ : ولكن البارّ . وقرأ ابن عامر ونافع : ولكنِ البر بالتخفيف ﴿ والكتاب ﴾ جنس كتب الله ، أو القرآن ﴿ على حبه ﴾ مع حب المال والشح به ، كما قال ابن مسعود « أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح ، تأمل العيش وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا (٢) » . وقيل :

---

(١) فما عجول على بو تطيف به ... لها حنينان إصغار وإكبار
لاتسأم الدهر منه كلما ذكرت ... فانما هى إقبال وإدبار
يوما بأوجد منى حين فارقنى ... صخر وللدهر إحلاء وإمرار

للخنساء ترثى أخاها صخراً . والعجول : الناقة التى أسقطت حملها قبل تمام شهرين ، والتى فقدت ولدها بنحر أو موت والبو : جلد يحشو تدر الناقة لأجله . وقيل : ولد الناقة . وطاف به يطوف طوفا وطوافا وطوفانا ، إذا دار حوله وطاف عليه يطيف طيفاً ، إذا أقبل عليه . وقد يستعمل كل موضع الآخر ، أى تحوم حوله . ويروى : تحن له . وإصغار وإكبار : بدل من حنينان . ويروى : إعلان وإسرار . والمعنى واحد ، غير أن فيه تقديماً وتأخيراً . أو الاصغار الحنين على الولد الصغير ، والاكبار على الكبير ، كذا قيل ، لكن خير ما فسرته بالوارد . والدهر : نصب بتسأم أى : لاتمل طول الدهر مما ذكر من الحنين ورجوعه للبو ، تأباه جزالة المعنى . ويمكن عوده على الطيف المعلوم من تطيف . ويروى بدل هذا الشطر « ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت » وأصله إذتكرت أى تذكرت . ويروى « ترتع ما غفلت حتى إذا ذكرت » أى ترعى مدة غفلتها عنه ، فاذا تذكرته فانما هى ذات إقبال وذات إدبار ، أو مقبلة ومدبرة ، أو هى نفس الاقبال والادبار مبالغة . أى تلتفت تارة أمامها وتارة خلفها وتتلهى عن الرعى . وقيل المراد إقبال النهار وإدبار الليل وعكسه . ويمكن أن وجهه استقلال المدة ، أى فانما مدة الدهر إقبال وإدبار دائرين بين الليل والنهار ، والضمير عائد على معلوم من السياق ، لكن لايظهر على الرواية الثانية . ويوما : نصب بأوجد وجاز تقدمه على أفعل التفضيل ، لأنه ظرف ، وكذلك تنبيهاً على أن المراد باليوم مطلق الزمن غالباً . وبأوجد : خبر عجول . ويروى « بأوجع » أى ليست أشد حزنا منى حين فارقنى أخي ، وحين نصب بأوجد أيضاً . ووجهه أنه فى معنى عاملين ، أى ليس وجدها يوما أشد من وجدى حين الفراق ، فالأول للأول ، والثانى للثانى ، ثم تسلت بقولها : وللدهر إحلاء وإمرار . ويقال : أحلى الشىء وأمر ، صار حلواً وصار مراً . ويجوز أنهما متعديان . والمراد : أن الدهر ينعم العيش تارة ويبئسه أخرى . فالاحلاء والامرار استعارتان لذلك .

(٢) موقوف ، كذا أخرجه عبد الرزاق عن الثورى عن زبيد عن مرة عنه . قال فى قوله تعالى : (وآتى المال على حبه ذوى القربى) قال « أن يؤتيه » فذكره إلى قوله « ويخشى الفقر » ولم يذكر ما بعده . ومن طريقه أخرجه الطبرانى والحاكم وذكره أبو نعيم فى الحلية . فى ترجمة مسعر فأخرجه من طريقه عن زبيد به . وقال هكذا رواه

على حب الله . وقيل : على حب الإيتاء ، يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه . وقدم ذوى القربى لأنهم أحق . قال عليه الصلاة والسلام : «صدقتك على المسكين صدقة . وعلى ذى رحمك اثنتان لأنهما صدقة وصلة [1]» وقال عليه الصلاة والسلام [2] : «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح [3]» . وأطلق ﴿ذوى القربى واليتامى﴾ والمراد الفقراء منهم لعدم الإلباس . والمسكين : الدائم السكون إلى الناس ، لأنه لا شيء له ، كالمسكير : للدائم السكر ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع . وجعل ابنا للسبيل لملازمته له ، كما يقال للص القاطع : ابن الطريق . وقيل : هو الضيف ، لأنّ السبيل يرعف به [4] ﴿والسائلين﴾ المستطعمين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه [5] ﴿وفى الرقاب﴾ وفى معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم . وقيل

ـــ مسعر والناس . عن زبيد موقوفا رواه مخلد بن يزيد عن الثورى مرفوعا . وتفرد برفعه ثم ساقه . وأخرجه البيهقى من رواية شعبة عن زبيد موقوفا ومن طريق سلام بن سليم المدائنى عن محمد بن طلحة عن زبيد مرفوعا : وسلام ضعيف رواه الطبرى من ثلاثة طرق عن زبيد موقوفا . ولم يذكر أحد منهم ولا تمهل وإنما هو فى حديث أبى هريرة . اتفق الشيخان عليه بلفظ «قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله ، أى الصدقة أفضل ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» .

(١) أخرجه النسائى والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والدارمى كلهم من حديث سلمان بن عامر بلفظ «الصدقة على المسكين حسنة» الترمذى . وفى الباب عن ابن طلحة وأبى أمامة . أخرجها الطبرانى .

(٢) أخرجه عبدالرزاق والحاكم والبيهقى والطبرانى من رواية ابن عيينة عن الزهرى . عن حميد بن عبدالرحمن عن أمه أم كلثوم بنت عقبة . ورواه أبو عبيد فى كتاب الأموال من رواية ابراهيم بن يزيد المكى عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة . وأخرجه من طريق عقيل عن الزهرى مرسلا . لم يذكر أبا هريرة ورواه أحمد من رواية سفيان بن حسين عن الزهرى عن أيوب بن بشير عن حكيم بن حزام ورواه أيضاً هو وإسحاق والطبرانى من طريق الحجاج بن أرطاة عنه عن حكيم بن بشير عن أبى أيوب . فهذه الطرق كلها تدور على الزهرى ، مع اختلاف عليه ، وأحفظهم سفيان بن عنبسة ، وعقيل أحفظ منه . وروايته أشبه بالصواب .

(٣) قوله «ذى الرحم الكاشح» فى الصحاح : تقول طوى فلان عن كشحه ، إذا قطعك . والكاشح الذى يضمر لك العداوة . (ع)

(٤) قوله «لأن السبيل يرعف به» أى يتقدم به ويبرزه للمقيمين ، كما يرعف الأنف بدم الرعاف . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) أخرجه أبو داود من رواية فاطمة بنت الحسين بن على عن أبيها عن على رضوان الله عليه . ومن رواية الحسين بن على ، من غير ذكر أبيه . فى إسنادهما يحيى بن أبى يعلى وقيل : يعلى بن أبى يحيى : وهو مجهول . وقد رواه إسحاق بن راهويه من طريقه فجعله من رواية فاطمة بنت الحسين عن فاطمة ، ورواه الطبرانى من حديث الهرماس بن زياد . وفيه عثمان بن فايد . وهو ضعيف : وقال مالك فى الموطأ : أخبرنا زيد بن أسلم أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فذكره ووصله ابن عدى من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة . وعبدالله ضعيف . ورواه أيضاً من طريق عمر بن يزيد المدائنى عن عطاء عن أبى هريرة . وعمر ضعيف ،

فى ابتياع الرقاب وإعتاقها . وقيل فى فك الأسارى . فإن قلت : قد ذكر إيتاء المال فى هذه الوجوه ثم قفاه بإيتاء الزكاة فهل دلّ ذلك على أنّ فى المال حقا سوى الزكاة ؟ قلت : يحتمل ذلك . وعن الشعبي : أنّ فى المال حقاً سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية . ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة ، أو يكون حثا على نوافل الصدقات والمبارّ . وفى الحديث « نسخت الزكاة كلّ صدقة »[1] يعنى وجوبها . وروى « ليس فى المال حق سوى الزكاة »[2] ﴿والموفون﴾ عطف على من آمن . وأخرج . ﴿الصابرين﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح ، إظهارا لفضل الصبر فى الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال . وقرئ : والصابرون . وقرئ . والموفين ، والصابرين . و﴿البأساء﴾ الفقر والشدّة ﴿والضراء﴾ المرض والزمانة ﴿صدقوا﴾ كانوا صادقين جادّين فى الدين .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

عن عمر بن عبد العزيز ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وعكرمة ، وهو مذهب مالك والشافعي[3] رحمة الله عليهم : أنّ الحر لا يقتل بالعبد ، والذكر لا يقتل بالأنثى ، أخذا بهذه الآية . ويقولون : هى مفسرة لما أبهم فى قوله (النفس بالنفس) ولأن تلك واردة لحكاية ما كتب فى التوراة على أهلها ، وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها . وعن سعيد ابن المسيب ، والشعبي . والنخعى ، وقتادة ، والثورى ، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه : أنهـا منسوخة بقوله (النفس بالنفس) والقصاص ثابت بين العبد والحرّ ، والذكر والأنثى . ويستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الدار قطنى والبيهقى ، من حديث على رضى الله عنه . وإسناده ضعيف . وأخرجه عبد الرزاق من قول على موقوفا

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية أبى حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس بهذا . وترجم عليه ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز ـ وقال البيهقى : والذى يرويه أصحابنا فى التعاليق « ليس فى المال حق سوى الزكاة » لا أحفظ له إسناداً وقد رواه الترمذى وأبو يعلى والطبرانى من هذا الوجه ، بلفظ « إن فى المال حقا سوى الزكاة » قال الترمذى : ليس إسناده بذاك . وقد رواه بيان وإسماعيل عن الشعبي قال . وهو أصح .

(٣) قال محمود رحمه الله : « مذهب مالك والشافعى رضى الله عنهما أن الحر لا يقتل بالعبد والذكر لا يقتل بالأنثى ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وهذا من الزمخشرى وهم على الامامين ، فانهما يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما . وأما الحر والعبد عندهما فهو الذى وهم الزمخشرى عنهما .

« المسلمون تتكافأ دماؤهم [١] » وبأنّ التفاضل غير معتبر فى الأنفس ، بدليل أنّ جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به . وروى « أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء فى الجاهلية ، وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا لنقتلنّ الحر منكم بالعبد منا ، والذكر بالأنثى ، والاثنين بالواحد ، فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء الله بالإسلام فنزلت ، وأمرهم أن يتباوؤا [٢] » ﴿فمن عفى له من أخيه شىء﴾ معناه : فمن عفى له من جهة أخيه [٣] شىء من العفو . على أنه كقولك : سير بزيد بعض السير ، وطائفة من السير . ولا يصح أن يكون شىء فى معنى المفعول به ، لأن « عفا » لا يتعدّى إلى مفعول به إلا بواسطة . وأخوه : هو ولىّ المقتول ، وقيل له أخوه ، لأنه لابسه ، من قبل أنه ولى الدم ومطالبه به ، كما تقول للرجل : قل لصاحبك كذا ، لمن بينه وبينه أدنى ملابسة أو ذكره بلفظ الأخوة ، ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ماهو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام فإن قلت : إن عفى يتعدّى بعن لا باللام ، فما وجه قوله (فمن عفى له) ؟ قلت : يتعدى بعن إلى الجانى وإلى الذنب ، فيقال : عفوت عن فلان وعن ذنبه . قال الله تعالى : (عفا الله عنك) وقال : (عفا

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم من طريق قيس بن عباد عن على فى قصة . ورواه أبو داود وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وزاد « ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم . وهم يد على من سواهم » وفى الباب عن عائشة : رواه البخارى فى تاريخه والدارقطنى . وعن ابن عباس ومعقل بن يسار فى ابن ماجه وعن جابر فى المعجم الأوسط للطبرانى .

(٢) لم أجده .

(٣) قال محمود رحمه الله : « معنى الآية : فمن عفى له من جهة أخيه ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : ويقوى هذا التأويل القول بأن موجب العمد أحد الأمرين من القصاص أو الدية ، والخيار إلى الولى . وهو أحد القولين فى مذهب مالك رضى الله عنه ومشهورهما . إذ لو جعلنا موجب العمد القود على القول الآخر ، لكان فى ذلك تضييق على الولى . والآية مشعرة بالتخفيف والسعة وتحتمل الآية وجها آخر ، وهو عود الضميرين جميعا إلى الولى ، وقالوا على هذا الوجه يكون العفو إعطاء البدل ، كأنه قال : فمن أعطى شيئا من أخيه أى بدلا من أخيه . ويكون « من » مثلها فى قوله تعالى : (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) . ونظيره فى استعمال العفو فى العطاء عندى قوله تعالى : (إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) إذا حمل الذى بيده العقدة على الزوج . وهو مذهب الشافعي رضى الله عنه . ويقول أصحابه . عفوه على أحد وجهين : إما من استرجاع النصف الواجب إن كان قد سلم جميع المهر ، وإما على دفع النصف الآخر الذى سقط عنه إن كان لم يسلمه ، فيكون العفو على هذا مستعملا فى الاعطاء . ويقوى هذا الوجه فى أنه لا قصاص قوله (فاتباع بالمعروف) لأن المخاطب بالاتباع بالمعروف إنما هو الولى ، فاذا جعلنا الضميرين له انساق الكلام سياقة واحدة إلى جهة واحدة ، وصار المعنى : فمن أعطى من الأولياء بدلا من أخيه ، فليتبع بالمعروف فى طلب ما أعطى . ولما خالفه الولى عن التقاضى خاطب القاتل بحسن الأداء ، فلينتظم الكلام موجها إلى وجهة واحدة . وأما على الوجه الذى قرره الزمخشرى ، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل وتقدير الكلام : فمن عفى له من القاتلين عن جنايته شىء من العفو فليتبع الولى هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف ، فيكون المخاطب أول الآية القاتل ، وآخرها الولى ، بخلاف الوجه الذى قررته والله أعلم . وكلا الوجهين حسن جيد .

الله عنها) فإذا تعدى إلى الذنب والجانى معا قيل : عفوت لفلان عما جنى ، كما تقول : غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه . وعلى هذا ما فى الآية ، كأنه قيل : فمن عفى له عند جنايته ، فاستغنى عن ذكر الجناية . فإن قلت : هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء فى معنى المفعول به ؟ قلت : لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس بثبت ، ولكن أعفاه . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « وأعفوا اللحى »[1] فإن قلت . فقد ثبت قولهم : عفا أثره إذا محاه وأزاله ، فهلا جعلت معناه : فمن محى له من أخيه شيء ؟ قلت : عبارة قلقة فى مكانها ، والعفو فى باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة فى الكتاب والسنة واستعمال الناس، فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها ، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ ــ إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله ــ على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا تعرفه ، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها . فإن قلت ؟ لم قيل : شيء من العفو ؟ قلت : للإشعار بأنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم ، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب إلا الدية ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فليكن اتباع ، أو فالأمر اتباع . وهذه توصية للمعفو عنه والعافى جميعا . يعنى فليتبع الولى القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة ، وليؤدّ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان ، بأن لا يمطله ولا يبخسه ﴿ذلك﴾ الحكم المذكور من العفو والدية ﴿تخفيف من ربكم ورحمة﴾ لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذ الدية ، وعلى أهل الإنجيل العفو وحرّم القصاص والدية ، وخيرت هذه الأمة بين الثلاث : القصاص والدية والعفو ، توسعة عليهم وتيسيراً ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ التخفيف ، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل[2]، أو القتل بعد أخذ الدية . فقد كان الولى فى الجاهلية يؤمّن القاتل بقبوله الدية ، ثم يظفر به فيقتله ﴿فله عذاب أليم﴾ نوع من العذاب شديد الألم فى الآخرة . وعن قتادة : العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية . لقوله عليه السلام « لا أعافى أحداً قتل بعد أخذه الدية » ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ كلام فصيح لما فيه من الغرابة[3] ، وهو أنّ القصاص قتل وتفويت للحياة ، وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة ؛ لأنّ المعنى : ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما

(٢) قوله « من قتل غير القاتل » بيان للتجاوز والاعتداء . (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : « كلام فصيح لما فيه من الغرابة . . . الخ » . قال أحمد رحمه الله : قوله جعل أحد الضدين محلا للآخر : كلام إماوهم فيه أو تسامح ، لأن شرط تضاد الحياة والموت اجتماعهما فى محل واحد تقديراً ، ولا تضاد بين حياة غير المقتص منه وموت المقتص ، والبلاغة التى أوضحها فى الآية بينة بدون هذا الاطلاق .

يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل ، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أىّ حياة ، أو نوع من الحياة ، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا همّ بالقتل فعلم أنه يقتصّ فارتدع منه سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود ، فكان القصاص سبب حياة نفسين . وقرأ أبو الجوزاء : ولكم فى القصاص حياة : أى فيما قص عليكم من حكم القتل . والقصاص . وقيل القصص : القرآن ، أى ولكم فى القرآن حياة للقلوب : كقوله تعالى : (روحا من أمرنا) ، (ويحيى من حىّ عن بينة) . ﴿لعلكم تتقون﴾ أى أريتكم ما فى القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس (لعلكم تتقون) تعملون عمل أهل التقوى فى المحافظة على القصاص والحكم به . وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ إذا دنا منه وظهرت أماراته (خيراً) مالا كثيراً . عن عائشة رضى الله عنها أنّ رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار ، فقالت : ماأرى فيه فضلا .[1] وأراد آخر أن يوصى فسألته : كم مالك ؟ فقال : ثلاثة آلاف . قالت : كم عيالك ؟ قال : أربعة . قالت : إنما قال الله (إن ترك خيراً) وإنّ هذا الشىء يسير فاتركه لعيالك [2] ، وعن علىّ رضى الله عنه : أنّ مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة فمنعه [3] . وقال : قال الله تعالى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن الثورى عن منصور بن صفية حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير «أن عائشة سئلت عن رجل مات وله أربعمائة دينار . وله عدة من الولد . فقالت عائشة : ما فى هذا فضل عن ولده» وعن ابن جريج عن منصور بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة مثله ، وزاد «فلامته عائشة ، وقالت : إن ذلك لقليل» قلت : منصور ابن عبد الرحمن هو ابن صفية . فكأنه سمعه من أمه ومن عبد الله كلاهما عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا أبو معاوية عن محمد بن شريك عن ابن أبى مليكة عن عائشة «أن رجلا قال لها : إنى أريد أن أوصى - فذكره» .

(٣) أخرجه عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن هشام عن أبيه قال «دخل على رضى الله عنه على مولى له فى الموت فقال : ألا أوصى ؟ فقال له على : إنما قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وليس لك كثير مال . قال : وكان له سبعمائة درهم» ورواه ابن أبى شيبة عن أبى خالد الأحمر عن هشام به .

(إن ترك خيراً) والخير هو المال ، وليس لك مال . والوصية فاعل كتب ، وذكر فعلها للفاصل ، ولأنها بمعنى أن يوصى ، ولذلك ذكر الراجع فى قوله : (فمن بدّله بعد ماسمعه) والوصية للوارث كانت فى بدء الإسلام فنسخت بآية المواريث ، وبقوله عليه السلام «إنّ الله أعطى كلّ ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث[١] » وبتلقى الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الآحاد ، لأنهم لايتلقون بالقبول إلا الثبت الذى صحت روايته . وقيل : لم تنسخ ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين . وقيل : ماهى بمخالفة لآية المواريث . ومعناها : كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين [٢] من قوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم) أو كتب على المحتضر أن يوصى للوالدين والأقربين بتوفير ماأوصى به الله لهم عليهم ، وأن لاينقص من أنصبائهم ﴿بالمعروف﴾ بالعدل ، وهو أن لا يوصى للغنى ويدع الفقير ولايتجاوز الثلث ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد ، أى حق ذلك حقاً ﴿فمن بدّله﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بعد ماسمعه﴾ وتحققه ﴿فإنما إثمه على الذين يبدّلونه﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدّليه دون غيرهم من الموصى والموصى له ، لأنهما بريان من الحيف ﴿إنّ الله سميع عليم﴾ وعيد المبدّل ﴿فمن خاف﴾ فمن توقع وعلم ، وهذا فى كلامهم شائع يقولون : أخاف أن ترسل السماء ، يريدون التوقع والظنّ الغالب الجارى مجرى العلم ﴿جنفا﴾ ميلا عن الحق بالخطأ فى الوصية ﴿أو إثما﴾ أو تعمداً للحيف ﴿فأصلح بينهم﴾ بين الموصى لهم وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فلا إثم عليه﴾ حينئذ ، لأنّ تبديله تبديل باطل إلى حق ذكر من يبدّل بالباطل ثم من يبدّل بالحق ليعلم أنّ كل تبديل لا يؤثم [٣] .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى : وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبى أمامة ، والترمذى أيضا وصححه ، والنسائى وابن ماجه من حديث عمرو بن خارجة ، وابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبى سعيد أنه حدثه عن أنس بن مالك به .

(٢) قوله « من توريث الوالدين والأقربين من » لعله فى . (ع)

(٣) قوله « أن كل تبديل لا يؤثم » لعل المعنى أن ليس كل تبديل يؤثم (ع)

﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم . قال علىّ رضى الله عنه : أوّلهم آدم ، يعنى أنّ الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمّة من افتراضها عليهم ، لم يفرضها عليكم وحدكم ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها وتعظيمها لأصالتها وقدمها ، أو لعلكم تتقون المعاصى ، لأنّ الصائم أظلف لنفسه[1] وأردع لها من مواقعة السوء . قال عليه السلام : « فعليه بالصوم [2] فإنّ الصوم له وجاء [3] » أو لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين ، لأنّ الصوم شعارهم . وقيل معناه : أنه كصومهم فى عدد الأيام وهو شهر رمضان ، كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موتان ، فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده . فجعلوه خمسين يوماً . وقيل : كان وقوعه فى البرد الشديد والحرّ الشديد ، فشقّ عليهم فى أسفارهم ومعايشهم فجعلوه بين الشتاء والربيع ، وزادوا عشرين يوما كفارة لتحويله عن وقته . وقيل : الأيام المعدودات : عاشوراء ، وثلاثة أيام من كل شهر . كتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم صيامها حين هاجر . ثم نسخت بشهر رمضان . وقيل : كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء وبعد أن يناموا ، ثم نسخ ذلك بقوله (أحلّ لكم ليلة الصيام...الآية) . ومعنى ﴿معدودات﴾ موقتات بعدد معلوم . أو قلائل ، كقوله (دراهم معدودة) وأصله أنّ المال القليل يقدّر بالعدد ويتحكر فيه . والكثير يهال هيلا ويحثى حثيا . وانتصاب أياماً بالصيام ، كقولك : نويت الخروج يوم الجمعة ﴿أو على سفر﴾ أو راكب سفر ﴿فعدّة﴾ فعليه عدّة . وقرئ بالنصب بمعنى : فليصم عدّة وهذا على سبيل الرخصة . وقيل : مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدّة ﴿من أيام أخر﴾ واختلف فى المرض المبيح للإفطار ، فمن قائل : كل مرض ، لأنّ الله تعالى لم يخص مرضا دون مرض كما لم يخص سفراً دون سفر ، فكما أنّ لكل مسافر أن يفطر ، فكذلك كل مريض . وعن ابن سيرين أنه دخل عليه فى رمضان وهو يأكل فاعتلّ بوجع أصبعه . وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه ، فقال : إنه فى سعة من الإفطار . وقائل : هو المرض الذى يعسر معه الصوم ويزيد فيه ، لقوله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ وعن الشافعى : لا يفطر حتى يجهده الجهد غير المحتمل . واختلف أيضاً فى القضاء فعامّة العلماء على التخيير . وعن أبى عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه : « إنّ الله لم يرخص لكم فى

---

(١) قوله « لأن الصائم أظلف لنفسه » فى الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء منعه عنه . وظلفت نفسى عن كذا ـ بالكسر ـ : كلمت (ع)

(٢) قوله « قال عليه السلام فعليه بالصوم » صدره : يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم الخ . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود

فطره وهو يريد أن يشق عليكم فى قضائه ، إن شئت فواتر ، وإن شئت ففرق»[1] وعن علىّ وابن عمر والشعبي وغيرهم أنه يقضى كما فات متتابعاً.[2] وفى قراءة أبىّ: فعدّة من أيام أخر متتابعات . فإن قلت : فكيف قيل (فعدّة) على التنكير ولم يقل: فعدّتها ، أى فعدة الأيام المعدودات ؟ قلت : لما قيل : فعدّة ، والعدّة بمعنى المعدود فأمر بأن يصوم أياما معدودة مكانها ، علم أنه لا يؤثر عدد على عددها ، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا ﴿فدية طعام مسكين﴾ نصف صاع من برّ أو صاع من غيره عند أهل العراق ، وعند أهل الحجاز مدّ . وكان ذلك فى بدء الإسلام : فرض عليهم الصوم ولم يتعوّدوه فاشتدّ عليهم ، فرخص لهم فى الإفطار والفدية . وقرأ ابن عباس : يطوّقونه ، تفعيل من الطوق إما بمعنى الطاقة أو القلادة ، أى يكلفونه أو يقلدونه ويقال لهم صوموا . وعنه : يتطوّقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه . ويطوّقونه بإدغام التاء فى الطاء . ويطيقونه ويطيّقونه بمعنى يتطوّقونه ، وأصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه ، على أنهما من فيعل وتفعيل من الطوق ، فأدغمت الياء فى الواو بعد قلبها ياء كقولهم : تدير المكان وما بها ديار . وفيه وجهان : أحدهما نحو معنى يطيقونه . والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز ، وحكم هؤلاء الإفطار والفدية . وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ . ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه ، أى يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فمن تطوّع خيراً﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فهو خير له﴾ فالتطوع أخير له أو الخير . وقرئ فمن يطوّع ، بمعنى يتطوّع ﴿وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوّقون وحملتم على أنفسكم وجهدتم طاقتكم ﴿خير لكم﴾ من الفدية وتطوّع الخير . ويجوز أن ينتظم فى الخطاب المريض والمسافر أيضاً . وفى قراءة أبىّ : والصيام خير لكم .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

الرمضان : مصدر رمض إذا احترق ـ من الرمضاء ـ فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل «ابن داية» للغراب بإضافة الابن إلى داية البعير ،

(١) موقوف : الدارقطنى من روايته . (٢) أخرجه عبد الرزاق عنهما قالا «يقضيه تباعا»

لكثرة وقوعه عليها إذا دبرت. فإن قلت: لم سمى ﴿شهر رمضان﴾؟ قلت: الصوم فيه عبادة قديمة، فكأنهم سموه بذلك لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته، كما سموه ناتقا لأنه كان ينتقهم أى يزعجهم إضجاراً بشدته عليهم. وقيل لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر. فإن قلت: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً[1]»، «من أدرك رمضان فلم يغفر له[2]». قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس كما قال: * بِمَا أَعْيَا النِّطَاسِي حِذْيَمَا *[3] أراد ابن حذيم، وارتفاعه على أنه مبتدأ خبره ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ أو على أنه بدل من الصيام في قوله (كتب عليكم الصيام) أو على أنه خبر مبتدإ محذوف. وقرئ بالنصب على: صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من (أياما معدودات)، أو على أنه مفعول (وأن تصوموا). ومعنى (أنزل فيه القرآن) ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر. وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوما. وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله (كتب عليكم الصيام) كما تقول أنزل في عمر كذا، وفي علىّ كذا. وعن النبي عليه السلام «نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين مضين[4]». ﴿هدى للناس وبينات﴾ نصب على الحال، أى أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات بما يهدى إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل. فإن قلت: ما معنى قوله (وبينات من الهدى) بعد قوله (هدى للناس)؟ قلت: ذكر أوّلا أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق به بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فمن كان

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه

(٢) أخرجه الترمذى من رواية عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة رفعه «رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ـ الحديث» قلت: ليس هذا موافقا للفظ المصنف. والموافق له ما أخرجه ابن حبان.

(٣) فهل لكم فيها إلى فانني بصير بما أعيي النطاسى حذيما

يقول: فهل لكم رغبة فيما ينسب إلى من إصابة الرأى، فإنى بصير بحل الأمور المعضلة. وكنى عن ذلك بقوله: بما أعيي حذيما النطاسى، وهو طبيب ماهر حاذق. وحذيم ـ بكسر فسكون ـ أراد به ابن حذيم، لأنه كنيته، فحذف جزء الاسم لأمن اللبس. والنطاسى نسبة للنطاس وزان القرطاس، وهو في لغة الروم بمعنى الحاذق الماهر في الطب. وتخفيفه هنا إما من تصرف العرب، وإما لأجل الوزن. وقيل معناه: فهل لكم رأى وتبصر فيما يرجع نفعه إلى، ثم أعرض عن مشاورتهم بقوله: فإنى أعلم وأعرف منكم بما أعيي النطاسى، ولا يخفى أنه لا موقع للفاء حينئذ، إلا أن يكون المعنى بأنه يطلب منهم الرشوة.

(٤) أخرجه أحمد والطبرانى من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا به. وفى الباب عند أبي داود. وأخرجه الثعلبي في تفسيره. وعن جابر أخرجه أبو يعلى.

شاهداً ، أى حاضراً مقيما غير مسافر فى الشهر ، فليصم فيه ولا يفطر . والشهر : منصوب على الظرف وكذلك الهاء فى (فليصمه) ولا يكون مفعولا به كقولك : شهدت الجمعة ، لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿ يريد الله ﴾ أن ييسر عليكم ولا يعسر ، وقد نفى عنكم الحرج فى الدين ، وأمركم بالحنيفية السمحة التى لا إصر فيها ، وجملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر فى السفر والمرض . ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر ، حتى زعم أن من صام منهما فعليه الإعادة . وقرئ : اليسر ، والعسر ـ بضمتين . الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره [1] ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ شرع ذلك يعنى جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر ، فقوله (لتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدة (ولتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير ، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان . وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد ، كأنه قيل : ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم . ومعنى (ولعلكم تشكرون) وإرادة أن تشكروا . وقرئ (ولتكملوا) بالتشديد . فإن قلت : هل يصح أن يكون (ولتكملوا) معطوفا على علة مقدرة ، كأنه قيل لتعملوا ما تعلمون ، ولتكملوا العدة . أو على اليسر ، كأنه قيل : يريد الله بكم اليسر ، ويريد بكم لتكملوا ، كقوله : (يريدون ليطفئوا) ؟ قلت : لا يبعد ذلك والأول أوجه . فإن قلت : ما المراد بالتكبير ؟ قلت : تعظيم الله والثناء عليه . وقيل : هو تكبير يوم الفطر . وقيل : هو التكبير عند الإهلال [2] .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

﴿ فإنى قريب ﴾ تمثيل لحاله فى سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بحال من قرب مكانه ، فإذا دعى أسرعت تلبيته ، ونحوه (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقوله عليه الصلاة والسلام : « هو بينكم وبين أعناق رواحلكم [3] » وروى أن أعرابيا قال لرسول الله

---

(١) قال محمود رحمه الله : « الفعل المعلل محذوف تقديره شرع ذلك ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : ولقبه الخاص به فى صناعة البديع : رد أعجاز الكلام إلى صدوره . ولقد أحسن الزمخشرى فى التنقيب عنه فهو منظوم فى سلك حسناته .

(٢) قوله « عند الاهلال » أى الاحرام بالنسك . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة . فلما قفلنا أشرفنا على المدينة ، فكبر الناس ، ورفعوا أصواتهم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم . إن ربكم ليس بأصم ولا غائب ، هو بينكم وبين رءوس رواحلكم » ورواه الترمذى .

صلى الله عليه وسلم : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه [١] ؟ فنزلت . ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أنى أجيبهم إذا دعونى لحوائجهم . وقرئ يرشدون ويرشدون ، بفتح الشين وكسرها .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب[٢] والجماع إلى أن يصلى العشاء الآخرة أو يرقد ، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة ، ثم إنّ عمر رضى الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة ، فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله ، إنى أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخاطئة وأخبره بما فعل ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما كنت جديرا بذلك ياعمر . [٣] فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء ، فنزلت . وقرئ : أحل لكم ليلة الصيام الرفث ، أى أحل الله . وقرأ عبدالله :

---

(١) أخرجه الطبرى وابن أبى حاتم والدارقطنى فى المؤتلف من رواية الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده « أن أعرابيا ـ فذكره ـ وزاد » بعد قوله « فنناديه » « فسكت عنه »

(٢) قال محمود رحمه الله : « كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل . . . الخ » قال أحمد رحمه الله : ويشهد لصحة هذا الجواب أنه لما استقرت الاباحة فيه قال (فالآن باشروهن) فكنى عنه الكناية المألوفة فى الكتاب العزيز . ويشكل بقوله (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) فان هذه العبارة استعملت ولم ينقل فى الحج ما نقل فى الصوم من سبب نزول الآية وهو مواقعة المكروه . ويمكن أن يجاب عنه لما وقع فى آية الحج منهياً عنه أريد للشعبة عندهم كيلا يقعوا فيه ، فعبر عنه بما هجنه لكون ذلك منفراً لهم عن التورط .

(٣) رواه الطبرى من طريق عطية عن ابن عباس فى قوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) الآية ، قال : كان الناس أول ماأسلموا إذا صاموا يطعمون من الطعام فيما بين المساء والعتمة . فاذا صلوا العتمة حرم عليهم الطعام حتى يمسوا من الليلة القابلة وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو نائم إذ سولت له نفسه فأتى أهله فذكره . ليس فيه « فقام رجال فاعترفوا » وروى الطبرى من طريق السدى قال « كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع على جارية له فى ناس من المسلمين لم يملكوا أنفسهم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم » .

الرفوث ، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه ، كلفظ النيك ، وقد أرفث الرجل . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه أنشد وهو محرم :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا ... إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا (١)

فقيل له : أرفثت ؟ فقال : إنما الرفث ما كان عند النساء . (٢) وقال الله تعالى : فلا رفث ولا فسوق ، فكنى به عن الجماع ، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك . فإن قلت : لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله : (وقد أفضى بعضكم إلى بعض) ، (فلما تغشاها) ، (باشروهن) ، (أو لامستم النساء) ، (دخلتم بهنّ) ، (فأتوا حرثكم) ، (من قبل أن تمسوهنّ) ، (فما استمتعتم به منهن) ، (ولا تقربوهنّ) ؟ قلت : استهجانا لما وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم . فإن قلت : لم عدى الرفث بإلى ؟ قلت : لتضمينه معنى الإفضاء . لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه فى عناقه ، شبه باللباس المشتمل عليه . قال الجعدى :

إذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا ... تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا (٣)

فإن قلت : ما موقع قوله (هنّ لباس لكم) ؟ قلت : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة قلّ صبركم عنهنّ وصعب عليكم اجتنابهنّ ، فلذلك رخص لكم فى مباشرتهنّ ﴿تختانون أنفسكم﴾ تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير . والاختيان من الخيانة ، كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة ﴿فتاب عليكم﴾ حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ واطلبوا ما قسم الله لكم وأثبت فى اللوح من الولد بالمباشرة ، أى لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل .

---

(١) أنشده ابن عباس فى الحج ، فقال له أبو العالية : أترفث وأنت محرم ؟ فقال إنما الرفث ما كان عند النساء . وقال بعضهم : قال حصين بن قيس : أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول : وهن . . . البيت . فقلت له : أترفث وأنت محرم ؟ فقال : إنما الرفث ما قيل عند النساء . وهن ، أى النوق «يمشين بنا» أى معنا . والهميس : نوع من السير لا صوت له ، نصب بيمشين . وإن تصدق الطير ، أى التى تفاءلنا بها حيث طارت جهة اليمين ، وشبه الطير بمخبر على طريق المكنية والصدق تخييل . وروى : إن يصدق الظن ، والفعل بعده جواب الشرط ولفظ «النيك» هو الحقيقة فى إدخال الذكر فى الفرج ، وما عداه ـ كالوطء والجماع والملامسة ـ مجاز فى الأصل أو كناية ، ولذلك قبح النطق بها دون غيرها . ولميس : اسم امرأة ، ولعل ابن عباس ضربه مثلا للظفر بما كان يقصده

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك من طريق زياد بن الحسين عن أبى العالية «أترفث وأنت محرم ؟ فقال : إنما الرفث ما روجع به النساء» وأخرجه ابن أبى شيبة والطبرى من هذا الوجه . والهميس : بفتح الهاء وآخره مهملة : ضرب من السير ، لا يسمع له وقع . ذكره ثابت السرقسطى .

(٣) للنابغة الجعدى . و «ما» زائدة . والضجيع : المضاجع . والعطف ـ بالكسر ـ : الجانب . تثنت : بالغت فى مطلوبه من التعانق فكانت مشتملة عليه كاللباس ، فهو تشبيه بليغ . ويروى : ثنى جيدها ، أى عنقها

وقيل : هو نهى عن العزل لأنه فى الحرائر . وقيل : وابتغوا المحل الذى كتبه الله لكم وحلله دون مالم يكتب لكم من المحل المحرّم . وعن قتادة : وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر . وقرأ ابن عباس (واتبعوا) وقرأ الأعمش (وأتوا) وقيل معناه : واطلبوا ليلة القدر وما كتب الله لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتموها ، وهو قريب من بدع التفاسير ﴿الخيط الأبيض﴾ هو أوّل مايبدو من الفجر المعترض فى الأفق كالخيط الممدود . و ﴿الخيط الأسود﴾ ما يمتدّ معه من غبش الليل ، شبها بخيطين أبيض وأسود . قال أبو داود [1] :

فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سُدْفَةٌ وَلَاحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا [2]

وقوله ﴿من الفجر﴾ بيان للخيط الأبيض ، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود . لأنّ بيان أحدهما بيان للثانى . ويجوز أن تكون «من» للتبعيض : لأنه بعض الفجر وأوّله . فإن قلت : أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه ؟ قلت : قوله (من الفجر) أخرجه من باب الاستعارة ، كما أن قولك : رأيت أسداً مجاز . فإذا زدت «من فلان» رجع تشبيها . فإن قلت : فلم زيد (من الفجر) حتى كان تشبيها ؟ وهلا اقتصر به على الاستعارة التى هى أبلغ من التشبيه وأدخل فى الفصاحة ؟ قلت : لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام ، ولو لم يذكر (من الفجر) لم يعلم أن الخيطين مستعاران ، فزيد (من الفجر) فكان تشبيها بليغا وخرج من أن يكون استعارة . فإن قلت : فكيف التبس على عدىّ بن حاتم مع هذا البيان حتى قال : عمدت إلى عقالين أبيض وأسود [3] فجعلتهما تحت وسادتى فكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلا يتبين لى الأبيض من الأسود ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فضحك وقال : «إن كان وسادك لعريضا» ، وروى : «إنك لعريض القفا» [4] إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل» ؟ قلت : غفل عن البيان ، ولذلك عرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه ، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته . وأنشدتنى بعض البدويات لبدوى :

---

(١) قوله «قال أبو داود» لعله : دؤاد . (ع)

(٢) لأبى داود . وأضاء وأنار ، يجيئان لازمان كما هنا ومتعديين . والسدفة بياض الفجر يشوبه قليل ظلام . وفى لغة نجد : الظلمة . وأسدفت المرأة القناع : أرسلته . وأسدف الليل : أظلم . وعند غيرهم هى الاضاءة والصبح . وأسدف الصبح . أضاء . وأسدف الباب فتحه . وشبه بياض بعض الصبح بالخيط فى امتداده . ويجوز أن «من» بيانية ، وجملة أنار صفة خيط ، وجواب الشرط فيما بعده .

(٣) متفق عليه من حديث الشعبى عن عدى بن حاتم .

(٤) هذه الرواية فى البخارى أيضا من طريق الشعبى عن عدى بن حاتم أيضا

عَرِيضُ القَفَا مِيزَانُهُ فِي شِمَالِهِ قَدِ انْحَصَّ مِنْ حَسْبِ القَرَارِيطِ شَارِبُهْ (١)

فإن قلت : فما تقول فيما روى عن سهل بن سعد الساعدى (٢) : أنها نزلت ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبينا له ، فنزل بعد ذلك (من الفجر) فعلموا أنه إنما يعنى بذلك الليل والنهار ؟ وكيف جاز تأخير البيان وهو يشبه العبث ، حيث لا يفهم منه المراد ، إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة ، ولا بتشبيه قبل ذكر الفجر ، فلا يفهم منه إذن إلا الحقيقة وهى غير مرادة ؟ قلت : أما من لم يجوز تأخير البيان ـ وهم أكثر الفقهاء والمتكلمين ، وهو مذهب أبى علىّ وأبى هاشم ـ فلم يصح عندهم هذا الحديث . وأما من يجوزه فيقول : ليس بعبث . لأن المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب ويعزم على فعله إذا استوضح المراد منه ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ قالوا : فيه دليل على جواز النية بالنهار (٣) فى صوم رمضان ، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر ، وعلى نفى صوم الوصال ﴿عاكفون فى المساجد﴾ معتكفون فيها . والاعتكاف أن يحبس نفسه فى المسجد يتعبد فيه . والمراد بالمباشرة الجماع لما تقدم من قوله (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) ، (فالآن باشروهن) وقيل معناه : ولا تلامسوهنّ بشهوة ، والجماع يفسد الاعتكاف ، وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل . وعن قتادة كان الرجل إذا اعتكف خرج فباشر امرأته ثم رجع إلى المسجد ، فنهاهم الله عن ذلك . وقالوا : فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى مسجد ، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد . وقيل : لا يجوز إلا فى مسجد نبىّ وهو أحد المساجد الثلاثة . وقيل : فى مسجد جامع . والعامة على

(١) يصف رجلا بالغباوة على طريق الكناية . فعرض القفا : كناية عن الحمق . وكون ميزانه فى شماله : كناية عن البله . وانحص : أى انحسر شاربه ، لكثرة ما يعض على شفته عند الحسب ، كناية عن البلادة .

(٢) متفق عليه من رواية أبى حازم عنه .

(٣) قال محمود رحمه الله : « قالوا فيه دليل على جواز النية بالنهار . . . الخ » . قال أحمد : وجه : استدلالهم من الآية على الحكم الأول متعذر ، لأن إقران النية بأول الصوم وجوداً غير معتبر باتفاق ، وتقديمها من الليل وتستصحب معتبر باتفاق ، فاذاً لا تنافى بين الأكل والشرب إلى الفجر وبين نية الصوم المستقبل من الليل . ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دل عليه ، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية فى النهار ـ لو كان الأكل والشرب ليلا إلى الفجر ـ ينافى صحة استصحاب النية ، وكان اقتضاء الآية لجواز الأكل والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر لوجود المنافى لها ولا بد منها ، فيتعين أن يوقع بعد الفجر على هذا التقدير . وذلك التقدير كما علمت متفق على بطلانه . وأما الاستدلال بها على الحكمين الآخرين فصحيح مستند والله أعلم . ولتفطن الزمخشرى لبطلان الاستدلال بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم فقال : قالوا ، لا يقولها إلا فى مثل هذا المعنى ، ولم يسعه التنبيه على بطلان الاستدلال لأنه على وفق مذهبه .

أنه فى مسجد جماعة . وقرأ مجاهد : فى المسجد ﴿ تلك ﴾ الأحكام التى ذكرت ﴿ حدود الله فلا تقربوها ﴾ فلا تغشوها فإن قلت : كيف قيل [1] ﴿ فلا تقربوها ﴾ مع قوله (فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله) ؟ قلت : من كان فى طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف فى حيز الحق فنهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع فى حيز الباطل ثم بولغ فى ذلك فنهى أن يقرب الحد الذى هو الحاجز بين حيزى الحق والباطل لئلا يدانى الباطل ، وأن يكون فى الواسطة متباعداً عن الطرف فضلا عن أن يتخطاه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه [2] » فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد . ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصا ، لقوله (ولا تباشروهنّ) وهى حدود لا تقرب .

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

ولا يأكل بعضكم مال بعض ﴿ بالباطل ﴾ بالوجه الذى لم يبحه الله ولم يشرعه . ولا ﴿ تدلوا بها ﴾ ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿ لتأكلوا ﴾ بالتحاكم ﴿ فريقا ﴾ طائفة ﴿ من أموال الناس بالإثم ﴾ بشهادة الزور ، أو باليمين الكاذبة ، أو بالصلح ، مع العلم بأن المقضى له ظالم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال للخصمين : « إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلىّ ، ولعلّ بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذنّ منه شيئا ، فإن ما أقضى [3] له قطعة من نار » فبكيا وقال كل واحد منهما : حقى لصاحبى . فقال « اذهبا فتوخيا ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه » [4] وقيل (وتدلوا بها) وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة . وتدلوا : مجزوم داخل فى حكم النهى ، أو منصوب بإضمار أن ، كقوله (وتكتموا الحق) . ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنكم على الباطل ، وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح ، وصاحبه أحق بالتوبيخ .

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : « إن قلت كيف قال فلا تقربوها . . . الخ » قال أحمد رحمه الله تعالى : وفى هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضى الله تعالى عنه فى سد الذرائع والاحتياط للمحرمات لا يدافع عنه .

(٢) متفق عليه . وله ألفاظ .

(٣) قوله « فان ما أقضى » لعله : فانما . (ع)

(٤) أخرجه أبو داود ، والدارقطنى ، والحاكم ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن أبى شيبة ، وأبو يعلى ، كلهم من رواية أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة . وأصله فى الصحيحين بدون الزيادة .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

وروى أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصارى قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزلت [١] ﴿مواقيت﴾ معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرهم وعدد نسائهم وأيام حيضهنّ ومدد حملهنّ وغير ذلك ، ومعالم للحج يعرف بها وقته. كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا داراً ولا فسطاطا من باب ، فإذا كان من أهل المدر نقب نقبا فى ظهر بيته منه يدخل ويخرج ، أو يتخذ سلما يصعد فيه ؛ وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فقيل لهم : ﴿ليس البرّ﴾ بتحرّجكم من دخول الباب ﴿ولكن البرّ﴾ برّ ﴿من اتقى﴾ ما حرّم الله. فإن قلت : ما وجه اتصاله بما قبله [٢] ؟ قلت : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة فى نقصانها ـ وتمامها معلوم ـ : أنّ كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده ، فدعوا السؤال عنه وانظروا فى واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر فى شيء وأنتم تحسبونها برّا. ويجوز أن يجرى ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج ، لأنه كان من أفعالهم فى الحج . ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم فى سؤالهم ، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى : ليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم ، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك وتجنبه

(١) عزاه الواحدى فى الأسباب إلى ابن الكلبي مختصراً وذكره الشعبي ، كما ذكره المصنف .

(٢) قال محمود رحمه الله : « فان قلت ماوجه إيصال هذا الكلام ... الخ » قال أحمد رحمه الله : ومثل هذا من الاستطراد فى كتاب الله تعالى قوله : (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طريا ... إلى آخر الآية) فانه تعالى بين عدم الاستواء بينهما إلى قوله (أجاج) وبذلك تم القصد فى تمثيل عدم استواء الكافر والمسلم ، ثم قوله (ومن كل تأكلون) لايتقرر به عدم الاستواء ، بل المفاد به استواؤهما فيما ذكر ، فهو من إجراء الله الكلام بطريق الاستطراد المذكور . وإنما مثلت هذا النوع الذى نبه عليه الزمخشرى لأنه مفرد عن الاستطراد الذى بوب عليه أهل صناعة البديع والمطابق لما بوبوا عليه سواء قوله تعالى : (لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) . فانه ذم اليهود واستطرد بذلك ذم المشركين المنكرين للبعث على نوع من التشبيه لطيف المنزع وفى البديع التمثيل بقوله :

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه   فليس به بأس وإن كان من جرم

وسيأتى فيه مزيد تقرير إن شاء الله .

ولم يحسر على مثله . ثم قال ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ أى وباشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا . والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب ، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك فى ذلك حتى لا يسأل عنه ؛ لما فى السؤال من الانهام بمقارفة الشك (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

المقاتلة فى سبيل الله : هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿ الذين يقاتلونكم ﴾ الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين . وعلى هذا يكون منسوخا بقوله (وقاتلوا المشركين كافة) . وعن الربيع بن أنس رضى الله عنه : هى أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقاتل من قاتل ويكف عمن كف . أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان الرهبان والنساء . أو الكفرة كلهم لأنهم جميعا مضادّون للسلمين قاصدون لمقاتلتهم ، فهم فى حكم المقاتلة ، قاتلوا أو لم يقاتلوا . وقيل : لما صدّ المشركون رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء ، خاف المسلمون أن لا يفى لهم قريش ويصدّوهم ويقاتلوهم فى الحرم وفى الشهر الحرام وكرهوا ذلك نزلت وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم فى الحرم والشهر الحرام ، ورفع عنهم الجناح فى ذلك ﴿ ولا تعتدوا ﴾ بابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين [1] بينكم وبينهم عهد أو بالمثلة أو بالمفاجأة من غير دعوة ﴿ حيث ثقفتموهم ﴾

(١) قوله « والذين » لعله أو الذين . (ع)

حيث وجدتموهم فى حل أو حرم . والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة . ومنه : رجل ثقف ، سريع الأخذ لأقرانه . قال :

فَإِمَّا تَثْقَفُونِي فَاقْتُلُونِي فَمَنْ أَثْقَفْ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ (١)

﴿من حيث أخرجوكم﴾ أى من مكة وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يسلم منهم يوم الفتح ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أى المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل . وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت ؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت ، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التى يتمنى عندها الموت . ومنه قول القائل :

لَقَتْلٌ بِحَدِّ السَّيْفِ أَهْوَنُ مَوْقِعًا عَلَى النَّفْسِ مِنْ قَتْلٍ بِحَدِّ فِرَاقِ (٢)

وقيل (الفتنة) عذاب الآخرة (ذوقوا فتنتكم) وقيل : الشرك أعظم من القتل فى الحرم ، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ويعيبون به المسلمين ، فقيل : والشرك الذى هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه . ويجوز أن يراد : وفتنتهم إياكم بصدّكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم فى الحرم ، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم . وقرئ : ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم ، فإن قتلوكم : جعل وقوع القتل فى بعضهم كوقوعه فيهم . يقال : قتلتنا بنو فلان . وقال : فإن تقتلونا نقتلكم ﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك والقتال ، كقوله (إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) . ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أى شرك ﴿ويكون الدين لله﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ فلا تعدوا على المنتهين لأنّ مقاتلة المنتهين عدوان وظلم ، فوضع قوله (إلا على الظالمين) موضع على المنتهين . أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين ، سمى جزاء الظالمين ظلما للمشاكلة ، كقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) أو أريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

---

(١) « إما » هى « أن » الشرطية أدغمت نونها فى « ما » الزائدة للتنصيص على التعميم . والثقف : القبض والضبط . ومنه « الثقاف » وهو الآلة التى تعض الرماح وتقبضها لتقويمها . يقول : إن تدركونى فى أى وقت وتغلبونى فاقتلونى ، فان من أدركنى منكم ليس مجابا أو منتهيا إلى خلود ، بل لابد من قتله . وهذا من الاشاحة والجد فى القتال ، وقطع أطماع الصلح من البال .

(٢) يقول : تالله إن القتل بالسيف أهون على النفس وقوعا من القتل بالفراق . وشبهه بالسيف على طريق المكنية ، وإضافة الحد إليه تخييل ، وحسن الاستعارة مشاكلته لما قبله .

قاتلهم المشركون عام الحديبية فى الشهر الحرام وهو ذو القعدة ، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتال وذلك فى ذى القعـدة : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ أى هذا الشهر بذلك الشهر وهتكه بهتكه ، يعنى تهتـكون حرمتـه عليهم كما هتـكوا حرمته عليـكم ﴿والحرمات قصاص﴾ أى وكل حرمة يجرى فيها القصاص من هتك حرمة أىّ حرمة كانت ، اقتص منه بأن تهتك له حرمة ، فحين هتـكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا ، وأكد ذلك بقوله ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليـكم واتقوا الله﴾ فى حال كونـكم منتصرين ممن اعتدى عليـكم ، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لـكم .

وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

الباء فى ﴿بأيديكم﴾ مزيدة مثلها فى أعطى بيده للمنقاد . والمعنى : ولا تقبضوا التهلكة أيديكم ، أى لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالـكة لـكم . وقيل (بأيديكم) بأنفسكم : وقيل تقديره : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم ، كما يقال : أهلك فلان نفسه بيده ، إذا تسبب لهلاكها . والمعنى : النهى عن ترك الإنفاق فى سبيل الله لأنه سبب الهلاك ، أو عن الإسراف فى النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله . أو عن الاستقتال والإخطار بالنفس ، أو عن ترك الغزو الذى هو تقوية للعدو . وروى أن رجلا من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس : ألقى بيده إلى التهلـكة . فقال أبو أيوب الأنصارى : نحن أعلم بهذه الآية ، وإنما أنزلت فينا ، صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه . وشهدنا معه المشاهد ، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا . فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها ، رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها ، فكانت التهلـكة الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد [1] . وحكى أبو على فى الحلبيات عن أبى عبيدة ، التهلـكة والهلاك والهلك واحد . قال : فدلّ هذا من قول أبى عبيدة على أن

(١) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمى أخبرنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم بن عمران ـ فذكره سواء . وأصله عند أبى داود والنسائى والترمذى من رواية أسلم المذكور . قال « خرجنا من المدينة نريد القسطنطينية . وعلى الجماعة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد . فخرج من المدينة صف عظيم من الروم وصففنا لهم صفاً عظيما من المسلمين فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم . فصاح الناس : ألقى بيدَه إلى التهلـكة فقال أبو أيوب : ياأيها الناس ، الحديث ـ وفى رواية الترمذى « وعلى الناس فضالة بن عبيد » وفى رواية النسائى « وعلى أهل مصر عقبة بن خالد » « وعلى أهل الشام فضالة » وكذا أخرجه أحمد وإسحاق ، وأبو يعلى ، والطبرى ، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وغيرهم .

التهلكة مصدر . ومثله ماحكاه سيبويه من قولهم التضرة والتسرة ونحوها فى الأعيان : التنضبة والتنفلة . ويجوز أن يقال : أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوهما ، على أنها مصدر من هلك فأبدلت من الكسرة ضمة ، كاجاء الجوار فى الجوار .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ ائتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهما . قال :

تَمَامُ الْحَجِّ أَنْ تَقِفَ الْمَطَايَا عَلَى خَرْقَاءَ وَاضِعَةَ اللِّثَامِ [(١)]

جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذى لايتم إلا به . وقيل : إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، روى ذلك عن علىّ وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم . وقيل : أن تفرد لكل واحد منها سفراً كما قال محمد : حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل . وقيل : أن تكون النفقة حلالا . وقيل : أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية . فإن قلت : هل فيه دليل على وجوب العمرة ؟ قلت : ما هو إلا أمر بإتمامهما ، ولا دليل فى ذلك على كونهما واجبين أو تطوّعين ؛ فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعا ، إلا أن تقول : الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما ، بدليل قراءة من قرأ : وأقيموا الحج والعمرة . والأمر للوجوب فى أصله ، إلا أن يدلّ دليل على خلاف الوجوب ، كما دلّ فى قوله (فاصطادوا) ، (فانتشروا)

(١) لذى الرمة . وخرقاء : اسم محبوبة له من بنى عامر ، لأنه لما شغف بها خرق أدواته وقال : إن تمام حجنا أن نزور خرقاء فتقفه مطايا رجل مسافر ، فأصلحى لى أدواتى . فقالت : والله لا أحسن العمل وإنى لخرقاء أى حمقاء ، حولها حال كونها واضعة اللثام عن وجهها حتى أراه . وإضافة الوصف إلى مفعوله لفظية لاتفيده التعريف فصح حالا . وحكى أن بعض السلف الصالح قال لصاحبه : هل نتم حجنا كما قال ذو الرمة ، وأنشد البيت . قيل وحقيقة مراده أنه ينبغى كما قطعنا البرارى ووصلنا إلى حرمه ، أن نقطع أهواء النفس حتى نشاهد آثار كرمه ، فيكون استعماله البيت من باب التمثيل .

ونحو ذلك ، فيقال لك : فقد دلّ الدليل على نفى الوجوب ، وهو ماروى أنه قيل : يارسول الله : العمرة واجبة مثل الحج ؟ قال : « لا ، ولكن أن تعتمر خير لك »[١] وعنه «الحج جهاد والعمرة تطوّع »[٢] . فإن قلت : فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : إن العمرة لقرينة الحج .[٣] وعن عمر رضى الله عنه أنّ رجلا قال له : إنى وجدت الحجّ والعمرة مكتوبين علىّ ، أهللت بهما جميعاً فقال : « هديت لسنة نبيك »[٤] وقد نظمت مع الحج فى الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج ؟ قلت : كونها قرينة للحج أنّ القارن يقرن بينهما ، وأنهما يقترنان فى الذكر فيقال : حجّ فلان واعتمر والحجاج والعمار ، ولأنها الحجّ الأصغر ، ولا دليل فى ذلك على كونهاقرينة له فى الوجوب . وأمّا حديث عمر رضى الله عنه فقد فسر الرجل كونهمامكتوبين عليه بقوله : أهللت بهما . وإذا أهلّ بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوّع من الصلاة . والدليل الذى ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقى الحجّ وحده فيها ، فهما بمنزلة قولك : صم شهر رمضان وستة من شوال ، فى أنك تأمره بفرض وتطوّع . وقرأ علىّ وابن مسعودوالشعبى رضى الله عنهم (والعمرة لله) بالرفع ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحجّ وهو الوجوب ﴿فإن أحصرتم﴾ يقال : أُحصر فلان ، إذا منعه أمر من خوف أومرض أوعجز . قال الله تعالى (الذين أحصروا فى سبيل الله) . وقال ابن ميادة :

وَمَا هَجْرُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ تَبَاعَدَتْ عَلَيْكَ وَلاَ أَنْ أَحْصَرَتْكَ شَغُولُ[٥]

---

(١) أخرجه الترمذى من رواية حجاج بن أرطاة عن ابن المنكدر « أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : لا . وأن تعتمر هو أفضل » ورواه الطبرانى من رواية عبيد الله بن المغيرة عن أبى الزبير عن جابر ، بلفظ « وأن تعتمر خير لك » ورواه الدارقطنى من الوجهين . وضعفه .

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية إسحاق بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه بهذا . ورواه الطبرانى من حديث ابن عباس بنحوه وفيه محمد بن الفضل بن عطية . وهو ضعيف . ورواه ابن أبى داود فى المصاحف من رواية عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عمه عن مسعود . قال الدارقطنى فى العلل : هذا خطأ . ولعله أراد إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عمه عيس بن طلحة . وإنما يعرف هذا الحديث من رواية معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة . ورواه الحفاظ من أصحاب شعبة عن معاوية بن إسحاق عن أبى صالح عن ماهان مرسلا . وكذلك رواه ابن أبى شيبة عن جرير عن معاوية بن إسحاق . وقال البيهقى : روى عن شعبة هذا الاسناد موصولا . لكن الطريق فيه إلى شعبة ضعيف .

(٣) أخرجه البخارى تعليقا . والشافعى موصولا . من رواية عمرو بن دينار عن طاوس عنه .

(٤) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان ، من رواية أبى وائل عن الضبى بن معبد به .

(٥) لتوبة بن حمير ، يقول لنفسه : ليس هجر ليلى الأخيلية محبوبتك لتباعدها عنك ولا لأشغال منعتك عنها ، بل لخوف الرقباء والوشاة هجرتها . ويجوز أن المعنى : ليس هجرها لك بسبب ، وإنما هو لايذائك واحتراق قلبك .

وحُصر : إذا حبسه عدوّ عن المضىّ ، أو سجن . ومنه قيل للمحبس : الحصير . وللملك ، الحصير ، لأنه محجوب . هذا هو الأكثر فى كلامهم ، وهما بمعنى المنع فى كل شيء ، مثل صدّه وأصدّه . وكذلك قال الفرّاء وأبو عمرو الشيبانى ، وعليه قول أبى حنيفة رحمهم الله تعالى ، كل منع عنده من عدوّ كان أو مرض أو غيرهما معتبر فى إثبات حكم الإحصار . وعند مالك والشافعى منع العدوّ وحده . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل»[1] ﴿ فما استيسر من الهدى ﴾ فما تيسر منه . يقال : يسر الأمر واستيسر ، كما يقال : صعب واستصعب . والهدى جمع هدية ، كما يقال فى جدية السرج[2] جدى . وقرئ (من الهدىّ) بالتشديد جمع هدية كمطية ومطىّ . يعنى فإن منعتم من المضى إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة ، فإن قلت : أين ومتى ينحر هدى المحصر ؟ قلت : إن كان حاجا فبالحرم متى شاء عند أبى حنيفة يبعث به ، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار[3] وعندهما فى أيام النحر وإن كان معتمراً فبالحرم فى كل وقت عندهم جميعاً . و «ما استيسر» رفع بالابتداء ، أى فعليه ما استيسر . أو نصب على : فاهدوا ما استيسر ﴿ ولا تحلقوا رؤسكم ﴾ الخطاب للمحصرين : أى لا تحلوا حتى تعلموا أنّ الهدى الذى بعثتموه إلى الحرم بلغ ﴿ محله ﴾ أى مكانه الذى يجب نحره فيه . ومحل الدين وقت وجوب قضائه ، وهو ظاهر على مذهب أبى حنيفة رحمه الله . فإن قلت : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم نحر هديه حيث أحصر[4] ؟ قلت : كان محصره طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة وهو من الحرم ، وعن الزهرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه فى الحرم . وقال الواقدى : الحديبية هى طرف الحرم على تسعة أميال

---

(١) أخرجه أصحاب السنن وأحمد ، وإسحاق ، و بن أبى شيبة ، والطبرانى من حديث عكرمة عن ابن عمرو ابن غزية الأنصارى .

(٢) قوله « فى جدية السرج » فى الصحاح « الجدية » بتسكين الدال : شيء محشو يجعل تحت دفتى السرج والرحل . ثم قال : وكذلك الجدية على فعيلة . (ع)

(٣) قوله « على يده يوم أمار » عبارة البيضاوى : يوم أمارة ، فاذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل . وفى الصحاح : قال الأصمعي : الأمار و لأمارة . الوقت والعلامة . (ع)

(٤) أما نحر الهدى حين حصر ففى البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم خرج معتمراً . فحال كفار قريش بينه وبين البيت فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية » وأما كونه أسفل مكة فرواه (*) وأما حديث الزهرى فلم أجده لكن روى الطبرى من حديث ناجية بن جندب الأسلمى « قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم حين صد عن البيت . فقلت : يا رسول الله ابعث معى بالهدى فينحر بالحرم . قال : كيف تصنع به ؟ قال : أنحدر به فى أودية فلا يقدرون عليه . فانطلقت به حتى نحرته فى الحرم .

(*) بياض فى الأصل .

من مكة ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ فمن كان به مرض يحوجه إلى الحلق ﴿أو به أذى من رأسه﴾ وهو القمل أو الجراحة ، فعليه إذا احتلق فدية ﴿من صيام﴾ ثلاثة أيام ﴿أو صدقة﴾ على ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من بر ﴿أو نسك﴾ وهو شاة . وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « لعلك أذاك هوامك ؟ قال : نعم يارسول الله . قال : « احلق رأسك وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو انسك شاة [١] » وكان كعب يقول : فىّ نزلت هذه الآية ، وروى أنه مرّ به وقد قرح رأسه [٢] فقال : « كفى بهذا أذى » [٣] وأمره أن يحلق ويطعم ، أو يصوم . والنسك مصدر ، وقيل جمع نسيكة . وقرأ الحسن : أو نسك ، بالتخفيف ﴿فإذا أمنتم﴾ الإحصار ، يعنى فاذا لم تحصروا وكنتم فى أمن وسعة ﴿فمن تمتع﴾ أى استمتع ﴿بالعمرة إلى الحج﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج : انتفاعه بالتقرب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقربه بالحج . وقيل : إذا حلّ من عمرته انتفع باستباحة ماكان محرّماً عليه إلى أن يحرم من الحج ﴿فما استيسر من الهدى﴾ هو ، هدى المتعة ، وهو نسك عند أبى حنيفة ويأكل منه . وعند الشافعى يجرى مجرى الجنايات ولا يأكل منه . ويذبحه يوم النحر عندنا . وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته ﴿فمن لم يجد﴾ الهدى ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام ثلاثة أيام فى الحج﴾ أى فى وقته وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله . والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما ، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم . وعند الشافعى : لاتصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكا بظاهر قوله : ﴿فى الحج﴾ ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبى حنيفة ، وعند الشافعى : هو الرجوع إلى أهاليهم . وقرأ ابن أبى عبلة (وسبعة) بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام ، وكأنه قيل : فصيام ثلاثة أيام ، كقوله (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) فإن قلت فما فائدة الفذلكة ؟ قلت : الواو قد تجىء للإباحة فى نحو قولك : جالس الحسن وابن سيرين . ألا ترى أنه لو جالسهما جميعا أو واحداً منهما كان ممتثلا ففذلكت نفيا لتوهم الإباحة . وأيضا ففائدة الفذلكة فى كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا ليحاط به ، ومن جهتين ، فيتأكد العلم . وفى أمثال العرب : علمان خير من علم ، وكذلك ﴿كاملة﴾ تأكيد آخر . وفيه

(١) متفق عليه . وله طريق وألفاظ فى الكتب الستة وغيرها . والأقرب للفظ المصنف ماوراه مالك .

(٢) قوله « وقد قرح رأسه » فى الصحاح : قرح جلده ـ بالكسر ـ خرجت به القروح . (ع)

(٣) أخرجه إسحق فى مسنده والطبرانى والدارقطنى من رواية الزبير بن عدى عن أبى وائل عن كعب بن عجرة قال « لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسى فتناثر القمل . فقال : كفى بهذا أذى ، انطلق فاحلق وتصدق على ستة مساكين » وفى رواية إسحق ، قال : « إن هذا لأذى » وأمره أن يحلق وأن ينسك أو يصوم أو يطعم »

زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها ، كما تقول للرجل إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزل : الله الله لا تقصر . وقيل : كاملة فى وقوعها بدلا من الهدى . وفى قراءة أبىّ : فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴿ذلك﴾ إشارة إلى التمتع ، عند أبى حنيفة وأصحابه . لا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عندهم ، ومن تمتع منهم أو قرن كان عليه دم وهو دم جناية لا يأكل منه ؛ وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فدمهما دم نسك يأكلان منه . وعند الشافعى : إشارة إلى الحكم الذى هو وجوب الهدى أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئا [1] . وحاضرو المسجد الحرام : أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبى حنيفة . وعند الشافعى : أهل الحرم ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة ﴿واتقوا الله﴾ فى المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه فى الحج وغيره ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن خالف ليكون علمكم بشدة عقابه لطفاً لكم فى التقوى .

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

أى وقت الحج ﴿أشهر﴾ كقولك : البرد شهران . والأشهر المعلومات : شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة [2] عند أبى حنيفة . وعند الشافعى : تسع ذى الحجة وليلة يوم النحر . وعند مالك : ذى الحجة كله . فإن قلت : ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر ؟ قلت : فائدته أن شيئا من أفعال الحج لا يصح إلا فيها ، والإحرام بالحج لا ينعقد أيضا عند الشافعى فى غيرها . وعند أبى حنيفة ينعقد إلا أنه مكروه . فإن قلت : فكيف كان الشهران وبعض الثالث أشهر ؟ قلت : اسم الجمع

---

(١) قوله «ولم يوجب عليهم شيئاً» أى على حاضرى المسجد الحرام . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «هى شوال وذو القعدة ... الخ» . قال أحمد : الذى نقله عن مالك أحد قوليه وليس بالمشهور عنه . وأما استدلاله لهذا القول بكراهية عمر الاعتمار إلى أن يهل المحرم فلا ينهض دليلا لمالك ، لأنه يقول : لا تنعقد العمرة فى أيام منى خاصة لمن حج ، ما لم يتم الرمى ويحل بالافاضة فتنعقد . وجميع السنة ماعدا ماذكر ميقات للعمرة ، ولا تظهر فائدة هذا القول عند مالك إلا فى إسقاط الدم عن مؤخر طواف الافاضة إلى آخر ذى الحجة لاغير ، وهى الفائدة التى نقلها الزمخشرى عن عروة ، ولعمرى إن هذا القول حسن دليلا ، فلا يحتاج إلى مزيد . ولكن ظاهر الآية ومقتضاها : أن جملة الأشهر هى زمان الحج . ألا ترى أن من قال : وعشر من ذى الحجة يحتاج فى تنزيل الآية على مذهبه إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه ، ويستشهد على ذلك بقوله :
«ثلاثون شهرا فى ثلاثة أحوال» وإنما أحوجه إلى الاستشهاد ، خروج مقالته عن ظاهر الآية ؛ فالمتمسك بها على ظاهرها فى كمال الأشهر الثلاثة واقف مع اقتضائها غير مضطر إلى مزيد عليه .

يشترك فيه ماوراء الواحد . بدليل قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) فلا سؤال فيه إذن ، وإنما كان يكون موضعا للسؤال لو قيل : ثلاثة أشهر معلومات . وقيل : نزّل بعض الشهر منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا ، أو على عهد فلان ، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر ، وإنما رآه فى ساعة منها . فإن قلت : ماوجه مذهب مالك وهو مروىّ عن عروة بن الزبير ؟ قلت : قالوا إنّ العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر ؛ فكأنها مخلصة للحج لامجال فيها للعمرة . وعن عمر رضى الله عنه : أنه كان يخفق الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتمار فيهنّ . وعن عمر[1] رضى الله عنه قال لرجل : إن أطعتنى انتظرت حتى إذا أهللت المحرم[2] خرجت إلى ذات عرق فأهللت منها بعمرة . وقالوا : لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر ﴿ معلومات ﴾ معروفات عند الناس لايشكلن عليهم . وفيه أنّ الشرع لم يأت على خلاف ماعرفوه ، وإنما جاء مقررا له ﴿ فمن فرض فيهنّ الحج ﴾ فمن ألزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوقه عند أبى حنيفة وعند الشافعى بالنية ﴿ فلا رفث ﴾ فلا جماع ؛ لأنه يفسده . أو فلا فحش من الكلام ﴿ ولا فسوق ﴾ ولا خروج عن حدود الشريعة وقيل . هو السباب والتنابز بالألقاب ﴿ ولا جدال ﴾ ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين[3] : وإنما أمر باجتناب ذلك . وهو واجب الاجتناب فى كل حال[4] لأنه مع الحج أسمج كلبس الحرير فى الصلاة ؛ والتطريب فى قراءة القرآن . والمراد بالنفى وجوب انتفائها ، وأنها حقيقة بأن لا تكون . وقرئ المنفيات الثلاث بالنصب وبالرفع . وقرأ أبو عمرو وابن كثير الأولين بالرفع ؛ والآخر بالنصب ؛ لأنهما حملا الأولين على معنى النهى ، كأنه قيل : فلا يكونن رفث ولا فسوق ، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل : ولا شك

---

(١) قوله «وعن عمر» لعله ابن عمر . (ع)

(٢) قوله «حتى إذا أهللت المحرم» فى الصحاح : أهل الهلال واستهل ، على مالم يسم فاعله . (ع)

(٣) قوله «والمكارين» فى الصحاح : الكراء ممدود ، لأنه مصدر كاريت . والدليل على ذلك أنك تقول : رجل مكار . ومفاعل : إنماهومن فاعلت اهـ فالمكارين فى عبارة المفسر . جمع للمكارى ، على زنة المفاعلين جمعا للمفاعل . (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : «إنما أمر باجتناب ذلك فى الحج واجتنابه واجب ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان ، وهى أن تخصيص الحج بالنهي عن الرفث فيه والفسوق والجدال يشعر بأنها فى غير الحج وإن كانت منهيا عنها وقبيحة ، إلا أن ذلك القبح الثابت لها فى غير الحج كلاقبح بالنسبة إلى وقوعها فى الحج فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة والله أعلم . على أن الرفث إن كان التحدث فى أمر الجماع خاصة ، فالنهى عنه خاص بالحج وهو جائز فى غيره على الوجه الشرعى . وقد نبه مالك رضى الله عنه على أنه لابأس للحاج بالسعى فى أمور النساء ، إلا أن ذلك قد يوقع فى الوهم أنه يؤدى إلى ترك المحظور ، وهذا يدل على تشديد مالك فى حظر الرفث للحاج وما يتعلق به والله أعلم . وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحق فى قوله من التنبيه : وتحريم الغيبة على الصائم . فيقولون : وعلى المفطر ، فلا فائدة فى تخصيص الصائم ، ويعدون ذلك وهما منه وهم بمعزل عن هذه الآية وأمثالها ، فقد أوسعته عذراً فى عبارته تلك ؛ إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة وصحة العبارات.

ولا خلاف فى الحج وذلك أنّ قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام ، وسائر العرب يقفون بعرفة ؛ وكانوا يقدّمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسىء ، فرد إلى وقت واحد وردّ الوقوف إلى عرفة ، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف فى الحج . واستدلّ على أن المنهى عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئة يوم[1] ولدته أمه[2] » وأنه لم يذكر الجدال ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ حث على الخير عقيب النهى عن الشر ؛ وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ، ومكان الفسوق البرّ والتقوى ؛ ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة . أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم مانهوا عنه ، وينصره قوله تعالى ﴿ وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى ﴾ أى اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح فإنّ خير الزاد اتقاؤها . وقيل: كان أهل اليمن لا يتزوّدون ويقولون : نحن متوكلون ، ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كلاًّ على الناس ، فنزلت فيهم . ومعناه : وتزوّدوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس[3] والتثقيل عليهم ، فإن خير الزاد التقوى ﴿ واتقون ﴾ وخافوا عقابى ﴿ يا أولى الألباب ﴾ يعنى أن قضية اللب تقوى الله ، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

---

(١) قوله « خرج كهيئة يوم » لعله « كهيئته » بدون « يوم » . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) قوله «وإبرام الناس» فى الصحاح : أبرمه ، أى أمله وأضجره . (ع)

﴿فضلا من ربكم﴾ عطاء منه وتفضلا ، وهو النفع والربح بالتجارة ، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج ، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق ، ويسمون من يخرج بالتجارة الداج [١] . ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج . وقيل : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يتجرون فيها فى أيام الموسم . وكانت معايشهم منها ، فلما جاء الإسلام تأثموا ، فرفع عنهم الجناح فى ذلك وأبيح لهم ، وإنما يباح مالم يشغل عن العبادة ، وعن ابن عمر رضى الله عنه : أن رجلا قال له : إنا قوم نكرى فى هذا الوجه وإن قوما يزعمون أن لا حج لنا . فقال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما سألت فلم يرد عليه ، حتى نزل (ليس عليكم جناح) فدعا به فقال : أنتم حجاج [٢] . وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له : هل كنتم تكرهون التجارة فى الحج ؟ فقال : وهل كانت معايشنا إلا من التجارة فى الحج [٣] . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : فضلا من ربكم فى مواسم الحج . إن تبتغوا فى أن تبتغوا [٤] ﴿أفضتم﴾ دفعتم بكثرة ، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة ، وأصله أفضتم أنفسكم ، فترك ذكر المفعول كما ترك فى دفعوا من موضع كذا وصبوا . وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه [٥]: صب فى دقران ، وهو يخرش [٦] بعيره بمحجنه ، ويقال : أفاضوا فى الحديث وهضبوا فيه [٧] . و ﴿عرفات﴾ علم للموقف سمى بجمع كأذرعات . فإن قلت : هلا منعت الصرف وفيها السببان : التعريف والتأنيث ؟[٨]

---

(١) قوله « الداج» الدجيج : الدبيب فى السير وقالوا : الحاج والداج ، فالداج : الأعوان والمكارون كذا فى الصحاح . والمكارون : جمع المكارى ، كالمغازين جمع المغازى . (ع)

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد وابن أبى شيبة والحاكم من طريق العلاء بن المسيب : حدثنا أبو أمامة التيمى قال « كنت أكرى فى هذا الوجه وكان قوم يقولون : إنه ليس لك حج ، فلقيت ابن عمر ، فقال : ألست بمحرم ، ولكن ـ الحديث »

(٣) أخرجه الطبرى من طريق عبد الرحمن بن مهاجر عن أبى صالح مولى عمر . قال « قلت : ياأمير المؤمنين ـ فذكره » وفى إسناده مندل بن على . وهو ضعيف .

(٤) قوله «أن تبتغوا» كان الأوجه تقديم هذا على تفسير قوله تعالى (فضلا من ربكم) . (ع)

(٥) لم أجده . والذى فى الغرائب لأبى عبيد الجرى . وفى مسند الشافعى وطبقات ابن سعد كلهم من حديث ابن عيينة عن ابن المنكدر ، وعن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن جبير بن الحويرث قال « رأيت أبا بكر على قزع . وهو يخرش بعيره بمحجنه » : زاد الجرى عن أبى بكر بن أبى شيبة عن ابن عيينة «كأنى أنظر إلى فخذه وقد انكشفت »

(٦) قوله « دقران » فى بعض النسخ : ذفران ، بالذال المعجمة والفاء . ولعل الأول بالدال المهملة والفاء ، من الدفر بمعنى النتن خاصة . والذفر ـ بالمعجمة والفاء محركة ـ ذكاء الرائحة طيبة أو خبيثة ، كما فى الصحاح . أما الدقر بالمهملة والقاف فبمعنى الشدة والكذب والفحش والنميمة . أفاده الصحاح . وفيه . الخرش مثل الخدش . (ع)

(٧) قوله « وهضبوا فيه» فى الصحاح : الهضبة المطرة . وهضب القوم فى الحديث واهتضبوا أى أفاضوا فيه . (ع)

(٨) قال محمود رحمه الله : « فإن قلت هلا منعت عرفات الصرف ... الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : يلزمه إذا

قلت : لايخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التى فى لفظها ، وإما بتاء مقدرة كما فى سعاد ؛ فالتى فى لفظها ليست للتأنيث ، وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث ولايصح تقدير التاء فيها ، لأنّ هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لايقدر تاء التأنيث فى بنت ، لأن التاء التى هى بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها . وقالوا : سميت بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصرها عرفها . وقيل إن جبريل حين كان يدور به فى المشاعر أراه إياها فقال : قد عرفت . وقيل : التقى فيها آدم وحوّاء فتعارفا . وقيل : لأنّ الناس يتعارفون فيها والله أعلم بحقيقة ذلك ، وهى من الأسماء المرتجلة لأنّ العرفة لاتعرف فى أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف . وقيل : فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة لأنّ الإفاضة لاتكون إلا بعده . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج»[1] ﴿فاذكروا الله﴾ بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات . وقيل : بصلاة المغرب والعشاء . و ﴿المشعر الحرام﴾ قزح ، وهو الجبل الذى يقف عليه الإمام وعليه الميقدة . وقيل المشعر الحرام : ما بين جبل المزدلفة من مأزمى عرفة [2] إلى وادى محسر ، وليس المأزمان ولا وادى محسر من المشعر الحرام . والصحيح أنه الجبل ، لما روى جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل ، ولم يزل واقفا حتى أسفر[3] . وقوله تعالى (عند المشعر الحرام) معناه مما يلى المشعر الحرام قريبا منه ، وذلك للفضل ، كالقرب من جبل الرحمة ، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر . أو جعلت أعقاب المزدلفة لكونها فى حكم المشعر ومتصلة به عند المشعر . والمشعر : المعلم ، لأنه معلم العبادة . ووصف بالحرم لحرمته . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه نظر إلى الناس ليلة جمع فقال : لقد أدركت الناس هذه الليلة لاينامون . وقيل : سميت المزدلفة وجمعا ؛ لأنّ آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها ، أى دنا منها . وعن قتادة : لأنه يجمع فيها بين الصلاتين . ويجوز أن يقال : وصفت بفعل أهلها ، لأنهم يزدلفون إلى الله أى يتقربون بالوقوف فيها ﴿كما هداكم﴾

—— سمى امرأة بمسلمات أن لايصرفه فيقول : هذا مسلمات بغير تنوين ، وهو قول ردىء بل الأفصح الصحيح فى مسلمات إذا سمى به أن ينون . وإنما بنى الزمخشرى كلامه هذا على أن تنوين عرفات للتمكين لا للمقابلة ، ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين التى عدها فى مفصله ، على أنه راجع إلى تنوين التمكين .

(١) رواه أصحاب السنن والحاكم . واللفظ للنسائى . وزاد «قبل أن يطلع الفجر» كلهم من حديث عبد الرحمن ابن يعمر الديلى رضى الله عنه

(٢) قوله «من مأزمى عرفة» فى الصحاح : المأزم المضيق ، وموضع الحرب أيضا . (ع)

(٣) أخرجه مسلم فى صفة الحج فى الحديث الطويل .

ما مصدرية أو كافة . والمعنى : واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه ، لا تعدلوا عنه ﴿وإن كنتم من قبله﴾ من قبل الهدى ﴿لمن الضالين﴾ الجاهلين ، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه . وإن هى مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة ﴿ثم أفيضوا﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿من حيث أفاض الناس﴾ ولا تكن من المزدلفة ، وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع [1] على الناس والتعالى عليهم وتعظمهم عن أن يساووهم فى الموقف . وقولهم : نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخرج منه ، فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات ؟ فإن قلت : فكيف موقع ثم ؟ قلت : نحو موقعها فى قولك : أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم ، تأتى بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره وبُعد ما بينهما ؛ فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال : ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين ، وأن إحداهما صواب والثانية خطأ . وقيل : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وهم الحمس ، أى من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات . وقرئ : من حيث أفاض الناس ـ بكسر السين ـ أى الناسى وهو آدم ، من قوله (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى) يعنى أن الإفاضة من عرفات شرع قديم فلا تخالفوا عنه ﴿واستغفروا الله﴾ من مخالفتكم فى الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أى فإذا فرغتم من عباداتكم الحجية ونفرتم ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فأكثروا ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون فى ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم . وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل . فيعدّدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم . ﴿أو أشدّ ذكراً﴾ فى موضع جرّ عطف على ما أضيف إليه الذكر [2] فى قوله (كذكركم) كما

---

(١) قال محمود رحمه الله : «وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع على الناس . . الخ» . قال أحمد رحمه الله : وقد اشتملت الآية على نكتتين :

إحداهما : عطف الافاضتين إحداهما على الأخرى ومرجعهما واحد وهو الافاضة المأمور بها ، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشىء على نفسه ، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص ، والمخبر عنه أولا الافاضة من حيث هى غير مقيدة ، والمأمور به ثانيا الافاضة مخصوصة بمساواة الناس .

والثانية : بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهملة وذلك يستدعى التراخى مضافا إلى التغاير ، وليس بين الاضافة المطلقة والمقيدة تراخ . فالجواب على ذلك : أن التراخى كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة وبعدها فى العلو بالنسبة إلى غيرها ، وهو الذى أجاب به بعد مزيد تنشيط وإيضاح

(٢) قال محمود رحمه الله : «أشد معطوف على ما أضيف إليه الذكر . . . الخ» . قال أحمد رحمه الله : فعلى الأول يكون (أشد) واقعاً على المذكور المفعول . ومثاله على الأول : أن يضرب اثنان زيداً مثلا ، فيقول أيهما أشد ضرباً لزيد ؟ فيوقعه على الضارب . ومثال الثانى أن يضرب زيد اثنين مثلا فتقول : أيهما أشد ضرباً ؟ فتوقعه على المضروب . وعلى الوجه الأول يكون التفضيل على الفاعل وهو القياس . وعلى الثانى يكون التفضيل على المفعول وهو خلاف القياس . وقد ذكر الزمخشرى فى مفصله أنه شاذ بقولهم : أشغل من ذات النحيين وأنا أسر منك ، هذا فى =

تقول كذكر قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكراً. أو فى موضع نصب عطف على آباءكم، بمعنى أو أشد ذكراً من آبائكم، على أن ذكراً من فعل المذكور ﴿ فمن الناس من يقول ﴾ معناه أكثروا ذكر الله ودعاءه فإنّ الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين ﴿ آتنا فى الدنيا ﴾ اجعل إيتاءنا أى إعطاءنا فى الدنيا خاصة ﴿ وماله فى الآخرة من خلاق ﴾ أى من طلب خلاق وهو النصيب. أو مالهذا الداعى فى الآخرة من نصيب، لأنّ همه مقصور على الدنيا.

والحسنتان ماهو طلبة الصالحين فى الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق فى الخير، وطلبتهم فى الآخرة من الثواب. وعن على رضى الله عنه: الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة، وفى الآخرة الحوراء. وعذاب النار: امرأة السوء: ﴿ أولئك ﴾ الداعون بالحسنتين ﴿ لهم نصيب مما كسبوا ﴾ أى نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذى هو المنافع الحسنة. أو من أجل ما كسبوا، كقوله: (مما خطيئاتهم أغرقوا). أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم مايستوجبونه بحسب مصالحهم فى الدنيا واستحقاقهم فى الآخرة. وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب: بما كسبت أيديكم. ويجوز أن يكون (أولئك) للفريقين جميعاً، وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا ﴿ والله سريع الحساب ﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه.

ـــ أمثلة عددها، فليت شعرى كيف حمل الآية عليه وقد وجد غير ذلك سبيلا، وفى الوجهين جميعاً يفر من عطف أشد على الذكر الأول، لئلا يكون واقعاً على الذكر وقد انتصب الذكر تمييزاً عنه، فيكون الذكر ذاكراً وهو محال، لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه وألحقه بباب قولهم: شعر شاعر، وجن جنونه، ونحوه مما بالغت العرب فيه حتى جعلت للصفة صفة مثلها تمكينا لثبوتها. ووضح ذلك أن انتصاب الذكرّ تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه، ويعين خروجه منه إما بأن يقع على الجثة الذاكرة بتأويل جعله ذاكراً، على ما صار إليه أبو الفتح أنك لو قلت: زيد أكرم أبا، لكان زيد من الأبناء: ولو قلت: زيد أكرم أب، لكان من الآباء. ويحتمل عطفه على الذكر أعنى وجها آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح، وهو أن يكون من باب ما ذكره سيبويه قال: ويقولون هو أشح الناس رجلا، وهما خير الناس رجلا، وهما خير الناس اثنين، فالمجرور هنا بمنزلة التنوين، وانتصب الرجل والاثنين، كما انتصب الوجه فى قولك: هو أحسن منه وجها، ولا يكون إلا نكرة، كما لا تكون الحال إلا نكرة، والرجل هو الاسم المبتدأ؛ فانما أراد بذلك أن هذا ليس بمثابة: هو أشجع الناس غلاماً، فان هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ كما فى المثال الأول، ويجوز أن يكون غيره: فالآية على هذا الوجه الذى أوضحته منزلة على المثال الأول، فيكون ذكر المنصوب واقعاً على أشد كما كان الرجل المنصوب واقعا على أشح؛ فكأنه قال: أو أشد الأذكار ذكراً، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة، إلا هذا الوجه الذى زدته. فان خاطرى أبو عذرته (كخشية الله أو أشد خشية) ولم أقف على كلام الزمخشرى فيها بعد.

﴿ذلك﴾ التولى والإعراض بسبب تسهيلهم[1] على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم فى الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت المجبرة والحشوية[2] ﴿وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون﴾ من أنّ آباءهم هم الأنبياء يشفعون لهم كما غرت أولئك شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كبائرهم ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فكيف يصنعون فكيف[3] تكون حالهم، وهو استعظام لما أعدّ لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فى دفعه والتخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروى أنّ أوّل راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار ﴿وهم لا يظلمون﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى، لأنه فى معنى كل الناس كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسى.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

الميم فى ﴿اللهم﴾ عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان. وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء فى القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته فى يا ألله، وبغير ذلك ﴿مالك الملك﴾ أى تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرّف الملاك فيما يملكون ﴿تؤتى الملك من تشاء﴾ تعطى من تشاء النصيب الذى قسمت له واقتضته حكمتك من الملك ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ النصيب الذى أعطيته منه، فالملك الأوّل عام شامل، والملكان

(١) قال محمود: ذلك التولى والاعراض بسبب طمعهم فى الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت الحشوية والمجبرة وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون، قال أحمد رحمه الله: هذا أيضا تعريض بأهل السنة فى اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد إلى مشيئة الله تعالى وإن مات مصرا عليها إيمانا بقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وتصديقا بالشفاعة لأهل الكبائر وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلا يقيس عليهم اليهود القائلين (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) فانظر اليه كيف أشحن قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقا، وكيف ملأ الأرض من هذه النزغات نفاقا، فالحمد لله الذى أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فأصمى أفئدتهم من نواطع البراهين بمقومات الأسنة.

(٢) قوله «كما طمعت المجبرة والحشوية» تورك على أهل السنة، حيث ذهبوا الى أن من دخل النار من أهل الكبائر المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بعفو الله، كما نطقت به الأحاديث. (ع)

(٣) قوله «فكيف تكون» لعله أو فكيف. (ع)

لايجوز . فإن قلت :كيف قال ﴿ فلا إثم عليه ﴾ عند التعجل والتأخر جميعاً ؟ قلت : دلالة على أنّ التعجل والتأخر مخير فيهما ،كأنه قيل : فتعجلوا أو تأخروا . فإن قلت : أليس التأخر بأفضل ؟ قلت : بلى ، ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خير المسافر بين الصوم والإفطار وإن كان الصوم أفضل [١] وقيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا فريقين : منهم من جعل المتعجل آثما ، ومنهم من جعل المتأخر آثمـا فورد القرآن بنفى المأثم عنهما جميعاً ﴿ لمن اتقى ﴾ أى ذلك التخيير . ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقى : لئـلا يتخالج فى قلبه شيء منهما فيحسب أنّ أحدهما يرهق صاحبه آثام فى الإقدام عليه ، لأنّ ذا التقوى حذر متحرّز من كل ما يريبه ، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله . ثم قال ﴿ واتقوا الله ﴾ ليعبأ بكم . ويجوز أن يراد ذلك الذى مرّ ذكره من أحكام الحج وغيره لمن اتقى ، لأنه هو المنتفع به دون من سواه ، كقوله : (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

﴿ من يعجبك قوله ﴾ أى يروقك ويعظم فى قلبك . ومنه : الشيء العجيب الذى يعظم فى النفس . وهو الأخنس بن شريق كان رجلا حلو المنطق ، إذا لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم وقال : يعلم الله أنى صادق . وقيل : هو عامّ فى المنافقين ، كانت تحلولى ألسنتهم ، وقلوبهم أمرّ من الصبر ، فإن قلت : بم يتعلق قوله ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ ؟ قلت :

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إنما نفى الاثم فى الطرفين جميعاً ليدل على التخيير بين الأمرين الفاضل والأفضل ، كما خير المسافر بين الصوم والفطر وإن كان الصوم أفضل » . قال أحمد رحمه الله : قوله ـ إن التخيير يقع بين الفاضل والأفضل ـ غير مستقيم ، فان التخيير يوجب التساوى فى غرض المخير ، وينافى طلب أحد الطرفين والأمر به . وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب والترجيح وما يوجب التساوى والتخيير . وقد وقع لامام الحرمين قريب من هذا ، فانه ميز الوجوب من الندب بأن الندب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك ولا كذلك الوجوب ، ولم يرضه محققو الفن وإنما أخل الزمخشرى فى تفسيره الآية فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه . وبيان عدم التطابق بين تفسيره والآية ، أى مضمونها نفى الاثم عن الطرفين جميعاً ، وهذا القدر مشترك بين الندب والكراهة والاباحة ، لكن يتميز الندب بترجيح الفعل على الترك ، وتتميز الكراهة والاباحة بالتخيير بينهما ؛ فلا تنافى إذاً بين الندب إلى التأخير وأنه أفضل ، وبين نفى الاثم عن تاركه إلى التعجيل . وحينئذ لا يرد السؤال الذى لزمه فأجاب عنه .

بالقول ، أي يعجبك ما يقوله فى معنى الدنيا ؛ لأنّ ادّعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظا من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة ، كما تراد بالإيمان الحقيقى والمحبة الصادقة للرسول ؛ فكلامه إذاً فى الدنيا لا فى الآخرة . ويجوز أن يتعلق بيعجبك ، أى قوله حلو فصيح فى الدنيا فهو يعجبك ، ولا يعجبك فى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الحبسة واللكنة ، أو لأنه لا يؤذن له فى الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ أى يحلف ويقول : الله شاهد على ما فى قلبى من محبتك ومن الإسلام . وقرئ : ويشهد الله . وفى مصحف أبىّ : ويستشهد الله ؛ ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين . وقيل : كان بينه وبين ثقيف [١] خصومة فبيتهم ليلا وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم . والخصام : المخاصمة . وإضافة الألد بمعنى فى ، كقولهم : ثبت الغدر . أو جعل الخصام ألد على المبالغة . وقيل الخصام : جمع خصم ، كصعب وصعاب ، بمعنى وهو أشد الخصوم خصومة ﴿ وإذا تولى ﴾ عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق ﴿ سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ كما فعل بثقيف . وقيل (وإذا تولى) وإذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الأرض بإهلاك الحرث والنسل . وقيل : يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل . وقرئ : ويهلك الحرث والنسل ، على أن الفعل للحرث والنسل ، والرفع للعطف على سعى . وقرأ الحسن بفتح اللام ، وهى لغة . نحو : أبى يأبى . وروى عنه : ويهلك ، على البناء للمفعول ﴿ أخذته العزة بالإثم ﴾ من قولك : أخذته بكذا ، إذا حملته عليه وألزمته إياه ، أى حملته العزة التى فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذى ينهى عنه ، وألزمته ارتكابه ، وأن لا يخلى عنه ضرارا ولجاجا . أو على رد قول الواعظ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

﴿ يشرى نفسه ﴾ يبيعها أى يبذلها فى الجهاد . وقيل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ، وقيل : نزلت فى صهيب بن سنان : أراده المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفرا كانوا معه ، فقال لهم : أنا شيخ كبير ، إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم ، فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى . فقبلوا منه ماله وأتى المدينة ﴿ والله رؤف بالعباد ﴾ حيث كلفهم الجهاد فعرضهم لثواب الشهداء .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ

(١) قوله « وقيل كان بينه وبين ثقيف » الضمير للأخنس بن شريق (ع)

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿السلم﴾ بكسر السين وفتحها . وقرأ الأعمش بفتح السين واللام ، وهو : الاستسلام والطاعة ، أى استسلموا لله وأطيعوه ﴿ كافة ﴾ لايخرج أحد منكم يده عن طاعته . وقيل هو الإسلام . والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم ، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم . ويجوز أن يكون كافة حالا من السلم ، لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب . قال :

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَارَضِيتَ بِهِ
وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ [1]

على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا فى الطاعات كلها . وأن لايدخلوا فى طاعة دون طاعة . أو فى شعب الإسلام وشرائعه كلها ، وأن لايخلوا بشىء منها . وعن عبد الله بن سلام أنه استأذن رسول الله

---

(١) أبا خراشة أما أنت ذا نفر — فان قومى لم تأكلهم الضبع
إن تك جلود بصر لا أؤبسه — أوقد عليه فأحميه فينصدع
السلم تأخذ منها ما رضيت به — والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

للعباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندبة . وأما أنت : أصله لأن كنت ، فحذفت لام التعليل وكان الناقصة ، فانفصل ضميرها ونابت عنها ما ، وأدغمت فيها أن المصدرية . وقال الكوفيون تأتى « أن » بالفتح شرطية كان بالكسر ، وعلى هذا فلا حاجة لتقدير لام التعليل ، والمعنى على الشرط والجواب . والضبع : السنة المجدبة ، أو الحيوان المعروف . والبصر : حجارة تضرب إلى بياض ، واحده بصرة . وقيل هى بمعناه ، وأبسه تأبيساً : ذلله وكسره . يقول يا أبا خراشة ، لأن كنت صاحب جيش افتخرت على ، لا تفعل ذلك فان قومى موجودون كثيرون . وكنى عن ذلك بعدم أكل الضبع إياهم . ويحتمل أن فيه تعريضا أيضا ، ثم قال : إن تكن كصخر من الحجارة لا أقدر على تأبيسه وتكسيره لصلابته ؛ أوقد عليه نار الحرب بمعاونة الفرسان لى فأحرقه فينشق وينكسر ؛ فالايقاد استعارة مصرحة ، والاحماء ترشيح . أو إن لم أغلبك على العادة تحيلت حتى أغلبك ، كما يتحيل بكسر الحجر بالنار . وأتى بضمير الغيبة نظراً للخبر ، ورفع أحميه وينصدع بعد الشرط المضارع قليل ضعيف ، سيما مع عطفهما على المجزوم ، ولعله توهم جزمه . والسلم بالفتح وبالكسر : الصلح تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة ، أو تأخذ منا بسببها . وأما الحرب فيكفيك منها القليل ، فتنكير جرع للتقليل . وشبه الحرب بنار منحبسة فى ظرف ذى منافذ تخرج منها أنفاس ، وشبه الأنفاس بماء على طريق المكنية والأنفاس تخييل للأولى والجرع تخييل للثانية ، وفيها نوع تهكم حيث شبه الحار بالبارد ، كأنه يستقيه من أنفاسها . ويروى « فى السلم تأخذ منا ما رضيت به » أى تأخذ منا شيئا كثيراً فى زمن الصلح ، ولانطيق من حربنا إلا قليلا ؛ لكن هذه الرواية إنما تدل على تأنيث السلم ، بطريق المقابلة للحرب .

صلى الله عليه وسلم أن يقيم على السبت [١] وأن يقرأ من التوراة فى صلاته من الليل [٢] وكافة من الكف ، كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم ﴿ فإن زللتم ﴾ عن الدخول فى السلم ﴿ من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ أى الحجج والشواهد على أنّ ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿ فاعلموا أنّ الله عزيز ﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حكيم ﴾ لا ينتقم إلا بحق . وروى أنّ قارئا قرأ غفور رحيم ، فسمعه أعرابى فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم ، لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه . وقرأ أبو السمال : زللتم بكسر اللام وهما لغتان ، نحو : ظللت وظللت .

هَـلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

إتيان الله إتيان أمره وبأسه كقوله (أو يأتى أمر ربك) ، (فجاءهم بأسنا) ويجوز أن يكون المأتى به محذوفا ، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله (فإن الله عزيز) . ﴿ فى ظلل ﴾ جمع ظلة وهى ما أظلك . وقرئ : ظلال وهى جمع ظلة ، كقلة وقلال أو جمع ظل . وقرئ ﴿ والملائكة ﴾ بالرفع كقوله : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام . فإن قلت : لِمَ يأتيهم العذاب فى الغمام ؟ قلت : لأنّ الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرّ ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث . ومن ثمة اشتد على المتفكرين فى

---

(١) رواه عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن الصنعانى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال « نزلت هذه الآية فى عبد الله بن سلام وأصحابه . وذلك أنهم حين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم آمنوا بشريعته وشريعة موسى ، فعظموا السبت وكرهوا لحمان الابل وألبانها بعد ما أسلموا . فأنكر ذلك عليهم المسلمون : فقالوا : إنا نقوى على هذا وهذا وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة كتاب الله تعالى : وفى هذا فلنعمل بهما (*) . فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) وهى نسخة موضوعة . وقد أخرجه الطبرى من رواية حجاج بن محمد عن ابن جريج عن عكرمة . وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة الآية) قال : نزلت فى أناس من اليهود أسلموا كعبد الله بن سلام ، وثعلبة ، وابن يامين وأسد بن كعب . وطائفة من يهود ، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلا . فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والرغبة عما عداها . قال فذكر الآية . فهذا أولى . وابن جريج لم يسمع من عكرمة .

(٢) قوله « فى صلاته من الليل » لعل بعده سقطا تقديره : فنزلت . (ع)

(*) فى نسخة « إن التوراة كتاب الله . فدعنا فلنعمل بها .

كتاب الله قوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) . (وقضى الأمر) وأتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه . وقرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه : وقضاء الأمر ، على المصدر المرفوع عطفا على الملائكة . وقرئ : ترجع ، وترجع ، على البناء للفاعل والمفعول بالتأنيث والتذكير فيهما .

سَلْ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

﴿سل﴾ أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد . وهذا السؤال سؤال تقريع كما تسئل الكفرة يوم القيامة ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ على أيدى أنبيائهم وهى معجزاتهم ، أو من آية فى الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام ، و ﴿نعمة الله﴾ آياته ، وهى أجل نعمة من الله ، لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة . وتبديلهم إياها : أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم ، فجعلوها أسباب ضلالتهم . كقوله (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) أو حرفوا آيات الكتب[1] الدالة على دين محمد صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : كم استفهامية أم خبرية ؟ قلت . تحتمل الأمرين . ومعنى الاستفهام فيها للتقرير . فإن قلت : ما معنى ﴿من بعد ما جاءته﴾ . قلت : معناه من بعد ما تمكن من معرفتها أو عرفها ، كقوله : ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ؟ لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها أو لم يعرفها ، فكأنها غائبة عنه : وقرئ : ﴿ومن يبدل﴾ بالتخفيف .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المزين هو الشيطان[2] زين لهم الدنيا وحسنها فى أعينهم بوساوسه وحببها إليهم فلا يريدون غيرها . ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبوها ، أو جعل إمهال المزين له تزيينا ، ويدل عليه قراءة من قرأ (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) على البناء للفاعل ﴿ويسخرون

---

(١) قوله «أو حرفوا آيات الكتب» لعله عطف على المعنى ، أى أنهم جعلوا المعجزات أسباب ضلالهم ، وقد جعلها الله أسباب هداهم . أو حرفوا آيات الكتب ... الخ . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله «المزين هو الشيطان ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى وإضافته إلى غيره فى مواضع من الكتاب العزيز وهذه الآية تحتمل الوجهين ، لكن الاضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة ، والاضافة إلى غيره مجاز ، على قواعد السنة . والزمخشرى يعمل على عكس هذا ، فان أضاف لله فعلا من أفعاله إلى قدرته جعله مجازا وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته جعله حقيقة . وسبب هذا هو التعكيس باتباع الهوى فى القواعد الفاسدة .

من الذين آمنوا ﴾ كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لاحظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم ، أى لا يريدون غيرها . وهم يسخرون ممن لاحظ له فيها ، أو ممن يطلب غيرها ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ لأنهم فى عليين من السماء ، وهم فى سجين من الأرض [1] أو حالهم عالية لحالهم ؛ لأنهم فى كرامة وهم فى هوان . أوهم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم كما يتطاول هؤلاء عليهم فى الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم ، (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) . ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ بغير تقدير ، يعنى أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه كما وسع على قارون وغيره ، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة وهى استدراجكم بالنعمة . ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم . فإن قلت : لم قال (من الذين آمنوا) ثم قال (والذين اتقوا) ؟ قلت : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقى ، وليكون بعثا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك .

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ متفقين على دين الإسلام ﴿ فبعث الله النبيين ﴾ يريد : فاختلفوا فبعث الله . وإنما حذف لدلالة قوله (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) عليه . وفى قراءة عبدالله : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله . والدليل عليه قوله عز وعلا (وما كان الناس

(١) قال محمود رحمه الله : « لأنهم فى عليين من السماء ، وهم فى سجين ... الخ » . قال أحمد رحمه الله : وهذا من وضع الظاهر موضع المضمر بصفة أخرى ومثله فى كتاب الله كثير ، قال الله تعالى (إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) وكان الأصل : ألا إنهم ... الآية ، فوضع الظاهر موضع المضمر بصفة أخرى ، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران . وفى كلام الزمخشرى طماح إلى قاعدته فى وجوب وعيد العصاة . ألا تراه يقول : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقى ، إشارة إلى أن غير المتقى وهو المصر على الكبائر شقى حتما كهؤلاء الذين يسخرون من الذين آمنوا ، ومنهم من يتمحل فيقول : لأنه جعل المؤمن عين المتقى ومقتضى قاعدته الفاسدة : أن الايمان يستلزم التقوى حتى لا يفرض مؤمن إلا متقيا ، إذ الايمان فيما فسره هو فى تفسيره هذا وفيما فسره أهل بدعته فى كتبهم هو تصديق الاعتقاد الصحيح والنطق به بالعمل الصالح ، والمخل عندهم بالعمل إما بالاصرار على كبيرة أو بترك مهم من الواجبات فاسق ليس بمؤمن ولا كافر . فمقتضى هذا التقرير على ما ترى أن كل مؤمن متق ، وقد علمت من كلامه على هذه الآية ما يأبى ذلك وينقضه .

إلا أمة واحدة فاختلفوا) وقيل : كان الناس أمة واحدة كفاراً ، فبعث الله النبيين ، فاختلفوا عليهم . والأول الوجه . فإن قلت : متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت : عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق فاختلفوا . وقيل : هم نوح ومن كان معه فى السفينة ﴿ وأنزل معهم الكتاب ﴾ يريد الجنس ، أو مع كل واحد منهم كتابه ﴿ ليحكم ﴾ الله ، أو الكتاب ، أو النبي المنزل عليه ﴿ فيما اختلفوا فيه ﴾ فى الحق ودين الإسلام الذى اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿ وما اختلف فيه ﴾ فى الحق ﴿ إلا الذين أوتوه ﴾ إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف ، أى ازدادوا فى الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب ، وجعلوا نزول الكتاب سببا فى شدة الاختلاف واستحكامه ﴿ بغيا بينهم ﴾ حسداً بينهم وظلما لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم . و﴿ من الحق ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ، أى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

﴿ أم ﴾ منقطعة ، ومعنى الهمزة [١] فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده . ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجىء البينات ـ تشجيعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له ـ قال لهم على طريقة الالتفات التى هى أبلغ : أم حسبتم ﴿ ولما ﴾ فيها معنى التوقع ، وهى فى النفى نظيرة «قد» فى الإثبات . والمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر ﴿ مثل الذين خلوا ﴾ حالهم التى هى مثل فى الشدة . و ﴿ مستهم ﴾ بيان للمثل وهو استئناف ، كأن قائلا قال : كيف كان ذلك المثل ؟ فقيل : مستهم البأساء ﴿ وزلزلوا ﴾ وأزعجوا إزعاجا شديداً شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع ﴿ حتى يقول الرسول ﴾ إلى الغاية التى قال الرسول ومن معه فيها ﴿ متى نصر الله ﴾ أى بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك . ومعناه طلب الصبر وتمنيه ، واستطالة زمان الشدة . وفى هذه الغاية دليل على تناهى الأمر فى الشدة وتماديه فى العظم ، لأن الرسل لا يتمادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان

(١) قوله « أم منقطعة ومعنى الهمزة » تفسر بمعنى بل والهمزة . (ع)

ذلك الغاية فى الشدة التى لا مطمح وراءها ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ على إرادة القول ، يعنى فقيل لهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر . وقرئ (حتى يقول) بالنصب على إضمار أن ومعنى الاستقبال ، لأنّ «أن» علم له . وبالرفع على أنه فى معنى الحال ، كقولك : شربت الإبل حتى يجىء البعير يجرّ بطنه ، إلا أنها حال ماضية محكية .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

فإن قلت : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله : ﴿قل ما أنفقتم﴾ وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف ؟ قلت : قد تضمن قوله ما أنفقتم ﴿من خير﴾ بيان ما ينفقونه وهو كل خير ، وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف ؛ لأنّ النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها . قال الشاعر :

إنّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ [1]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هِمّ [2] وله مال عظيم فقال : ماذا ننفق من أموالنا ؟ وأين نضعها ؟ فنزلت . وعن السدى : هى منسوخة بفرض الزكاة . وعن الحسن : هى فى التطوّع .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

﴿وهو كره لكم﴾ من الكراهة بدليل قوله ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا﴾ ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغة ، كقولها :

* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ * [3]

---

(١) إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا صنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوى القرابة أو دع

يقول : إن العطية لا تكون عطية حقيقة حتى تكون فى موضعها ، فكنى باصابة الطريق عن إيصالها إلى المقصد ، وهو من يستحقها . وقوله « فاعمد بها » أى اقصد بها . وضمنه معنى اذهب بها ، فعداه باللام . ويروى : لذوى القرائب فلعل معناه لأصحاب القرابات القرائب . وقوله « أو دع » أى اترك ، لأنه ليس بعد هذين إلا الفخر .

(٢) قوله « وهو شيخ هم وله مال » فى الصحاح الهم ـ بالكسر ـ : الشيخ الفانى . (ع)

(٣) مر شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢١٨ فراجعه إن شئت اه مصححه

كأنه فى نفسه لفرط كراهتهم له . وإما أن يكون فعلا بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز ، أى وهو مكروه لكم. وقرأ السلمى ـ بالفتح ـ على أن يكون بمعنى المضموم ، كالضعف والضعف ، ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه على طريق المجاز ، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم . ومنه قوله تعالى (حملته أمه كرها ووضعته كرها) [١]، وعلى قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً) جميع ما كلفوه ، فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه وتحب خلافه ﴿والله يعلم﴾ ما يصلحكم وما هو خير لكم ﴿وأنتم لاتعلمون ذلك﴾ .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة [٢] قبل قتال بدر بشهرين ليترصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبدالله الحضرمى وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ويبذعر [٣] فيه الناس إلى معايشهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير ، وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا : مانبرح حتى تنزل توبتنا ، ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة . والمعنى : يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام . و﴿قتال فيه﴾ بدل الاشتمال من الشهر . وفى

---

(١) قوله « ووضعته كرها وعلى قوله تعالى » أى جميع ما كلفوه جار على قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا ... الخ) فان النفوس تكرهه وهو خير لهم ، وتحب خلافه وهو شر لهم . (ع)

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى ، قال : حدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير بطوله ، ومن طريقه رواه البيهقى فى الدلائل ، وكذا ذكره ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة . ومن طريقه الواحدى . وأخرجه الطبرانى من حديث جندب بن عبد الله البجلى موصولا .

(٣) قوله « ويبذعر فيه الناس » أى يتفرقون فيه . أفاده الصحاح . (ع)

قراءة عبدالله : عن قتال فيه ، على تكرير العامل ، كقوله (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) وقرأ عكرمة : قتل فيه قل قتل فيه كبير . أى إثم كبير . وعن عطاء : أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام ؟ فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه ، وما نسخت . وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) . ﴿وصدٌّ عن سبيل الله﴾ مبتدأ وأكبر خبره ، يعنى وكبائر قريش من صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، وكفرهم بالله وإخراج أهل المسجد الحرام وهم رسول الله والمؤمنون ﴿أكبر عند الله﴾ مما فعلته السرية من القتال فى الشهر الحرام على سبيل الخطأ والبناء على الظن ﴿والفتنة﴾ الإخراج أو الشرك . والمسجد الحرام : عطف على سبيل الله ، ولا يجوز أن يعطف على الهاء فى (به) . ﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم ، وحتى معناها التعليل كقولك : فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة ، أى يقاتلونكم كى يردّوكم . و﴿إن استطاعوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوّه : إن ظفرت بى فلا تبق علىّ . وهو واثق بأنه لا يظفر به ﴿ومن يرتدد منكم﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطاوعهم على ردّه إليه ﴿فيمت﴾ على الردّة ﴿فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة﴾ لما يفوتهم بإحداث الردة مما للمسلمين فى الدنيا من ثمرات الإسلام ، وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة . وبها احتج الشافعى على أن الردّة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها . وعند أبى حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلما . ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ روى أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمى ، ظنّ قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر ، فنزلت ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾ وعن قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون . وإنه من رجا طلب ، ومن خاف هرب .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

نزلت فى الخمر أربع آيات نزلت بمكة[1] : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه

---

(١) قال محمود رحمه الله : نزلت فى الخمر أربع آيات نزلت بمكة .. الخ » . قال أحمد : ويظهر لى سر واقع مما ذكره فى هذا الغرض ، وذلك أن السؤال الأول من الأسئلة المقرونة بالواو عين السؤال الأول من الأسئلة ==

سكراً) فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال. ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: يارسول الله، أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت: (فيهما إثم كبير ومنافع للناس) فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فأم بعضهم فقرأ: قل ياأيها الكافرون أعبدما تعبدون فنزلت: «لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فقل من يشربها. ثم دعا عتبان بن مالك قوما فيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه موضحة، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت (إنما الخمر والميسر إلى قوله فهل أنتم منتهون) فقال عمر رضى الله عنه: انتهينا يارب [1]. وعن علىّ رضى الله عنه: لو وقعت قطرة فى بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها [2] ولو وقعت فى بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ

ـــ المجردة عن الواو. ولكن وقع جوابه أولا بالمصرف لأنه الأهم وإن كان المسؤل عنه إنما هو المنفق لا وجه مصرفه، ثم لما لم يكن فى الجواب الأول تصريح بالمسؤل عنه أعيد السؤال ليجابوا عن المسؤل عنه صريحاً، فقيل العفو أى الفاضل من النفقة الواجبة على العيال، أو نحو ذلك حيثما ورد فى تفسيره، فتعين إذاً اقتران هذا السؤال بالواو ليرتبط بالأول. ويحتمل أنهم لما أجيبوا أولا ببيان جهة المصرف ولم يصرح لهم بالجواب على عين المنفق ماهو، أعاد السؤال لكى يتلقوا جوابه صريحاً، فتعين دخول الواو. وأما السؤال الثانى من الأسئلة المقرونة بالواو، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى وهل يجوز لهم مخالطتهم فى النفقة والكسوة والسكنى وقد كانوا يتحرجون من ذلك فى الجاهلية؟ فلما كان مناسباً للسؤال عن الانفاق باعتبار المنفق وباعتبار جهة المصرف، عطف عليه ليكمل لهم بيان المشروعية فى النفقة وآدابها الدينية بيانا شافياً، لأنه قد اجتمع فى علمهم ماينفقون، وفيم ينفقون، وعلى أى حالة ينفقون من مخالطة اليتيم والانفراد عنه. وأما السؤال الثالث منها وهو الواقع عن النساء الحيض، فقد ورد أنهم فى الجاهلية كانوا يعتزلون الحيض فى المؤاكلة والمساكنة يقتدون فى ذلك باليهود، فسألوا السؤال المذكور، كما كانوا يعتزلون اليتامى فى المساكنة والمؤاكلة تحرجا جاهلياً، وكان بين هذين السؤالين تناسب كما ترى، فحسن أن يعطف الآخر على ماقبله تنبيهاً على ما بينهما من المشاكلة والله أعلم. وإذا اعتبرت الأسئلة المجردة عن الواو لم تجد بينها مداناة ولا مناسبة البتة، إذ الأول منها عن النفقة، والثانى عن القتال فى الشهر الحرام، والثالث عن الخمر والميسر. فبين هذه الأسئلة من التباين والتقاطع مالا يخفى، فذكرت كذلك مرسلة متعاطفة غير مربوطة بعضها ببعض، فتنبه لهذا السر فانه بديع لاتجده يراعى إلا فى الكتاب العزيز، لاستيلائه على أسرار البلاغة ونكت الفصاحة، ولايستفاد منه إلا بالتنقيب فى صناعة البيان وعلم اللسان. وقد اشتمل جواب الزمخشرى المقدم على وهم أنبه عليه، وذلك أنه قال: الأسئلة الثلاثة الأخيرة وقعت فى وقت واحد وكانت فى حكم السؤال الواحد، فربط بعضها ببعض بالواو، وهذا يقتضى كما ترى أن يقترن السؤال الثانى والثالث بالواو خاصة دون الأول، إذ الواو إنما يربط مابعدها بما قبلها، فاقترانها بالأول لايربطه بالثانى وإنما يربطه بما قبله، وعلى هذا تكون الأسئلة التى وقعت فى وقت واحد أربعة أسئلة لاثلاثة خاصة، وقد قال: إن الأسئلة المرتبطة الواقعة فى وقت واحد هى الثلاثة الأخيرة، فهو واهم بلا شك وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم.

(١) هكذا ذكره الثعلبى فى تفسيره بغير إسناد وسيأتى فى تفسير سورة النساء من حديث أبى هريرة معناه.

(٢) لم أجده عنه.

لم أرعه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما : لو أدخلت أصبعى فيه لم تتبعنى [١] . وهذا هو الإيمان حقاً ، وهم الذين اتقوا الله حق تقاته . والخمر : ماغلى واشتدّ وقذف بالزبد من عصير العنب ، وهو حرام ، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذى لم يطبخ ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم غلى واشتدّ ذهب خبثه ونصيب الشيطان ، وحلّ شربه مادون السكر إذا لم يقصد بشربه اللهو والطرب عند أبى حنيفة . وعن بعض أصحابه : لأن أقول مراراً هو حلال ، أحبّ إلىّ من أن أقول مرة هو حرام ، ولأن أخرّ من السماء فأتقطع قطعاً أحبّ إلىّ من أن أتناول منه قطرة . وعند أكثر الفقهاء هو حرام كالخمر ، وكذلك كل ماأسكر من كل شراب . وسميت خمراً لتغطيتها العقل والتمييز كما سميت سكراً لأنها تسكرهما ، أى تحجزهما ، وكأنها سميت بالمصدر من «خمره خمراً» إذا ستره للمبالغة . والميسر : القمار ، مصدر من يسر ، كالموعد والمرجع من فعلهما . يقال : يسرته، إذا قمرته، واشتقاقه من اليسر ، لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب ، أو من اليسار . لأنه سلب يساره . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان الرجل فى الجاهلية يخاطر على أهله وماله قال :

* أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي * [٢]

أى يفعلون بى مايفعل الياسرون بالميسور . فإن قلت : كيف صفة الميسر ؟ قلت : كانت لهم عشرة أقداح ، وهى: الأزلام والأقلام ، والفذ ، والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعلى والمنيح والسفيح ، والوغد . لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها عشرة أجزاء . وقيل : ثمانية وعشرين إلا لثلاثة ، وهى المنيح والسفيح والوغد . ولبعضهم :

لِيَ فِي الدُّنْيَا سِهَامٌ * لَيْسَ فِيهِنَّ رَبِيحُ * وَأَسَامِيهِنَّ وَغْدٌ * وَسَفِيحٌ وَمَنِيحُ [٣]

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن المبارك عن الأوزاعى عن سليمان بن حبيب أن ابن عمر قال «لو أدخلت أصبعي فى خمر ما أحببت أن ترجع إلى» .

(٢) أقول لهم بالشعب إذ ييسروننى ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

لسحيم بن وثيل الرياحى . والشعب : اسم مكان . ويقال : يسره ، إذا غلبه فى لعب الميسر وهو القمار . واليأس هنا بمعنى العلم . وزهدم فى الأصل فرخ البازى يسمى به الفرس لسرعته . أى أقول لهم فى هذا الموقع وقت أن غلبونى فى الميسر وضربونى بسهامه : ألم تعلموا أنى ابن الرجل الشجاع فارس تلك الفرس . والاستفهام للتقرير والتقريع . وروى : إذ يأسروننى ، أى يأخذوننى أسيراً عندهم . ويجوز أن المعنى : ألم تيأسوا وتقطعوا أطماعكم عما تريدون بى لأنى ابن ذلك الفارس المشهور ، فالاستفهام للتوبيخ والحث على اليأس من ذلك .

(٣) الأسماء الثلاثة لأقلام الميسر التى لانصيب لها من الجزور كل اسم لعلم ، والوغد فى الأصل : الخادم ، والدنىء ، وثمر الباذنجان ؛ بخلاف السبعة الباقية فلها أنصباء . والكلام من باب التمثيل ، شبه حاله فى الدنيا بحال من خرجت له تلك السهام فى الميسر لعدم الظفر بالمرام . ويبعد كونه كناية عن الكرم ، حيث يعطى ولا يأخذ . ويروى بدل «وأساميهن» «إنما سهمي» أى سهامى ، بدليل : سهام قبله .

للفذ سهم ، وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحلس أربعة ، وللنافس خمسة ، وللمسبل ستة ؛ وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة ، ويضعونها على يدى عدل ، ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها . فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح . ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها . ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمونه البرم . وفى حكم الميسر : أنواع القمار ، من النرد والشطرنج وغيرهما . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «إياكم وهاتين اللعبتين المشؤمتين فإنهما من ميسر العجم [١]» وعن علىّ رضى الله عنه : أنّ النرد والشطرنج من الميسر . [٢] وعن ابن سيرين : كل شيء فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى : يسألونك عما فى تعاطيهما ، بدليل قوله تعالى ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ ، ﴿وإثمهما﴾ وعقاب الإثم فى تعاطيهما ﴿أكبر من نفعهما﴾ وهو الالتذاذ بشرب الخمر والقمار ، والطرب فيهما ، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشراتهم ، والنيل من مطاعمهم ومشاربهم وأعطياتهم ، وسلب الأموال بالقمار ، والافتخار على الأبرام [٣] . وقرئ : إثم كثير ـ بالثاء ـ وفى قراءة أبىّ : وإثمهما أقرب . ومعنى الكثرة : أن أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿العفو﴾ نقيض الجهد ؛ وهو أن ينفق مالا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع، قال:

* خُذِى الْعَفْوَ مِنِّى تَسْتَدِيمِى مَوَدَّتِى * [٤]

ويقال للأرض السهلة : العفو . وقرئ بالرفع والنصب . وعن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنّ رجلا أتاه ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغازى فقال : خذها منى صدقة ، فأعرض عنه رسول الله صلى

---

(١) أخرجه ابن مردويه من حديث سمرة بن جندب . ومن حديث أبى موسى الأشعرى نحوه ، ورواه أحمد ، والبخارى فى الأدب المفرد من وجهين عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود بلفظ « اتقوا هاتين اللعبتين المشؤمتين اللتين يزجران زجرا فانهما من ميسر العجم » .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم والبيهقى والثعلبى من طريق حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه وأن عليا قال فى النرد والشطرنج : هما من الميسر ، وهو منقطع .

(٣) قوله « والافتخار على الأبرام » جمع للبرم بالتحريك ، وهو الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر . كذا فى الصحاح . (ع)

(٤)
خذى العفو منى تستديمى مودتى ... ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
فانى رأيت الحب فى الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب
ولا تضربينى مرة بعد مرة ... فانك لا تدرين كيف المغيب

لأسماء بن خارجة الفزارى أحد حكماء العرب يخاطب زوجته حين بنى عليها . والعفو : السهل اليسير . والسورة : شدة الغضب . واجتمعا : شارفا الاجتماع . ويذهب: استئناف وقع جواب سؤال مقدر ، والضرب مجاز عن الايذاء ، والمغيب عاقبة الأمر ، أى خذى السهل من أخلاقى لئلا يذهب حبى إياك ويذهب فيه رائحة الاضراب ، أى بل يذهب .

الله عليه وسلم ؛ فأتاه من الجانب الأيمن فقال مثله فأعرض عنه ، ثم أتاه من الجانب الأيسر فأعرض عنه ؛ فقال : هاتها مغضبا ، فأخذها فحذفه بها حذفا لو أصابه لشجه أو عقره ، ثم قال : «يجيء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ! إنما الصدقة عن ظهر غنى»[1] . ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ إمّا أن يتعلق بتتفكرون ، فيكون المعنى : لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين ؛ فتأخذون بما هو أصلح لكم : كما بينت لكم أنّ العفو أصلح من الجهد فى النفقة ، و تتفكرون فى الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع . ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله (وإثمهما أكبر من نفعهما) لتتفكروا[2] فى عقاب الإثم فى الآخرة والنفع فى الدنيا . حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم . وإمّا أن يتعلق بيبين على معنى : يبين لكم الآيات فى أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون ، لما نزلت (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) اعتزلوا اليتامى وتحاموهم وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم والاهتمام بمصالحهم ، فشق ذلك عليهم وكاد يوقعهم فى الحرج ، فقيل ﴿ إصلاح لهم خير ﴾ أى مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم ﴿ وإن تخالطوهم ﴾ وتعاشروهم ولم تجانبوهم ﴿ ف ﴾ هم ﴿ إخوانكم ﴾ فى الدين ، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه ، وقد حملت المخالطة على المصاهرة ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أى لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح فيجازيه على حسب مداخلته ، فاحذروه ولا تتحروا غير الإصلاح ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ لحملكم على العنت وهو المشقة وأحرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم . وقرأ طاوس : قل إصلاح إليهم . ومعناه إيصال الصلاح وقرئ : لعنتكم ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وكذلك (فلا إثم عليه)[3] . ﴿ إن الله عزيز) غالب يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم ولكنه ﴿ حكيم ﴾ لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم .

وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن

(١) أخرجه أبو داود وابن حبان والبزار ، والدارمى ، وأبو يعلى ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وإسحاق فى مسانيدهم : كلهم من رواية محمود بن لبيد عن جابر . ورواه ابن سعد فى ترجمة أبى حصين السلمى من رواية عمر ابن الحكم بن ثوبان عن جابر ، قال « قدم أبو حصين السلمى بذهب أصابه من معدنهم فقضى منه دينا كان عليه » فذكر الحديث مثل سياق أبى داود . وفى إسناده الواقدى .

(٢) قوله « أكبر من نفعهما لتتفكروا » لعله فيكون المعنى : لتتفكروا . (ع)

(٣) قوله « وكذلك فلا إثم عليه » لعله : كذلك فى طرح الهمزة ، لا فى نقل الحركة ، وتطرح ألف المد لالتقاء الساكنين . فليحرر . (ع)

مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَـٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

﴿ ولا تنكحوا ﴾ وقرئ بضم التاء ، أى لاتتزوجوهن أو لاتزوجوهن . و﴿ المشركات ﴾ الحربيات ، والآية ثابتة . وقيل المشركات الحربيات والكتابيات جميعاً ، لأن أهل الكتاب من أهل الشرك ، لقوله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله) إلى قوله تعالى (سبحانه عما يشركون) ، وهى منسوخة بقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) . وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شىء قط . وهو قول ابن عباس والأوزاعى . وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبى مرثد الغنوى إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها عناق ، فأتته وقالت : ألا نخلو ؟ فقال : ويحك ! إن الإسلام قد حال بيننا . فقالت : فهل لك أن تتزوّج بى ؟ قال : نعم ، ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره ، فاستأمره [1] فنزلت ﴿ ولأمة مؤمنة خير ﴾ ولامرأة مؤمنة حرّة كانت أو مملوكة ، وكذلك (ولعبد مؤمن) لأنّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه ﴿ ولو أعجبتكم ﴾ ولو كان الحال أنّ المشركة تعجبكم وتحبونها ، فإنّ المؤمنة خير منها مع ذلك ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المشركات والمشركين ، أى يدعون إلى الكفر فحقهم أن لايوالوا ولايصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال ﴿ والله يدعو إلى الجنة ﴾ يعنى وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة ﴿ والمغفرة ﴾ وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم ، وأن يؤثروا على غيرهم ﴿ بإذنه ﴾ بتيسير الله وتوفيقه للعمل الذى تستحق به الجنة والمغفرة . وقرأ الحسن : والمغفرة بإذنه ـ بالرفع ـ أى والمغفرة حاصلة بتيسيره .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) أورده الواحدى من تفسير الكلبى عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا يقال له : مرثد بن أبى مرثد فذكره » ونزولها فى هذه القصة ليس بصحيح فقد رواه أبو داود والترمذى والنسائى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال « كان رجل يقال له : مرثد بن أبى مرثد الغنوى . وكان رجلا شديداً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ـ الحديث بطوله . وفيه حتى نزلت (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) قال فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأها على . وقال لا تنكحها وكذا أخرجه أحمد وإسحاق والبزار . وقال لا نعلم أسند مرثد بن أبى مرثد إلا هذا الحديث .

التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

﴿المحيض﴾ مصدر . يقال : حاضت محيضا ، كقولك : جاء مجيئا وبات مبيتا ﴿قل هو أذى﴾ أى الحيض شيء يستقذر ويؤذى من يقربه نفرة منه وكراهة له ﴿فاعتزلوا النساء﴾ فاجتنبوهنّ ؛ يعنى فاجتنبوا مجامعتهنّ . روى أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها فى بيت كفعل اليهود والمجوس ، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهنّ فأخرجوهنّ من بيوتهم ، فقال ناس من الأعراب : يارسول الله البرد شديد والثياب قليلة ، فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت ؛ وإن استأثرنا بها هلكت الحيض : فقال عليه الصلاة والسلام : إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهنّ إذا حضن ، ولم يأمركم بإخراجهنّ من البيوت كفعل الأعاجم [١] . وقيل : إنّ النصارى كانوا يجامعونهنّ ولا يبالون بالحيض ، واليهود كانوا يعتزلونهنّ فى كل شيء ، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين ، وبين الفقهاء خلاف فى الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال مااشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضى الله عنها : أنّ عبد الله بن عمر سألها : هل يباشر الرجل امرأته وهى حائض ؟ فقالت : تشدّ إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء [٢] . وما روى زيد بن أسلم أنّ رجلا سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم : مايحلّ لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال : لتشدّ عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها [٣] ، ثم قال : وهذا قول أبى حنيفة . وقد جاء ماهو أرخص من هذا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يجتنب شعار الدم وله ماسوى ذلك [٤] . وقرئ ﴿يطهرن﴾ بالتشديد ، أى يتطهرن ، بدليل قوله ﴿فاذا تطهرن﴾ وقرأ عبدالله : حتى يتطهرن . ويطهرن بالتخفيف . والتطهر : الاغتسال . والطهر : انقطاع دم الحيض . وكلتا

---

(١) لم أجده

(٢) هو فى الموطأ من رواية محمد بن الحسن : عن مالك عن نافع «أن عبدالله بن عمر أرسل إلى عائشة يسألها ـ فذكره» وكذا أخرجه رواة الموطأ عن مالك والشافعي وغيره . وأخرجه عبد الرازق عن ابن جريج عن سليمان ابن موسى عن نافع نحوه

(٣) رواه مالك فى الموطأ عنه بهذا مرسلا . ووصله الطبرانى من رواية الدراوردى عن زيد بن أسلم وصفوان ابن مسلم عن عطاء بن يسار مرسلا . وفى الباب عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد «أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال : لك ما فوق الازار» أخرجه أبو داود . وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه ـ وزاد : والتعفف عن ذلك أفضل وإسناده ضعيف

(٤) أخرجه الدارمى من رواية أيوب عن رجل عن عائشة أنها قالت لانسان «اجتنب شعار الدم ولك ما سواه» .

القراءتين مما يجب العمل به ، فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل ، وفى أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة . وذهب الشافعى إلى أنه لا يقربها حتى تطهر وتطهر ، فتجمع بين الأمرين ، وهو قول واضح . ويعضده قوله (فإذا تطهرن) . ﴿ من حيث أمركم الله ﴾ من المأتى الذى أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ مما عسى يندر منهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ المتنزهين عن الفواحش . أو إنّ الله يحبّ التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهرة التوبة من كل ذنب ، ويحب المتطهرين من جميع الأقذار : كمجامعة الحائض والطاهر قبل الغسل ، وإتيان ما ليس بمباح ، وغير ذلك ﴿ حرث لكم ﴾ مواضع الحرث لكم . وهذا مجاز ، شبهن بالمحارث تشبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بالبذور . وقوله ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ تمثيل ، أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التى تريدون أن تحرثوها من أى جهة شئتم ، لا تحظر عليكم جهة دون جهة ، والمعنى : جامعوهن من أى شق أدرتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهو موضع الحرث . وقوله (هو أذى ، فاعتزلوا النساء) ، (من حيث أمركم الله) ، (فأتوا حرثكم أنى شئتم) من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة . وهذه وأشباهها فى كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها فى محاورتهم ومكاتبتهم . وروى أن اليهود كانوا يقولون : من جامع امرأته وهى مجبية من دبرها فى قبلها كان ولدها أحول ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال كذبت اليهود[1] ونزلت . ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتكم عنه . وقيل : هو طلب الولد ، وقيل : التسمية على الوطء ﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تجترئوا على المناهى ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ فتزوّدوا ما لا تفتضحون به ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات . فإن قلت : ما موقع قوله (نساؤكم حرث لكم) مما قبله ؟ قلت : موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله (فأتوهنّ من حيث أمركم الله) يعنى أنّ المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ، ترجمة له وتفسيراً ، أو إزالة للشبهة ، ودلالة على أنّ الغرض الأصيل فى الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة ، فلا تأتوهنّ إلا من المأتى الذى يتعلق به هذا الغرض . فإن قلت : ما بال (يسألونك) جاء بغير واو ثلاث مرات ، ثم مع الواو ثلاثاً ؟

(١) متفق عليه من طرق عن ابن المنكدر عن جابر : والتقييد لمسلم فقط . ولمسلم من رواية الزهرى «إن شاء مجبية وإن شاء غير مجبية . غير أن ذلك فى صمام واحد» وهو من قول الزهرى . وأخرجه أصحاب السنن والبزار وابن حبان . وليس عند أحد منهم قول «فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم» وأخرجه البزار من طريق خصيف عن ابن المنكدر . وزاد فيه «وإنما الحرث من حيث يخرج الولد» تفرد به خصيف . وهو ضعيف .

قلت : كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأول وقع فى أحوال متفرّقة ، فلم يؤت بحرف العطف لأنّ كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ . وسألوا عن الحوادث الأخر فى وقت واحد ، فجىء بحرف الجمع لذلك ، كأنه قيل : يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر ، والسؤال عن الإنفاق ، والسؤال عن كذا وكذا .

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

العرضة : فعلة بمعنى مفعول ، كالقبضة والغرفة ، وهى اسم ماتعرضه دون الشىء من عرض العود على الإناء فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه . تقول : فلان عرضة دون الخير . والعرضة أيضاً : المعرض للأمر . قال :

* فَلَا تَجْعَلُونِى عُرْضَةً لِلَّوَائِمِ * [1]

ومعنى الآية على الأولى : أنّ الرجل كان يحلف على بعض الخيرات ، من صلة رحم ، أو إصلاح ذات بين ، أو إحسان إلى أحد ، أو عبادة ، ثم يقول : أخاف الله أن أحنث فى يمينى ، فيترك البرّ إرادة البرّ فى يمينه ، فقيل لهم : ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ أى حاجزاً لما حلفتم عليه . وسمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالرحمن بن سمرة : « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » [2] أى على شىء مما يحلف عليه . وقوله : ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا﴾ عطف بيان لأيمانكم ، أى للأمور المحلوف عليها التى هى البر والتقوى والإصلاح بين الناس . فإن قلت : بم تعلقت اللام فى لأيمانكم ؟ قلت : بالفعل ، أى ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجازاً . ويجوز أن يتعلق بـ (عرضة) لما فيها

(١) دعونى أنح وجدا كنوح الحمائم ولا تجعلونى عرضة للوائم

قيل هو لأبى تمام . يقول : اتركونى أنح لما بى من الوجد وحرقة العشق مثل نوح الحمائم . ويروى : لنوح الحمائم ، فهو علة للمعلل مع علته . والعرضة : المعرض للأمر ، أى : ولا تجعلونى معرضا للوم اللوائم . أو المراد باللوائم : أنواع اللوم مبالغة ، على حد : جد جده ، لأن اللائم حقيقة فاعل اللوم .

(٢) أخرجه الأئمة الخمسة من رواية الحسن البصري عن عبدالرحمن بن سمرة .

من معنى الاعتراض ، بمعنى لاتجعلوه شيئا يعترض البر ، من اعترضني كذا . ويجوز أن يكون اللام للتعليل ، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة ، أى ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا . ومعناها على الأخرى : ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به ، ولذلك ذم من أنزل فيه (ولا تطع كل حلاف مهين) بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها . وأن تبروا علة للنهى ، أى إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا ، لأن الحلاف مجترئ على الله ، غير معظم له ، فلا يكون براً متقياً ، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه فى وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم . اللغو : الساقط الذى لايعتد به من كلام وغيره . ولذلك قيل لما لايعتد به فى الدية من أولاد الإبل «لغو» واللغو من اليمين : الساقط الذى لايعتد به فى الأيمان ، وهو الذى لاعقد معه . والدليل عليه (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ، (بما كسبت قلوبكم) واختلف الفقهاء فيه ، فعند أبى حنيفة وأصحابه هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه ، ثم يظهر خلافه . وعند الشافعى : هو قول العرب : لا والله ، وبلى والله ، مما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف . ولو قيل لواحد منهم : سمعتك اليوم تحلف فى المسجد الحرام لأنكر ذلك ، ولعله قال : لا والله ألف مرة . وفيه معنيان : أحدهما (لا يؤاخذكم) أى لايعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم بالظن ، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم ، أى اقترفته من إثم القصد إلى الكذب فى اليمين ، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهى اليمين الغموس . والثانى (لا يؤاخذكم) أى لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذى لاقصد معه ، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم ، أى بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان ، ولم يكن كسب اللسان وحده ﴿ والله غفور حليم ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم .

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

قرأ عبد الله : آلوا من نسائهم . وقرأ ابن عباس : يقسمون من نسائهم : فإن قلت : كيف عدى بمن ، وهو معدى بعلى ؟ قلت : قد ضمن فى هذا القسم المخصوص معنى البعد ، فكأنه قيل : يبعدون

من نسائهم مؤلين أو مقسمين . ويجوز أن يراد لهم ﴿ من نسائهم تربص أربعة أشهر ﴾ كقوله : لى منك كذا . والإيلاء من المرأة أن يقول : والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقييد بالأشهر . أو لا أقربك على الإطلاق . ولا يكون فى مادون أربعة أشهر ، إلا مايحكى عن إبراهيم النخعى . وحكم ذلك : أنه إذا فاء إليها فى المدة [١] بالوطء إن أمكنه أو بالقول إن عجز : صح الفيء ، وحنث القادر ، ولزمته كفارة اليمين ، ولا كفارة على العاجز . وإن مضت الأربعة بانت بتطليقة عند أبى حنيفة . وعند الشافعى : لا يصح الإيلاء إلا فى أكثر من أربعة أشهر ثم يوقف المولى ، فإما أن يفيء وإما أن يطلق وإن أبى طلق عليه الحاكم . ومعنى قوله ﴿ فإن فاؤا ﴾ فإن فاؤا فى الأشهر ، بدليل قراءة عبد الله : فإن فاؤا فيهن ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يغفر للمولين ماعسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء وهو الغالب ، وإن كان يجوز أن يكون على رضا منهن إشفاقاً منهن على الولد من الغيل [٢] ، أو لبعض الأسباب لأجل الفيئة التى هى مثل التوبة ﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ فتربصوا إلى مُضىّ المدة ﴿ فإن الله سميع عليم ﴾ وعيد على إصرارهم وتركهم الفيئة ، وعلى قول الشافعى رحمه الله معناه : فإن فاؤا ، وإن عزموا [٣] بعد مضى المدة . فإن قلت : كيف موقع الفاء إذا كانت الفيئة قبل انتهاء مدّة التربص؟ [٤] قلت: موقع صحيح لأن قوله (فإن فاؤا) ، (وإن عزموا) تفصيل لقوله : (للذين يؤلون من نسائهم) والتفصيل

---

(١) قال محمود رحمه الله : وحكم ذلك أنه إذا فاء إليها فى المدة ... إلخ ، . قال أحمد رحمه الله وهذا التفسير منزل على مذهب أبى حنيفة لأنه لا يرى الفيئة بعد انقضاء الأربعة الأشهر مقيدة إذا وقع الطلاق بنفس مضيها فلا تكون الفيئة معتبرة عنده إلا فى أربعة الأشهر خاصة .

(٢) قوله « على الولد من الغيل » فى الصحاح : اغتيلت الغيلة - بالكسر - بولد فلان ، إذا أتيت أمه وهى ترضعه ، أو حملت وهى ترضعه . والغيل - بالفتح - اسم ذلك الابن . (ع)

(٣) قوله « فإن فاؤا وإن عزموا » يعنى أن كلا من الشرطين عند الشافعى بعد مضى المدة . (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : « فإن قلت كيف موقع الفاء إذا كانت الفيئة قبل انقضاء مدة التربص الخ » قال أحمد رحمه الله : هذا جواب عن سؤال موجه على أبى حنيفة رضى الله عنه لأنه إذا رأى الفيئة فى الأشهر الأربعة خاصة لا فيما بعدها والله تعالى عطف الفيئة على تربص أربعة أشهر بالفاء ومقتضاها كما علمت وقوع ماعطفه بعدما عطفه عليه فيلزم وقوع الفيئة المعتبرة بعد انقضاء الأشهر الأربعة ، وأبو حنيفة يأباه فلذلك أجاب عنه الزمخشرى بجوابه المتقدم والسؤال عندى يندفع بطريق آخر وهو أن المعطوف عليه التربص وهو حاصل من أول المدة لوقوع الفيئة فى المدة بعد التربص فلا يحتاج إلى الجواب بالمثال المذكور وإنما أوقع الزمخشرى فى التزام السؤال تسليمه لتقدم الفيئة فى الأربعة الأشهر على تربصها بناء منه على أنه لا يصدق قول القائل قد تربصت بفلان أربعة أشهر إلا إذا انقضت المدة وليس الأمر كذلك فانه يصدق من الحاكم أن يقول عند ضرب أجل المولى قد تربصت لك أربعة أشهر كما قال الله تعالى لينظر أيفيء أم لا ، ويصدق رب الدين فى أن يقول لمديانه حالة القرض قد أجلتك بهذا الدين سنة وإن كان المقتضى منها حينئذ دقيقة واحدة فلذلك التربص المعطوف عليه فى الآية واقع عند ضرب الأجل المذكور فالفيئة الواقعة فى الأجل إنما يقع بعده ، فالفاء على بابها المعروف .

يعقب المفصل ، كما تقول : أنا نزيلكم هذا الشهر ، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره ، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحول . فإن قلت : ماتقول فى قوله : (فإن الله سميع عليم) [١] وعزمهم الطلاق بما يعلم ولا يسمع ؟ قلت : الغالب أن العازم للطلاق وترك الفيئة والضرار ، لايخلو من مقاولة ودمدمة [٢] ولابد له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك ، وذلك حديث لايسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان ﴿ والمطلقات ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء . فإن قلت : كيف جازت إرادتهن خاصة واللفظ يقتضى العموم ؟ قلت : بل اللفظ مطلق فى تناول الجنس صالح لكله وبعضه ، فجاء فى أحد مايصلح له كالاسم المشترك . فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربص ؟ قلت : هو خبر فى معنى الأمر . وأصل الكلام : وليتربص المطلقات ، وإخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله . فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجوداً . ونحوه قولهم فى الدعاء : رحمك الله ، أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة ، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها ، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد . ولو قيل : ويتربص المطلقات ، لم يكن بتلك الوكادة . فإن قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء ، كما قيل

---

(١) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت : ما القول فى قوله فإن الله سميع عليم ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : فى هذا الجواب إسلاف جواب عن سؤال آخر يتوجه على أبى حنيفة رضى الله عنه يقال له : إذا كان مضى الأربعة الأشهر يوجب عندك وقوع الطلاق بنفسه غير موقوف على إيقاع من أحد ، فما الذى يسمع إذاً ؟ وهو أمكن من السؤال الذى قدره الزمخشرى ، فإن لقائل أن يقول : عبر بالعزم عن الإيقاع لأنه يستلزمه غالبا ، وفى أثناء كلامه نكتة تحتاج إلى التنبيه عند قوله : والعزم بما يعلم ولا يسمع ، والذى ننبه عليه أن قاعدة أهل السنة أن كل موجود يجوز أن يسمع ، حتى الجواهر والألوان والمعانى بجملتها ، وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم وليس بحرف ولاصوت ، فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتا ولانطقا ، غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع ومرئى وملموس ومشموم ومذوق وهو المعلوم بالحس ، وإلى معلوم بغير ذلك . وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده ، وإن كان الزمخشرى ثابتا فيما قاله على الأمر العرفى معتقدا ماذكرناه من حيث المعروف - وما أراه كذلك - فالأمر سهل . وإن كان أخرج كلامه المذكور على قاعدة الاعتزال - وهو الظاهر من حاله فى اعتقاد أن ماعدا الأصوات لايجوز أن يسمع عقلا - فالحذر الحذر من هذه القاعدة الفاسدة والله المستعان . ثم لابد لنا فى مسئلة الايلاء من البصر لما يعتقده من مذهب مالك رضى الله عنه ، ومذهب مالك رضى الله عنه هو الذى اقتفاه الشافعى رضى الله عنه فى المسئلة فنقول : مضى أربعة الأشهر بمجرده لايوجب وقوع الطلاق على الزوج ، لأن الأصل بقاء العصمة ، وقد جعل الله له الفيئة بعد تربص الأجل المذكور ، ونحن وإن بينا أولا أن الآية لاتأبى وقوع الفيئة فى الأجل وهى أيضا تأبى وقوعها بعد الأجل ، فينتظم من أصليه ، أعنى بقاء العصمة ، والسلامة من معارضة الآية ، وقوع الفيئة المعتبرة بعد الأجل ، وبقاء العصمة بعد الأجل ، استصحابا للأصل غير معارض بالآية ، وهو المطلوب .

(٢) قوله «لايخلو من مقاولة ودمدمة» فى الصحاح : دمدمت الشىء إذا ألزقته بالأرض ، لكنه غير مناسب هنا ، فلعله زمزمة بالزاى . وفى الصحاح : الزمزمة صوت الرعد . والزمزمة : كلام المجوس عند أكلهم . أو رمرمة بالراء ، وفى الصحاح : ترمرم ، إذا حرك فاه للكلام اه . وهذا أنسب . (ع)

تربص أربعة أشهر ؟ وما معنى ذكر الأنفس ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث ، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص . والقروء : جمع قرء أو قرء ، وهو الحيض ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « دعى الصلاة أيام أقرائك »[1] وقوله : « طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان »[2] ولم يقل طهران . وقوله تعالى ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار . ولأن الغرض الأصيل فى العدة استبراء الرحم ، والحيض هو الذى تستبرأ به الأرحام دون الطهر ، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة . ويقال : أقرأت المرأة ، إذا حاضت . وامرأة مقرئ . وقال أبو عمرو بن العلاء : دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها ، أى تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء . فإن قلت : فما تقول : فى قوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ والطلاق الشرعى ، إنما هو فى الطهر ؟ قلت : معناه : مستقبلات لعدتهن ، كما تقول : لقيته لثلاث بقين من الشهر ، تريد مستقبلا لثلاث ، وعدتهن الحيض الثلاث . فإن قلت : فما تقول فى قول الأعشى :

* لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا ؟ * [3]

قلت : أراد : لما ضاع فيها من عدة نسائك ، لشهرة القروء عندهم فى الاعتداد بهن ، أى من مدة طويلة كالمدة التى تعتد فيها النساء ، استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه فى الحروب والغارات ، وأنه تمر على نسائه مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها ، أو أراد من أوقات نسائك ،

---

(١) أخرجه الطحاوى والدارقطنى من حديث فاطمة بنت أبى حبيش « أنها قالت : يا رسول الله إنى امرأة أستحاض فلا أطهر . قال : دعى الصلاة أيام أقرائك ثم اغتسلى وصلى » .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم من رواية مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة بهذا . ومظاهر ضعيف . ورواه ابن ماجه والدارقطنى من رواية عطية عن ابن عمر نحوه : وفيه عمر بن شبيب وهو ضعيف .

(٣)
أفى كل عام أنت جاشم غزوة ... تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مؤثلة مالا وفى الحي رفعة ... لما ضاع فيها من قروء نسائكا

الأعشى ، يقول لجاره : أينبغى أن تتجشم وتكلف نفسك فى كل عام دخول غزوة واقتحام مكارهها ، تشد وتوثق عزيمة صبرك ، لأقصاها : أى أبعدها وأعلاها أو غايتها ومنتهاها . ومؤثلة أى مؤصلة على اسم الفاعل . ويروى مورثة ، أى تورثك تلك الغزوة مالا كثيرا بغنائمها ، ورفعة لك فى الحي لأجل ما ضاع فيها أى فى الأعوام المعلومة من ذكر كل عام ، واللام للعاقبة ، شبه ضياع القروء المترتب على خروجه للغزو بأمر مرغوب على طريق المكنية ولام العلة تخييل ، أو شبه ترتب المرغوب عنه بترتب المرغوب فيه ، واستعار له اللام على طريق التصريحية ، وفيها نوع توبيخ . ويجوز أن ذلك الاستفهام للتعجب ، فقوله « لما ضاع فيها » من تمام العجب . والأقراء التى تضيع على الزوج هى الأطهار ، لأنها التى يوطأن فيها ، لا الحيض ، وضياع ذلك يؤدى إلى انقطاع النسل .

فإنّ القرء والقارئ جاءا فى معنى الوقت، ولم يرد لاحيضاً ولا طهراً. فإن قلت: فعلام انتصب (ثلاثة قروء)؟ قلت: على أنه مفعول به كقولك: المحتكر يتربص الغلاء، أى يتربصن مضىّ ثلاثة قروء، أو على أنه ظرف، أى يتربصن مدة ثلاثة قروء. فإن قلت: لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التى هى الأقراء؟ قلت: يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية. ألا ترى إلى قوله (بأنفسهن) وما هى إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالا فى جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع. وقرأ الزهرى: ثلاثة قرو، بغير همزة. ﴿ماخلق الله فى أرحامهنّ﴾ من الولد أو من دم الحيض. وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهى حائض: قد طهرت، استعجالا للطلاق. ويجوز أن يراد اللاتى يبغين إسقاط مافى بطونهن من الأجنة فلا يعترفن به ويجحدنه لذلك، فجعل كتمان مافى أرحامهن كناية عن إسقاطه ﴿إن كن يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ تعظيم لفعلهن، وأن من آمن بالله وبعقابه لايجترئ على مثله من العظائم. والبعولة: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كما فى الحزونة والسهولة. ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعل حسن البعولة، يعنى: وأهل بعولتهن ﴿أحق بردّهن﴾ برجعتهن. وفى قراءة أبىّ: بردّتهن ﴿فى ذلك﴾ فى مدة ذلك التربص. فإن قلت: كيف جُعلوا أحق بالرجعة، كأن للنساء حقاً فيها؟ قلت: المعنى أنّ الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة وجب إيثار قوله على قولها وكان هو أحق منها، إلا أن لها حقاً فى الرجعة ﴿إن أرادوا﴾ بالرجعة ﴿إصلاحاً﴾ لما بينهم وبينهن وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارّتهنّ ﴿ولهنّ مثل الذى عليهن﴾ ويجب لهنّ من الحق على الرجال مثل الذى يجب لهم عليهنّ ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذى لاينكر فى الشرع وعادات الناس فلا يكلفنهم ماليس لهنّ ولا يكلفونهنّ ماليس لهم ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه. والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب الواجب فى كونه حسنة، لافى جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿درجة﴾ زيادة فى الحق وفضيلة. قيل المرأة تنال من اللذة ماينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه فى مصالحها.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

﴿ الطلاق ﴾ بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم ، أى التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة ، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير ، كقوله (ثم ارجع البصر كرّتين) أى كرّة بعد كرّة ، لا كرّتين اثنتين . ونحو ذلك من التثانى التى يراد بها التكرير قولهم : لبيك وسعديك وحنانيك وهذاذيك ودواليك . وقوله تعالى ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون ، بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجبهنّ ، وبين أن يسرحوهنّ السراح الجميل الذى عليهم . وقيل : معناه الطلاق الرجعى مرّتان ، لأنه لارجعة بعد الثلاث ، فإمساك بمعروف أى برجعة ، أو تسريح بإحسان أى بأن لايراجعها حتى تبين بالعدّة ، أو بأن لايراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضرارها . وقيل : بأن يطلقها الثالثة فى الطهر الثالث . وروى أنّ سائلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الثالثة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «أو تسريح بإحسان »[1] وعند أبى حنيفة وأصحابه : الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة ، والسنة أن لايوقع عليها إلا واحدة فى طهر لم يجامعها فيه ، لما روى فى حديث ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا فتطلقها لكل قرء تطليقة »[2] ، وعند الشافعى . لا بأس بإرسال الثلاث ، لحديث العجلانى الذى

---

(١) أخرجه الدارقطنى من رواية عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس به . وقال فى العلل : وهم فيه ليث بن حماد رواية عن عبد الواحد . والمحفوظ عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين مرسلا . وقد أخرجه ابن أبى شيبة عن أبى معاوية . وعبد الرزاق عن الثورى كلاهما عن إسماعيل بن سميع . ورواه الدارقطنى أيضا من رواية حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس قال قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى أسمع الله يقول : الطلاق مرتان فأين الثالثة ؟ قال : إمساك بمعروف أو تسريح باحسان ، هى الثالثة » .

(٢) أخرجه الدارقطنى والطبرانى من رواية شعيب بن رزين أن عطاء الخراسانى حدثهم عن الحسن قال : حدثنا عبد العزيز بن عمير «أنه طلق امرأته تطليقة وهى حائض ، ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين آخرتين عند القرأين فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ياابن عمير ، ماهكذا أمرك الله . قد أخطأت السنة ، والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء : فأمرنى بمراجعتها . فقال : إذا طهرت فطلق عند ذلك أو أمسك ـ الحديث » .

لاعن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه [١] . روى أنّ جميلة بنت عبد الله بن أبىّ كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها . فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، لاأنا ولاثابت ، لايجمع رأسى ورأسه شىء ، والله ماأعيب عليه فى دين ولاخلق ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام ، ماأطيقه بغضاً ، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً . فنزلت ، وكان قد أصدقها حديقة فاختلعت منه بها وهو أوّل خلع كان فى الإسلام [٢] . فإن قلت : لمن الخطاب فى قوله ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا ﴾ ؟ إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله (فإن خفتم ألا يقيما حدود الله) وإن قلت للأئمة والحكام فهؤلاء ليسوا بآخذين منهن ولا بمؤتيهن ؟ قلت : يجوز الأمران جميعاً : أن يكون أوّل الخطاب للأزواج ، وآخره للأئمة والحكام ، ونحو ذلك غير عزيز فى القرآن وغيره ، وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام ، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم ، فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿ مما آتيتموهنّ ﴾ مما أعطيتموهنّ من الصدقات ﴿ إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية ، لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها ﴿ فلا جناح عليهما ﴾

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد لكن قيل : إن قوله « فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره النبي صلى الله عليه وسلم بطلاقها » من كلام الزهرى رواية عن سهل ﴿ تنبيه ﴾ قال عبد الحق فى الأحكام : لم يصح اللفظ بالثلاث إلا فى حديث الملاعن . وتعقب بما فى مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت « طلقني زوجي ثلاثا تخاصمته ... الحديث » .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره : حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا معتمر بن سليمان قال : قرأت على فضيل عن أبى جرير أنه سأل عكرمة « هل كان للخلع أصل ؟ قال : كان ابن عباس يقول : إن أول خلع كان فى الاسلام فى أخت عبد الله بن أبى بن سلول ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره « ولم يسمها » وقد سماها البخارى من رواية حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة « أن جميلة ـ فذكره » ولابن ماجه من رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس « أن جميلة بنت سلول » وكذا أخرجه عبد الرزاق من وجه آخر « أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى جميلة بنت عبد الله بن أبى » وعند الدارقطنى من طريق ابن جريج أخبرنا أبو الزبير « أن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أبى . وكان أصدقها حديقة ، فكرهته ـ إلى آخره » فان كان محفوظاً فيحتمل أن يكون لها اسمان . وقد رويت القصة لغيرها . وفى الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عمرو عن حبيبة بنت سهل « أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصبح فوجدها عند بابه فى الغلس . فقال من هذه ؟ قالت : أنا حبيبة بنت سهل . قال : ماشأنك ؟ قالت : لاأنا ولا ثابت بن قيس » ومن طريقه أخرجه أبوداود والنسائى وأحمد ، ولابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت ابن قيس بن شماس ، وكان رجلا دميما . فقالت : يارسول الله لولا مخافة الله لبزقت فى وجهه : فقال : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . فردت عليه حديقته . وفرق بينهما » ولأحمد من حديث سهل بن أبى حثمة قال « كانت بنت سهل ـ الحديث » .

فلاجناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها فيما أعطت ﴿ فيما افتدت به ﴾ فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ماأوتيت من المهر. والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز فى الحكم. وروى أن امرأة نشزت على زوجها فرفعت إلى عمر رضى الله عنه، فأباتها فى بيت الزبل ثلاث ليال ثم دعاها فقال: كيف وجدت مبيتك؟ قالت: مابت منذ كنت عنده أقر لعيني منهن. فقال لزوجها: اخلعها ولو بقرطها [1]. قال قتادة: يعنى بمالها كله، هذا إذا كان النشوز منها، فإن كان منه كره له أن يأخذ منها شيئا. وقرئ إلا أن يخافا، على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير، وهو من بدل الاشتمال كقولك: خيف زيد تركه إقامة حدود الله. ونحوه (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ويعضده قراءة عبد الله (إلا أن تخافوا) وفى قراءة أبىّ: إلا أن يظنا. ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن. يقولون: أخاف أن يكون كذا، وأفرق أن يكون، يريدون أظن ﴿ فإن طلقها ﴾ الطلاق المذكور الموصوف بالتكرار فى قوله تعالى (الطلاق مرّتان) واستوفى نصابه. أو فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرّتين ﴿ فلا تحل له من بعد ﴾ من بعد ذلك التطليق ﴿ حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاح يسند إلى المرأة كما يسند إلى الرجل كما التزوج. ويقال: فلانة ناكح فى بنى فلان. وقد تعلق من اقتصر على العقد فى التحليل بظاهره وهو سعيد ابن المسيب. والذى عليه الجمهور أنه لابد من الإصابة. لما روى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنّ امرأة رفاعة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوّجنى، وإنما معه مثل هدبة الثوب وإنه طلقنى قبل أن يمسنى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقى عُسيلته ويذوق عُسيلتك [2]. وروى أنها لبثت ماشاء الله، ثم رجعت فقالت: إنه كان قد مسنى، فقال لها: كذبت فى قولك الأوّل، فلن أصدّقك فى الآخر، فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] فأتت أبا بكر رضى الله عنه فقالت: أأرجع إلى زوجى الأوّل. فقال: قد عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لك ماقال، فلا ترجعى إليه، فلما قبض أبو بكر رضى الله عنه قالت مثله لعمر رضى الله عنه فقال: إن أتيتنى بعد مرّتك هذه لأرجمنك، فمنعها. فإن قلت:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة والطبرى وإبراهيم الحربى فى أواخر الغريب له كلهم من رواية أيوب عن كثير مولى سمرة «أن عمر أتى بامرأة ناشزة فذكره» قال إبراهيم: الناشز التى تعصى زوجها.

(٢) متفق عليه من هذا الوجه.

(٣) قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة ـ فذكر الحديث. وفيه «فقعدت ماشاء الله. ثم جاءته فأخبرته أنه قد مسها، فمنعها أن ترجع إلى زوجها الأول، وقال: اللهم إن كان إنما بها أن يحلها لرفاعة فلا يتم لها نكاحه مرة أخرى. ثم أتت أبا بكر وعمر فى خلافتهما فمنعاها».

فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل ؟ قلت : ذهب سفيان والأوزاعى وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنه غير جائز ، وهو جائز عند أبى حنيفة مع الكراهة . وعنه أنهما إن أضمرا التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه لعن المحلل والمحلل له [١] . وعن عمر رضى الله عنه : لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما [٢] . وعن عثمان رضى الله عنه : لا إلا نكاح رغبة غير مدالسة [٣] . ﴿فإن طلقها﴾ الزوج الثانى . ﴿أن يتراجعا﴾ أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿إن ظنا﴾ إن كان فى ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية . ولم يقل : إن علما أنهما يقيمان ، لأنّ اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل . ومن فسر الظن هنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى ، لأنك لا تقول : علمت أن يقوم زيد ، ولكن : علمت أنه يقوم ، ولأنّ الإنسان لا يعلم ما فى الغد ، وإنما يظن ظناً .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

---

(١) روى عن ابن مسعود وعلى وجابر وعقبة بن عامر ، وأبى هريرة ، وابن عباس . قلت . أحال بها على تخريج الهداية وحديث ابن مسعود أخرجه الترمذى والنسائى وصححه ابن دقيق العيد على شرط البخارى . وحديث ابن عباس أخرجه ابن ماجه . وحديث على أخرجه أحمد وأبو داود . وحديث أبى هريرة رواه أحمد والبيهقى وحديث عقبة بن عامر أخرجه ابن ماجه . وحديث جابر ذكره الترمذى .

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة ، من رواية المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر فذكره .

(٣) لم أجده عن عثمان بل وجدته عن ابن عمر . أخرجه الحاكم من رواية عمر بن نافع عن أبيه أنه قال «جاء رجل إلى ابن عمر ، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه ، هل تحل للأول ؟ قال : لا إلا نكاح رغبة . كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقد روى مرفوعا أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المحلل . فقال : لا ، إلا نكاح رغبة غير دلسة ، ولا مستهزئ بكتاب الله تعالى لم يذق العسيلة» وفى إسناده إبراهيم بن إسماعيل ابن أبى حبيبة وهو ضعيف .

﴿ فبلغن أجلهن ﴾ أى آخر عدتهن وشارفن منتهاها . والأجل يقع على المدّة كلها ، وعلى آخرها ، يقال لعمر الإنسان : أجل ، وللموت الذى ينتهى به : أجل ، وكذلك الغاية والأمد ، يقول النحويون « من » لابتداء الغاية ، و « إلى » لانتهاء الغاية . وقال :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْــرِ وَمُودٍ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهْ [1]

ويتسع فى البلوغ أيضاً فيقال : بلغ البلد إذا شارفه وداناه . ويقال : قد وصلت ، ولم يصل وإنما شارف ، ولأنه قد علم أنّ الإمساك بعد تقضى الأجل لاوجه له ، لأنها بعد تقضيه غير زوجة له فى غير عدّة منه ، فلا سبيل له عليها ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة ﴿ أو سرحوهن بمعروف ﴾ وإما أن يخليها حتى تنقضى عدّتها وتبين من غير ضرار ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً ﴾ كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها ، ثم يراجعها لاعن حاجة ، ولكن ليطوّل العدة عليها ، فهو الإمساك ضراراً ﴿ لتعتدوا ﴾ لتظلموهنّ . وقيل : لتلجئوهن إلى الافتداء ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾ أى جدّوا فى الأخذ بها والعمل بما فيها ، وارعوها حق رعايتها ، وإلا فقد اتخذتموها هزواً ولعباً . ويقال لمن لم يجدّ فى الأمر : إنما أنت لاعب وهازئ . ويقال : كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة . وقيل : كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول : كنت لاعباً . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث جدّهن جدّ وهزلهن جدّ : الطلاق [2] والنكاح والرجعة [3] ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ بالإسلام وبنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ من القرآن والسنة وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها ﴿ يعظكم به ﴾ بما أنزل عليكم ﴿ فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ﴾ إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً ، ولحمية الجاهلية لايتركونهنّ يتزوّجن من شئن من الأزواج . والمعنى : أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهنّ ، وإما أن يخاطب به الأولياء فى عضلهنّ أن يرجعن إلى أزواجهنّ . روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأوّل . وقيل : فى جابر

---

(١) يقال : أودى إذا هلك ، وأودى به السيل ونحوه أهلكه وذهب به . والودى كالغنى : الهلاك . ويروى أجله . والأمد والأجل يطلقان على جميع مدة الشيء وعلى منتهاها ، كما تطلق الغاية على جميع المسافة وعلى آخرها . يقول : كل حى لابد أنه يستكمل مدة عمره ويهلك إذا انتهت مدته وتسكين العمر لغة فيه .

(٢) قوله « وهزلهن جد الطلاق والنكاح والرجعة » فى أبى السعود : النكاح والطلاق والعتاق . (ع)

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم والدارقطنى والبيهقى ، من حديث أبى هريرة . وفى إسناده ضعف .

ابن عبد الله حين عضل بنت عم له . والوجه أن يكون خطاباً للناس ، أى لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا فى حكم العاضلين . والعضل : الحبس والتضييق . ومنه : عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم تخرج . وأنشد لابن هرمة :

وَإِنَّ قَصَائِدِى لَكَ فَاصْطَنِعْنِى عَقَائِلُ قَدْ عَضُلْنَ عَنِ النِّكَاحِ [(١)]

وبلوغ الأجل على الحقيقة . وعن الشافعى رحمه الله : دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين ﴿إذا تراضوا﴾ إذا تراضى الخطاب والنساء ﴿بالمعروف﴾ بما يحسن بالدين والمروءة من الشرائط وقيل : بمهر المثل . ومن مذهب أبى حنيفة رحمه الله أنها إذا زوجت نفسها بأقل من مهر مثلها فللأولياء أن يعترضوا . فإن قلت : لمن الخطاب فى قوله ﴿ذلك يوعظ به﴾ ؟ قلت : يجوز أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد . ونحوه (ذلك خير لكم وأطهر) . ﴿أزكى لكم وأطهر﴾ من أدناس الآثام : وقيل (أزكى وأطهر) أفضل وأطيب ﴿والله يعلم﴾ ما فى ذلك من الزكاء والطهر ﴿وأنتم لا تعلمونه﴾ ، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلونه .

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

﴿يرضعن﴾ مثل يتربصن فى أنه خبر فى معنى الأمر المؤكد ﴿كاملين﴾ توكيد كقوله (تلك عشرة كاملة) لأنه مما يتسامح فيه فتقول : أقمت عند فلان حولين ، ولم تستكملهما . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : أن يكمل الرضاعة : وقرئ الرّضاعة . بكسر الراء . والرضعة . وأن تتم الرضاعة وأن يتم الرضاعة ، برفع الفعل تشبيهاً لـ «أن» بـ «ما» ، لتأخيهما فى التأويل . فإن قلت : كيف

(١) العقائل : جمع عقيلة ، وهى المعقولة فى خدرها من النساء . يقول : إن قصائدى لك مثل المخدرات ، فلك : حال من القصائد أو العقائل . وقوله « فاصطنعنى » اعتراض ، أى فاتخذنى مادحا وكافئنى على مدحى إياك بما لا أمدح به غيرك من القصائد . ولما شبه القصائد بالنساء رشح ذلك بالعضل ، وهو المنع من النكاح الخاص بالنساء .

اتصل قوله ﴿لمن أراد﴾ بما قبله ؟ قلت : هو بيان لمن توجه إليه الحكم ، كقوله تعالى (هيت لك) لك بيان للمهيت به ، أى هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع . وعن قتادة : حولين كاملين ،ثم أنزل الله اليسر والتخفيف فقال ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أراد أنه يجوز النقصان،وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه بعد أن لا يكون فى الفطام ضرر . وقيل : اللام متعلقة بيرضعن ، كما تقول : أرضعت فلانة لفلان ولده ، أى يرضعن حولين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة من الآباء،لأنّ الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذله ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهى مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه . ولا يجوز استئجار الأم عند أبى حنيفة رحمه الله مادامت زوجة أو معتدة من نكاح . وعند الشافعى يجوز . فاذا انقضت عدّتها جاز بالاتفاق . فان قلت : فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن أولادهنّ ؟ قلت : إما أن يكون أمراً على وجه الندب ، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبى إلا ثدى أمه ، أو لم توجد له ظئر ، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار . وقيل : أراد الوالدات المطلقات ،وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿وعلى المولود له﴾ وعلى الذى يولد له وهو الوالد . و(له) فى محل الرفع على الفاعلية، نحو(عليهم) فى (المغضوب عليهم) فإن قلت لم قيل (المولود) له دون الوالد . قلت : ليعلم أنّ الوالدات إنما ولدن لهم ، لأن الأولاد للآباء ، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات . وأنشد للمأمون بن الرشيد :

فَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلآبَاءِ أَبْنَاءُ [1]

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم،كالأظآر.ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى ، وهوقوله تعالى (واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) ، ﴿بالمعروف﴾ تفسيره مايعقبه،وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه ولا يتضارّا.وقرئ﴿لا تكلف﴾ بفتح التاء؛ و(لا نكلف) بالنون.وقرئ:﴿لا تضارُّ﴾ بالرفع على

(١) لا تزرين بفتى من أن يكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فانما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

للمأمون بن الرشيد حين كتب إليه أخوه الأمين يوبخه على الخلافة بغير استحقاق ، وفى آخره : ابن الأمة ما الأمه : فأجابه بذلك . وأزرى به : إذا أوقع به العيب ورماه به . والنون فى الفعل للتوكيد . ويروى : لا تزدرين فتى ، على خطاب المؤنثة ، وكأنه أراد به إسماع أخيه . وزرى عليه : إذا عاب عليه . والازدراء : افتعال منه ، أى لا تعيبى ، والنون ثابتة بعد النهى شذوذا . والعجماء : التى لا تفصح فى كلامها . وشبه النساء بالأوعية التى تودع فيها الأشياء تشبيها بليغا ، أو على طريق التصريحية على رأى السعد فى كل تشبيه بليغ . وروى : وللأبناء آباء . والمعنى أن الرفعة والضعة من جهة الآباء لا من جهة الأمهات ، لأنها كالأوعية للأبناء . لكن هذا التشبيه مبنى على الظاهر . ثم كتب المأمون أيضا فى جواب أخيه : القلم بعده ، والسيف بحده ، والمرء بسعده ، لا بأبيه ولا بجده .

الإخبار،وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول،وأن يكون الأصل : تضارر بكسر الراء ، وتضارر بفتحها . وقرأ (لاتضارَّ) بالفتح أكثر القراء . وقرأ الحسن بالكسر على النهى ، وهو محتمل للبناءين أيضاً . ويبين ذلك أنه قرئ لاتضارَرْ ، ولاتضارِرْ ، بالجزم وفتح الراء الأولى وكسرها . وقرأ أبو جعفر : لاتضارْ ، بالسكون مع التشديد على نية الوقف. وعن الأعرج (لاتضارْ) بالسكون والتخفيف ، وهو من ضاره يضيره . ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر ، أو اختلس الضمة فظنه الراوى سكونا . وعن كاتب عمر بن الخطاب : لاتضرر . والمعنى : لاتضارّ والدة زوجها بسبب ولدها ، وهو أن تعنف به وتطلب منه ماليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد ، وأن تقول بعد ماألفها الصبى: اطلب له ظئراً ، وماأشبه ذلك ؛ ولايضارّ مولود له امرأته بسبب ولده، بأن يمنعها شيئا مما وجب عليه من رزقها وكسوتها ؛ ولا يأخذه منها وهى تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع. وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهى عن أن يلحق بها الضرار من قبل الزوج ، وعن أن يلحق بها الضرار بالزوج من قبلها بسبب الولد : ويجوز أن يكون (تضار) بمعنى تضر ، وأن تكون الباء من صلته ، أى لاتضرّ والدة بولدها ، فلا تسىء غذاءه وتعهده ، ولا تفرط فيما ينبغى له ، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها . ولا يضرّ الوالد به بأن ينتزعه من يدها أو يقصر فى حقها فتقصر هى فى حق الولد . فان قلت: كيف قيل بولدها وبولده ؟ قلت : لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافا لها عليه وأنه ليس بأجنبىّ منها ، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد ﴿ وعلى الوارث ﴾ عطف على قوله ﴿ وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهن ﴾ ، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه . فكان المعنى : وعلى وارث المولود له مثل ماوجب عليه من الرزق والكسوة ، أى إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه فى أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التى ذكرت من المعروف وتجنب الضرار . وقيل: هو وارث الصبى الذى لو مات الصبى ورثه . واختلفوا ، فعند ابن أبى ليلى كل من ورثه ، وعند أبى حنيفة من كان ذا رحم محرم منه . وعند الشافعى : لانفقة فيما عدا الولاد . وقيل من ورثه من عصبته مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العمّ . وقيل : المراد وارث الأب وهو الصبى نفسه ، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه فى ماله إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه . وقيل (على الوارث) على الباقى من الأبوين من قوله : « واجعله الوارث منا » [1] ﴿ فإن أرادا فصالا ﴾ صادراً ﴿ عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ فى ذلك ، زادا على الحولين أو نقصا ، وهذه توسعة بعد التحديد . وقيل : هو فى غاية الحولين لايتجاوز، وإنما اعتبر تراضيهما

(١) قوله « واجعله الوارث منا » الرواية المشهورة : منى . (ع)

فى الفصال وتشاورهما : أمّا الأب فلا كلام فيه ، وأمّا الأمّ فلأنها أحق بالتربية وهى أعلم بحال الصبى . وقرئ (فإن أراد) . استرضع : منقول من أرضع . يقال : أرضعت المرأة الصبى ، واسترضعتها الصبى، لتعديه إلى مفعولين ، كما تقول: أنجح الحاجة ، واستنجحته الحاجة. والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم ، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه ، كما تقول : استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته ، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأوّل ﴿ إذا سلمتم ﴾ إلى المراضع ﴿ ما آتيتم ﴾ ما أردتم إيتاءه ، كقوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة) وقرئ : ماأتيتم ، من أتى إليه إحساناً إذا فعله . ومنه قوله تعالى (إنه كان وعده مأتياً) أى مفعولا . وروى شيبان عن عاصم : ماأوتيتم ، أى ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة ، ونحوه (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وليس التسليم بشرط للجواز والصحة ، وإنما هو ندب إلى الأولى . ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذى تعطاه المرضع من أهنى ما يكون، لتكون طيبة النفس راضية ، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبى واحتياطاً فى أمره ، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد ، كأنه قيل : إذا أدّيتم إليهن يداً بيد ماأعطيتموهن ﴿ بالمعروف ﴾ متعلق بسلمتم ، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشرى الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل ، مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن ، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿ والذين يتوفون منكم ﴾ على تقدير حذف المضاف ، أراد : وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن. وقيل: معناه يتربصن بعدهم، كقولهم : السمن منوان بدرهم . وقرئ : يَتوفون بفتح الياء[1]

(١) قال محمود رحمه الله : « قرأها على رضى الله عنه بفتح الياء ... الخ » ، قال أحمد رحمه الله : ولعل السائل =

أى يستوفون آجالهم ، وهى قراءة على رضى الله عنه . والذى يحكى أن أبا الأسود الدؤلى كان يمشى خلف جنازة ، فقال له رجل : من المتوفى ـ بكسر الفاء ، فقال الله تعالى . وكان أحد الأسباب الباعثة لعلى رضى الله عنه على أن أمره بأن يضع كتابا فى النحو ، تناقضه هذه القراءة ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ يعتددن هذه المدّة وهى أربعة أشهر وعشرة أيام ، وقيل عشراً ذهابا إلى الليالى والأيام داخلة معها ، ولاتراهم قط يستعملون التذكير فيه ذاهبين إلى الأيام . تقول : صمت عشراً [١] ، ولو ذكرت خرجت من كلامهم . ومن البين فيه قوله تعالى (إن لبثتم إلا عشراً) ثم (إن لبثتم إلا يوما) ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ فإذا انقضت عدّتهن ﴿ فلاجناح عليكم ﴾ أيها الأئمة وجماعة المسلمين ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن ﴾ من التعرّض للخطاب ﴿ بالمعروف ﴾ بالوجه الذى لاينكره الشرع . والمعنى أنهن لو فعلن ماهو منكر كان على الأئمة أن يكفوهن . وإن فرّطوا كان عليهم الجناح ﴿ فيما عرضتم به ﴾ هو أن يقول لها إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة ومن غرضى أن أتزوج ، وعسى الله أن ييسر لى امرأة صالحة ، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ، ولا يصرح بالنكاح ، فلا يقول : إنى أريد أن أنكحك ، أو أتزوجك ، أو أخطبك . وروى ابن المبارك عن عبد الله بن سليمان عن خالته قالت : دخل علىّ أبو جعفر محمد بن على وأنا فى عدتى فقال : قد علمت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدّى علىّ وقدمى فى الإسلام ، فقلت : غفر الله لك ! أتخطبنى فى عدّتى وأنت يؤخذ عنك ؟ فقال : أوقد فعلت ! إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى ، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبى سلمة فتوفى عنها ، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده من شدّة تحامله عليها ، فما كانت تلك خطبة [٢] . فإن قلت : أى فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك : طويل النجاد والحمائل لطول القامة [٣]

ـــ لأبى الأسود كان ممن يفهم عنه أنه لافرق عنده بين الكسر والفتح وهو الظاهر ، وعلى ذلك أجابه أبو الأسود ، فلاتناقض حينئذ .

(١) قال محمود رحمه الله : «وتقول : صمت عشراً ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ومنه «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر» فغلب الليالى أو كان الصوم غير متصور فيها حتى قالوا : إن شرطة النية وزمانها الليل ، فلهذا جعل لها حظاً فى الصوم وغلبها .

(٢) هكذا هو فى كتاب النكاح لابن المبارك ورواه الدارقطنى من رواية محمد بن الصلت عن عبد الرحمن بن سليمان ـ وهو ابن الغسيل ـ نحوه بتمامه .

(٣) قوله «لطول القامة» لعله : لطويل . (ع)

وكثير الرماد للمضياف . والتعريض أن تذكر شيأ تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم . ولذلك قالوا :

* وَحَسْبُكَ بِالتَّسْلِيمِ مِنِّى تَقَاضِيَا *

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده ﴿أو أكننتم فى أنفسكم﴾ أو سترتم وأضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لا معرّضين ولا مصرحين ﴿علم الله أنكم ستذكرونهنّ﴾ لا محالة ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهنّ ولا تصبرون عنه ، وفيه طرف من التوبيخ كقوله : (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) . فإن قلت : أين المستدرك بقوله [١] ﴿ولكن لا تواعدوهنّ﴾ ؟ قلت : هو محذوف لدلالة ستذكرونهنّ عليه ، تقديره : علم الله أنكم ستذكرونهنّ فاذكروهنّ ، ولكن لا تواعدوهنّ سراً . والسر وقع كناية عن النكاح الذى هو الوطء ، لأنه مما يسرّ . قال الأعشى :

وَلَا تَقْرَبَنْ مِنْ جَارَةٍ إِنَّ سِرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِحَنْ أَوْ تَأَبَّدَا [٢]

ثم عبر به عن النكاح الذى هو العقد لأنه سبب فيه كما فعل بالنكاح ﴿إلا أن تقولوا قولا

---

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت أين المستدرك بقوله ولكن ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف ، لأن المعتاد فى مثل هذه الصيغة ورود الاباحة عقيبها . ونظير هذا النظم قوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) الآية . ولهذا الحذف سر والله أعلم ، وهو أنه اجتنب لأن الاباحة لم تنسحب على الذكر مطلقا ، بل اختصت بوجه واحد من وجوهه وذلك الوجه المباح عسر التميز عما لم يبح ، فذكرت مستثناة بقوله (إلا أن تقولوا قولا معروفا) تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر والأصل فيه الحظر ، ولا كذلك الوطء فى زمن ليل الصوم فانه أبيح مطلقا غير مقيد ، فلذلك صدر الكلام بالاباحة والتوسعة ، وجاء النهى عن مباشرة المعتكفة فى المسجد تلوا للاباحة وتبعا فى الذكر ، لأنها حالة فاذة والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم ، ولكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب وهو الاعتكاف ، فتفطن لهذا السر فانه من غرائب النكت .

(٢)
ولا تسخرن من بائس ذى ضرارة ولا تحسبن المال للمرء مخلدا
ولا تقربن من جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا

للأعشى ميمون بن قيس . والبائس : الفقير المحتاج . والضرارة : العمى . وإسناد الاخلاد إلى المال مجاز ، لأنه سببه على التوهم . وتقرب ـ بفتح الراء ـ بمعنى تفعل ، فمن زائدة . وجارة : مفعول ، وبضمها بمعنى تدنو ، فمن أصلية . وروى : ولا تقربن جارة ـ بتشديد النون ـ وعلى كل فهو كناية عن النهى عن الوطء . والسر : ضد الجهر ، واستعمل هنا فى الموطئ مجازا لأنه يقع فيه ، أو لأنه مما يسر . والنكاح : عقد الزوجية . ويقال : أبد الوحشى أبودا ، وتأبد تأبدا : نفر عن الأنيس ، وألفه هنا منقلبة عن نون التوكيد فى الوقف ، والمراد منه التباعد مجازاً ، والمخاطب بذلك ليس معينا . ونهاه عن الدنو منها لأنه أبلغ من نهيه عن وطئها ، ثم قال : فتزوج أو اعتزل النساء كالوحش .

معروفا ﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا . فإن قلت : بم يتعلق حرف الاستثناء ؟ قلت : بلا تواعدوهن ، أى لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة . أى لا تواعدوهن إلا بأن تقولوا ، أى لا تواعدوهن إلا بالتعريض . ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من (سرًّا) لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض . وقيل معناه : لا تواعدوهن جماعا ، وهو أن يقول لها إن نكحتك كان كيت وكيت ، يريد ما يجرى بينهما تحت اللحاف . إلا أن تقولوا قولا معروفا يعنى من غير رفث ولا إفحاش فى الكلام . وقيل لا تواعدوهن سراً : أى فى السر على أن المواعدة فى السر عبارة عن المواعدة بما يستهجن ، لأن مسارتهن فى الغالب بما يستحيا من المجاهرة به . وعن ابن عباس رضى الله عنهما (إلا أن تقولوا قولا معروفا) ، هو أن يتواثقا أن لا تتزوج غيره ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح ﴾ من عزم الأمر وعزم عليه ، وذكر العزم مبالغة فى النهى عن عقدة النكاح فى العدة ، لأن العزم على الفعل يتقدمه ، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى ومعناه : ولا تعزموا عقد عُقدة النكاح . وقيل : معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح : وحقيقة العزم : القطع ، بدليل قوله عليه السلام « لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل » وروى « لمن لم يبيت الصيام[1] » ﴿ حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ يعنى ما كتب وما فرض من العدة ﴿ يعلم ما فى أنفسكم ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿ فاحذروه ﴾ ولا تعزموا عليه . ﴿ غفور حليم ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة .

لَاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَالَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

﴿ لا جناح عليكم ﴾ لا تبعة عليكم من إيجاب مهر ﴿ إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ﴾ ما لم تجامعوهن ﴿ أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة ، أو حتى تفرضوا ، وفرض الفريضة : تسمية المهر . وذلك أن المطلقة غير المدخول بها إن سمى لها مهر فلها نصف المسمى ، وإن لم يسم لها فليس لها نصف مهر المثل ولكن المتعة . والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله :

(١) أخرجه أصحاب السنن من حديث حفصة بلفظ « لمن لم يجمع » وقوله : وروى « لمن لم يبيت » هى عند النسائى .

(وإن طلقتموهن) إلى قوله (فنصف مافرضتم) فقوله : فنصف مافرضتم : إثبات للجناح المنفى ثمة ، والمتعة درع وملحفة وخمار على حسب الحال عند أبى حنيفة ، إلا أن يكون مهر مثلها أقل من ذلك . فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ، ولا ينقص من خمسة دراهم ؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها . و ﴿ الموسع ﴾ الذى له سعة . و﴿ المقتر ﴾ الضيق الحال . ﴿ وقدْره ﴾ مقداره الذى يطيقه ، لأنّ مايطيقه هو الذى يختص به . وقرئ بفتح الدال . والقدْر والقدَر لغتان . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل من الأنصار تزوج امرأة ولم يسم لها مهراً ، ثم طلقها قبل أنْ يمسها : « أمتعتها » ؟ قال : لم يكن عندى شيء . قال : « متعها بقلنسوتك [١] » . وعند أصحابنا لاتجب المتعة إلا لهذه وحدها ، وتستحب لسائر المطلقات ولا تجب . ﴿متاعا﴾ تأكيد لمتعوهن ، بمعنى تمتيعاً ﴿ بالمعروف ﴾ بالوجه الذى يحسن فى الشرع والمروءة ﴿ حقا ﴾ صفة لمتاعا ، أى متاعا واجبا عليهم . أو حق ذلك حقاً ﴿على المحسنين ﴾ على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتيع ، وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه [٢] » ﴿ إلا أن يعفون ﴾ يريد المطلقات . فإن قلت : أى فرق بين قولك : الرجال يعفون ، والنساء يعفون ؟ قلت : الواو فى الأوّل ضميرهم ، والنون علم الرفع . والواو فى الثانى لام الفعل والنون ضميرهنّ ، والفعل مبنى لا أثر فى لفظه للعامل وهو فى محل النصب « ويعفو : عطف على محله . و ﴿ الذى بيده عقدة النكاح ﴾ الولىّ [٣]

---

(١) لم أجده .

(٢) تقدم فى صفحة ٣٥ من هذا الجزء .

(٣) قال محمود رحمه الله : « والذى بيده عقدة النكاح الولى ... الخ » قال أحمد رحمه الله : هذا النقل وهم فيه الزمخشرى عن الشافعى رضى الله عنه ، فان مذهبه موافق لمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فى أن المراد به الزوج . وإنما ذهب إلى أن المراد الولى الامام مالك رضى الله عنه ، وصدق الزمخشرى أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه :

الأول : أن الذى بيده عقدة النكاح ثابتة مستقرة هو الولى . وأما الزوج فله ذلك حالة العقد المتقدم خاصة ، ثم هو بعد الطلاق ، والكلام حينئذ ليس من عقدة النكاح فى شيء البتة ، فان قيل : أطلق عليه ذلك بعد الطلاق بتأويل «كان» مقدرة ، فلا يخفى على المنصف ما فى ذلك من البعد والخروج من حد إطلاق الكلام وأصله .

الثانى : أن الخطاب الأول للزوجات اتفاقا بقوله (إلا أن يعفون) وفيهن من لاعفو لها البتة كالأمة والبكر ، فلولا استتمام التقسيم بصرف الثانى إلى الولى على ابنته البكر أو أمته ، وإلا لزم الخروج عن ظاهر عموم الأول ، وحيث حمل الكلام على الولى صار الكلام بمعنى : إلا أن يعفون كن أهلا للعفو ، أو يعفو لهن إن لم يكن أهلا ، ولهذا كان الولى الذى يعفو ويعتبر عفوه عند مالك : هو الأب فى ابنته البكر ، والسيد فى أمته خاصة .

الثالث : أن الكتاب العزيز جدير بتناسب الأقسام وانتظام أطراف الكلام ، والأمر فيه على هذا المحمل بهذه المثابة ، فان الآية حينئذ مشتملة على خطاب الزوجات ثم الأولياء ثم الأزواج بقوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) فتكون على هذا الوجه ملية بالفوائد جامعة للمقاصد .

يعنى إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر ، وتقول المرأة : ما رآنى ولاخدمته ولااستمتع بى فكيف آخذ منه شيئا ، أو يعفو الولىّ الذى يلى عقد نكاحهن ، وهو مذهب الشافعى . وقيل هو الزوج ، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملا ، وهو مذهب أبى حنيفة والأوّل ظاهر الصحة . وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر ، إلا أن يقال كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوج ، فإذا طلقها استحقّ أن يطالبها بنصف ماساق إليها ، فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها . أو سماه عفواً على طريق المشاكلة . وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو . وعنه أنه دخل على سعد بن أبى وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها ، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملا ، فقيل له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرضها علىّ فكرهت ردّه ، قيل : فلم بعثت بالصداق ؟ قال : فأين الفضل ؟ [1] و ﴿ الفضل ﴾ التفضل . أى ولاتنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمرؤا ولا تستقصوا : وقرأ الحسن : أن يعفو الذى ، بسكون الواو . وإسكان الواو والياء فى موضع النصب تشبيه لهما بالألف لأنهما أختاها . وقرأ أبو نهيك : وأن يعفو ، بالياء . وقرئ : ولا تنسو الفضل ، بكسر الواو .

= الرابع : أن المضاف إلى صاحب عقدة النكاح العفو كما هو مضاف إلى الزوجات ، والعفو : الاسقاط لغة وهو المراد فى الأول اتفاقا ، إذ المضاف إلى الزوجات هو الاسقاط بلا ريب ، ولو كان المراد بصاحب العقدة الزوج لتعين حمل العفو على تكميل المهر وإعطائه مالا يستحق عليه ، وهذا إنما يطابقه من الأسماء التفضل . ومن ثم قال فى خطاب الأزواج (ولا تنسوا الفضل بينكم) لأن المبذول من جهته غير مستحق عليه فهو فضل لا عفو . ولا يقال : لعل الزوج تعجل المهر كاملا قبل الطلاق وطلق فيجب استرجاع النصف فيسقطه ويعفو عنه وحينئذ يبقى العفو من جانب الزوج على ظاهره وحقيقته ، لأنا نقول : حسبنا فى رد هذا الوجه ما فيه من الكلفة وتقدير ما الأصل خلافه .

الخامس : أن صدر الآية خطاب للأزواج فى قوله : (وإن طلقتموهن) إلى قوله (فرضتم) فلو جاء قوله (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) مراداً به الزوج لكان عدولا والتفاتا من الخطاب إلى الغيبة ، وليس هذا من مواضعه ، ولأجل هذا جاء قوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) على صيغة الخطاب ، لأن المراد به الأزواج لخطابهم أولا

السادس : أن قوله (إلا أن يعفون) وما عطف عليه استثناء من قوله (فنصف ما فرضتم) وأصل الكلام : فنصف ما فرضتم واجب عليكم إلا أن يعفو عنه الزوجات فليس بواجب عليكم إذاً ، فاذا حمل الكلام على الولى استقام ، إذ هم لو كملوا المهر لهن فالنصف واجب عليهم ولا يتغير ولا يخالف الحالة المستثناة عما وقع منه الاستثناء ، فلا يجرى الاستثناء على حقيقته فى المخالفة بين الأول والثانى ، إلا أن يقال : مقتضى قوله (فنصف ما فرضتم) واجب عليكم : أن النصف الآخر غير مؤدى إليهن لأنه ساقط عن الزوج ، فاذا عفا بمعنى كمل المهر فقد صار النصف الآخر مؤدى إليهن ، ففى هذا التأويل من الكلفة ما يسقط مؤنة رده .

(١) أخرجه الطبرى من طريق ابن أبى ذئب عن سعيد بن محمد بن جبير عن جده جبير بن مطعم به سواء .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

﴿الصلاة الوسطى﴾ أى الوسطى بين الصلوات ، أو الفضلى ، من قولهم للأفضل : الأوسط. وإنما أفردت وعطفت على الصلاة [١] لانفرادها بالفضل وهى صلاة العصر. وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً [٢] » وقال عليه السلام « إنها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب » [٣] وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف : إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، فأملت عليه : والصلاة الوسطى صلاة العصر [٤] وروى عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم : والصلاة الوسطى وصلاة العصر [٥] ؛ بالواو.

---

(١) قوله « وعطفت على الصلاة » لعله : على الصلوات. (ع)

(٢) أخرجه مسلم من رواية شتير بن شكل عن على به. والحديث فى الكتب الستة ، إلا أن قوله « صلاة العصر » عند مسلم وحده. وأخرجه البخارى فى المغازى والجهاد والتفسير وفى الباب عن ابن مسعود رفعه « الصلاة الوسطى صلاة العصر » أخرجه الترمذى. وعنده عن سمرة نحوه.

(٣) أخرجه ابن عدى فى الكامل عن على مرفوعا. قال « صلاة الوسطى صلاة العصر التى غفل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب » وفى إسناده مقاتل بن سليمان. وهو ساقط ، ورواه ابن أبى شيبة من رواية أبى إسحاق عن الحرث ابن على مرفوعا ، وهو أشبه بالصواب. وفى الباب عن ابن عباس موقوفا عند الطبرى.

(٤) أخرجه الطبرى من طريق أبى بشر عن سالم عن حفصة أنها أمرت رجلا فكتب لها مصحفاً. فقالت : إذا بلغت هذا المكان فأعلمنى. فلما بلغ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) قالت : اكتب : صلاة العصر. وفى رواية له : فقالت له واكتب فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى هى صلاة العصر » هكذا عند الطبرى. والمشهور عن حفصة أنها أملت على الكاتب : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر. كذلك رواه مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع أنه قال : كنت أكتب مصحفاً لحفصة فذكره. ورواه ابن حبان من رواية ابن إسحاق : حدثنى أبو جعفر محمد بن على ونافع بن عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب حدثهما أنه كان يكتب المصاحف فى عهد أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاستكتبتنى حفصة مصحفاً وقالت : إذا بلغت هذه الآية من هذه السورة ـ البقرة ـ فلا تكتبها حتى تأتينى بها فأمليها عليك كما حفظتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فلما بلغتها جئتها بالورقة التى أكتبها : فقالت لى : اكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر. ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والطحاوى. ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن نافع عن حفصة نحوه وكذا رواه الطبرى من طريق عبد الله بن عمر عن نافع : أن حفصة أمرت مولى لها : وأخرجه ابن أبى داود فى كتاب المصاحف من نحو عشرين طريقاً فيها كلها وصلاة العصر بالواو.

(٥) أما عائشة فروى مسلم من طريق أبى يونس مولى عائشة قال : أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت إذا بلغت هذه الآية فآذنى. فلما بلغتها آذنتها فأملت على : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر ، وقالت

فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين : إحداهما الصلاة الوسطى ، إمّا الظهر ، وإمّا الفجر وإمّا المغرب ، على اختلاف الروايات فيها ، والثانية : العصر ، وقيل : فضلها لما فى وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم . وعن ابن عمر رضى الله عنهما : هى صلاة الظهر [١] ، لأنها فى وسط النهار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها بالهاجرة ، ولم تكن صلاة أشدّ على أصحابه منها . وعن مجاهد : هى الفجر لأنها بين صلاتى النهار وصلاتى الليل . وعن قبيصة بن ذؤيب : هى المغرب ، لأنها وتر النهار ولا تنقص فى السفر من الثلاث [٢] : وقرأ عبد الله : وعلى الصلاة الوسطى : وقرأت عائشة رضى الله عنها (والصلاة الوسطى) بالنصب على المدح والاختصاص . وقرأ نافع : الوصطى ، بالصاد ﴿وقوموا لله﴾ فى الصلاة ﴿قانتين﴾ ذاكرين لله فى قيامكم . والقنوت : أن تذكر الله قائما : وعن عكرمة : كانوا يتكلمون فى الصلاة فنهوا . وعن مجاهد : هو الركود وكف الأيدى والبصر . وروى أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمدّ بصره أو يلتفت ، أو يقلب الحصا ، أو يحدّث نفسه بشيء من أمور الدنيا ﴿فإن خفتم﴾ فإن كان بكم خوف من عدوّ أو غيره ﴿ فرجالا ﴾ فصلوا راجلين ، وهو جمع راجل كقائم وقيام ، أو رجل . يقال : رجل رجل ، أى راجل . وقرئ : فرجالا . بضم الراء ، ورجالا . بالتشديد ، ورجلا . وعند أبى حنيفة رحمه الله : لا يصلون فى حال المشى والمسايفة مالم يمكن الوقوف : وعند الشافعى رحمه الله : يصلون فى كل حال ، والراكب يومئ ويسقط عنه التوجه إلى القبلة ﴿ فإذا أمنتم ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿ فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ من صلاة الأمن ، أو فإذا أمنتم فاشكروا الله على الأمن ، واذكروه بالعبادة ، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع ، وكيف تصلون فى حال الخوف وفى حال الأمن .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ

ـــ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذا أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى ومالك والشافعي وأحمد من هذا الوجه . وأما ابن عباس فرواه الطبرى وابن أبى داود فى المصاحف من رواية أبى إسحاق عمر بن مريم عن ابن عباس « أنه كان يقرؤها كذلك » .

(١) أخرجه الطبرى من رواية أبى عقيل زهرة بن معبد أن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وإبراهيم بن طلحة سألوا ابن عمر عن الصلاة الوسطى . فقال : هى الظهر .

(٢) أخرجه الطبرى من رواية إسحق بن أبى فردة عن رجل عن قبيصة بن ذؤيب قال : الصلاة الوسطى صلاة المغرب . ألا ترى أنها ليست بأقلها ولا أكثرها ، ولا تقصر فى السفر ؟ وإسحق متروك ، وشيخه مجهول .

غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

تقديره فيمن قرأ وصية بالرفع : ووصية الذين يتوفون ، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم ، أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم . وفيمن قرأ بالنصب : والذين يتوفون يوصون وصية ، كقولك : إنما أنت سير البريد ، بإضمار تسير . أو والزم الذين يتوفون وصية . وتدل عليه قراءة عبدالله : كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعا إلى الحول ، مكان قوله ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول ﴾ وقرأ أبىّ : متاع لأزواجهم متاعا . وروى عنه : فمتاع لأزواجهم . ومتاعا نصب بالوصية ، إلا إذا أضمرت يوصون ، فإنه نصب بالفعل . وعلى قراءة أبىّ متاعا نصب بمتاع ، لأنه فى معنى التمتيع ؛ كقولك : الحمد لله حمد الشاكرين ، وأعجبنى ضرب لك زيداً ضربا شديداً . و﴿ غير إخراج ﴾ مصدر مؤكد ، كقولك : هذا القول غير ماتقول . أو بدل من متاعاً . أو حال من الأزواج ، أى غير مخرجات . والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا ، أى ينفق عليهنّ من تركته ولا يخرجن من مساكنهن ، وكان ذلك فى أول الإسلام ، ثم نسخت المدة بقوله (أربعة أشهر وعشراً) وقيل : نسخ مازاد منه على هذا المقدار ، ونسخت النفقة بالإرث الذى هو الربع والثمن . واختلف فى السكنى ، فعند أبى حنيفة وأصحابه : لاسكنى لهن ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن ﴾ من التزين والتعرض للخطاب ﴿ من معروف ﴾ مما ليس بمنكر شرعاً . فإن قلت : كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة ؟ قلت : قد تكون الآية متقدمة فى التلاوة وهى متأخرة فى التنزيل ، كقوله تعالى (سيقول السفهاء) مع قوله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) .

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

﴿ وللمطلقات متاع ﴾ عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعد ما أوجبها لواحدة منهن وهى المطلقة غير المدخول بها ، وقال ﴿ حقاً على المتقين ﴾ كما قال ثمة : حقاً على المحسنين . وعن سعيد بن جبير وأبى العالية والزهرى : أنها واجبة لكل مطلقة . وقيل قد تناولت التمتيع الواجب والمستحب جميعاً . وقيل : المراد بالمتاع نفقة العدة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)

﴿ ألم تر ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأوّلين ، وتعجيب من شأنهم . ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع ، لأنّ هذا الكلام جرى مجرى المثل فى معنى التعجيب . روى أنّ أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لامفرّ من حكم الله وقضائه . وقيل . مرّ عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقه وأصابعه تعجبا مما رأى، فأوحى إليه : ناد فيهم أن قوموا بإذن الله ، فنادى ، فنظر إليهم قياما يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت . وقيل: هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت ، فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿ وهم ألوف ﴾ فيه دليل على الألوف الكثيرة . واختلف فى ذلك ، فقيل عشرة ، وقيل ثلاثون ، وقيل سبعون . ومن بدع التفاسير (ألوف) متألفون ، جمع آلف كقاعد وقعود . فإن قلت : مامعنى قوله ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ ؟ قلت : معناه فأماتهم ، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف ، كقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة ، وأنّ الموت إذا لم يكن منه بدٌّ ولم ينفع منه مفر ، فأولى أن يكون فى سبيل الله ﴿ لذو فضل على الناس ﴾ حيث يبصرهم مايعتبرون به ويستبصرون ، كما بصر أولئك ، وكما بصركم باقتصاص خبرهم . أو لذو فضل على الناس حيث أحيى أولئك ليعتبروا فيفوزوا ، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث . والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد : ما أتبعه من الأمر بالقتال فى سبيل الله ﴿ واعلموا أنّ الله سميع ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء .

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

إقراض الله : مثل لتقديم العمل الذى يطلب به ثوابه . والقرض الحسن : إما المجاهدة فى نفسها ،

وإما النفقة فى سبيل الله ﴿ أضعافا كثيرة ﴾ قيل: الواحد بسبعمائة. وعن السدى: كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ يوسع على عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

﴿ لنبى لهم ﴾ هو يوشع أو شمعون أو اشمويل ﴿ ابعث لنا ملكا ﴾ أنهض للقتال معنا أميراً نصدر فى تدبير الحرب عن رأيه وننتهى إلى أمره، طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من التأمير على الجيوش التى كان يجهزها، ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره. وروى أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم ﴿ نقاتل ﴾ قرئ بالنون والجزم على الجواب. وبالنون والرفع على أنه حال، أى ابعثه لنا مقدرين القتال. أو استئناف كأنه قال لهم: ما تصنعون بالملك؟ فقالوا: نقاتل. وقرئ: يقاتل بالياء والجزم على الجواب، وبالرفع على أنه صفة للملك. وخبر عسيتم ﴿ ألا تقاتلوا ﴾ والشرط فاصل بينهما. والمعنى: هل قاربتم أن لا تقاتلوا؟ يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول: عسيتم أن لا تقاتلوا، بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل هل مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون. وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائب فى توقعه[1]، كقوله تعالى (هل أتى على الإنسان) معناه التقرير. وقرئ (عسيتم) بكسر السين وهى ضعيفة ﴿ وما لنا ألا نقاتل ﴾ وأى داع لنا إلى ترك القتال، وأى غرض لنا فيه ﴿ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ قيل كان القليل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وعيد لهم على ظلمهم فى القعود عن القتال وترك الجهاد.

(١) قوله «وأنه صائب فى توقعه» فى الصحاح: صاب السهم القرطاس يصيبه، لغة فى أصابه. (ع)

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

﴿طالوت﴾ اسم أعجمى كجالوت وداود. وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة فى الجسم. ووزنه إن كان من الطول «فعلوت» منه، أصله طولوت، إلا أن امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا أن يقال: هو اسم عبرانى وافق عربيا، كما وافق حنطا حنطة، وبشمالا لها رخمانا رخيما بسم الله الرحمن الرحيم، فهو من الطول كما لوكان عربيا، وكان أحد سببيه العجمة لكونه عبرانيا ﴿أنى﴾ كيف ومن أين، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له. فإن قلت: ما الفرق بين الواوين فى (ونحن أحق)، (ولم يؤت)؟ [١] قلت: الأولى للحال، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالا، قد انتظمتهما معا فى حكم واو الحال. والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بدّ للملك من مال يعتضد به. وإنما قالوا ذلك لأنّ النبوّة كانت فى سبط لاوى بن يعقوب والملك فى سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحد السبطين، ولأنه كان رجلا سقاء أو دباغا فقيراً. وروى أنّ نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكا، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قال إنّ الله اصطفاه عليكم﴾ يريد أنّ الله هو الذى اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما العلم المبسوط والجسامة. والظاهر أنّ المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب. ويجوز أن يكون عالما بالديانات وبغيرها. وقيل: قد أوحى إليه ونبئ، وذلك أنّ الملك لا بدّ أن يكون من أهل العلم، فإنّ الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيما يملأ العين جهارة لأنه أعظم فى النفوس وأهيب فى القلوب. والبسطة: السعة والامتداد. وروى أن الرجل القائم كان يمدّ يده فينال رأسه ﴿يؤتى ملكه من يشاء﴾ أى الملك له غير منازع فيه، فهو يؤتيه من يشاء: من يستصلحه للملك ﴿والله واسع﴾

---

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت ما الفرق بين الواوين... الخ» قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا أن الواو الأولى أفادت جملتها الحالية بنفسها وأفادت الجملة الثانية الحالية أيضاً لكن بواسطة الواو العاطفة. وهذا النظر من السهل الممتنع.

الفضل والعطاء، يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر ﴿عليم﴾ بمن يصطفيه للملك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿التابوت﴾ صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدّمه فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرّون. والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هى صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنبه وجناحان، فتئن فيزف التابوت نحو العدوّ وهم يمضون معه، فإذا استقرّ ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن علىّ رضى الله عنه: كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة ﴿وبقية﴾ هى رضاض الألواح وعصى موسى وثيابه وشىء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت. وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بنى إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو اسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان فى أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين، فساقهما الملائكة إلى طالوت. وقيل كان من خشب الشمشار مموّها بالذهب. نحواً من ثلاثة أذرع فى ذراعين. وقرأ أبىّ وزيد بن ثابت: التابوه بالهاء. وهى لغة الأنصار. فإن قلت: ماوزن التابوت؟ قلت: لايخلو من أن يكون فعلوتا[1] أو فاعولا، فلا يكون «فاعولا» لقلته، نحو: سلس وقلق، ولأنه تركيب غير معروف فلا يجوز ترك المعروف إليه. فهو إذاً «فعلوت» من التوب، وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه مايخرج منه، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته. وأمّا من قرأ بالهاء فهو «فاعول» عنده، إلا فيمن جعل هاءه بدلا من التاء، لاجتماعهما فى الهمس وأنهما من حروف الزيادة. ولذلك أبدلت من تاء التأنيث. وقرأ أبو السمال: سكّينة، بفتح السين والتشديد وهو غريب. وقرئ: يحمله، بالياء. فإن قلت: مَن ﴿آل موسى وآل هرون﴾؟ قلت: الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما.

(١) قال محمود رحمه الله: «وزن التابوت فعلوت ... الخ» قال أحمد رحمه الله: يريد لأن الفاء تاء واللام كذلك والعرب تستثقل ما فاؤه ولامه حرف واحد لأنه توأم التكرار.

لأن عمران هو ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب فكان أولاد يعقوب آلهما . ويجوز أن يراد : مما تركه موسى وهرون . والآل مقحم لتفخيم شأنهما .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

﴿ فصل ﴾ عن موضع كذا : إذا انفصل عنه وجاوزه ، وأصله : فصل نفسه ، ثم كثر محذوف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كانفصل . وقيل : فصل عن البلد فصولا . ويجوز أن يكون : فصله فصلا ، وفصل فصولا كوقف وصدّ ونحوهما . والمعنى : انفصل عن بلده ﴿ بالجنود ﴾ روى أنه قال لقومه : لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا تاجر مشتغل بالتجارة ، ولا رجل متزوج بامرأة لم يبن عليها ، ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارغ . فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفا ، وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة ، فسألوا أن يجرى الله لهم نهراً ، ف﴿ قال إن الله مبتليكم ﴾ بما اقترحتموه من النهر ﴿ فمن شرب منه ﴾ فمن ابتدأ شربه من النهر بأن كرع فيه ﴿ فليس منى ﴾ فليس بمتصل بى ومتحد معى ، من قولهم : فلان منى ، كأنه بعضه ، لاختلاطهما واتحادهما . ويجوز أن يراد فليس من جملتى وأشياعى ﴿ ومن لم يطعمه ﴾ ومن لم يذقه ، من طعم الشىء ، إذا ذاقه . ومنه طعم الشىء ، لمذاقه . قال :

* وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا (١) وَلَا بَرْدَا * (٢)

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم . ويقال : ماذقت غماضا . ونحوه من الابتلاء :

---

(١) قوله «لم أطعم نقاخا» هو الماء العذب الذى ينقخ الفؤاد ببرده . والنقخ : النقف . وهو كسر الرأس عن الدماغ . (ع)

(٢) فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا
للعرجى . وتاء شئت يحتمل أنها للمتكلم ، وأنها للمخاطبة وهو أبلغ . وخاطب الواحدة بلفظ جمع المذكر تعظيما . ولم أطعم : أى لم أتناول . والنقاخ ـ بالقاف والخاء المعجمة ـ : الماء العذب البارد . والبرد : النوم ، وعن بعض العرب : منع البرد البرد ، وهو من باب الجناس التام ، والعرجى : هو عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، نسبة لعرج الطائف .

ما ابتلى الله به أهل أيلة من ترك الصيد مع إتيان الحيتان شرّعا ، بل هو أشد منه وأصعب . وإنما عرف ذلك طالوت بإخبار من النبي . وإن كان نبيا ـ كما يروى عن بعضهم ـ فبالوحى . وقرئ (بنهر) بالسكون . فإن قلت : مم استثنى قوله ﴿إلا من اغترف﴾ ؟ قلت : من قوله (فمن شرب منه فليس منى)[1] والجملة الثانية فى حكم المتأخرة ، إلا أنها قدمت للعناية كما قدم (والصابئون) فى قوله (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) ومعناه : الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكروع ، والدليل عليه قوله ﴿فشربوا منه﴾ أى فكرعوا فيه ﴿إلا قليلا منهم﴾ وقرئ (غرفة) بالفتح بمعنى المصدر ، وبالضم بمعنى المغروف . وقرأ أبىّ والأعمش : إلا قليل ، بالرفع . وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل من علم العربية . فلما كان معنى (فشربوا منه) فى معنى فلم يطيعوه ، حمل عليه ، كأنه قيل : فلم يطيعوه إلا قليل منهم . ونحوه قول الفرزدق :

... ... لمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إلّا مُسْحَتٌ أوْ مُجَلَّفُ[2]

كأنه قال : لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف . وقيل : لم يبق مع طالوت إلا ثلثمائة وثلاثة عشر

---

(١) قال محمود رحمه الله : « مستثنى من قوله (فمن شرب منه فليس منى) ... الخ » : قال أحمد رحمه الله : وفى هذه الآية تقوية لمن ذهب إلى أن الاستثناء المتعقب للجمل لا يتعين عوده إلى الأخيرة لاحتمال عوده إلى ماقبلها . ورد على من منع ذلك محتجا بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بأجنبى من الاستثناء . ولذلك حقق عوده إلى الأخيرة ، وتوقف فى انعطافه على ماتقدمها ، فيجوز عنده أن يعود على الجميع مع الأخيرة . وأما عوده على ماقبل الأخيرة دونها فتعذر عند هذا القائل فلم يصف فى العود إلى الأخيرة لهذه الشبهة . وقد بين القاضى أبو بكر صلاحية عوده إلى ماقبل الأخيرة دونها ردا على هذا القائل ، واستشهد بقوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) ووجه استشهاده : أن المعنى يأبى انعطاف هذا الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ويعين عوده إلى ما قبلها وسيأتى بيان ذلك عند الكلام على الآية .

(٢)
إليك أمير المؤمنين رمت بنا ... شعوب النوى والهوجل المتعسف
وعض زمان يابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحت أو مجلف

للفرزدق . يقول : يا أمير المؤمنين ، قذفتنا إليك طرق البعد ، لكن الرامى به فى الحقيقة دواعى النفس ، فاسناد الرمى إلى الشعوب مجاز عقلى : أو شبه الطرق بمن يصح منه الرمى على سبيل المكنية . والمراد بالرمى البعث مجازاً ، والهوجل : الطويل الأحمق ، أى البعير المتعسف الحائد عن سنن الطريق ، أو الطريق الطويل المعوج ، فهو عطف خاص على عام . وشبه الزمان المجدب بذى ناب على طريق المكنية ، وإسناد العض له تخييل . والمسحت : البقية القليلة من الشيء ، يقال سحته وأسحته إذا استأصله ، والأولى لغة الحجاز ، والثانية لغة نجد . والمجلف : المنقرض من جوانبه ، يقال جلفه كنصره إذا قشره أو قطعه . والجائفة أبلغ من الجالفة ، وقيل : المسحت والمجلف ، الذى أخذ منه ماله أو ملك منه ، وكان الواجب نصب الاستثناء ؛ لأنه لاوجه للرفع ، لكن روعى فيه معنى النفى فرفع ، أى لم يبق من المال إلا هما . وروى : إلا مسحتا أو مجلف ، فرفع الثانى عطفا على المعنى . روى أنه سئل : لم خالفت بينهما فقال : قلت ذلك لتشقى به النحويون . ونداء عبدالملك بن مروان فى الموضعين للتعظيم والاستعطاف .

رجلا ﴿ والذين آمنوا ﴾ يعنى القليل ﴿ قال الذين يظنون ﴾ يعنى الخلص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه . أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله ، والمؤمنون مختلفون فى قوة اليقين ونصوع البصيرة . وقيل: الضمير فى (قالوا لا طاقة لنا) للكثير الذين انخذلوا ، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه ، كأنهم تقاولوا بذلك والنهر بينهما . يظهر أولئك عذرهم فى الانخذال ، ويرد عليهم هؤلاء مايعتذرون به . وروى أنّ الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وإداوته . والذين شربوا منه اسودّت شفاههم وغلبهم العطش .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

و ﴿ جالوت ﴾ جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد ، وكانت بيضته فيها ثلثمائة رطل ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ وهب لنا ما نثبت به فى مداحض الحرمن قوة القلوب وإلقاء الرعب فى قلب العدو ونحو ذلك من الأسباب . كان أيشى أبو داود فى عسكر طالوت مع ستة من بنيه ، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم ، فأوحى إلى اشمويل أنّ داود بن أيشى هو الذى يقتل جالوت ، فطلبه من أبيه ، فجاء وقد مرّ فى طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله وقالت له : إنك تقتل بنا جالوت ، فحملها فى مخلاته ورمى بها جالوت فقتله ، وزوّجه طالوت بنته . وروى أنه حسده وأراد قتله ثم تاب ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ فى مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها ، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود ﴿ والحكمة ﴾ والنبوّة ﴿ وعلمه مما يشاء ﴾ من صنعة الدروع ، وكلام الطير والدواب وغير ذلك ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم ، لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر مايعمر الأرض . وقيل : ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بعيث الكفار فيها وقتل المسلمين . أو لو لم يدفعهم بهم لعمّ الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿ تلك آيات الله ﴾ يعنى القصص التى اقتصها ، من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم ،

وتمليك طالوت وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السماء ، وغلبة الجبابرة على يد صبي ﴿ بالحق ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم كذلك ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار .

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

﴿ تلك الرسل ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة ، أو التي ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات ﴿ منهم من كلم الله ﴾ منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام . وقرئ (كلم الله) بالنصب . وقرأ اليماني : كالم الله ، من المكالمه ، ويدل عليه قولهم : كليم الله ، بمعنى مكالمه ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات كثيرة . والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم [1] لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتي مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر . ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره مالا يخفى ، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه ، والمتميز الذي لا يلتبس . ويقال للرجل : من فعل هذا ؟ فيقول :

---

(١) قال محمود رحمه الله : « والظاهر أنه أراد محمداً عليه الصلاة والسلام ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحسانا له لفظاً ومعنى ، وتبركا بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه . وأصاب الزمخشري في قوله : حيث أوتي النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتيه الأنبياء ، على الجميع الصلاة والسلام . وليس كما يقال عن بعض أهل العصر من تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من آحاد الأنبياء . وينبغي الوقوف عن نسبته له ، فانه من العلماء الأعلام وعمد دين الاسلام ، والوجه التوريك بالغلط على النقلة عنه .

أحدكم أو بعضكم ، يريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال ، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه . وسئل الحطيئة عن أشعر الناس ؟ فذكر زهيراً والنابغة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث ، أراد نفسه ، ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسى ، لم يفخم أمره . ويجوز أن يريد : إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولى العزم من الرسل . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كنا فى المسجد نتذاكر فضل الأنبياء ، فذكرنا نوحا بطول عبادته ، وإبراهيم بخلته ، وموسى بتكليم الله إياه ، وعيسى برفعه إلى السماء ، وقلنا : رسول الله أفضل منهم ، بعث إلى الناس كافة ؛ وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو خاتم الأنبياء . فدخل عليه السلام فقال : فيم أنتم ؟ فذكرنا له . فقال : لا ينبغى لأحد أن يكون خيراً من يحيي بن زكريا ، فذكر أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهمّ بها [(١)]. فإن قلت : فلمَ خصّ موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة . ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات ، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر فى باب التفضيل . وهذا دليل بين أنّ من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره . ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى أوتى منها مالم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها . كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع ، اللهمّ ارزقنا شفاعته يوم الدين ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة إلجاء وقسر [(٢)] ﴿ماقتتل الذين﴾ من بعد الرسل ، لاختلافهم فى الدين ، وتشعب مذاهبهم ، وتكفير بعضهم بعضا ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن﴾ لالتزامه دين الأنبياء ﴿ومنهم من كفر﴾ لإعراضه عنه ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ كرّره للتأكيد[(٣)]

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه : أخبرنا أبو عاصم العبادى أخبرنا على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عنه به . ورواه البزار والطبرانى وابن مردويه من حديث ابن عاصم العبادى به . وهو ضعيف وشيخه مجهول .

(٢) قوله «مشيئة إلجاء وقسر» يعنى أنه أراد عدم الاقتتال ، لكن لا إرادة قسر ، ولذلك تخلف المراد عنها ، وهذا مذهب المعتزلة . وأما عند أهل السنة فليس هناك إرادة يتخلف عنها المراد ، بل كل ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، كما بين فى محله ، (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «كرر ولو شاء الله للتأكيد» قال أحمد رحمه الله : ووراء التأكيد سر أخص منه ، وهو أن العرب متى بنت أول كلامها على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول ، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها . وذلك عندهم مهيع من الفصاحة مسلوك ، وطريق معتد . وكان جدى لأمى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير يعد فى كتاب الله تعالى مواضع فى هذا المعنى : منها قوله تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً) ومنها قوله تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) إلى قوله (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم) وهذه الآية من هذا النمط ، لما صدر الكلام بأن اقتتالهم كان على وفق المشيئة . ثم طال الكلام ، وأريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت فى هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء فهى نافذة فى كل فعل واقع ، وهو المعنى المعبر عنه فى قوله (ولكن الله يفعل مايريد) طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال لتلوه عموم تعلق المشيئة لتناسب ـــ

﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ من الخذلان والعصمة ﴿ أنفقوا مما رزقناكم ﴾ أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الانفاق لأنه ﴿ لا بيع فيه ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿ ولا خلة ﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم به . وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب [1] لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم في حط الواجبات ، لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير [2] ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون ، فقال (والكافرون) للتغليظ ، كما قال في آخر آية الحج (ومن كفر) مكان : ومن لم يحج ، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) وقرئ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، بالرفع .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥)

﴿ الحى ﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء ، [3] وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم

ــــ الكلام وتعرف كل بشكله . فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر ويرتاح السر ، والله الموفق . وأي قدم يثبت للاعتزال قبالة هذا ؟ لأنه الدائرة القاطعة لدابره ، الكافلة بالرد على منتحله وناصره . ولذلك جوزها الزمخشري لاغتناصها على تأويله ، واعتصامها بالنصوصية من حيله وتحيله .

(١) قال محمود رحمه الله : «ومعناه : إن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم ... الخ» قال أحمد رحمه الله : أما القدرية ، فقد وطنوا أنفسهم على حرمان الشفاعة وهم جدير أن يحرموها . وأدلة أهل السنة على إثباتها للعصاة من المؤمنين أوسع من أن تحصى . وما أنكرها القدرية إلا لإيجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة وللعاصي على المعصية إيجابا عقليا على زعمهم . فهذه الحالة في إنكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة . وقد تقدم جواب عن التمسك باطلاق مثل هذه الآية في نفي الشفاعة ، ونعيده فنقول : أيام القيامة متعددة والشفاعة في بعضها ثابتة ، فكل ما ورد مفهما لنفيها حمل على الأيام الخالية منها جمعا بين الأدلة ، كما ورد قوله تعالى : (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وورد (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) وورد (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) وورد (وقفوهم إنهم مسئولون) ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق إلا الحمل على تعدد أوقات القيامة واختلاف أحوالها وأيامها ، وكذلك أمر الشفاعة سواء . رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة السنة والجماعة .

(٢) قوله «لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير» هذا مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة قد تكون في تخفيف العذاب أيضا . (ع)

(٣) قوله «الحى الباقي الذي لا سبيل عليه ... الخ» المعتزلة يفرون من أن يثبتوا لله صفة وجودية كالحياة التي تنافي الموت فلذا فسر الحى بما قال . (ع)

ويقدر . و﴿القيوم﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه . وقرئ: القيام،والقيم.والسنة : ما يتقدّم النوم من الفتور الذى يسمى النعاس . قال ابن الرقاع العاملى:

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ [1]

أى لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم ؛ لأنّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوما. ومنه حديث موسى : أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية:أينام ربنا؟فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثا ولا يتركوه ينام ، ثم قال:خذ بيدك قارورتين مملوءتين.فأخذهما ، وألقى الله عليه النعاس فضرب إحداهما على الأخرى فانكسرتا ، ثم أوحى إليه:قل لهؤلاء إنى أمسك السموات والأرض بقدرتى،فلو أخذنى نوم أو نعاس لزالتا[2] ﴿من ذا الذى يشفع عنده﴾ بيان

---

(١) لولا الحياء وإن رأسى قد عثى ... فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت ... فى عينه سنة وليس بنائم

لعدى بن الرقاع فى تشبيب مدح الوليد بن عبدالملك . وعن الأصمعى : أنه لأحمد بن الرقاع . وعثى يعثى كسعي يسعى ، وعاث يعيث كعاش يعيش : سار على وجه الافساد . وروى «عسى» بالسين أى ظهر وانتشر واشتد ، فعسى هنا تامة لاناقصة . وأم القاسم : كنيةمحبوبته . وبين النساء : أى دون النساء ، وقد روى كذلك أيضا . و «أحور» فاعل «أعار» والحور : صفاء سواد العين وبياضها . والجآذر : جمع جؤذر وهو ولد الظبية . وجاسم : موضع بعينه . ووسنان : نعت أحور . وأقصدت الرجل : إذا طعنته فلم تخطئ مقتله ، أى أصابه النعاس وهو ما يتقدم النوم من الفتور والغفلات . ورنق الماء : كدر . وترنق : تكدر . ورنقهوأرنقه : كدره ورنق الطائر ترنيقا ، إذا وقف فى الهواء صافا جناحه يريد الوقوع . فالمعنى : وقفت فى عينه سنة . ويجوز أن المعنى : رنقت عينه سنة ، أى كدرتها . وأقحم «فى» لأنه جعل العين ظرفا للترنيق ، وهذا يشعر بتشبيه العين بالماء فى شدة الصفاء . والسنة من وسن فهووسنان ، فهى من باب عدة . وسبب النوم : ريح يقوم فى أغشية الدماغ ، فاذاوصل إلى العين فترت ، وهذا هو الوسن ، وإذا وصل إلى القلب وتمكن منه زال إدراك الحواس ، وهذا هو النوم ؛ فلذلك نفاه مع إثبات السنة .

(٢) قلت قوله «وذلك من قومه كطلب الرؤية» من كلام الزمخشرى ، أدرجه فى الخبر . فقد رواه عبدالرزاق فى تفسيره عن معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (لاتأخذه سنة ولانوم) أن موسى سأل الملائكة : هل ينام الله عز وجل ؟ فذكره» وقد رواه أبو يعلى والطبرى والدارقطنى فى الأفراد وابن مردويه والبيهقى فى الصفات ، كلهم من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل عن هشام بن يوسف عن أمية بن سبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبى هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه السلام قال «وقع فى نفس موسى : هل ينام ربنا ؟ فأرسل إليه ملكا فأرقه ، ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام ويكاد يداه يلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة . فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا : إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» ورواه البيهقى موقوفا وقال : هذا هو الأشبه . وقال الدارقطنى تفرد به الحاكم عن عكرمة وأمه عن الحكم وهشام عن أمية . وقال الخطيب : رواه معمر عن الحكم عن عكرمة من قوله . ولم يذكر أبا هريرة . ولا النبي صلى الله عليه وسلم . قلت : ورواية ــــ

لملكوته وكبريائه . وأن أحدا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام، كقوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ ما كان قبلهم وما يكون بعدهم . والضمير لما فى السموات والأرض لأنّ فيهم العقلاء ، أو لما دل عليه ﴿ من ذا ﴾ من الملائكة والأنبياء ﴿من علمه﴾ من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ إلا بما علم . الكرسى : ما يجلس عليه، ولا يفضل عن مقعد القاعد . وفى قوله ﴿وسع كرسيه﴾ أربعة أوجه [1]: أحدها أنّ كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته ، وماهو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ، ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد ، كقوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ من غير تصوّر قبضة وطىّ ويمين ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسىّ . ألا ترى إلى قوله ﴿ وما قدروا الله حقّ قدره ﴾ . والثانى : وسع علمه وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم. والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك والرابع : ماروى أنه خلق كرسياً هو بين يدى العرش دونه السموات والأرض ، وهو إلى العرش كأصغر شىء . وعن الحسن : الكرسى هو العرش ﴿ ولا يؤده ﴾ ولا يثقله ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ حفظ السموات والأرض ﴿ وهو العلىّ ﴾ الشأن ﴿ العظيم ﴾ الملك والقدرة . فإن قلت : كيف ترتبت الجمل فى آية الكرسى [2] من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهى واردة على سبيل

ـــ عبدالرزاق ترد عليه . لكنها موقوفة . وقد ذكره ابن الجوزى فى العلل المتناهية وقال : يشبه أن يكون عكرمة تلقاه عن كتب اهل الكتاب . قال : وقد روى عبدالله بن أحمد بن حنبل فى كتاب السنة له عن سعيد بن جبير «أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام : هل ينام ربنا ، قال : وهذا هو الصحيح .

(١) قال محمود رحمه الله : «وفى قوله تعالى «وسع كرسيه السموات والأرض» أربعة أوجه ... الخ» قال أحمد رحمه الله : قوله فى الوجه الأول أن ذلك تخييل للعظمة سوء أدب فى الاطلاق وبعد فى الاضرار ، فان التخيل إنما يستعمل فى الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق ، فان يكن معنى ماقاله صحيحا فقد أخطأ فى التعبير عنه بعبارة موهمة لامدخل لها فى الأدب الشرعي ، وسيأتى له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب .

(٢) عاد كلامه قال : «فان قلت : كيف ترتبت الجمل فى آية الكرسى وما بالها لم تعطف بالواو ؟ قلت : لأنها كلها فى حكم البيان والبيان متحد بالمبين فدخول الواو بينهما ـ كما تقول العرب ـ دخول بين العصا ولحائها ، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه ، والثانية لكونه مالكا لتدبيره ، والثالثة لكبرياء شأنه ، والرابعة لاحاطته بأحوال الخلق ، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها . وقد وردت آثار فى تفضيلها . منها قوله عليه السلام « ماقرئت هذه الآية فى دار إلا اجتنبتها الشياطين ثلاثين يوما ، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، ياعلى علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها» وعن على رضى الله عنه سمعت نبيكم على أعواد المنبر يقول « من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد . ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله» وتذاكر الصحابة أفضل مافى القرآن فقال على أين أنتم من آية الكرسى ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعلى ، سيد البشر آدم ، وسيد العرب محمد ولافخر ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد الروم صهيب ، وسيد ـــ

البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين ، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب : بين العصا[1] ولحائها ، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه. والثانية لكونه مالكا لما يدبره . والثالثة لكبرياء شأنه . والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق ، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة ، وغير المرتضى . والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها ، أو لجلاله وعظم قدره . فإن قلت : لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد منه قوله صلى الله عليه وسلم : ما قرئت هذه الآية في دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، يا علىّ علمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها[2] وعن علىّ رضى الله عنه : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم على أعواد المنبر وهو يقول : « من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ، ومن قرأها إذا

ـــ الحبشة بلال ، وسيد الجبال طورسيناء ، وسيد الأيام يوم الجمعة ، وسيد الكلام القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسي » . وإنما فضلت لما فضلت له سورة الاخلاص ، من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى » قال أحمد : وكان جدى رحمة الله عليه يقول : اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعا فيها اسم الله تعالى ، ظاهرا في بعضها ومستكنا في بعض ، ويظهر لكثير من العادين منها ستة عشر إلا على بصير حاد البصيرة لدقة استخراجه . الأول الله ، الثاني هو ، الثالث الحي ، الرابع القيوم ، الخامس ضمير لا تأخذه ، السادس ضمير له ، السابع ضمير عنده ، الثامن ضمير إلا باذنه ، التاسع ضمير يعلم ، العاشر ضمير علمه ، الحادي عشر ضمير شاء ، الثاني عشر ضمير كرسيه ، الثالث عشر ضمير ولا يؤده ، الرابع عشر وهو ، الخامس عشر العلى ، السادس عشر العظيم . فهذه عدة الأسماء البينة . وأما الخفي فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله (حفظهما) فانه مصدر مضاف إلى المفعول ، وهو الضمير البارز ، ولا بد له من فاعل وهو الله ، ويظهر عند فك المصدر فيقول : ولا يؤده أن يحفظهما هو . وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسى قد رام الزيادة على هذا العدد لما أخبرته به عن الجد رحمه الله فقال : يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة كل واحد منها بآيتين . لأن كل واحد يتحمل ضميرا ضرورة كونه مشتقا ، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى ، وهي باعتبار ظهورها اسم وقد اشتملت على آخر مضمر ، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحداً وعشرين اسما ، وكنت قد أجريت معه في تعدد الزيادة المذكورة وجها لطيفا ، وهو أن الاسم المشتق لا يتحمل الضمير بعد صيرورته بالتسمية علما على الأصح ، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى ، ثم ولو فرضناها متحملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل ، فالمشتق إنما يقع على موصوفه باعتبار تحمله ضميره . ألا تراك إذا قلت : زيد كريم ، وجدت « كريما » إنما يقع على زيد ، لأن فيه ضميره ، حتى لو جردت النظر إليه لم تجده مختصا بزيد ، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس ، ولا تجده مختصا بزيد إلا باعتبار اشتماله على ضميره ، فليس المشتق إذاً مستقلا بوقوعه على موصوفه إلا بضميمة الضمير إليه ، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير مع الحكم برجوعه إلى معين ألبتة ، فرضى الشيخ المذكور عن هذا البحث وصوبه والله الموفق للصواب .

(١) قوله « بين العصا ولحائها » في الصحاح : اللحاء ـ ممدود ـ قشر الشجر . وفي المثل : لا تدخل بين العصا ولحائها . (ع)

(٢) لم أجده .

أخذ مضجعه أمّنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله [١] وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل مافى القرآن، فقال لهم علىّ رضى الله عنه: أين أنتم عن آية الكرسى، ثم قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «ياعلىّ، سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسى [٢]»، قلت: لما فضلت له سورة الإخلاص لاشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبهذا يعلم أنّ أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد [٣] ولا يغرّنك عنه كثرة أعدائه:

فإنّ الْعَرَانِينَ تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةً ۞ وَلَا تَرَى لِلِئَامِ النَّاسِ حُسَّادَا [٤]

* * *

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿لا إكراه فى الدين﴾ أى لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر، ولكن على التمكين والاختيار. ونحوه قوله تعالى ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أى لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار ﴿قد تبين الرشد من الغىّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب من طريق ابن إسحاق عن حبة بن جوين العرفى، سمعت على بن أبى طالب يقول: فذكره دون قوله «ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد»: وذكر مابعده. وفى إسناده نهشل بن سعيد وهو متروك. وكذلك حبة العرفى، وأخرجه أيضا من حديث أنس بلفظ «من قرأ فى دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى حفظ إلى الصلاة، ولا يحافظ عليها إلا نبى أو صديق أو شهيد» وإسناده ضعيف وصدر الحديث أخرجه النسائى وابن حبان. من حديث أبى أمامة، وإسناده صحيح، وله شاهد عن المغيرة بن شعبة عند أبى نعيم فى الحلية من رواية محمد بن كعب القرظى عنه، وغفل ابن الجوزى فأخرجه فى الموضوعات.

(٢) لم أجده. وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ابنه.

(٣) قوله «علم أهل العدل والتوحيد» المعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وعلم التوحيد أشرف العلوم فى نفسه لا بقيد إضافته إلى فرقة من أهله، اللهم إلا عند المتعصب. (ع)

(٤) للمغيرة شاعر آل المهلب. وقيل للمهلبية: ما أكثر حسادكم؟ فأنشدوه. والعرانين: الخيار الأشراف ولن، لتوكيد النفى. ويروى: ولا ترى. ويروى: ما ترى. واللئيم: الخسيس، واللئام جمعه. وحساد ـ بضم الحاء ـ جمع حاسد. أى ليس للئيم الناس حاسداً، فهو من مقابلة الجمع بالجمع. وفتحها على أنه مفرد أبلغ من حيث المعنى، حيث نفى الواحد عن الجمع نفياً شمولياً.

فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ من الحبل الوثيق المحكم، المأمون انفصامها، أى انقطاعها. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده والتيقن به. وقيل: هو إخبار فى معنى النهى، أى لا تتكرهوا فى الدين. ثم قال بعضهم: هو منسوخ بقوله ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ وقيل: هو فى أهل الكتاب خاصة لأنهم حصنوا أنفسهم بأداء الجزية. وروى أنه كان لأنصارىّ من بنى سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا. فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصارى: يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟ فنزلت، فخلاهما [1]

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿الله ولىّ الذين آمنوا﴾ أى أرادوا أن يؤمنوا يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان. ﴿والذين كفروا﴾ أى صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو الله ولىّ المؤمنين يخرجهم من الشبه فى الدين ـ إن وقعت لهم ـ بما يهديهم ويوفقهم له من حلها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين ﴿والذين كفروا أولياؤهم﴾ الشياطين ﴿يخرجونهم﴾ من نور البينات التى تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ

(١) أخرجه الواحدى فى أسبابه من قول مسروق، وكذلك البغوى، وقد أخرج الطبرى من رواية أبى إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له. الحصين: كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما، فقال: يا رسول الله، ألا أستكرههما فأنزل الله تعالى (لا إكراه فى الدين ... الآية).

يُحْيِي هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

﴿ألم تر﴾ تعجيب من محاجة نمروذ فى الله وكفره به ﴿أن آتاه الله الملك﴾ متعلق بحاج على وجهين [١] :

أحدهما حاجّ لأن آتاه الله الملك ، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاجّ لذلك . أو على أنه [٢] وضع المحاجة فى ربه موضع ماوجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك ، فكأن المحاجة كانت لذلك ، كما تقول : عادانى فلان لأنى أحسنت إليه ، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان . ونحوه قوله تعالى : ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ .

والثانى : حاجّ وقت أن آتاه الله الملك . فان قلت : كيف جاز أن يؤتى الله الملك الكافر؟ قلت : فيه قولان : آتاه ماغلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع ، وأما التغليب والتسليط فلا . وقيل : ملكه امتحانا لعباده [٣] . و﴿إذ قال﴾ نصب بحاج أو بدل من آتاه إذ جعل بمعنى الوقت ﴿أنا

(١) قال محمود : «إن آتاه متعلق بحاج على وجهين ... الخ» قال أحمد : عفا الله عنه ، والوجهان قريبان من حيث المعنى ، إلا أن بينهما فى الصناعة فرقا ، وهو إنما استعمل المصدر فى الأول مفعولا من أجله ، وفى الثانى ظرفا . وقد وقعت المصادر ظروفا فى مثل : خفوق النجم ، ومقدم الحاج ، وأمثال ذلك . وإنما وقعت محاجته بهذا الظرف لاشتماله على إيتاء الملك الحامل له على البطر ، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها . وهذان المعنيان هما المذكوران فى الوجه الأول بعينهما ؛ فلهذا نبهت على أن الفرق بين الوجهين صناعى لا معنوى . والله الموفق لمعانى كلامه .

(٢) قوله «أو على أنه» لعله : أو على معنى أنه . (ع)

(٣) قال محمود : «فان قلت كيف جاز أن يؤتى الله الملك الكافر ؟ قلت : ذلك على وجهين : أحدهما آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع ، فأما التغليب والتسليط فلا . الثانى أن يكون ملكه امتحانا لعباده» قال أحمد : السؤال مبنى وروده على قاعدة فاسدة ، وهى اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدرية صلاحا أو أصلح على الله تعالى فى أفعاله ، وكل ذلك من أصول القدرية التى اجتثها البرهان القاطع فما لها من قرار . وأما إيراد السؤال على صيغة : لم آتاه الله الملك وهو كافر ؟ أو لم أفعل كذا وكذا ؟ فجواب رده على الاطلاق فى قوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) لو سمع الصم البكم . والله ولى التوفيق . (عاد كلامه) قال ومعنى قوله أنا أحيي وأميت : أعفو عن القتل وأقتل . وكان الاعتراض عتيداً ولكن إبراهيم عليه السلام لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ولكنه انتقل إلى مالايقدر فيه على مثل ذلك ليبهته أول شىء ، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة =

أحيي وأميت﴾ يريد أعفو عن القتل [١] وأقتل. وكان الاعتراض عتيداً ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى مالا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء. وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة. وقرئ ﴿فبهت الذى كفر﴾ أى فغلب إبراهيم الكافر. وقرأ أبو حيوة: فبهت، بوزن قرب. وقيل: كانت هذه المحاجة حين كسر الأصنام وسجنه نمروذ، ثم أخرجه من السجن ليحرقه فقال له: من ربك الذى تدعو إليه؟ فقال: ربى الذى يحيي ويميت. ﴿أو كالذى﴾ معناه: أو أرأيت مثل الذى مرّ [٢] فحذف لدلالة ﴿ألم تر﴾ عليه، لأن كلتيهما كلمة تعجيب. ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنه قيل: أرأيت كالذى حاج إبراهيم أو كالذى مرّ على قرية. والمارّ كان كافراً [٣] بالبعث، وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ فى سلك

ـــ إلى حجة». قال أحمد: وقد التزم غير واحد من العلماء أن هذا الذى صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام ليس بانتقال من الحجة، ولكن من المثال. وأما الحجة فهى استدلاله على ألوهية الله تعالى بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به، ثم هذا له أمثلة منها الاحياء والاماتة، ومنها: الاتيان بالشمس من المشرق. والعدول بعد قيام الحجة وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال ليس ببدع عند أهل الجدل والله أعلم.

(١) قوله «يريد أعفو عن القتل» فى الصحاح عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه. وفيه: أعفنى من الخروج معك اى دعنى منه. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه أو أرأيت مثل الذى مر ... الخ» قال أحمد: ومثل هذا النظم يحذف منه فعل الرؤية كثيراً، كقوله: قال لها كلا إلم أسرعى كاليوم مطلوباً ولا طالبا
يريد لم أر كاليوم فحذف الفعل وحرف النفى. والظاهر حمل الآية على الوجه الأول لوجود نظيره، والله أعلم.

(٣) (عاد كلامه) قال والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ فى سلك واحد. وقيل: كان مؤمنا وهو عزير أو الخضر، وأراد أن يعاين الاحياء كما طلبه إبراهيم. وقوله يوما، بناه على الظن. روى أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس فقال ـ قبل النظر إلى الشمس ـ يوما، ثم التفت فرأى بقية منها فقال: أو بعض يوم، انتهى كلامه. قال أحمد: أما استدلال الزمخشرى على أن المار كان كافراً بانتظامه مع نمروذ فى سلك واحد، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام فى نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره باقتران قصته مع قصة نمروذ، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم، إلا أن يقول إن قصة هذا المار معطوفة على قصة نمروذ عطف تشريك فى الفعل، منطوقا به فى الأولى ومحذوفا من الثانية، مدلولا عليه بذكره أولا، ولا كذلك عطف قصة إبراهيم فانها مصدرة بالواو التى لا تدخل فى كثير من أحوالها للتشريك، ولكن لتحسين النظم حتى تتوسط بين الجمل التى يعلم تعاطفها لذلك الغرض، ولا كذلك عطفها فى قصة نمروذ، فانه بأو التى لا تستعمل إلا مشركة، إذ عطف التحسين اللفظى خاص بالواو فنقول: إذا انتهى الترجيح إلى هذا التدقيق فهو معارض بما بين قصة المار وقصة إبراهيم من التناسب المعنوى، لأن طلبتهما واحدة، إذ المار سأل معاينة الاحياء، وكذلك طلبة إبراهيم ثم التناسب المعنوى أرجح من التعلق بأمور لفظية ترد إلى أنحاء مختلفة ويؤيد القول بأن المار كان مؤمنا تحريه فى قوله تعالى (يوما أو بعض يوم) فان ظاهره الاحتراز من التحريف فى القول حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم حذراً من إيهام طلبته لجملة اليوم. ومثل هذا التحرى لا يصدر عن معطل، والله أعلم. ولا يقال إنما صدر منه هذا التحرى بعد أن حيي وآمن، لأنا نقول إنما آمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات، يدل عليه قوله تعالى (فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) وأما التحرى المذكور فكان أول القصة قبل ـــ

ولكلمة الاستبعاد التي هى : أنى يحيى . وقيل هو عزيز أو الخضر ، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام . وقوله : ﴿أنى يحيى﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء ، واستعظام لقدرة المحيي . والقرية : بيت المقدس حين خربه بختنصر . وقيل : هى التي خرج منها الألوف ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ تفسيره فيما بعد . ﴿يوما أو بعض يوم﴾ بناء على الظن . روى أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس ، فقال قبل النظر إلى الشمس : يوماً ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال : أو بعض يوم . وروى أن طعامه كان تينا وعنبا . وشرابه عصيراً أو لبنا ، فوجد التين والعنب كما جنيا ، والشراب على حاله ﴿لم يتسنه﴾ لم يتغير ، والهاء أصلية أو هاء سكت . واشتقاقه من السنة على الوجهين ، لأن لامها هاء أو واو ، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان . وقيل : أصله يتسنن ، من الحمأ المسنون ، فقلبت نونه حرف علة ، كتقضى البازى . ويجوز أن يكون معنى (لم يتسنه) لم تمرّ عليه السنون التي مرت عليه ، يعنى هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة . وفى قراءة عبد الله : فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسن . وقرأ أبىّ : لم يسنه ، بإدغام التاء فى السين ﴿وانظر إلى حمارك﴾ كيف تفرقت عظامه ونخرت ، وكان له حمار قد ربطه . ويجوز أن يراد : وانظر إليه سالما فى مكانه كما ربطته ، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء ، كما حفظ طعامه وشرابه من التغير ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ فعلنا ذلك يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه . وقيل : أتى قومه راكب حماره وقال : أنا عزير ، فكذبوه ، فقال : هاتوا التوراة فأخذ يهذها هذًّا[1] عن ظهر قلبه وهم ينظرون فى الكتاب ، فما خرم حرفا ، فقالوا : هو ابن الله . ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزير ، فذلك كونه آية . وقيل : رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخا وهو شاب ، فإذا حدثهم بحديث قالوا : حديث مائة سنة ﴿وانظر إلى العظام﴾ هى عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم ﴿كيف ننشرها﴾ كيف نحييها . وقرأ الحسن : ننشرها ، من نشر

ـــ الايمان وما قدرت هذا السؤال إلا لنكتة يذكرها الزمخشرى الآن تشعر بإيراده على الترجيح المذكور . ثم هذه الجرأة التي نقلها الزمخشرى فى خلال كلامه من أنه إنما قال : أو بعض يوم لما رأى بقية من الشمس لم يكن رآها أول كلامه فاستدرك الأمر ، فيها نظر دقيق لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية فى تفسيره . وذلك أن الأمر إذا كان على ما تضمنته ، وكلام المار المذكور بنى أولا على الجزم بأنه لبث يوما ثم جزم آخراً أن لبثه إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس ، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول : بل بعض يوم ، مضرباً عن جزمه الأول إلى جزمه الثانى ، لأن «أو» إنما تدخل فى الخبر إذا انبنى أوله على الجزم ثم عرض فى آخره شك ، ولا جزم بالنقيض ، فالحكاية المذكورة توجب أن يكون الموضع لـ «بل» لا لـ «أو» ، إذ موضع «بل» جزم بنقيض الأول ، فإذا استقر ذلك فالظاهر من حال المار أنه كان أولا جازما ثم شك لا لغير اتباعا لمقتضى الآية ، وعدولا عن الحكاية التي لا تثبت إلا بإسناد قاطع ، فيضطر إلى تأويل ، فتأمل هذا النظر فإنه من لطيف النكت ، والله الموفق .

(١) قوله «فأخذ يهذها» أى يسرع بها . أفاده الصحاح . (ع)

الله الموتى، بمعنى: أنشرهم فنشروا، وقرئ بالزاى، بمعنى نحركها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. وفاعل ﴿تبين﴾ مضمر تقديره : فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ فحذف الأول لدلالة الثانى عليه، كما فى قولهم : ضربنى وضربت زيداً. ويجوز: فلما تبين له ما أشكل عليه، يعنى أمر إحياء الموتى. وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : فلما تبين له على البناء للمفعول. وقرئ : قال اعلم، على لفظ الأمر : وقرأ عبد الله : قيل اعلم. فإن قلت : فإن كان المارّ كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله ؟ [1] قلت : كان الكلام بعد البعث ولم يكن إذ ذاك كافراً.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

﴿أرنى﴾ بصرنى، فإن قلت : كيف قال له ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً [2] ؟

---

(١) (عاد كلامه) قال : «فإن قلت إذا كان المار كافراً ... الخ» قال أحمد : وهذا سؤال عجيب، والجواب عنه أعجب منه، ومن سلم لهذا السائل أن الله تعالى لا يسوغ أن يكلم الكافر ؟ وهل هذا إلا خطب بلا أصل ؟ أليس أن إبليس رأس الكفر ومعدنه ومع هذا قال الله تعالى (اخرج منها فإنك رجيم ... إلى آخر الآية) ويقول تعالى للكفار وهم بين أطباقها يعذبون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) ولأن هذا الأمر متيقن وقوعه فضلا عن جوازه أول العلماء قوله تعالى (ولا يكلمهم الله) بمعنى ولا يكلمهم بما يسرهم وينفعهم. هذا وجه تعجبي من السؤال. وأما الجواب فقد أسلفت آنفا رده بأن إيمان هذا المار على القول بأنه كان كافراً إنما حصل فى آخر القصة بعد أن تبينت له الآيات. وأما كلام الله تعالى فمن أول القصة. قلت : الزمخشرى كفانا مؤنة هذا الفصل سؤالا وجواباً والله المستعان.

(٢) قال محمود : «إن قلت كيف قال له (أو لم تؤمن) وقد علم ... الخ» ؟ قال أحمد : الأولى فى هذه الآية أن يذكر فيها المختار فى تفسيرها من الممتحنة بالفكر المحرر، والنكت المفصحة بالرأى المخمر فما وافق من كلام المصنف ما يذكره فالحمد لله، وما خالفه فالحق فيما ذكرناه والله الموفق. فنقول : أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له (كيف تحيي الموتى) فليس عن شك والعياذ بالله فى قدرة الله عن الاحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الاحياء، ولا يشترط فى الايمان الاحاطة بصورتها، فانما هى طلب علم ما لا يتوقف الايمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد فى الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شكا من هذه الآية. وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» أى ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى. فان قلت : إذا كان السؤال مصروفا إلى الكيفية التى لا يضر عدم تصورها ومشاهدتها بالايمان ولا تخل به، فما موقع قوله تعالى (أو لم تؤمن) ؟ قلت : قد وقعت لبعض الحذاق فيه على لطيفة وهى أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً فى السؤال عن الكيفية كما مر، وقد تستعمل فى الاستعجاز. مثاله : أن يدعى مدع أنه يحمل ثقلا من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله، فتقول له : ===

قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين . و﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد النفى ، معناه بلى آمنت ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك . فإن قلت : بم تعلقت اللام فى (ليطمئن) ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ قيل طاوسا وديكا وغرابا وحمامة ﴿ فصرهنّ إليك ﴾ بضم الصاد وكسرها بمعنى فأملهنّ واضممهنّ إليك قال :

* وَلَـكِنَّ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تَصُورُهَا * (١)

وقال :

وَفَرْعٍ يَصِيرُ الْجِيدَ وَحْفٍ كَأَنَّهُ   عَلَى اللِّيتِ قِنْوَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ (٢)

ـــ أرنى كيف محل هذا ، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذى أحاط علم الله تعالى بأن ابراهيم مبرأ منه ، أراد بقوله : (أو لم تؤمن) أن ينطق إبراهيم بقوله : بلى آمنت ، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظى فى العبارة الأولى : ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهما لا يلحقه فيه شك . فإن قلت : قد تبين لى وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين ، فما موقع قول إبراهيم (ولكن ليطمئن قلبى) وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة ؟ قلت : معناه ولكن ليزول عن قلبى الفكر فى كيفية الحياة ، لأنى إذا شاهدتها سكن قلبى عن الجولان فى كيفياتها المتخيلة ، وتعينت عندى بالتصوير المشاهد وجاءت الآية مطابقة لسؤاله ، لأنه شاهد صورة حياة الموتى ، تقديره : الذى يحيى ويميت ، فهذا أحسن مايجرى لى فى تفسير هذه الآية وربك الفتاح العليم . وأما قول الزمخشرى : « إن علم الاستدلال يتطرق إليه التشكيك بخلاف العلم الضرورى » فكلام لم يصدر عن رأى منور ولا فكر محرر ، وذلك أن العلم الموقوف عن سبب لا يتصور فيه تشكيك ، ما دام سببه مذكوراً فى نفس العالم ، وإنما الذى يقبل التشكيك قبولا مطلقا هو الاعتقاد وإن كان صحيحاً وسببه باق فى الذكر ، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ذروة العلم ، ولكن للقدماء من القدرية خبط طويل فى تميز العلم عن الاعتقاد ، حتى غالى أبو هاشم فقال العلم بالشىء والجهل به مثلان . وهذا على الحقيقة جهل حتى لحقيقة الجهل ، والزمخشرى فى قواعد العقائد يقفو آثار هذا القائل أية سلك فلعله من ثم طرق إلى العلم النظرى الشك حسب تطرقه إلى الاعتقاد الذى يكون مرة جهلا ومرة مطابقا ، والله الموفق .

(١) وما صيد الأعناق فيهم جبلة   ولكن أطراف الرماح تصورها

الصيد ـ بالتحريك ـ اعوجاج العنق . ويقال صاره يصوره ويصيره ، بمعنى أماله وقطعه . أى ليس ميل الأعناق طبيعة فيهم ولكن أطراف الرماح لكثرتها فوق رؤسهم تميل أعناقهم . وإسناد الامالة للأطراف مجاز عقلى من الاسناد للسبب . ويجوز أن « فيهم » حال من الصيد لا من جبلة ، أى حال كونه فيهم .

(٢) صاره يصيره ويصوره ، إذا أماله أو قطعه : وروى : يزين الجيد . والجيد : العنق : والوحف : الكثيف الأسود . والليت : صفحة العنق . والدوالح : المثقلات بالحمل ، يصف شعر محبوبته بأنه يميل عنقها لثقله عليه ، وشبه غدائره على جانب جيدها بعناقيد الكروم المثقلات بالحمل .

وقرأ ابن عباس رضى الله عنه (فصرّهن) بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه، نحو ضره ويضره ويضره. وعنه (فصرّهن) من التصرية وهى الجمع أيضاً ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ يريد: ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال. والمعنى: على كل جبل من الجبال التى بحضرتك وفى أرضك. وقيل: كانت أربعة أجبل. وعن السدّى: سبعة ﴿ثم ادعهن﴾ وقل لهن: تعالين بإذن الله ﴿يأتينك سعيا﴾ ساعيات مسرعات فى طيرانهن أو فى مشيهن على أرجلهن: فإن قلت: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها[1]؟ قلت: ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها[2] لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك ولذلك قال: يأتينك سعياً. وروى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرّق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها، وأن يمسك رءوسها، ثم أمر أن يجعل بأجزائها على الجبال، على كل جبل ربعا من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثا ثم أقبلن فانضممن إلى رؤسهن، كل جثة إلى رأسها. وقرئ (جزأ) بضمتين. وجزّا، بالتشديد. ووجهه أنه خفف بطرح همزته، ثم شدد كما يشدد فى الوقف، إجراء للوصل مجرى الوقف.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

﴿مثل الذين ينفقون﴾ لا بد من حذف مضاف، أى مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، كأنها ماثلة بين عينى الناظر: فإن قلت: كيف صحّ هذا التمثيل والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود فى الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة فى الأراضى القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحا على سبيل الفرض والتقدير: فإن قلت: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة كما قال (وسبع سنبلات خضر)؟ قلت: هذا لما قدمت عند قوله (ثلاثة قروء) من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أى يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق،

(١) قال محمود رحمه الله: إن قلت ما معنى أمره بضمها ... الخ» ؟ قال أحمد: يريد: ولم يقل طيرانا لأنه إذا كانت ساعية كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة، والله أعلم.

(٢) قوله «وهيآتها وحلاها» جمع حلية بالكسر أى صفاتها. أفاده الصحاح. (ع)

لتفاوت أحوال المنفقين . أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

المنّ أن يعتدّ على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا له : وكانوا يقولون : إذا صنعتم صنيعة فانسوها . ولبعضهم :

وَإِنَّ امْرَأً أَسْدَى إِلَيَّ صَنِيعَةً ... وَذَكَّرَنِيهَا مَرَّةً لَلَئِيمُ [1]

وفى نوابغ الكلم : صنوان [2] من منح سائله ومنّ ، ومن منع نائله وضنّ . وفيها : طعم الآلاء [3] أحلى من المنّ وهى أمرّ من الآلاء مع المنّ . والأذى : أن يتطاول عليه بسبب ما أزال إليه : ومعنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى ، وأنّ تركهما خير من نفس

---

(١) يقول : وإن رجلا أعطانى عطية وذكرنى بها مرة واحدة ، للئيم . أى بليغ فى اللؤم والخسة .

(٢) قال محمود : «فى نوابغ الكلم صنوان ... الخ» قال أحمد : «ثم» فى أصل وضعها تشعر بتراخى المعطوف بها عن المعطوف عليه فى الزمان وبعد ما بينهما ، والزمخشرى يحملها على التفاوت فى المراتب والتباعد بينهما ، حيث لا يمكنه حملها على التراخى فى الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية : وحاصله : أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة ، وعندى فيها وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها : وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه ، فهي على هذا لم تخرج عن الاشعار ببعد الزمن . ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه ، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه ؛ وعليه حمل قوله تعالى (ثم استقاموا) أى داموا على الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد ، وتلك الاستقامة هى المعتبرة ، لا ماهو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات . وكذلك قوله (ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) أى يدومون على تناسى الاحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ، ليسوا بتاركيه فى أزمنة إلى الاذاية وتقليد المنن بسببه ، ثم يتوبون ، والله أعلم . وقريب من هذا أو مثله أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه ، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام : (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) . وقد حكى الله تعالى فى مثل هذه الآية (الذى خلقنى فهو يهدين) فليس إلى حمل السين على تراخى زمان وقوع الهداية له من سبيل ، فيتعين المصير إلى حملها على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخى بقائها وتمادى أمدها . ولعل الزمخشرى وأشار إلى هذا المعنى فى آية إبراهيم عليه السلام ، فأمل هذا الوجه فهو أوجه مما حمل الزمخشرى عليه آية البقرة . وهذه الآية أبق على الحقيقة وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة والله الموفق .

(٣) قوله «وفيها طعم الآلاء» فى الصحاح : الآلاء النعم ، واحدها «ألا» بالفتح . وفيه أيضا : الآلاء - بالفتح - شجر حسن المنظر مر الطعم اه . واسم النعم على زنة أسباب . والظاهر أن اسم الشجر على زنة سحاب ، فليحرر ما فى النوابغ . (ع)

الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله (ثم استقاموا) . فإن قلت : أىّ فرق بين قوله : ﴿لهم أجرهم﴾ وقوله فيما بعد : (فلهم أجرهم) ؟ قلت : الموصول لم يضمن هٰهنا معنى الشرط . وضمنه ثمة . والفرق بينهما من جهة المعنى أنّ الفاء فيها دلالة على أنّ الإنفاق به استحق الأجر ، وطرحها عار عن تلك الدلالة .

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

﴿قول معروف﴾ ردّ جميل ﴿ومغفرة﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ، أو وعفو من جهة السائل لأنه إذا ردّه ردّا جميلا عذره ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ وصح الإخبار عن المبتدإ النكرة لاختصاصه بالصفة ﴿والله غنى﴾ لاحاجة به إلى منفق يمنّ ويؤذى ﴿حليم﴾ عن معاجلته بالعقوبة ، وهذا سخط منه ووعيد له ، ثم بالغ فى ذلك بما أتبعه ﴿كالذى ينفق ماله﴾ أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كإبطال المنافق الذى ينفق ماله ﴿رئاء الناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضاء الله ولا ثواب الآخرة ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ مثله ونفقته التى لا ينتفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب . وقرأ سعيد بن المسيب : صفوان بوزن كروان ﴿فأصابه وابل﴾ مطر عظيم القطر ﴿فتركه صلداً﴾ أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه . ومنه صلد جبين الأصلع إذا برق ﴿لا يقدرون على شىء مما كسبوا﴾ كقوله (فجعلناه هباء منثورا) ويجوز أن تكون الكاف فى محل النصب على الحال : أى لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذى ينفق . فإن قلت : كيف قال (لا يقدرون) بعد قوله (كالذى ينفق) ؟ قلت : أراد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق ، ولأن « من » و « الذى » يتعاقبان ، فكأنه قيل : كمن ينفق .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

﴿ وتثبيتا من أنفسهم ﴾ وليثبتوا منها ببذل المال الذى هو شقيق الروح . وبذله أشق شىء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان ؛ لأن النفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها ، وبالعكس ، فكان إنفاق المال تثبيتا لها على الإيمان واليقين . ويجوز أن يراد : وتصديقا للإسلام ، وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم ؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله ، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه . « ومن » على التفسير الأول للتبعيض ، مثلها فى قولهم : هز من عطفه ، وحرك من نشاطه . وعلى الثانى لابتداء الغاية ، كقوله تعالى (حسداً من عند أنفسهم) . ويحتمل أن يكون المعنى : وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه . وتعضده قراءة مجاهد : وتبيينا من أنفسهم . فإن قلت : فما معنى التبعيض ؟ قلت: معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذى ثبتها كلها (وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) والمعنى : ومثل نفقة هؤلاء فى زكائها عند الله ﴿ كمثل جنة ﴾ وهى البستان ﴿ بربوة ﴾ بمكان مرتفع . وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً ﴿ أصابها وابل ﴾ مطر عظيم القطر ﴿ فآتت أكلها ﴾ ثمرتها ﴿ ضعفين ﴾ مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها . أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطلّ ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ـ بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع ـ زاكية عند الله ، زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عنده . وقرئ : كمثل حبة ، وبربوة ـ بالحركات الثلاث ـ وأكلها بضمتين .

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

الهمزة فى ﴿ أيود ﴾ للإنكار . وقرئ : له جنات ، وذرية ضعاف . والإعصار : الريح التى تستدير فى الأرض ، ثم تسطع نحو السماء كالعمود . وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغى بها وجه الله . فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة ، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغ الكبر ، وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم ومنتعشهم ، فهلكت

بالصاعقة . وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا : الله أعلم ، فغضب وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس رضى الله عنه : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين [١] . قال : قل يا ابن اخى ولا تحقر نفسك . قال : ضربت مثلا لعمل . قال : لأى عمل ؟ قال : لرجل غنى يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله كلها [٢] . وعن الحسن رضى الله عنه : هذا مثل قل والله من يعقله من الناس : شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا . فإن قلت : كيف قال (جنة من نخيل وأعناب) ثم قال (له فيها من كل الثمرات) [٣] قلت : النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع ، خصهما بالذكر ، وجعل الجنة منهما ـ وإن كانت محتوية على سائر الأشجار ـ تغليباً لهما على غيرهما ، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات . ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التى كانت تحصل له فيها كقوله (وكان له ثمر) بعد قوله (جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وأصابه الكبر ﴾؟ قلت : الواو للحال لا للعطف . ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر . وقيل يقال : وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا ، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

﴿ من طيبات ما كسبتم ﴾ من جياد مكسوباتكم ﴿ ومما أخرجنا لكم ﴾ من الحب والثمر والمعادن وغيرها . فإن قلت : فهلا قيل : وما أخرجنا لكم ، عطفا على (ما كسبتم) حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض ؟ قلت : معناه : ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ ولا تقصدوا المال الردىء ﴿ منه تنفقون ﴾ تخصونه بالإنفاق ، وهو فى محل الحال . وقرأ عبد الله : ولا تأمموا . وقرأ ابن عباس : ولا تيمموا ، بضم التاء . ويممه

(١) أخرجه البخارى من حديث عبيد بن عمير : أن عمر سأل ... فذكره .

(٢) قوله «أغرق أعماله كلها» فى بعض نسخ الجلال : أحرق ، بالحاء ، وكذلك عبارة النسفى . (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : لم ذكر النخيل والأعناب أولا ...الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا من باب تثنية ذكر ما يقع الاهتمام به مرتين عموما وخصوصا ومثله (فيهما فاكهة ونخل ورمان) إلا أنه فى تلك الآية بدأ بالتعميم وفى هذه الآية بدأ بالتخصيص والمقصود هو ما نبهنا عليه ، والله أعلم .

وتيممه وتأممه، سواء فى معنى قصده ﴿ولستم بآخذيه﴾ وحالكم أنكم لاتأخذونه فى حقوقكم ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ إلا بأن تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غضّ بصره. ويقال للبائع: أغمض، أى لاتستقص، كأنك لاتبصر. وقال الطرمّاح:

لَمْ يَفُتْنَا بِالْوِتْرِ [1] قَوْمٌ وَلِلضَّيْـــمِ رِجَالٌ يَرْضَوْنَ بِالإِغْمَاضِ [2]

وقرأ الزهرىّ: تغمضوا. وأغمض وغمض بمعنى. وعنه: تغمضوا، بضم الميم وكسرها. من غمض يغمض ويغمض. وقرأ قتادة: تغمضوا، على البناء للمفعول، بمعنى إلا أن تدخلوا فيه وتجذبوا إليه. وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين. وعن الحسن رضى الله عنه: لو وجدتموه فى السوق يباع ماأخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

أى يعدكم فى الإنفاق ﴿الفقر﴾ ويقول لكم إنّ عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. وقرئ: الفقر، بالضم. والفقر ـ بفتحتين ـ والوعد يستعمل فى الخير والشر. قال الله تعالى (النار وعدها الله الذين كفروا). ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور. والفاحش عند العرب: البخيل [3] ﴿والله يعدكم﴾ فى الإنفاق ﴿مغفرة﴾ لذنوبكم وكفارة لها ﴿وفضلا﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو ثوابا عليه فى الآخرة

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

---

(١) قوله «لم يفتنا بالوتر قوم» فى الصحاح «الموتور» الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. تقول منه: وتره وترا وترة. وكذلك وتره حقه أى نقصه. (ع)

(٢) الباء للملابسة أو بمعنى مع. والوتر ـ بالكسر ـ الظلم ونقص بعض الحق، ومثله الترة. والفعل وتر كوعد. والضيم: الظلم، والاغماض: ترك بعض الحق والاعراض عنه، كأنه لايراه. يقول: لم يسبقنا قوم بالوتر ويظفروا منا به. وقوله: وللضيم رجال: استئناف، يعنى إنا لانعرض عن حقنا كغيرنا لشجاعتنا دونهم، أو حال، أى والحال أن الظلم ناس يرضون بترك حقوقهم لعجزهم، ويؤول إلى الأول.

(٣) قوله «والفاحش عند العرب البخيل» قال:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد (ع)

﴿ يؤتى الحكمة ﴾ يوفق للعلم والعمل به . والحكيم عند الله : هو العالم العامل. وقرئ ﴿ ومن يؤت الحكمة ﴾ بمعنى ومن يؤته الله الحكمة . وهكذا قرأ الأعمش . و﴿ خيراً كثيراً ﴾ تنكير تعظيم ، كأنه قال : فقد أوتى أىّ خير كثير ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ يريد الحكماء العلام العمال . والمراد به الحثّ على العمل بما تضمنت الآى فى معنى الإنفاق .

وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ فى سبيل الله ، أو فى سبيل الشيطان ﴿ أو نذرتم من نذر ﴾ فى طاعة الله ، أو فى معصيته ﴿ فإن الله يعلمه ﴾ لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه ﴿ وما للظالمين ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم فى المعاصى ، أو لا يفون بالنذور ، أو ينذرون فى المعاصى ﴿ من أنصار ﴾ ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه .

إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

«ما» فى (نعما) نكرة غير موصولة ولا موصوفة . ومعنى ﴿ فنعما هى ﴾ فنعم شيئا إبداؤها . وقرئ بكسر النون وفتحها ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء ﴿ فهو خير لكم ﴾ فالإخفاء خير لكم . والمراد الصدقات المتطوع بها ، فإنّ الأفضل فى الفرائض أن يجاهر بها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : «صدقات السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا»[1] وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل ، لنفى التهمة ، حتى إذا كان المزكى ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل ، والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل ﴿ نكفر ﴾ وقرئ بالنون مرفوعا عطفا على محل ما بعد الفاء ، أو على أنه خبر مبتدإ محذوف ، أى ونحن نكفر . أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأة ، ومجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده ، لأنه جواب الشرط . وقرئ : ويكفر ، بالياء مرفوعا ، والفعل لله أو للإخفاء . وتكفر بالتاء ، مرفوعا ومجزوما ، والفعل للصدقات . وقرأ الحسن رضى الله عنه بالياء والنصب بإضمار أن . ومعناه : إن تخفوها يكن خيراً لكم ، وأن يكفر عنكم .

---

(١) أخرجه الطبرى من رواية ابن عباس ، قال «جعل الله صدقة السر التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها تفضل سرها خمسة وعشرين ضعفا ، وكذا جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها» .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

﴿ليس عليك هداهم﴾ لايجب عليك أن تجعلهم[1] مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المنّ والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهى فحسب ﴿ولكن الله يهدى من يشاء﴾ يلطف بمن يعلم أنّ اللطف ينفع فيه فينتهى عما نهى عنه ﴿وما تنفقوا من خير﴾ من مال ﴿فلأنفسكم﴾ فهو لأنفسكم لاينتفع به غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وما تنفقون﴾ وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله ولطلب ماعنده، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لايوجه مثله إلى الله؟ ﴿وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم﴾ ثوابه أضعافا مضاعفة، فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه وأجملها. وقيل: حجت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما فأتتها أمها تسألها وهى مشركة، فأبت أن تعطيها، فنزلت. وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه: كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين. وروى أنّ ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم[2]. وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله، لكان لك ثواب نفقتك. واختلف فى الواجب، فجوز أبو حنيفة رضى الله عنه صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة، وأباه غيره.

لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢٧٣)

---

(١) قال محمود رحمه الله «لايجب عليك أن تجعلهم مهديين ...الخ». قال أحمد رحمه الله: المعتقد الصحيح أن الله هو الذى يخلق الهدى لمن يشاء هداه، وذاك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشرى أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه. وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما فى هذه الآية، فهو مؤول على زعم الزمخشرى بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه. إن هذا إلا اختلاق، وهذه النزغة من توابع معتقدهم السيء فى خلق الأفعال وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، وهو المسؤول أن لايزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

(٢) قوله «كرهوا أن ينفقوهم» لعله على تضمين الفعل معنى الاعطاء. أو لعله محرف وأصله ينفعوهم من النفع. (ع)

الجار متعلق بمحذوف . والمعنى : اعمدوا الفقراء ، واجعلوا ماتنفقون للفقراء ، كقوله تعالى (فى تسع آيات) ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، أى صدقاتكم للفقراء . و ﴿الذين أحصروا فى سبيل الله﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد ﴿لا يستطيعون﴾ لاشتغالهم به ﴿ضرباً فى الأرض﴾ للكسب. وقيل هم أصحاب الصفة . وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجرى قريش لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، فكانوا فى صفة المسجد ـ وهى سقيفته ـ يتعلمون القرآن بالليل ، ويرضخون النوى[1] بالنهار . وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحاب الصفه فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائى فى الجنة »[2] ﴿يحسبهم الجاهل﴾ بحالهم ﴿أغنياء من التعفف﴾ مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ من صفرة الوجه ورثاثة الحال . والإلحاف : الإلحاح ، وهو اللزوم ، وأن لا يفارق إلا بشىء يعطاه . من قولهم : لحفنى من فضل لحافه ، أى أعطانى من فضل ماعنده . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « إنّ الله تعالى يحبّ الحيىّ الحليم المتعفف ، ويبغض البذىّ السئال الملحف »[3] ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا وقيل : هو نفى للسؤال والإلحاف جميعاً ، كقوله :

* عَلَى لَاحِبٍ[4] لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ *[5]

يريد نفى المنار والاهتداء به .

---

(١) قوله « ويرضخون النوى » فى الصحاح : رضخت الحصى والنوى : كسرته ، ورضخت له رضخا ، وهو العطاء ليس بالكثير اهـ . (ع)

(٢) لم أجده

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى الأدب من رواية ميمون بن أبى شبيب عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا إلا أنه قال « ويبغض الفاحش البذىء » وقد روى موصولا ، والبزار من طريق محمد بن كثير الملائى عن ليث عن مجاهد عن أبى هريرة به ، فى حديث أوله « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال : لا نعلمه عن أبى هريرة إلا بهذا الاسناد وإسناده ضعيف . وقد رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود به ، وأتم منه وفى إسناده سوار بن مصعب ، وهو ضعيف وله طريق أخرى عن أبى هريرة أخرجها إسحاق فى مسنده ، والطبرانى فى مسند الشاميين من طريقه قال : أخبرنا كلثوم بن محمد قال حدثنا عطاء بن أبى مسلم الخراسانى عن أبى هريرة ـ فذكره مقتصراً على ماذكره المصنف بمعناه . وأخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان وحمزة السهمى فى تاريخ جرجان ، كلاهما من طريق عيسى بن خالد البلخى عن ورقاء عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ « إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه ، ويكره البؤس والتبؤس ويبغض السائل الملحف ، ويحب العفيف المتعفف » .

(٤) قوله « على لاحب » أى طريق واضح . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) وإنى زعيم إن رجعت مملكا ... بسير ترى منه الفرانق أزورا

على لاحب لا يهتدى بمناره ... إذا سافه العود النباطى جرجرا

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السرّ، وعشرة في العلانية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عليّ رضي الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلا، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية. وقيل نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

﴿الربوا﴾ كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة وزيدت الألف بعدها

= لامرئ القيس. والزعيم الكفيل. والفرانق - بضم الفاء -: رسول يوصل خبر الخوف. والأزور: المائل: يقول: إن ملكوني عليهم كما كنت فأني متكفل بسفر صعب. واللحب واللاحب: الطريق الواسع، من لحبه إذا وطئه ومر فيه، فأصله ملحوب. والمنار أعلام الطريق. وسافه يسوفه سوفا إذا شمه شما. ومنه المسافة. والعود: الجمل المسن. ويطلق على الطريق القديم. والسؤدد: القديم. والنباطي: نسبة للنبط، وهم قوم يحلون البطاح بين العراقين يستنبطون منها الماء، كيماني نسبة لليمن. ويروى: العود الديافي. وداف يدوف إذا خلط، ودياف: موضع بالجزائر فيه نبط الشام. والديافي نسبة إليه. والجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته، يعني أنه طريق واسع لا منار فيه يهتدى به، وفيه نوع من البديع يسمونه نفي الشيء بإيجابه، ويفسرونه بأن يكون الكلام ظاهره إيجاب الشيء وباطنه نفيه، بأن ينفي ما هو من سببه وهو المنفي في الباطن. وفي البيت نفي الاهتداء بالمنار، والمقصود نفي المنار كما ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان، إذا شمه الجمل المسن عرف أنه طريق وعر لتجربته الطرق، وجرجر خوفا منه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر، سيما إذا كان من إبل النبط لكثرة رحيلهم. هذا ويحتمل أن السير مجاز عن السياسة كما يشعر به طلب الملك؛ فيكون ما بعده ترشيح للمجاز.

تشبيها بواو الجمع ﴿لا يقومون﴾ إذا بعثوا من قبورهم[1] ﴿إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان﴾ أى المصروع . وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء ، فورد على ما كانوا يعتقدون . والمس : الجنون . ورجل ممسوس ، وهذا أيضاً من زعماتهم ، وأن الجنىّ يمسه فيختلط عقله ، وكذلك جن الرجل : معناه ضربته الجنّ ، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب ، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات . فإن قلت : بم يتعلق قوله ﴿من المس﴾ ؟ قلت : بلا يقومون ، أى لا يقومون من المسّ الذى بهم إلا كما يقوم المصروع . ويجوز أن يتعلق بيقوم ، أى كما يقوم المصروع من جنونه . والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين ، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف . وقيل الذين يخرجون من الأجداث يوفضون ، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله فى بطونهم حتى أثقلهم ، فلا يقدرون على الإيفاض ﴿ذلك﴾ العقاب بسبب قولهم ﴿إنما البيع مثل الربوا﴾ . فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأنّ الكلام فى الربا لا فى البيع[2] ، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم

---

(١) قال محمود رحمه الله : « يعنى إذا بعثوا من قبورهم ... الخ » قال أحمد : قوله وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، أى كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها ، كما يقال فى الغول والعنقاء ونحو ذلك . وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع ، فقد ورد « ما ن مولود يولد إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا » وفى بعض الطرق « إلا طعن الشيطان فى خاصرته ومن ذلك يستهل صارخا إلا مريم وابنها ، لقول أمها : إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وقوله عليه السلام « التقطوا صبيانكم أول العشاء فانه وقت انتشار الشياطين » وفى حديث مكحول : أنه مر برجل نائم بعد العصر فركضه برجله وقال : لقد دفع عنك الشياطين ، أو لقد عوفيت ، إنها ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون وفيها يكون الخبتة . قال شمر : كان فى لسان مكحول لكنة ، وإنما أراد الخبطة من الشيطان ، أى إصابة مس أو جنون . وقد ورد فى حديث المفقود الذى اختطفته الشياطين وردته فى زمنه عليه الصلاة والسلام أنه حدث عن شأنه معهم قال : فجاءنى طائر كأنه جمل ، فتعثرنى ، فاحتملنى على خافية من خوافيه ، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره . واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة ، كما أخبر الشرع عنها . وإنما القدرية خصماء العلانية فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفا لقواعدهم ، من ذلك : السحر ، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن . وإن اعترفوا بشيء من ذلك ، فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبيء عنه ظاهر الشرع ، فى خبط طويل لهم فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

(٢) قال محمود : « إن قلت لم لم يقولوا : إنما الربا مثل البيع ... الخ » قال أحمد : وعندى وجه فى الجواب عن السؤال الذى أورده غير ما ذكر ، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين فى ثبوت الحكم ، فللقائل أن يسوى بينهما طرداً ، فيقول مثلا : الربا مثل البيع ، وغرضه من ذلك أن يقول : والبيع حلال فالربا حلال . وله أن يسوى بينهما فى العكس فيقول : البيع مثل الربا ، فلو كان الربا حراما كان البيع حراما ضرورة المماثلة . ونتيجته التى دلت قوة الكلام عليها أن يقول : ولما كان البيع حلالا اتفاقا غير حرام ، وجب أن يكون الربا مثله ، والأول على طريقة قياس الطرد ، والثانى على طريقة قياس العكس ، ومآلهما إلى مقصد واحد ، فلا حاجة على هذا التقرير ــ

أنهم قالوا : لو اشترى الرجل مالا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جيء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا فى الحل حتى شبهوا به البيع . وقوله ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربوا ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما ، ودلالة على أنّ القياس يهدمه النص ، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهى عن الربا ﴿ فانتهى ﴾ فتبع النهى وامتنع ﴿ فله ما سلف ﴾ فلا يؤخذ بما مضى منه ، لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿ وأمره الى الله ﴾ يحكم فى شأنه يوم القيامة ، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به ﴿ ومن عاد ﴾ إلى الربا ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وهذا دليل بين [1] على تخليد الفساق [2] . وذكر فعل الموعظة لأنّ تأنيثها غير حقيقى ، ولأنها فى معنى الوعظ . وقرأ أبىّ والحسن : فمن جاءته . ﴿ يمحق الله الربوا ﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : الربا وإن كثر إلى قلّ . ﴿ ويربى الصدقات ﴾ ما يتصدّق به بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه . وفى الحديث « ما نقصت زكاة من مال قط » [3] ﴿ كل كفار أثيم ﴾ تغليظ فى أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين .

= إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره ، وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذى تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح وإن كان قياسا فاسد الوضع ، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضا فى تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما ، ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالا صحيحاً فقل فى الأولى : النبيذُ مثل الخمر فى علة التحريم ، وهو الاسكار ، والخمر حرام فالنبيذ حرام . وقل فى الثانية : إنما الخمر مثل النبيذ فلو كان النبيذ حلالا لكان الخمر حلالا ، وليست حلالا اتفاقا فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة ، فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه ، والله أعلم .

(١) قوله « على تخليد الفساق » وهو مذهب المعتزلة ولا يخلدون عند أهل السنة كما بين فى محله (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : « فى هذه الآية دليل على تخليد الفساق ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وهو يبنى على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة ، ولا يساعده على ذلك الظاهر الذى استدل به ، فان الذى وقع العود إليه مسكوت عنه فى الآية . ألا تراه قال (ومن عاد) فلم يذكر المعود إليه ، فيحمل على ما تقدم كأنه قال : ومن عاد إلى ما سلف ذكره فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذى سلف ذكره فعل الربا واعتقاد جوازه ، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع . ولا شك عندنا ـ أهل السنة والجماعة ـ أن من تعاطى معاملة الربا مستحلا لها مكابراً فى تحريمها مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات بما يتوهمه من الخيالات فقد كفر ثم ازداد كفراً ، وإذا ذاك يكون الموعود بالخلود فى الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن ، وهذا لا خلاف فيه ، فلا دليل للزمخشرى إذاً على اعتزاله فى هذه الآية ، والله الموفق . وإنما هو موكل بتحميل الآيات من المعتقدات الباطلة ما لا تحتمله ، وأنى له ذلك فى الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

(٣) من رواية العلاء عن أبيه عن أبى هريرة بلفظ « ما نقصت صدقة من مال ... الحديث » ورواه البزار من هذا الوجه ، فزاد فيه « قط » .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

أخذوا ماشرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمروا أن يتركوها ولا يطالبوا بها . وروى أنها نزلت فى ثقيف وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا . وقرأ الحسن رضى الله عنه : ما بقا ، بقلب الياء ألفا على لغة طيئ : وعنه ما بقى بياء ساكنة . ومنه قول جرير :

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضَوْا مَارَضِى لَكُمُو ... مَاضِى الْعَزِيمَةِ مَافِى حُكْمِهِ جَنَفُ [1]

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن صح إيمانكم ، يعنى أنّ دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ماأمرتم به من ذلك ﴿فأذنوا بحرب﴾ فاعلموا بها ، من أذن بالشىء إذا علم به . وقرئ : فآذنوا ، فأعلموا بها غيركم ، وهو من الإذن وهو الاستماع ، لأنه من طرق العلم . وقرأ الحسن : فأيقنوا ، وهو دليل لقراءة العامّة . فإن قلت : هلا قيل بحرب الله ورسوله ؟ قلت : كان هذا أبلغ ، لأن المعنى : فأذنوا بنوع من الحرب عظيم عند الله ورسوله . وروى أنها لما نزلت قالت ثقيف : لايدىْ لنا بحرب الله ورسوله . ﴿وإن تبتم﴾ من الارتباء ﴿فلكم رؤس أموالكم لاتظلمون﴾ المديونين [2] بطلب الزيادة عليها ﴿ولا تظلمون﴾ بالنقصان منها . فإن قلت : هذا حكمهم إن تابوا ، فما حكمهم لولم يتوبوا قلت : قالوا : يكون مالهم فيئا للمسلمين ، وروى المفضل عن عاصم : لاتظلمون ولاتظلمون ﴿وإن كان ذو عسرة﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أوذو إعسار : وقرأ عثمان رضى الله عنه :

---

(١) أى هو المعروف بالعدل . أو هو الخليفة الكامل فارضوا ما رضى لكم من الأحكام . وتسكين آخر رضى ، ونحوه : لغة شاذة . ماضى العزيمة : نافذ الحكم ، ليس فى حكمه جنف : أى ميل عن الحق إلى غيره .

(٢) قوله «المديونين بطلب الزيادة» القياس المدينين ، فلعل هذا مسموع شذوذاً ، وسيعبر به فيما بعد أيضا . (ع)

ذا عسرة على : وإن كان الغريم ذا عسرة . وقرئ : ومن كان ذا عسرة ﴿فنظرة﴾ أى فالحكم أو فالأمر نظرة وهى الإنظار . وقرئ : فنظرة بسكون الظاء . وقرأ عطاء : فناظره . بمعنى فصاحب الحق ناظره : أى منتظره ، أو صاحب نظرته على طريقة النسب كقولهم : مكان عاشب و باقل ، أى ذو عشب وذو بقل . وعنه : فناظره ، على الأمر بمعنى فسامحه بالنظرة وياسره بها ﴿إلى ميسرة﴾ إلى يسار . وقرئ بضم السين ، كمقبرة ومقبرة ومشرقة ومشرقة . وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله :

* وَأَخْلَفُوكَ عِدَا الأَمْرِ الَّذِى وَعَدُوا * [1]

وقوله تعالى (وإقام الصلاة) . ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ ندب إلى أن يتصدقوا برؤس أموالهم على من أعسر من غرمائهم أو ببعضها ، كقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقيل : أريد بالتصدق الإنظار لقوله صلى الله عليه وسلم « لايحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة »[2] ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أنه خير لكم فتعملوا به ، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لايعلمه . وقرئ (تصدقوا) بتخفيف الصاد على حذف التاء ﴿ترجعون﴾ قرئ على البناء للفاعل والمفعول : وقرئ : يرجعون بالياء على طريقة الالتفات . وقرأ عبد الله : تردون : وقرأ أبىّ : تصيرون . وعن ابن عباس أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال : ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة . وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما . وقيل أحدا وثمانين . وقيل سبعة أيام . وقيل ثلاث ساعات .

(١) إن الخليط أجدوا البين وانجردوا وأخلفوك عدا الأمر الذى وعدوا
لأبى أمية الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب . وقيل : لزهير . والخليط : المخالط فى العشرة ، وهو كالعشير ، يقال للواحد والمتعدد . وأجدوا البين : اجتهدوا فى الفراق . وانجردوا . مضوا . وعدا الأمر : أصله عدة الأمر ، وأصلها وعد ، فعوضت التاء عن الواو ، ثم حذفت التاء للاضافة كالتنوين على لغة ، واختلف فقيل إنها سماعية . وقيل إنها قياسية . واشتراطهم للحذف عدم اللبس ـ فيمتنع فى شجرة زيد للبس بشجر زيد ـ يؤيد كونها قياسية . وفى المراح : أن حذف تاء التعويض جائز هنا اتفاقا . أما عند سيبويه فلأن التعويض عنده من الأمور الجائزة . وأما عند الفراء فلأنه لايوجب التاء إلا عند عدم الاضافة ، وهى هنا متحققة فتقوم مقام العوض ، وعائد الموصول محذوف ، أى الأمر الذى وعدوه إياك .

(٢) رواه ابن ماجه من رواية الأعمش عن أبى داود نفيع عن بريدة رفعه « من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة . ومن أنظره بعد حله كان له مثله فى كل يوم صدقة » وأبو داود ضعيف وقد اختلف عليه فيه ، فرواه عبدالله ابن نمير عن الأعمش هكذا ، وخالفه أبو بكر بن عياش فرواه عن الأعمش عن أبى داود عن عمران بن حصين ، أخرجه أحمد والطبرانى وقد أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى والحاكم والبيهقى فى آخر الشعب كلهم من رواية عبد الوارث عن محمد بن جحادة عن ابن بريدة عن أبيه نحوه وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبرانى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

﴿إذا تداينتم﴾ إذا داين بعضكم بعضا. يقال: داينت الرجل عاملته ﴿بدين﴾ معطيا أو آخذا كما تقول: بايعته إذا بعته أو باعك. قال رؤبة:

دَايَنْتُ أَرْوَى وَالدُّيُونُ تُقْضَى فَمَطَلَتْ بَعْضًا وَأَدَّتْ بَعْضَا [1]

(١) لرؤبة. يقول: عاملت محبوبتى أروى بدين لى عليها من لوازم المودة، فطلت: أى أخرت بعضا منه وأطالت مدة تأخيره، وقضت بعضا منه. وقوله «والديون تقضى» جملة حالية أو اعتراضية مبينة لظلمها فى المطل وأصل المطل: المط والمد.

والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى[1] وأى حاجة إلى ذكر الدين كما قال: داينت أروى، ولم يقل: بدين؟ قلت: ذكر ليرجع الضمير إليه فى قوله ﴿فاكتبوه﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحالّ. فإن قلت: ما فائدة قوله ﴿مسمى﴾. قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع الحاج، لم يجز لعدم التسمية. وإنما أمر بكتبة الدين، لأنّ ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود، والأمر للندب. وعن ابن عباس أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلف. وعنه: أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم فى كتابه وأنزل فيه أطول آية[2]. ﴿بالعدل﴾ متعلق بكاتب صفة له، أى كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالسوية والاحتياط. لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه: أن يكون الكاتب فقيها عالما بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلا بالشرع. وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيها دينا ﴿ولا يأب كاتب﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب وهو معنى تنكير كاتب ﴿أن يكتب كما علمه الله﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير. وقيل هو قوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها. وعن الشعبي: هى فرض كفاية، وكما علمه الله: يجوز أن يتعلق بأن يكتب، وبقوله فليكتب. فإن قلت: أى فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن يكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المقيدة، ثم قيل له ﴿فليكتب﴾ يعنى فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها للتوكيد، وإن علقته بقوله فليكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدة ﴿وليملل الذى عليه الحق﴾ ولا يكن المملى إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود على ثباته فى ذمته وإقراره به. والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن (فهى تملى عليه). ﴿ولا يبخس منه﴾ من الحق ﴿شيئا﴾ والبخس: النقص. وقرئ شيا، بطرح الهمزة: وشيا، بالتشديد ﴿سفيها﴾ محجورا عليه لتبذيره

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل إذا تداينتم ... الخ»؟ قال أحمد: الأجل المسمى هو المعلوم انتهاؤه، ولعلم الانتهاء طرق منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر. ومنها التحديد بما يعتاد وقوعه فى زمن مخصوص مضبوط بالعرف. كالحصاد، ومقدم الحاج. وكيفما علم الأجل صح ضربه، فمن ثم أجاز مالك البيع إلى الحصاد لأنه معلوم عندهم، ثم المعتبر زمان وقوع هذه المسميات لا نفس وقوعها حتى لو حل زمن قدوم الحاج فمنعه مانع من القدوم مثلا لم يكن به عبرة وحكمنا بحلول أجل الدين، والله أعلم.

(٢) أخرجه الحاكم من رواية أبى حيان الأعرج عن الأعمش عن ابن عباس، قال «أشهد أن السلم المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله فى الكتاب وأذن فيه» وقرأ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه).

وجهله بالتصرف ﴿أو ضعيفا﴾ صبيا أو شيخا مختلا ﴿أو لايستطيع أن يمل هو﴾ أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعيّ به أو خرس ﴿فليملل وليه﴾ الذي يلي أمره من وصيّ إن كان سفيها أو صبيا، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه. وقوله تعالى ﴿أن يمل هو﴾ فيه أنه غير مستطيع ولكن بغيره، وهو الذى يترجم عنه ﴿واستشهدوا شهيدين﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدين ﴿من رجالكم﴾ من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء. وعن على رضى الله عنه: لاتجوز شهادة العبد فى شىء. وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتّى أنها جائزة، ويجوز عند أبى حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل ﴿فإن لم يكونا﴾ فإن لم يكن الشهيدان ﴿رجلين فرجل وامرأتان﴾ فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبى حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص ﴿ممن ترضون﴾ ممن تعرفون عدالتهم ﴿أن تضل إحداهما﴾ أن لاتهتدى إحداهما للشهادة بأن تنساها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له. وانتصابه على أنه مفعول له أى إرادة أن تضل. فإن قلت: كيف يكون ضلالها مرادا لله تعالى؟ قلت لما كان الضلال سببا للإذكار، والإذكار مسببا عنه، وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإذكار إرادة للإذكار، فكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت. ونظيره قولهم: أعددت الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه، وأعددت السلاح أن يجىء عدوٌّ فأدفعه. وقرئ ﴿فتذكر﴾ بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان. وفتذاكر. وقرأ حمزة: إن تضل إحداهما، على الشرط. فتذكر: بالرفع والتشديد، كقوله (ومن عاد فينتقم الله منه) وقرئ أن تضل إحداهما على البناء للمفعول والتأنيث. ومن بدع التفاسير: فتذكر، فتجعل إحداهما الأخرى ذكرا، يعنى أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر ﴿إذا ما دعوا﴾ ليقيموا الشهادة. وقيل: ليستشهدوا. وقيل لهم شهداء قبل التحمل، تنزيلا لما يشارف منزلة الكائن. وعن قتادة: كان الرجل يطوف الحواء[1] العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت. كنى بالسأم عن الكسل، لأنّ الكسل صفة المنافق. ومنه الحديث: «لايقول المؤمن كسلت»[2] ويجوز أن يراد من كثرت مداييناته؛ فاحتاج أن يكتب لكل دين صغير أو كبير كتابا، فربما مل كثرة الكتب. والضمير فى ﴿تكتبوه﴾ للدين أو الحق ﴿صغيرا أو كبيرا﴾ على أى حال كان الحق من صغر أو كبر. ويجوز أن يكون الضمير للكتاب، وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً لايخلوا بكتابته ﴿إلى أجله﴾ إلى وقته الذى اتفق

(١) قوله «يطوف فى الحواء» فى الصحاح: الحواء جماعة بيوت من الناس مجتمعة. (ع)

(٢) يأتى فى براءة

الغريمان على تسميته ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى أن تكتبوه ، لأنه فى معنى المصدر ، أى ذلكم الكتب ﴿أقسط﴾ أعدل من القسط ﴿وأقوم للشهادة﴾ وأعون على إقامة الشهادة ﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾ وأقرب من انتفاء الريب . فإن قلت : مِمَّ بنى أفعلا التفضيل ، أعنى : أقسط ، وأقوم ؟ قلت : يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام ، وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذى قسط ، وأقوم من قويم . وقرئ : ولا يسأموا أن يكتبوه بالياء فيهما . فإن قلت : مامعنى ﴿تجارة حاضرة﴾ وسواء أكانت المبايعة بدين أو بعين فالتجارة حاضرة ؟ ومامعنى إدارتها بينهم ؟ قلت . أريد بالتجارة مايتجر فيه من الأبدال . ومعنى إدارتها بينهم تعاطيهم إياها يدا بيد . والمعنى : إلا أن تتبايعوا بيعا ناجزا يدا بيد فلا بأس أن لا تكتبوه ، لأنه لا يتوهم فيه مايتوهم فى التداين . وقرئ : تجارة حاضرة بالرفع على كان التامة . وقيل : هى الناقصة على أنّ الاسم « تجارة حاضرة » والخبر « تديرونها » وبالنصب على : إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كبيت الكتاب :

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بلاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ أَشْنَعَا [1]

أى إذا كان اليوم يوما ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ، ناجزا أو كالئا لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعنى التجارة الحاضرة ، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة . وعن الحسن : إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد . وعن الضحاك : هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل[2] ﴿ولا يضار﴾ يحتمل البناء للفاعل والمفعول . والدليل عليه قراءة عمر رضى الله عنه : ولا يضارر ، بالإظهار والكسر . وقراءة ابن عباس رضى الله عنه : ولا يضارر ، بالإظهار والفتح . والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى مايطلب منهما . وعن التحريف والزيادة والنقصان ، أو النهى عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ، ويلزا ، أو لا يعطى الكاتب حقه من الجعل ، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد[3]. وقرأ الحسن : ولا يضار ، بالكسر ﴿وإن تفعلوا﴾ وإن تضاروا ﴿فإنه﴾ فإنّ الضرار ﴿فسوق

---

(١) من أبيات الكتاب . والمراد من هذا الاستفهام الوعيد والتهديد وتذكير ما سبق أو التقرير ، أو هل بمعنى قد . والبلاء : الحرب وكل مكروه . أى يا بنى أسد ، هل تعلمون حربنا إذا كان اليوم يوما صاحب كواكب ، فاسم كان محذوف . ويجوز أن اسم كان ضمير البلاء ، ويوما ظرف متعلق بالخبر المحذوف . وكنى بذى الكواكب عن المظلم ، لأن الكواكب المتعددة لاتظهر إلا ليلا ، فالمعنى : إذا كان اليوم يشبه الليل فى الظلمة من اشتداد الحرب وإثارة الغبار فيحجب الشمس . فكأن النجوم ترى فيه . وأقرب من ذلك أنه استعار الكواكب لأطراف الرماح ، والسيوف للمعانها وانتشارها ذلك اليوم كالنجوم على طريق التصريحية ، والأشنع : القبيح .

(٢) قوله « على باقة بقل » حزمة منه . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « مؤنة مجيئه من بلد » لعله من بلد بعيد . (ع)

بكم﴾ وقيل : وإن تفعلوا شيئا مما نهيتم عنه﴿على سفر﴾مسافرين . وقرأ ابن عباس وأبىّ رضى الله عنهما كتابا . وقال ابن عباس : أرأيت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة . وقرأ أبو العالية : كتبا . وقرأ الحسن : كتابا ، جمع كاتب ﴿فرهن﴾ فالذى يستوثق به رهن . وقرئ فرهن بضم الهاء وسكونها ، وهو جمع رهن ، كسقف وسقف . وفرهان . فإن قلت : لم شرط السفر فى الارتهان ولا يختص به سفر دون حضر[١] وقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه فى غير سفر[٢] . قلت : ليس الغرض تجويز الارتهان فى السفر خاصة ، ولكن السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد ، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر ، بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد . وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوّزاه إلا فى حال السفر أخذا بظاهر الآية . وأما القبض فلا بدّ من اعتباره .[٣] وعند مالك يصح الارتهان

---

(١) قال محمود رحمه الله : «وإن قلت : لم شرط السفر فى الارتهان ولايختص به سفر ... الخ» قال أحمد رحمه الله : فالتخصيص بالسفر على هذا جرى على وفق الغالب فلا مفهوم له . وفى هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضى الله عنه فى إقامة الرهن عند التنازع فى قدر الدين مقام شاهد للمرتهن إلى تمام قيمته ، حتى لو تنازعا فقال الراهن : رهنتكه بمائة ، وقال المرتهن : بل الرهن بمائتين ، لكان الرهن شاهداً بقيمته . خلافاللشافعى رضى الله عنه فانه يرى القول قول الراهن مطلقاً ، لأنه غارم ، ووجه الدليل لمالك رضى الله عنه من الآية : أن الله تعالى جعل الرهن فى التوثق عوضاً من الاشهاد والكتابة ، وخصه بالسفر لاعوازهما حينئذ ، ولوكان القول قول الراهن شرعا لم يكن قائما مقام الاشهاد ولا مفيداً فائدته بوجه ، إذ لو لم يكن الرهن لكان القول قول المديان فى قدر الدين فلم يزد وجود الرهن فائدة على عدمه باعتبار نيابته عن الاشهاد ، ولا يقال : إن فائدته الامتياز به على الغرماء ، لأن تلك فائدة الاشهاد حتى يكون نائباً عنه عند تعذره ، ولافائدة إذ ذاك إلا جعل القول قول المرتهن فى قدر الدين عند التخالف وهو مذهب مالك المقدم ذكره . ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا فى قيمته لا فيما زاد عليها ، معتضداً بالعادة فى أن رب الدين لايقبل فى دينه إلا الموفى بقيمته . فدعوه أن الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة ، والمديان أيضاً لايسمح بتسليم ما قيمته أكثر فيما هو أقل ، فدعواه أن الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة ، ولا يبق إلا النظر فى أمر واحد ، وهو أن المعتبر عند مالك فى القيمة يوم الحكم ، حتى لو تصادقا على أن القيمة كانت يوم الرهن أكثر أو أقل لم يلتفت إلى ذلك زادت أو نقصت ، وإنما يعتبر يوم القضاء . ولقائل أن يقول : إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه لأن العادة تقتضى أن الناس إنما يرهنون فى الديون المساوى قيمته لها ، فينبغي أن تعتبروا القيمة يوم الرهن غير معرجين على زيادتها ونقصانها يوم القضاء . وعندذلك يتجاذب أطراف الكلام فى أن المقتضى لاقامته مقام الشاهد هو المعنى المتقدم أو غيره . وليس غرضنا إلا أن الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة فى الجملة . وأما تفاصيل المسألة فذلك من حظ الفقه .

(٢) متفق عليه من رواية الأسود بن يزيد عن عائشة «أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاما إلى أجل ورهنه درعا من حديد» وللبخارى من رواية قتادة عن أنس . قال «ولقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعا له بالمدينة عند يهودى ، وأخذ منه شعيراً لأهله» اه .

(٣) قال محمود : «وأما القبض فلابد من اعتباره ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ليس بين مالك والشافعي خلاف فى صحة الارتهان بالايجاب والقبول دون القبض ، ولكنه عند مالك رضى الله عنه يصح بذلك ، ويلزم الراهن بالعقد تسليمه للمرتهن . وعندالشافعي لايلزم بالعقد ولكن للقبض عند مالك اعتبار فى الابتداء والدوام ، ولايشترط ـــ

بالإيجاب والقبول بدون القبض ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين[1] لحسن ظنه به. وقرأ أبيّ: فإن أومن، أى آمنه الناس[2] ووصفوا المديون بالأمانة والوفاء والاستغناء عن الارتهان من مثله ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ﴾ حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن به وأمنه منه وائتمانه له، وأن يؤدى إليه الحق الذى ائتمنه عليه فلم يرتهن منه. وسمى الدين أمانة وهو مضمون لائتمانه عليه بترك الارتهان منه. والقراءة أن تنطق بهمزة ساكنة بعد الذال أو ياء، فتقول: الذى اؤتمن، أو الذى تمن. وعن عاصم أنه قرأ: الذى اتمن، بإدغام الياء فى التاء، قياساً على اتسر فى الافتعال من اليسر، وليس بصحيح، لأنّ الياء منقلبة عن الهمزة، فهى فى حكم الهمزة و«اتزر» عامىّ، وكذلك ريا فى رؤيا ﴿آثِمٌ﴾ خبر إن. و﴿قَلْبُهُ﴾ رفع بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه. ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء. وآثم خبر مقدم، والجملة خبر إن. فإن قلت: هلا اقتصر على قوله (فإنه آثم)؟ وما فائدة ذكر القلب ـ والجملة هى الآثمة لا القلب وحده ـ؟ قلت: كتمان الشهادة: هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه، لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى، ومما عرفه قلبى، ولأنّ القلب هو رئيس الأعضاء

= الشافعى كثيراً من أحكامه عند مالك، وذلك أنهما لو تقاررا على القبض ثم قام الغرماء انتفع بالرهن عند الشافعى وامتاز به، ولم ينتفع به عند مالك وكان أسوة الغرماء فيه، حتى ينضاف إلى الشهادة عليهما بالقبض معاينة البينة لذلك، لأنه يتهمهما بالتواطىء على إسقاط حق الغرماء فلا يعتبر إقرارهما إلا بانضمام المعاينة، فالقبض من هذا الوجه أدخل فى الاعتبار على رأى مالك منه على رأى الشافعى، هذا فى الابتداء. وأما فى الدوام فمالك رضى الله عنه يشترط بقاءه فى يد المرتهن حتى لو عاد إلى يد الراهن بأن أودعه المرتهن إياه أو أجره منه أو أعاره إياه إعارة مطلقة فقد خرج من الرهن، ولو قام الغرماء وهو بيد الراهن بوجه من الوجوه المذكورة كان أسوة الغرماء فيه، والشافعى رضى الله عنه لا يشترط دوام القبض على هذا الوجه، بل للراهن عند الشافعي أن ينتفع بالرهن ولو كره المرتهن إذا لم يكن الانتفاع مضراً بالرهن، كسكنى الدار، واستخدام العبد. وله أن يستوفى منافعه بنفسه على الصحيح عنده المنصوص عليه فى الأم ولا يؤثر ذلك فى الرهن بطلانا ولا خللا، فقد علمت أن القبض أدخل فى الاعتبار على مذهب مالك ابتداء ودواماً، والآية تعضده فان الرهن فى اللغة هو الدوام. أنشد أبو على:

«فالخبز واللحم لهم راهن وقهوة راووقها ساكب»

ولعل القائل باشتراط دوام الرهن فى يد المرتهن تمسك بما فى لفظ الرهن من اقتضاء الدوام، وله فى ذلك متمسك. وما طولت فى حكاية مذهب مالك فى القبض، إلا لأن المفهوم من كلام الزمخشرى إطراح القبض عند مالك لأنه فهم من قول أصحابه أن القبض لا يشترط فى صحة الرهن، ولا فى لزومه أنه غير معتبر عنده بالكلية، والله أعلم،

(١) قوله «المديونين لحسن ظنه به» لعله مسموع شاذ، والقياس المدينين، وكذا المديون قياسه المدين. (ع)

(٢) قوله «أى آمنه الناس» الظاهر أنه من الافعال بالكسر، لا من المفاعلة، أى جعل الناس البعض وهو الدائن بحيث يأمن البعض الآخر وهو المدين، وذلك بأن وصفوا له المدين بالأمانة الخ، فصار الدائن بحيث يأمن المدين. (ع)

والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله. فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أنّ القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأنّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهى لها كالأصول التي تتشعب منها. ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيآت الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى (فقد حرم الله عليه الجنة) وشهادة الزور، وكتمان الشهادة. وقرئ: قلبه، بالنصب، كقوله (سفه نفسه) وقرأ ابن أبى عبلة: أثم قلبه، أى جعله آثما [1]

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه﴾ يعنى من السوء يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء﴾ لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره ﴿ويعذب من يشاء﴾ ممن استوجب العقوبة بالإصرار. ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان: الوساوس وحديث النفس، لأنّ ذلك مما ليس فى وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكنّ [2]، ثم بكى حتى سمع نشيجه [3] فذكر لابن عباس فقال: يغفر الله لأبى عبد الرحمن. قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد فنزل (لا يكلف الله) وقرئ: فيغفر ويعذب، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على: فهو يغفر ويعذب. فإن قلت: كيف يقرأ الجازم؟ قلت: يظهر الراء ويدغم الباء. ومدغم الراء فى اللام لاحن مخطئ خطأً فاحشا. وراويه عن أبى عمرو مخطئ مرّتين، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم. والسبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب فى قلة الضبط قلة الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو. وقرأ الأعمش: يغفر، بغير فاء مجزوما على البدل من يحاسبكم، كقوله:

(١) قوله «وأثم قلبه أى جعله آثما» يحتمل أنه بمد الهمزة من الافعال، وأنه بتشديد الثاء من التفعيل، فليحرر. (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من طريق الزهرى عن سعيد بن مرجانة عن ابن عمر به. وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن ابن عمر

(٣) قوله «حتى سمع نشيجه» فى الصحاح: نشج الباكى نشجا ونشيجاً، إذا غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب. (ع)

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِى دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا وَنَارًا تَأَجَّجَا (١)

ومعنى هذا البدل التفصيل لجملة الحساب، لأنّ التفصيل أوضح من المفصل، فهو جار مجرى بدل البعض من الكل أو بدل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله. وهذا البدل واقع فى الأفعال وقوعه فى الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

﴿والمؤمنون﴾ إن عطف على الرسول كان الضمير ـ الذى التنوين نائب عنه فى كل ـ راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أى كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين (٢). ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين. ووحد ضمير كل فى آمن على معنى: كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله (وكلٌّ أتوه داخرين). وقرأ ابن عباس: وكتابه، يريد القرآن أو الجنس (٣) وعنه: الكتاب أكثر من الكتب. فإن قلت: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ قلت: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس ـ والجنسية قائمة فى وحدان الجنس كلها ـ لم يخرج منه شيء. فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع ﴿لا نفرق﴾ يقولون لا نفرق. وعن أبى عمرو: يفرق بالياء، على أن الفعل لكل. وقرأ عبد الله: لا يفرقون. و﴿أحد﴾ فى معنى الجمع، كقوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ولذلك دخل عليه بين. ﴿سمعنا﴾ أجبنا ﴿غفرانك﴾ منصوب بإضمار فعله. يقال: غفرانك لا كفرانك، أى نستغفرك ولا نكفرك. وقرئ (وكتبه ورسله) بالسكون.

---

(١) «تلمم» بدل مما قبله، أى متى تنزل عندنا تجدنا موقدين النار بحطب غليظ، وهذا كناية عن كرمهم. وتأججا: مسند لضمير الحطب والنار، أى اشتعلا. واستدل بهما. وإسناده للنار حقيق، وللحطب من باب الاسناد للسبب، فهو مجاز عقلى وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فى الاسناد.

(٢) قوله «ورسله من المذكورين» لعل قبله سقطا تقديره: أى كل من المذكورين. (ع)

(٣) قال محمود: «نقل عن ابن عباس أنه قرأ وكتابه ... الخ» قال أحمد: وقد قال مالك: إن التمر أحرى باستغراق الجنس من التمور، فان التمر استرسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمور يرده إلى تخيل الوحدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع وفى صيغة الجمع مضطرب. وهذا الكلام من الامام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا لأشهر الفرضية فى الاستشهاد به على صحة مقالته هذه فلا نعيده.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

الوسع: مايسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أى لا يكلفها إلا مايتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود. وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى(يريد الله بكم اليسر)لأنه كان فى إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة. وقرأ ابن أبى عبلة وسعها بالفتح ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها. فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت: فى الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمّارة به، كانت فى تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال. أى لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا. فإن قلت: النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ [1] قلت: ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ماهما مسببان عنه من التفريط والإغفال. ألا ترى إلى قوله(وما أنسانيه إلا الشيطان) والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذى منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان. ويجوز أن يدعو الإنسان بما

---

(١) قال محمود: «فإن قلت النسيان والخطأ متجاوز عنهما ... الخ» قال أحمد: ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة، لأنا نقول: إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع كقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» وإذا كان كذلك فلعل رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة. فقد نقل أن الله تعالى قال عند كل دعوة منها: قد فعلت. وإنما التزم الزمخشرى ورود السؤال على قواعد القدرية الذاهبين إلى استحالة المؤاخذة بالخطأ والنسيان عقلا، لأنه من تكليف مالا يطيق، وهو المستحيل عندهم تفريعا على قاعدة التحسين والتقبيح، وكلها قواعد باطلة ومذاهب ماحلة. فالله تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ويلهمنا المعتقد الحق والقول المصيب، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه . والإصر : العبء الذى يأصر حامله أى يحبسه مكانه لايستقل به لثقله ، استعير للتكليف الشاقّ ، من نحو قتل الأنفس ، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك . وقرئ : آصاراً على الجمع . وفى قراءة أبىّ : ولا تحمل علينا بالتشديد . فإن قلت : أىّ فرق بين هذه التشديدة والتى فى (ولا تحملنا) ؟ قلت : هذه للمبالغة فى حمل عليه ، وتلك لنقل حمله من مفعول واحد إلى مفعولين ﴿ولا تحملنا مالاطاقة لنا به﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التى كلفها من قبلهم ، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم فى المحافظة عليها . وقيل : المراد به الشاقّ الذى لايكاد يستطاع من التكاليف . وهذا تكرير لقوله (ولا تحمل علينا إصراً) . ﴿مولانا﴾ سيدنا ونحن عبيدك . أو ناصرنا . أو متولى أمورنا ﴿فانصرنا﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبيده . أو فإنّ ذلك عادتك . أو فإنّ ذلك من أمورنا التى عليك توليها . وعن ابن عباس «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات ، قيل له عندكل كلمة : قد فعلت»[1] وعنه عليه السلام «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه»[2] وعنه عليه السلام «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهنّ نبىٌّ قبلى»[3] وعنه عليه السلام «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل»[4]

---

(١) أخرجه مسلم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزلت هذه الآية (إن تبدوا ما فى أنفسكم ـ الآية) قال : دخل قلوبهم منها شىء لم يدخل قلوبهم . فقال : قولوا : سمعنا وأطعنا ـ الحديث ، وفيه : قد فعلت . فى مواضع ، وغفل الحاكم فاستدركه .

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود . واختلف فى معناه . فقيل : كفتاه ، أجزأتاه عن قيام الليل كما فى الذى قبله ، وقيل : كفتاه أجراً وفضلا ، وقيل : كفتاه من كل شيطان أو من كل آفة .

(٣) هذا طرف من حديث ، أوله عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً ، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وأوتيت هؤلاء الآيات آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعط منه أحد قبلى ، ولايعطى منه أحد بعدى : أخرجه النسائى وأحمد والبزار وابن أبى شيبة وابن خزيمة وابن حبان من رواية أبى مالك الأشجعى عن ربعى بن خراش عن حذيفة ، وقد أخرجه مسلم ، لكن قال فى الثالثة وذكر خصلة أخرى : فأبهمها ، وذكرها أصحاب المستخرجات وغيرهم من طريق شيخه باسناده فيه ، وغفل الحاكم فذكر فى فضائل القرآن فى المستدرك : لأن مسلما أخرج هذه الجملة ، ولعل مسلما إنما أبهمها للاختلاف على ربعى فيها ، فقد رواه أحمد وإسحاق من رواية جرير عن منصور عن ربعى عن خراش عن زيد بن ظبيان عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لكن تابع أبا مالك نعيم بن أبى هند ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط فى المحمدين منه من طريقه .

(٤) أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود ، وفى إسناده الوليد بن عباد وهو مجهول عن أبان بن أبى عياش . وهو متروك .

فإن قلت : هل يجوز أن يقال : قرأت سورة البقرة أو قرأت البقرة . قلت : لا بأس بذلك . وقد جاء فى حديث النبي صلى الله عليه وسلم « من آخر سورة البقرة » و« خواتيم سورة البقرة » و« خواتيم البقرة . (١)

وعن علىّ رضى الله عنه « خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش » .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنه رمى الجمرة ثم قال « من ههنا ـ والذى لا إله غيره ـ رمى الذى أنزلت عليه سورة البقرة » (٢)

ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف وسورة الممتحنة وسورة المجادلة . وإذا قيل : قرأت البقرة ، لم يشكل أنّ المراد سورة البقرة كقوله (واسأل القرية) . وعن بعضهم أنه كره ذلك وقال : يقال قرأت السورة التى تذكر فيها البقرة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « السورة التى تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإنّ تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة . قيل : وما البطلة ؟ قال : السحرة » (٣)

---

(١) تقدما جميعا قريبا ، ولمسلم من حديث مرة بن شراحيل الطيب عن ابن مسعود : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ـ الحديث ، وله عن ابن عباس : بينما جبريل عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزل ملك ـ الحديث وفيه : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة .

(٢) متفق عليه من رواية الأعمش : سمعت الحجاج بن يوسف على المنبر يقول : السورة التى يذكر فيها البقرة والسورة التى يذكر فيها آل عمران . والسورة التى يذكرفيها النساء . قال : فذكرته لابراهيم فقال : حدثنى عبدالرحمن ابن يزيد أنه كان مع ابن مسعود حين رمى جمرة العقبة ... الحديث .

(٣) ذكر أبو شجاع الديلمي فى الفردوس . من حديث أبى سعيد الخدرى : والمسألة فى صحيح مسلم من حديث أبى أمامة مرفوعا : اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة . قال معاوية أحد رواته : المعنى أن البطلة السحرة . وفى الباب عن بريدة عند الثعلبي والبغوى .

﴿تنبيه﴾ المصنف ذكر حديث أبى سعيد مستدلا به ان قال : السورة التى يذكر فيها كذا . ولما قبله على الجواز . فانه من المرفوع ما رواه الطبرانى فى الأوسط والمحمدين وابن مردويه فى تفسيره من حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه رفعه : « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ، وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا السورة التى يذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران » وكذا القرآن كله ، وفى إسناد عيسى بن ميمون أبو سلمة الخواص ، وهو ساقط .

سورة آل عمران

مدنية وهى مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤)

(مٓ) حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها كما تقول: واحد اثنان: وهى قراءة عاصم. وأما فتحها فهى حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف. فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهى همزة وصل لا تثبت فى درج الكلام فلا تثبت حركتها لأن ثبات حركتها كثباتها؟ قلت: هذا ليس بدرج، لأن (مٓ) فى حكم الوقف والسكون والهمزة فى حكم الثابت. وإنما حذفت تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها. ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال. فإن قلت: هلا زعمت أنها حركة لالتقاء الساكنين؟ قلت: لأن التقاء الساكنين لا يبالى به فى باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحق. ولو كان التقاء الساكنين فى حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمان فى ألف لام ميم، لالتقاء الساكنين. ولما انتظر ساكن آخر. فإن قلت: إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين فى ميم، لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك فحركوا. قلت: الدليل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، بسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا بين ساكنين، كما قالوا: أصيم، ومديق. فلما حركوا الدال علم أن حركتها هى حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين. فإن قلت: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ قلت: هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين وما هى بمقولة. و﴿التوراة والإنجيل﴾ اسمان أعجميان. وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وأفعيل، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وقرأ الحسن: الأنجيل، بفتح الهمزة،

وهو دليل على العجمة ، لأن أفعيل ـ بفتح الهمزة ـ عديم فى أوزان العرب . فإن قلت : لم قيل (نزل الكتاب)[١] (وأنزل التوراة والإنجيل) ؟ قلت : لأن القرآن نزل منجماً ، ونزل الكتابان جملة . وقرأ الأعمش : نزَل عليك الكتابُ بالتخفيف ورفع الكتاب ﴿هدى للناس﴾ أى لقوم موسى وعيسى . وقال نحن متعبدون بشرائع من قبلنا فسره على العموم . فإن قلت : ما المراد بالفرقان؟ قلت : جنس الكتب السماوية [٢] ، لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل ، أو الكتب التى ذكرها ، كأنه قال بعد ذكر الكتب الثلاثة : وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه ، أو من هذه الكتب ، أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور ، كما قال (وآتينا داود زبورا) وهو ظاهر . أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيما لشأنه وإظهاراً لفضله ﴿بآيات الله﴾ من كتبه المنزلة وغيرها ﴿ذو انتقام﴾ له انتقام شديد[٣] لا يقدر على مثله منتقم .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿لا يخفى عليه شيء﴾ فى العالم فعبر عنه بالسماء والأرض ، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن ، وهو مجازيهم عليه ﴿كيف يشاء﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة . وقرأ طاوس : تصوّركم ،

---

(١) قال محمود : «فإن قلت : لم قيل فى القرآن نزل ... الخ» قال أحمد : يريد لأن «فعل» صيغة مبالغة وتكثير ، فلما كان نزول القرآن منجما كان أكثر تنزيلا من غيره لتفرقه فى مرار عديدة ، فعبر عنه بصيغة مطابقة لكثرة تنزيلاته ، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة والتكثير والله أعلم .

(٢) (عاد كلامه) قال : والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، أو الكتب التى ذكرها أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور . كما أفرده وأخر ذكره فى قوله (وآتينا داود زبورا) أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقا بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيما لشأنه وإظهارا لفضله والله أعلم . قال أحمد : وقد جعل الزمخشرى سر التعبير عن نزول القرآن بصيغة «فعل» تفريقه فى التنزيل كما تقدم آنفا ، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن والتعبير عنه بأفعل كغيره ، فان يكن هذا ـ والله أعلم ـ فالوجه أنه لما عبر أولا عن نزوله الخاص به ، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية ، فلما جرى ذكره ثانيا لينعت بصفة زائدة على اسم الجنس ، عبر عن نزوله من حيث الاطلاق اكتفاء بتميزه أولا وإجمالا لذلك فى غير مقصوده ، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى : الكلام يجمل فى غير مقصوده ، ويفصل فى مقصوده .

(٣) قال محمود : «معناه له انتقام شديد ... الخ» . قال أحمد : وإنما يأتى هذا التفخيم من التنكير وهو من علاماته مثله فى قوله (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) .

أى صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالا، إذا جعلته أثلة، أى أصلا. وتأثلته، إذا أثلته لنفسك. وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان ربا، كأنه نبه بكونه مصورا فى الرحم، على أنه عبد كغيره، وكان يخفى عليه مالا يخفى على الله.

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٧)

﴿محكمات﴾ أحكمت عبارتها[1] بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه ﴿متشابهات﴾ مشتبهات

(١) قال محمود: «المحكمات التى أحكمت عبارتها ... الخ» قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآى على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأى. وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فاذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله (إلى ربها ناظرة) مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه بزعمهم إلى الآية التى يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم. والآية قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول: نحمل قوله (لا تدركه الأبصار) فى دار الدنيا. ونحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعا بين الأدلة. أو نقول: الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم إلا أن المراد بها الخصوص، أى لا تدركه أبصار الكفار كقوله (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ونقول: لا تعارض بين الآيتين، فنقر كل واحدة منها فى نصابها. وبيان ذلك: أن الأبصار عام بالألف واللام الجنسيتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذ يكون فى العموم مرادفة لدخول كل، لأن كليهما أعنى المعرف والجنسى، وكلا يفيد الشمول والاحاطة، وإذا أثبت ذلك فالسلب داخل على الكلية. والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئى لغة وتعقلا. ألا ترى أن القائل إذا قال: لا تنفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الاذن فى إنفاق البعض والنهى عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد ولو واحداً، وحينئذ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار وثبوتها لبعض الأبصار، وهذا عين مذهب أهل السنة، لأنهم يثبتونها للموحدين ويسلبونها عن الكفار كما أنبأ عنه قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فقد ثبت أن هذه الآية إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها، دليلا على ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعرف تعريف الجنس وبين عدم دخولها. ألا ترى أنهم يقولون إن قولنا: «الانسان كاتب» مهمل فى قوة الجزئية، وإن قولنا «كل إنسان حيوان» كلى لا جزئى، لأنا نقول إنما جارينا القدرية على مايلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام، ولكفونا مؤنة البحث فى ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملا، بل هذا هو الكلى عندهم والله الموفق. وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالى (إن الله لا يأمر بالفحشاء) والأخرى التى هى قوله تعالى (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) فلا ينازع الزمخشرى فى تمثيل المحكم والمتشابه بهما.

محتملات ﴿هنّ أمّ الكتاب﴾ أى أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وتردّ إليها ، ومثال ذلك (لا تدركه الأبصار) ، (إلى ربها ناظرة) ، (لا يأمر بالفحشاء) . (أمرنا مترفيها) . فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟ قلت : لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمّل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما فى المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتعابهم القرائح فى استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله ، ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض فى ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم ، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة فى إيقانه ﴿الذين فى قلوبهم زيغ﴾ هم أهل البدع ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذى يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿ابتغاء الفتنة﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم ﴿وابتغاء تأويله﴾ وطلب أن يأوّلوه التأويل الذى يشتهونه ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم﴾ أى لا يهتدى إلى تأويله الحق الذى يجب أن يحمل عليه إلا الله [1] وعباده الذين رسخوا فى العلم ، أى ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع . ومنهم من يقف على قوله إلا الله ، ويبتدئ والراسخون فى العلم يقولون . ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه ، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته ، كعدد الزبانية ونحوه : والأوّل هو الوجه . ويقولون : كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل ﴿يقولون آمنا به﴾ أى بالمتشابه ﴿كل من عند ربنا﴾ أى كل واحد منه ومن المحكم من عنده ، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذى لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمّل . ويجوز أن يكون

---

(١) قال محمود : معناه لا يهتدى إلى تأويله ... الخ ، قال أحمد رحمه الله : وقوله « لا يهتدى إليه إلا الله » عبارة قلقة ، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى ، مع أن فى هذه اللفظة إيهاما إذ الاهتداء لا يكون فى الاطلاق إلا عن جهل وضلال ـ جل الله وعز ـ حتى إن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه : فلان المهتدى ، ذلك مقتضى اللغة فيه فانه مطاوع هدى . يقال : هديته فاهتدى ، والاجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موهما لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل . ولذا أنكر على القاضى إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه . فلأن ينكر على الزمخشرى إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر . وما أراها صدرت منه إلا وهما حيث أضاف العلم إلى الله تعالى وإلى الراسخين فى العلم ، فأطلق الاهتداء على الراسخين ، أو ذهل عن كونه ذكرهم مضافين إلى الله تعالى فى الفعل المذكور والله أعلم .

(يقولون) حالا من الراسخين . وقرأ عبد الله : إن تأويله إلا عند الله . وقرأ أبىّ : ويقول الراسخون .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

﴿لا تزغ قلوبنا﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا [1] ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لدينك . أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا ﴿من لدنك رحمة﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة . وقرئ لا تزغ قلوبنا ، بالتاء والياء ورفع القلوب ﴿جامع الناس ليوم﴾ أى تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم ، كقوله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) : وقرئ : جامع النـاس ، على الأصل (إنّ الله لا يخلف الميعاد) معناه أنّ الإلهية تنافى خلف الميعاد كقولك : * إن الجواد لا يخيب سائله * والميعاد : الموعد . قرأ على رضى الله عنه . لن تغنى بسكون الياء ، وهذا من الجدّ فى استثقال الحركة على حروف اللين .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

(من) فى قوله ﴿من الله﴾ مثله فى قوله (وإنّ الظنّ لا يغنى من الحق شيئا) والمعنى : لن تغنى عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله ﴿شيئا﴾ أى بدل رحمته وطاعته وبدل الحق : ومنه « ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » أى لا ينفعه جدّه وحظه من الدنيا بدلك ، أى بدل طاعتك وعبادتك وما عندك

---

(١) قال محمود : « معناه ربنا لا تبلنا ببلايا . . . الخ » قال أحمد : أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحدون حق التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ مخلوق لله تعالى . وأما القدرية فعندهم أن الزيغ لا يخلقه الله تعالى وإنما يخلقه العبد لنفسه ، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف به ، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافا إلى هذه الدعوة بأن لا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه آمين ، لأن الكل فعله وخلقه ، ولا موجود إلا هو وأفعاله ، التي نحن وأفعالنا منها .

وفى معناه قوله تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) وقرئ: وقود، بالضم بمعنى أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا من كفر برسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير. الدأب: مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم. ويجوز أن ينتصب محل الكاف بلن تغنى، أو بالوقود. أى لن تغنى عنهم مثل مالم تغن عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كدأب أبيك تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإنّ فلانا لمحارف كدأب[1] أبيه، تريد كما حورف أبوه ﴿كذبوا بآياتنا﴾ تفسير لدأبهم مافعلوا وفعل بهم، على أنه جواب سؤال مقدّر عن حالهم ﴿قل للذين كفروا﴾ هم مشركو مكة ﴿ستغلبون﴾ يعنى يوم بدر. وقيل: هم اليهود. ولما غلب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر قالوا: هذا والله النبىّ الأمىّ الذى بشرنا به موسى، وهموا باتباعه، فقال بعضهم لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا. وقيل: جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر فى سوق بنى قينقاع فقال يامعشر اليهود احذروا مثل مانزل بقريش[2] وأسلموا قبل أن ينزل بكم مانزل بهم، فقد عرفتم أنى نبى مرسل، فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس. فنزلت وقرئ: سيغلبون ويحشرون، بالياء، كقوله تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم) على قل لهم قولى لك سيغلبون. فإن قلت: أى فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجرى عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم. فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذى يدل عليه اللفظ: ومعنى القراءة بالياء الأمر بأن يحكى لهم ماأخبره به من وعيدهم بلفظه، كأنه قال: أدّ إليهم هذا القول الذى هو قولى لك سيغلبون ويحشرون.

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾

(١) قوله «وإن فلانا لمحارف كدأب أبيه» فى الصحاح: رجل محارف ـ بفتح الراء ـ أى محدود محروم، وهو خلاف قولك: مبارك. (ع)

(٢) أخرجه أبو داود والطبرى، من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير، وعكرمة عن ابن عباس قال «لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود ـ الحديث»

﴿قد كان لكم آية﴾ الخطاب لمشركى قريش ﴿فى فئتين التقتا﴾ يوم بدر ﴿يرونهم مثليهم﴾ يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين [١] قريباً من ألفين. أو مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله كما أمدّهم بالملائكة. والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم، بالتاء أى ترون يامشركى قريش المسلمين مثلى فئتكم الكافرة، أو مثلى أنفسهم. فإن قلت: فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال (ويقللكم فى أعينهم). قلت: قللوا أوّلا فى أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين. ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى (فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ) وقوله تعالى (وقفوهم إنهم مسئولون) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم أبلغ فى القدرة وإظهار الآية. وقيل يرى المسلمون المشركين مثلى المسلمين [٢] على ماقرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين فى قوله تعالى (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة فى قوله تعالى (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ولذلك وصف ضعفهم [٣] بالقلة لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لاتساعد عليه. وقرأ ابن مصرف: يرونهم، على البناء للمفعول بالياء والتاء، أى يريهم الله ذلك بقدرته. وقرئ: فئة تقاتل وأخرى كافرة، بالجرّ على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص. أو على الحال من الضمير فى التقتا ﴿رأى العين﴾ يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لالبس فيها، معاينة كسائر المعاينات ﴿والله يؤيد بنصره﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدوّ.

---

(١) قال محمود: «معناه يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين ... الخ» قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدمة على رأى أهل السنة.

(٢) (عاد كلامه) قال: «وقيل يرى المسلمون المشركين مثلى المسلمين ... الخ» قال أحمد: إنما قال ذلك لأن الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أى ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين. وقد جاء على لفظ الغيبة فيلزم الخروج فى جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة والالتفات وإن كان سائغا فصيحاً، إلا أنه إنما يأتى فى الأغلب فى جملتين. وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة، لأن مثليهم مفعول ثان للرؤية، ولو قال القائل: ظننتك يقوم، على لفظ الغيبة بعد الخطاب، لم يكن بذاك، فهذا هو الوجه الذى اعد الزمخشرى به بين قراءة نافع وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفا، لأنه قال: معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلى عددهم أو مثلى فئتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثانى يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة فى الجملة بعينها، كما ألزمه هو على ذلك الوجه والله أعلم.

(٣) قوله «ولذلك وصف ضعفهم» لعل هذا فى قوله تعالى (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا) أى وصف ضعف المسلمين وهو الستمائة بالقلة، مع أن ضعف الشيء أكثر منه، فتدبر. (ع)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)

﴿زين للناس﴾ المزين هو الله سبحانه وتعالى[1] للابتلاء، كقوله (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس، على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان. والله زينها لهم، لأنا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها ﴿حب الشهوات﴾ جعل الأعيان التي ذكرها شهوات[2] مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها. والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، وقال (زين للناس حب الشهوات) ثم جاء بالتفسير، ليقرر أولا في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلّ على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله. والقنطار: المال الكثير. قيل: ملء مسك ثور. وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا.

---

(١) قال محمود: «المزين هو الله تعالى ... الخ» قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة، لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء، من جوهر، ومن عرض قائم بالجوهر، حب أو غيره. محمود في الشرع أولا. ويطلق التزيين ويراد به الحض على تعاطي الشهوات والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعا كالنكاح المقترن بقصد التناسل واتباع السنة فيه وما يجرى مجراه. وأما الشهوات المحظورة فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان، تنزيلا لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها. وكلام الحسن رضى الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، فانه يحاشى أن ينسب خلق الله إلى غير الله. وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسه تنزيلا لها على قواعد القدرية الفاسدة، فتفطن لها وبرىء قائلها من السلف الصالح عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(٢) (عاد كلامه) قال: «جعل الأعيان التي ذكرها شهوات ... الخ» قال أحمد: يريد إلحاقها بباب: رجل صوم وفطر، مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

و﴿المقنطرة﴾ مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة، وبدرة مبدرة. و﴿المسومة﴾ المعلمة، من السومة وهى العلامة. أو المطهمة أو المرعية من أسام الدابة وسومها ﴿والأنعام﴾ الأزواج الثمانية ﴿ذلك﴾ المذكور ﴿متاع الحياة﴾.

﴿الذين اتقوا عند ربهم جنات﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ماهو خير من ذلكم، كما تقول: هل أدلك على رجل عالم؟ عندى رجل من صفته كيت وكيت. ويجوز أن يتعلق اللام بخير. واختص المتقين، لأنهم هم المنتفعون به. وترتفع (جنات) على: هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ (جنات) بالجر على البدل من خير ﴿والله بصير بالعباد﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات

﴿الذين يقولون﴾ نصب على المدح، أو رفع. ويجوز الجر صفة للمتقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها. وقدم الكلام فى ذلك. وخص الأسحار لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وعن الحسن: كانوا يصلون فى أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم، وهذا ليلهم.

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٩)

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التى لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسى وغيرهما بشهادة الشاهد فى البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه ﴿قائماً بالقسط﴾ مقيما للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه كقوله (وهو الحق مصدقاً). فإن قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه؟ ولو قلت جاءنى زيد وعمرو راكباً لم يجز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز فى قوله (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أن انتصب نافلة حالا

(٣) قوله «أو المطهمة أو المرعية» عبارة أبى السعود. أو المطهمة التامة الخلق اهـ. وفى الفخر: قال القفال: المطهمة المرأة الجميلة المرتبة اهـ. (ع)

عن يعقوب . ولو قلت : جاءنى زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة ، أو على المدح . فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك : الحمد لله الحميد . «إنا معشر الأنبياء لا نورث»[1]. إنا بنى نهشل لا ندعى لأب ؟ قلت : قد جاء نكرة كما جاء معرفة . وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلى :

وَيَأْوِى إِلَى نِسْوَةٍ عُطَّـلٍ ... وَشُعْثًا مَرَاضِيعَ مِثْـلَ السَّعَالِى[2]

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يتسعون فى الفصل بين الصفة والموصوف . فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل شهد ، فهل يصح أن ينتصب حالا عن «هو» فى (لا إله إلا هو)؟ قلت : نعم ، لأنها حال مؤكدة والحال المؤكدة لا تستدعى أن يكون فى الجملة التى هى زيادة فى فائدتها عامل فيها ، كقولك : أنا عبد الله شجاعاً . وكذلك لو قلت : لا رجل إلا عبد الله شجاعاً . وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد ، وكذلك انتصابه على المدح . فإن قلت : هل دخل قيامه بالقسط فى حكم شهادة الله والملائكة وأولى العلم كما دخلت الوحدانية ؟ قلت : نعم إذا جعلته حالا من هو ، أو نصباً على المدح منه ، أو صفة للمنفى ، كأنه قيل : شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط . وقرأ عبد الله : القائم بالقسط ، على أنه بدل من هو، أو خبر مبتدإ محذوف . وقرأ أبو حنيفة : قيما بالقسط ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل ، يعنى أنه العزيز الذى لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذى لا يعدل عن العدل فى أفعاله . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل[3] والتوحيد . وقرئ (أنه) بالفتح ، و(إنّ الدين) بالكسر على أنّ الفعل واقع على أنه

(١) أخرجه أحمد ، حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا بهذا . ورواه النسائى فى الكبرى ، من رواية ابن عيينة عن الزهرى عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قال عمر لعبد الرحمن وسعد وعثمان وطلحة والزبير « أنشدكم بالله الذى قامت له السموات والأرض ، أسمعتم النبي صلى الله عليه وسلم يقول ـ فذكره ، وفيه قالوا : اللهم نعم » وأخرجه فى الكنى فى ترجمة أبى إدريس تلميذ أبى سليمان من رواية عن عبد الملك بن عمر عن أبى هريرة مثله . وأصله متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « لا نورث ما تركنا صدقة »

(٢) للهذلى يصف رجلا يصيد ويرجع إلى زوجته وبناته عطل عاريات من الحلى والثياب . وشعثا نصب على الذم ، أى وأذم شعثا أى مغبرات الوجوه من الجوع . والعطل : جمع عاطلة . والشعث . جمع شعثاء ، كسود وسوداء . ومراضيع : جمع مرضاع قياسا ، أو مرضع سماعا ، أى ترضع أولادها مثل السعالى جمع سعلاة وهى أنثى الشياطين ، أى كريهات المنظر مثل الأغوال . وهي أقبح شىء عند العرب .

(٣) قوله « والبراهين القاطعة وهم علماء العدل » تلميح بالمعتزلة حيث سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، لكن الانصاف التعميم حتى يشمل أهل السنة والجماعة . (ع)

بمعنى شهد الله على أنه ، أو بأنه . وقوله ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى . فإن قلت : مافائدة هذا التوكيد ؟ قلت : فائدته أن قوله (لاإله إلا هو) توحيد ، وقوله (قائما بالقسط) تعديل، فإذا أردفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد آذن أن الإسلام هو العدل [1] والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده فى شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو مايؤدى إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام ، وهذا بين جلى كما ترى . وقرئا مفتوحين ، على أن الثانى [2] بدل من الأول ، كأنه قيل : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ، والبدل هو المبدل منه فى المعنى ، فكان بيانا صريحاً ، لأن دين الله هو التوحيد والعدل . وقرئ الأول بالكسر والثانى بالفتح ، على أن الفعل واقع على إنّ [3] ، وما بينهما اعتراض مؤكد . وهذا أيضا شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد ، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك . وقرأ عبد الله : أن لا إله إلا هو . وقرأ أبىّ : إن الدين عند الله للإسلام ، وهى مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية . وقرئ : شهداء لله ، بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله ، وبالرفع على هم شهداء الله . فإن قلت : فعلام عطف على هذه القراءة (والملائكة وأولو العلم)؟ قلت : على الضمير فى شهداء ، وجاز لوقوع الفاصل بينهما . فإن قلت : لم كرر قوله (لا إله إلا هو)؟ [4] قلت : ذكره أولا للدلالة على اختصاصه بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا تلك الذات

---

(١) قوله « فقد آذن أن الاسلام هو العدل » تعسف لا يقتضيه النظم الكريم ، لكن دعى إليه التعصب . وقوله « وفيه أن من ذهب » الخ تورك على أهل السنة مبنى على ذلك ، وتحقيقه فى علم التوحيد . وبالجملة فالعدل والتوحيد لم ينحصرا فى مذهب المعتزلة . (ع)

(٢) قوله « وقرئا مفتوحتين على أن الثانى » الضمير عائد إلى قوله تعالى (أنه لا إله إلا هو) وقوله (إن الدين) اه . (ع)

(٣) قوله « واقع على إن » أى على إن الدين ... الخ . (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : « إن قلت ما فائدة تكرار لا إله إلا هو . . . الخ » ؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا التكرار لما قدمته فى نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده . وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله (قائما بالقسط) وهو التنزيه ، فطال الكلام بذلك ، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلى قوله (إن الدين عند الله الاسلام) ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به والله أعلم . قال : « وفيه أن من ذهب إلى تشبيه . . . الخ » . قال أحمد : هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الاسلام بل تصريح ، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون فى رؤيته ، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده فشهدوا أن لا اله إلا هو ولا خالق لهم ولا فعالهم إلا هو ، واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية ، وتلك المعبر عنها شرعا بالكسب فى مثل ==

المتميزة ، ثم ذكره ثانيا بعد ماقرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل ، للدلالة على اختصاصه بالأمرين ، كأنه قال: لاإله إلاهذا الموصوف بالصفتين ، ولذلك قرن بقوله (العزيز الحكيم) لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى. واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل[1] ﴿من بعد ماجاءهم العلم﴾ أنه الحق الذى لامحيد عنه ، فثلثت النصارى ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالوا : كنا أحق بأن تكون النبوّة فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل كتاب ، وهذا تجوير لله ﴿بغيا بينهم﴾ أى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلاحسداً بينهم وطلبا منهم للرياسة وحظوظ الدنيا ، واستتباع كل فريق ناسا يطئون أعقابهم ، لاشبهة فى الاسلام . وقيل : هو اختلافهم فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث آمن به بعض وكفر به بعض . وقيل : هو اختلافهم فى الإيمان بالأنبياء ، فمنهم من آمن بموسى ، ومنهم من آمن بعيسى . وقيل هم اليهود ، واختلافهم أن موسى عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بنى إسرائيل ، وجعلهم أمناء عليها ، واستخلف يوشع ، فلما مضى قرن بعد قرن واختلف أبناء السبعين بعد ماجاءهم علم التوراة بغيا بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة . وقيل : هم النصارى واختلافهم فى أمر عيسى بعد ماجاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

﴿فإن حاجوك﴾ فإن جادلوك فى الدين ﴿فقل أسلمت وجهى لله﴾ أى أخلصت نفسى وجملتى

= قوله تعالى (بما كسبت أيديكم) هذا إيمان القوم وتوحيدهم ، لا كقوم يغيرون فى وجه النصوص فيجحدون الرؤية التى يظهر أن جحدهم لها سبب فى حرمانهم إياها . ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله فى مخلوقاته ، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة ومعاندة لله فى ملكه ، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، والله أعلم بمن اتقى . والجبر خير من إشراك ، إن كان أهل السنة مجبرة وأنا أول المجبرين . ولو نظرت أيها الزمخشرى بعين الانصاف إلى جهالة القدرية وضلالها ، لا نبعثت إلى حدائق السنة وظلالها ، ولخرجت عن مزالق البدع ومزالها ، ولكن كره الله انبعاثهم ، ولعلمت أى الفريقين أحق بالأمن وأولى بالدخول فى أولى العلم المقرونين فى التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل . اللهم ألهمنا على اقتفاء السنة شكرك . ولا تؤمنا مكرك إنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فليس ينجى من الخوف إلا الخوف . والله ولى التوفيق .

(١) قوله « تركوا الاسلام وهو التوحيد والعدل » مبنى على ما قاله آنفا . (ع)

لله وحده لم أجعل فيها لغيره شركا بأن أعبده وأدعوه إلها معه ؛ يعنى أن دينى التوحيد وهو الدين القديم الذى ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندى، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلونى فيه . ونحوه (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) فهو دفع للمحاجة بأن ماهو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذى لا لبس فيه ؛ فما معنى المحاجة فيه ؟ ﴿ ومن اتبعن ﴾ عطف على التاء فى أسلمت وحسن للفاصل . ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ والأميين ﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ﴿ أأسلمتم ﴾ يعنى أنه قد أتاكم من البينات مايوجب الإسلام ويقتضى حصوله لامحالة ؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم ؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسئلة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك ، ومنه قوله عزّ وعلا (فهل أنتم منتهون) بعد ماذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفى هذا الاستفهام استقصار[1] وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاندة بعد تجلى الحجة مايضرب أسداداً بينه وبين الإذعان[2] ، وكذلك فى : هل فهمتها ؟ توبيخ بالبلادة وكلة القريحة . وفى (فهل أنتم منتهون) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطى المنهى عنه ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ فقد نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿ وإن تولوا ﴾ لم يضروك فإنك رسول منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)

قرأ الحسن : يقتلون النبيين . وقرأ حمزة : ويقاتلون الذين يأمرون . وقرأ عبد الله : وقاتلوا وقرأ أبىّ . يقتلون النبيين . والذين يأمرون . وهم أهل الكتاب . قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا ، وكانوا حول قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لولا عصمة الله . وعن أبى عبيدة بن الجراح : قلت يارسول الله ، أى الناس أشدّ عذابا يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبيا ؛ أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر » ثم قرأها ثم قال : « يا أبا عبيدة ، قتلت

(١) قوله « وفى هذا الاستفهام استقصار » أى عد المخاطب قاصراً . (ع)
(٢) قوله « يضرب أسداد بينه وبين الاذعان » لعله أسدادا ، أى حجبا . (ع)

بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار[1]. ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ لأنّ لهم اللعنة والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . فإن قلت : لم دخلت الفاء فى خبر إن ؟ قلت : لتضمن اسمها معنى الجزاء ، كأنه قيل : الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم ، و «إنّ» لاتغير معنى الابتداء ، فكأنّ دخولها كلادخول ، ولو كان مكانها «ليت» أو «لعل» لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ يريد أحبار اليهود ، وأنهم حصلوا نصيبا وافرا من التوراة . و «من» إما للتبعيض وإما للبيان ، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة أو من اللوح التوراة وهى نصيب عظيم ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد : على أى دين أنت ؟ قال : على ملة إبراهيم . قالا : إنّ إبراهيم كان يهوديا . قال لهما : إنّ بيننا وبينكم التوراة ، فهلموا إليها »[2] فأبيا . وقيل نزلت فى الرجم ، وقد اختلفوا فيه . وعن الحسن وقتادة : كتاب الله القرآن ؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب ﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لايزال الإعراض ديدنهم . وقرئ (ليحكم) على البناء للمفعول . والوجه أن يراد ماوقع من الاختلاف والتعادى بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم : وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذى لااختلاف بينهم فى صحته وهو التوراة ليحكم بين المحق والمبطل منهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا . وذلك أنّ قوله (ليحكم بينهم) يقتضى أن يكون اختلافا واقعا فيما بينهم ، لا فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البزار والطبرانى وابن أبى حاتم والثعلبى والبغوى من حديثه ، وفيه أبو الحسن مولى بنى أسد ، وهو مجهول .

(٢) أخرجه الطبرى من رواية إسحاق عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما به .

روى أنه يحاسب الخلق فى قدر حلب شاة : وروى فى مقدار فواق ناقة . وروى فى مقدار لمحة .

وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

الأيام المعدودات . أيام التشريق ، وذكر الله فيها : التكبير فى أدبار الصلوات وعند الجمار . وعن عمر رضى الله عنه : أنه كان يكبر فى فسطاطه بمنى فيكبر من حوله ، حتى يكبر الناس فى الطريق وفى الطواف ﴿ فمن تعجل ﴾ فمن عجل فى النفر أو استعجل النفر . وتعجل ، واستعجل : يجيئان مطاوعين بمعنى عجل . يقال : تعجل فى الأمر واستعجل : ومتعديين ، يقال : تعجل الذهاب واستعجله . والمطاوعة أوفق لقوله : (ومن تأخر) كما هى كذلك فى قوله :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ (١)

لأجل المتأنى ﴿ فى يومين ﴾ بعد يوم النحر يوم القر (٢) وهو اليوم الذى يسميه أهل مكة يوم الرؤس ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار كما يفعل الناس اليوم وهو مذهب الشافعى ويروى عن قتادة . وعند أبى حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر ﴿ ومن تأخر ﴾ حتى رمى فى اليوم الثالث . والرمى فى اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبى حنيفة . وعند الشافعى

---

(١) والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل
قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وربما فات قوم جل أمرهم من التأنى وكان الرأى لو عجلوا

للقطامى وقيل للأعشى . والناس مبتدأ . ومن يلق ـ يصب ـ خيراً ، شرط حذف صدر جوابه ، أى فهم قائلون له ، والجملة خبر المبتدأ . ما يشتهى ، أى الذى يريده من الدعاء بخير أو من المدح . وروى : ما تشتهى ، فلعل معناه يقولون له : ما تشتهيه أنت يامخاطب . ويجوز أن « ما » استفهامية ، أى ما الذى تريده يامن لقيت الخير ، لكن تبعده المقابلة . وهبلت المرأة هبلا ، كتعبت تعباً : ثكلت ولدها وفقدته فحزنت عليه . أى ويقال لأم المخطىء الثكل ، فهو دعاء عليها بموت ولدها . ثم قال :

قد يدرك المتمهل بعض قصده وقد يكون مع المتعجل الخطأ

وعجلته فتعجل واستعجل ، ويتعديان أيضاً فيقال : تعجل الأمر واستعجله . ثم قال : وقد يفوت قوما معظم قصدهم بسبب التأنى وكان الرأى الصواب عجلتهم ، فلو مصدرية . والمعنى أن بعض الحاجات يناسبها التمهل ، وبعضها التعجل . ويجوز أن « لو عجلوا » هو اسم كان والرأى بالنصب خبرها . وروى بدله الحزم ، والمعنى متقارب . وفى الكلام نوع بديعى يسمى العكس والتبديل ، وهو الاتيان بنقيض المعنى المشهور كما هنا ، فان مدح التأنى هو المشهور ، ومدح العجلة يناقضه . أفاده السيوطى فى شرح عقود الجمان .

(٢) قوله « يوم النحر يوم القر » فى الصحاح : لأن الناس يقرون فى منازلهم . (ع)

الآخران خاصان بعضان من الكل: روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟[1] هم أعز وأمنع من ذلك. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق[2] عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم، وكبر وكبر المسلمون وقال: أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لى قصور صنعاء، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمّتى ظاهرة على كلها، فأبشروا. فقال المنافقون: ألا تعجبون، يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزلت. فإن قلت: كيف قال ﴿بيدك الخير﴾ فذكر الخير دون الشر؟ قلت: لأنّ الكلام إنما وقع فى الخير الذى يسوقه إلى المؤمنين وهو الذى أنكرته الكفرة، فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار فى المعاقبة بينهما، وحال الحىّ والميت فى إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم وفى بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدى، فإن العباد أطاعونى جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن

---

(١) ذكره الواحدى فى أسبابه عن ابن عباس وأنس رضى الله عنهم، ولم أجد له إسناداً.

(٢) أخرجه البيهقى وأبو نعيم فى دلائل النبوة لهما؛ من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده. قال «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام الأحزاب، ثم قطع أربعين ذراعا بين كل عشرة» قال عمرو بن عوف، فكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة نفر من الأنصار فى أربعين ذراعا فذكره مطولا من هذا الوجه. ذكره الواحدى فى أسباب النزول والطبرى والثعلبى والبغوى. ورواه ابن سعد فى الطبقات فى ترجمة سلمان. قال: أخبرنا ابن أبى فديك عن كثير بن عبد الله به. وقال الواقدى فى المغازى: حدثنى عاصم ابن عبدالله الحكمى عن عمر بن الحكم قال «كان عمر بن الخطاب يومئذ يضرب بالمعول، إذ صادف حجراً أصلد فضرب ضربة ـ فذكره بنحوه» ورواه النسائى وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى كلهم من رواية ميمون أبى عبد الله عن البراء بن عازب رضى الله عنهما مختصرا وإسناده حسن.

توبوا إلىّ أعطفهم عليكم ، وهو معنى قوله عليه السلام « كما تكونوا يولى عليكم »[1].

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر ، وقد كرر ذلك في القرآن . (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) ، (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ، (لا تجد قوما يؤمنون بالله ... الآية) . والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان ﴿من دون المؤمنين﴾ يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ ومن يوالى الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية ، يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً ، وهذا أمر معقول فإنّ موالاة الولىّ وموالاة عدوّه متنافيان ، قال :

تَوَدُّ عَدُوِّى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكُ عَنْكَ بِعَازِبِ[2]

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه . وقرئ : تقية . قيل للمتقى تقاة وتقية ، كقولهم : ضرب الأمير لمضروبه . رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم ، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء ، وانتظار زوال المانع من قشر العصا . كقول عيسى صلوات الله عليه « كن وسطا وامش جانبا » ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ، وهذا وعيد شديد . ويجوز أن يضمن (تتقوا) معنى تحذروا وتخافوا ، فيعدى بمن وينتصب (تقاة) أو تقية على المصدر ، كقوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) .

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكرة ، وفي إسناده إلى مبارك مجاهيل .

(٢) تود عدوى ثم تزعم أنني صديقك ليس النوك عنك بعازب
فليس أخى من ودنى رأى عينه ولكن أخى من ودنى في المغايب

النوك : الحمق . والعازب : البعيد . يقول : إن الصديق من لا يصادق بغيض صديقه ، ومن يراعى الأخوة بظهر الغيب ، لا برأى العين . ويجوز أن تود على تقدير الاستفهام التوبيخي ، وأبرزه في صورة الخبر للتشنيع . ورأى عينه : نصب على الظرف أي حين رأى عينه : والمغايب : أزمان المغياب .

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَافِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

﴿ إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه ﴾ من ولاية الكفار أوغيرها مما لايرضى الله ﴿ يعلمه ﴾ ولم يخف عليه وهو الذى ﴿ يعلم مافى السموات ومافى الارض ﴾ لايخفى عليه منه شيء قط . فلا يخفى عليه سركم وعلنكم ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فهو قادر على عقوبتكم . وهذا بيان لقوله (ويحذركم الله نفسه) لأنّ نفسه وهى ذاته المميزة من سائر الذوات ، متصفة بعلم ذاتى لايختص بمعلوم دون معلوم ، فهى متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لاتختص بمقدور دون مقدور ، فهى قادرة على المقدورات كلها ، فكان حقها أن تحذروتتق فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب ، فإن ذلك مطلع عليه لامحالة فلاحق به العقاب ، ولوعلم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله ، فوكل همه بما يورد ويصدر ، ونصب عليه عيونا ، وبث من يتجسس عن بواطن أموره : لأخذ حذره وتيقظ فى أمره ، واتقى كل مايتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم أنّ العالم الذات[1] الذى يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن . اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

﴿ يوم تجد ﴾ منصوب بتودّ . والضمير فى بينه لليوم ، أى يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين ، تتمنى لوأنّ بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمداً بعيداً . ويجوزأن ينتصب (يوم تجد) بمضمر نحو : اذكر ، ويقع على ماعملت وحده[2] ، ويرتفع (وما عملت) على الابتداء ، و (تودّ) خبره ، أى : والذى عملته من سوء تودّ هى لو تباعد ما بينها وبينه . ولا يصح أن تكون ماشرطية لارتفاع تودّ . فإن قلت : فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله ودّت ؟ قلت : لاكلام فى صحته ، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع فى المعنى لأنه حكاية الكائن فى ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة . ويجوزأن يعطف (وماعملت) على (ماعملت) ويكون (تودّ) حالا ، أى يوم تجد عملها محضراً وادّة تباعد ما بينها وبين اليوم

---

(١) قوله « فما بال من علم أن العالم الذات » من اضافة الوصف الى مرفوعه كالحسن الوجه ، يعنى أن علمه بذاته ، لا اعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث ، وهذا عند المعتزلة . (ع)

(٢) قوله « ويقع على ما عملت وحده » أى يقع فعل الوجدان على ماعملت من خير وحده . (ع)

أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضراً) يعنى مكتوبا فى صحفهم يقرؤنه ونحوه (فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه). والأمد المسافة كقوله تعالى (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين) وكرّر قوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه ﴿والله رءوف بالعباد﴾ يعنى أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه. وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه. ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته، مرجوّ لسعة رحمته كقوله تعالى (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم).

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها. ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم. والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة ﴿فاتبعونى﴾ حتى يصحّ ما تدعونه من إرادة عبادته، يرض عنكم ويغفر لكم. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه. وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق [1] فلا تشك فى أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله. وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا أنه تصوّر فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المنىّ قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمق العامة على حواليه قد ملؤا أردانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرئ: تحبون. ويحببكم. ويحبكم، من حبه يحبه. قال:

أُحِبُّ أَبَا ثَرْوَانَ مِنْ حُبِّ تَمْرِهِ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّفْقَ بِالْجَارِ أَرْفَقُ

وَوَاللهِ لَوْلَا تَمْرُهُ مَا حَبَبْتُهُ ... وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُبَيْدٍ وَمُشْرِقِ [2]

---

(١) قوله «وينعر ويصعق» فى الصحاح: النعرة صوت فى الخيشوم. ويقال: ما كانت فتنة إلا نعر فيها فلان، أى نهض. (ع)

(٢) لغيلان بن شجاع النهشلي. يقول: أحب هذا الرجل من أجل حب تمره. ويروى: أبا مروان، وأعلم أن الرفق بالجار أرفق منه بغيره، أى أشد رفقاً، وأسند الرفق إلى نفسه مبالغة كجد جده. ويجوز أن المعنى أن الرفق بالجار

﴿فإن تولوا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكون مضارعاً بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة مايقول الرسول لهم.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

﴿آل إبراهيم﴾ إسمعيل وإسحق وأولادهما. و﴿آل عمران﴾ موسى وهرون[1] ابنا عمران ابن يصهر. وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة. و﴿ذرية﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران ﴿بعضها من بعض﴾ يعني أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض: موسى وهرون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من فاهث، وفاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحق. وكذلك عيسى ابن مريم

= أحق أو أكل منه بغيره. وأمالو قرئ «أوفق» بالواو فظاهر. وفيه استعطافاً لمروان، وطلب الرفق منه بالشاعر. واللغة الغالبة أحب الرباعي. وحبه يحبه بكسر فاء المضارع من باب ضرب نادر من جهة مجيئه ثلاثيا ومن جهة كسر فاء مضارعه. وقياس مضارع الثلاثي المضاعف المتعدى ضم فائه كيشد ويرد. وقد يجيء حب يحب من باب علم يعلم. ولا كان أدنى، أي أقرب إلى من عبيد ومشرق، وهما ابناه. وفي القافية الاقواء. وروى أبو العباس المبرد بدل الشطر الأخير: وكان عياض منه أدنى ومشرق، أي أقرب إلى من أبي مروان. وعليه فلا إقواء فيها.

(١) قال محمود رحمه الله «آل عمران موسى وهرون... الخ» قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني أن السورة تسمي آل عمران ولم تشرح قصة عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة. وأما موسى وهارون فلم يذكر قصتهما في هذه السورة، فدل ذلك على أن عمران المذكور ههنا هو أبو مريم والله أعلم.

بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود[1] بن ايشابن يهوذا بن يعقوب بن إسحق . وقد دخل فى آل إبراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل بعضها من بعض فى الدين، كقوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض). ﴿وَاللهُ سميع عليم﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء ، أو يعلم أنّ بعضهم من بعض فى الدين . أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها . و﴿إذ﴾ منصوب به. وقيل : بإضمار اذكر . وامرأة عمران هى امرأة عمران بن ماثان ، أم مريم البتول ، جدّة عيسى عليه السلام ، وهى حنة بنت فاقوذ . وقوله ﴿إذ قالت امرأت عمران﴾ على أثر قوله (وآل عمران) مما يرجح أنّ عمران هو عمران بن ماثان جدّ عيسى ، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرن بإبراهيم كثيراً فى الذكر . فإن قلت : كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون ، ولعمران بن ماثان مريم البتول ، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبى مريم التى هى أخت موسى وهرون ؟ قلت : كفى بكفالة زكريا دليلا على أنه عمران أبو البتول ، لأن زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا فى عصر واحد ، وقد تزوج زكريا بنته إيشاع أخت مريم فكان يحيى وعيسى ابنى خالة . روى أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت ، فبينا هى فى ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد وتمنته ، فقالت : اللهم إن لك علىّ نذراً شكراً إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم وهلك عمران وهى حامل ﴿محرراً﴾ معتقاً لخدمة بيت المقدس لايدَ لى عليه ولا أستخدمه ولا أشغله بشىء ، وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم . وروى أنهم كانوا ينذرون هذا النذر ، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل . وعن الشعبى (محرراً) مخلصاً للعبادة ، وما كان التحرير إلا للغلمان ، وإنما بنت الأمر على التقدير ، أو طلبت أن ترزق ذكراً ﴿فلما وضعتها﴾ الضمير لما فى بطنى[2] ، وإنما أنث على المعنى لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله ، أو على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة . فإن قلت : كيف جاز انتصاب ﴿أنثى﴾ حالا من الضمير فى وضعتها وهو كقولك وضعت الأنثى أنثى ؟ قلت : الأصل : وضعته أنثى . وإنما أنث لتأنيث الحال ؛ لأن الحال وذا الحال لشىء واحد ، كما أنث الاسم فى ما كانت أمك لتأنيث الخبر . ونظيره قوله تعالى (فإن كانتا اثنتين) وأما على تأويل الحبلة أو النسمة فهو ظاهر ، كأنه قيل : إنى وضعت الحبلة أو النسمة

---

(١) قوله «ابن ماثان بن سليمان بن داود» قوله : ابن سليمان ، أى من نسله . وقوله : ابن يهوذا ، أى من نسله ، كما صرح به الفخر الرازى . وذكر أبو السعود بين ماثان وسليمان نحو خمسة عشر جداً ، وبين إيشا ويهوذا تسعة جدود . (ع)

(٢) قال محمود : «الضمير عائد إلى ما فى بطنى ... الخ» قال أحمد : الضمير فى قوله «وضعتها» يتناول إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة ، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة وتلك الجهة كونها شيئا وضع لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها . وقد مر هذا البحث بعينه عند قوله تعالى (فان لم يكونا رجلين) .

أنثى . فإن قلت : فلم قالت : إنى وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول ؟ قلت : قالته تحسراً [١] على مارأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها . فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ، ولذلك نذرته محرراً للسدانة . ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ماوهب لها منه . ومعناه : والله أعلم بالشيء الذى وضعت وما علق به من عظائم الأمور ، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهى جاهلة بذلك لاتعلم منه شيئا . فلذلك تحسرت . وفى قراءة ابن عباس : (والله أعلم بما وضعت) على خطاب الله تعالى لها أى أنك لاتعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلوّ قدره . وقرئ : وضعت . بمعنى : ولعلّ لله تعالى فيه سراً وحكمة ، ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ ؟ قلت : هو بيان لما فى قوله (والله أعلم بما وضعت) من التعظيم للموضوع والرفع منه ، ومعناه : وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وهبت لها ، واللام فيهما للعهد . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وإنى سميتها مريم ﴾ ؟ قلت : هو عطف على إنى وضعتها أنثى ، وما بينهما جملتان معترضتان ، كقوله تعالى : وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . فإن قلت : فلم ذكرت تسميتها مريم لربها ؟ قلت : لأن مريم فى لغتهم بمعنى العابدة [٢] ، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يصدق فيها ظنها بها . ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه . وما يروى من الحديث . مامن مولود يولد

---

(١) (عاد كلامه) قال : « وإنما أرادت بقولها : وضعتها أنثى التحسر والتأسف . . . الخ » قال أحمد : هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى لا حكاية عنها . وقد ذكر أهل التفسير تأويلا آخر ، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاه الله تعالى عنها ، أعنى قوله (وليس الذكر كالأنثى) ويرشد إليه عطف كلامها عليه وهو قوله (وانى سميتها مريم ... الخ) ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون : وليست الأنثى كالذكر ، فان مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر ، والعادة فى مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس ، وقد وجد الأمر فى ذلك مختلفاً فلم يثبت لى عين ما قالوه . ألا ترى إلى قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) فنفى عن الكامل شبه الناقص ، مع أن الكمال لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء . وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران والله أعلم . ومنه أيضا (أفمن يخلق كمن لا يخلق) .

(٢) (عاد كلامه) قال : « وفائدة قولها (وانى سميتها مريم) أن مريم فى لغتهم العابدة ... الخ » قال أحمد : أما الحديث فمذكور فى الصحاح متفق على صحته ، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله جنوحا إلى اعتزال منتزع فى فلسفة منتزعة فى إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض . وقد قدمت عند قوله تعالى (لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) ما فيه كفاية ، وما أرى الشيطان إلا طعن فى خواصر القدرية حتى بقرها ، ووكر فى قلوبهم حتى حمل الزمخشرى وأمثاله أن يقول فى كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل ، كما قال فى هذا الحديث ، ثم نظره بتخييل ابن الرومى فى شعره ، جراءة وسوء أدب . ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجبا أن تجتنب ، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلا . وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل .

إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها»[1] فالله أعلم بصحته . فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان فى صفتهما كقوله تعالى(لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويه ، ونحوه من التخييل قول ابن الرومى :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ[2]

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا مما يبلونا به من نخسه ﴿فتقبلها ربها﴾ فرضى بها فى النذر مكان الذكر﴿ بقبول حسن﴾فيه وجهان : أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشىء كالسعوط واللدود ، لما يسعط به ويلد ، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر فى النذر ، ولم يقبل قبلها أنثى فى ذلك ، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . وروى أن حنة حين ولدت مريم ، لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون ، وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها[3]. فقالوا : لا حتى نقترع عليها ، فانطلقوا ـ وكانوا سبعة وعشرين ـ إلى نهر ، فألقوا فيه أقلامهم ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتكفلها . والثانى : أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى : فتقبلها بذى قبول حسن،

---

(١) قال المصنف : الله أعلم بصحته هكذا قال . والحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة فى آخره : قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

(٢)
لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد

لابن الرومى ، يقول : إن بكاء الطفل حين ولادته لأجل ما تشعر به الدنيا من حوادثها فقط ، وإن لا يكن بكاؤه لذلك ، فأى شىء منها يبكيه ، أو فأى شىء يبكيه منها ، وإنها أى الدنيا . وروى : وإنه ، أى الطفل لأفسح موضعا مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه . وعوده على ما يبكيه بعيد ، أو غير سديد . ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المعلوم من المقام ، ثم قال : إذا أبصرها صرخ ، كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله .

(٣) قوله « أنا أحق بها عندى خالتها » قوله خالتها : يعنى زوجته إيشاع أخت حنة لكن تقدم أنها أخت مريم وقال صلى الله عليه وسلم فى يحيى وعيسى هما ابنا خالة وفى أبى السعود قيل فى تأويل ذلك أن الأخت كثيراً ما تطلق على بنت الأخت فجرى الحديث على ذلك وقيل إن إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب بأن نكح عمران أم حنة فولدت إيشاع ثم نكح حنة ربيبته فولدت مريم بناء على حل نكاح الربائب عندهم . (ع)

أى بأمر ذى قبول حسن وهو الاختصاص . ويجوز أن يكون معنى (فتقبلها) فاستقبلها ، كقولك : تعجله بمعنى استعجله ، وتقصاه بمعنى استقصاه ، وهو كثير فى كلامهم ، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوّله وعنفوانه . قال القطامى :

وَخَيْرُ الأَمْرِ مَا ٱسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا [(١)]

ومنه المثل خذ الأمر بقوابله . أى فأخذها فى أوّل أمرها حين ولدت بقبول حسن ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها . وقرئ : وكفلها زكرياء ، بوزن وعملها ﴿وكفلها زكريا﴾ بتشديد الفاء ونصب زكرياء ،[(٢)] الفعل لله تعالى بمعنى : وضمها إليه وجعله كافلا لها وضامناً لمصالحها . ويؤيدها قراءة أبىّ : وأكفلها ، من قوله تعالى (فقال أكفلنيها) وقرأ مجاهد : فتقبلها ربها ، وأنبتها ، وكفلها . على لفظ الأمر فى الأفعال الثلاثة، ونصب ربها ، تدعو بذلك ، أى فاقبلها يا ربها وربها ، واجعل زكريا كافلا لها . قيل بنى لها زكريا محرابا فى المسجد ، أى غرفة يصعد إليها بسلم . وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدّمها ، كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس . وقيل : كانت مساجدهم تسمى المحاريب . وروى أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده ، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿وجد عندها رزقا﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع ثديا قط ، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء ﴿أنى لك هذا﴾ من أين لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت فى غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك ؟ ﴿قالت هو من عند الله﴾ فلا تستبعد . قيل تكلمت وهى صغيرة كما تكلم عيسى وهو فى المهد . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه جاع فى زمن قحط [(٣)] فأهدت له فاطمة رضى الله عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها ، فرجع بها إليها وقال : هلمى يا بنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : أنى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فقال عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذى

---

(١) يقول : خير الأمور هو الذى تستقبله وتنتظره فتأخذه أول إتيانه ، وليس خيرها ما تصبر عنه حتى يفوتك ويمضى ثم تتبعه وتذهب وراءه لتدركه ، فالباء زائدة فى خبر ليس ، وهو على تقدير مضاف ، أى ذى التتبع . وتتبعه : أصله تتتبعه حذفت منه تاء المضارعة أو تاء التفعل أو التاء التى هى فاء الفعل وهو أولاها ، لأن كل من الأوليين جاء لمعنى . وقال الجوهرى : وضع الاتباع موضع التتبع اه ، فهو اسم مصدر ، أو مصدر حذف منه بعض الزوائد . والتفعل أبلغ من الافتعال ، فيتعين إرادته هنا لأنه مؤكد .

(٢) قوله «ونصب زكريا الفعل لله تعالى» لعله والفعل . (ع)

(٣) رواه أبو يعلى من حديث جابر ، وهو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عنه . والمتن ظاهر النكارة .

جمالك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل ، ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته ، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو ، فأوسعت فاطمة على جيرانها . ﴿إن الله يرزق﴾ من جملة كلام مريم عليها السلام ، أو من كلام رب العزة عز من قائل ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير لكثرته ، أو تفضلا بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

﴿هنالك﴾ فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت ، فقد يستعار هنا [1] وثم وحيث للزمان . لما رأى حال مريم فى كرامتها على الله ومنزلتها ، رغب فى أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد أختها حنة فى النجابة والكرامة على الله ، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك . وقيل لما رأى الفاكهة فى غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿ذرية﴾ ولداً . والذرية يقع على الواحد والجمع ﴿سميع الدعاء﴾ مجيبه . قرئ : فناداه الملائكة . وقيل : ناداه جبريل عليه السلام ، وإنما قيل الملائكة على قولهم : فلان يركب الخيل ﴿أن الله يبشرك﴾ بالفتح على بأن الله ، وبالكسر على إرادة القول . أو لأن النداء نوع من القول . وقرئ : يبشرك ، ويبشرك ، من بشره وأبشره . ويبشرك [2] ، بفتح الياء من بشره . ويحيى إن كان أعجمياً وهو الظاهر فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى ، وإن كان عربياً فللتعريف

---

(١) قال محمود : فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان ... الخ » قال أحمد : لا يليق بالنبى أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر على مشاهدة مثله ، فان العقل يقضى بجواز ذلك فى قدرة الله تعالى وإن لم يقع نظيره . وأحسن من هذه العبارة وأسلم أن يقال : لما شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم امتد أمله إلى حادث يناسبه كرامة له ، والله أعلم .

(٢) قوله « ويبشرك » لعل هذه بدون ضمير الخطاب ، وإن كانت السابقة من بشره بفتح الباء أيضاً . (ع)

ووزن الفعل كيعمر ﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ مصدقا بعيسى مؤمناً به . قيل هو أوّل من آمن به ، وسمى عيسى «كلمة» لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها ، وهى قوله (كن) من غير سبب آخر. وقيل : مصدّقا بكلمة من الله ، مؤمناً بكتاب منه . وسمى الكتاب كلمة ، كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته . والسيد : الذى يسود قومه ، أى يفوقهم فى الشرف . وكان يحيى فائقا لقومه وفائقا للناس كلهم فى أنه لم يركب سيئة قط ، ويالها من سيادة . والحصور : الذى لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعا لها من الشهوات . وقيل هو الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر. قال الأخطل:

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالْكَأْسِ نَادَمَنِي ... لَا بِالْحَصُورِ وَلَا فِيهَا بِسَآَّرِ (١)

فاستعير لمن لا يدخل فى اللعب واللهو . وقد روى أنه مرّ وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت ﴿من الصالحين﴾ ناشئا من الصالحين ، لأنه كان من أصلاب الأنبياء ، أو كائنا من جملة الصالحين كقوله (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) . ﴿أنى يكون لى غلام﴾ استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم ﴿وقد بلغنى الكبر﴾ كقولهم : أدركته السنّ العالية . والمعنى أثّر فىّ الكبر فأضعفنى ، وكانت له تسع وتسعون سنة ، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿كذلك﴾ أى يفعل الله مايشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو خلق الولد بين الشيخ الفانى والعجوز العاقر ، أو كذلك الله مبتدأ وخبر ، أى على نحو هذه الصفة الله ، ويفعل مايشاء بيان له ، أى يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات ﴿آية﴾ علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر ﴿قال آيتك أن لا﴾ تقدر على تكليم الناس ﴿ثلاثة أيام﴾ وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة ، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولذلك قال (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشىّ والإبكار) يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس ، وهى من الآيات الباهرة . فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس ؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره ، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة ،

---

(١) للأخطل ، يقول : رب شارب مشتر للخمر بالثمن الربيح الزائد ، نادمنى بالكأس . ويجوز تعلقه بما قبله ، ليس حصورا مانعا نفسه من الدخول على القوم فى لعب الميسر ، ولا سآر على صيغة «فعال» للمبالغة ، أى مبقيا فى الكأس سؤرا ، أى بقية ، من أسأر إذا أبق ، وهو شاذ كجبار من أجبر . ويروى بسوار من السورة وهى الوثبة والعربدة ، فى سببية ، أى ولا متغير العقل بسببها ، ولا عاطفة على مربح ، والثانية توكيد ، والباء زائدة بعد كل ، ونادمنى خبر ، فيجوز الرجوع إلى الوصف بعد الاخبار .

وشكرها الذى طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك [1] إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال. ومنتزعا منه ﴿إلا رمزا﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرك. يقال ارتمز: إذا تحرك. ومنه قيل للبحر الراموز. وقرأ يحيى بن وثاب (إلا رمزا) بضمتين، جمع رموز كرسول ورسل. وقرئ (رمزا) بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم، وهو حال منه ومن الناس دفعة كقوله:

مَتَى مَا تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ رَوَانِفُ إِلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا [2]

بمعنى إلا مترامزين، كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشى: من حين زوال الشمس إلى أن تغيب. و﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى. وقرئ: والأبكار، بفتح الهمزة جمع بكر، كسحر وأسحار. يقال: أتيته بكرا بفتحتين. فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام؛ فكيف استثنى منه؟ قلت: لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمى كلاما. ويجوز أن يكون استثناء منقطعا.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

﴿يامريم﴾ روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا أو إرهاصا لنبوّة عيسى ﴿اصطفاك﴾

---

(١) قوله «أن تحبس لسانك» لعله: يحبس. (ع)

(٢)
أحولى تنفض استك مذرويها ... لتقتلنى فها أنا ذا عمارا
متى ما تلقنى فردين ترجف ... روانف إليتيك وتستطارا
وسيفى صارم قبضت عليه ... أصابع لاترى فيها انتشارا

لعنترة يخاطب عمارة بن زياد العبسى، لما قال لقومه: ليتنى لقيته فأرحتكم منه وأعلمتكم أنه عبد. والاست: الدبر، وهى فاعل. ومذرويها: مفعول، وكان قياسه: مذريان بالياء لأنه مقصور زائد على ثلاثة أحرف، وقياس تثنيته كذلك، فمجيئه بالواو شاذ، وسهله أن تثنيته تقديرية لأنه لم يسمع له مفرد. وحكى عن أبى عمرو «مذرى» مفردا، فيكون مثنى حقيقة، وبه قيل. وحكى عن أبى عبيدة مذرى مفردا، ومذريان مثنى بالياء على القياس، وإن نصب الاست كان مفعولا، ومذرويها بدلا منه. والمذروان بالكسر فرعا الاليتين وقرنا الرأس. يقال: جاء ينفض مذرويه يختال ويتبختر، وقوس هتافة المذروين، وهما موقعا الوتر من أعلى وأسفل. أى رنانتهما، وها أنا ذا أصله أنا هذا، فقدمت الهاء مبادرة إلى التنبيه، ثم قال: متى تلاقى حال كوننا منفردين عن غيرنا، تخف منى فترتعد أطراف أليتيك، فارتعادها كناية عن الخوف. وتستطارا مؤكد بالنون الخفيفة المنقلبة ألفا، والفاعل ضمير المخاطب كأن الخوف يطيره. ويجوز أن الضمير للروانف، أى تنتفض وتنتشر كالطائر. ويروى: روادف، والمراد واحد.

اولا حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية ﴿وطهرك﴾ مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود ﴿واصطفاك﴾ آخرا ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب؛ ولم يكن ذلك لأحد من النساء. أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيآت الصلاة وأركانها: ثم قيل لها ﴿واركعى مع الراكعين﴾ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة؛ أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم. ويحتمل أن يكون فى زمانها من كان يقوم ويسجد فى صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ماسبق من نبإ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعنى أن ذلك من الغيوب التى لم تعرفها إلا بالوحى. فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفى استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلوما عندهم علما يقينا أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحى، فلم يبق إلا المشاهدة وهى فى غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه (وما كنت بجانب الغربى). (وما كنت بجانب الطور)، (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم) ﴿أقلامهم﴾ أزلامهم وهى قداحهم التى طرحوها فى النهر مقترعين. وقيل: هى الأقلام التى كانوا يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركا بها ﴿إذ يختصمون﴾ فى شأنها تنافسا فى التكفل بها. فإن قلت: (ايهم يكفل) بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

﴿ المسيح ﴾ لقب من الألقاب المشرفة ، كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ، ومعناه المبارك ، كقوله (وجعلنى مباركا أينما كنت) وكذلك (عيسى) معرب من أيشوع ، ومشتقهما من المسح والعيس ، كالراقم فى الماء . فإن قلت : (إذ قالت) بم يتعلق ؟ قلت : هو بدل من (وإذ قالت الملائكة) ويجوز أن يبدل من (إذ يختصمون) على أن الاختصام والبشارة وقعا فى زمان واسع ، كما تقول : لقيته سنة كذا . فإن قلت : لم قيل : عيسى ابن مريم والخطاب لمريم [1] ؟ قلت : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين . فإن قلت : لم ذكر ضمير الكلمة ؟ قلت لأن المسمى بها مذكر . فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم [2] ، وهذه ثلاثة أشياء : الاسم منها عيسى ، وأما المسيح والابن فلقب وصفة ؟ قلت : الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره ، فكأنه قيل : الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة

(١) قال محمود : «وإن قلت لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم ... الخ » قال أحمد : ويحقق هذا الجواب قولها (أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) فانه لم يتقدم فى وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب ، إلا أنه لما نسبه إليها دل على أنها فهمت من ذلك كونه من غير أب ، والله أعلم .

(٢) (عاد كلامه) قال : «فإن قلت لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم ... الخ » قال أحمد : وفى هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه فيقولون : المسيح فى الآية إن أريد به التسمية وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم ؟ والتسمية لا توصف بالنبوة ، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتئم مع قوله اسمه ؟ ويجاب عن الاشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه ، والمراد التسمية ، وأما عيسى ابن مريم فخبر مبتدإ محذوف تقديره : هو عيسى ابن مريم ، ويكون الضمير عائدا إلى المسمى بالتسمية المذكورة ، منقطعاً عن قول المسيح . والذى قرره الزمخشرى لا يرد عليه هذا الاشكال ، وهو حسن جداً ، والله أعلم .

﴿ وجيها ﴾ حال من (كلمة) وكذلك قوله : ومن المقربين ، ويكلم ، ومن الصالحين . أى يبشرك به موصوفا بهذه الصفات . وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة . والوجاهة فى الدنيا : النبوّة والتقدم على الناس . وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة فى الجنة . وكونه ﴿ من المقربين ﴾ رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة . والمهد : مايمهد للصبى من مضجعه ، سمى بالمصدر . و﴿ فى المهد ﴾ فى محل النصب على الحال ﴿ وكهلا ﴾ عطف عليه بمعنى : ويكلم الناس طفلا وكهلا. ومعناه : يكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الأنبياء ، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التى يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء . ومن بدع التفاسير أن قولها ﴿ رب ﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى ياسيدى ﴿ ونعلمه ﴾ عطف على يبشرك ، أو على وجيها أو على يخلق ، أو هو كلام مبتدأ . وقرأ عاصم ونافع : ويعلمه ، بالياء . فإن قلت : علام تحمل : ورسولا ، ومصدقا ، من المنصوبات المتقدمة ، وقوله (أنى قد جئتكم) و (لما بين يدىّ) يأبى حمله عليها ؟ قلت : هو من المضائق ، وفيه وجهان : أحدهما أن يضمر له «وأرسلت» على إرادة القول ، تقديره : ونعلمه الكتاب والحكمة . ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم . ومصدقا لما بين يدى . والثانى أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق ، فكأنه قيل : وناطقا بأنى قد جئتكم ، وناطقا بأنى أصدق ما بين يدى وقرأ اليزيدى : ورسول : عطفاً على كلمة ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ أصله أرسلت بأنى قد جئتكم ، فحذف الجار وانتصب بالفعل ، و ﴿ أنى أخلق ﴾ نصب بدل من ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ أو جرّ بدل من آية ، أو رفع على : هى أنى أخلق لكم ، وقرئ : إنى ، بالكسر على الاستئناف ، أى أقدر لكم شيئا مثل صورة الطير ﴿ فأنفخ فيه ﴾ الضمير للكاف ، أى فى ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿ فيكون طيراً ﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً . وقرأ عبد الله : فأنفخها . قال :

* كَالْهِبْرِقِىِّ تَنَحَّى يَنْفُخُ الْفَحَمَا * (١)

وقيل : لم يخلق غير الخفاش ﴿ الأكمه ﴾ الذى ولد أعمى ، وقيل هو الممسوح العين . ويقال : لم يكن فى هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسى صاحب التفسير . وروى أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفا من المرضى ، من أطاق منهم أتاه ، ومن لم يطق أتاه عيسى ، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده . وكرر ﴿ بإذن الله ﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية . وروى أنه أحيا

---

(١) مولى الريح قرنيه وجبهته كالهبرقى تنحى ينفخ الفحما
للنابغة . يصف ثوراً وحشياً موجها قرنيه وجبهته إلى الريح ، فهو مستقبلها برأسه وينفخ فى مقابلتها بفمه ، فيسمع له صوت ، فهو كالهبرقى ـ وزان جعفرى وزبرجى ـ وهو الحداد والصائغ . ويروى : كالحرقى ، أى الحداد ، نسبة لحرق النار ، شبهه به حال كونه انحاز إلى ناحية ينفخ الفحم المتقد بالنار ، فينفخ : حال متداخلة .

سام بن نوح وهم ينظرون ، فقالوا هذا سحر فأرنا آية : فقال يافلان أكلت كذا ، ويافلان خبئ لك كذا . وقرئ تذخرون ، بالذال والتخفيف ﴿ولأحل﴾ ردّ على قوله (بآية من ربكم) ، أى جئتكم بآية من ربكم ، ولأحل لكم ويجوز أن يكون (مصدّقا) مردودا عليه أيضا ، أى جئتكم بآية وجئتكم مصدقا . وماحرم الله عليهم فى شريعة موسى : الشحوم والثروب [1] ولحوم الإبل ، والسمك ، وكل ذى ظفر ، فأحل لهم عيسى بعض ذلك . قيل : أحل لهم من السمك والطير مالاصيصية [2] له . واختلفوا فى إحلاله لهم السبت . وقرئ (حرم عليكم) على تسمية الفاعل ، وهو مابين يدىّ من التوراة ، أو الله عزّ وجلّ ، أو موسى عليه السلام ؛ لأن ذكر التوراة دل عليه ، ولأنه كان معلوما عندهم . وقرئ : حرم ، بوزن كرم ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ شاهدة على صحة رسالتى وهى قوله ﴿إنّ الله ربى وربكم﴾ لأنّ جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه : وقرئ بالفتح على البدل من (آية) . وقوله ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ اعتراض ، فإن قلت : كيف جعل هذا القول آية من ربه ؟ قلت لأنّ الله تعالى جعله له علامة يعرف منها أنه رسول كسائر الرسل ، حيث هداه للنظر فى أدلة العقل والاستدلال . ويجوز أن يكون تكريراً لقوله (جئتكم بآية من ربكم) أى جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم ، من خلق الطير ، والإبراء ، والإحياء ، والإنباء بالخفايا ، وبغيره من ولادتى بغير أب ، ومن كلامى فى المهد ، ومن سائر ذلك . وقرأ عبد الله . وجئتكم بآيات من ربكم ، فاتقوا الله لما جئتكم به من الآيات ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه . ثم ابتدأ فقال : إن الله ربى وربكم . ومعنى قراءة من فتح : ولأنّ الله ربى وربكم فاعبدوه ، كقوله (لإيلاف قريش . . . . . . فليعبدوا) ويجوز أن يكون المعنى : وجئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وما بينهما اعتراض .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

﴿فلما أحس﴾ فلما علم منهم ﴿الكفر﴾ علما لاشبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس . و﴿إلى

(١) قوله « الثروب » الشحوم الرقيقة التى تغشى الكرش والأمعاء . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « ما لا صيصية له » الصيصية شوكة كالتى فى رجل الديك . أفاده الصحاح . (ع)

الله﴾ من صلة أنصارى مضمنا معنى الإضافة ، كأنه قيل : من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ، ينصرونني كما ينصرني ، أو يتعلق بمحذوف حالا من الياء ، أى من أنصارى ، ذاهبا إلى الله ملتجئا إليه ﴿نحن أنصار الله﴾ أى أنصار دينه ورسوله . وحوارىّ الرجل : صفوته وخالصته . ومنه قيل للحضريات الحواريات ، لخلوص ألوانهن ونظافتهن . قال :

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا ... وَلاَ تَبْكِنَا إلّا الْكِلاَبُ النَّوَابِحُ [1]

وفى وزنه الحوالى ، وهو الكثير الحيلة . وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم ، لأنّ الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم ﴿مع الشاهدين﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية . وقيل : مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم شهداء على الناس ﴿ومكروا﴾ الواو لكفار بنى إسرائيل الذين أحس منهم الكفر ، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة ﴿ومكر الله﴾ أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل ﴿والله خير الماكرين﴾ أقواهم مكراً وأنفذهم كيدا وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

﴿إذ قال الله﴾ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله ﴿إنى متوفيك﴾ أى مستوفى أجلك . معناه : إنى عاصمك [2] من أن يقتلك الكفار ؛ ومؤخرك إلى أجل كتبته لك . ومميتك حتف أنفك لا قتيلا بأيديهم ﴿ورافعك إلىّ﴾ إلى سمائى ومقر ملائكتى ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم . وقيل متوفيك : قابضك من الأرض ، من توفيت مالى على

(١) لليشكرى ، يقول : فقل للنساء الحضريات الصافيات البياض يبكين غيرنا ، كناية عن أنه ليس من أهل التنعم ، ثم نهى عن أن يبكيهم أحد إلا الكلاب التى تساق معهم للصيد ، أو التى جرت عادتها بأكل قتلاهم فى الحرب أو التى تنبحهم إذا أقبلوا على أصحابها ، كناية عن أنه من أهل البدو والغزو .

(٢) قوله « أى مستوفى أجلك ومعناه إنى عاصمك » مبنى على أن القتيل يموت قبل استيفاء أجله ، وهو مذهب المعتزلة . (ع)

فلان إذا استوفيته : وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن : وقيل : متوفى نفسك بالنوم من قوله (والتى لم تمت فى منامها) ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف ، وتستيقظ وأنت فى السماء آمن مقرب ﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يعلونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف ، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى ﴿فأحكم بينكم﴾ تفسير الحكم قوله ﴿فأعذبهم ... فنوفيهم أجورهم﴾[1] وقرئ فيوفيهم بالياء .

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبإ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره (نتلوه) و (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدإ محذوف . ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذى ، ونتلوه صلته . ومن الآيات الخبر : ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر تفسيره نتلوه ﴿والذكر الحكيم﴾ القرآن ، وصف بصفة من هو سببه ، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

﴿إنّ مثل عيسى﴾ إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم . وقوله ﴿خلقه من تراب﴾ جملة مفسرة لما له شبه[2] عيسى بآدم أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم ، وكذلك حال عيسى . فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ، ووجد آدم من غير أب وأم ؟ قلت : هو مثيله فى إحدى الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به ، لأنّ المماثلة مشاركة فى بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة ، وهما فى ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب : ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه . وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم : لِمَ تعبدون عيسى ، قالوا : لأنه لا أب له . قال . فآدم أولى لأنه لا أبوين له . قالوا : كان يحيي الموتى . قال : فحزقيل أولى ، لأن عيسى أحيا أربعة نفر ، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف . قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص . قال : فجرجيس أولى ، لأنه طبخ وأحرق

---

(٢) قوله « فأعذبهم فنوفيهم » هذا فى الذين كفروا . وقوله : فنوفيهم ... الخ ، فى الذين آمنوا . (ع)

(٣) قوله « لما له شبه » أى للأمر الذى لأجله كان ذلك التشبيه . (ع)

ثم قام سالما . ﴿خلقه من تراب﴾ قدره جسداً من طين ﴿ثم قال له كن﴾ أى أنشأه بشراً كقوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) . ﴿فيكون﴾ حكاية حال ماضية .

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿الحق من ربك﴾ خبر مبتدإ محذوف ، أى هو الحق كقول أهل خيبر : محمد والخميس[١] . ونهيه عن الامتراء ـ وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممتريا ـ من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة ، وأن يكون لطفا لغيره .

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

﴿فمن حاجك﴾ من النصارى ﴿فيه﴾ فى عيسى ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أى من البينات الموجبة للعلم ﴿تعالوا﴾ هلموا . والمراد المجىء بالرأى والعزم ، كما تقول تعال نفكر فى هذه المسألة ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ أى يدع كل منى ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة ﴿ثم نبتهل﴾ ثم نتباهل بأن نقول بهلة الله على الكاذب منا ومنكم . والبهلة بالفتح ، والضم : اللعنة . وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته من قولك « أبهله » إذا أهمله . وناقة باهل : لاصرار عليها[٢] وأصل الابتهال هذا ، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا . وروى « أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا : حتى نرجع وننظر ، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم : ياعبد المسيح ، ماترى ؟ فقال والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبى مرسل ، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها وهو يقول : « إذا أنا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران[٣] : يامعشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلا

(١) هو طرف من حديث لأنس متفق عليه ، بلفظ « صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر وقد خرجوا بالمساحى على أعناقهم فلما رأوه قالوا : هذا محمد والخميس ... الحديث » وسيأتى فى سورة الصافات .

(٢) قوله « وناقة باهل لاصرار عليها » فى الصحاح صررت الناقة شددت عليها الصرار ، وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية ، لئلا يرضعها ولدها . وفيه الخلف : حلمة ضرع الناقة . وفيه التودية : خشبة تشد عليه . (ع)

(٣) قوله « فقال أسقف نجران يا معشر النصارى » أى حبرهم عبد المسيح اه . (ع)

من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة ، فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك و نثبت على ديننا قال « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم » فأبوا . قال : « فإنى أناجزكم » فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة : ألف فى صفر ، وألف فى رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد . فصالحهم على ذلك [1] وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا » وعن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على ، ثم قال : [2] (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) فإن قلت . ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده [3] وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل . ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب ، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدمهم

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ، من طريق محمد بن مروان السدى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس بطوله وابن مروان متروك متهم بالكذب ثم أخرج أبو نعيم نحوه عن الشعبى مرسلا ، وفيه « فان أبيتم المباهلة فأسلموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فان أبيتم فأعطونا الجزية . كما قال الله تعالى . قالوا : ما نملك إلا أنفسنا قال : فان أبيتم فانى أنبذ إليكم على سواء ، فقالوا : لا طاقة لنا بحرب العرب ، ولكن نؤدى الجزية ، فجعل عليهم فى كل سنة ألفى حلة : ألفاً فى صفر ، وألفاً فى رجب ، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد أتانى البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعنة » رواه الطبرى من طريق أبى إسحاق ، حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله (إن هذا لهو القصص الحق) فذكره مرسلا ، وفى سنن أبى داود من حديث ابن عباس « صالح النبى صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفى حلة النصف فى صفر ، والبقية فى رجب يؤدونه إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم » وهو طرف من هذه القصة .

(٢) أخرجه مسلم من طريق صفية بنت شيبة عنها . وغفل الحاكم فاستدركه .

(٣) قوله « وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه » فى الصحاح : الفلذ : كبد البعير . والجمع : أفلاذ . والفلذة : القطعة من الكبد واللحم والمال وغيرها ، والجمع فلذ اه ، فتدبر . (ع)

فى الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها . وفيه دليل لاشىء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

﴿ إن هذا ﴾ الذى قص عليك من نبأ عيسى ﴿ لهو القصص الحق ﴾ قرئ بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون، لأن اللام تنزل من (هو) منزلة بعضه ، فخفف كما خفف عضد . وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها ، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره ، والجملة خبر إن . فإن قلت : لم جاز دخول اللام على الفصل ؟ قلت : إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز ، لأنه أقرب إلى المبتدإ منه . وأصلها أن تدخل على المبتدإ . و« من » فى قوله ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ بمنزلة البناء على الفتح فى (لا إله إلا الله) فى إفادة معنى الاستغراق ، والمراد والرد على النصارى فى تثليثهم ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور فى قوله (زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)

قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰأَنْتُمْ هَـٰؤُلَاءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ قيل هم أهل الكتابين . وقيل : وفد نجران . وقيل : يهود المدينة ﴿ سواء

بيننا وبينكم﴾ مستوية بيننا وبينكم، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله﴾ يعنى تعالوا إليها حتى لا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً) وعن عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يارسول الله، قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قال: هو ذاك. وعن الفضيل: لا أبالى أطعت مخلوقا فى معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرئ (كلمة) بسكون اللام. وقرأ الحسن (سواء) بالنصب بمعنى استوت استواء ﴿فإن تولوا﴾ عن التوحيد ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره. زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيه فقيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟ ﴿أفلا تعقلون﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه، وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره. و﴿حاججتم﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى، يعنى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فيما لكم به علم﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ ولا ذكر له فى كتابيكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها أنتم هو آ أنتم على الاستفهام، فقلبت الهمزة هاء. ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم. وقيل (هؤلاء) بمعنى الذين و(حاججتم) صلته ﴿والله يعلم﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وأنتم﴾ جاهلون به ثم أعلمهم بأنه برىء من دينكم وما كان إلا ﴿حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه من الولى وهو القرب ﴿للذين اتبعوه﴾ فى زمانه وبعده ﴿وهذا النبى﴾ خصوصا ﴿والذين آمنوا﴾ من أمته. وقرئ: وهذا النبىّ، بالنصب عطفاً على الهاء فى اتبعوه، أى اتبعوه واتبعوا هذا النبى. وبالجر عطفاً على إبراهيم.

وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ

وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

﴿ودّت طائفة﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم. أو ومايقدرون على إضلال المسلمين، وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم ﴿بآيات الله﴾ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها. وشهادتهم: اعترافهم بأنها آيات الله. أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوّة الرسول ﴿وأنتم تشهدون﴾ نعته فى الكتابين. أو تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق. قرئ (تلبّسون) بالتشديد. وقرأ يحي بن وثاب (تلبسون) بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل، كقوله: كلابس ثوبى زور. وقوله:

* إِذَا هُوَ بِالْمَجْدِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا * (1)

* * *

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

---

(1) فلا أب وابنا مثل مروان وابنه ... إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

للفرزدق. وابنا: نصب عطفا على موضع الأب، ومثل بالرفع ـ خبر لا أو نصب صفة لأب وابنا، والخبر محذوف. وابنه هو عبد الملك. و «إذا هو» أى مروان، لأن مجد الابن بمجد الأب لا العكس، والمراد بالمجد هنا: الأفعال الحميدة التى تتجدد منه، ثم إنه شبهه باللباس بجامع صون كل لصاحبه على طريق المكنية، والارتداء والتأزر تخييل. ويحتمل أنه شبه الاتصاف به ظاهرا وباطنا بالارتداء والتأزر على طريق التصريحية. ويجوز أن المراد من «إذا» الزمن المستمر، لا المستقبل فقط.

﴿وجه النهار﴾ أوله . قال :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ (١)

والمعنى : أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين فى أول النهار ﴿واكفروا﴾ به فى آخره لعلهم يشكون فى دينهم ويقولون : مارجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم . وقيل : تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أوّل النهار من غير اعتقاد ، واكفروا به آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه فى دينهم . وقيل : هذا فى شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه : آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها فى أوّل النهار ، ثم اكفروا به فى آخره وصلوا إلى الصخرة ، ولعلهم يقولون : هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون ﴿ولا تؤمنوا﴾ متعلق بقوله (أن يؤتى أحد) وما بينهما اعتراض . أى : ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم . أرادوا : أسرّوا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ماأوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتا ، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ عطف على أن يؤتى (٢) . والضمير فى يحاجوكم لأحد لأنه فى معنى الجمع (٣) ، بمعنى : ولا تؤمنوا لغير أتباعكم ، أنّ المسلمين يحاجونكم

(١) من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه يلطمن . أوجههن بالأسحار

لربيع بن زياد . يرثى مالك بن زهير العبسى ، ووجه النهار : أوله . والحواسر : كاشفات الوجوه ، وصرف للوزن . والندبة : رفع الصوت بالبكاء على الميت . والأسحار : مقدم أعالى الأعناق . والباء بمعنى مع . كانت عادة العرب أن لايندبوا القتيل إلا بعد أخذ ثأره فضمن الرثاء معنى المدح لهم والتشفى من عدوهم . وقال : من كان شامتاً بقتله فليجيء إلى نسائنا فى أول النهار يجدهن كاشفات وجوههن يبكين عليه برفع أصواتهن ، يضربن أوجههن مع صفاح أعناقهن ، يعنى أننا أخذنا ثأره فحل لنسائنا البكاء عليه ، وانتقد ابن العميد قوله : فليأت نسوتنا . ولله در الامام المرزوقى حيث أبدله بقوله : فليأت ساحتنا ، لأنه فيه أيضا الفرار من الاظهار موضع الاضمار .

(٢) قال محمود : «أو يحاجوكم معطوف على أن يؤتى ... الخ» قال أحمد : وفى هذا الوجه من الاعراب إشكال ، وهو وقوع أحد فى الواجب ، لأن الاستفهام هنا إنكار ، واستفهام الانكار فى مثله إثبات ، إذ حاصله أنه أنكر عليهم ووبخهم على ماوقع منهم وهو إخفاء الايمان بأن النبوة لاتخص بنى إسرائيل لأجل العلتين المذكورتين . فهو إثبات محقق . ويمكن أن يقال : روعيت صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقة ، فحسن لذلك دخول أحد فى سياقه ، والله أعلم .

(٣) قال محمود : «والضمير فى يحاجوكم لأحد لأنه فى معنى الجمع ... الخ» قال أحمد : أى حيث كان نكرة فى سياق النفى ، كما وصفه بالجمع فى قوله (فما منكم من أحد عنه حاجزين) .

يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة. فإن قلت: فما معنى الاعتراض؟ قلت: معناه أنّ الهدى هدى الله، من شاء أن يلطف به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين، وكذلك قوله تعالى ﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ يريد الهداية والتوفيق. أو يتمّ الكلام عند قوله (إلا لمن تبع دينكم) على معنى: ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم: إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغيظ لهم. وقوله (أن يؤتى) معناه لأن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه، لا لشيء آخر، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي - أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم من فضل العلم والكتاب - دعاكم إلى أن قلتم ماقلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: أأن يؤتى أحد بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد. فإن قلت: فما معنى قوله أو يحاجوكم على هذا؟ قلت: معناه دبرتم مادبرتم لأن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم. ويجوز أن يكون (هدى الله) بدلا من الهدى، و(أن يؤتى أحد) خبر إن، على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم أو يحاجوكم حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم. وقرئ: إن يؤتى أحد، على إن النافية، وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم: مايؤتى أحد مثل ماأوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم، يعني مايؤتون مثله فلا يحاجونكم. ويجوز أن ينتصب (أن يؤتى) بفعل مضمر يدل عليه قوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله، فلا تنكروا ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؛ لأن قولهم (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

عن ابن عباس ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ هو عبد الله بن سلام، استودعه رجل من قريش ألفا ومائتي أوقية ذهبا فأداه إليه. و﴿من إن تأمنه بدينار﴾ فنحاص بن عازوراء استودعه رجل

من قريش ديناراً فجحده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى، لغلبة الأمانة عليهم. والخائنون فى القليل اليهود، لغلبة الخيانة عليهم ﴿إلا مادمت عليه قائما﴾ إلا مدّة دوامك عليه ياصاحب الحق قائما على رأسه متوكلا عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرئ (يؤده) بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تئمنه، بكسر التاء. ودمت بكسر الدال من دام يدام ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذى دلّ عليه لم يؤده، أى تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم ﴿ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ أى لا يتطرق علينا عتاب وذم فى شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم، لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون: لم يجعل لهم فى كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالا من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله مامن شيء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىَّ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر»[1] وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال: إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا فى ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا فى الأميين سبيل. إنهم إذا أدوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم[2]. ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ بادعائهم أن ذلك فى كتابهم ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون ﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم فى الأميين، أى بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله ﴿من أوفى بعهده﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدّت بلى مسدّها، والضمير فى بعهده راجع إلى من أوفى، على أنّ كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله فى ترك الخيانة والغدر، فإنّ الله يحبه. فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم فى كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله فى ترك الخيانة لاتقوه فى ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإنّ الله يحبه، ويدخل فى ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت:

---

(١) أخرجه الطبرى وابن أبي حاتم من طريق يعقوب بن النعمان القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير به مرسلا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والطبرى من طريق أبي إسحاق عن صعصعة بن معاوية أنه سأل ابن عباس ــ فذكره.

عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس: نزلت فى عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿يشترون﴾ يستبدلون ﴿بعهد الله﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم ﴿وأيمانهم﴾ وبما حلفوا به من قولهم. والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثمنا قليلا﴾ متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك. وقيل: نزلت فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وحيي بن أخطب، حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف فى سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه. فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعت الذى نعت لنا، ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس: نزلت فىّ، كانت بينى وبين رجل خصومة فى بئر، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «شاهداك أو يمينه» فقلت إذن يحلف ولا يبالى فقال «من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان»[1] وقيل: نزلت فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد أعطى بها مالم يعطه. والوجه أن نزولها فى أهل الكتاب. وقوله (بعهد الله) يقوّى رجوع الضمير فى بعهده إلى الله ﴿ولا ينظر إليهم﴾ مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفى اعتداده به وإحسانه إليه ﴿ولا يزكيهم﴾ ولا يثنى عليهم. فإن قلت: أى فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان

(١) متفق عليه من حديثه.

مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ﴿لفريقا﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيىّ بن أخطب وغيرهم ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف وقرأ أهل المدينة : يلوّون ، بالتشديد ، كقوله : لووا رؤسهم . وعن مجاهد وابن كثير : يلون. ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة ، ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها . فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى (لتحسبوه) ؟ قلت : إلى ما دلّ عليه يلوّون ألسنتهم بالكتاب وهو المحرف . ويجوز أن يراد : يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب وقرئ : ليحسبوه بالياء ، بمعنى : يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب ﴿ويقولون هو من عند الله﴾ تأكيد لقوله : هو من الكتاب ، وزيادة تشنيع عليهم ، وتسجيل بالكذب ، ودلالة على أنهم لا يعرضون ولا يورون وإنما يصرحون بأنه فى التوراة هكذا ، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك لفرط جراءتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة . وعن ابن عباس : هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتابا بدّلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذى عندهم .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ما كان لبشر﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى . وقيل : إنّ أبا رافع القرظى والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ؟ فقال معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو أن نأمر بعبادة غير الله ! فما بذلك بعثنى ، ولا بذلك أمرنى[1] فنزلت . وقيل : قال رجل : يارسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال :

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل والطبرى من طريق ابن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى محمد حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال « اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا . وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا . فأنزل الله فيهم (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ـ الآية) قال أبو رافع القرظى ورجل آخر منهم يقال له الرئيس وهو السيد ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وقد دعاهم للاسلام ـ أتريد منا يا محمد ـ فذكره » وذكر الواحدى فى الأسباب من طريق الكلبي وعطاء بن عياش « أن أبا رافع والرئيس من نصارى نجران قالا يا محمد ـ فذكره »

لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله [١] ﴿والحكم﴾ والحكمة وهي السنة ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ ولكن يقول كونوا . والربانى : منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون ؛ كما يقال : رقبانى ولحيانى ، وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته . وعن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس : اليوم مات ربانىّ هذه الأمة . وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء . وقيل علماء معلمين . وكانوا يقولون : الشارع الربانى : العالم العامل المعلم ﴿بما كنتم﴾ بسبب كونكم عالمين [٢] وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة ، وكفى به دليلا على خيبة سعي من جهد نفسه وكدّ روحه فى جمع العلم ، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل ، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها : وقرئ : تعلمون ، من التعليم . وتعلمون من التعلم ﴿تدرسون﴾ تقرؤن . وقرئ تدرسون ، من التدريس . وتدرسون على أن أدرس بمعنى درّس كأكرم وكرّم وأنزل ونزّل . وتدرّسون ، من التدرّس . ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف : تدرسونه على الناس كقوله (لتقرأه على الناس) فيكون معناهما معنى تدرسون من التدريس . وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله فى شيء ، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع ، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته . وقرئ (ولا يأمركم) بالنصب عطفا على (ثم يقول) وفيه وجهان أحدهما أن تجعل « لا » مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله (ما كان لبشر) والمعنى : ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ كما تقول : ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهيننى ولا يستخف بى . والثانى أن تجعل « لا » غير مزيدة . والمعنى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشا عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح . فلما قالوا له : أنتخذك ربا ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يستنبئه الله ، ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء . والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر ، وتنصرها قراءة عبد الله ولن يأمركم . والضمير فى (ولا يأمركم) و (أيأمركم) لبشر . وقيل الله ، والهمزة فى أيأمركم للإنكار ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين ، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ

---

(١) لم أجد له إسناداً . ونقله الواحدى فى الأسباب عن الحسن البصرى ، أن رجلا ، فذكره .

(٢) قوله « بسبب كونكم عالمين » تفسير لقراءة (تعلمون) من العلم . (ع)

رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

﴿ميثاق النبيين﴾ فيه غير وجه : أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك . والثانى أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه ، كما تقول : ميثاق الله وعهد الله ، كأنه قيل : وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم ، والثالث : أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف . والرابع : أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكما بهم ، لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون. وتدل عليه قراءة أبىّ وابن مسعود : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب واللام فى ﴿لما آتيكم﴾ لام التوطئة لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستحلاف [1] وفى لتؤمنن لام جواب القسم ، و«ما» تحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ، ولتؤمنن ساد مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً ، وأن تكون موصولة بمعنى : للذى آتيتكوه لتؤمنن به . وقرئ : لما آتيناكم وقرأ حمزة : لما آتيتكم . بكسر اللام ومعناه : لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب والحكمة ؛ ثم لمجىء رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به . على أن «ما» مصدرية ، والفعلان معها أعنى «آتيتكم» و «جاءكم» فى معنى المصدرين ، واللام داخلة للتعليل على معنى : أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه ، لأجل أنى آتيتكم الحكمة ، وأن الرسول الذى آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف . ويجوز أن تكون «ما» موصولة . فإن قلت : كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله (ثم جاءكم) لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة ، لأنك لا تقول : للذى جاءكم رسول مصدق لما معكم ؟ قلت : بلى [2] ، لأنّ ما معكم فى معنى ما آتيتكم ، فكأنه قيل : للذى آتيكوه وجاءكم رسول مصدق له . وقرأ سعيد بن جبير «لمّا» بالتشديد ، بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ،

(١) قال محمود : «اللام فى لما آتيتكم لام التوطئة لأن أخذ الميثاق فى معنى القسم ... الخ» قال أحمد : يريد على أن قوله (رسول) فاعل جاء ، لأنه لا يخلو من الضمير وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً ، ورسول : خبر الموصول . ولم يرد الزمخشرى إلا الأول ، وهو ظاهر الآية .

(٢) عاد كلامه ، قال مجيبا عن السؤال : «قلت : بلى ... إلخ» قال أحمد : يريد أن الكلام وإن خلا من العائد إلا أنه فى معنى كلام يتحقق فيه العائد فيجوز دخوله فى الصلة ، والله أعلم .

ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميما بإدغامها في الميم، فحذفوا إحداها فصارت لما. ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى ﴿إصري﴾ عهدي. وقرئ: أصرى، بالضم. وسمى إصراً، لأنه مما يؤصر، أي يشدّ ويعقد. ومنه الإصار، الذي يعقد به. ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر، كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار ﴿فاشهدوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وأنا على ذلكم﴾ من إقراركم وتشاهدكم ﴿من الشاهدين﴾ وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ الميثاق والتوكيد ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي المتمردون من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿أ﴾ يتولون ﴿فغير دين الله يبغون﴾ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروى: أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام؛ وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال صلى الله عليه وسلم: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم»[1] فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت: وقرئ: يبغون، بالياء: وترجعون، بالتاء وهي قراءة أبي عمرو، لأنّ الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وقرئا بالياء معا، وبالتاء معا ﴿طوعا﴾ بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه ﴿وكرها﴾ بالسيف، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت[2] فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده. وانتصب طوعا وكرها على الحال، بمعنى طائعين ومكرهين

قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحد الضمير

(١) لم أجد له إسنادا، وذكره الواحدي في الأسباب أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قوله «والإشفاء على الموت» أي الإشراف، كما في الصحاح. (ع)

فى ﴿قل﴾ وجمع فى ﴿آمنا﴾ ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من الله لقدر نبيه . فإن قلت . لم عدّى أنزل فى هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء ؟ قلت : لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر . ومن قال : إنما قيل (علينا) لقوله (قل)؛ و (إلينا) لقوله (قولوا) تفرقة بين الرسل والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، فقد تعسف . ألا ترى إلى قوله (بما أنزل إليك) ، (وأنزلنا إليك الكتاب) وإلى قوله (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) . ﴿ونحن له مسلمون﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكا فى عبادتها ، ثم قال ﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ يعنى التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ من الذين وقعوا فى الخسران مطلقا من غير تقييد للشياع . وقرئ : ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام .

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)

﴿كيف يهدى الله قوما﴾ كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف ، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم ، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق ، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به ؛ وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات : وقيل : نزلت فى رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة ، منهم طعمة ابن أبيرق ، ووحوح بن الأسلت ، والحرث بن سويد بن الصامت . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وشهدوا﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل ؛ لأن معناه بعد أن آمنوا ، كقوله تعالى (فأصدق وأكن من) وقول الشاعر :

... لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ ... ...(1)

(1) مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها
أنشده أبو المهدى . والشؤم : ضد اليمن . والناعب : الصائح ، من باب ضرب ونفع . والبين : مصدر بمعنى الانفصال

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار «قد» ، بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق ﴿والله لا يهدى﴾ لا يلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الكفر العظيم والارتداد ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوا أو ودخلوا فى الاصلاح . وقيل : نزلت فى الحرث بن سويد بعد أن ندم على ردّته وأرسل إلى قومه أن سلوا : هل لى من توبة ، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية ، فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ (٩٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٩١)

﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة ، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن . أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بإصرارهم على ذلك وطعنهم فى كل وقت ، وعداوتهم له ، ونقضهم ميثاقه ، وفتنتهم للمؤمنين ، وصدهم عن الإيمان به ، وسخريتهم بكل آية تنزل . وقيل : نزلت فى الذين ارتدوا ولحقوا بمكة ، ازديادهم الكفر أن قالوا نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون ، وإن أردنا الرجعة نافقنا بإظهار التوبة . فإن قلت : قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفرا فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى ﴿لن تقبل توبتهم﴾ ؟ قلت : جعلت عبارة عن الموت على الكفر ، لأنّ الذى لا تقبل توبته من الكفار هو الذى يموت على الكفر ، كأنه قيل : إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر ، داخلون فى جملة من لا تقبل توبتهم . فإن قلت : فلم قيل فى إحدى الآيتين (لن تقبل) بغير فاء ، وفى الأخرى (فلن يقبل) ؟ قلت : قد أوذن بالفاء أنّ الكلام بنى على الشرط والجزاء . وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر . وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب ، كما تقول : الذى جاءنى له درهم ، لم تجعل المجىء سببا فى استحقاق الدرهم ، بخلاف قولك : فله درهم . فإن قلت : فحين كان المعنى (لن تقبل توبتهم)

= والبعد . وجر ناعب على توهم : ليسوا بمصلحين ولا ناعب ، وجعل هذا جمهور النحاة مطردا ، ومنعه بعضهم . وروى « إلا بشؤم » وصوت الغراب كثيرا ما تتشاءم منه العرب . وهو كناية عن تشتت شمل تلك المشائيم وعدم اتفاق كلمتهم .

بمعنى الموت على الكفر ، فهلا جعل الموت على الكفر مسببا عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجره إلى الموت على الكفر ؟ قلت : لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر . فإن قلت : فأى فائدة فى هذه الكناية ، أعنى أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة ؟ قلت : الفائدة فيها جليلة ، وهى التغليظ فى شأن أولئك الفريق من الكفار ، وإبراز حالهم فى صورة حالة الآيسين من الرحمة التى هى أغلظ الأحوال وأشدها : ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة ﴿ذهبا﴾ نصب على التمييز . وقرأ الأعمش : ذهب ، بالرفع ردا على ملء ، كما يقال : عندى عشرون نفسا رجال . فإن قلت : كيف موقع قوله ﴿ولو افتدى به﴾[1] ؟ قلت : هو كلام محمول على المعنى ،

---

(١) قال محمود رحمه الله : « إن قلت كيف موقع قوله ولو افتدى به ... الخ » قال أحمد : لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذى ذهب إليه بوجه ، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره ، ثم نقرر وجها يطابق الآية ، وذلك أن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعى شرطا آخر يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة ، والعادة فى مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبها على المسكوت عنه بطريق الأولى ، مثاله قولك : أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى . ومنه (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) معناه ـ والله أعلم ـ : لو كان الحق على غيركم ، ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم ، فأوجبه تنبيها على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فاذا تبين مقتضى الواو فى مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً ، لأن قوله (ولو افتدى به) يقتضى شرطا آخر محذوفا يكون هذا المذكور منبها عليه بطريق الأولى ، وهذه الحال المذكورة وهى حالة افتدائهم بملء الأرض ذهبا هى حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهبا هو أولى بالقبول منها ، فاذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفى فيما عدا هذه الحالة أولى ، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله فنقول : قبول الفدية التى هي ملء الأرض ذهبا يكون على أحوال : منها أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول . ومنها أن يقول المفتدى فى التقدير : أفدى نفسى بكذا ، وقد لا يفعل . ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً ، وقد يسلمه مثلا لمن يأمن منه قبول فديته . وإذا تعددت الأحوال فالمراد فى الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهبا افتداء محققا بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختيارا ، ومع ذلك لا يقبل منه ؛ فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها ، تنبيها على أن ثم أحوالا أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفا فى قوله تعالى (إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) والله أعلم . وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم . ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه . فتأمل هذا النظر فانه من السهل الممتنع . والله ولى التوفيق .

كأنه قيل: فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. ويجوز أن يراد: ولو افتدى بمثله[١]، كقوله: (ولو أن الذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه) والمثل يحذف كثيراً فى كلامهم، كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه. وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله ولاهيثم الليلة للمطى، وقضية ولاأباحسن لها، تريد: ولامثل هيثم، ولامثل أبى حسن، كما أنه يراد فى نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا، تريد أنت. وذلك أنّ المثلين يسدّ أحدهما مسدّ الآخر فكانا فى حكم شيء واحد، وأن يراد: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا كان قد تصدق به، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرئ: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا، ونصب ملء. وملرض بتخفيف الهمزتين

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

﴿لن تنالوا البر﴾ لن تبلغوا حقيقة البرّ، ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا بر الله وهو ثوابه ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها وتؤثرونها كقوله (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئا جعلوه لله. وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يارسول الله. إن أحبّ أموالى إلىّ بير حا فضعها يارسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بخ بخ ذاك مال رابح[١] أو مال رائح وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: افعل يارسول الله فقسمها فى أقاربه. وجاء زيد ابن حارثة بفرس له كان يحبها فقال: هذه فى سبيل الله، فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد، فكأن زيداً وجد فى نفسه وقال: إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن الله تعالى قد قبلها[٣] منك. وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبته فقال: إن الله تعالى يقول (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون)[٤] فأعتقها. ونزل بأبى ذر ضيف فقال للراعى

(١) (عاد كلامه) قال: «ويجوز أن يكون معنى الكلام ولو افتدى بمثله ... الخ» قال أحمد: وعلى هذا النمط يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلى ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى.

(٢) متفق عليه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) أخرجه عبدالرزاق فى تفسيره والطبرى من طريقه: أخبرنا معمر عن أيوب وغيره «أنه لما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) جاء زيد بن حارثة بفرس له ـ فذكره» وهو معضل. وأخرجه الطبرى من رواية عمرو بن دينار نحوه مرسلا، ورجاله ثقات.

(٤) رواه الطبرى من رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال «كتب عمر إلى أبى موسى ـ فذكره».

ائتنى بخير إبلى فجاء بناقة مهزولة . فقال : خنتنى ، قال : وجدت خير الإبل فحلها ، فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال : إنّ يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى . وقرأ عبد الله : حتى تنفقوا بعض ماتحبون . وهذا دليل على أنّ «من» فى (مما تحبون) للتبعيض . ونحوه : أخذت من المال . ومن فى ﴿من شىء﴾ لتبيين ما تنفقوا ، أى من أى شىء كان طيبا تحبونه أوخبيثاً تكرهونه ﴿فإن الله﴾ عليم بكل شىء تنفقونه فجازيكم بحسبه .

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ إِلاَّ مَاحَرَّمَ إِسْرَاءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)

﴿كل الطعام﴾ كل المطعومات أوكل أنواع الطعام . والحل مصدر . يقال : حل الشىء حلا كقولك : ذلت الدابة ذلا ، وعزّ الرجل عزاً ، وفى حديث عائشة رضى الله عنها : كنت أطيبه لحله وحرمه [1] ولذلك استوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع . قال الله تعالى : لاهنّ حلٌّ لهم . والذى حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل وألبانها وقيل العروق . كان به عرق النسا ، فنذر إن شفى أن يحرّم على نفسه أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه . وقيل : أشارت عليه الأطباء باجتنابه ، ففعل ذلك بإذن من الله ، فهو كتحريم الله ابتداء والمعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شىء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذى حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه ، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) إلى قوله تعالى (عذاباً أليما) وفى قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما) إلى قوله (ذلك جزيناهم ببغيهم) وجحود ماغاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا [2] مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم ، فقالوا : لسنا بأوّل من حرّمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرّمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا ، إلى أن انتهى التحريم إلينا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا . وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصدّ عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل ،

---

(١) متفق عليه من حديثها .

(٢) قوله «واشمأزوا منه وامتعضوا» أى غضبوا منه وشق عليهم ، أفاده الصحاح . (ع)

وما عدد من مساويهم التى كلما ارتكبوا منها كبيرة حُرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ماحرّم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم ، لاتحريم قديم كما يدعونه ، فروى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وفى ذلك الحجة البينة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى جواز النسخ الذى ينكرونه ﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أن ذلك كان محرما على بنى إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد مالزمهم من الحجة القاطعة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات .

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

﴿قل صدق الله﴾ تعريض بكذبهم كقوله (ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ وهى ملة الإسلام التى عليها محمد ومن آمن معه ، حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم ، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم ، وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿وضع للناس﴾ صفة لبيت ، والواضع هو الله عز وجلّ ، تدل عليه قراءة من قرأ (وضع للناس) بتسمية الفاعل وهو الله . ومعنى وضع الله بيتا للناس ، أنه جعله متعبداً لهم ، فكأنه قال : إن أوّل متعبد للناس الكعبة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن أوّل مسجد وضع للناس فقال : «المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس» وسئل كم بينهما ؟ قال : «أربعون [1] سنة» . وعن علىّ رضى الله عنه أن رجلا قال له : أهو أوّل بيت ؟ قال : لا ، قد كان قبله بيوت ، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة . وأوّل من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من

(١) متفق عليه من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس قال : المسجد الحرام . قلت : ثم ؟ قال : بيت المقدس . قلت : كم بينهما ؟ قال أربعون عاما . ثم الأرض لك مسجد فحيث أدركتك الصلاة فصل» .

العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش . وعن ابن عباس : هو أوّل بيت حُجّ بعد الطوفان . وقيل : هو أوّل بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، خلقه قبل الأرض بألفى عام ، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته . وقيل : هو أوّل بيت بناه آدم فى الأرض . وقيل : لما أهبط آدم قالت له الملائكة : طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفى عام ، وكان فى موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح ، فرفع فى الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات ﴿ للذى ببكة ﴾ البيت الذى ببكة ، وهى علم للبلد الحرام : ومكة وبكة لغتان فيه ، نحو قولهم : النبيط والنميط ، فى اسم موضع بالدهناء : ونحوه من الاعتقاب : أمر راتب وراتم . وحمى مغمطة ومغبطة [1] . وقيل : مكة : البلد ، وبكة : موضع المسجد . وقيل : اشتقاقها من «بكه» إذا زحمه لازدحام الناس فيها . وعن قتادة : يبك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء ، يصلى بعضهم بين يدى بعض ، لا يصلح ذلك إلا بمكة كأنها سميت ببكة وهى الزحمة . قال :

إِذَا الشَّرِيبُ أَخَذَتْهُ الأَكَّهْ ... فَخَلِّهِ حَتَّى يَبُكَّ بَكَّهْ [2]

وقيل : تبك أعناق الجبابرة أى تدقها . لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ﴿ مباركا ﴾ كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب ، وانتصابه على الحال من المستكن فى الظرف ، لأن التقدير للذى ببكة هو ، والعامل فيه المقدر فى الظرف من فعل الاستقرار ﴿ وهدى للعالمين ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم ﴿ مقام إبراهيم ﴾ عطف بيان لقوله (آيات بينات) . فإن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد [3] ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه فى حجر صلد ، كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة) والثانى : اشتماله على آيات [4] لأنّ أثر

---

(١) قوله «وحمى مغمطة ومغبطة» فى الصحاح : أغمطت عليه الحمى لغة فى أغبطت ، أى دامت اه . (ع)

(٢) يقول إذا أخذت «الأكة» وهي سوء الخلق «والشريب» الذى يشرب معك ، أو الذى يسقى إبله معك ، كأنها ملكته واستولت عليه «فخله» أى اتركه حتى يقتطع من الماء قطعة ، أو حتى يزدحم بابله على الماء مرة . من الازدحام . وهذا وصية بمكارم الأخلاق ، والحلم عند الغضب ، والسماحة .

(٣) قال محمود : «إن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد ... الخ» ؟ قال أحمد : ونظير هذا التأويل ما تقدم لى عند قوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم) قال محمود فيما تقدم «والذى صدر منهم أمنية واحدة ، فما وجه جمعها» وبينت فيها هذا بعينه ، وهو أن الشيء الواحد متى أريد تمكينه وامتيازه عن غيره من صفة جمع ، أفاد الجمع فيه ذلك ، وقد لاح لى الآن فى جمع الأمانى . ثم وجه آخر ، وذلك أن كل واحد منهم صدرت منه هذه الأمنية ، فجمعها بهذا الاعتبار تنبيها على تعددها بتعددهم ، والعجب أن الجمع فى مثل هذا هو الأصل ، وأن الافراد إنما يقع فيه على نوع من الاختصار . ومنه : كلوا فى بعض بطنكم تصحوا .

(٤) عاد كلامه . قال : الوجه الثانى اشتماله على آيات لأن أثر القدم فى الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية ، وحفظه مع كثرة عدوه من

القدم فى الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة ، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية . ويجوز أن يراد : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة . ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما . دلالة على تكاثر الآيات ، كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، وكثير سواهما . ونحوه فى طىّ الذكر قول جرير :

كَانَتْ حَنِيفَةُ أَثْلَاثًا فَثُلْثُهُمُو مِنَ الْعَبِيدِ وَثُلْثٌ مِنْ مَوَالِيهَا (١)

ومنه قوله عليه السلام «حبب إلىّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عينى فى الصلاة (٢) وقرأ ابن عباس وأبىّ ومجاهد وأبو جعفر المدنى فى رواية قتيبة : آية بينة ، على التوحيد . وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان . فإن قلت : كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات ؟ وقوله (ومن دخله كان آمنا) جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية ؟ قلت : أجزت ذلك من حيث المعنى ، لأن قوله (ومن دخله كان آمنا) دلّ على أمن داخله ، فكأنه قيل : فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ، وأمن داخله . ألا ترى أنك لو قلت : فيه آية بينة ، من دخله كان آمنا صحّ ، لأنه فى معنى قولك : فيه آية بينة ، أمن من دخله . فإن قلت : كيف

= المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية ، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم وأمن من دخله ، وكثيراً سواهما والله أعلم .

(١) لجرير يقول : كانت هذه القبيلة منقسمة أثلاثا ، فثلثها من العبيد الأرقاء ، وثلثها من عتق القبيلة أو من عتق العبيد . وعليه فالاضافة على معنى «من» ولم يذكر الثلث الثالث ، لأنه من المعلوم أنه لم يبق إلا السادة الأشراف ، بدليل الحصر فى الأثلاث ، والترقى من العبيد إلى العتق . وهذا يحتمل الذم ، وأن ثلث القبيلة فقط كرام والباقى لئام . ويحتمل المدح وأن خدمهم من العبيد كثير .

(٢) قد تقدم أنه أورده عند قوله تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) مختصراً . وقد تقدم أن النسائى أخرجه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان ومن طريق سلام بن مسكين ، كلاهما عن ثابت عن أنس . ومن طريق سيار . رواه أحمد فى الزهد والحاكم فى المستدرك . ومن طريق سلام أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وابن سعد والبزار وأبو يعلى ، وابن عدى فى الكامل ، وأعله به ، والعقيلى فى الضعفاء كذلك . وقال الدارقطنى فى علله . رواه أبو المنذر سلام . وسلام بن أبى الصهباء وجعفر بن سليمان ، فرووه عن ثابت عن أنس ، وخالفهم حماد بن زيد عن ثابت مرسلا . وكذا رواه محمد بن ثابت البصرى . والمرسل أشبه بالصواب . وقد رواه عبدالله بن أحمد فى زيادات الزهد عن غير أبيه من طريق يوسف بن عطية ، عن ثابت مرسلا أيضا . ويوسف ضعيف . وله طريق أخرى معلولة عند الطبرانى فى الأوسط عن محمد بن عبدالله الحضرمى عن يحيى بن عثمان الحربى عن الهقل بن زياد عن الأوزاعى عن إسحاق بن عبدالله بن أبى طلحة عن أنس مثله قلت : ليس فى شىء من طرقه لفظ «ثلاث» بل أوله عند الجميع «حبب إلى من دنياكم النساء ـ الحديث» وزيادة «ثلاث» تفسد المعنى . على أن الامام أبا بكر بن فورك شرحه فى جزء مفرد باثباتها ، وكذلك أورده الغزالى فى الاحياء واشتهر على الألسنة .

كان سبب هذا الأثر ؟ قلت : فيه قولان : أحدهما أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه . وقيل : إنه جاء زائرا من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسمعيل : انزل حتى يغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن ، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ، ثم حوّلته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر ، فبقى أثر قدميه عليه . ومعنى (ومن دخله كان آمنا) معنى قوله (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمنا) وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب . وعن عمر رضى الله عنه «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه» [1] وعند أبي حنيفة : من لزمه القتل فى الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج . وقيل : آمنا من النار . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة [2] آمنا» وعنه عليه الصلاة والسلام «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران فى الجنة [3]» وهما مقبرتا مكة والمدينة . وعن ابن مسعود : وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة ، فقال «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر [4]» وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من صبر على حر مكة ساعة من نهار ، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتى [5] عام» (من

---

(١) أخرجه عبدالرزاق فى كتاب الحج من مصنفه وأبو الوليد الأزرقى فى تاريخ مكة من طريقه عن ابن جريج ، سمعت ابن أبي حسين عن عكرمة بن خالد قال قال عمر بهذا وهذا منقطع .

(٢) قال إسحاق : أخبرنا عيسى بن يونس حدثنا ثور بن يزيد حدثنى شيخ عن أنس به . ورواه البيهقى فى الشعب من طريق ابن أبي فديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «من زارنى محتسباً إلى المدينة كان فى جوارى يوم القيامة» وأخرجه أبو داود الطيالسى تاما من حديث عمر رضى الله عنه باسناد فيه ضعف ، وهو مجهول ، وقال عبدالرزاق فى مصنفه ، أخبرنا يحيى بن العلاء وغيره ، وغالب بن عبيدالله يرفعه ، فذكره ، ويحيى وغالب ضعيفان جداً وأخرجه الدارقطنى من رواية هارون بن أبي قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب بتمامه ، وهو معلول ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والصغير ، من وجهين عن عبدالله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر دون الزيادة ، وأورده ابن عدى فى ترجمة عبدالله بن المؤمل : وأخرجه البيهقى فى الشعب والطبرانى من حديث عبدالغفور ابن سعيد الأنصارى عن أبي هاشم الرمانى عن زاذان عن سلمان قال البيهقى عبدالغفور ضعيف ، وقد روى باسناد أحسن من هذا ، ثم ذكر طريق عبدالله بن المؤمل ، وقد أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق عبدالغفور ونقل عن ابن حبان أنه قال : كان يضع الحديث . قلت : وهذا من غلط ابن الجوزى فى تصرفه فانه لم يختص بعبدالغفور

(٣) لم أجده .

(٤) لم أجده .

(٥) هكذا ذكره أبو الوليد الأزرقى فى تاريخ مكة ، لكن بغير إسناد . وقد أخرجه العقيلى فى الضعفاء فى ترجمة

استطاع﴾ بدل من الناس . وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة [١] ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء . وعن ابن الزبير : هو على قدر القوة . ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه . وعنه : ذلك على قدر الطاقة ، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة ، وعن الضحاك : إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع . وقيل له فى ذلك فقال : إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ولو حبوا فكذلك يجب عليه الحج . والضمير فى ﴿إليه﴾ للبيت أو للحج . وكل مأتىّ إلى الشيء فهو سبيل إليه وفى هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد ؛ ومنها قوله (ولله على الناس حج البيت) [٢] يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته . ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا ، وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له ، والثانى أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين . ومنها قوله (ومن كفر) مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا » [٣] ونحوه من التغليظ « من ترك الصلاة متعمدا

ـــ الحسن بن رشيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رفعه « من صبر فى حر مكة ساعة باعد الله منه جهنم سبعين خريفاً ، وقال هذا باطل ، لا أصل له ، والحسن بن رشيد يحدث بالمناكير . وأورده أبو شجاع فى الفردوس من حديث أنس ، بلفظ « تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائة عام » .

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه ، من حديث عمر ، بلفظ السبيل الزاد والراحلة ، فيه إبراهيم بن يزيد الجوزى وهو ضعيف والحاكم من حديث أنس ، وهو معلول . وأخرجه الدارقطنى والحاكم من رواية قتادة عن أنس ، لكن قال البيهق : الصواب عن قتادة عن الحسن مرسلا ، وأخرجه ابن ماجه عن عباس ، وإسناده ضعيف ، والصحيح عنه قوله . كما أخرجه ابن المنذر . وقال : لا يثبت مرفوعا . وفى الباب عن على وابن مسعود . وعائشة وجابر وعبد الله ابن عمر . وأخرجها الدارقطنى بأسانيد ضعيفة .

(٢) قال محمود : « وفى الكلام أنواع من التوكيد منها قوله (ولله على الناس) أى فى رقابهم لا ينفكون عنه ... الخ » قال أحمد : قوله « إن المراد بمن كفر من ترك الحج وعبر عنه بالكفر تغليظا عليه » فيه نظر ، فان قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولا واحداً ، فيتعين حمل الآية على تارك الحج جاحداً لوجوبه ، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد لا إلى مجرد الترك . وأما الزمخشرى فيستحل ذلك لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من ربقة الايمان ومن اسمه ومن حكمه ، لأنه عنده غير مؤمن ومخلد تخليد الكفار . وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه ، هذا إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج . ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر ، فيبقى على ظاهره والله أعلم .

(٣) أخرجه الترمذى من رواية هلال بن عبد الله الباهلى : حدثنا أبو إسحاق عن الحارث عن على رفعه « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا » وقال : غريب وفى إسناده مقال . وهلال بن عبد الله مجهول . والحارث يضعف . وأخرجه البزار من هذا الوجه . وقال : لا نعلمه عن على إلا من هذا ـــ

فقد كفر»[1] ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، ومنها قوله (عن العالمين) وإن لم يقل عنه، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود، فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم[2] فخطبهم فقال، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا: لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه، فنزل (ومن كفر) وعن النبي صلى الله عليه وسلم «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»[3] وروى «حجوا قبل أن لا تحجوا، حجوا قبل أن يمنع البر جانبه»[4] وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت

=الوجه وأخرجه ابن عدي والعقيلي في ترجمة هلال ونقلا عن البخاري أنه منكر الحديث. وقال البيهقي في الشعب: تفرد به هلال. وله شاهد من حديث أبي أمامة، أخرجه الدرامي بلفظ «من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانيا» أخرجه من رواية شريك عن ليث ابن أبي سليم عن عبد الرحمن بن سابط عنه. ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في الشعب. وقد أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن ليث عن عبد الرحمن مرسلا، لم يذكر أبا أمامة. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عدي. وابن عدي أورده في الكامل في ترجمة أبي المهزوم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعا ونحوه. ونقل عن الفلاس أنه كذب أبا المهزم وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه. لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيه من اتهم بالكذب، فضلا عمن كذب.

(١) أخرجه الدارقطني في العلل. من رواية أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس قال: رواه علي بن الجعد عن أبي جعفر عن الربيع مرسلا. وهو أشبه بالصواب. ورواه البزار من حديث أبي الدرداء قال «أوصاني ابو القاسم صلى الله عليه وسلم أن لا أشرك بالله شيئاً وإن حرقت، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمداً. فمن تركها متعمداً فقد كفر، ولا أشرب الخمر، فانها مفتاح كل شر» أخرجه من رواية راشد الحماني عن شهر بن حوشب. وقال: راشد بصري ليس به بأس. وشهر مشهور. والحديث عند الترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم من حديث بريدة دون قوله «متعمداً» ولفظه «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» قد تقدم في البقرة حديث جابر عند مسلم «بين العبد والكفر ترك الصلاة» وروى الترمذي من طريق عبد الله بن شقيق قال «كان أصحاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة» وإسناده صحيح. الحاكم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه

(٢) أخرجه الطبري من طريق جويبر عن الضحاك قال: «لما نزلت - فذكره» وهو معضل. وجويبر متروك الحديث ساقط

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة أخبرنا يزيد بن هارون عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن عمر قال «تمتعوا من هذا البيت، فانه - فذكره موقوفا» وقد روى مرفوعا: أخرجه ابن حبان والحاكم والبزار والطبراني من طريق سفيان بن حبيب عن حميد بهذا.

(٤) لم أره هكذا. والذي في الدارقطني في آخر كتاب الحج من السنن من رواية عبد الله بن عيسى الجندي عن محمد ابن أبي محمد عن أبيه عن أبي هريرة - رفعه «حجوا قبل أن لا تحجوا. قالوا: وما شأن الحج يا رسول الله، قال: يقعد أعرابها على أذناب أوديتها، فلا يصل إلى الحج أحد» وعبد الله ومحمد مجهولان. قاله العقيلي.

فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت [١] . وعن عمر رضى الله عنه : لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا [٢] . وقرئ حج البيت بالكسر .

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

﴿ والله شهيد ﴾ الواو للحال . والمعنى : لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها ، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته . قرأ الحسن : تصدّون ، من أصدّه ﴿ عن سبيل الله ﴾ عن دين حق علم أنه سبيل الله التى أمر بسلوكها وهو الإسلام ، وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه ، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم . وقيل : أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله ﴿ تبغونها عوجا ﴾ تطلبون لها إعوجاجاً [٣] وميلا عن القصد والاستقامة . فإن قلت : كيف تبغونها عوجا [٤] وهو محال ؟ قلت فيه معنيان : أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجا بقولكم : إن شريعة موسى لا تنسخ ، وبتغييركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك . والثانى : أنكم تتبعون أنفسكم فى إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم ﴿ وأنتم شهداء ﴾ أنها سبيل الله لا يصدّ عنها إلا ضال مضل ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم ، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى عظائم أمورهم ، وهم الأحبار ﴿ وما الله بغافل ﴾ وعيد ، ومحل تبغونها نصب على الحال .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

---

(١) لم أجده

(٢) لم أجده . وفى مصنف عبد الرزاق من رواية سالم بن أبى حفصة عن ابن عباس قال «لو ترك الناس زيارة هذا البيت عاما واحداً ما مطروا » وهو منقطع .

(٣) قال محمود : « أى تطلبون لها اعوجاجا ... الخ » قال أحمد : وفى تقديره الجار مع ضمير المفعول حيث قال : تطلبون لها اعوجاجا ، تنقيص من المعنى ، وأتم من إعرابه معنى أن تجعل الهاء هى المفعول به وعوجا حال وقع فيها المصدر الذى هو عوجا موقع الاسم . وفى هذا الاعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة فى مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ فى ذمهم وتوبيخهم ، والله أعلم .

(٤) قوله « فان قلت كيف تبغونها عوجا » لعله : كيف قال تبغونها . أو لعله : كيف يبغونها . (ع)

قيل مرّ شاس بن قيس اليهودي[1] ـ وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاظه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة وقال : مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث[2] وينشدهم بعض ماقيل فيه من الأشعار ، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس . ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : أتدعون الجاهلية[3] وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أوّلا وأحسن آخراً من ذلك اليوم .

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿ وكيف تكفرون ﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب ، والمعنى : من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز ﴿ تتلى عليكم ﴾ على لسان الرسول غضة طرية[4] وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ ومن يتمسك بدينه . ويجوز أن يكون حثا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم ﴿ فقد هدى ﴾ فقد حصل له الهدى لامحالة كما تقول : إذا جئت فلانا فقد أفلحت ، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا . ومعنى التوقع في « قد » ظاهر لأن المعتصم

---

(١) أخرجه الطبري عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه بلفظه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ، من طريق الطبري أيضا قال : حدثنا الثقة عن زيد بن أسلم مطولا . وذكره ابن هشام فلم يذكر إسناد إسحاق . وزاد في آخره « وكان يومئذ على الأوس حضير بن سماك والدأسيد ، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي . فقتلا جميعا . وأنزل الله في شاس (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ـ الآية) وذكره الثعلبي والواحدي في أسبابه عن زيد بن أسلم بغير إسناد .

(٢) قوله « يوم بعاث » بعاث بالضم يوم وقعة للأوس والخزرج . (ع)

(٣) قوله « فقال أتدعون الجاهلية » في الشهاب على البيضاوي أنه محرف والرواية أبدعوى الجاهلية أي أتأخذون بها (ع)

(٤) قوله « على لسان الرسول غضة طرية » في الصحاح : شيء غض ، أي طري ، وكل ناضر غض ، نحو الشباب وغيره . وفيه شيء طري ، أي غض بين الطراوة . (ع)

بالله متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

﴿حقّ تقاته﴾ واجب تقواه وما يحق منها ، وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم ، ونحوه (فاتقوا الله ما استطعتم) يريد : بالغوا فى التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا . وعن عبدالله : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى[١] ، وروى مرفوعا . وقيل : هو أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه . وقيل : لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه ، والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد ﴿ولا تموتنّ﴾ معناه : ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو : لا تأتنى إلا وأنت على حصان ، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التى شرطت عليه فى وقت الإتيان . قولهم اعتصمت بحبله : يجوز أن يكون تمثيلا لاستظهاره به ووثوقه بحمايته ، بامتساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، وأن يكون الحبل استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد ، أو ترشيحا لاستعارة الحبل بما يناسبه . والمعنى : واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرقوا عنه . أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة ؛ أو بكتابه لقول النبى صلى الله عليه وسلم «القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم»[٢] . ﴿ولا تفرّقوا﴾ ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف

---

(١) قال المصنف وروى مرفوعا انتهى . فأما الموقوف فأخرجه الحاكم من طريق مسعر عن زيد عن مرة عنه ، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى ، وقال أبو نعيم فى ترجمة مسعر من الحلية : حدثنا سليمان بن أحمد ، وهو الطبرانى ـ فذكره . ثم قال : هكذا رواه الناس عن زيد موقوفا . ورفعه النضر عن محمد بن طلحة عن زيد ثم ساقه مرفوعا . وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن وهب عن سفيان الثورى عن زيد مرفوعا أيضا . وله شاهد عن ابن عباس مرفوعا . أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس . لكنه من نسخة عبد الغنى بن سعيد الثقفى عن موسى بن عبد الرحمن الصنعانى . وهى ساقطة .

(٢) أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن ، من حديث الحارث الأعور عن على رضى الله عنه مطولا . وفيه قصة وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات . وإسناده مجهول انتهى . وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق =

بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويحاربه . أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التى أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام . كانوا فى الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام . وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا ﴿إخوانا﴾ متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة فى الله : وقيل : هم الأوس والخزرج ، كانا أخوين لأب وأم ، فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ وكنتم مشفين[1] على أن تقعوا فى نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإسلام . والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا[2] وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال :

* كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ * [3]

═ والدارمى والبزار من طريق الحارث . قال البزار : لا نعلمه إلا من طريق على . ولا نعلم رواه عنه إلا الحارث انتهى . وله شاهد عن معاذ بن جبل . أخرجه الطبرانى من رواية عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة عن ابن إدريس بلفظ « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن فشددها . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ـ فذكر الحديث بطوله . ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود مرفوعا أيضا « إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشافع ، عصمة لمن تمسك به ... الحديث » أخرجه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم البحرى عن أبى الأحوص عنه . وإبراهيم ضعيف .

(١) قوله « وكنتم مشفين » أى مشرفين . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : « الضمير للشفا وهو مذكر وإنما أنثه للاضافة ... الخ » قال أحمد : ويجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنت إليها . والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التى يمتن بالانقاذ منها حقيقة . وأما الامتنان بالانقاذ من الشفا فلا يستلزمه الكون على الشفا غالبا ، من الهوى إلى الحفرة ، فيكون الانقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التى يتوقع الهوى فيها ، فاضافة المنة إلى الانقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع ، مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو على فى التعاليق من ضرورة الشعر . خلاف رأيه فى الإيضاح . نقله ابن يسعون . وماحل الزمخشرى على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذى كانوا عليه ، ولم يكونوا فى الحفرة حتى يمتن عليهم بالانقاذ منها ، وقد بينا فى أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالانقاذ من الحفرة ، لأنهم كانوا صائرين إليها غالبا لولا الانقاذ الربانى . ألا ترى إلى قوله عليه السلام « المرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه » وإلى قوله تعالى (أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سببا مؤديا إلى انهياره فى نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله (هار) والله أعلم .

(٣)
فلو كنت فى جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجنك القول حتى تهره وتعلم أنى عندكم غير مفحم
وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

للأعشى ميمون بن قيس وفيه وجهان : الأول أنه يصف رجلا بافشاء السر ، وأنه لو تحيل لكتمه لم يقدر ، أى ═

وشفا الحفرة وشفتها : حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو ، إلا أنهـا فى المذكر مقلوبة وفى المؤنث محذوفة ، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبة . فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليـه وقعوا فى النار ، فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿ يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إرادة أن تزدادوا هدى .

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ من للتبعيض [1] ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغلظ فى موضع اللين ، ويلين فى موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا ، أو على مَن الإنكار عليه عبث ،

= لو بالغت فى الكتمان حتى كأنك كنت فى بئر عميق . فالعدد كناية عن ذلك ، ثم رقيت من قعره وبلغت أسباب السماء ، أى أبوابها . وقوله «بسلم» مبالغة فى التشبيه ، كأنه صعد حقيقة على سلم «ليستدرجنك» بالنون المخففة ، أى ليستنزلنك «القول» من السماء درجة درجة إلى قعر البئر كما كنت ويفسد تحيلك ، فتهره أى تقوله . ودرج الصبى : إذا قارب بين خطاه . ودرج القوم : مات بعضهم إثر بعض . وهر الكلب هريراً إذا صوت . وفيه إشعار بتشبيهه بالكلب النابح . وتعلم ، أى وأجيب أنا عن قولك فتعلم انى غير عاجز عن الجواب فيما بينكم . وروى «عنكم» بدل «عندكم» وهى هى . ورجع إلى بيان استدراج القول له فقال : وتشرق بالقول الذى قد أذعته ونشرته عنى . وشرق : إذا غص بريقه أو نحوه . وذاع الخبر ذيعا وذيوعا : انتشر . وأذاعه : نشره . أى لم تقدر على ابتلاعه وكتمانه كما لم يبلغ صدر القناة أى الرمح الدم الذى يكون عليه من القتيل . وشبه القول الذى لم يقدر على كتمانه بالشىء الذى لم يقدر على ابتلاعه ، فاستعار الشرق للعجز عن الكتمان على طريق التصريحية . وشبه الشرق الأول بالثانى ليفيد ضمنا أن قوله كالدم للمبالغة فى عدم إمكان الكتمان . الوجه الثانى أن معناه لو كنت متباعداً عنى كأنك فى قعر البئر ورقيت منه إلى السماء ليقربنك القول إلى شيئاً فشيئا حتى تهره ، أى تكرهه وتبغضه ، وتعلم أنى عندكم غير عاجز عن الكلام الذى يقربك إلى ، وتشرق بالقول الذى قد أذعته أنا عنك ؛ فالتاء على هذا للمتكلم ، أى لم تقدر على استماعه ودخوله أذنك كما لم تقدر صدر القناة على ابتلاع الدم . وصدر القناة مذكر . ولكن اكتسب التأنيث من المضاف إليه ، فلذلك أنث فعله وقال شرقت ، وقيل القناة هنا مجرى الماء ، وأين هى من الدم .

(١) قال محمود «من للتبعيض ... الخ» قال أحمد : وفى هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك ، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص . ومن هذا الأسلوب قوله تعالى (اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيها على قلة الناظر فى معاده ، وكذلك قوله (وتعيها أذن واعية) حتى ورد فى التفسير أن المراد أذن واحدة مخصوصة وهى أذن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

كالإنكار على أصحاب المآصر [١] والجلادين وأضرابهم. وقيل «من» للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون). ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال: آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله وأوصلهم [٢]. وعنه عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه [٣]» وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن شنئ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له [٤]. وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري. إذا كان الرجل محببا في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فندب. وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح. فإن قلت: ما طريق الوجوب؟ قلت: قد اختلف فيه الشيخان، فعند أبي علي: السمع والعقل، وعند أبي هاشم: السمع وحده. فإن قلت: ما شرائط النهي؟ قلت: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن، وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعا، لأن الواقع لا يحسن النهي عنه، وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث. فإن قلت: فما شروط الوجوب؟ قلت: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب

---

(١) قوله «المآصر» جمع مأصر، وهو المحبس أي السجن، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبري والبيهقي في الشعب من رواية شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن زوج درة بنت أبي لهب قالت «كنت عند عائشة، فجيء برجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم كان ناداه وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فذكره».

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة كادح بن رحمة من روايته عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن مسلم بن جابر عن عبادة بن الصامت. وكادح ساقط. وله شاهد مرسل أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة عن بقية عن حسان بن سليمان عن أبي نضرة عن الحسن البصري. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة علي مطولا، من رواية خلاس بن عمرو قال: كنا جلوسا عند علي ابن أبي طالب رضي الله عنه إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: يا أمير المؤمنين هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعت الإسلام؟ قال: سمعته يقول: بني الإسلام على أربعة أركان: الصبر واليقين والجهاد والعدل ـ فذكره ـ إلى أن قال: والجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. والصدق في مواطن الصبر. وشنآن الفاسقين. فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن. ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافر. ومن صدق في مواطن الصبر أحرز دينه. وقضى ما عليه. ومن شنئ الفاسقين فقد غضب لله. ومن غضب لله غضب الله له» وهو من طريق إسحق ابن بشر عن مقاتل. وهما ساقطان. قال: ورواية العلاء بن عبد الرحمن عن قبيصة بن جابر عن علي رضي الله عنه.

قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته ، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة . فإن قلت : كيف يباشر الإنكار ؟ قلت : يبتدئ بالسهل ، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب ، لأنّ الغرض كف المنكر . قال الله تعالى : فأصلحوا بينهما ، ثم قال : فقاتلوا ، فإن قلت : فمن يباشره ؟ قلت : كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه ، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار ، لأنه معلوم قبحه لكل أحد . وأما الإنكار الذى بالقتال ، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها . فإن قلت : فمن يُؤمر ويُنهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا همَّ بضرر غيره مُنع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعوّدوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها . فإن قلت : هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه قلت : نعم يجب عليه ، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه ؛ فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر . وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا . وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول : لا أقول مالا أفعل ، فقال : وأينا يفعل مايقول ؟ ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر . فإن قلت . كيف قيل (يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف) ؟ قلت : الدعاء إلى الخير[1] عام فى التكاليف من الأفعال والتروك والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خاص ، فجىء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذانا بفضله ، كقوله (والصلاة الوسطى) .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾

(١) (عاد كلامه) قال : « وقوله يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر صدر الكلام بالدعاء ... الخ » قال أحمد : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وكقوله (فيهما فاكهة ونخل ورمان) وكقوله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وشبه ذلك ، لأن الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر يفيده تميزاً عن غيره من بقية المتناولات . وأما هذه الآية ، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهى ، لا يعدو واحدا من هذين ، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات ، فالأولى فى ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاما ، ثم مفصلا . وفى تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية والله أعلم ، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشرى ، وما أرى هذا العرف ثابتا ، والله أعلم .

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿من بعد ماجاءهم البينات﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهى كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية [1] وأشباههم ﴿يوم تبيض وجوه﴾ نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار اذكر، وقرئ: تبيض وتسود، بكسر حرف المضارعة. وتبياض وتسواد، والبياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله ﴿أكفرتم﴾ فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم. والظاهر أنهم أهل الكتاب. وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعترافهم به قبل مجيئه. وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بنى قريظة والنضير. وقيل هم المرتدون. وقيل أهل البدع والأهواء، وعن أبى أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء. وخير قتلى تحت أديم السماء: الذين قتلهم هؤلاء، فقال له أبو غالب: أشىء تقوله برأيك، أم شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عيناك، قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثيراً. فأعاذك الله منهم [2]. وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴿ففى رحمة الله﴾ فنى نعمته وهى الثواب المخلد، فإن قلت: كيف موقع قوله ﴿هم فيها خالدون﴾ بعد قوله (ففى رحمة الله)؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لايظعنون عنها ولا يموتون.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

(١) قوله «وهم المشبهة والمجبرة والحشوية» إن أراد بهم أهل السنة ومن وافقهم كعادته، فقد أفرط فى التعصب للمعتزلة. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى فى تفسيره من طريق عكرمة بن عمار عن شداد عن أبى أمامة هكذا. ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم. وقد أخرجه الترمذى وابن ماجه، وعبد الرزاق وأحمد وإسحق وأبو يعلى والطبرانى كلهم من طريق أبى غالب. بتمامه. وله إسناد آخر أخرجه الطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أبى أمامة.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

﴿تلك آيات الله﴾ الواردة فى الوعد والوعيد ﴿نتلوها عليك﴾ ملتبسة ﴿بالحق﴾ والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه ﴿وما الله يريد ظلما﴾ فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد فى عقاب مجرم، أو ثواب محسن. ونكر ظلما وقال ﴿للعالمين﴾ على معنى ما يريد شيئا من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح[1] والرضا بها.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

«كان» عبارة عن وجود الشيء فى زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ، ومنه قوله تعالى (وكان الله غفوراً رحيما) ومنه قوله تعالى ﴿كنتم خير أمة﴾ كأنه قيل: وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم فى علم الله خير أمة. وقيل: كنتم فى الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة، موصوفين به ﴿أخرجت﴾ أظهرت، وقوله ﴿تأمرون﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة، كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم ﴿وتؤمنون بالله﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيمانا بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقاً) والدليل عليه قوله تعالى ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ مع إيمانهم بالله ﴿لكان خيراً لهم﴾ لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمردون فى الكفر ﴿لن

(١) قوله «فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح» يريد أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف. (ع)

يضروكم إلا أذى﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من طعن فى الدين أو تهديد أونحو ذلك ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ منهزمين ولا يضروكم بقتل أوأسر ﴿ثم لا ينصرون﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم . وفيه تثبيت لمن أسلم منهم ، لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به ، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذل . فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله (ثم لا ينصرون) ؟ [1] قلت عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟ قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم ، كتولية الأدبار . وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا ، كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر . فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟ قلت : جملة الشرط والجزاء كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت : فما معنى التراخى فى ثمّ ؟ قلت : التراخى فى المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار . فإن قلت : ما موقع الجملتين أعنى (منهم المؤمنون) و(لن يضروكم) ؟ قلت : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت ، ولذلك جاءا من غير عاطف .

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

﴿بحبل من الله﴾ فى محل النصب على الحال ، بتقدير : إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله وهو استثناء من أعم عام الأحوال . والمعنى : ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا فى

(١) قال محمود : « إن قلت هلا جزم المعطوف فى قوله ثم لا ينصرون . . . الخ » ؟ قال احمد : وهذا من الترقى فى الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم فى النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً . ويزيد هذا الترقى بدخول ثم دون الواو ، فانها تستعار ههنا للتراخى فى الرتبة لا فى الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى فى الامتنان وأسمح فى رتب الاحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون البتة ، والله أعلم .

حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس ، يعنى ذمة الله وذمة المسلمين ، أى لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ استوجبوه ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ كما يضرب البيت على أهله ، فهم ساكنون فى المسكنة غير ظاعنين عنها ، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ماذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله أى ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، ثم قال ﴿ذلك بما عصوا﴾ أى ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده ليعلم أنّ الكفر وحده ليس بسبب فى استحقاق سخط الله ، وأنّ سخط الله يستحق بركوب المعاصى كما يستحق بالكفر . ونحوه (مما خطيآتهم أغرقوا) ، (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) .

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

الضمير فى ﴿ليسوا﴾ لأهل الكتاب ، أى ليس أهل الكتاب مستوين . وقوله ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ كلام مستأنف لبيان قوله (ليسوا سواء) كما وقع قوله (تأمرون بالمعروف) بيانا لقوله (كنتم خير أمة) ، أمة قائمة : مستقيمة عادلة ، من قولك : أقمت العود فقام ، بمعنى استقام ، وهم الذين أسلموا منهم . وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن فى ساعات الليل مع السجود ، لأنه أبين لما يفعلون ، وأدل على حسن صورة أمرهم . وقيل عنى صلاة العشاء ، لأن أهل الكتاب لا يصلونها . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله فى هذه الساعة غيركم[1] ، وقرأ هذه الآية . وقوله ﴿يتلون﴾ و﴿يؤمنون﴾ فى محل الرفع صفتان لأمة ، أى أمة قائمة تالون مؤمنون ، وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل

(١) أخرجه النسائى وابن حبان وأحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار ، كلهم من رواية عاصم عن زرعة .

ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض. ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته. ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسارعة فى الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها. والمسارعة فى الخير: فرط الرغبة فيه لأن من رغب فى الأمر سارع فى توليه والقيام به وآثر الفور على التراخى ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿من﴾ جملة ﴿الصالحين﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم. ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين ﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر فى قوله (والله شكور حليم) فى معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك. فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين. وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان، فكأنه قيل: فلن تحرموه؛ بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرئ يفعلوا، ويكفروه، بالياء والتاء ﴿والله عليم بالمتقين﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَـلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

الصرّ: الريح الباردة [١] نحو: الصرصر. قال:

لَا تَعْـدِلَنَّ أَتَاوِيِّينَ تَضْرِبُهُمْ نَـكْبَاءُ صِرٌّ بِأَصْحَابِ الْمَحَلَّاتِ [٢]

(١) قال محمود: «والصر الريح الباردة ... الخ» قال أحمد: كلها أوجه وجيهة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية فى الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها فنقول: إذا قلت مثلا: إن ضيعني زيد فى عمرو بعد الله كاف، فقولك «كاف» أثبت به منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذى هو عمرو محلا له، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعين، فهى ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبه لهذه النكتة فانها لطيفة، والله الموفق.

(٢) الأتاوى: الغريب البعيد، كأنه منسوب إلى الأتاوة وهي الرشوة والخفالة، لأنه قد يبذلها على إقامته فى غير وطنه. والنكباء: الريح الشديدة. والصر الحارة، وقيل الباردة. وقال الزجاج: صوت النار فى الريح. وقيل: صوت الريح. وقيل: الجو. وقيل: البرد. وعلى هذا لو روى بالجر على الاضافة لكان وجيها. والمحلات قيل هي أدوات البيت كالفأس والقدر والغربال والدلو. ويجوز أنها البيوت وهو الظل من البيت. يقول: لا تسو بين الغرباء وبين أصحاب البيوت. وروى: لا يعدلن أتاويون، بالبناء للمجهول، ومابعده نائب فاعل. ورواه الجوهرى بالبناء للفاعل، وقال: أى لا يعدلن أتاويون أحداً بأصحاب المحلات، فحذف المفعول وهو مدان، وفسر المحلات فحذف الموصول وهو مدان، وفسر المحلات فيه بالأدوات كافة، لأن الأتاوى يستعيرها من أصحابها. وعلى كل فالنون للتوكيد.

كما قالت ليلى الأخيلية :

وَلَمْ يَغْلِبِ الْخَصْمَ الأَلَدَّ وَيَمْلإِ الْـــجِفَانَ سَدِيفًا يَوْمَ نَكْبَاءَ صَرْصَرِ (١)

فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ كمثل ريح فيها صرّ ﴾ ؟ قلت : فيه أوجه : أحدهما أنّ الصرّ فى صفة الريح بمعنى الباردة ، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرة صرّ ، كما تقول : برد بارد على المبالغة . والثانى : أن يكون الصر مصدراً فى الأصل بمعنى البرد فجىء به على أصله . والثالث : أن يكون من قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ومن قولك : إن ضيعنى فلان ففى الله كاف وكافل . قال :

* وَفِى الرَّحْمَـٰنِ لِلضُّعَفَاءِ كَافِى * (٢)

---

(١) كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ ... بنجد ولم يطلع من المتغور
ولم يغلب الخصم الألد ويملأ الـــجفان سديفا يوم نكباء صرصر

لليلى الأخيلية ترثى صاحبها توبة بن الحمير وتتذكر أحواله وتعد مناقبه . وفتى الفتيان : أى هو الفتى من بينهم وليسوا فتيانا بالنسبة له وإن كانوا فتيانا فى أنفسهم ، وتوبة بدل . ولم ينخ من أناخ بعيره ، خبر كأن ، أى كأنه لم ينخ بعيره بمحل مرتفع . ويروى : لم يسر بنجد ، ولم يطلع من أطلع بمعنى طلع ، أو لم يطلع بعيره من المتغور على اسم المفعول ، أى المكان المنخفض مافيه ، وكأنه لم يغلب الخصم الشديد الخصومة . ويروى الخصم الصحاح بفتح الصاد ، بمعنى الصحيح ، وكأنه لم يملأ الجفان سديفاً ، أى قطعاً بيضا من السنام فى زمن الريح الشديدة الباردة ، أو كثيرة الصرير وهو التصويت تعنى أنه كان يفعل ذلك كله ، ثم كأنه اليوم لم يفعل لموته .

(٢) لقد زاد الحياة إلى حبا ... بناتى إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدى ... وأن يشربن رنقا بعد صاف
وأن يعرين إن كسى الجوارى ... فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولاهن قد سويت مهرى ... وفى الرحمن للضعفاء كافى

لأبى خالد الخارجى . وقيل : لمحمد بن عبد الله الأزدى . وقيل : لعمران بن حطان . وقيل غير ذلك ؛ لامه قطرى ابن الفجاءة عن التخلف عن الحرب فاعتذر بذلك . وبناتى فاعل زاد . وأحاذر أى أخاف أن يدركهن الفقر بعد موتى ، وكنى عن ذلك برؤيتهن له مبالغة ، لأنه إذا خاف الرؤية خاف اللحوق . ويروى مخافة أن يذقن البؤس ، أى الشدة ، فشبهه بمطعوم على سبيل المكنية والذوق تخييل . ورنق الماء كدر ، وترنق تكدر ، ورنقه وأرنقه كدره ، والرنق بالتحريك مصدر كالكدر فسكن وأريد منه الماء الكدر . وروى « زيفا » أى مغشوشا مكدرا ، فالمراد واحد ، فشبه العيش المنغص به ، وشبه العيش الناعم بالماء الصافى على طريق التصريح والشرب ترشيح ، وكسى بوزن فرح لازم ضد عرى . ويجوز هنا بناؤه للمجهول ، من كسى المتعدى كدعا . وإن للشرط المجرد عن الشك أو بمعنى إذ . وتنبو ترتفع عنهن ، كناية عن عدم التزوج بهن . والكرم بالسكون ، وقيل ـ بالكسر ـ وصف من الكرم يقع على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثا . ويروى « عن رم » أى باليات ، وهو أشبه بالسياق . والعجاف جمع عجفاء ، أى مهزولة ، أى لا يلتفت إليهن مع كونهن كريمات لهزالهن ورثاثة حالهن . وسويت مهرى : وضعت عليه آلات الحرب ومهدته وهيأته لها . ويروى « قد سموت مهرى » ، ولعله بتخفيف الميم بمعنى علوت عليه وركبته وقيل : بمعنى وضعت عليه سمات الحرب ، فلعله مقلوب . و « سمت » وروى سومت بالتشديد ، وهو الذى يصلح أنه بمعنى جعلت عليه علامات الحرب لاذاك ، وجود من جانب الله عز وجل شخصا كافيا ، ولا حجر فى المبالغة لا سيما على العرب . وفيه نوع استرجاع إلى الله وتفويض إليه وتوكل عليه ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين .

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم فى المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله، بالزرع الذى حسه البرد فذهب حطاما. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله. وشبه بحرث ﴿قوم ظلموا أنفسهم﴾ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم، لأن الهلاك عن سخط أشد وأبلغ. فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا فى قلة جدواه[1] وضياعه بالحرث الذى ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلا بالريح. قلت: هو من التشبيه المركب الذى مر فى تفسير قوله (كمثل الذى استوقد ناراً) ويجوز أن يراد: مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرئ: تنفقون، بالتاء ﴿وما ظلمهم الله﴾ الضمير للمنفقين على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم، أى: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ (ولكنّ) بالتشديد، بمعنى ولكنّ أنفسهم يظلمونها هم. ولا يجوز أن يراد: ولكن أنفسهم يظلمون، على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز فى الشعر.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

---

(١) قال محمود «فان قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا فى قلة جدواه ... الخ» قال أحمد: أما إيراد السؤال فلا ترتضى صيغته لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض. ولا ينبغى التساهل فى ذلك، فان أحدنا لو أورد سؤالا على كلام إمام معتبر بمرأى منه ومسمع، تحيل فى أنواع التلطف فى إيراده وبعد عن أمثال هذه العبارة. ولعل الاعتراض على ذلك الامام يكون وارداً لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح فى إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسئل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فما أجدره أن يتوفر فى الاسترشاد وأن يتأدب فى الايراد؛ ثم نعود إلى جواب الزمخشرى الثانى وهو قوله «إن المراد مثل إهلاك ما ينفقون» فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب عن المطابقة المسئول عنها، والسؤال باق. وذلك أن الريح المشبه بها ليست الاهلاك وإنما هى المهلكة. ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذ يبعد هذا الوجه. وأقرب منه أن يقول: أصل الكلام والله أعلم: مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته. ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة وهو تقديم ما هو أهم؛ لأن الريح التى هى مثل العذاب ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقدمت عناية بذكرها واعتمادا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه. ومثل هذا فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله تعالى (فرجل وامرأتان، ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما ... الآية) ومثله أيضاً: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه. والأصل: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وأن أدعم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة، والله الموفق.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

بطانة الرجل ووليجته: خصيصه وصفيه الذى يفضى إليه بشقوره[1] ثقة به شبه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعارى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «الأنصار شعار والناس دثار[2]». ﴿من دونكم﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون. ويجوز تعلقه بلا تتخذوا، وببطانة على الوصف، أى بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لا يألونكم خبالا﴾ يقال: ألا فى الأمر يألو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدّى إلى مفعولين فى قولهم: لا ألوك نصحا، ولا ألوك جهدا، على التضمين. والمعنى: لا أمنعك نصحا ولا أنقصكه. والخبال: الفساد ﴿ودوا ما عنتم﴾ ودوا عنتكم، على أن «ما» مصدرية. والعنت: شدّة الضرر والمشقة. وأصله انهياض العظم بعد جبره، أى تمنوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشدّ الضرر وأبلغه ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للسلمين. وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضا على ذلك. وفى قراءة عبد الله قد بدأ البغضاء ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه ﴿إن كنتم تعقلون﴾ ما بين لكم فعملتم به. فإن قلت: كيف موقع هذه الجمل؟ قلت يجوز أن يكون ﴿لا يألونكم﴾ صفة للبطانة وكذلك ﴿قد بدت البغضاء﴾ كأنه قيل: بطانة غير آليكم خبالا بادية بغضاؤهم. وأما (قد بينا) فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة ﴿ها﴾ للتنبيه. و﴿أنتم﴾ مبتدأ. و﴿أولاء﴾ خبره. أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاة منافقى أهل الكتاب. وقوله ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم فى موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل ﴿أولاء﴾ موصول (تحبونهم) صلته. والواو فى ﴿وتؤمنون﴾ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم

(١) قوله «بشقوره» فى الصحاح الشقور بالضم الأمور اللاصقة بالقلب المهمة له الواحد شقر (ع)

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازنى فى أثناء حديث طويل، أوله «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح حنينا قسم المغانم».

أى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشىء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم. ونحوه (فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) ويوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المرى:

فَأَقْتُلُ أَقْوَامًا لِئَامًا أَذِلَّةً   يَعَضُّونَ مِنْ غَيْظٍ رُءُوسَ الْأَبَاهِمِ [1]

﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله ومالهم فى ذلك من الذل والخزى والتبار ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم مافى صدور المنافقين من الحنق والبغضاء، وما يكون منهم فى حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل فى جملة المقول أو خارج منها. فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان داخلا فى جملة المقول فمعناه: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظا إذا خلوا، وقل لهم إنّ الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أنّ شيئا من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجا فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعى إياك على ما يسرون فإنى أعلم ماهو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه فى صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم. ويجوز أن لا يكون ثمّ قول، وأن يكون قوله (قل موتوا بغيظكم) أمراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع. والسيئة: ما كان ضدّ ذلك. وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدّة. فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ [2] قلت: المس

(١) للحرث بن ظالم المرى. وعض الأنامل من الغيظ: كناية عن شدته. وأطلق الأباهم وأراد مطلق الأصابع مجازاً مرسلا؛ لأنه لا داعى للتخصيص المخالف للواقع عادة. ويحتمل أنها حقيقة.

(٢) قال محمود: «إن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة... الخ، قال أحمد: يمكن أن يقال: المس أقل تمكنا من الاصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الاصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذى يرثى الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم ولا فى هذه الحال، بل يفرحون ويسرون. والله أعلم.

مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً . ألا ترى إلى قوله : (إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة) ، (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ، (إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) . ﴿ وإن تصبروا ﴾ على عداوتهم ﴿ وتتقوا ﴾ مانهيتم عنه من موالاتهم . أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله فى اجتنابكم محارمه كنتم فى كنف الله فلا يضركم كيدهم . وقرئ (لا يضركم) من ضاره يضيره . ويضركم على أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد ، كقولك مدّ يا هذا . وروى المفضل عن عاصم (لا يضركم) بفتح الراء ، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى . وقد قال الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا فى نفسك ﴿ إن الله بما تعملون ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿ محيط ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله . وقرئ بالياء بمعنى أنه عالم بما يعملون فى عداوتكم فمعاقبهم عليه .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ غدوت من أهلك ﴾ بالمدينة وهو غدوّه إلى أحد من حجرة عائشة رضى الله عنها . روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ، فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبىّ ابن سلول ولم يدعه قط قبلها ، فاستشاره . فقال عبد الله وأكثر الأنصار : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا ، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم . فقال صلى الله عليه وسلم : إنى قد رأيت فى منامى بقراً مذبحة حولى ، فأوّلتها خيراً ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً فأولته هزيمة ، ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم . فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : اخرج بنا إلى أعدائنا . فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته . فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه ، وقالوا : اصنع يا رسول ما رأيت ، فقال : لا ينبغى لنبىّ أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة

الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوّم بهم القدح[١]. إن رأى صدراً خارجا قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد؛ وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»[٢] ﴿ تبوّئ المؤمنين ﴾ تنزلهم. وقرأ عبد الله للمؤمنين، بمعنى تسوى لهم وتهيئ ﴿ مقاعد للقتال ﴾ مواطن ومواقف. وقد اتسع فى قعد وقام حتى أجريا مجرى صار. واستعمل المقعد والمقامُ فى معنى المكان. ومنه قوله تعالى (فى مقعد صدق)، (قبل أن تقوم من مقامك) من مجالسك وموضع حكمك ﴿ والله سميع ﴾ لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿ إذ همت ﴾ بدل من (إذ غدوت) أو عمل فيه معنى (سميع عليم). والطائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ألف، وقيل فى تسعمائة وخمسين، والمشركون فى ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله بن أبىّ بثلث الناس وقال: ياقوم، علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى فقال: أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم، فقال عبداك: لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فهمّ الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣]. وعن ابن عباس رضى الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه، كما قال عمرو بن الأطنابة:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى[٤]

---

(١) قوله «كأنما يقوم بهم القدح» فى الصحاح: القدح ـ بالكسر ـ السهم قبل أن يراش ويركب نصله. (ع)

(٢) أخرجه ابن إسحق فى المغازى، قال: حدثنى محمد بن شهاب وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين ابن عبد الرحمن وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث عن غزوة أحد. وكان من حديثهم قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين يوم أحد «إنى رأيت بقراً وأولتها خيراً. ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً ـ فذكر الحديث بطوله وفيه: ومات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو. وفيه: ذكرا للأمة وغير ذلك. ومن طريق ابن إسحق أخرجه البيهقى فى الدلائل وأورد منه الطبرى من طريقه قطعة. وساقه عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة مطولا وأخرجه الطبرى من رواية أسباط عن السدى بلفظ المصنف، إلى قوله «وأصبح بالشعب» وبقية ذلك هو من كلام ابن إسحق «قوله فيه حتى يقوم بها القداح» وقع فى رواية الواقدى عن ابن أخى الزهرى عن عروة عن المسور بن مخرمة، وقد ساقه الواقدى بهذا الاسناد مطولا.

(٣) هو فى الذى قبله. وذكره ابن هشام فى تهذيب السيرة بتمامه عن ابن إسحاق.

(٤) أبت لى عفتى وأبى تلادى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

حتى قال معاوية : عليكم بحفظ الشعر ، فقد كدت أضع رجلى فى الركاب يوم صفين ، فما ثبت منى إلاقول عمرو بن الأطنابة . ولو كانت عزيمة لمـا ثبتت معها الولاية ، والله تعالى يقول ﴿ والله وليهما ﴾ ويجوز أن يراد : والله ناصرهما ومتولى أمرهما ، فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله فإن قلت ، فما معنى ماروى من قول بعضهم عند نزول الآية . والله مايسرنا أنا لم نهم بالذى هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا ؟ قلت : معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية ، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بهـا ـ لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم ـ كانت سببا لنزولها . والفشل : الجبن والخور . وقرأ عبدالله : والله وليهم كقوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) .

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾

أمرهم بألايتوكلوا إلا عليه ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه ثم ذكرهم مايوجب عليهم التوكل

= لادفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

لعمرو بن الأطنابة وهى أمه ، وأبوه يزيد بن مناة بن ثعلبة من باهلة . والتلاد : المـال القديم الموروث . ويروى بلائى أى بأسى فى الحروب . واستعار الثمن لمـا يبذله فى المكارم على طريق التصريح . والربيح : الزائد . والاقحام : تكليف الدخول فى المكروه . ويروى : وإقدامى . ويروى « وأضرب » بدل « ضربى » وفيه دلالة على تجدد الضرب وإبرازه فى صورة إلى أمر المشاهد وهو من عطف المصدر المؤول على المصدر الصريح . ويحتمل أنها جملة حالية والتقدير : وأنا أضرب . والهامة أعلى الرأس . والمشيح : الجاد فى القتال ، من أشاح إذا جد واجتهـــد . وجشأت : تحركت واضطربت . وجاشت : غلت وارتفعت ، وكل شىء يغلى فهو يجيش . ومكانك : اسم فعل . أى الزمى يا نفس مكانك ، يحمدك الناس إن ظفرت ، أو تستريحى إن مت . ولأدفع : متعلق بالقول أو باسم الفعل أو بأبت لى ، أى منعتنى عفتى وما عطف عليها من الفرار . وإسناد الفعل لذلك مجاز عقلى من الاسناد للسبب . وشبه سلامة العرض من الطعن بسلامة البيضة مثلا من الكسر فاستعار لها الصحة على طريق التصريح .

مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم فى حالة قلة وذلة . والأذلة : جمع قلة والذلان جمع الكثرة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا ، وذلتهم : ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وماكان معهم إلا فرس واحد . وقلتهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوّهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة [1] . وبدر : اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمى به ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى الثبات مع رسوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته . أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمة أخرى تشكرونها ، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له ﴿ إذ تقول ﴾ ظرف لنصركم ، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر ، أو بدل ثان من (إذ غدوت) على أن يقوله لهم يوم أحد . فإن قلت . كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة ؟ قلت : قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى ، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا ، حيث خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لم تنزل الملائكة ، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت . وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله . ومعنى ﴿ ألن يكفيكم ﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة . وإنما جيء بلن الذى هو لتأكيد النفى ، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوّهم وشوكته كالآيسين من النصر . و ﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد لن ، بمعنى : بل يكفيكم الإمداد بهم ، فأوجب الكفاية ثم قال ﴿ إن تصبروا وتتقوا ﴾ يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسوّمين للقتال ﴿ ويأتوكم ﴾ يعنى المشركين ﴿ من فورهم هذا ﴾ من قولك : قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى ، وجاء فلان ورجع من فوره . ومنه قول أبى حنيفة رحمه الله : الأمر على الفور لا على التراخى ، وهو مصدر من : فارت القدر ، إذا غلت ، فاستعير للسرعة ، ثم سميت به الحالة التى لا ريث فيها ـ ولا تعريج على شيء من صاحبها ؛ فقيل : خرج من فوره ، كما تقول : خرج من ساعته ، لم يلبث . والمعنى : أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿ يمددكم ربكم ﴾ بالملائكة فى حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم ، يريد : أنّ الله يعجل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم . وقرئ ﴿ منزلين ﴾ بالتشديد . ومنزلين بكسر الزاى ، بمعنى : منزلين النصر . و (مسوّمين) بفتح الواو وكسرها ، بمعنى : معلمين . ومعلمين أنفسهم أو خيلهم . قال الكلبى : معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم . وعن الضحاك : معلمين بالصوف الأبيض فى نواصى الدواب وأذنابها . وعن مجاهد : مجزوزة أذناب خيلهم . وعن قتادة : كانوا على خيل بلق . وعن عروة بن الزبير : كانت عمامة

---

(١) قوله « والشكة والشوكة » فى الصحاح : الشكة ـ بالكسر ـ السلاح . والشوكة : شدة البأس . (ع)

الزبير يوم بدر صفراء ، فنزلت الملائكة كذلك ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه «تسوموا فإنّ الملائكة قدتسومت»[1] ﴿وماجعله الله﴾ الهاء لأن يمدكم . أى : وماجعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿ ولتطمئن به قلوبكم﴾ كما كانت السكينة لبنى إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ، ولا من عند الملائكة والسكينة ، ولكن ذلك مما يقوى به الله رجاء النصرة والطمع فى الرحمة ، ويربط به على قلوب المجاهدين ﴿العزيز﴾ الذى لايغالب فى حكمه ﴿الحكيم﴾ الذى يعطى النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة ﴿ ليقطع طرفا من الذين كفروا ﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم ﴿أو يكبتهم﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ﴿فينقلبوا خائبين﴾ غيرظافرين بمبتغاهم . ونحوه (وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) ويقال : كبته ، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة . وقيل فى قول أبى الطيب :

* لِأَكْبِتَ حَاسِدًا وَأَرِى عَدُوًّا * [2]

هو من الكبد والرئة ، واللام المتعلقة بقوله (ولقد نصركم الله) أو بقوله (وما النصر إلا من عند الله) . ﴿أو يتوب﴾ عطف على ماقبله .

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ (١٢٨)

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة . حدثنا أبو أمامة عن ابن عون . عن ابن عمير ، وابن إسحق بهذا . وهو مرسل وزاد : قال « فهو أول يوم وضع فيه الصوف » ورواه الطبرى من وجه آخر عن ابن عون به . وقال الواقدى : حدثنى محمد بن صالح عن عاصم بن عمر . عن محمود بن لبيد فذكره . قال : فأعلموا بالصوف فى مغافرهم ، ولم يذكر الزيادة . ورواه ابن سعدمن طرق فى قصة «وفيه فقال لأصحابه يومئذ : تسوموا فان الملائكة قد تسومت . قال فأعلموا بالصوف فى مغافرهم وقلانسهم »

(٢)
رويدك أيها الملك الجليل ... تأن وعده مما تنيل
وجودك بالمقام ولو قليلا ... فما فيما تجود به قليل
لأكبت حاسداً وأرى عدواً ... كأنهما وداعك والرحيل

لأبى الطيب . يقول تمهل يا أيها الملك عن السفر ، واجعل ذلك التأنى مما تحسن به إلينا ، وجودك علينا بالاقامة ، ولو كانت قليلة عندك أو فى ذاتها فهى كثيرة عندنا ، فانه ليس فيما تجود به قليل . وقوله « لأكبت » متعلق بتأن . وأصله : لأكبد ، قلبت الدال تاء لقرب مخرجيهما ، أى لأصيب كبد الحاسد بالغيظ . وأرى : أى أصيب رئة العدو به أيضا ، كأنهما : أى الحاسد والعدو، شبه الأول بالوداع ، والثانى بالرحيل ، فى أن كلا يحزنه . وخص الثانى بالثانى ؛ لأنه أشد كراهة . وفيه لف ونشر مرتب ، وهو حسن .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

و ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض . والمعنى أنّ الله مالك أمرهم ، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم . وقيل إنّ (يتوب) منصوب بإضمار «أن» ، و «وأن يتوب» في حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شيء ، أي ليس لك من أمرهم شيء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم . أو ليس لك من أمرهم شيء ، أو التوبة عليهم ، أو تعذيبهم ، وقيل «أو» بمعنى «إلا أن» ، كقولك : لألزمنك أو تعطيني حقى ، على معنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتتشفى منهم . وقيل : شجه عتبة ابن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم ، وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم [1] ، فنزلت . وقيل : أراد أن يدعو الله عليهم فنهاه الله تعالى ، لعلمه أن فيهم من يؤمن . وعن الحسن ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بالتوبة [2] ، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين [3] ﴿ويعذب من يشاء﴾ ولا يشاء أن يعذب إلا

(١) أخرجه عبد الرزاق . ومن طريقه الطبري . أخبرنا معمر عن قتادة : أن عتبة . فذكره ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد سواء . والحديث في الصحيحين من حديث سهل بن سعد «كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وشج رأسه . فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى الله ؟ فأنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) قال : وكانت فاطمة تغسل الدم عن وجهه - الحديث» وسيأتى قريباً أن الذي شجه عبد الله بن قمئة . وقال الواقدى : المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن قمئة : والذي رمى شفته وأصاب رباعيته . عتبة بن أبي وقاص . وفي السيرة لابن هشام من حديث أبي سعيد الخدرى أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى . وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب شجه في وجهه ، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر فأخذ على بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائماً ومص مالك بن سنان أبو أبي سعيد الدم عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من مس دمه دمي لم تصبه النار» .

(٢) قال محمود : «معناه يغفر لمن يشاء بالتوبة ... الخ» قال أحمد : هذه الآية واردة في الكفار . ومعتقد أهل السنة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الايمان ، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين وعندهم أن المؤمن التائب من كفره هو المعنى في قوله (يغفر لمن يشاء) كما قاله الزمخشرى . وأما تسلقه من ذلك على تعميم هذا الحكم وتعديته إلى الموحدين ، فمن التعامى والتصام حقيقة ، وإلا فهو أحذق من ذلك . وأما نسبته إلى أهل السنة التعامى والتصام والهوى والبدعة والافتراء ، فالله حسيبه في ذلك والسلام .

(٣) قوله «ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين» هذا عند المعتزلة . (ع)

المستوجبين للعذاب . وعن عطاء : يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالما . وإتباعه قوله ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ تفسير بين لمن يشاء ، وأنهم المتوب عليهم ، أو الظالمون ، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامتون ويتعامون [1] عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ، ويطيبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم . يهب الذنب الكبير لمن يشاء ، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة﴾ نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون [2] .
﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه . وقد أمدّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله . ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى ، وفى ذكره تعالى «لعلّ» و «عسى» في نحو هذه المواضع ـ وإن قال الناس ما قالوا ـ ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى ، وصعوبة إصابة رضا الله ، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه .

وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن

(١) قوله « ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون » يريد أهل السنة وتحقيق المبحث في علم التوحيد . (ع)
(٢) قوله « مال المديون » لعله المدين ، أو هو لغة شاذة . (ع)

تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

فى مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو. وقرأ الباقون بالواو. وتنصره قراءة أبىّ وعبد الله: وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يستحقان به ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أى عرضها عرض السموات والأرض، كقوله (عرضها كعرض السماء والأرض) والمراد وصفها بالسعة والبسطة، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخص العرض، لأنه فى العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله (بطائنها من إستبرق). وعن ابن عباس رضى الله عنه: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿فى السراء والضراء﴾ فى حال الرخاء واليسر وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا فى كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكى عن بعض السلف: أنه ربما تصدّق ببصلة. وعن عائشة رضى الله عنها أنها تصدّقت بحبة عنب [1] أو فى جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرّة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء، من المعروف. وسواء عليهم كان الواحد منهم فى عرس أو فى حبس، فإنه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان فى ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه فى مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا ملأها وشد فاها. وكظم البعير: إذا لم يجتر. ومنه كظم الغيظ، وهو أن يمسك على ما فى نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرا. وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا [2]» وعن عائشة رضى الله عنها: أن خادماً لها غاظها فقالت: لله درّ التقوى. ما تركت لذى غيظ شفاء. ﴿والعافين عن الناس﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروى «ينادى مناد يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا» [3] وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبى صلى

(١) أخرجه ابن سعد أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا فضيل بن مرزوق عن ظبية بنت المعال. قالت «دخلت على عائشة فجاء سائل فأعطته حبة عنب، ثم نظرت إلينا. وقالت: أتعجبين من هذا؟ إن فى هذا لمثاقيل كثيرة».

(٢) أخرجه أبو داود. من رواية ابن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيه. قال ابن طاهر: هذا الصحابى هو معاذ بن أنس وابنه هو سهل. ورواه عبد الرزاق وأحمد عنه. والعقيلى من طريقه. قال: أخبرنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عم له عن أبى هريرة به. وعبد الجليل مجهول.

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب. من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن عمران بن حصين رفعه «إذا كان =

الله عليه وسلم : «إن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً فى الأمم التى[1] مضت» ﴿والله يحب المحسنين﴾ يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون. وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء ﴿والذين﴾ عطف على المتقين، أى أعدت للمتقين وللتائبين. وقوله (أولئك) إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك ﴿فاحشة﴾ فعلة متزايدة القبح ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أو أذنبوا أى ذنب كان مما يؤاخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا. وظلم النفس مادونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة. وظلم النفس الصغيرة ﴿ذكروا الله﴾ تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه، أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين[2] ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب، لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى مايقدر عليه وجب العفو[3] والتجاوز وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة. وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ولم يصرّوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «ماأصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين[4] مرة» وروى «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار[5]» ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فعل

ـــ يوم القيامة ينادى مناد من بطنان العرش ليقم الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا» وفى إسناده قصة إبراهيم بن مهدى مع المأمون. ورواه الطبرانى من رواية محرز أبى رجاء عن الحسن قال «يقال يوم القيامة ليقم من كان له على الله أجر فما يقوم إلا إنسان عفا، ثم قرأ (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين). وذكره أبو شجاع فى الفردوس عن أنس رضى الله عنه.

(١) ذكره الثعلبى عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره. وإسناده إلى مقاتل فى أول الكتاب، وفى الفردوس عن أنس نحوه فى أول الذى قبله.

(٢) قوله «عازمين» لعله عازمين على عدم العود. (ع)

(٣) قوله «بأقصى مما يقدر عليه وجب العفو» أما سمعاً فباتفاق، وأما عقلا فعند المعتزلة فقط. (ع)

(٤) أخرجه أبو داود والترمذى وأبو يعلى والبزار. من طريق عثمان بن واقد عن أبى نصيرة عن مولى لأبى بكر رضى الله عنه. قال الترمذى: غريب وليس إسناده بالقوى. وقال البزار: لا نحفظه إلا من حديث أبى بكر بهذا الطريق. وأبو نصيرة وشيخه لا يعرفان. قلت: له شاهد أخرجه الطبرانى فى الدعاء من حديث ابن عباس.

(٥) أخرجه إسحاق بن بشر أبو حذيفة فى المبتدأ عن الثورى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وإسحاق حديثه منكر. ورواه الطبرانى فى مسند الشاميين من رواية مكحول. عن أبى سلمة. عن أبى هريرة. وزاد فى آخره «فطوبى لمن وجد فى كتابه استغفارا كثيرا» وفى إسناده بشر بن عبد الوارث. وهو متروك. ورواه الثعلبى وابن شاهين فى الترغيب من رواية بشر بن إبراهيم عن خليفة بن سليمان عن أبى سلمة عن أبى هريرة به.

الإصرار وحرف النفى منصب عليهما معاً . والمعنى : وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهى عنها وبالوعيد عليها ، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح . وفى هذه الآيات بيان قاطع أنّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات متقون وتائبون ومصرّون ، وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم ، دون المصرّين [1] . ومن خالف فى ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه . قال ﴿أجر العاملين﴾ بعد قوله (جزاؤهم) لأنهما فى معنى واحد . وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أنّ ذلك جزاء واجب على عمل ، وأجر مستحق عليه ، لا كما يقول المبطلون [2] . وروى أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى : «ما أقلّ حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى» وعن شهر بن حوشب : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة . وعن الحسن رضى الله عنه : يقول الله تعالى يوم القيامة «جوزوا الصراط بعفوى ، وادخلوا الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم» وعن رابعة البصرية رضى الله عنها أنها كانت تنشد :

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِى عَلَى اليَبَسِ [3]

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : ونعم أجر العاملين ذلك . يعنى المغفرة والجنات ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يريد ما سنه الله فى الأمم المكذبين من وقائعه ، كقوله (وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) ، (سنة الله التى قد خلت من قبل) .

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

---

(١) (قوله والتائبين منهم دون المصرين) يعنى أن الاصرار كبيرة وفاعل الكبيرة يخلد فى النار لكن هذا عند المعتزلة ، وخالف أهل السنة لأنه مؤمن عندهم والمؤمن لا يخلد فيها وتحقيقه فى علم التوحيد . (ع)

(٢) (قوله وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون) يريد بهم أهل السنة حيث قالوا لا يجب على الله شىء . (ع)

(٣) ما بال نفسك ترضى أن تدنسها ... وثوب نفسك مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

للامام على كرم الله وجهه وقيل : لأبى العتاهية . والبال الشأن والنفس . ويجوز أنها الذات والثوب على ظاهره . ويجوز أنها الروح والثوب مستعار للجسم ، لأنه للروح كالثوب للبدن . أى لا ينبغى تدنيس المظروف مع تنظيف ظرفه . ويجوز أن الأولى الروح والثانية الذات . ويروى «مابال دينك ترضى أن تدنسه» وثوب نفسك : جملة حالية . ويروى : «وثوبك الدهر مغسول» . وترجو النجاة على حذف أداة الاستفهام التوبيخى ، أبرزه فى صورة الخبر ليصور قبحه ، وشبه الأسباب الموصلة للنجاة بالطرق المسلوكة على سبيل التصريحية «ولم تسلك» ترشيح . وقوله «إن السفينة» تمثيل لحال من يرجو أمراً ولم يأخذ فى أسبابه بحال ملاح يريد تسيير السفينة على أرض صلبة لا ماء بها ، وفيه تقرير التوبيخ الذى أفاده الاستفهام .

﴿هذا بيان للناس﴾ إيضاح لسوء عاقبة ماهم عليه من التكذيب ، يعنى : حثهم على النظر فى سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ يعنى أنه مع كونه بيانا وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين : ويجوز أن يكون قوله (قد خلت) جملة معترضة للبعث على الإيمان ومايستحق به ما ذكر من أجر العاملين ، ويكون قوله (هذا بيان) إشارة إلى مالخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصرّين ﴿ولاتهنوا ولاتحزنوا﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم ، يعنى ولاتضعفوا عن الجهاد لما أصابكم ، أى لا يورثنكم ذلك وهنا وجبنا ، ولا تبالوا به ، ولاتحزنوا على من قتل منكم وجرح ﴿وأنتم الأعلون﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب ، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد . أو وأنتم الأعلون شأنا ، لأنّ قتالكم لله ولإعلاء كلمته ، وقتالهم للشيطان لإعلاء كلمة الكفر ، ولأنّ قتلاكم فى الجنة وقتلاهم فى النار . أو هى بشارة لهم بالعلو والغلبة ، أى وأنتم الأعلون فى العاقبة (وإن جندنا لهم الغالبون) . ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهى بمعنى : ولاتهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه . أو بالأعلون ، أى إن كنتم مصدّقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة .

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)

قرئ ﴿قرح﴾ بفتح القاف وضمها ، وهما لغتان كالضعف والضعف . وقيل : هو بالفتح الجراح ، وبالضم ألمها . وقرأ أبو السمال (قرح) بفتحتين . وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد . والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال . فأنتم أولى أن لاتضعفوا . ونحوه (فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) وقيل : كان ذلك يوم أحد ، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : كيف قيل (قرح مثله) وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين ؟ قلت : بلى كان مثله ، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار . ألا ترى إلى قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) . ﴿وتلك الأيام﴾ تلك مبتدأ ، والأيام صفته . و﴿نداولها﴾ خبره ، ويجوز أن يكون (تلك

الأيام) مبتدأ وخبراً ، كما تقول : هي الأيام تبلى كل جديد . والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة ، نداولها : نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ، كقوله وهو من أبيات الكتاب :

فَيَوْمًا عَلَيْنَـا وَيَوْمًا لَنَـا وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوما نُسَرّ [(١)]

ومن أمثال العرب : الحرب سجال . وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ثم قال : أين ابن أبي كبشة ، أين ابن أبي قحافة ، أين ابن الخطاب . فقال عمر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر ، وها أنا عمر . فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال . فقال عمر رضي الله عنه : لاسواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار . فقال : إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا [(٢)] ، والمداولة مثل المعاورة . وقال :

يَرِدُ المِيَاهَ فَلاَ يَزَالُ مُدَاوِلا فِي النَّاسِ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وَسَمَاعِ [(٣)]

يقال : داولت بينهم الشيء فتداولوه ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعلل محذوفا معناه : وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف ، فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل . بمعنى : فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالما بالأشياء قبل كونها . وقيل : معناه وليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء ،

---

(١) فلا وأبي الناس لا يعلمون فلا الخير خير ولا الشر شر
فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
للنمر بن تولب ، وهو من أبيات الكتاب . و « لا » زائدة قبل القسم ، لأنه في الغالب لنفي شيء . وقيل : إشارة إلى اتضاح القضية المقسم عليها وعدم احتياجها إلى قسم ، لكنه إنما يظهر في مثل قوله تعالى (فلا أقسم) حيث أبرز في صورة النفي المعتادة : و « الناس » مبتدأ خبره « لا يعلمون » ثم بين ذلك بقوله : فليس الخير الذي زعموا أنه خير ، خيراً كما زعموا . وليس الشر الذي زعموه شراً كما زعموا . أو ليس الخير خيراً دائماً ، وليس الشر شراً دائماً . فيوم علينا نخذل فيه . ويوم لنا ننصر فيه ، ويوم نساء فيه ، ويوم نسر فيه . وروى بنصب اليوم . والمعنى : فيوما تدور الدائرة علينا ، ويوما تكون الدولة لنا . ونساء يوما ، ونسر يوما . وكل جملتين من هذه الجمل واقعتان موقع البيان مما قبلهما . وفي البيت الثاني : لف ونشر مرتب ، وذلك حسن .

(٢) أخرجه أحمد والحاكم والطبراني والبيهقي في الدلائل . من رواية ابن أبي الزناد عن أبيه عن ابن عباس أن أبا سفيان قال يوم أحد فذكره . قلت : وأصله في الصحيح من غير هذا الوجه بغير هذا السياق

(٣) فلأهدين مع الرياح قصيدة مني محبرة إلى القعقاع
ترد المياه فلا تزال تداولا في الناس بين تمثل وسماع
المحبرة : المحسنة . والقعقاع اسم الممدوح ، وهو في الأصل الشيء اليابس الصلب . ترد تلك القصيدة المياه ، خصها لكثرة الناس عليها وتغنيهم بالأشعار عندها ، أي ترد مواضع المياه فلا تزال متداولة في الناس ، أو فلا تزال ذات تداول ، أو فلا تزال تتداول تداولا بين الناس دائرة بين تمثل ، أي إنشاد لها بأن يضربها الناس أمثالا لأحوالهم ، وبين استماع لها لحسنها . وروى يرد المياه فلا يزال مداولا الخ فذكر ضمير القصيدة لأنها بمعنى الشعر .

وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثبات ، والثانى أن تـكون العلة محذوفة ، وهذا عطف عليه ، معناه : وفعلنا ذلك ليـكون كيت وكيت وليعلم الله . وإنمـا حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى عليهم ، وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أنّ لله فى ذلك من المصالح ماهو غافل عنه ﴿ ويتخذ منـكم شهداء ﴾ وليكرم ناسا منكم بالشهادة ، يريد المستشهدين يوم أحد . أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بمـا يبتلى به صبركم من الشدائد ، من قوله تعـالى (لتـكونوا شهداء على الناس) . ﴿ والله لايحب الظالمين ﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض . ومعناه : والله لايحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمـان ، المجاهدين فى سبيـل الله ، الممحصين من الذنوب . والتمحيص : التطهير والتصفية ﴿ ويمحق الـكافرين ﴾ ويهلـكهم . يعنى : إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص ، وغير ذلك ممـا هو أصلح لهم . وإن كانت على الـكافرين ، فلمحقهم ومحو آثارهم .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿ أم ﴾ منقطعة [1] ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿ ولمـا يعلم الله ﴾ بمعنى ولمـا تجاهدوا ، لأنّ العلم متعلق بالمعلوم [2] فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه لأنه منتف بانتفائه . يقول الرجل : ماعلم الله فى فلان خيراً ، يريد : مافيه خير حتى يعلمه . ولمـا بمعنى لم ، إلا أن فيها ضربا من التوقع فدلّ على نفى الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل . وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ، ولمـا تريد ، ولم يفعل ، وأنا أتوقع فعله . وقرئ (ولمـا يعلمَ الله) بفتح الميم . وقيل أراد النون الخفيفة ولمـا يعلمن [3]

---

(١) قوله « أم منقطعة » هى المفسرة ببل والهمزة . (ع)

(٢) قال محمود : « ولمـا تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ... الخ » قال أحمد : التعبير عن نفى المعلوم بنفى العلم خاص بعلم الله تعالى ، لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شىء ما ، عدم ذلك الشىء ، ضرورة أنه لا يعزب عن علمه شىء لعموم تعلقه ، فاستقام التعبير عن نفى الشىء بنفى تعلق العلم القديم بوجوده المصحح للملازمة ، ولا كذلك علم آحاد المخلوقين ، فانه لا يعبر عن نفى شىء بنفى تعلق علم الخلق به ، لجواز وجود ذلك الشىء غير معلوم للخلق . والزمخشرى يظهر من كلامه صحة هذا التعبير مطلقاً ويعتقد الملازمة المذكورة عامة ، فلذلك قال فى قول فرعون (ماعلمت لـكم من إله غيرى) أنه عبر عن نفى المعلوم بنفى العلم ، لأنه من لوازمه . وسيأتى بيان أن الزمخشرى وهم فى هذا الموضع ، وإلا فهو يحاشى عن الوقوع فى مثله اعتقاداً ، والله أعلم . وإنما عبر فرعون بذلك تلبيساً على ملئه وتتميماً لدعوى ألوهيته الكاذبة بأنه لا يعزب عن علمه شىء ، فلو كان إله سواه على دعواه لتعلق علمه به وهذا يعد من حماقات فرعون ودعاويه الفارغة ، والله الموفق .

(٣) قوله « ولمـا يعلمن » لعله أى ولمـا يعلمن . (ع)

لحذفها ﴿ويعلم الصابرين﴾ نصب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع، كقولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو (ويعلم) بالرفع على أن الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر، وهم الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى المشركين،[1] وكان رأيه فى الإقامة بالمدينة، يعنى: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته وصعوبة مقاساته ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أى رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده. فإن قلت: كيف يجوز تمنى الشهادة وفى تمنيها تمنى غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمنى الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصرانى قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقاً لصناعته. ولقد قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ـ حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله[2]:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمٰنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي ... أَرْشَدَكَ اللّٰهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا[3]

(١) قوله «فى الخروج» لعله وكان رأيهم فى الخروج. (ع)

(٢) قوله «وقيل له: ردكم الله» لعله سالمين. (ع)

(٣) لعبد الله بن رواحة حين خرج إلى غزوة مؤتة فقيل له: ردك الله سالماً. وذات فرغ: أى واسعة الثقب. والفرغ: مصب الماء من الدلو بين العرق. أو طعنة ذات فرغ: أى ذات سعة. ويطلق الفرغ على الدلو أيضاً. وتقذف الزبد: تمج الدم الذى يعلوه الزبد ـ أى الرغوة ـ لكثرته. وحران: عطشان إلى قتلى، وهو مجاز عن تطلبه إياه. والمجهزة: المدفقة المسرعة التى لا تبقى رمقاً. وتنفذ الأحشاء: أى تنفذ فيها. وإن ضممت التاء وكسرت الفاء، فمعناه تثقبها. والكبد: عطف خاص على عام. والجدث: القبر، والتفت إلى الغيبة فى قوله: وقد رشد، على أنه من كلامه. ويجوز أنه من قول الناس. ويحتمل الاخبار والدعاء. ومن غاز: تمييز.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

لما رمى عبدالله بن قمئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله فذب عنه صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففشا فى الناس خبر قتله فانكفؤا، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: «إلىّ عباد الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يارسول الله ـ فديناك بآبائنا وأمهاتنا ـ أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين[1]. فنزلت. وروى أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين:

(١) قلت: هذا منتزع من عدة أخبار فى وقعة أحد. قال موسى بن عقبة فى المغازى ومن طريقه البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب. قال «رمى يومئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى الحرث يقال له عبد الله بن قمئة، ويقال: بل رماه عتبة بن أبى وقاص، وفى الطبرانى عن أبى أمامة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشجه فى وجهه وكسر رباعيته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أقمأك الله فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة، وروى الطبرى من طريق أسباط عن السدى فذكر قصة أحد. قال فأتى ابن قمئة الحارثى أحد بنى الحرث بن عبد مناف بن كنانة. فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه فى رأسه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة. وانطلق بعضهم فوق الجبل، وجعل يدعوهم إلى عباد الله. إلى عباد الله. وفشا فى الناس أن محمداً قتل» الحديث، وفى المغازى لابن إسحاق ومن طريقه الطبرى عن الزهرى، ومحمد بن محمد بن حبان وعاصم بن عمر، وغيرهم فذكر قصة أحد. قال «ولم يزل مصعب بن عمير يقاتل دونه ومعه لواؤه حتى قتل، وكان الذى أصابه ابن قمئة وهو يظن أنه النبى صلى الله عليه وسلم. ثم رجع إلى قريش فقال: لقد قتلت محمداً. وعند الواقدى عن ابن أبى سبرة عن خالد بن رباح عن الأعرج قال «لما صاح الشيطان يوم أحد إن محمداً قد قتل. قال أبو سفيان: أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قمئة: أنا. وأما قوله: فلامهم على هربهم إلى آخره فرواه (*) قوله أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله ابن أبى يأخذ لنا أماناً من أبى سفيان، هو من رواية السدى المتقدمة ولفظه: فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان. قوله «وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً ما قتل. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس: يا قوم إن كان قتل محمد فان رب محمد حى لا يموت. الحديث: هو فى آخر رواية السدى المذكورة. قوله «عن بعض المهاجرين أنه مر بأنصارى يتشحط فى دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل. فقال: إن كان قد قتل فقد بلغ. فقاتلوا عن دينكم» رواه الطبرى من رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط، فذكره فى كلام طويل.

(*) بياض بالأصل.

ليت عبدالله بن أبيّ يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان. وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيا لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر ـ عم أنس بن مالك ـ: ياقوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حيّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على مامات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين: أنه مرّ بأنصاري يتشحط في دمه، فقال يافلان، أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم. والمعنى ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل [1] تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لاوجوده بين أظهر قومه ﴿أفإن مات﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم، لا للانقلاب عنه. فإن قلت: لم ذكر القتل وقدعلم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوزا عند المخاطبين. فإن قلت: أماعلموه من ناحية قوله (والله يعصمك من الناس)؟ قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوي البصيرة. ألاترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم. والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد. وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين. ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسلامه [2] ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضارّ والمنافع ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ الذي لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم شاكرين، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلا، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله. وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لاينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خوض المهالك واقتحم المعارك.

---

(١) قوله «من بعثة الرسل» لعله الرسول. (ع)

(٢) قوله «وإسلامه» أي: تركه للعدو. (ع)

والثانى ذكر ماصنع الله برسوله عند غلبة العدوّ والتفافهم عليه وإسلام قومه له ، نهزة للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿كتابا﴾ مصدر مؤكد ، لأن المعنى : كتب الموت كتابا ﴿مؤجلا﴾ موقتا له أجل معلوم لايتقدم ولايتأخر ﴿ومن يرد ثواب الدنيا﴾ تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿نؤته منها﴾ أى من ثوابها ﴿وسنجزى﴾ الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شىء عن الجهاد . وقرئ : يؤته . وسيجزى ، بالياء فيهما .

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قرئ : قاتل . وقتل . وقتّل ، بالتشديد ، والفاعل ربيون ، أو ضمير النبى . و ﴿معه ربيون﴾ حال عنه بمعنى : قتل كائنا معه ربيون . والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول . وعن سعيد بن جبير رحمه الله : ماسمعنا بنبىّ قتل فى القتال . والربيون الربانيون . وقرئ بالحركات الثلاث ، فالفتح على القياس ، والضم والكسر من تغييرات النسب . وقرئ : ﴿فما وهنوا﴾ بكسر الهاء . والمعنى : فما وهنوا عند قتل النبى ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد بعده ﴿وما استكانوا﴾ للعدوّ . وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم ، حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبدالله بن أبىّ فى طلب الأمان من أبى سفيان ﴿وما كان قولهم إلا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين ، هضما لها واستقصاراً . والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو ، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع ، وأقرب إلى الاستجابة ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصرة

والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه، وأنه هو المعتدّ به عنده (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ قال علىّ رضى الله عنه نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم. وعن الحسن رضى الله عنه: إن تستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم، لأنهم كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه فى الدين، ويقولون: لو كان نبيا حقا لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما له ويوما عليه. وعن السدى: إن تستكينوا لأبى سفيان وأصحابه وتستأمنوهم ﴿يردوكم﴾ إلى دينهم. وقيل هو عامّ فى جميع الكفار، وإنّ على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم فى شىء ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم ﴿بل الله مولاكم﴾ أى ناصركم، لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته. وقرئ بالنصب على: بل أطيعوا الله مولاكم ﴿سنلقى﴾ قرئ بالنون والياء. والرعب ـ بسكون العين وضمها ـ. قيل: قذف الله فى قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئا، قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون[1] ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم فأمسكوا. ﴿بما أشركوا﴾ بسبب إشراكهم، أى كان السبب فى إلقاء الله الرّعب فى قلوبهم إشراكهم به ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة. فإن قلت: كان هناك حجة[2] حتى ينزلها[3] الله

(١) قوله «قاهرون» لعله فارهون. والفاره: الحاذق بالشىء. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «فان قلت كان هناك حجة» لعله: أكان. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الاشراك ... الخ»؟ قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثم حجة وليس فى ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما أشركوا بالله ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما أشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكان كقول القائل:
* على لاحب لا يهتدى بمناره * فانه بإضافة المنار إليه يوهم أن فيه منارا، فيحتاج الناظر إلى حمله على معنى لا منار فيه يهتدى به، ولو أطلق الشاعر فقال: «على لا حب لا يهتدى فيه بمنار» مثلا، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

فيصح لهم الإشراك؟ قلت: لم يعن أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم، لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنما المراد نفى الحجة ونزولها جميعا، كقوله:

* وَلاَ تَرَى الضَّبُّ بِهَا يَنْجَحِر * (١)

* * *

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَاأَرَاكُمْ مَاتُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا مَاأَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَاقُتِلْنَا هَٰهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَافِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَافِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى فى قوله تعالى (إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم) ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعبهم. وقيل: لما رجعوا إلى المدينة قال ناس من

---

(١) لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

لابن أحمر. يقول: لا تخيف الأرنب أهوال تلك الصحراء، أى لا هول فيها حتى يفزعه، فما فى البيت كناية عن ذلك، كقوله: ولا ترى الضب فيها يدخل جحره، أى لا ضب فيها ينجحر. و «ينجحر» حال إن كانت ترى بصرية، ومفعول ثان إن كانت علمية. ويجوز أن المعنى: لا أرنب فيها تفزعه أهوالها، كما لا ضب فيهما يدخل جحره، فهما منفيان. وهذا أوفق بالمقام.

المؤمنين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت . وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره ، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل ، وأمرهم أن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوا ـ كانت الدولة للمسلمين أو عليهم ـ فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم ، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم . يحسونهم أى يقتلونهم قتلا ذريعا . حتى إذا فشلوا . والفشل : الجبن وضعف الرأى . وتنازعوا ، فقال بعضهم : قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا وقال بعضهم : لا نخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فممن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله : (ومنكم من يريد الآخرة) ونفر أعقابهم ينهبون ، وهم الذين أرادوا الدنيا ، فكرّ المشركون على الرماة ، وقتلوا عبد الله بن جبير رضى الله عنه ، وأقبلوا على المسلمين ، وحالت الريح دبورا وكانت صبا ، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا ، وهو قوله ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها ﴿ولقد عفا عنكم﴾ لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ يتفضل عليهم بالعفو ، أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم ؛ لأنّ الابتلاء رحمة كما أنّ النصرة رحمة . فإن قلت : أين متعلق (حتى إذا) ؟ قلت : محذوف تقديره : حتى إذا فشلتم منعكم نصره . ويجوز أن يكون المعنى : صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم ﴿إذ تصعدون﴾ نصب بصرفكم ، أو بقوله (ليبتليكم) أو بإضمار « اذكر » والإصعاد . الذهاب فى الأرض والإبعاد فيه . يقال : صعد فى الجبل وأصعد فى الأرض . يقال : أصعدنا من مكة إلى المدينة : وقرأ الحسن رضى الله عنه : تصعدون ، يعنى فى الجبل . وتعضد الأولى قراءة أبىّ : إذ تصعدون فى الوادى . وقرأ أبو حيوة : تصعدون ، بفتح التاء وتشديد العين ، من تصعد فى السلم وقرأ الحسن رضى الله عنه : تلون ، بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها . وقرئ : يصعدون . ويلوون بالياء ﴿والرسول يدعوكم﴾ كان يقول « إلىّ عباد الله ، إلىّ عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكرّ فله الجنة » ﴿فى أخراكم﴾ فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهى المتأخرة . يقال : جئت فى آخر الناس وأخراهم ، كما تقول : فى أوّلهم وأولاهم ، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى ﴿فأثابكم﴾ عطف على صرفكم ، أى فجازاكم الله ﴿غما﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بـ﴾ سبب ﴿غم﴾ أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له ، أو غما مضاعفا ، غما بعد غم ، وغما متصلا بغم ، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر ﴿لكيلا تحزنوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم ، وتضروا باحتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار . ويجوز أن يكون الضمير فى (فأثابكم) للرسول ، أى فآساكم فى الاغتمام [1] ، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما

---

(١) قوله « فآساكم فى الاغتمام » لعله : فآساكم ، أى فصار أسوتكم . أفاده الصحاح . (ع)

غمه مانزل بكم ، فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله ، ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره : وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ، ولا على ما أصابكم من غلبة العدو . وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذى كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم . وعن أبى طلحة رضى الله عنه : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا ، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه . وما أحد إلا ويميل تحت حجفته[1]. وعن ابن الزبير رضى الله عنه : لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الخوف ، فأرسل الله علينا النوم . والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى[2] : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا . والأمنة : الأمن . وقرئ ﴿ أمنة ﴾ بسكون الميم ، كأنها المرة من الأمن ﴿ نعاسا ﴾ بدل من أمنة . ويجوز أن يكون هو المفعول ، وأمنة حالا منه مقدمة عليه ، كقولك : رأيت راكبا رجلا ، أو مفعولا له بمعنى نعستم أمنة . ويجوز أن يكون حالا من المخاطبين ، بمعنى : ذوى أمنة ، أو على أنه جمع آمن ، كبار وبررة ﴿ يغشى ﴾ قرئ بالياء والتاء ردا على النعاس ، أو على الأمنة ﴿ طائفة منكم ﴾ هم أهل الصدق واليقين ﴿ وطائفة ﴾ هم المنافقون ﴿ قد أهمتهم أنفسهم ﴾ ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم فى الهموم والأشجان ، فهم فى التشاكى والتباث ﴿ غير الحق ﴾ فى حكم المصدر . ومعناه : يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به . و ﴿ ظن الجاهلية ﴾ بدل منه . ويجوز أن يكون المعنى : يظنون بالله ظن الجاهلية . وغير الحق : تأكيد ليظنون ، كقولك : هذا القول غير ما تقول ، وهذا القول لا قولك وظن الجاهلية ، كقولك : حاتم الجود ، ورجل صدق : يريد الظن المختص بالملة الجاهلية . ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية ، أى لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿ يقولون ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ﴿ هل لنا من الأمر من شىء ﴾ معناه هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط ، يعنون النصر والإظهار على العدو ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ ولأوليائه المؤمنين وهو النصر والغلبة (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) ، (وإن جندنا لهم الغالبون) ﴿ يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ معناه : يقولون لك فيما يظهرون : هل لنا من الأمر من شىء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما يبطنون على النفاق ، يقولون فى أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين

(١) أخرجه البخارى من رواية قتادة عن أنس به . لكن ليس فى آخره «وما أحد إلا ويميل تحت حجفته» وهو بتمامه عند الحاكم . وكذا أخرجه الطبرى من رواية ثابت عن أنس رضى الله عنه .

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى . حدثنى يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه . عن عبدالله بن الزبير عن أبيه به . وأخرجه إسحق والبزار والطبرى وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى . كلهم من طريقه .

لقولك لهم إن الأمر كله لله ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ﴾ أى لو كان الأمر كما قال محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون ، لما غلبنا قط . ولما قتل من المسلمين من قتل فى هذه المعركة ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم ﴾ يعنى من علم الله منه أنه يقتل ويصرع فى هذه المصارع وكتب ذلك فى اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم فى بيوتكم ﴿ لبرز ﴾ من بينكم ﴿ الذين ﴾ علم الله أنهم يقتلون ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ وهى مصارعهم ليكون ما علم الله أنه يكون . والمعنى أن الله كتب فى اللوح قتل من يقتل من المؤمنين ، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون ، لعلمه أن العاقبة فى الغلبة لهم ، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله ، وأن ما ينكبون به فى بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب فى الشهادة ، وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة . وقيل : معناه هل لنا من التدبير من شيء ، يعنون لم نملك شيئا من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد ، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأى عبد الله بن أبىّ وغيره ، ولو ملكنا من التدبير شيئا لما قتلنا فى هذه المعركة ، قل إن التدبير كله لله ، يريد أن الله عز وجل قد دبر الأمر كما جرى ، ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم . وقرئ : كتب عليهم القتال . وكتب عليهم القتل ، على البناء للفاعل . ولبرّز ، بالتشديد وضم الباء ﴿ وليبتلى الله ﴾ وليمتحن ما فى صدور المؤمنين من الإخلاص ، ويمحص ما فى قلوبهم من وساوس الشيطان . فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة وللابتلاء والتمحيص . فإن قلت : كيف مواقع الجمل التى بعد قوله وطائفة ؟ قلت : (قد أهمتهم) صفة لطائفة . و (يظنون) صفة أخرى أو حال بمعنى : قد أهمتهم أنفسهم ظانين . أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها . و (يقولون) بدل من يظنون . فإن قلت : كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلا من الإخبار بالظن ؟ [1] قلت : كانت مسئلتهم صادرة عن الظن ، فلذلك جاز إبداله منه . ويخفون حال من يقولون . و (قل إن الأمر كله لله) اعتراض بين الحال وذوى الحال . و (يقولون) بدل من (يخفون) والأجود أن يكون استئنافا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

---

(١) قال محمود : «إن قلت كيف صح أن يقع ما هو مسئلة عن الأمر ... الخ» ؟ قال أحمد : ويلاحظ هذا النظر فى قوله تعالى عن الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ...الآية) فإن هذا السؤال استفهام ، والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصدق ونقيضه ، ومع ذلك ورد قوله تعالى فى خطابهم (أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) يعنى فى قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها . فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الاخبار بأن هذا النوع الانسانى ليس بمعصوم عن الفساد وسفك الدماء ، إلا من عصمه الله تعالى منهم ، والله أعلم .

﴿استزلهم﴾ طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ﴿ببعض ما كسبوا﴾ من ذنوبهم . ومعناه : إنّ الذين انهزموا يوم أحد كان السبب فى توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوبا ، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا . وقيل : استزلال الشيطان إياهم هو التولى ، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم ، لأنّ الذنب يجرّ إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفا فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة . وقيل : (بعض ما كسبوا) هو تركهم المركز الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات فيه . فجرّهم ذلك إلى الهزيمة . وقيل : ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها ، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية . فإن قلت : لم قيل (ببعض ما كسبوا) ؟ قلت : هو كقوله تعالى (ويعفو عن كثير) . ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿إن الله غفور﴾ للذنوب ﴿حليم﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أى لأجل إخوانهم ، كقوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ومعنى الأخوة : اتفاق الجنس أو النسب ﴿إذا ضربوا فى الأرض﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ﴿لو كانوا غزى﴾ جمع غاز ، كعاف وعفى ، كقوله : عفى الحياض أجون [1] . وقرئ : بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة . فإن قلت : كيف قيل : (إذا ضربوا) مع (قالوا) ؟ قلت : هو على حكاية الحال الماضية ، كقولك : حين يضربون فى الأرض فإن قلت : ما متعلق ليجعل ؟ قلت : قالوا ، أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون ﴿حسرة فى قلوبهم﴾ على أنّ اللام مثلها فى (ليكون لهم عدوّا وحزنا) . أو لا تكونوا ، بمعنى : لا تكونوا مثلهم فى

(١) قوله «وعفى كقوله : عفى الحياض أجون» فى الصحاح : العفى - جمع عاف - وهو الدارس . والآجن : الماء المتغير الطعم واللون . وأجن الماء يأجن ويأجن أجناً وأجونا اه . وجمع الآجن على أجون ، كالراكع على ركوع ، والشاهد على شهود . (ع)

النطق بذلك القول واعتقاده ، ليجعله الله حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم . فإن قلت : مامعنى إسناد الفعل إلى الله تعالى ؟ قلت : معناه أنّ الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة فى قلوبهم ، ويضيق صدورهم عقوبة ، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عزوجل كقوله (يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعد فى السماء) ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مادلّ عليه النهى ، أى لاتكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم ، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادّتهم مما يغمهم ويغيظهم ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ ردّ لقولهم . أى الأمر بيده ، قد يحيي المسافر والغازى ، ويميت المقيم والقاعد كما يشاء . وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : مافىّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أناذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فلا تكونوا مثلهم . وقرئ بالياء ، يعنى الذين كفروا ﴿ لمغفرة ﴾ جواب القسم ، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ، وكذلك (لإلى الله تحشرون) كذب الكافرين أولا فى زعمهم أن من سافر من إخوانهم أو غزى لوكان فى المدينة لما مات ، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد ، ثم قال لهم : ولئن تم عليكم ماتخافونه من الهلاك بالموت والقتل فى سبيل الله ، فإنّ ماتنالونه من المغفرة والرحمة بالموت فى سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لولم تموتوا . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : خير من طلاع الأرض ذهبة [1] حمراء . وقرئ بالياء ، أى يجمع الكفار ﴿ لإلى الله تحشرون ﴾ لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة ، المثيب العظيم الثواب تحشرون ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به ، شأن ليس بالخفى . قرئ (متم) بضم الميم وكسرها ، من مات يموت ومات يمات .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

«ما» مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله ونحوه (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) ومعنى الرحمة : ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غما بغم وآساهم بالمباثة بعد ماخالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه ﴿ ولو كنت فظا ﴾ جافيا ﴿ غليظ القلب ﴾ قاسيه ﴿ لانفضوا من حولك ﴾ لتفرقوا عنك حتى لايبقى حولك أحد منهم ﴿ فاعف عنهم ﴾ فيما

(١) قوله «خير من طلاع الأرض ذهبة» فى الصحاح : طلاع الأرض : ملؤها . والذهبة . القطعة من الذهب . (ع)

يختص بك ﴿ واستغفر لهم ﴾ فيما يختص بحق الله إتماما للشفقة عليهم ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ يعنى فى أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطييب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضى الله تعالى عنه: قد علم الله أنه مابه إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده. وعن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم «ماتشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»[1] وعن أبى هريرة رضى الله عنه: مارأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم[2]. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا فى الأمر شق عليهم فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأى دونهم. وقرئ: وشاورهم فى بعض الأمر ﴿ فإذا عزمت ﴾ فإذا قطعت الرأى على شىء بعد الشورى ﴿ فتوكل على الله ﴾ فى إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح، فإن ماهو أصلح لك لا يعلمه إلا الله لا أنت ولا من تشاور. وقرئ (فإذا عزمت) بضم التاء، بمعنى فإذا عزمت لك على شىء وأرشدتك إليه فتوكل علىّ ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾

﴿ إن ينصركم الله ﴾ كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم ﴿ وإن يخذلكم ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿ فمن ذا الذى ينصركم ﴾ فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه. ونحوه (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده). ﴿ من بعده ﴾ من بعد خذلانه. أو هو من قولك ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان؛ تريد إذا جاوزته. وقرأ عبيد بن عمير:

---

(١) أعاده فى تفسير سورة الشورى عن الحسن قوله وهو المحفوظ. ومن طريقه أخرجه الطبرى.

(٢) هذا فيه تحريف. والصواب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، كذلك أخرجه الشافعى عن ابن عيينة عن الزهرى عنه وهو منقطع وهو مختصر من الحديث الطويل فى قصة الحديبية وغزوة الفتح، أخرجه ابن حبان من رواية عبدالرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن المسور ومروان. وفيه قال الزهرى: وكان أبو هريرة يقول. فذكره. وكذا أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه وعند أحمد وإسحاق، وقد أشار إليه الترمذى فى آخر الجهاد فقال: ويروى عن أبى هريرة فذكره.

وإن يخذلكم ، من أخذله إذا جعله مخذولا . وفيه ترغيب فى الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد ، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان ﴿وعلى الله﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لاناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه . يقال غلّ شيئا من المغنم غلولا وأغلّ إغلالا ، إذا أخذه فى خفية . يقال أغلّ الجازر ، إذا سرق من اللحم شيئا مع الجلد . والغل : الحقد الكامن فى الصدر . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « من بعثناه على عمل فغلّ شيئا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه [1] » وقوله صلى الله عليه وسلم « هدايا الولاة غلول [2] » وعنه « ليس على المستعير غير المغل ضمان [3] » وعنه « لا إغلال ولا إسلال [4] » ويقال : أغله إذا وجده غالا ، كقولك : أبخلته وأفحمته [5] . ومعنى ﴿وما كان لنبىّ أن يغل﴾ وماصحّ له ذلك ، يعنى أن النبوة تنافى الغلول ، وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأول ، لأن معناه : وماصح له أن يوجد غالا ، ولا يوجد غالا إلا إذا كان غالا . وفيه وجهان : أحدهما أن يبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم [6] من ذلك وينزه وينبه على عصمته

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن أنيس ، أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال عمر « ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر غلول الصدقة : أنه من غل بعيرا أو شاه أتى به يوم القيامة فقال له عبدالله بن أنيس : بلى» وفى الصحيحين عن أبى حميد الساعدى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عاملا فجاءه العامل حين فرغ من عمله . الحديث : وفيه ، فوالذى نفس محمد بيده لايعمل أحدكم شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه» .

(٢) رواه أحمد ، والبزار ، والطبرانى من حديث أبى حميد الساعدى بلفظ «هدايا العمال» وهو من رواية إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة عنه . قال البزار : أخطأ فيه إسماعيل سندا ومتنا . وإنما أراد حديث الزهرى عن عروة ، عن أبى حميد باللفظ الماضى . وكذا عده ابن عدى فى منكرات إسماعيل بن عياش . وقال عبدالرزاق : حدثنا سفيان الثورى عن أبان بن أبى عياش عن أبى نصيرة عن جابر بلفظ «الهدايا للأمراء غلول» رواه إسحاق أخبرنا وكيع حدثنا سفيان عمن حدثه عن أبى نضرة به . قال البزار : أبان متروك . ثم ساقه من رواية قيس بن الربيع عن ليث بن أبى سليم . عن عطاء عن جابر به . وأخرجه ابن عدى فى ترجمة أحمد بن معاوية الباهلى من روايته عن النضر بن شميل عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه . وقال : هذا حديث باطل . وذكر الطبرانى فى الأوسط ، أن أحمد بن معاوية تفرد به .

(٣) أخرجه البيهقى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وزاد «وليس على المستودع غير المغل ضمان» قال البيهقى : هذا ضعيف والمحفوظ أنه من قول شريح .

(٤) أخرجه أبو داود وأحمد من رواية الزهرى عن عروة عن المسور ومروان فى حديث . ورواه الدارمى والطبرانى وابن عدى من رواية كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رفعه «لانهب ولا إسلال ولا إغلال ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» ورواه ابن زنجويه فى الأموال ، وإبراهيم الحربى فى الغريب من رواية موسى بن عبيدة عن أبان بن سلمة عن أبيه . وموسى ضعيف .

(٥) قوله « كقولك أبخلته وأفحمته» فى الصحاح : أفحمته : أى وجدته مفحما لايقول الشعر . (ع)

(٦) قال محمود : « فيه توجيهان : أحدهما أن يكون ذلك تنزيها لرسول الله عليه الصلاة والسلام ... الخ ، قال أحمد رحمه الله : حمل الآية على الوجه الثانى يشهد له ورود هذه الصيغة كثيراً فى النهى فى أمثال قوله تعالى (ما كان =

بأن النبوة والغلول متنافيان ؟ لئلا يظن به ظانّ شيئا منه وألا يستريب به أحد ، كما روى أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر . فقال بعض المنافقين : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها [١] . وروى أنها نزلت فى غنائم أحد [٢] حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا : نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئا فهوله وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ، فقالوا : تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم : والثانى أن يكون مبالغة فى النهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ماروى : أنه بعث طلائع [٣] فغنمت غنائم فقسمها ولم يقسم للطلائع ، فنزلت . يعنى : وما كان لنبيّ أن يعطى قوما ويمنع آخرين ، بل عليه أن يقسم بالسوية . وسمى حرمان بعض الغزاة «غلولا» تغليظا وتقبيحا لصورة الأمر ، ولو قرئ (أن يُغل) من أغل بمعنى غل ، لجاز ﴿يأت بما غل يوم القيامة﴾ يأت بالشيء الذى غله بعينه يحمله كما جاء فى الحديث [٤] «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه [٥]» وروى : «ألا لا أعرفنّ أحدكم يأتى [٦] ببعير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء ، فينادى يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئا فقد بلغتك [٧]» وعن بعض جفاة العرب أنه سرق نافجة مسك ، فتليت عليه الآية

ـــ لنبي أن تكون له أسرى) ، (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) ، (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) إلى غير ذلك . على أن الزمخشرى حاف فى العبارة إذ يقول : عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً وتقبيحاً ، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة ، فان عادة لطف الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم فى التأديب أن يكون ممزوجا بغاية التخفيف والتعطف . ألا ترى إلى قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قال بعض العلماء : بدأه بالعفو قبل العتب . ولو لم يبدأه بالعفو لانفطر قلبه صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه الترمذى من حديث خصيف عن مقسم عن ابن عباس بلفظ فقال بعض الناس ، وقال حسن . قال وروى عن مقسم ولم يذكر ابن عباس ورواه الطبرانى وأبو يعلى وابن عدى والطبرى والواحدى كلهم من هذا الوجه . وأعله ابن عدى بخصيف .

(٢) ذكره الثعلبي والواحدى فى أسبابه عن الكلبي ومقاتل قال «نزلت فى غنائم أحد حين ترك الرماة المركز الخ»

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة . حدثنا وكيع حدثنا سلمة بن نبيط . عن الضحاك ، فذكره به وأتم منه . وأخرجه الطبرى والواحدى فى أسبابه .

(٤) تقدم قبل ستة أحاديث

(٥) قوله : «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه» : لعل صدره : من غل شيئاً . (ع)

(٦) قوله : «وروى : ألا لا أعرفن أحدكم يأتى» قوله : «لا أعرفن» بلفظ المنفى المؤكد بالنون ، ومعناه النهى . أى لا يغل أحدكم فأعرفه . اه قسطلانى . (ع)

(٧) رواه على بن المدينى فى العلل وأبو يعلى والطبرى من رواية حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بهذا فى حديث طويل ، وأصله فى الصحيحين عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة بلفظ «ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ... الحديث»

فقال : إذاً أحملها طيبة الريح خفيفة الحمل . ويجوز أن يراد يأتى بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه فإن قلت : هلا قيل: ثم يوفى ما كسب ، ليتصل به ؟ قلت : جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى ، وهو أبلغ وأثبت ، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى جزاءه ، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وهم لا يظلمون﴾ أى يعدل بينهم فى الجزاء ، كلٌّ جزاؤه على قدر كسبه .

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤)

﴿هم درجات﴾ أى هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات كقوله :

أَنَصْبٌ لِلْمَنِيَّةِ تَعْتَرِيهِمْ ... رِجَالِى أَمْ هُمُو دَرَجُ السُّيُولِ (١)

وقيل : ذوو درجات . والمعنى تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين ، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾ على من آمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه . وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﴿من أنفسهم﴾ من جنسهم عربيا مثلهم . وقيل من ولد إسمعيل كما أنه من ولده ، فإن قلت : بما وجه المنة عليهم فى أن كان من أنفسهم ؟ قلت : إذا كان منهم كان اللسان واحداً ، فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله فى الصدق والأمانة ، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به ، وفى كونه من أنفسهم شرف لهم ، كقوله (وإنه لذكر لك ولقومك) وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقراءة فاطمة رضى الله عنها : من أنفسهم ، أى من أشرفهم . لأن عدنان ذروة ولد إسمعيل ، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان ، وخندف ذروة مضر ، ومدركة ذروة خندف ، وقريش ذروة مدركة ، وذروة قريش محمد صلى الله عليه وسلم . وفيما خطب به أبو طالب فى تزويج خديجة رضى الله عنها ـ وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر ـ : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة

---

(١) أنشده سيبويه عن ابن هدمة . والهمزة للاستفهام ، وهو من تجاهل العارف للتعجب والتحزن . والنصب : الغرض المنصوب يرمى إليه بالسهام ، وهو كقفل أوفق بالوزن ويجوز أن أصله كعنق فسكن للوزن ، أو ككتب فسكن كذلك . وهذا أوفق بالمعنى . وقد قيل بكل منها . وشبه رجاله به تشبيها بليغاً من حيث تتابع إصابة كل بالمكروه . وتعتريهم : جملة حالية . ودرج السيول : محلات انحدارها ، شبههم بها لانمحاق كل شيئا فشيئا .

بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. وقرئ: لمن منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم. وفيه وجهان: أن يراد لمن منّ الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم، لحذف لقيام الدلالة، أو يكون إذ فى محل الرفع كإذا فى قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائما، بمعنى لمن منّ الله على المؤمنين وقت بعثه ﴿يتلو عليهم آياته﴾ بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحى ﴿ويزكيهم﴾ ويطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم ﴿وإن كانوا من قبل﴾ من قبل بعثة الرسول ﴿لفى ضلال﴾ إن هى المخففة من الثقيلة، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية. وتقديره: وإنّ الشأن والحديث كانوا من قبل فى ضلال ﴿مبين﴾ ظاهر لا شبهة فيه.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿أصابتكم مصيبة﴾ يريد: ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. و(لما) نصب بقلتم. و(أصابتكم) فى محل الجر بإضافة (لما) إليه وتقديره: أقلتم حين أصابتكم. و﴿أنى هذا﴾ نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتقريع. فإن قلت: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله (ولقد صدقكم الله وعده) ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا، أنى هذا: من أين هذا. كقوله تعالى (أنى لك هذا) لقوله ﴿من عند أنفسكم﴾ وقوله (من عند الله)

والمعنى : أنتم السبب فيما أصابكم ، لاختياركم الخروج من المدينة ، أو لتخليتكم المركز . وعن علىّ رضى الله عنه : لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم ﴿إنّ الله على كل شىء قدير﴾ فهو قادر على النصر وعلى منعه ، وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى ﴿وما أصابكم﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين ﴿فـ﴾ ـهو كائن ﴿بإذن الله﴾ أى بتخليته ، استعار الإذن لتخليته الكفار ، وأنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم ، لأنّ الآذن مخل بين المأذون له ومراده ﴿وليعلم﴾ وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون ، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وقيل لهم﴾ من جملة الصلة عطف على نافقوا ، وإنما لم يقل فقالوا لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال ، كأنه قيل : فماذا قالوا لهم . فقيل: قالوا : لو نعلم . ويجوز أن تقتصر الصلة على (نافقوا) ، ويكون (وقيل لهم) كلاما مبتدأ قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ، وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الآخرة [1] دفعا عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم [2] وذلك ما روى أن عبدالله بن أبىّ انخزل مع حلفائه ، فقيل له، فقال ذلك . وقيل ﴿أو ادفعوا﴾ العدوّ بتكثيركم سواد المجاهدين وإن لم تقاتلوا لأنّ كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه . وعن سهل بن سعد الساعدى ـ وقد كف بصره ـ : لو أمكننى لبعت دارى ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم . قيل : وكيف وقد ذهب بصرك ؟ قال لقوله (أو ادفعوا) أراد : كثروا سوادهم . ووجه آخر وهو أن يكون معنى قولهم ﴿لو نعلم قتالا﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا ﴿لاتبعناكم﴾ يعنون أن ما أنتم فيه لخطإ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشىء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ، لأنّ رأى عبدالله كان فى الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يعنى أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم ، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا ، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر . وقيل : هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، لأنّ تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية المشركين ﴿يقولون بأفواههم﴾ لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم ولا تعى قلوبهم منه شيئا . وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم ، وأنّ إيمانهم موجود فى أفواههم معدوم فى قلوبهم ، خلاف صفة المؤمنين فى مواطأة قلوبهم لأفواههم ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ من النفاق ، وبما يجرى بعضهم مع بعض من ذم

(١) قوله « غم الآخرة » لعله هم الآخرة . (ع)

(٢) قوله « ودغلهم » فى الصحاح : الدغل ـ بالتحريك ـ الفساد ، مثل الدخل . (ع)

المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك ، لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملا بأمارات ، وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته ﴿الذين قالوا﴾ فى إعرابه أوجه : أن يكون نصبا على الذم أو على الرد على الذين نافقوا ، أو رفعا على هم الذين قالوا أو على الإبدال من واو يكتمون . ويجوز أن يكون مجروراً بدلا من الضمير فى بأفواههم أو قلوبهم ، كقوله :

* عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالمَاءِ حَاتِمُ * (١)

﴿لإخوانهم﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو إخوانهم فى النسب وفى سكنى الدار ﴿وقعدوا﴾ أى قالوا وقد قعدوا عن القتال : لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ معناه : قل إن كنتم صادقين فى أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلا وهو القعود عن القتال ، فجدوا إلى دفع الموت سبيلا ، يعنى أن ذلك الدفع غير مغن عنكم ، لأنكم إن دفعتم القتل الذى هو أحد أسباب الموت ، لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة ، ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها . وروى أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً . فإن قلت : فقد كانوا صادقين فى أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم (٢) بالقعود ، فما معنى قوله (إن كنتم صادقين) ؟ قلت : معناه أن النجاة من القتل

---

(١)
فلما تصافنا الاداوة أجهشت ... إلى غضون العنبرى الجراضم
فجاء بجلمود له مثل رأسه ... ليشرب ماء القوم بين الصرائم
على حالة لو أن فى القوم حاتما ... على جوده لضن بالماء حاتم

للفرزدق ، يعتذر عما وقع منه فى السفر مع دليله عاصم العنبرى حين ضل الطريق . والتصافن : اقتسام الماء القليل بالصفن ، وهو وعاء صغير لنحو الوضوء . والأداوة : ظرف الماء ، وجمعها أداوى . وإيقاع التصافن عليها مجاز عقلى لأنها محل الماء الذى اقتسموه . وأقرب منه أنها مجاز مرسل عما فيها . والجهش والاجهاش : تضرع الانسان إلى غيره وتهيئته للبكاء إليه كالصبي إلى أمه . وغضون الجلد : مكاسره . ويروى : عيون . وإسناد الاجهاش إليها مجاز عقلى ، لأنها محل ظهور أثره . والجراضم : واسع البطن كثير الأكل . والمراد بالجلمود : إناء صلب كبير مثل رأسه ، أى العنبرى . وفيه إشارة إلى حمقه ، لأن إفراط الرأس فى العظم أمارة البلادة . وفى الصلابة أيضا إشارة إلى ذلك ، ليشرب : أى ليأخذ ماء القوم بين الصرائم ، جمع صريمة وهى منقطع الرمل ، أو قطيع من الابل إشارة إلى أنهم كانوا بمفازة لا ماء بها على حالة ضنكة ، لو ثبت فى تلك الحالة أن حاتما فى القوم مع جوده المشهور لبخل بالماء . «وعلى» بمعنى «فى» ويؤيده رواية المبرد فى كامله : «على ساعة» وحاتم ـ بالجر ـ بدل من ضمير جوده . وفيه تنويه بذكر الاسم وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج .

(٢) قال محمود : «إن قلت فقد كانوا صادقين فى أنهم دفعوا ... الخ» قال أحمد : السؤال المذكور إنما يرد على معتزلى من مثله ، فانهم يعتقدون أن الموت قد يكون بحلول الأجل ، وقد يكون قبله ، وأن المقتول لولا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك ، فلا جرم أن الانسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل بتوقى الأسباب الموجبة لذلك ، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور . وأما أهل السنة فمعتقدهم أن كل ميت بأجله يموت ، ويقولون : إن الخارجين إلى القتال فى المعركة لم يكن بد من موتهم فى ذلك الوقت ، وأن ذلك الحين هو =

يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره ، لأن أسباب النجاة كثيرة ، وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل ، فما يدريكم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون فى مقالتكم ؟ وما أنكرتم أن يكون السبب غيره . ووجه آخر : إن كنتم صادقين فى قولكم : لو أطاعونا وقعدوا ماقتلوا ، يعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين . وقوله (فادرؤا عن أنفسكم الموت) استهزاء بهم ، أى إن كنتم رجالا دفاعين لأسباب الموت ، فادرؤا جميع أسبابه حتى لاتموتوا .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

﴿ولاتحسبن﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد . وقرئ بالياء على : ولايحسبنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ولا يحسبنّ حاسب . ويجوز أن يكون ﴿الذين قتلوا﴾ فاعلا ، ويكون التقدير : ولايحسبنهم الذين قتلوا أمواتا ، أى ولايحسبنّ الذين قتلوا أنفسهم أمواتا . فإن قلت : كيف جاز حذف المفعول الأوّل ؟ قلت : هو فى الأصل مبتدأ ، فحذف كما حذف المبتدأ فى قوله ﴿أحياء﴾ والمعنى : هم أحياء لدلالة الكلام عليهما . وقرئ : ولاتحسبنّ بفتح السين ، وقتلوا بالتشديد . وأحياء بالنصب على معنى : بل احسبهم أحياء ﴿عند ربهم﴾ مقرّبون عنده ذوو زلفى ، كقوله (فالذين عند ربك) . ﴿يرزقون﴾ مثل مايرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون . وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التى هم عليها من التنعم برزق الله ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو التوفيق فى الشهادة وماساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم ، من كونهم أحياء مقرّبين معجلا لهم رزق الجنة ونعيمها . وعن النبى صلى الله عليه

ـــ وقت حينهم فى علم الله عز وجل ، إيمانا بقوله تعالى (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وخلافا المنافقين والموافقين لهم من المعتزلة فى قولهم : لو أطاعونا ما ماتوا . ولعمرى إنهم فى هذا المعتقد مقلدون لنمروذ فى قوله : أنا أحيي وأميت ، فان الأحمق ظن أنه يقتل إن شاء فيكون ذلك إماتة ، ويعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء ، وغاب عنه أن الذى عفا عن قتله إنما حي لاستيفاء الأجل الذى كتبه الله له ، وأن الذى قتله إنما مات لأنه استوفى تلك الساعة أجله ، والله الموفق .

وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر تدور فى أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش[1] » ﴿ ويستبشرون بـ ﴾ بإخوانهم المجاهدين ﴿ الذين لم يلحقوا بهم ﴾ أى لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿ من خلفهم ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم . وقيل : لم يلحقوا بهم ، لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿ ألا خوف عليهم ﴾ بدل من الذين . والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين ، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة . بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به . وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة ، والجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم ، وإحماد لحال من يرى نفسه فى خير فيتمنى مثله لإخوانه فى الله ، وبشرى للمؤمنين بالفوز فى المآب . وكرر ﴿ يستبشرون ﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) من ذكر النعمة والفضل ، وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب فى عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع . وقرئ ﴿ وأن الله ﴾ بالفتح عطفاً على النعمة والفضل . وبالكسر على الابتداء وعلى أنّ الجملة اعتراض ، وهى قراءة الكسائى . وتعضدها قراءة عبد الله . والله لا يضيع .

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

﴿ الذين استجابوا ﴾ مبتدأ خبره (الذين أحسنوا) أو صفة للمؤمنين ، أو نصب على المدح . روى أنّ أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا[2] وهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال : لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال ،

(١) أخرجه أبو داود وابن أبى شيبة والحاكم وأبو يعلى والبزار كلهم من حديث ابن عباس به وأتم منه . قال الدارقطنى تفرد به محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية ، وأصله فى مسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، بلفظ « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت ـ الحديث »

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى عن شيوخه ومن طريقه البيهقى فى الدلائل فذكره مطولا

وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لايفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا ، فنزلت . و «من» فى ﴿الذين أحسنوا منهم﴾ للتبيين مثلها فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة) لأنّ الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا ، لابعضهم . وعن عروة بن الزبير : قالت لى عائشة رضى الله عنها «إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول [1] » تعنى أبا بكر والزبير ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ روى أنّ أباسفيان نادى [2] عند انصرافه من أحد . يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران . فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمراً فقال : يانعيم ، إنى واعدت محمداً أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لى ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة ، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشر من الإبل ، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : ماهذا بالرأى . أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلاشريداً ، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم ، فوالله لايفلت منكم أحد . وقيل : مرّ بأبى سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم ، فكره المسلمون الخروج . فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لأخرجن ولولم يخرج معى أحد ، فخرج فى سبعين راكبا [3] وهم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل ـ وقيل : هى الكلمة التى قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ـ حتى وافوا بدراً وأقاموا بها ثمانى ليال ، وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً ، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين . ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق . قالوا : إنما خرجتم لتشربوا السويق . فالناس الأولون : المثبطون . والآخرون : أبو سفيان وأصحابه . فإن قلت : كيف قيل (الناس) إن كان نعيم هو المثبط وحده ؟ قلت : قيل ذلك لأنه من جنس الناس ، كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد . أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه ، ويصلون جناح كلامه ، ويثبطون مثل تثبيطه . فإن قلت : إلام يرجع المستكن فى ﴿فزادهم﴾ ؟ قلت : إلى

(١) متفق عليه ووهم الحاكم فاستدركه .

(٢) ذكره الثعلبي عن مجاهد وعكرمة وسنده إليهما فى أول كتابه . وروى ابن سعد فى الطبقات بعضه .

(٣) أخرجه ابن سعد من طريق ابن إسحق . وموسى بن عقبة وغيرهما . وأخرجه الواقدى فى المغازى . قال حدثنى الضحاك بن عثمان وعبد الله بن جعفر ومحمد بن عبد الله بن مسلم وابن أبى حبيب وغيرهم . قالوا « لما أراد أبو سفيان أن ينصرف من أحد » فذكره مطولا . قوله وقيل هى الكلمة التى قال إبراهيم حين ألقى فى النار . رواه البخارى من طريق أبى الضحي عن ابن عباس .

المقول الذى هو (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) كأنه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيمانا، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له. أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده. فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيمانا؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الاسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيمان بتناصر الحجج؛ ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان، لأنّ الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا يارسول الله إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة. وينقص حتى يدخل صاحبه النار»[1] وعن عمر رضى الله عنه: أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيمانا[2]. وعنه: لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به[3] ﴿حسبنا الله﴾ محسبنا، أى كافينا. يقال: أحسبه الشىء إذا كفاه. والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛ لأنّ إضافته لكونه فى معنى اسم الفاعل غير حقيقة ﴿ونعم الوكيل﴾ ونعم الموكول إليه هو ﴿فانقلبوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بنعمة من الله﴾ وهى السلامة وحذر العدوّ منهم ﴿وفضل﴾ وهو الربح فى التجارة، كقوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم). ﴿لم يمسسهم سوء﴾ لم يلقوا مايسوءهم من كيد عدوّ ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ بجرأتهم وخروجهم ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا. وفى ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروى أنهم قالوا: هل يكون هذا غزوا، فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضى عنهم.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)

---

(١) أخرجه الثعلبي من رواية على بن عبد العزيز عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن اسماعيل بن عبد الرحمن عن مالك عن نافع عنه.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى الايمان من رواية رزين عن عبد الله عنه. ورجاله ثقات إلا أنه منقطع. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبى. والبيهقى فى الشعب.

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده من رواية هذيل بن شرحبيل عن عمر وإسناده صحيح وروى مرفوعا أخرجه ابن عدى من رواية عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما رفعه «لو وضع إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها» فى إسناده عيسى بن عبد الله بن سليمان وهو ضعيف. قلت: لم ينفرد به بل تابعه عبد الله بن عبد العزيز بن أبى رواد بلفظ «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» أخرجه ابن عدى أيضاً. وحديث عمر الموقوف أخرجه أيضاً ابن المبارك فى الزهد. ومعاذ بن المثنى فى زيادات مسند مسدد.

﴿الشيطان﴾ خبر ذلكم ، بمعنى : إنما ذلكم المثبط هو الشيطان . ويخوّف أولياءه : جملة مستأنفة بيان لشيطنته . أو الشيطان صفة لاسم الإشارة . ويخوّف الخبر . والمراد بالشيطان نعيم ، أو أبو سفيان . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف ، بمعنى إنما ذلكم قول الشيطان ، أى قول إبليس لعنه الله ﴿يخوّف أولياءه﴾ يخوّفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه . وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه . وقوله : فلا تخافوهم . وقيل : يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : فإلام رجع الضمير فى ﴿فلا تخافوهم﴾ على هذا التفسير ؟ قلت : إلى الناس فى قوله (إنّ الناس قد جمعوا لكم) فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا ﴿وخافون﴾ فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعنى أنّ الإيمان يقتضى أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس (ولا يخشون أحداً إلا الله) .

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

﴿يسارعون فى الكفر﴾ يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدّ رغبة ، وهم الذين نافقوا من المتخلفين . وقيل : هم قوم ارتدّوا عن الإسلام . فإن قلت : فما معنى قوله (ولا يحزنك) ؟ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتدّ ؟ قلت : معناه : لا يحزنوك لخوف أن يضرّوك ويعينوا عليك . ألا ترى إلى قوله ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ يعنى أنهم لا يضرون بمسارعتهم فى الكفر غير أنفسهم ، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم . ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة﴾ أى نصيباً من الثواب ﴿ولهم﴾ بدل الثواب ﴿عذاب عظيم﴾ وذلك أبلغ ما ضرّ به الإنسان نفسه . فإن قلت : هلا قيل : لا يجعل الله لهم حظاً فى الآخرة ، وأىّ فائدة فى ذكر الإرادة ؟ قلت : فائدته الإشعار بأنّ الداعى إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا فى الكفر ، تنبيهاً على تماديهم فى الطغيان وبلوغهم الغاية فيه ، حتى أنّ أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم ﴿إن الذين اشتروا الكفر

بالإيمان﴾ إمّاأن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيدو التسجيل عليهم بما أضاف إليهم . و إمّاأن يكون عاما للكفار ، والأول خاصاً فيمن نافق من المتخلفين ، أو ارتد عن الإسلام أو على العكس . و ﴿شيئا﴾ نصب على المصدر ؛ لأن المعنى: شيئامن الضرر وبعض الضرر ﴿الذين كفروا﴾ فيمن قرأ بالتاء نصب و ﴿إنما نملى لهم خير لأنفسهم﴾ بدل منه : أى و لا تحسبنّ أنّ ما نملى للكافرين خيرلهم ، و «أن» مع ما فى حيزه ينوب عن المفعولين ، كقوله : أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون ، وما مصدرية ، بمعنى : ولا تحسبنّ أنّ إملاءنا خير ، وكان حقها فى قياس علم الخط أن تكتب منصولة . ولكنها وقعت فى الإمام متصلة فلا يخالف ، و تتبع سنة الإمام فى خط المصاحف . فإن قلت : كيف صحّ مجىء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين ، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد ؟ قلت : صحّ ذلك من حيث أنّ التعويل على البدل والمبدل منه فى حكم المنحى : ألا تراك تقول : جعلت متاعك بعضه فوق بعض ، مع امتناع سكوتك على متاعك . ويجوز أن يقدر مضاف محذوف على : ولا تحسبنّ الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم . أو ولا تحسبنّ حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم . وهو فيمن قرأ بالياء رفع ، والفعل متعلق بأن وما فى حيزه . والإملاء لهم : تخليتهم وشأنهم ، مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء . وقيل : هو إمهالهم وإطالة عمرهم . والمعنى : ولا تحسبنّ أن الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع آجالهم ﴿إنما نملى لهم﴾ «ما» هذه حقها أن تكتب متصلة ، لأنها كافة دون الأولى ، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها ، كأنه قيل : ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم ، فقيل : إنما نملى لهم ليزدادوا إثما . فإن قلت : كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى فى إملائه [1] لهم ؟ قلت : هو علة للإملاء ، وما كل علة بغرض . ألا تراك تقول : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر ، وليس شىء منها بغرض لك . وإنما هى علل وأسباب ، فكذلك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسبباً فيه . فإن قلت : كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء كما كان العجز علة للقعود عن الحرب ؟ قلت : لما كان فى علم الله المحيط بكل شىء أنهم مزدادون إثما ، فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز . وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية . ولا يحسبنّ بالياء ، على معنى : ولا يحسبنّ الذين كفروا أن إملاءنا لازدياد الإثم كما يفعلون ، وإنما هو ليتوبوا ويدخلوا فى الإيمان . وقوله (إنما نملى لهم خير لأنفسهم) اعتراض بين الفعل ومعموله . ومعناه : أن إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم

(١) قال محمود : « إن قلت : كيف جاز أن يكون ازدياد الاثم غرضاً لله تعالى فى إملائه لهم ... الخ » ؟ قال أحمد : بنى الزمخشرى هذا الجواز على شفا جرف هار فانهار . لأن معتقده أن الاثم الواقع منهم ليس مراداً لله تعالى بل هو واقع على خلاف الارادة الربانية ، فلما وردت الآية مشعرة بأن ازدياد الاثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل ، أخذ يعمل الحيلة فى وجه من التعطيل التزاما لاتمام الفاسد وضرباً فى حديد بارد ، فجعل ازدياد الاثم سبباً وليس بغرض .

بتفسيح المدّة وترك المعاجلة بالعقوبة . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ولهم عذاب مهين﴾ على هذه القراءة ؟ قلت : معناه : ولا تحسبوا إن إملاءنا لزيادة الإثم وللتعذيب ، والواو للحال ، كأنه قيل : ليزدادوا إثما معداً لهم عذاب مهين .

مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

اللام لتأكيد النفى ﴿على ما أنتم عليه﴾ من اختلاط المؤمنين الخلص والمنافقين ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص . وقرئ : يميز . من ميز . وفى رواية عن ابن كثير : يميز ، من أماز بمعنى ميز . فإن قلت : لمن الخطاب فى (أنتم) ؟ قلت : للمصدّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق ، كأنه قيل : ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التى أنتم عليها ـ من اختلاط بعضكم ببعض ، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً ـ حتى يميزهم منكم بالوحى إلى نبيه وإخباره بأحوالكم ، ثم قال ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أى وما كان الله ليؤتى أحداً منكم علم الغيوب ، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما فى القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿ولكن الله﴾ يرسل الرسول فيوحى إليه ويخبره بأنّ فى الغيب كذا ، وأن فلانا فى قلبه النفاق وفلانا فى قلبه الإخلاص ، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة اطلاعه على المغيبات . ويجوز أن يراد : لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب ، بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التى لا يصبر عليها إلا الخلص الذين امتحن الله قلوبهم . كبذل الأرواح فى الجهاد ، وإنفاق الأموال فى سبيل الله ، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم ، حتى يعلم بعضكم ما فى قلب بعض من طريق الاستدلال ، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها ، فإن ذلك مما استأثر الله به . وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعا عليها ﴿ولكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء﴾ فيخبره ببعض المغيبات ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ بأن تقدروه حق قدره ، وتعلموه وحده مطلعا على الغيوب ، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبين ، لا يعلمون إلا ما علمهم الله ، ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب ، وليسوا من علم الغيب فى شىء . وعن السدى قال الكافرون : إن كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر . فنزلت .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

﴿ ولا تحسبن ﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافا محذوفا ، أى ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم . وكذلك من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله ، أو ضمير أحد . ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأول عنده محذوفا تقديره : ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم ﴿ هو خيراً لهم ﴾ والذى سوغ حذفه دلالة (يبخلون) عليه ، وهو فصل . وقرأ الأعمش بغير هو ﴿ سيطوقون ﴾ تفسير لقوله ﴿ هو شر لهم ﴾ أى سيلزمون وبال مابخلوا به إلزام الطوق . وفى أمثالهم : تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بهنة يسب بها ويذم . وقيل : يجعل مابخل به من الزكاة حية يطوقها فى عنقه يوم القيامة ، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول : أنا مالك . وعن النبي صلى الله عليه وسلم فى مانع الزكاة « يطوق بشجاع أقرع [1] » وروى بشجاع أسود . وعن النخعى سيطوقون بطوق من نار ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أى وله مافيها مما يتوارثه أهلها من مال وغيره فمالهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله . ونحوه قوله (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقرئ ﴿ بما تعملون ﴾ بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات ، وهى أبلغ فى الوعيد والياء على الظاهر .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ، فلا يخلو إما أن يقولوه عن اعتقاد لذلك ، أو عن استهزاء بالقرآن ، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين فى كفرهم . ومعنى سماع الله له : أنه لم يخف عليه ، وأنه أعد له كفاءه من العقاب ﴿ سنكتب ماقالوا ﴾ فى صحائف الحفظة . أو سنحفظه ونثبته فى علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فإن قلت : كيف قال (لقد سمع الله) ثم قال (سنكتب) وهلا قيل : ولقد كتبنا ؟ قلت : ذكر وجود

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رفعه « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل ماله بشجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة » .

السماع أولا مؤكداً بالقسم ثم قال: سنكتب على جهة الوعيد بمعنى لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء. وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيذانا بأنهما فى العظم أخوان، وبأن هذا ليس بأول ماركبوه من العظائم. وأنهم أصلاء فى الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب مع أبى بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً [١]، فقال فنحاص اليهودى: إن الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر فى وجهه وقال: لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ماقاله، فنزلت. ونحوه قولهم (يد الله مغلولة) ﴿ونقول﴾ لهم ﴿ذوقوا﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: ذوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ كما أذقتم المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحس، وذق. وقال أبو سفيان لحمزة [٢] رضى الله عنه: ذق عقق [٣] وقرأ حمزة: سيكتب، بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال ذوقوا ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ماتقدم من عقابهم وذكر الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاول بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدى على سبيل التغليب فإن قلت: فلم عطف قوله ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ على ماقدمت أيديكم، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكا لاجتراحهم السيئات فى استحقاق التعذيب؟ قلت: معنى كونه غير ظلام للعبيد أنه عادل عليهم ومن العدل أن يعاقب المسىء منهم ويثيب المحسن.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم من طريق ابن إسحاق، حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة عن ابن عباس. فذكره مطولا

(٢) ذكره ابن إسحاق فى المغازى قال: وكان الحليس بن زياد الكنانى سيد الأحابيش مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول «ذق عقق» ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الدارقطنى فى المؤتلف.

(٣) قوله: «لحمزة رضى الله عنه: ذق عقق» فى الصحاح: عاق وعقق، مثل عامر وعمر. وذق عقق: أى ذق جزاء فعلك يا عاق. (ع)

﴿عهد إلينا﴾ أمرنا فى التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة ، وهو أن يرينا قربانا تنزل نار من السماء فتأكله ، كما كان أنبياء بنى إسرائيل تلك آيتهم ، كان يقرب بالقربان ، فيقوم النبي فيدعو ، فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله ، لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتى به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات . وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤهم بالبينات الكثيرة التى أوجبت عليهم التصديق ، وجاؤهم أيضا بهذه الآية التى اقترحوها فلم قتلوهم إن كانوا صادقين أن الإيمان يلزمهم بإتيانها وقرئ (بقربان) بضمتين . ونظيره السلطان . فإن قلت : مامعنى قوله ﴿وبالذى قلتم﴾ ؟ قلت : معناه ، وبمعنى الذى قلتموه من قولكم : قربان تأكله النار . ومؤداه كقوله (ثم يعودون لما قالوا) أى لمعنى ماقالوا . فى مصاحف أهل الشام : وبالزبر وهى الصحف ﴿والكتاب المنير﴾ التوراة والإنجيل والزبور . وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه وتكذيب اليهود .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

وقرأ اليزيدى ﴿ذائقة الموت﴾ على الأصل . وقرأ الأعمش (ذائقة الموت) بطرح التنوين مع النصب كقوله :

* وَلَا ذَاكِرَ اللهَ إِلَّا قَلِيلَا * (١)

فإن قلت : كيف اتصل به قوله ﴿وإنما توفون أجوركم﴾ ؟ قلت : اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بدّ لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم ، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور . فإن قلت فهذا يوهم نفى مايروى أن القبر روضة من رياض الجنة

(١) فذكرته ثم عاتبته عتاباً رقيقاً وقولا جميلا
فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

لأبى الأسود الدؤلى ، كان يجلس إلى فناء امرأة جميلة بالبصرة فقالت له : هل لك أن أتزوج بك ؟ فانى حميدة الخصال وكيت وكيت . فقال : نعم وتزوجها من أهلها ، فوجدها بضد ما قالت ، فعاتبها وخاطب أهلها بشعر منه ذلك ، ثم طلقها أمامهم . وكنى بضمير المذكر عنها استحياء . أى فذكرتها بما قالت وعاتبتها على ما فعلت عتابا حسناً ، فوجدتها غير قابلة منى عتاباً . ولفظ الجلالة نصب بذاكر ، وحذف تنوينه مع أنه غير مضاف تشبيها بحذف نون التوكيد الخفيفة لملاقاة الساكن . أو بتنوين العلم الموصوف بابن مضافا إلى علم . وذاكر : عطف على مستعتب . و « لا » زائدة لتوكيد النفى ، ولم يضف ذاكر إلى الله ليتمحض للتنكير كالذى قبله ، وليكون أبلغ فى النفى ؛ لأن الاضافة قد تفيد أن شأنه الذكر ، فيتوهم أن النفى هو الشأنية لا أصل الذكر .

أوحفرةمن حفر النار[١] . قلت : كلمةالتوفية تزيلهذا الوهم لأنالمعنىأن توفية الأجوروتكميلها[٢] يكونذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور . الزحزحة : التنحية والإبعاد تكرير الزح ، وهو الجذب بعجلة ﴿ فقد فاز ﴾ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل مايفاز به ولاغاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد . اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوزفى المآب . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهومؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتى إلى الناس مايحب أن يؤتى إليه[٣] » وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد . شبه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغرّ حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته . والشيطان هو المدلس الغرور . وعن سعيد بن جبير : إنما هذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ ، خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ماسيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها ، حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لايرهقهم مايرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه .

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

والبلاء فى الأنفس : القتل والأسر والجراح ومايرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب . وفى الأموال : الإنفاق فى سبيل الخير وما يقع فيها من الآفات . وما يسمعون من أهل الكتاب[٤] المطاعن فى الدين الحنيف ، وصدّ من أراد الإيمان ، وتخطئة من آمن . وما كان من كعب بن الأشرف من هجائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريض المشركين ، ومن فنحاص ،

(١) أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وهو ضعيف . ورواه الطبرانى فى الأوسط فى ترجمة مسعود بن محمد الرملى باسناده إلى أبى هريرة وقال : لم يروه عن الأوزاعى إلا أيوب بن سويد . تفرد به ولده محمد عنه . قلت : وهو ضعيف .

(٢) قال محمود : « لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ... الخ » قال أحمد : هذا كما ترى صريح فى اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة ، وهو المراد بما يكون فى القبر من نعيم وعذاب . ولقد أحسن الزمخشرى فى مخالفة أصحابه فى هذه العقيدة ، فانهم يجحدون عذاب القبر ، وها هو قد اعترف به ، والله الموفق .

(٣) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فى حديث طويل

(٤) قوله « وما يسمعون من أهل الكتاب » بقى ما يسمعون من الذين أشركوا . (ع)

ومن بنى قريظة والنضير ﴿ فإن ذلك ﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿ من عزم الأمور ﴾ من معزومات الأمور ، أى مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون ، يعنى أنّ ذلك عزمة من عزمات الله لابد لكم أن تصبروا وتتقوا .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿ وإذ أخذ الله ﴾ واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿ لتبيننه ﴾ الضمير للكتاب . أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه وقيل له . آلله لتفعلنّ ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ فنبذوا الميثاق وتأكيده عليهم ، يعنى لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه . والنبذ وراء الظهر مثل فى الطرح وترك الاعتداد ، ونقيضه جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه ، وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وماعلموه وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارّهم ، أو لجرّ منفعة وحطام دنيا ، أو لتقية : مما لادليل عليه ولا أمارة أو لبخل بالعلم ، وغيرة أن ينسب إليه غيرهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار»[1] وعن طاوس أنه قال

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من رواية على بن الحكم البنانى عن عطاء عن أبى هريرة بلفظ «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار» أخرجه أبو داود من رواية حماد بن سلمة ، والآخران من رواية عمارة بن زاذان كلاهما عن على ، ورجال أبى داود ثقات . لكن له علة . رواه عبد الوارث عن على بن الحكم عن رجل عن عطاء . ويقال : إن هذا المبهم حجاج بن أرطاة ، وفى رواية ابن ماجه التصريح بسماع على بن عطاء . لكن عمارة ضعيف . وللحديث أبى هريرة طريق أخرى حسنها ابن القطان فذكره من رواية قاسم بن أصبغ عن أبى الأحوص وهو العكبرى عن ابن السرى عن معتمر عن أبيه عن عطاء به ، وابن أبى السرى له أوهام ، وكأنه دخل عليه حديث فى حديث . ورواه الطبرانى فى الأوسط من طريق جابر الجعفى عن الشعبى عن عطاء به ، وجابر ضعيف ، وله طرق كثيرة عن أبى هريرة أوردها ابن الجوزى فى العلل المتناهية . وفى الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم من طريق ابن وهب عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن أبى عبد الرحمن الحبلى عنه ، وعن ابن عباس أخرجه الطبرانى والعقيلى وفيه معمر بن زائدة قال العقيلى : لايتابع عليه . وله طريق أخرى قاله أبو يعلى : حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا أبو عوانة عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وأخرجه ابن الجوزى من طريقين آخرين وضعفهما . وعن أنس ، رواه ابن ماجه من طريق يوسف بن ابراهيم سمعت أنسا به وأخرجه ابن الجوزى من طريقين آخرين وضعفهما أيضا . وعن ابن مسعود وطلق بن على كلاهما فى الطبرانى . وعن جابر وعائشة كلاهما عند العقيلى . وعن ابن عمر عند ابن عدى . وعن أبى سعيد الخدرى عن أبى يعلى وأسانيدها كلها ضعيفة . وعن عمرو بن عبسة أخرجه ابن الجوزى بلفظ «فقد برئ من الاسلام» وإسناده ضعيف أيضا . قال الامام أحمد : لا يصح فى هذا الباب شىء ﴿ تنبيه ﴾ ليس فى شىء من طرقه «عن أهله»

لوهب: إنى أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب. وقال: والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أنّ الله سيعذبك، وعن محمد بن كعب: لايحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه [١] ولايحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن على رضى الله عنه. ماأخذالله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا [٢]. وقرئ: ليبيننه. ولا يكتمونه، بالياء، لأنهم غيب. وبالتاء، على حكاية مخاطبتهم، كقوله (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنّ)

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

﴿لاتحسبنّ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحد المفعولين ﴿الذين يفرحون﴾ والثانى (بمفازة) وقوله ﴿فلا تحسبنهم﴾ تأكيد تقديره: لاتحسبنهم، فلا تحسبنهم فائزين. وقرئ: لاتحسبن. فلا تحسبنهم، بضم الباء على خطاب المؤمنين. ولايحسبن. فلا يحسبنهم، بالياء وفتح الباء فيهما، على أنّ الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء فى الأوّل وضمها فى الثانى، على أن الفعل للذين يفرحون، والمفعول الأوّل محذوف على: لايحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لايحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، وفلايحسبنهم، تأكيد. ومعنى ﴿بما أوتوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء، يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى (إنه كان وعده مأتيا)، (لقد جئت شيئا فريا). ويدل عليه قراءة أبىّ: يفرحون بما فعلوا. وقرئ: آتوا، بمعنى أعطوا. وعن على رضى الله عنه: بما أوتوا. ومعنى ﴿بمفازة من العذاب﴾ بمنجاة منه. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه [٣]، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بمافعلوا، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم: أى: لاتحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا ـ من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ـ ناجين من العذاب. ومعنى (يفرحون بما أوتوا)

(١) قوله «على علمه» لعل بعده سقطا تقديره «حتى يعلم». (ع)

(٢) رواه الحرث بن أبى أسامة أخبرنا عبد الوهاب الخفاف حدثنا الحسن بن عمارة حدثنى الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزار: سمعت عليا يقول فذكره والحسن متروك، ومن طريق الحرث رواه الثعلبى ورويناه فى جزء الذراع قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبد البر فى العلم. قال: ويروى عن على. وذكره صاحب الفردوس عن على. فكأنه وقف عليه مرفوعا.

(٣) متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن أن مروان قال لبوابه: يا رافع اذهب إلى ابن عباس فقل له لئن كان امرؤ منا فرح بما أوتى وحمد بما لم يفعل عذب لنعذبن جميعاً. فقال ابن عباس رضى الله عنهما: إنما نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب، أتاه اليهود فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه ... الحديث»

بما أوتوه من علم التوارة . وقيل يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه . وقيل : هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف ، واستحمدوا إليه بترك الخروج . وقيل : هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم ، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر . ويجوز أن يكون شاملا لكل من يأتى بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب ، ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ فهو يملك أمرهم . وهو على كل شيء قدير ، فهو يقدر على عقابهم ﴿ لآيات ﴾ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته ﴿ لأولى الألباب ﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر . وفى النصائح الصغار : املأ عينيك من زينة هذه الكواكب ، وأجلهما فى جملة هذه العجائب ، متفكرا فى قدرة مقدرها ، متدبرا حكمة مدبرها ، قبل أن يسافر بك القدر ، ويحال بينك وبين النظر . وعن ابن عمر رضى الله عنهما : قلت لعائشة رضى الله عنها : أخبرينى بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم،(١) فبكت وأطالت ، ثم قالت : كل أمره عجب ، أتانى فى ليلتى فدخل فى لحافى حتى ألصق جلده بجلدى ، ثم قال : ياعائشة ، هل لك أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى ؟ فقلت : يارسول الله ، إنى لأحب قربك وأحب هواك ، قد أذنت لك . فقام إلى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء . ثم قام يصلى ، فقرأ من القرآن فجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكى ، ثم رفع يديه فجعل يبكى

(١) أخرجه ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء : دخلت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير على عائشة ، فقالت : قد آن لك أن تزورنا ، فقال : أقول كما قال الأول : زر غبا تزدد حبا ، فقالت : دعونا من بطالتكم هذه . ثم قال ابن عمر لعائشة : أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله ورواه عبد بن حميد ، والثعلبي وغيرهم من رواية أبى جناب الكلبي عن عطاء قال : دخلت أنا وابن عمر على عائشة فقال لها ابن عمر أخبرينى ... فذكره.

حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال له : يارسول الله ، أتبكى وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يابلال أفلا أكون عبداً شكورا . ثم قال : ومالى لا أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة (إنّ فى خلق السموات والأرض) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها . وروى : « ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها»[1] وعن على رضى الله عنه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول (إنّ فى خلق السموات والأرض)[2] . وحكى أنّ الرجل من بنى إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة ، فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله ، فقالت له أمّه : لعلّ فرطة فرطت منك فى مدّتك ؟ فقال : ما أذكر . قالت : لعلك نظرت مرّة إلى السماء ولم تعتبر ؟ قال : لعلّ . قالت : فما أتيت إلا من ذاك ﴿الذين يذكرون الله﴾ ذكراً دائباً على أى حال كانوا ، من قيام وقعود واضطجاع لايخلون بالذكر فى أغلب أحوالهم . وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله ، فقال بعضهم : أما قال الله تعالى (يذكرون الله قياماً وقعوداً) فقاموا يذكرون الله على أقدامهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « من أحبّ أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله[3] » وقيل : معناه يصلون فى هذه الأحوال على حسب استطاعتهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمران بن الحصين « صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب ، تومئ إيماء[4] » وهذه حجة للشافعى رحمه الله فى إضجاع المريض على جنبه كما فى اللحد . وعند أبى حنيفة رحمه الله أنه يستلق حتى إذا وجد خفة قعد . ومحل ﴿على جنوبهم﴾ نصب على الحال عطفاً على ماقبله ، كأنه قيل : قياما وقعوداً ومضطجعين ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض﴾ ومايدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام وإبداع صنعتها ومادبر فيها بما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم[5] شأن الصانع

(١) رواه ابن مردويه فى تفسير سورة الروم من رواية أبى جناب عن عطاء عن عائشة قالت « لما نزلت هذه الآية (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويح لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتفكر فيها »

(٢) رواه الثعلبى من طريق حماد عن حجاج عن حبيب بن أبى ثابت عن محمد بن على بن أبى طالب عن على وأصله فى المتفق عليه من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق والطبرانى من حديث معاذ وفى إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف. وأخرجه الثعلبى فى تفسير العنكبوت، وابن مردويه فى تفسير الواقعة .

(٤) أخرجه البخارى وأصحاب السنن ، من حديث عمران بن حصين . قال «كانت فى بواسير ـ فذكر الحديث» وليس فى آخره يومئ إيماء ، وأورده صاحب الهداية ـ كما أورده الزمخشرى .

(٥) قوله « على عظم » لعله من عظم ... الخ ، فيكون بيانا لما يدل عليه . (ع)

وكبرياء سلطانه . وعن سفيان الثورى أنه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليه ، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال : أشهد أنّ لك رباً وخالقاً ، اللهمّ اغفر لى ، فنظر الله إليه فغفر له »[1] وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا عبادة كالتفكر [2]» وقيل : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات ، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضلونى على يونس بن متى فإنه كان يرفع له فى كل يوم مثل عمل أهل الأرض »[3] قالوا : وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله الذى هو عمل القلب ، لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه فى اليوم مثل عمل أهل الأرض ﴿ ماخلقت هذا باطلا ﴾ على إرادة القول . أى يقولون ذلك وهو فى محل الحال ، بمعنى يتفكرون قائلين . والمعنى : ماخلقته خلقاً باطلا بغير حكمة ، بل خلقته لداعى حكمة عظيمة ، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك ؛ ولذلك وصل به قوله ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ لأنه جزاء من عصى ولم يطع . فإن قلت : هذا إشارة إلى ماذا ؟ قلت : إلى الخلق على أن المراد به المخلوق ، كأنه قيل : ويتفكرون فى مخلوق السموات والأرض ، أى فيما خلق منها . ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض ؛ لأنها فى معنى المخلوق . كأنه قيل : ماخلقت هذا المخلوق العجيب باطلا . وفى هذا ضرب من التعظيم كقوله (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ويجوز أن يكون باطلا حالا من هذا . وسبحانك : اعتراض للتنزيه من العبث ، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة .

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَاوَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

(١) أخرجه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وفى إسناده من لا يعرف .

(٢) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء ، والبيهقى فى الشعب من رواية أبى رجاء محمد بن عبد الله الحرطى من أهل شر عن شعبة عن أبى إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن على رضى الله عنه أنه قال لابنه الحسن «يابنى ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا مال أعوز من العقل ، ولا فقر أشد من الجهل ، ولا عقل كالتدبير ، ولا ورع كحسن الخلق ، ولا عبادة كالتفكر . . . الحديث بطوله » وأبو رجاء ، قال البيهقى : ليس بالقوى ، وقال ابن حبان يروى عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات .

(٣) لم أجده .

﴿فقد أخزيته﴾ فقد أبلغت فى إخزائه . وهو نظير قوله فقد فاز . ونحوه فى كلامهم : من أدرك مرعى الصمان [1] فقد أدرك ، ومن سبق فلانا فقد سبق ﴿وما للظالمين﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأنّ من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها [2] ، تقول : سمعت رجلا يقول كذا ، وسمعت زيداً يتكلم . فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع ، لأنك وصفته بما يسمع ، أو جعلته حالا عنه فأغناك عن ذكره ، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد ، وأن يقال سمعت كلام فلان أو قوله . فإن قلت : فأىّ فائدة فى الجمع بين المنادى وينادى ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيما لشأن المنادى ؛ لأنه لامنادى أعظم من مناد ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهاد يهدى للإسلام . وذلك أنّ المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب ، أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع ، وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك ؛ فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهدى للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادى والهادى وفخمته . ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه . ونحوه : هداه للطريق وإليه ، وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً ، والمنادى هو الرسول (أدعو إلى الله) ، (ادع إلى سبيل ربك) . وعن محمد بن كعب : القرآن . ﴿أن آمنوا﴾ أى آمنوا ، أو بأن آمنوا ﴿ذنوبنا﴾ كبائرنا ﴿سيآتنا﴾ صغائرنا ﴿مع الأبرار﴾ مخصوصين بصحبتهم ، معدودين فى جملتهم . والأبرار : جمع برّ أوبارّ ، كرب وأرباب ، وصاحب وأصحاب ﴿على رسلك﴾ على هذه صلة للوعد ، كما فى قولك : وعد الله الجنة على الطاعة . والمعنى : ماوعدتنا على تصديق رسلك . ألا تراه كيف أتبع ذكر المنادى للإيمان وهو الرسول وقوله آمنا وهو التصديق ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف ، أى ماوعدتنا منزلا على رسلك ، أو محمولا على رسلك ، لأن الرسل محملون ذلك (فإنما عليه ماحمل) وقيل : على ألسنة رسلك . والموعود هو الثواب . وقيل : النصرة على الأعداء . فإن قلت : كيف دعوا الله بإنجاز ماوعد والله لايخلف الميعاد ؟ قلت : معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له ، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم ، يقصدون بذلك

---

(١) قوله « من أدرك مرعى الصمان » فى الصحاح : موضع إلى جنب رمل عالج . وعالج : موضع بالبادية به رمل . (ع)

(٢) قوله « فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة ، فمن يدخل النار من المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بالعفو ، كما حقق فى محله . (ع)

التذلل لربهم والتضرع إليه ، واللجأ الذى هو سيما العبودية .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

يقال استجاب له واستجابه :

* فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ * (1)

﴿أنى لا أضيع﴾ قرئ بالفتح على حذف الياء ، وبالكسر على إرادة القول . وقرئ : لا أضيع ، بالتشديد ﴿من ذكر أو أنثى﴾ بيان لعامل ﴿بعضكم من بعض﴾ أى يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد ، فكل واحد منكم من الآخر ، أى من أصله ، أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم . وقيل المراد وصلة الإسلام . وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين . وروى أن أم سلمة قالت : يارسول الله ، إنى أسمع الله تعالى يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء (2) . فنزلت ﴿فالذين هاجروا﴾ تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة ، وهى المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم من دار الفتنة ، واضطروا إلى الخروج من ديارهم التى ولدوا فيها ونشئوا بما سامهم (3) المشركون من الخسف ﴿وأوذوا فى سبيلى﴾ من أجله وبسببه ، يريد

---

(1) وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبى المغوار منك قريب

لكعب بن سعد الغنوى ، يرثى أخاه هرم وكنيته أبو المغوار . و « جهرة » مفعول مطلق مؤكد . و « أبى » مجرور بلعل ، وهى لغة عقيل . واستعمال لعل فى الأمر البعيد ـ مع أنها للرجاء والقرب ـ دليل على شدة وله وتنزيله البعيد منزلة القريب . وروى : « لعل أبا المغوار » على اللغة المشهورة . يقول : ورب داع إلى المكارم لم يجبه أحد فقلت له : ادع مرة أخرى برفع صوتك ، لعل أخي يكون قريبا فيجيبك على عادته ، فانه كثيراً ما يطلب معالى الأمور . وهذا من باب التمثيل والتخييل ، لأنه لا داعى فى الواقع .

(2) أخرجه الترمذى ، من رواية عمرو بن دينار أخبرنى سلمة ـ رجل من ولد أم سلمة رضى الله عنها ـ قال قالت أم سلمة .

(3) قوله « بما سامهم » فى الصحاح : يقال سامه الخسف ، وسامه خسفا ، وخسفا أيضا بالضم : اى أولاه ذلا . (ع)

سبيل الدين ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا. وقرئ: وقتلوا، بالتشديد. وقتلوا وقاتلوا ـ على التقديم ـ بالتخفيف والتشديد. وقتلوا، وقتلوا، على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول. وقتلوا، وقاتلوا، على بنائهما للفاعل ﴿ثوابا﴾ في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تثويباً ﴿من عند الله﴾ لأن قوله (لأكفرن عنهم ..... ولأدخلنهم) في معنى. لأثيبنهم. ﴿وعنده﴾ مثل: أن يختص به وبقدرته وفضله، لا يثيبه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ماتريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته. وهذا تعليم من الله كيف يدعى وكيف يبتهل إليه ويتضرع. وتكرير (ربنا) من باب الابتهال، وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة، من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب[1] موصولا إليه، بالعمل بالجهل والغباوة. وروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه: من حزبه أمر فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات (ربنا) ثم أخبر أنه استجاب لهم، إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به، فلا بد من تقديمه بين يدى الدعاء.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

(لا يغرنك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد، أى لا تنظر إلى ماهم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغتر بظاهر ماترى من تبسطهم فى الأرض، وتصرفهم فى البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون[2]. وعن ابن عباس: هم أهل مكة. وقيل: هم اليهود. وروى أن أناسا من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فإن قلت: كيف جاز أن يغتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حتى ينهى عن الاغترار

---

(١) قوله «وتسجيل على من لا يرى الثواب» يريد أهل السنة القائلين يجوز على الله أن يتفضل على العبد بدون عمل ولا يجب عليه إثابة العامل. وقد حقق في محله. (ع)

(٢) قوله «ويتجرون ويتدهقنون» يتملؤون ويتمتعون بلين الطعام وطيب الشراب. أفاده الصحاح، فى مادة دهق، ومادة دهقن. والأوفق بما فى الصحاح: يتدهمقون، حيث قال: قال الأصمعى: الدهمقة: لين الطعام وطيبه ورقته. وحديث عمر «لو شئت أن يدهمق لى لفعلت، ولكن الله عاب قوما فقال: أذهبتم طيباتكم ... الآية» ولم يذكر الدهقنة بهذا المعنى تصريحا. (ع)

به ؟ قلت : فيه وجهان أحدهما أن مدرة القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً ، فكأنه قيل : لايغرنكم . والثانى : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه ، كقوله (ولا تكن من الكافرين) ، (ولا تكونن من المشركين) ، (ولا تطع المكذبين) وهذا فى النهى نظير قوله فى الأمر (اهدنا الصراط المستقيم) ، (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) وقد جعل النهى فى الظاهر للتقلب وهو فى المعنى للمخاطب ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب ، لأنّ التقلب لو غرّه لاغتر به ، فمنع السبب ليمتنع المسبب . وقرئ : لايغرنك بالنون الخفيفة ﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدإ محذوف ، أى ذلك متاع قليل وهو التقلب فى البلاد ، أراد قلته فى جنب مافاتهم من نعيم الآخرة ، أو فى جنب ماأعدّ الله للمؤمنين من الثواب ، أو أراد أنه قليل فى نفسه لانقضائه وكل زائل قليل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماالدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع[1] » ﴿وبئس المهاد﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم .

لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

النزل والنزل : مايقام للنازل . وقال أبو الشعراء الضبى :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا ... جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهِفَاتِ لَهُ نُزُلًا[2]

وانتصابه إمّا على الحال من جنات لتخصصها بالوصف والعامل اللام : ويجوز أن يكون بمعنى مصدر[3] مؤكد ، كأنه قيل : زرقاء ، أو عطاء ﴿من عند الله وما عند الله﴾ من الكثير الدائم ﴿خير للأبرار﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل ، وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش (نزلا) بالسكون . وقرأ يزيد بن القعقاع : لكنّ الذين اتقوا ، بالتشديد .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد به .

(٢) لأبى الشعراء الضبي . والجبار : الملك العاتى . وضافه يضيفه : نزل عنده ضيفا ، أى إذا نزل بنا الجبار مع جيشه نزول الضيف . وفيه تهكم به حيث جاء محارباً ، فشبه بمن جاء للمعروف طالبا ، ورشح ذلك التشبيه بجعل الرماح والسيوف المرهفات المسنونات نزلاله ، وهو الطعام المعد للضيف

(٣) قوله « ويجوز أن يكون بمعنى مصدر » فى قوة : وأما على المصدر ، لأنه يجوز ... الخ . (ع)

خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

﴿ وإن من أهل الكتاب ﴾ عن مجاهد : نزلت فى عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب . وقيل : فى أربعين من أهل نجران ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا . وقيل : فى أصحمة النجاشى ملك الحبشة ، ومعنى أصحمة «عطية» بالعربية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم ، فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه واستغفر له : فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط وليس على دينه [1] ، فنزلت . ودخلت لام الابتداء على اسم «إنّ» لفصل الظرف بينهما ؛ كقوله (وإن منكم لمن ليبطئن) . ﴿ وما أنزل إليكم ﴾ من القرآن ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ من الكتابين ﴿ خاشعين لله ﴾ حال من فاعل يؤمن ، لأن من يؤمن فى معنى الجمع ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه فى قوله (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) ، (يؤتكم كفلين من رحمته) . ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لنفوذ علمه فى كل شىء ، فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر . ويجوز أن يراد : إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد .

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

---

(١) ذكره الثعلبى من قول ابن عباس وقتادة . ولفظه « فخرج إلى البقيع . وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشى » والباقى نحوه ، وقد ذكر إسناده إليهما آخر الكتاب . وذكره الواحدى بلا إسناد ، ورواه الطبرى وابن عدى فى ترجمة أبى بكر الهذلى ، واسمه : سلمى ، وهو ضعيف ـ عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر دون قوله « ونظر إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشى ، وزاد فيه ، وكبر أربعا ، والطبرانى فى الأوسط » من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد قال « لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفاة النجاشى قال : اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم تره قط ؛ فخرج بنا ، وتقدم النبى صلى الله عليه وسلم ووقفنا خلفه ، فصلى وصلينا ، فلما انصرفنا قال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط فأنزل الله تعالى (وإن من أهل الكتاب) .

اصبروا على الدين وتكاليفه ﴿ وصابروا ﴾ أعداء الله فى الجهاد، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب لاتكونوا أقل صبراً منهم وثباتا. والمصابرة: باب من الصبر ذكر بعد الصبر على مايجب الصبر عليه، تخصيصا لشدته وصعوبته ﴿ورابطوا﴾ وأقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: (ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر[١] وقيامه، لايفطر، ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة»

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم»[٢]

وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس».[٣]

---

(١) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة من حديث سلمان أتم منه ولابن حبان من حديث سلمان «رباط يوم وليلة فى سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه جاع لا يفطر، وقام لا يفتر» وأصله فى مسلم، ووهم الحاكم فاستدركه.

(٢) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث أبى بن كعب وسيأتى آخر الكتاب، ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن أبى بن كعب، والواحدى فى التفسير الأوسط من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

(٣) أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف.

ســـورة النساء

مدنية ، وهى مائة وست وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

﴿ ياأيها الناس ﴾ يا بنى آدم ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم [١] . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يعطف على محذوف ، كأنه قيل : من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها ، وخلق منها زوجها . وإنما حذف لدلالة المعنى عليه . والمعنى : شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها ، وهى أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها ﴿ وبث منهما ﴾ نوعى جنس الإنس وهما الذكور والإناث ، فوصفها بصفة هى بيان وتفصيل بكيفية خلقهم منها . والثانى : أن يعطف على خلقكم ، ويكون الخطاب فى (يا أيها الناس) للذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمعنى : خلقكم من نفس آدم ، لأنهم من جملة الجنس المفرع منه ، وخلق منها أمكم حواء وبث منهما ﴿ رجالا كثيراً ونساء ﴾ غيركم من الأمم الفائتة للحصر . فإن قلت : الذى يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعوا إليها ويبعث عليها ، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذى ذكره موجباً للتقوى وداعياً إليها ؟ قلت : لأن

---

(١) قال محمود : « معناه فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم وعلام عطف . . . الخ » قال أحمد : وإنما قدر المحذوف فى الوجه الأول حيث جعل الخطاب عاما فى الجنس ، لأنه لولا التقدير لكان قوله (وبث منهما) تكراراً لقوله (خلقكم) إذ مؤداهما واحد ، وليس على سبيل بيان الأول ، لأنه معطوف عليه حينئذ . وأما وهو معطوف على المقدر ، فذاك المقدر واقع صفة مبينة ، والمعطوف عليه داخل فى حكم البيان فاستقام . وأما الوجه الثانى فالتكرار فيه ليس بلازم ، إذ المخاطب بقوله (خلقكم) الذين بعث إليهم النبي عليه الصلاة والسلام . وقوله (وبث منهما) واقع على من عدا المبعوث إليهم من الأمم ، فلا حاجة للتقدير المذكور فى الوجه الثانى ، والله أعلم .

ذلك مما يدل على القدرة العظيمة . ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدى إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى غقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغةعليهم ، فحقهم أن يتقوه فى كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها . أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا مايجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذى وصل بينكم ، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة . فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه . وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة . وقرئ : وخالق منها زوجها . وباث منهما ، بلفظ اسم الفاعل ، وهو خبر مبتدإ محذوف تقديره : وهو خالق ﴿تساءلون به﴾ تتساءلون به ، فأدغمت التاء فى السين . وقرئ (تساءلون) بطرح التاء الثانية ، أى يسأل بعضكم بعضا بالله وبالرحم . فيقول : بالله وبالرحم أفعل كذا على سبيل الاستعطاف . وأناشدك الله والرحم . أو تسألون غيركم بالله والرحم ، فقيل « تفاعلون » موضع « تفعلون » للجمع ، كقولك : رأيت الهلال وتراءيناه . وتنصره قراءة من قرأ : تسلون به . مهموز أو غير مهموز . وقرئ ﴿والأرحام﴾ بالحركات الثلاث ، فالنصب على وجهين : إما على : واتقوا الله والأرحام ، أو أن يعطف على محل الجار والمجرور ، كقولك : مررت بزيد وعمراً . وينصره قراءة ابن مسعود : تسألون به وبالأرحام ، والجر على عطف الظاهر على المضمر ، وليس بسديد ؛ لأن الضمير المتصل متصل كاسمه ، والجار والمجرور كشيء واحد ، فكانا فى قولك « مررت به وزيد » و « هذا غلامه وزيد » شديدى الاتصال ، فلما اشتد الاتصال لتكرره أشبه العطف على بعض الكلمة ، فلم يجز ووجب تكرير العامل ، كقولك : « مررت به وبزيد » و « هذا غلامه وغلام زيد » ألا ترى إلى صحة قولك « رأيتك وزيدا » و « مررت بزيد وعمرو » لما لم يقو الاتصال ، لأنه لم يتكرر ، وقد تمحل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار ونظيرها .

* فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ * (١)

والرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل : والأرحام كذلك ، على معنى : والأرحام مما يتقى أو والأرحام مما يتساءل به . والمعنى أنهم كانوا يقرون بأن لهم خالقاً ، وكانوا يتساءلون بذكر الله والرحم ، فقيل لهم : اتقوا الله الذى خلقكم ، واتقوا الذى تتناشدون به واتقوا الأرحام

---

(١) فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب

للأعشى . وقيل : لعمرو بن معديكرب . وقيل : لخفاف بن ندبة . وقيل : لعباس بن مرداس . يقال : قرب الفرس تقريباً أسرع . يقول : فاليوم دنوت مسرعا فى هجونا بعد بطئك عنه . ويروى : قد بت ، أى قد صرت تهجونا ، فاذهب على طريقتك فإنها سمة اللئام وشيمة الأيام ، فلا عجب من ذلك ، وهو أمر تخلية ومتاركة . والأيام : عطف على الضمير المجرور ، وهو دليل على جوازه بدون إعادة الجار وإن منعه الجمهور .

فلا تقطعوها. أو واتقوا الله الذى تتعاطفون باذكاره وباذكار الرحم. وقد آذن عزوجل - إذقرن الأرحام باسمه - أن صلتها منه بمكان، كما قال (أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وعن الحسن: إذا سألك بالله فأعطه، وإذا سألك بالرحم فأعطه. وللرحم حجنة عند العرش[1] ومعناه ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه، الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاها الواصل بشت به وكلمته، وإذا أتاها القاطع احتجبت[2] منه. وسئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام «تخيروا لنطفكم»[3] فقال: يقول لأولادكم. وذلك أن يضع ولده فى الحلال. ألم تسمع قوله تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) وأول صلته أن يختار له الموضع الحلال، فلا يقطع رحمه ولا نسبه فإنما للعاهر الحجر، ثم يختار الصحة ويجتنب الدعوة[4]، ولا يضعه موضع سوء يتبع شهوته وهواه بغير هدى من الله.

وَءَاتُوا الْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(اليتامى) الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتم. الانفراد. ومنه: الرملة اليتيمة والدرة اليتيمة. وقيل: اليتم فى الأناسى من قبل الآباء، وفى البهائم من قبل الأمهات. فإن قلت: كيف جمع اليتيم - وهو فعيل كمريض - على يتامى؟ قلت: فيه وجهان: أن يجمع على يتمى كأسرى، لأن اليتم من وادى الآفات والأوجاع، ثم يجمع فعلى على فعالى كأسارى. ويجوز أن يجمع على فعائل لجرى اليتيم مجرى الأسماء. نحو صاحب وفارس، فيقال: يتائم، ثم يتامى على القلب. وحق هذا

---

(١) قوله «حجنة عند العرش» فى الصحاح: الحجن - بالتحريك - الاعوجاج. وصقر أحجن المخالب معوجها. وحجنة المغزل - بالضم - هى المنعقفة فى رأسه. وفيه أيضا: عقفت الشىء فانعقف، أى عطفته فانعطف. والتعقيف: التعويج (ع)

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه: أخبرنا جرير عن قابوس عن أبيه عنه به. ورواه الحكيم الترمذى من هذا الوجه

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم والدارقطنى من حديث هشام عن أبيه عن عائشة. قال ابن طاهر: لم يروه عن هشام ثقة. ورواه ابن عدى من طريق عيسى بن ميمون أحد الضعفاء عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها ورواه تمام فى فوائده وأبو نعيم فى الحلية من رواية الزهرى عن أنس وفيه عبد العظيم بن إبراهيم السالمى وهو مجهول. ورواه ابن عدى من حديث عمر موقوفا. وفيه سليمان بن عطاء وهو ضعيف وقال ابن طاهر: رواه إسحاق بن الفيض عن عبد المجيد عن ابن جريج عن عطاء، فمرة قال: عن ابن عباس. ومرة قال: عن عائشة. وهذا أجود طرقه إن كان الاسناد إلى إسحاق قويا. قال ابن أبى حاتم عن أبيه: هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه

(٤) قوله «ويجتنب الدعوة» لعله الدعرة بالراء بدل الواو. وفى الصحاح: الدعر - بالتحريك - الفساد. (ع)

الاسم أن يقع على الصغار[1] والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم وانتصبوا كفاة يكفلون غيرهم ويقومون عليهم، زال عنهم هذا الاسم. وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يتيم أبي طالب، إمّا على القياس وإمّا حكاية للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضيعا له. وأمّا قوله عليه السلام «لا يتم بعد الحلم»[2] فما هو إلا تعليم شريعة لا لغة، يعني أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾؟ قلت: إما أن يراد باليتامى الصغار، وبإتيانهم الأموال: أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاة السوء وقضاته ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة، حتى تأتي اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محذوفة. وإمّا أن يراد الكبار تسمية لهم يتامى على القياس، أو لقرب عهدهم ـ إذا بلغوا ـ بالصغر، كما تسمى الناقة عشراء بعد وضعها. على أنّ فيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ، ولا ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار. وقيل: هي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ طلب المال فمنعه عمه فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم[3] فنزلت، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع ماله إليه؛ فقال النبي عليه السلام: ومن يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره. يعني جنته. فلما قبض ألفوا ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ثبت الأجر، ثبت الأجر وبقي الوزر: قالوا: يارسول الله، قد عرفنا أنه ثبت الأجر

---

(١) قال محمود: «إما أن يراد باليتامى الصغار ... الخ» قال أحمد: والوجه الأول قوى بقوله بعد آيات (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) دل على أن الآية الأولى في الحض على حفظها لهم ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم، والثانية في الحض على الايتاء الحقيق عند حصول البلوغ والرشد. ويقويه أيضا قوله عقيب الأولى (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب)، (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) فهذا كله تأديب للوصى ما دام المال بيده واليتيم في حجره. وأما على الوجه الآخر فيكون مؤدى الآيتين واحداً، وهو الأمر بالايتاء حقيقة، ويخلص عن التكرار بأن الأولى كالجملة الثانية كالمبينة لشرط الايتاء من البلوغ وإيناس الرشد، والله أعلم.

(٢) أخرجه أبوداود عن علي وإسناده حسن لأن له طريقاً أخرى عن علي أخرجه عبد الرزاق أيضاً عن الثوري عن جويبر موقوفا. وصوبه العقيلي وقد تابع جويبرا عليه عبد الكريم بن أبي المخارق عن الضحاك. وعبد الكريم متروك أيضاً وله طريق أخرى عند الطبراني في الأوسط في ترجمة محمد بن سليمان الصوفي من رواية علقمة بن قيس عن علي. ورواه أبو يعلى والطبراني من رواية ذيال بن عبيد بن حنظلة بن حذيم بن حنيفة. سمعت جدي حنظلة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. فذكره وفي الباب عن أنس عند البزار وفيه مرثد بن عبد الملك وهو ضعيف. وعن جابر عند عبد الرزاق والطيالسي وابن يعلى من رواية حرام بن عثمان. وهو متروك. ومن طريق سعيد بن المرزبان عن يزيد الفقير عن جابر. وسعيد ضعيف جداً

(٣) ذكره الثعلبي عن مقاتل والكلبي. وسنده إليهما مذكور في أول الكتاب.

كيف بقى الوزر وهو ينفق فى سبيل الله ؟ فقال : ثبت أجر الغلام ، وبقى الوزر على والده ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث فى الأرض فتأكلوه مكانه . أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع منها [1] والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز ، منه التعجل بمعنى الاستعجال ، والتأخر بمعنى الاستئخار . قال ذو الرمّة :

فَيَا كَرَمَ السَّكْنِ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا عَنِ الدَّارِ وَالْمُسْتَخْلَفِ الْمُتَبَدَّلِ [2]

أراد : ويالؤم ما استخلفته الدار واستبدلته . وقيل : هو أن يعطى رديئا ويأخذ جيداً . وعن السدى : أن يجعل شاة مهزولة مكان سمينة ، وهذا ليس بتبدل ، وإنما هو تبديل إلا أن يكارم صديقا له فيأخذ منه عجفاء مكان سمينة من مال الصبى ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ ولا تنفقوها معها . وحقيقتها : ولا تضموها إليها [3] فى الإنفاق ، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم

---

(١) قوله « والتورع منها » لعله : عنها . (ع)

(٢) لذى الرمة . والسكن ـ بالسكون ـ : سكان الدار ، فهو اسم جمع لساكن ، كركب لراكب ، وصحب لصاحب . وفى نداء كرمهم معنى التعجب من كثرته ، أى يا كرم أصحاب الدار الذين ارتحلوا عنها ، ويالؤم المستخلف المتبدل ، على صيغة اسم المفعول فيهما أى ما استخلفته وما استبدلته بعدهم من الوحوش . وقيل : من الذين لا يوفون بالمراد ، فالتبدل بمعنى الاستبدال . والمستخلف على تقدير مضاف دل عليه المقام .

(٣) قال محمود : « معناه ولا تضموها إلى أموالكم ... إلخ » : قال أحمد : وأهل البيان يقولون المنهى متى كان درجات فطريق البلاغة النهى عن أدناها تنبيها على الأعلى ، كقوله تعالى (فلا تقل لهما أف) وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية وجدته بادئ الرأى مخالفا لها ، إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم فى النهى أن يأكله وهو غنى عنه ، وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه ، فكان مقتضى القانون المذكور أن ينهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه ، حتى يلزم نهى الغنى عنه من طريق الأولى . وحينئذ فلا بد من تمهيد أمر يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهى فى هذه الآية فنقول : أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته ، ولا شك أن النهى عن الأدنى وإن أفاد النهى عن الأعلى إلا أن للنهى عن الأعلى أيضا فائدة أخرى جليلة لا تؤخذ من النهى عن الأدنى ، وذلك أن المنهى كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد ، ولا شك أن المستقر فى النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل ، فخصص بالنهى تشنيعا على من يقع فيه ، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء ، دعاه ذلك إلى الاحجام عن أكل ماله مطلقا . ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم ، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهى بأكله مع الفقر ، إذ ليست الطباع فى هذه الصورة معينة على الاجتناب كاعانتها عليه فى الصورة الأولى . ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل ، مع أن تناول مال اليتيم على أى وجه كان منهى عنه ، كان ذلك بالادخار ، أو بالتباس ، أو ببذله فى لذة النكاح مثلا ، أو غير ذلك . إلا أن حكمة تخصيص النهى بالأكل : أن العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل ، وتعد البطنة من البهيمية وتعيب على من اتخذها ديدنه ، ولا كذلك سائر الملاذ ، فانهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدونه من زينة الدنيا ، فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ خص النهى به ، حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرها ذلك إلى النفور من صرف مال

قلة مبالاة بما لا يحل لكم ، وتسوية بينه وبين الحلال . فإن قلت : قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم ، فلمَ ورد النهى عن أكله معها ؟ قلت : لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال ـ وهم على ذلك يطمعون فيها ـ كان القبح أبلغ والذم أحق ولأنهم كانوا يفعلون كذلك فنعى عليهم فعلهم وسمع بهم ، ليكون أزجر لهم . والحوب : الذنب العظيم . ومنه قوله عليه السلام « إن طلاق أم أيوب لحوب[1] » فكأنه قيل : إنه كان ذنبا عظيما كبيراً . وقرأ الحسن (حوبا) بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا . وقرئ : حابا . ونظير الحوب والحاب : القول والقال . والطرد والطرد .

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)

= اليتيم فى سائر الملاذ أو غيرها ، أكلا أو غيره . ومثل هذه الآية فى تخصيص النهى بما هو أعلى قوله تعالى (لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) خص هذه الصورة لأن الطبع على الانتهاء عنها أعون . ويقابل هذا النظر فى النهى نظر آخر فى الأمر ، وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيها على الأعلى ، وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب . ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة : (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم ... الآية) كيف خص صورة حضورهم وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم . وذلك أن الله تعالى علم شح الأنفس على الأموال ، فلو أمر باسعاف الأقارب واليتامى من المال الموروث ولم يذكر حالة حضورهم القسمة ، لم تكن الأنفس بالمنبعثة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم ، بخلاف ما إذا حضروا فان النفس يرق طبعها وتنفر من أن تأخذ المال الجزل وذو الرحم حاضر محروم ولا يسعف ولا يساعد ، فاذا أمرت فى هذه الحالة بالاسعاف هان عليها امتثال الأمر وائتلافها على امتثال الطبع ، ثم تدربت بذلك على إسعاف ذى الرحم مطلقاً حضر أو غاب . فراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يلفى إلا فى الكتاب العزيز ، ولا يعثر عليه إلا الحاذق الفطن المؤيد بالتوفيق ، نسأل الله أن يسلك بنا فى هذا النمط ، فخذ هذا القانون عمدة ، وهو أن النهي إن خص الأدنى فلفائدة التنبيه على الأعلى ، وإن خص الأعلى فلفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقا من الانكفاف عن الأقبح ، ومثل هذا النظر فى جانب الأمر ، والله الموفق .

(١) أخرجه أبو داود فى المراسيل وإبراهيم الحربى فى الغريب من رواية أنس بن سيرين قال : بلغنى أن أبا أيوب أراد أن يطلق أم أيوب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا أيوب . إن طلاق أم أيوب لحوب » ورواه يحيى الحمانى فى مسنده . والطبرانى فى الأوسط من طريقه . قال : حدثنا حماد بن زيد عن واصل عن محمد بن سيرين عن ابن عباس وزاد : قال ابن سيرين : والحوب الاثم . وروى الحاكم من رواية على بن عاصم عن حميد عن أنس قال : كان بين أبى طلحة وأم سليم كلاما . فأراد أن يطلقها . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن طلاق أم سليم لحوب » .

ولما نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير ، خاف الأولياء [1] أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط فى حقوق اليتامى ، وأخذوا يتحرجون من ولايتهم ، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست فلا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن ، فقيل لهم : إن خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها ، فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات ، لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب ، لأنه إنما وجب أن يتحرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه ، والقبح قائم فى كل ذنب . وقيل : كانوا لا يتحرجون من الزنا [2] وهم يتحرجون من ولاية اليتامى ، فقيل : إن خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنا . فانكحوا ما حل لكم من النساء ، ولا تحوموا حول المحرمات . وقيل : كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال أو يكون وليها ، فيتزوجها ضناً بها عن غيره ، فربما اجتمعت عنده عشر منهن ، فيخاف ـ لضعفهن وفقد من يغضب لهن ـ أن يظلمهن حقوقهن ويفرط فيما يجب لهن ، فقيل لهم : إن خفتم أن لا تقسطوا فى يتامى النساء فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم . ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور ، وهو جمع يتيمة على القلب ، كما قيل : أيامى ، والأصل : أيائم ويتائم . وقرأ النخعى (تقسطوا) بفتح التاء على أن لا مزيدة مثلها فى (لئلا يعلم) يريد : وإن خفتم أن تجوروا ﴿ماطاب﴾ ما حل ﴿لكم من النساء﴾ لأن منهن ما حرم كاللاتى فى آية التحريم . وقيل (ما) ذهابا إلى الصفة . ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء : ومنه قوله تعالى (أو ما ملكت أيمانكم) ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ معدولة عن أعداد مكررة ، وإنما منعت الصرف لما فيها من العدلين : عدلها عن صيغها ، وعدلها عن تكررها ، وهى نكرات يعرفن بلام التعريف . تقول : فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع ، ومحلهن

---

(١) قال محمود : ولما نزلت آية اليتامى خاف الأولياء ... الخ، قال أحمد : قد ثبت أن قاعدة القدرية وعقيدتهم أن الكبيرة الواحدة توجب خلود العبد فى العذاب وإن كان موحدا ، مالم يتب عنها ، فمن ثم يقولون : لا تفيد التوبة عن بعض الذنوب والاصرار على بعضها ، لأنه بواحدة من الكبائر ساوى الكافر فى الخلود فى العذاب ، ولا يفيد توحيده ولا شىء من أعماله . هذا هو معتقدهم الفاسد الذى يروم الزمخشرى تفسير الآية عليه فاحذره . أما أهل السنة فيقولون : إذا تاب العبد من بعض الذنوب كان الخطاب بوجود التوبة من باقيها متوجها عليه ، وكأنه قام ببعض الواجبات وترك القيام ببعضها ، فأفادته التوبة محو المتوب عنه باذن الله ووعده ، وهو فى العهدة فيما لم يتب عنه ، فان كان تفسير الآية على أنهم خوطبوا بالتحرج فى حقوق النساء والتوبة من الجور عليهن كما تابوا عن الحيف على اليتامى ، فالأمر فى ذلك منزل على ما بيناه من قواعد السنة ، والله ولى التوفيق .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى ...الخ، قال أحمد : وهذا التأويل الذى أخرجه جدير بالتقدم وهو الأظهر ، وتكون الآية معه لبيان حكم اليتامى ، وتحذيراً من التورط فى الجور عليهن ، وأمراً بالاحتياط . وفى غيرهن متسع إلى الأربع ، وأصدق شاهد على أنه هو المراد ،

النصب على الحال مما طاب ، تقديره : فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ، ثنتين ثنتين، وثلاثا ثلاثا ، وأربعاً أربعاً . فإن قلت : الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ؟ (قلت) : الخطاب للجميع ، فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له ، كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال ـ وهو ألف درهم ـ درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . ولو أفردت لم يكن له معنى . فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت : كما جاء بالواو فى المثال الذى حذوته لك. ولو ذهبت تقول: اقتسموا هذا المال درهمين درهمين، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة: أعلمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية ، وبعضه على تثليث ، وبعضه على تربيع . وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه الواو . وتحريره : أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع ، إن شاؤا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن شاؤا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ماوراء ذلك . وقرأ إبراهيم : وثلث وربع ، على القصر من ثلاث ورباع ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا ﴾ بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها ﴿ فواحدة ﴾ فالزموا ؛ أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع رأسا . فإن الأمر كله يدور مع العدل ، فأينما وجدتم العدل فعليكم به . وقرئ (فواحدة) بالرفع على : فالمقنع واحدة ، أو فكفت واحدة ، أو فحسبكم واحدة ﴿ أو ماملكت أيمانكم ﴾ سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء ، من غير حصر ولا توقيت عدد . ولعمرى أنهن أقل تبعة وأقصر شغبا وأخف مؤنة من المهائر ، لاعليك أكثرت منهن أم أقللت ، عدلت بينهن فى القسم أم لم تعدل ، عزلت عنهن أم لم تعزل . وقرأ ابن أبى عبلة . من ملكت ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسرى ﴿ أدنى ألا تعولوا ﴾ أقرب من أن لا تميلوا ، من قولهم : عال الميزان عولا ، إذا مال . وميزان فلان عائل ، وعال الحاكم فى حكمه إذا جار . وروى أن أعرابيا حكم عليه حاكم فقال له : أتعول علىّ . وقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم « ألا تعولوا : أن لا تجوروا [1] » والذى يحكى عن الشافعى رحمه الله أنه فسر (أن لا تعولوا) أن لا تكثر عيالكم . فوجهه أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم ، كقولهم : مانهم يمونهم ، إذا أنفق عليهم ، لأنّ من كثر عياله لزمه أن يعولهم . وفى ذلك مايصعب عليه المحافظة على حدود الكسب وحدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب . وكلام مثله من أعلام العلم

(١) أخرجه ابن حبان وابراهيم الحربى والطبرى وابن أبى حاتم وغيرهم من رواية عمر بن محمد بن زيد عن هشام عن أبيه عنها . قال ابن أبى حاتم : الصواب موقوف .

وأئمة الشرع ورؤس المجتهدين ، حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وأن لا يظنّ به تحريف تعيلوا إلى تعولوا ، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تظنن بكلمة خرجت من فى أخيك سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملا [1] . وكفى بكتابنا المترجم بكتاب « شافى العىّ ، من كلام الشافعى » شاهداً بأنه كان أعلى كعبا وأطول باعا فى علم كلام العرب ، من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقا وأساليب . فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات . فإن قلت : كيف يقل عيال من تسرى ، وفى السرائر نحو مافى المهائر ؟ قلت : ليس كذلك ، لأن الغرض بالتزوج التوالد والتناسل بخلاف التسرى ، ولذلك جاز العزل عن السرارى بغير إذنهنّ ، فكان التسرى مظنة لقلة الولد بالإضافة إلى التزوج ، كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع . وقرأ طاوس : أن لا تعيلوا ، من أعال الرجل إذا كثر عياله . وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعى رحمه الله من حيث المعنى الذى قصده .

وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓئًا مَّرِيٓئًا (٤)

﴿صدقاتهن﴾ مهورهن ، وفى حديث شريح : قضى ابن عباس لها بالصدقة . وقرئ : (صدقاتهن) بفتح الصاد وسكون الدال على تخفيف صدقاتهن. وصدقاتهن بضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة بوزن غرفة . وقرئ : صدقتهن ، بضم الصاد والدال على التوحيد ، وهو تثقيل صدقة ، كقولك فى ظلمة ظلمة ﴿نحلة﴾ من نحله كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا . ومنه حديث أبى بكر رضى الله عنه : إنى كنت نحلتك جداد عشرين وسقا بالعالية [2] . وانتصابها على المصدر [3]

---

(١) أخرجه المحاملى . حدثنا زياد بن أيوب . حدثنا محمد بن يزيد عن نافع عن ابن عمر عن سليمان أن عبدة قال : قال عمر فذكره . وإسناده منقطع ورواه الجوهرى فى مشيخته والأصبهانى فى الترغيب فى قصة طويلة أولها عن سعيد بن المسيب قال « وضع عمر بن الخطاب للناس ثمان عشرة كلمة كلها حكمة » فذكر فيها ذلك وفى الاسناد ضعف وروى البيهقى فى الشعب من وجه آخر عنه قال « كتب إلى بعض إخوانى من الصحابة أن ضع أمر أخيك على أحسنه ـ الحديث » موقوف أيضاً .

(٢) أخرجه مالك باسناد صحيح أتم منه .

(٣) قال محمود : « نحلة منصوب على المصدر لأنها فى معنى الايتاء . . . الخ » قال أحمد : هذا الفصل بجملته حسن جداً ، غير أن فى جملة تذكير الضمير فى منه على الصداق ، ثم تنظيره ذلك بقوله « فأصدق نظراً » وذلك أن المراعى ثم الأصل ، وهو عدم دخول الفاء والجزم وتقدير ما هو الأصل ، وإعطاؤه حكم الموجود ليس ببدع ، ولا كذلك إفراد الصداق المقدر ، فانه ليس بأصل الكلام ، بل الأصل الجمع : وأما الافراد فقد يأتى فى مثله على سبيل الاختصار استغناء عن الجمع بالاضافة ، ولا يرد أنهم قد راعوا ما ليس بأصل فى قوله :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا =

لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء فكأنه قيل : وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة ، أى أعطوهنّ مهورهنّ عن طيبة أنفسكم ، أو على الحال من المخاطبين ، أى آتوهنّ صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالإعطاء ، أو من الصدقات ، أى منحولة معطاة عن طيبة الأنفس . وقيل : نحلة من الله عطية من عنده وتفضلا منه عليهن ، وقيل : النحلة الملة ، ونحلة الإسلام خير النحل . وفلان ينتحل كذا : أى يدين به . والمعنى : آتوهن مهورهن ديانة ، على أنها مفعول لها . ويجوز أن يكون حالا من الصدقات ، أى دينا من الله شرعه وفرضه . والخطاب للأزواج . وقيل : للأولياء ، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ، وكانوا يقولون : هنيئا لك النافجة ، لمن تولد له بنت ، يعنون : تأخذ مهرها فتنفج به مالك أى تعظمه . الضمير فى (منْه) جار مجرى اسم الإشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك ، كما قال الله تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) بعد ذكر الشهوات ، ومن الحجج المسموعة من أفواه العرب ماروى عن رؤبة أنه قيل له فى قوله :

* كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ * (1)

فقال : أردت كأن ذاك . أو يرجع إلى ماهو فى معنى الصدقات وهو الصداق ، لأنك لو قلت : وآتوا النساء صداقهن ، لم تخل بالمعنى ، فهو نحو قوله (فأصدق وأكن من الصالحين) كأنه قيل : أصدّق . و﴿نفسا﴾ تمييز ، وتوحيدها لأنّ الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه . والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من الصداق وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿فكلوه﴾ فأنفقوه . قالوا : فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة ، علم أنها لم تطب منه نفسا ، وعن الشعبي : أن رجلا أتى مع امرأته شريحا فى عطية أعطتها إياه وهى تطلب أن ترجع ، فقال شريح : ردّ عليها . فقال الرجل : أليس قد قال الله تعالى (فإن طبن لكم) قال لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه . وعنه : أقيلها فيما وهبت ولا أقيله ، لأنهنّ يخدعن . وحكى أن رجلا من آل معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقا كان لها عليه ، فلبث شهرا ثم طلقها ، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان ، فقال الرجل : أعطتنى طيبة بها نفسها ، فقال عبد الملك : فأين الآية التى بعدها فلا تأخذوا منه شيئا ؟ اردد عليها . وعن عمر رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته : إن النساء يعطين رغبة ورهبة . فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها (2)

لأن دخول الباء وإن لم يكن أصلا ، إلا أنها قد توطنت بهذا الموضوع وكثر حلولها فيه ، فصارت كأن الأصل دخولها فى الخبر ، والله أعلم . والأمر فى ذلك قريب

(1) مر شرح هذا الشاهد بصفحة ١٤٩ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه

(2) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من طريق محمد بن عبيد الله الثقفى قال كتب عمر نحوه .

وعن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال «إذا جادت لزوجها بالعطية طائعة غير مكرهة لا يقضى به عليكم سلطان ولا يؤاخذكم الله به فى الآخرة»[1] وروى أن أناسا كانوا يتأثمون أن يرجع أحد منهم فى شيء مما ساق إلى امرأته، فقال الله تعالى إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خديعة فكلوه سائغا هنيئا. وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل: فإن طبن، ولم يقل: فإن وهبن أو سمحن، إعلاما بأنّ المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة. وقيل: إن طبن لكم عن شيء منه، ولم يقل: فإن طبن لكم عنها، بعثا لهن على تقايل الموهوب. وعن الليث بن سعد: لا يجوز تبرعها إلا باليسير. وعن الأوزاعى: لا يجوز تبرعها مالم تلد أو تقم فى بيت زوجها سنة. ويجوز أن يكون تذكير الضمير لينصرف إلى الصداق الواحد، فيكون متناولا لبعضه، ولو أنث لتناول ظاهره هبة الصداق كله، لأنّ بعض الصدقات واحدة منها فصاعدا. الهنيء، والمريء: صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه. وقيل: الهنيء: ما يلذه الآكل. والمريء ما يحمد عاقبته. وقيل هو ما ينساغ فى مجراه. وقيل لمدخل الطعام من الحلقوم إلى فم المعدة «المريء» لمروء الطعام فيه وهو انسياغه، وهما وصف للمصدر، أى أكلا هنيئا مريئا، أو حال من الضمير، أى كلوه وهو هنيء مريء، وقد يوقف على فكلوه ويبتدأ هنيئا مريئا على الدعاء، وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين، كأنه قيل: هنأ مرأ. وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة فى الإباحة وإزالة التبعة.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾

﴿السفهاء﴾ المبذرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغى ولا يدى لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها. والخطاب للأولياء: وأضاف الأموال إليهم[2] لأنها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم، كما قال (ولا تقتلوا أنفسكم)، (فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) الدليل على أنه خطاب للأولياء فى أموال اليتامى قوله (وارزقوهم فيها واكسوهم). ﴿جعل الله لكم قياما﴾ أى تقومون بها وتنتعشون، ولو ضيعتموها لضعتم فكأنها فى أنفسها قيامكم وانتعاشكم. وقرئ: قيما، بمعنى قياما، كما جاء عوذا بمعنى عياذا. وقرأ عبد الله بن عمر: قواما، بالواو. وقوام الشيء: ما يقام به، كقولك هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالا يحاسبنى

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى فى الأوسط من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٢) قال محمود: «المراد أموال السفهاء وأضافها إلى الأولياء ... الخ» قال أحمد: ويؤيد هذا المعنى أنه لما أمر بإسعاف ذوى القربى على سبيل المواساة قال: وارزقوهم منه، لأن المدفوع إليهم من صلب المال، والله أعلم.

الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس . وعن سفيان ـ وكانت له بضاعة يقلبها ـ : لولاها لتمندل بى بنو العباس [١] . وعن غيره ـ وقيل له إنهـا تدنيك من الدنيا ـ : لئن أدنتنى من الدنيا لقد صانتنى عنها . وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا ، فإنكم فى زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه . وربما رأوا رجلا فى جنازة فقالوا له : اذهب إلى دكانك ﴿وارزقوهم فيها﴾ واجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا ، حتى تـكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فلا يأكلها الإنفاق . وقيل : هو أمر لـكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء ، قريب أو أجنبى ، رجل أو امرأة ، يعلم أنه يضعه فيما لا ينبغى ويفسده ﴿قولا معروفا﴾ قال ابن جريج : عدّة جميلة ، إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم . وعن عطاء : إذا ربحت أعطيتك ، وإن غنمت فى غزاتى جعلت لك حظا . وقيل : إن لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل : عافانا الله وإياك ، بارك الله فيك . وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلا أو شرعا من قول أو عمل ، فهو معروف . وما أنكرته ونفرت منه لقبحه ، فهو منكر .

وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّـكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

﴿وابتلوا اليتامى﴾ واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم [٢] ومعرفتهم بالتصرف ، قبل البلوغ

---

(١) قوله «لتمندل بى بنو العباس» فى الصحاح : المنديل معروف ، تقول منه : تمندلت بالمنديل ، وتمندلت . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه اختبروا أحوالهم ... الخ» قال أحمد : الابتلاء على هذا الوجه مذهب مالك رضى الله عنه ، غير أنه لا يكون عنده إلا بعد البلوغ ولا يدفع إليه من ماله شىء قبله ، وكذلك أحد قولى الشافعى رضى الله عنه ، وقوله الآخر كمذهب أبى حنيفة ، غير أن عنه خلافا فى صورته قبل البلوغ على وجهين : أحدهما أن يسلم إليه المال ويباشر العقود بنفسه كالبالغ ، والآخر أن يكون وظيفته أن يساوم ، وتقرير الثمن إذا بلغ الأمر إلى العقد باشره الولى دونه وسلم الصبى الثمن ، فأما الرشد فالمعتبر عند مالك رضى الله عنه فيه : هو أن يحرز ماله وينميه ، وإن كان فاسقاً فى حاله . وعند الشافعى : المعتبر صلاح الدين والمال جميعاً ، وغرضنا الآن أن نبين وجه تنزيل مذهب مالك فى هذه الآية والله المستعان . فأما منعه من الايتاء قبل البلوغ ـ وإن كان ظاهر الآية أن الايتاء قبله ـ من حيث جعل البلوغ وإيناس الرشد غاية للايتاء ، والغاية متأخرة عن المغيا ضرورة ، فيتعين وقوع الايتاء قبل . ولهذه النكتة أثبته أبو حنيفة قبل البلوغ والله أعلم ، فعلى جعل المجموع من البلوغ وإيناس الرشد هو الغاية حينئذ يلزم وقوع الابتلاء قبلهما ، أعنى المجموع وإن وقع بعد أحدهما وهو البلوغ ، لأن المجموع من اثنين فصاعدا لا يتحقق إلا بوجود كل واحد من مفرديه . ويحقق هذا التنزيل أنك لو قلت : وابتلوا اليتامى بعد البلوغ ، حتى إذا اجتمع الأمران وتضاما

حتى إذا تبينتم منهم رشداً ـ أى هداية ـ دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حدّ البلوغ . وبلوغ النكاح . أن يحتلم لأنه يصلح للنكاح عنده ، ولطلب ماهو مقصود به وهو التوالد والتناسل . والإيناس : الاستيضاح فاستعير للتبيين . واختلف فى الابتلاء والرشد ، فالابتلاء عند أبى حنيفة وأصحابه : أن يدفع إليه مايتصرف فيه حتى يستبين حاله فيما يجىء منه . والرشد : التهدى إلى وجوه التصرف . وعن ابن عباس : الصلاح فى العقل والحفظ للمال . وعند مالك والشافعى : الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه فى الأخذ والإعطاء ، ويتبصر مخايله وميله إلى الدين . والرشد : الصلاح فى الدين ، لأن الفسق مفسدة للمال . فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حدّ البلوغ ؟ قلت : عند أبى حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسنّ ثمانى عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام «مروهم بالصلاة لسبع»[1] دفع إليه ماله أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه : لايدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد . فإن قلت : مامعنى تنكير الرشد ؟ قلت : معناه نوعا من الرشد وهو الرشد فى التصرف والتجارة ، أو طرفا من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد . فإن قلت : كيف نظم هذا الكلام؟[2] قلت : ما بعد (حتى) إلى (فادفعوا إليهم

ـــــــ

= البلوغ والرشد فادفعوا إليهم أموالهم ، لاستقام الكلام ، ولكان البلوغ قبل الابتلاء وإن كان الابتلاء مغيا بالأمرين واقعاً قبل مجموعهما ، ونظير هذا النظر توجيه مذهب أبى حنيفة فى قوله : إن فيئة المولى إنما تعتبر فى أجل الايلاء لابعده ، وتنزيله على قوله تعالى (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاؤا فان الله غفور رحيم) فجدد به عهداً يتضح لك تناسب النظرين ، والله أعلم . وأما اقتصاره رضى الله عنه بالرشد على المال ، فان كان المولى عليه فاسق الحال فوجه استخراجه من الآية أنه علق إيناس الرشد فيها بالابتلاء بدفع مال إليهم ينظر تصرفهم فيه ، فلو كان المراد إصلاح الدين فقط لم يقف الاختبار فى ذلك على دفع المال إليهم ، إذ الظاهر من المصلح لدينه أنه لايتفاوت حاله فى حالتى عدمه ويسره . ولو كان المراد إصلاح الدين والمال معا ـ كما يقوله الشافعى رضى الله عنه ـ لم يكن إصلاح الدين موقوفا على الاختبار بالمال كما مر آنفا . وأيضاً فالرشد فى الدين والمال جميعاً هو الغاية فى الرشد ، وليس الجمع بينهما بقيد ، وتنكير الرشد فى الآية يأبى ذلك ، إذ الظاهر : فان آنستم منهم رشداً ما فبادروا بتسليم المال إليهم غير منتظرين بلوغ الغاية فيه ، والله أعلم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذى وابن خزيمة والحاكم من رواية عبدالملك بن الربيع بن سبرة الجهنى عن أبيه عن جده مرفوعا «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع» ورواه أبو داود والحاكم من طريق سوار بن داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وأعله العقيلى فى الضعفاء بسوار . ورواه البزار من رواية محمد بن الحسن بن عطية عن محمد بن عبدالرحمن عنه وأعله العقيلى بمحمد ابن الحسن وقال : الأولى رواية من رواه عن محمد بن عبدالرحمن مرسلا وذكره ابن حبان فى الضعفاء عن عبد المنعم بن نعيم الرياحى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة ورواه الدارقطنى فى الأوسط من حديث أنس وفيه داود بن المحبر وهو متروك .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فما وجه نظم الكلام الواقع بعد حتى إلى قوله فادفعوا إليهم أموالهم ...الخ ، قال أحمد رحمه الله : هو يروم بهذا التقدير تنزيل مذهب أبى حنيفة فى سبق الابتلاء على البلوغ على مقتضى الآية ، وقد أسلفنا وجه تنزيل مذهب مالك عليها بأظهر وجه وأقربه . والحاصل أن مقتضى النظر إلى المجموع من حيث هو ومقتضى مذهب أبى حنيفة النظر إلى المفردين ، والظاهر اعتبار المجموع فان العطف بالفاء يقتضيه ، والله أعلم .

أموالهم) جعل غاية للابتلاء ، وهى « حتى » التي تقع بعدها الجمل ، كالتى فى قوله :

فَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تَمُجُّ دِمَاءَهَا بِدِجْلَةَ حَتَّي مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ (١)

والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لأن إذا متضمنة معنى الشرط ، وفعل الشرط بلغوا النكاح وقوله (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) جملة من شرط وجزاء واقعة جوابا للشرط الأول الذى هو إذا بلغوا النكاح ، فكأنه قيل : وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم ، فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم . وقرأ ابن مسعود : فإن أحسيتم بمعنى أحسستم قال :

* أَحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إِلَيْهِ شُوسُ * (٢)

وقرئ : رشداً ، بفتحتين . ورشداً ، بضمتين ﴿إسرافا وبدارا﴾ مسرفين ومبادرين كبرهم ، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم ، تفرطون فى إنفاقها ، وتقولون ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا . ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصى غنيا وبين أن يكون فقيراً ، فالغنى يستعف من أكلها (٣) ولا يطمع ، ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفاقا على اليتيم ، وإبقاء على ماله . والفقير يأكل قوتا مقدراً محتاطا فى تقديره على وجه الأجرة ، أو استقراضا على ما فى ذلك من الاختلاف ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف ، مما يدل على أن للوصى حقاً لقيامه عليها . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أن رجلا قال له : إن فى حجرى يتيما أفآكل من ماله ؟ قال : « بالمعروف غير

---

(١) لجرير ، يقول : فما زالت تمج ، أى تلق وتخرج دماءها فى شاطئ دجلة . وحتى : ابتدائية تقع بعدها الجمل ، ولاتخلو من معنى الغاية . وأشكل : خبر المبتدأ ، وهو الأبيض المشوب بحمرة . وأظهر فى محل الاضمار لقيد التهويل والتعظيم . أى حتى أن ماء ذلك النهر الكبير مختلط بالحمرة .

(٢)
فباتوا يدلجون وبات يسرى بصير بالدجى هاد عموس
إلى أن عرسوا وانحت منهم قريبـاً ما يحس له مسيس
سوى أن العتاق من المطايا أحسن به فهن إليـه شوس

لأبى زبيد الطائى . والادلاج : سير أول الليل . والتدليج : سير آخره . والسرى : سير الليل . وبصير : صفة لمحذوف . وبالدجى : متعلق به . والبصير : المتبصر الخبير أو المبصر ، فالباء بمعنى فى . والدجى الظلم . والهادى : المراد به المهتدى . والعموس : القوى الشديد . وعرسوا : أى نزلوا . والحت : النتف والفرك والقطع والسرعة ، فانحت : انعزل منهم بسرعة ، أو أسرع قريبا منهم مايحس : أى لايسمع له مسيس ، أى صوت مسه للأرض فى المشى . والعتاق : النجائب أو الملسة . وأحسن : أصله أحسسن ، نقلت فتحة السين إلى الحاء ثم حذفت . ويروى : حسين . وفى لغة : حسين ، بكسر السين . وأصله حسسن ، قلبت السين الثانية حرف علة . وزيادة الباء بعد فعل الحس كثيرة وإن تعدى بنفسه . والشوس : جمع أشوس ، أو شوساء وهو الذى ينظر بمؤخر عينه يصف مسافرين والأسد يطلب فريسة منهم ، وكثيرا مايحذفون الموصوف كالأسد هنا ، لأن الصفة تعينه ، أو لادعاء تعينه .

(٣) قوله « من أكلها » لعله « عن » . (ع)

متأثل[1] مالا ولا واق مالك بماله ، فقال : أفأضربه قال : مما كنت ضاربا منه ولدك[2] ، : وعن ابن عباس : أن ولى اليتيم قال له : أفأشرب من لبن إبله ؟ قال : إن كنت تبغى ضالتها ، وتلوط حوضها ، وتهنأ جرباها[3] وتسقيها يوم وردها ، فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك فى الحلب[4] وعنه: يضرب بيده مع أيديهم، فليأكل بالمعروف، ولا يلبس عمامة فما فوقها . وعن إبراهيم :لا يلبس الكتان والحلل ، ولكن ماسد الجوعة ووارى العورة . وعن محمد بن كعب : يتقرم تقرم البهيمة[5] وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بد منه . وعن الشعبي : يأكل من ماله بقدر مايعين فيه . وعنه : كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضى . وعن مجاهد : يستسلف ، فإذا أيسر أدى . وعن سعيد بن جبير : إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس مايستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاه ، وإن أعسر فهو فى حل . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة والى اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، وإذا

---

(١) قوله «غير متأثل مالا» أى : متخذ مالا أصلا ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق معاوية بن هشام . حدثنا الثورى عن ابن أبى نجيح عن الحسن العرنى عن ابن عباس قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن فى حجرى يتيما» بلفظ المصنف سواء ورواه عبدالرزاق فى المصنف وابن المبارك فى البر والصلة والطبرى عن سفيان بن عيينة عن ابن دينار عن الحسن العرنى «أن رجلا قال يارسول الله» فذكره مرسلا وهو عند ابن أبى شيبة فى البيوع عن إسمعيل عن أيوب بن عمرو كذلك . وروى أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا أجد شيئا وليس لى مال . ولى يتيم له مال . قال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل مالا ولا تق مالك بماله» وروى ابن حبان من رواية صالح بن رستم عن عمرو بن دينار عن جابر قال : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «مم أضرب يتيمى ؟ قال : ما كنت ضاربا منه ولدك ، غير واق مالك بماله . ولا متأثل من ماله مالا» وأخرجه ابن عدى فى الكامل فى ترجمة صالح بن رستم . وهو أبو عامر الخزاز وضعفه عن ابن معين . وقال : لم أجد له حديثا منكرا . ورواه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة عمرو بن دينار . وقال : تفرد به الخزاز وهو من ثقات البصريين .

(٣) قوله «وتلوط حوضها وتهنأ جرباها» أى تصلحه بالطين بأن تلزقه به . أفاده الصحاح . وفيه : هنأت البعير أهنؤه إذا طليته بالهناء وهو القطران اه . ونقل المناوى بهامشه عن الزجاج أنه بضم النون وأنه لم يجئ مضموم العين فى مهموز اللام إلا هنأ يهنأ وقرأ يقرأ فليحرر . (ع)

(٤) أخرجه عبدالرزاق من رواية يحي بن سعيد عن القاسم بن محمد . قال «جاء رجل إلى ابن عباس» فذكره ، إلا أنه قال : بدل تبغى ضالتها «ترد نادتها» وأخرجه الطبرى من طريقه والثعلبي والواحدى من وجه آخر عن القاسم . ورواه البغوى من طريق مالك عن يحي بن سعيد عن القاسم وهو فى الموطأ .

(٥) قوله : «يتقرم تقرم البهيمة» فى الصحاح : قرم الصبي والبهم قرما وقروما وهو أكل ضعيف فى أول ما يأكل . وتقرم مثله . (ع)

أيسرت قضيت»[1] واستعف أبلغ من عف، [2] كأنه طالب زيادة العفة ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذممكم، وذلك أبعد من التخاصم والتجاحد وأدخل فى الأمانة وبراءة الساحة. ألا ترى أنه إذا لم يشهد فادعى عليه صدق مع اليمين عند أبى حنيفة وأصحابه. وعند مالك والشافعى لا يصدق إلا بالبينة، فكان فى الإشهاد الاستحراز من توجه الحلف المفضى إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم يقم البينة ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أى كافيا فى الشهادة عليكم بالدفع والقبض، أو محاسبا. فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)

﴿ الأقربون ﴾ هم المتوارثون من ذوى القرابات دون غيرهم ﴿ مما قل منه أو كثر ﴾ بدل مما ترك بتكرير العامل. و ﴿ نصيبا مفروضا ﴾ نصب على الاختصاص، بمعنى: أعنى نصيبا مفروضا مقطوعا واجبا لا بد لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به. ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله: (فريضة من الله) كأنه قيل: قسمة مفروضة. وروى أن أوس بن الصامت الأنصارى[3] ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيخ فشكت إليه، فقال: «ارجعى حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت، فبعث إليهما «لا تفرقا من مال أوس شيئا فإن الله قد جعل لهن نصيبا ولم يبين حتى يبين» فنزلت (يوصيكم الله) فأعطى أم كحة

---

(١) أخرجه ابن سعد وابن أبى شيبة والطبرى من رواية إسرائيل وسفيان كلاهما عن أبى إسحاق عن حارثة بن مضرب قال: قال عمر ورواه سعيد بن منصور عن أبى الأحوص عن أبى إسحاق عن البراء قال: قال لى عمر. فذكره

(٢) قال محمود: «استعف أبلغ من عف، وكأنه يطلب زيادة العفة من نفسه» قال أحمد: فى هذا إشارة إلى أنه من استفعل بمعنى الطلب وليس كذلك، فان استفعل الطلبية متعدية وهذه قاصرة. والظاهر أنه مما جاء فيه فعل واستفعل بمعنى، والله أعلم.

(٣) قوله «روى أن أوس بن الصامت الأنصارى» فى رواية ابن ثابت. وليحرر اه (ع)

الثمن ، والبنات الثلثين ، والباقى ابنى العم [١] ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ أى قسمة التركة ﴿ أولوا القربى ﴾ ممن لا يرث ﴿ فارزقوهم منه ﴾ الضمير لما ترك الوالدان والأقربون ، وهو أمر على الندب قال الحسن : كان المؤمنون يفعلون ذلك ، إذا اجتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع [٢] . فحضهم الله على ذلك تأديبا من غير أن يكون فريضة . قالوا : ولو كان فريضة لضرب له حدّ ومقدار كما لغيره من الحقوق ، وروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه قسم ميراث أبيه وعائشة رضى الله عنها حية ؟ فلم يدع فى الدار أحداً إلا أعطاه ، وتلا هذه الآية . وقيل : هو على الوجوب . وقيل : هو منسوخ بآيات الميراث كالوصية . وعن سعيد بن جبير : أن ناسا يقولون نسخت ، ووالله ما نسخت ، ولكنها مما تهاونت به الناس . والقول المعروف أن يلطفوا لهم القول ويقولوا : خذوا بارك الله عليكم ، ويعتذروا إليهم ، ويستقلوا ما أعطوهم ولا يستكثروه . ولا يمنوا عليهم . وعن الحسن والنخعي : أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين ، يعنيان الورق والذهب . فإذا قسم الورق والذهب وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك ، قالوا لهم قولا معروفا ، كانوا يقولون لهم : بورك فيكم .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٩)

---

(١) هكذا أورده الثعلبي ثم البغوى بغير سند وقال الواحدي فى الأسباب : قال المفسرون « إن أوس بن ثابت الأنصاري توفى وترك امرأة يقال لها أم كحة ، وله منها ثلاث بنات . فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما عرفجة وسويد فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئاً ولا بناته . وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير ، وإن كان ذكراً . وإنما يورثون الرجال الكبار . وكانوا يقولون : لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وحاز الغنيمة فجاءت أم كحة فذكره إلى آخره سواء . والظاهر أنه عنى بقوله « المفسرون » الكلبي ومقاتل وأشباههما وقد روى الطبرى هذه القصة من طريق ابن جريج عن عكرمة على غير هذا السياق ولفظه « نزلت فى أم كحة وثعلبة وأوس بن سويد وهم من الأنصار كان أحدهما زوجها والآخر عم ولدها . فقالت : يا رسول الله توفى زوجي وتركني وابنته فلم نورث . فقال عم ولدها : إن ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلا ، ولا ينكأ عدواً . فنزلت (للرجال نصيب الآية) وروى من طريق السدى قال : فى قوله (يوصيكم الله فى أولادكم ـ الآية) كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ولا الضعفاء من الغلمان ولا يورثون إلا من أطاق القتال فمات عبد الرحمن أبو حسان الشاعر . وترك امرأة يقال لها أم كحة وترك خمس أخوات . فجاءت الورثة فأخذوا ماله فشكت أم كحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) ثم قال فى أم كحة (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ـ الآية)

(٢) قوله « من رثة المتاع » فى الصحاح : الرثة : السقط من متاع البيت من الخلقان ، والجمع رثث ، مثل قربة وقرب . (ع)

«لو» مع ما فى حيزه صلة للذين . والمراد بهم : الأوصياء ، أمروا بأن يخشوا الله [1] فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم ، خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافا وشفقتهم عليهم وأن يقدروا ذلك فى أنفسهم ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة . ويجوز أن يكون المعنى : وليخشوا على اليتامى من الضياع . وقيل : هم الذين يجلسون إلى المريض فيقولون : إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئا ، فقدم مالك ، فيستغرقه بالوصايا ، فأمروا بأن يخشوا ربهم ، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولاد أنفسهم لو كانوا . ويجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمراً بالشفقة للورثة على الذين يحضرون القسمة من ضعفاء أقاربهم واليتامى والمساكين وأن يتصوروا أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضائعين محتاجين ، هل كانوا يخافون عليهم الحرمان والخيبة ؟ فإن قلت : ما معنى وقوع ﴿لو تركوا﴾ وجوابه صلة الذين ؟ قلت : معناه : وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا ، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم ، كما قال القائل :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّا ... بَنَاتِي إِنَّهُنَّ مِنَ الضِّعَافِ
أُحَاذِرُ أَن يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِى ... وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافِى [2]

وقرئ : ضعفاء . وضعافى ، وضعافى . نحو : سكارى ، وسكارى . والقول السديد من الأوصياء : أن لا يؤذوا اليتامى ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ، ويدعوهم بيا بنىّ ويا ولدى ، ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له إذا أراد الوصية : لا تسرف فى وصيتك فتجحف بأولادك ، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : «إنك إن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس [3]» وكان الصحابة رضى الله عنهم يستحبون أن لا تبلغ الوصية الثلث وأن الخمس أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث . ومن المتقاسمين ميراثهم أن

---

(١) قال محمود : «المراد الأوصياء أمروا بأن يخشوا الله ... الخ» قال أحمد : وإنما ألجأه إلى تقدير (تركوا) بقوله : شارفوا أن يتركوا ؛ لأن جوابه قوله (خافوا عليهم) والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم وذلك فى دار الدنيا ، فقد دل على أن المراد بالترك الاشراف عليه ضرورة ، وإلا لزم وقوع الجواب قبل الشرط وهو باطل ، ونظيره (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) أى شارفن بلوغ الأجل ، ولهذا المجاز فى التعبير عن المشارفة على الترك بالترك سر بديع ، وهو التخويف بالحالة التى لا يبقى معها مطمع فى الحياة ولا فى الذب عن الذرية الضعاف ، وهى الحالة التى وإن كانت من الدنيا إلا أنها لقربها من الآخرة ولصوقها بالمفارقة صارت من حيزها ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك ، والله أعلم .

(٢) تقدم شرح هذه الشواهد بصفحة ٤٠٤ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص فى قصة .

يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

﴿ظلما﴾ ظالمين[1] ، أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته ﴿فى بطونهم﴾ ملء بطونهم يقال : أكل فلان فى بطنه ، وفى بعض بطنه . قال :

* كُلُوا فِى بَعْضِ بَطْنِكُمُو تَعِفُّوا *[2]

ومعنى يأكلون نارا : ما يجر إلى النار ، فكأنه نار فى الحقيقة . وروى : أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره[3] ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه[4] فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا . وقرئ ﴿وسيصلون﴾ بضم الياء وتخفيف اللام وتشديدها ﴿سعيرا﴾ ناراً من النيران مبهمة الوصف .

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ

(١) قال محمود : «معناه ظالمين ، أو على وجه الظلم ... الخ» قال أحمد : ومثله (قد بدت البغضاء من أفواههم) أى شدقوا بها وقالوها بملء أفواههم . أو يكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع ، حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير ، ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتيم فى ماله ، خص الأكل لأنه أبشع الأحوال التى يتناول مال اليتيم فيها ، والله أعلم .

(٢) كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ... فان زمانكم زمن خميص

أى كلوا فى بعض بطونكم . وأفرد البطن لأمن اللبس ، أى لا تملؤها ، فان أطعمتمونى عففتم عن الطعام . وعف يعف ـ بكسر عين المضارع ـ من باب ضرب يضرب . ثم قال : فان زمانكم ، أى أمرتكم بذلك لأن زمانكم مجدب . والخميص : الضامر البطن . فشبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية ، ووصفه بالخمص تخييل لذلك .

(٣) قوله من «قبره» يروى من دبره . ويؤيده ما فى الخازن من حديث أبى سعيد الخدرى ، أنهم يجعل فى أفواههم صخر من نار يخرج من أسافلهم اه ، لحرره . (ع)

(٤) أخرجه الطبرى من طريق السدى قال «يبعث الله آكل مال اليتيم ظلما يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه وأنفه» إلى آخره وفى صحيح ابن حبان من رواية زناد أبى المنذر عن نافع بن الحرث عن أبى برزة رفعه يبعث الله يوم القيامة قوما من قبورهم تأجج أفواههم ناراً فقيل من هم يا رسول الله ؟ فقال : ألم تر أن الله يقول (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية) وفى إسناده زناد المذكور . كذبه ابن معين وشيخه نافع بن الحرث ضعيف أيضاً وقد أورده ابن عدى فى الضعفاء فى ترجمة زناد وأعل به .

فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١)

﴿ يوصيكم الله ﴾ يعهد إليكم ويأمركم ﴿ فى أولادكم ﴾ فى شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة. وهذا إجمال تفصيله ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فإن قلت: هلا قيل: للأنثيين مثل حظ الذكر [1] أو للأنثى نصف حظ الذكر؛ قلت: ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك، ولأنّ قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) قصد إلى بيان فضل الذكر. وقولك: للأنثيين مثل حظ الذكر، قصد إلى بيان نقص الأنثى. وما كان قصداً إلى بيان فضله، كان أدلّ على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه؛ ولأنهم كانوا يورّثون الذكور دون الإناث [2] وهو السبب لورود الآية، فقيل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى فى حظهن حتى يحرمن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. فإن قلت: فإن حظ الأنثيين الثلثان، فكأنه قيل للذكر الثلثان. قلت: أريد حال الاجتماع لا الانفراد أى إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان، كما أن لهما سهمين. وأما فى حال الانفراد، فالابن يأخذ المال كله والبنتان يأخذان الثلثين. والدليل على أن الغرض حكم الاجتماع، أنه أتبعه حكم الانفراد، وهو قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك) والمعنى للذكر منهم، أى من أولادكم، فحذف الراجع إليه لأنه مفهوم، كقولهم: السمن منوان بدرهم ﴿ فإن كن نساء ﴾ فإن كانت البنات أو المولودات نساء خلصاً. ليس معهن رجل يعنى بنات ليس معهن ابن ﴿ فوق اثنتين ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً لكان وأن يكون صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (وإن كانت واحدة) وإن كانت البنت أو المولودة منفردة فذة ليس معها أخرى ﴿ فلها النصف ﴾ وقرئ: واحدة بالرفع على كان التامة والقراءة بالنصب أوفق لقوله (فإن كن نساء) وقرأ زيد بن ثابت (النصف)

(١) قال محمود: «وإن قلت هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر ... الخ» قال أحمد: لأن الأفضلية حينئذ مدلول عليها بواسطة الاستلزام لامنطوق بها. وأما على نظم الآية، فالأفضلية منطوق بها غير محتاجة إلى ذلك.

(٢) عاد كلامه. قال: «ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الاناث ... الخ» قال أحمد: وعلى مقتضى هذا لايكون حكم الابن إذا انفرد مذكوراً فى الآية، لأنه حيث ذكر فانما عى حالة الاجتماع مع الاناث خاصة على تفسير الزمخشرى. هذا ويمكن خلافه، وهو أن المذكور أولا ميراث الذكر على الاطلاق مجتمعا مع الاناث منفرداً، أما وجه تاتى حكمه حالة الاجتماع فقد قرره الزمخشرى. وأما وجه تلقيه حالة الانفراد فمن حيث أن الله تعالى جعل له مثل حظ الأنثيين، فان كانت معه فذاك، وإن كانت منفردة عنه فقد جعل لها فى حال انفرادها النصف، فاقتضى ذلك أن للذكر عند انفراده مثلى نصيبها عند انفرادها، وذلك الكامل. والله أعلم.

بالضم . والضمير فى ﴿ترك﴾ للميت ؛ لأنّ الآية لما كانت فى الميراث ، علم أن التارك هو الميت . فإن قلت : قوله (الذكر مثل حظ الأنثيين) كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد ، لا لبيان حظ الأنثيين ، فكيف صح أن يردف قوله (فإن كن نساء) وهو لبيان حظ الإناث ؟ قلت : وإن كان مسوقا لبيان حظ الذكر ، إلا أنه لما فقه منه وتبين حظ الأنثيين مع أخيهما ؛ كان كأنه مسوق للأمرين جميعا ، فلذلك صح أن يقال (فإن كن نساء) : فإن قلت . هل يصح أن يكون الضميران فى « كنّ » و « كانت » مبهمين ، ويكون « نساء » و « واحدة » تفسيراً لهما ، على أن كان تامة ؟ قلت : لا أبعد ذلك . فإن قلت : لم قيل (فإن كنّ نساء [1]) ولم يقل : وإن كانت امرأة ؟ قلت : لأنّ الغرض ثمة خلوصهن إناثا لا ذكر فيهن ، ليميز بين ماذكر من اجتماعهن مع الذكور فى قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) وبين انفرادهن . وأريد ههنا أن يميز بين كون البنت مع غيرها وبين كونها وحدها لاقرينة لها . فإن قلت : قد ذكر حكم البنتين فى حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت فى حال الانفراد ، ولم يذكر حكم البنتين فى حال الانفراد فما حكمهما ، وما باله لم يذكر ؟ قلت : أما حكمهما فمختلف فيه ، فابن عباس أبى تنزيلهما منزلة الجماعة [2] ، لقوله تعالى ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين﴾ فأعطاهما حكم الواحدة وهو ظاهر مكشوف . وأما سائر الصحابة فقد أعطوهما حكم الجماعة ، والذى يعلل به قولهم : أن قوله (الذكر مثل حظ الأنثيين) قد دلّ على أن حكم الأنثيين حكم الذكر ، وذلك أن الذكر كما يحوز الثلثين مع الواحدة ، فالأنثيان كذلك يحوزان الثلثين ، فلما ذكر مادلّ على حكم الأنثيين قيل (فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك) على معنى : فإن كن جماعة بالغات ما بلغن من العدد فلهن ما للأنثيين وهو الثلثان لا يتجاوزنه لكثرتهن

---

(١) عاد كلامه . قال محمود : فان قلت لم قيل ؛ فان كن نساء ، ولم يقل : وإن كانت امرأة ... الخ، قال أحمد : يريد أن حكم البنتين حال اجتماعهما مع الابن مذكور فى قوله (الذكر مثل حظ الانثيين) وأن حكم البنات منفردات مذكور فى قوله (فان كن نساء) وأن حكم البنت منفردة مذكور فى قوله (وإن كانت واحدة فلها النصف) وبقى عليه أن ذكر الابن فى حال الانفراد مستفاد من قوله (الذكر مثل حظ الأنثيين) إذا ضممته إلى قوله (وإن كانت واحدة فلها النصف) على التقرير الذى قدمته .

(٢) عاد كلامه . قال فى الجواب «أما حكمها فمختلف فيه ، فابن عباس أبى تنزيلهما منزلة الجماعة ...الخ، قال أحمد : وعز النظر أن ابن عباس أجرى التقييد بالصفة ، وهى قوله (فوق اثنتين) على ظاهره من مفهوم المخالفة ، غير أنه ما كان يقتضى اللفظ أن يقتصر لها على النصف لأجل تعارض المفهومين ، إذ مفهوم (فلهن ثلثا ماترك) أن تكون الأنثى أقل من الثلثين ، ومفهوم (فان كانت واحدة فلها النصف)أن تكون الأنثيين أزيد من النصف ، فيكون نصيبهما متردداً فيما بين النصف والثلثين بقدر مجمل . وأما غيره فأظهر للتقييد فائدة جلية سوى المخالفة ، وتلك الفائدة رفع الفرق المتوهم بين الأنثيين ومافوقهما . ومتى ظهرت للتخصيص فائدة جلية سوى المخالفة وجب المصير إليها وسقط التعلق بالمفهوم ، وكأنه على القول المشهور لما علم أن الانثيين يستوجبان الثلثين بالطرق المذكورة ، وكان الوهم قد يسبق إلى أن الزائد على الأنثيين يستوجبن أكثر من فرض الأنثيين ، لأن ذلك مقتضى القياس . رفع هذا الوهم بإيجاب الثلثين لما فوق الأنثيين كوجوبه لهما ، والله أعلم .

ليعلم أن حكم الجماعة حكم الثنتين بغير تفاوت . وقيل : إن الثنتين أمس رحما بالميت من الأختين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين ، ولم يروا أن يقصروا بهما عن حظ من هو أبعد رحما منهما . وقيل : إن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كانت أحرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها . ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضا مع أخيها لو انفردت معه ، فوجب لهما الثلثان ﴿ولأبويه﴾ الضمير للميت . و ﴿لكل واحد منهما﴾ بدل من (لأبويه)[1] بتكرير العامل . وفائدة هذا البدل أنه لو قيل : ولأبويه السدس ، لكان ظاهره اشتراكهما فيه . ولو قيل : ولأبويه السدسان ، لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها . فإن قلت : فهلا قيل : ولكل واحد من أبويه السدس : وأى فائدة فى ذكر الأبوين أولا ، ثم فى الإبدال منهما ؟ قلت : لأن فى الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيدا وتشديدا ، كالذى تراه فى الجمع بين المفسر والتفسير . والسدس : مبتدأ . وخبره : لأبويه . والبدل متوسط بينهما للبيان . وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة (السدس) بالتخفيف ، وكذلك الثلث والربع والثمن . والولد : يقع على الذكر والأنثى ، ويختلف حكم الأب فى ذلك . فإن كان ذكراً اقتصر بالأب على السدس ، وإن كانت أنثى عصب مع إعطاء السدس . فإن قلت : قد بين حكم الأبوين فى الارث[2] مع الولد : ثم حكمهما مع

---

(١) قال محمود « لكل واحد منهما بدل من لأبويه بتكرير العامل ... الخ » قال أحمد : وفى إعرابه بدلا نظر ، وذلك أنه يكون على هذا التقدير من بدل الشيء من الشيء ، وهما كعين واحدة ، ويكون أصل الكلام : والسدس لأبويه لكل واحد منهما ، ويقتضى الاقتصار على المبدل منه التشريك بينهما فى السدس ، كما قال (فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) فاقتضى اشتراكهن فيه . فيقتضى البدل ـ لو قدر إهدار الأول ـ إفراد كل واحد منهما بالسدس وعدم التشريك ، وهذا يناقض حقيقة هذا النوع من البدل ، لأنه يلزم فى هذا النوع أن يكون مؤدى المبدل والبدل واحدا . وإنما فائدته التأكيد بمجموع الاسمين لاغير بلا زيادة معنى ، فاذا تحقق ما بينهما من التباين تعذرت البدلية المذكورة ، وليس من بدل التقسيم أيضا على هذا الاعراب ، وإلا لزم زيادة معنى فى البدل . فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يقدر مبتدأ محذوف كأنه قيل : ولأبويه الثلث ثم لما ذكر نصيبهما مجملا ، فصله بقوله (لكل واحد منهما السدس) وساغ حذف المبتدإ لدلالة التفصيل عليه ضرورة ، إذ يلزم من استحقاق كل واحد منهما للسدس استحقاقهما ، والله أعلم . ولا يستقيم على هذا الوجه أيضا جعله من بدل التقسيم . ألا تراك لو قلت : الدار كلها الثلاثة : لزيد ، ولعمرو ، ولخالد : كان هذا بدلا وتقسيما صحيحا ، لأنك لو حذفت المبدل منه فقلت : الدار لزيد ولعمرو ولخالد ، ولم تزد فى البدل زيادة ، استقام . فلو قلت : الدار لثلاثة : لزيد ثلثها ، ولعمرو ثلثها ، ولخالد ثلثها . لم يستقم بدل تقسيم إذ لو حذفت المبدل منه لصار الكلام : الدار لزيد ثلثها ، ولعمرو ثلثها ، ولخالد ثلثها . فهذا كلام مستأنف ، لأنك زدت فيه معنى تمييز ما لكل واحد منهم ، وذلك لا يعطيه البدل ولا سبيل فى بدل الشيء من الشيء إلى زيادة معنى .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : « فان قلت قد بين حكم الأبوين والارث . . . الخ » قال أحمد : ومذهب ابن عباس أن الاخوة يأخذون السدس الذى حجبوا الأم عنه مع وجود الأب ، فعلى هذا يكون فائدة قوله (وورثه أبواه) الاحتراز مما لو ورثه الاخوة مع الأبوين ، فان الأم لها حينئذ السدس ، وكأنه قيل : وورثه أبواه ولم يكن ثم إخوة فلأمه الثلث ، فان كان له إخوة فلأمه السدس . ولا يمكن جعله على مذهب ابن عباس مقيداً بعدم الزوجين ، لأن ثلث الأم عنده لا يتغير بوجود واحد منهما ، والله الموفق .

عدمه ، فهلا قيل : فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث . وأى فائدة فى قوله (وورثه أبواه) ؟ قلت : معناه : فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فحسب ، فلأمه الثلث مما ترك ، كما قال (لكل واحد منهما السدس مما ترك) لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين ، كان للأم ثلث ما بقى بعد إخراج نصيب الزوج ، لا ثلث ما ترك ، إلا عند ابن عباس . والمعنى : أن الأبوين إذا خلصا تقاسما الميراث : الذكر مثل حظ الأنثيين . فإن قلت : ما العلة فى أن كان لها ثلث ما بقى دون ثلث المال ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أنّ الزوج إنما استحق ما يسهم له بحق العقد لا بالقرابة . فأشبه الوصية فى قسمة ما وراءه . والثانى : أن الأب أقوى فى الإرث من الأم ، بدليل أنه يضعف عليها إذا خلصا ويكون صاحب فرض وعصبة ، وجامعا بين الأمرين . فلو ضرب لها الثلث كملا لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها . ألا ترى أن امرأة لو تركت زوجا وأبوين فصار للزوج النصف وللأم الثلث والباقى للأب ، حازت الأم سهمين والأب سهما واحدا ، فينقلب الحكم إلى أن يكون الأنثى مثل حظ الذكرين ﴿ فإن كان له إخوة فلأمه السدس ﴾ الإخوة يحجبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب ، فيكون لها السدس وللأب خمسة الأسداس ، ويستوى فى الحجب الاثنان فصاعدا إلا عند ابن عباس[1] . وعنه أنهم يأخذون السدس الذى حجبوا عنه الأم . فإن قلت : فكيف صحّ أن يتناول الإخوة الأخوين ، والجمع خلاف التثنية ؟ قلت : الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية ، والتثنية كالتثليث والتربيع فى إفادة الكمية ، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق ، فدل بالإخوة عليه . وقرئ : فلإمه ، بكسر الهمزة إتباعا للجرة : ألا تراها لا تكسر فى قوله (وجعلنا ابن مريم وأمّه آية) . ﴿ من بعد وصية ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها ، لا بما يليه وحده ، كأنه قيل قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصى بها . وقرئ ﴿ يوصى بها ﴾ بالتخفيف والتشديد . و (يوصى بها) على البناء للمفعول مخففا : فإن قلت : ما معنى أو ؟ قلت : معناها الإباحة : وأنه إن كان أحدهما أو كلاهما ، قدم على قسمة الميراث ، كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين . فإن قلت : لم قدمت الوصية على الدين[2] والدين مقدم عليها فى الشريعة ؟ قلت : لما

---

(١) عاد كلامه . قال محمود : « ويستوى فى حجب الأم الاثنان فصاعدا إلا عند ابن عباس ... الخ » قال أحمد : ولقد أحسن فى هذا التقرير ما لم يحسن كثير من حذاق الأصوليين ، ويريد متلق فى تغاير وصفى الجمع والتثنية ، إذ الجمع يتناول الاثنين ويتناول أزيد منهما . ولك هذا . وأما التثنيه فقاصرة على الاثنين فبينهما على هذا العموم والخصوص ، فكل تثنية جمع ، وليس كل جمع تثنية .

(٢) قال محمود : « إن قلت : لم قدمت الوصية على الدين ... الخ » ؟ قال أحمد : الوصية على ضربين : لغير معين ، فلا يطالب بها إلا الامام إن عثر عليها . ولمعين ، فله المطالبة . ولكن يتباينان فى القوة بين مطالبة رب الدين بدينه والموصى له بوصيته ، لأن رب الدين يطالب بحق مستقر فى الذمة سبق له به الفضل على مديانه ، والموصى له إنما يطالب بصدقة تفضل بها عليه الميت ، لا عن استحقاق سابق ، فاكتفى بما لرب الدين من القوة عن تقديمه فى =

كانت الوصية مشبهة للميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدين فإنّ نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها مع الدين، ولذلك جىء بكلمة «أو» للتسوية بينهما فى الوجوب، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله ﴿ آباؤكم وأبناؤكم ﴾ أى لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الذين يموتون، أمَن أوصى منهم أمَن لم يوص؟ يعنى أن من أوصى ببعض ماله فعرّضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعا وأحضر جدوى ممن ترك الوصية، فوفر عليكم عرض الدنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدنيا، ذهابا إلى حقيقة الأمر، لأن عرض الدنيا وإن كان عاجلا قريباً فى الصورة، إلا أنه فان، فهو فى الحقيقة الأبعد الأقصى. وثواب الآخرة وإن كان آجلا إلا أنه باق فهو فى الحقيقة الأقرب الأدنى. وقيل: إن الابن إن كان أرفع درجة من أبيه فى الجنة سأل أن يرفع أبوه إليه فيرفع. وكذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه، سأل أن يرفع إليه ابنه. فأنتم لا تدرون فى الدنيا أيهم أقرب لكم نفعا. وقيل: قد فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. وقيل: الأب يجب عليه[1] النفقة على الابن إذا احتاج، وكذلك الابن إذا كان محتاجا فهما فى النفع بالنفقة لا يدرى أيهما أقرب نفعا. وليس شىء من هذه الأقاويل بملائم للمعنى ولا مجاوب له، لأن هذه الجملة اعتراضية. ومن حق الاعتراضى أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه، والقول ما تقدم ﴿ فريضة ﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أى فرض ذلك فرضاً ﴿ إن الله كان عليما ﴾ بمصالح خلقه ﴿ حكيما ﴾ فى كل ما فرض وقسم من المواريث وغيرها.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

ـــ الذكر، وعضد ضعف الموصى له بتقديمه فى الذكر عونا له على حصول رفق الوصية، ويمكن فى دفعه طريق آخر فأقول: لم يخالف ترتيب الآية الواقع شرعا فلا يرد السؤال، وذلك أن أول ما يبدأ به إخراج الدين، ثم الوصية، ثم اقتسام ذوى الميراث. فانظر كيف جاء إخراج الميراث آخراً، تلو إخراج الوصية، تلو الدين، فوافق قولنا: قسمة المواريث بعد الوصية والدين، صورة الواقع شرعا. ولو سقط ذكر بعد وكان الكلام: أخرجوا الميراث والوصية والدين، لما أمكن ورود السؤال المذكور، والله أعلم.

(١) قوله «عليه»: لعله «له». فتدبر اهـ مصححه

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿فإن كان لهن ولد﴾ منكم أو من غيركم. جعلت المرأة على النصف من الرجل بحق الزواج، كما جعلت كذلك بحق النسب. والواحدة والجماعة سواء في الربع والثمن ﴿وإن كان رجل﴾ يعني الميت. و ﴿يورث﴾ من ورث، أي يورث منه وهو صفة لرجل. و ﴿كلالة﴾ خبر كان، أي وإن كان رجل موروث منه كلالة، أو يجعل يورث خبر كان، وكلالة حالا من الضمير في يورث. وقرئ يورث ويورّث بالتخفيف والتشديد على البناء للفاعل، وكلالة حال أو مفعول به. فإن قلت: ما الكلالة؟ قلت: ينطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم: ماورث المجد عن كلالة، كما تقول: ماصمت عن عيّ، وما كف عن جبن. والكلالة في الأصل: مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء. قال الأعشى:

* فَآلَيْتُ لَا أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ * [1]

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد، لأنها بالإضافة إلى قرابتهما كآلة ضعيفة، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فبمعنى ذي كلالة. كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي. ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والفقاقة للأحمق.[2] فإن قلت: فإن جعلتها اسما للقرابة في الآية فعلام تنصبها؟ قلت: على أنها مفعول له أي يورث لأجل الكلالة أو يورث غيره

(١) وأما إذا ما أدلجت فترى لها رقيبين جديا لا يغيب وفرقدا
فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من وجى حتى تلاقى محمدا

للأعشى، يصف ناقته وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فصده المشركون ومات باليمامة. وأدلجت: سارت ليلا. وجديا، وفرقدا: بدل مما قبلهما. وهذا كناية عن طول ليلها، بل عن مللها من السير. وآليت. أي حلفت، لا أرثى: لا أرق لها، من أجل ملالة وسآمة. والوجى: ضرر الخف ونحوه من السير. ويروى بدله «فما لك عندي مشتكى من كلالة» ولا من حفا». والمشتكى: الشكوى. والحفا: الوجى. يقول: إذا سارت ناقتي ليلا طال ليلها، وحلفت لا أرق لها من أجل تعب ولا ضرر، حتى ألاقي بها محمداً صلى الله عليه وسلم. وأسند الفعل إليها، دلالة على أنها تعرفه، فهي السائرة إليه.

(٢) قوله «كالهجاجة والفقاقة للأحمق» في الصحاح: رجل هجاجة أي أحمق. وفيه رجل فقاقة أي أحمق هذر. وفيه أيضاً: الهذر - بالتحريك -: الهذيان. والرجل هذر. بكسر الذال. (ع)

لأجلها ، فإن قلت : فان جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث ، فما وجهه ؟ قلت : الرجل حينئذ هو الوارث لا الموروث . فان قلت : فالضمير فى قوله (فلكل واحد منهما) إلى من يرجع حينئذ ؟ قلت : إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته ، وعلى الأول إليهما . فان قلت : إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما فى حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر الأنثى ، فهل تبقى هذه الفائدة قائمة فى هذا الوجه ؟ قلت : نعم ، لأنك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سويت بين الذكر والأنثى . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيه برأيى ، فان كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان والله منه برىء . الكلالة : ماخلا الولد والوالد[1] . وعن عطاء والضحاك : أن الكلالة هو الموروث . وعن سعيد ابن جبير : هو الوارث . وقد أجمعوا على أن المراد أولاد الأم . وتدل عليه قراءة أبىّ : وله أخ أو أخت من الأم . وقراءة سعد بن أبى وقاص : وله أخ أو أخت من أم . وقيل : إنما استدل على أن الكلالة ههنا الإخوة للأم خاصة بما ذكر فى آخر السورة من أن للأختين الثلثين وأن للإخوة كل المال ، فعلم ههنا ـ لما جعل للواحد السدس ، وللاثنين الثلث ، ولم يزادوا على الثلث شيئاً ـ أنه يعنى بهم الإخوة للأم ، وإلا فالكلالة عامة لمن عدا الولد والوالد من سائر الإخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات[2] وغيرهم ﴿غير مضار﴾ حال ، أى يوصى بها وهو غير مضار لورثته وذلك أن يوصى بزيادة على الثلث ، أو يوصى بالثلث فما دونه ، ونيته مضارة ورثته ومغاضبتهم لا وجه الله تعالى . وعن قتادة : كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه . وعن الحسن : المضارة فى الدين أن يوصى بدين ليس عليه ومعناه الإقرار ﴿وصية من الله﴾ مصدر مؤكد ، أى يوصيكم بذلك وصية ، كقوله (فريضة من الله) ويجوز أن تكون منصوبة بغير مضار ، أى لا يضار وصية من الله وهو الثلث فما دونه بزيادته على الثلث أو وصية من الله بالأولاد وأن لا يدعهم عالة بإسرافه فى الوصية . وينصر هذا الوجه قراءة الحسن : (غير مضارّ وصية من الله) بالاضافة ﴿والله عليم﴾ بمن جار أو عدل فى وصيته ﴿حليم﴾ عن الجائر لا يعاجله . وهذا وعيد . فإن قلت : فى (يوصى) ضمير الرجل إذا جعلته الموروث ، فكيف تعمل إذا جعلته الوارث ؟ قلت : كما عملت فى قوله تعالى (فلهن ثلثا ما ترك) لأنه علم أن التارك والموصى هو الميت . فان قلت : فأين ذو الحال فيمن قرأ (يوصى بها) على ما لم يسم فاعله ؟ قلت : يضمر يوصى فينتصب عن فاعله

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة والطبرى وسعيد بن منصور . ومن رواية الشعبى قال : قال أبو بكر . وفى رواية سعيد والطبرى كلام عمر أيضاً .

(٢) قوله « سائر الاخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات » فى الصحاح : إخوة أخياف ، إذا كانت أمهم واحدة والآباء شتى . والأعيان : الاخوة بنو أب واحد وأم واحدة . وبنو العلات : أولاد الرجل الواحد من أمهات شتى اه ملخصاً من مواضع . (ع)

لأنه لما قيل (يوصى بها) علم أن ثم موصيا، كما قال (يسبح له فيها بالغدو والآصال) على ما لم يسمّ فاعله، فعلم أن ثم مسبحا. فأضمر يسبح فكما كان رجال فاعل ما يدل عليه يسبح، كان غير مضارّ حالا عما يدل عليه يوصى بها.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)

﴿تلك﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى والوصايا والمواريث. وسماها حدوداً، لأن الشرائع كالحدود المضروبة الموقتة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتخطوها إلى ما ليس لهم بحق ﴿يدخله﴾ قرئ بالياء والنون، وكذلك (يدخله ناراً) وقيل: يدخله، وخالدين حملا على لفظ «من» ومعناه. وانتصب خالدين وخالداً على الحال. فان قلت: هل يجوز أن يكونا صفتين لجنات وناراً؟ قلت: لا، لأنهما جريا على غير من هما له. فلا بدّ من الضمير وهو قولك: خالدين هم فيها، وخالداً هو فيها.

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

﴿يأتين الفاحشة﴾ يرهقنها، يقال أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها بمعنى. وفى قراءة ابن مسعود: يأتين بالفاحشة. والفاحشة: الزنا لزيادتها فى القبح على كثير من القبائح ﴿فأمسكوهن فى البيوت﴾ قيل معناه: فخلدوهن محبوسات فى بيوتكم، وكان ذلك عقوبتهن فى أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى (الزانية والزاني ...) الآية ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحدّ لكونه معلوما بالكتاب والسنة، ويوصى بإمساكهن فى البيوت، بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ هو النكاح الذى يستغنين به عن السفاح. وقيل: السبيل هو الحد، لأنه لم يكن مشروعا ذلك الوقت. فإن قلت: ما معنى يتوفاهن الموت ـ والتوفى والموت بمعنى واحد، كأنه قيل: حتى يميتهن الموت ـ؟ قلت: يجوز أن يراد حتى يتوفاهن ملائكة الموت، كقوله (الذين تتوفاهم الملائكة)

(إن الذين توفاهم الملائكة) ، (قل يتوفاكم ملك الموت) أو حتى يأخذهن الموت ويستوفى أرواحهن ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ يريد الزانى والزانية ﴿فآذوهما﴾ فوبخوهما وذموهما وقولوا لهما: أما استحييتما، أما خفتما الله ﴿فإن تابا وأصلحا﴾ وغيرا الحال ﴿فأعرضوا عنهما﴾ واقطعوا التوبيخ والمذمة، فإن التوبة تمنع استحقاق الذم والعقاب، ويحتمل أن يكون خطاباً للشهود العاثرين على سرهما، ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الإمام والحد، فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام فأعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما. وقيل: نزلت الأولى فى السحاقات وهذه فى اللواطين. وقرئ: واللذانّ بتشديد النون. واللذأنّ: بالهمزة وتشديد النون.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

﴿التوبة﴾ من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له، يعنى إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى[1] لهؤلاء. ﴿بجهالة﴾ فى موضع الحال أى يعملون السوء جاهلين سفهاء، لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة، لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل. وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته ﴿من قريب﴾ من زمان قريب. والزمان القريب:

(١) قال محمود: «يعنى إنما القبول والغفران واجب على الله ... الخ» قال أحمد: وقد تقدم فى مواضع أن إطلاق مثل هذا من قول القائل: يجب على الله كذا. مما نعوذ بالله منه ـ تعالى عن الالزام والايجاب رب الأرباب ـ وقاعدة أهل السنة أن الله تعالى مهما تفضل فهو لا عن استحقاق سابق، لأنهم يقولون: إن الأفعال التى يتوهم القدرية أن العبد يستحق بها على الله شيئا، كلها خلق الله، فهو الذى خلق لعبده الطاعة وأثابه عليها، وخلق له التوبة وقبلها منه، فهو المحسن أولا وآخراً وباطناً وظاهراً، لا كالقدرية الذين يزعمون أن العبد خلق لنفسه التوبة بقدرته وحوله، ليستوجب على ربه المغفرة بمقتضى حكمته التى توجب عليه ـ على زعمهم ـ المجازاة على الأعمال إيجابا عقليا، فلذلك يطلقون بلسان الجرأة هذا الاطلاق. وما أبشع ما أكد الزمخشرى هذا المعتقد الفاسد بقوله: يجب على الله قبول التوبة، كما يجب على العبد بعض الطاعات. فنظر المعبود بالعبد، وقاس الخالق على الخلق. وإنه لاطلاق يتقيد عنه لسان العاقل ويقشعر جلده استبشاعا لسماعه، ويتعثر القلم عند تسطيره. على أن من لطف الله تعالى أن لم يجعل حاكى الكفر كافراً، ولا حاكى البدعة لضرورة ردها والتحذير منها مبتدعا. وما بلغ الزمخشرى فى هذا الاطلاق إلا اغتناما لفرصة التمسك على صحته بصيغة «على» المشعرة بالوجوب، فجعلها ذريعة لاستباحة هذا الاطلاق، ولم يجعل الله له فيها مستروحا، فانا نقول معاشر أهل السنة قد وعدنا الله قبول التوبة المستجمعة لشرائط الصحة ووقوع هذا الموعود واجب ضرورة صدق الخبر، فهما ورد من صيغ الوجوب فنزل على وجوب صدق الوعد. ومعنى قولنا «صدق الخبر واجب» كمعنى قولنا «وجود الله واجب» لأن أحداً لا يستوجب على الله شيئاً. ألهمنا الله الأدب فى حق جلاله، وعصمنا من زيغ القول وضلاله.

ماقبل حضرة الموت . ألا ترى إلى قوله (حتى إذا حضر أحدهم الموت) فبين أنّ وقت الاحتضار هو الوقت الذى لاتقبل فيه التوبة فيبقى ماوراء ذلك فى حكم القريب . وعن ابن عباس : قبل أن ينزل به سلطان الموت . وعن الضحاك : كل توبة قبل الموت فهو قريب . وعن النخعى : مالم يؤخذ بكظمه . وروى أبو أيوب عن النبى صلى الله عليه وسلم « إنّ الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر »[1] وعن عطاء : ولاقبل موته بفواق ناقة . وعن الحسن : أنّ إبليس قال حين أهبط إلى الأرض : وعزتك لاأفارق ابن آدم مادام روحه فى جسده . فقال تعالى : وعزتى لاأغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر[2] فإن قلت : مامعنى (من) فى قوله (من قريب) ؟ قلت : معناه التبعيض ، أى يتوبون بعض زمان قريب ، كأنه سمى مابين وجود المعصية وبين حضرة الموت زمانا قريبا ، ففى أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب ، وإلا فهو تائب من بعيد . فإن قلت : مافائدة قوله ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ بعد قوله : إنما التوبة على الله لهم ؟ قلت : قوله (إنما التوبة على الله) إعلام بوجوبها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات . وقوله (فأولئك يتوب عليهم) عدة بأنه يفى بما وجب عليه ، وإعلام بأن الغفران كائن لامحالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب ﴿ ولا الذين يموتون ﴾ عطف على الذين يعملون السيئات . سوّى بين الذين سوّفوا توبتهم إلى حضرة الموت ، وبين الذين ماتوا على الكفر فى أنه لا توبة لهم ، لأنّ حضرة الموت أول أحوال الآخرة ، فكما أنّ المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين ، فكذلك المسوّف إلى حضرة الموت لمجاوزة كل واحد منهما أوان التكليف والاختيار ﴿ أولئك أعتدنا لهم ﴾ فى الوعيد نظير قوله (فأولئك يتوب الله عليهم) فى الوعد ليتبين أن الأمرين كائنان لامحالة . فإن قلت : من المراد بالذين يعملون السيئات ، أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يراد الكفار ، لظاهر قوله (وهم كفار) . وأن يراد الفساق ، لأن الكلام إنما وقع فى الزانيين ، والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا ، ويكون قوله (وهم كفار) وارداً على سبيل التغليظ كقوله (ومن كفر

---

(١) لم أجده من حديث أبى أيوب الأنصارى على مايتبادر إلى الفهم من هذا الاطلاق وإنما أورده الطبرى من طريق قتادة عن العلاء بن زياد عن أبى أيوب بشير بن كعب فذكره . وبشير تابعى معروف وهو بالموحدة والمعجمة مصغر ، ولقتادة فيه إسناد آخر أخرجه الطبرى أيضاً بالاسناد المذكور إليه . قال عن قتادة عن عبادة بن الصامت ومن هذا الوجه أخرجه إسحاق بن راهويه وهو منقطع بين قتادة وعبادة . وفى الباب عن ابن عمر أخرجه الترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو يعلى والطبرانى وفى إسناده عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف فيه ، وعن أبى هريرة أخرجه البزار وفيه يزيد بن عبدالملك النوفلى وهو ضعيف لكن له طريق أخرى أخرجها ابن مردويه عن صحابى معهم أخرجه أحمد والحاكم من رواية عبدالرحمن السلمانى قال اجتمع أربعة من الصحابة فذكر الحديث فقال الرابع «وأنا سمعته أى النبى صلى الله عليه وسلم يقول لى : إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يغرغر بنفسه» .

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية عمرو بن عبيد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره . قلت وله شاهد من حديث أبى سعيد الخدرى وأخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى .

فإن الله غنى عن العالمين) وقوله «فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا»[١]، «من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر»[٢]، لأن من كان مصدقا ومات وهو لم يحدث نفسه بالتوبة، حاله قريبة من حال الكافر، لأنه لايجترئ على ذلك إلا قلب مصمت.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

كانوا يبلون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم، فزجروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم[٣] عن امرأة، ألقى ثوبه عليها وقال أنا أحق بها من كل أحد[٤]، فقيل ﴿لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ أى أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك: أو مكرهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لايحل لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن وهن غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر، لتفتدى منه بمالها وتختلع، فقيل: ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن. والعضل: الحبس والتضييق. ومنه: عضلت المرأة بولدها، إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقى بعضه ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وهى النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أى إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم فى طلب الخلع. ويدل عليه قراءة أبىّ: إلا أن يفحشن عليكم. وعن الحسن: الفاحشة الزنا، فإن فعلت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع. وقيل: كانوا إذا أصابت امرأة فاحشة أخذ منها ماساق إليها وأخرجها. وعن أبى قلابة ومحمد بن سيرين: لايحل الخلع حتى يوجد رجل على بطنها. وعن قتادة: لايحل أن يحبسها ضراراً حتى تفتدى منه، يعنى وإن زنت. وقيل: نسخ ذلك بالحدود، وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ وهو النصفة فى

---

(١) تقدم فى الكلام على آية الحج فى آل عمران. (٢) تقدم فى البقرة.

(٣) قوله «أخ حميم» فى الصحاح «حميمك» قريبك الذى تهتم لأمره. (ع)

(٤) قال محمود: «كان الرجل إذا مات له قريب ألقى ثوبه على امرأته وقال أنا أحق بها من كل أحد ... الخ» قال أحمد: وخص تعالى ذكر من آتى القنطار من المال بالنهى، تنبيها بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان هذا على كثرة مابذل لامرأته من الأموال منهياً عن استعادة شىء يسير حقير منها على هذا الوجه، كان من لم يبذل إلا الحقير منهياً عن استعادته بطريق الأولى. ومعنى قوله (وآتيتم) والله أعلم: وكنتم آتيتم، إذ إرادة الاستبدال فى ظاهر الأمر واقعة بعد إيتاء المال واستقرار الزوجية.

المبيت والنفقة، والإجمال فى القول ﴿ فإن كرهتموهن ﴾ فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها فربما كرهت النفس ماهو أصلح فى الدين وأحمد وأدنى إلى الخير، وأحبت ماهو بضد ذلك، ولكن للنظر فى أسباب الصلاح.

وَإِنْ أَرَدْتُمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا (٢١)

وكان الرجل إذا طمحت عينه[1] إلى استطراف امرأة ؟ بهت التى تحته ورماها[2] بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقيل: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج ﴾ الآية. والقنطار: المال العظيم، من قنطرت الشىء إذا رفعته. ومنه القنطرة، لأنها بناء مشيد. قال:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا ... لَتُكْتَنَفَنْ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ[3]

وعن عمر رضى الله عنه أنه قام خطيباً فقال: أيها الناس، لاتغالوا بصدق النساء[4]، فلو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنى عشر أوقية، فقامت إليه إمرأة فقالت له: يا أمير المؤمنين، لِمَ تمنعنا حقا جعله الله لنا والله يقول (وآتيتم إحداهن قنطاراً) فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر ثم قال لأصحابه: تسمعونى أقول مثل هذا القول فلا تنكرونه علىّ حتى تردّ علىّ امرأة ليست من أعلم النساء.[5] والبهتان: أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو برىء منه، لأنه يبهت

(١) قوله «إذا طمحت عينه» أى ارتفعت إلى استحسان امرأة للتمتع بها بدل امرأته. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله «ورماها» أى بما ليس فيها كما يؤخذ مما يأتى. (ع)
(٣) لطرفة بن العبد من معلقته يشبه ناقته بقنطرة الرجل الرومى. أو النهر الرومى. وهو أنسب بلام العهد وبذكر الاسم الظاهر بعده. وأقسم: جملة حالية، أى: حلف لاتحاط بالقرمد، أى الجبس، حتى تشاد وترفع بالآجر، أو ليحيط بها الفعلة حتى ترفع بالجبس. وتكتنفن: مضارع مبنى المجهول مؤكد بالنون.
(٤) قوله «لاتغالوا بصدق النساء» جمع صداق، كسحب جمع سحاب. (ع)
(٥) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وأحمد والدارمى وابن أبى شيبة والطبرانى كلهم من طريق محمد ابن سيرين عن أبى العجفاء قال خطبنا عمر فذكره دون ما فى آخره. وأخرجه الحاكم من أوجه أخرى عن عمر كذلك. وذكر الدارقطنى فى العلل لهذا الحديث اختلافا كثيراً. ورواه عبد الرزاق من الوجه الأول وزاد فيه: فقامت امرأة فقالت له ليس ذلك لك يا عمر، وإن الله يقول (وآتيتم إحداهن قنطاراً) الآية. فقال إن امرأة خاصمت عمر فخصمته، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة شريح من طريق أشعث بن سوار عن الشعبى عن شريح قال قال عمر... فذكره بلفظ السنن واستغربه من هذا الوجه. وأخرجه إسحاق من رواية عطاء الخراسانى عن عمر، وهو منقطع وزاد فيه «ثم إن عمر خطب أم كلثوم - أى بنت علي وأصدقها أربعين ألفا» وروى أبو يعلى من طريق ابن إسحاق. حدثنى ــ

عند ذلك، أى يتحير. وانتصب ﴿بهتانا﴾ على الحال، أى باهتين وآثمين، أو على أنه مفعول له وإن لم يكن غرضاً، كقولك: قعد عند القتال جبناً. والميثاق الغليظ: حق الصحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقا غليظاً، أى بإفضاء بعضكم إلى بعض. ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه، فقد قالوا: صحبة عشرين يوما قرابة، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟ وقيل: هو قول الولىّ عند العقد: أنكحتك على ما فى كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وعن النبى صلى الله عليه وسلم: استوصوا [1] بالنساء خيراً فإنهن عوان فى أيديكم [2] أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

وكانوا ينكحون روابهم [3]، وناس منهم يمقتونه [4] من ذى مروآتهم، ويسمونه نكاح

=محمد بن عبد الرحمن عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال: ركب عمر المنبر ثم قال أيها الناس ما إكثاركم فى صدق النساء، وقد كانت الصدقات فيما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه أربعمائة درهم فادون ذلك، ولو كان الاكثار فى ذلك تقوى عند الله أو مكرمة لم تسبقوهم إليها ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت له: ياأمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا النساء فى صدقهن على أربعمائة. قال: نعم، قالت: أما سمعت الله يقول (وآتيتم إحداهن قنطاراً ... الآية) فقال عمر: اللهم عفوا كل أحد أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر، فقال: من شاء أن يعطي من ماله ما أحب.

(١) هذا مركب من حديثين. الأول أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص. قال شهدت حجة الوداع ـ فذكر حديثا ـ وفيه «واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عوان عندكم» وفى البخارى ومسلم من حديث أبى حازم عن أبى هريرة فى أثناء حديث واستوصوا بالنساء خيرا فانهن خلقن من ضلع ـ الحديث». والثانى أخرجه مسلم فى حديث جابر الطويل فى صفة الحج فقال فيه «واتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وروى أبو يعلى والبزار والطبرى من رواية موسى بن عبيدة الربذى أحد الضعفاء عن صدقة بن يسار عن ابن عمر رفعه «أيها الناس، النساء عوان فى أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله». ﴿فائدة﴾ العوان: جمع عانية، وهى الأسيرة.

(٢) قوله «فانهن عوان فى أيديكم» فى الصحاح: العانى الأسير. وقوم عناة، ونسوة عوان. (ع)

(٣) قوله «ينكحون روابهم» فى الصحاح. الراب زوج الأم. والرابة: امرأة الأب. وربيب الرجل: ابن امرأته من غيره. ونكاح المقت: كان فى الجاهلية أن يتزوج امرأة أبيه. اه فى موضعين. (ع)

(٤) قال محمود فيه: «كانوا ينكحون روابهم وناس منهم يمقتونه ... الخ» قال أحمد: وعندى فى هذا الاستثناء سر آخر وهو أن هذا المنهى عنه ـ لفظاعته وبشاعته عند أكثر الخلق حتى كان ممقوتا قبل ورود الشرع ـ جدير أن يمتثل النهى فيه فيجتنب، فكأنه قد امتثل النهى عنه حتى صار مخبراً عن عدم وقوعه، وكأنه قيل: مايقع نكاح الأبناء المنكوحات للآباء ولا يؤخذ منه شيء إلا ما قد سلف. وأما فى المستقبل بعد النهى فلا يقع منه شيء البتة. ومثل هذا النظر جار فى مثل قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله) فأجراه مرفوعا على أنه خبر وإن كان المراد نهيهم عن عبادة غير الله، ولكن لما كان هذا المنهى جديرا بالاجتناب وكأنه اجتنب، عبر عن النهى فيه بصيغة الخبر ورفع الفعل. وقد مضى هذا التقدير بعينه ثم لم يجر مثله فى هذه الآية والله أعلم.

المقت . وكان المولود عليه يقال له المقتى . ومن ثم قيل ﴿ ومقتا ﴾ كأنه قيل : هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح ، قبيح ممقوت فى المروءة ولا مزيد على ما يجمع القبحين . وقرئ : لا تحل لكم بالتاء ، على أن ترثوا بمعنى الوراثة . وكرها ـ بالفتح ، والضم ـ من الكراهة والإكراه . وقرئ (بفاحشة مبينة) من أبانت بمعنى تبينت أو بينت ، كما قرئ (مبينة) بكسر الياء وفتحها . و(يجعل الله) بالرفع ، على أنه فى موضع الحال : (وآتيتم احداهن) بوصل همزة إحداهن ، كما قرئ (فلا اثم عليه) . فإن قلت : تعضلوهن ، ما وجه إعرابه ؟ قلت : النصب عطفا على أن ترثوا . و(لا) لتأكيد النفى . أى لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهن . فإن قلت :أى فرق بين تعدية ذهب بالباء ، و بينها بالهمزة ؟ قلت : إذا عدى بالباء فمعناه الأخذ والاستصحاب ، كقوله تعالى (فلما ذهبوا به) وأما الإذهاب فكالإزالة . فإن قلت : (إلا أن يأتين) ما هذا الاستثناء ؟قلت: هو استثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له ، كأنه قيل : ولا تعضلوهن فى جميع الأوقات إلا وقت أن يأتين بفاحشة . أو : ولا تعضلوهن لعلة من العلل إلا لأن يأتين بفاحشة . فإن قلت : من أى وجه صح قوله (فعسى أن تكرهوا) جزاءا للشرط ؟ قلت : من حيث أن المعنى : فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة ، فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيراً ليس فيما تحبونه فإن قلت كيف استثنى ما قد سلف مما نكح آباؤكم ؟ قلت : كما استثنى « غير أن سيوفهم » من قوله « ولا عيب فيهم » يعنى : إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف ، فانكحوه ، فلا يحل لكم غيره . وذلك غير ممكن . والغرض المبالغة فى تحريمه وسدّ الطريق إلى إباحته ، كما يعلق بالمحال فى التأبيد نحو قولهم : حتى يبيض القار ، وحتى يلج الجمل فى سم الخياط .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

معنى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ تحريم نكاحهن [1] لقوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من

(١) قال محمود : « معناه تحريم نكاحهن ... الخ » قال أحمد : وهذا تفريع على القول بعموم المشترك فى معانيه فاستقام تعليق الجار المذكور بهما ، والله أعلم

النساء ولأن تحريم نكاحهن هو الذى يفهم من تحريمهن، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله. وقرئ ﴿وبنات الأخت﴾ بتخفيف الهمزة. وقد نزل الله الرضاعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أماً للرضيع، والمراضعة أختا، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه. وأم المرضعة جدته، وأختها خالته، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه، ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [1] وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب إلا فى مسئلتين: إحداهما أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من النسب ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع، لأن المانع فى النسب وطؤه أمها. وهذا المعنى غير موجود فى الرضاع والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب، ويجوز فى الرضاع، لأن المانع فى النسب وطء الأب إياها. وهذا المعنى غير موجود فى الرضاع ﴿من نسائكم﴾ متعلق بربائبكم. ومعناه أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها. فإن قلت: هل يصح أن يتعلق بقوله ﴿وأمهات نسائكم﴾؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بهن وبالربائب، فتكون حرمتهن وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعاً. وإما أن يتعلق بهن دون الربائب، فتكون حرمتهن غير مبهمة وحرمة الربائب مبهمة، فلا يجوز الأول، لأن معنى «من» مع أحد المتعلقين، خلاف معناه مع الآخر. ألا تراك أنك إذا قلت: وأمهات نسائكم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فقد جعلت «من» لبيان النساء، وتميز المدخول بهن من غير المدخول بهن. وإذا قلت وربائبكم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإنك جاعل «من» لابتداء الغاية، كما تقول: بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة، وليس بصحيح أن يعنى بالكلمة الواحدة فى خطاب واحد معنيان مختلفان. ولا يجوز الثانى لأن ما يليه هو الذى يستوجب التعليق به، ما لم يعترض أمر لا يرد، إلا أن تقول: أعلقه بالنساء والربائب، وأجعل «من» للاتصال، كقوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) فإنى لست منك ولست منى. ما أنا من دد ولا الدد منى: وأمهات النساء متصلات بالنساء لأنهن أمهاتهن [2] كما أن الربائب متصلات بأمهاتهن لأنهن بناتهن. هذا وقد

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة وابن عباس.

(٢) عاد كلامه. قال: «ولا يجوز الثانى لأن ما يليه هو الذى يستوجب التعليق به ما لم يعترض أمر لا يرد إلا أن تقول: أعلقه بالنساء والربائب، وأجعل من للاتصال، كقوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) فإنى لست منك ولست منى. ما أنا من دد ولا الدد منى. وأمهات النساء متصلات بالنساء لأنهن ... الخ» قال أحمد: يعنى أن لهذا الاعراب وجها فى الصحة، وتكون «من» على هذا مستعملة فى معنى واحد من معانيها وهو =

اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب ، على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها أنه قال « لا بأس أن يتزوج ابنتها ، ولا يحل له أن يتزوج أمها »[1] وعن عمر وعمران بن الحصين رضى الله عنهما : أن الأم تحرم بنفس العقد . وعن مسروق : هى مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله . وعن ابن عباس : أبهموا ما أبهم الله ، إلا ما روى عن على وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير : أنهم قرءوا : وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن . وكان ابن عباس يقول : والله ما نزل إلا هكذا . وعن جابر روايتان . وعن سعيد بن المسيب عن زيد : إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها ، كره أن يخلف على أمها . وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل : أقام الموت مقام الدخول فى ذلك ، كما قام مقامه فى باب المهر . وسمى ولد المرأة من غير زوجها ربيبا وربيبة ، لأنه يربهما كما يرب ولده فى غالب الأمر ، ثم اتسع فيه فسميا بذلك وإن لم يربهما . فإن قلت : ما فائدة قوله فى حجوركم[2] ؟ قلت : فائدته التعليل للتحريم ، وأنهن لاحتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم ، وفى حكم التقلب فى حجوركم إذا دخلتم بأمهاتهن ، وتمكن بدخولكم حكم الزواج وثبتت الخلطة والألفة ، وجعل الله بينكم المودة والرحمة ، وكانت الحال خليقة بأن تجروا

ـــ الاتصال ، فيستقيم تعلقها بهما . وقد نقل ذلك عن ابن عباس مذهبا . ونقل أيضا قراءة عن على وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير : وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن . وكان ابن عباس يقول : والله ما نزل إلا هكذا انتهى نقل الزمخشرى . والقول المشهور عن الجمهور إبهام تحريم المرأة ، وتقييد تحريم الربيبة بدخول الأم كما هو ظاهر الآية . ولهذا الفرق سر وحكمة ، وذلك لأن المتزوج بابنة المرأة لا يخلو بعد العقد وقبل الدخول من محاورة بينه وبين أمها ومخاطبات ومساورات ، فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم ليقطع شوقه من الأم فيعاملها معاملة ذوات المحارم ، ولا كذلك العاقد على الأم ، فانه بعيد عن مخاطبة ابنتها قبل الدخول بالأم ، فلم تدع الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة . وأما إذا وقع الدخول بالأم فقد وجدت مظنة خلطة الربيبة ، فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما ، والله أعلم .

(١) أخرجه أبو قرة موسى بن طارق الزبيدى فى السنن قال ذكر المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . رفعه « أيما رجل نكح امرأة فدخل بها فلا يحل له نكاح ابنتها . وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها . وأيما رجل نكح امرأة فدخل بها أو لم يدخل فلا يحل له نكاح أمها » وأخرجه أبو يعلى والبيهقى من طريق ابن مبارك عن المثنى به . والمثنى ضعيف لكن رواه الترمذى والبيهقى أيضا من طريق ابن لهيعة عن عمرو به وقال : لا يصح ، وإنما رواه المثنى وابن لهيعة وهما ضعيفان . انتهى . ويشبه أن يكون ابن لهيعة أخذه عن المثنى لأن أبا حاتم قال لم يسمع ابن لهيعة من عمرو بن شعيب شيئا . فلهذا لم يرتق هذا الحديث إلى درجة الحسن .

(٢) عاد كلامه . قال : « فان قلت ما فائدة قوله فى حجوركم ... الخ » قال أحمد : وهذا مما قدمته من تخصيص أعلى صور المنهى عنه بالنهى ، فان النهى عن نكاح الربيبة المدخول بأمها عام فى جميع الصور ، سواء كانت فى حجر الزوج أو بائنة عنه فى البلاد القاصية ، ولكن نكاحه لها وهي فى حجره أقبح الصور والطبع عنها أنفر ، فخصت بالنهي لتساعد الجبلة على الانقياد لأحكام الملة ، ثم يكون ذلك تدريا وتدريجا إلى استقباح المحرم فى جميع صوره ، والله أعلم .

أولادهن مجرى أولادكم ، كأنكم فى العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم . وعن على رضى الله عنه : أنه شرط ذلك فى التحريم . وبه أخذ داود . فإن قلت : مامعنى ﴿دخلتم بهنّ﴾ ؟ قلت : هى كناية عن الجماع ، كقولهم : بنى عليها وضرب عليها الحجاب يعنى أدخلتموهن الستر . والباء للتعدية واللمس . ونحوه ؛ يقوم مقام الدخول عند أبى حنيفة . وعن عمر رضى الله عنه أنه خلا بجارية فجردها ، فاستوهبها ابن له فقال : إنها لاتحلّ لك . وعن مسروق أنه أمر أن تباع جاريته بعد موته وقال : أما إنى لم أصب منها إلا مايحرمها على ولدى من اللمس والنظر . وعن الحسن فى الرجل يملك الأمة فيغمزها لشهوة أو يقبلها أو يكشفها : أنها لاتحل لولده بحال وعن عطاء وحماد بن أبى سليمان : إذا نظر إلى فرج امرأة فلا ينكح أمها ولا ابنتها . وعن الأوزاعى : إذا دخل بالأم فعرّاها ولمسها بيده وأغلق الباب وأرخى الستر ، فلا يحلّ له نكاح ابنتها . وعن ابن عباس وطاوس وعمرو بن دينار : أن التحريم لايقع إلا بالجماع وحده ﴿الذين من أصلابكم﴾ دون من تبنيتم . وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب حين فارقها زيد بن حارثة [(١)] ، وقال عزّ وجلّ (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم) . ﴿وأن تجمعوا﴾ فى موضع الرفع عطف على المحرمات ، أى وحرّم عليكم الجمع بين الأختين . والمراد حرمة النكاح ، لأنّ التحريم فى الآية تحريم النكاح وأما الجمع بينهما فى ملك اليمين ، فعن عثمان وعلى رضى الله عنهما أنهما قالا : أحلتهما آية وحرّمتهما آية [(٢)] يعنيان هذه الآية وقوله (أو ماملكت أيمانكم) فرجح على التحريم، وعثمانُ التحليل [(٣)] . ﴿إلا ماقد سلف﴾ [(٤)] ولكن مامضى مغفور بدليل قوله ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾

(١) متفق عليه من حديث أنس بغير هذا اللفظ .

(٢) أما حديث عثمان فى الموطأ عن الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب وأن عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين فقال : لا آمرك ولا أنهاك ، أحلتهما آية وحرمتهما أخرى، وأخرجه الشافعى عن مالك وابن أبى شيبة من طريق مالك والدارقطنى من طريق معمر عن الزهرى وهو أشبه بلفظ المصنف . وأما حديث على فرواه البزار وابن أبى شيبة وأبو يعلى من رواية أبى صالح الحنفى قال قال على للناس : سلوني فقال ابن الكوا حدثنا ياأمير المؤمنين عن الأختين المملوكتين . قال : أحلتهما آية وحرمتها أخرى وإنى لا أحله ولا أنهى عنه ولا أفعله أنا ولا أحد من أهل بيتى .

(٣) أما عثمان فلم أجد عنه التصريح بالتحليل وإنما توقف ، وأما على ففى رواية الموطأ ثم خرج السائل فلقى رجلا من الصحابة قال الزهرى أحسبه قال على فسأله فقال له . ولكنى أنهاك ولو كان لى سبيل على فعله لجعلته نكالا .

(٤) قال أحمد : موقع هذا الاستثناء كموقع نظيره المقدم ذكره عند قوله : ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء على الوجه الذى بينت ، وهو أن هذا النهى لكونه جديرا بأن يمتثل أجرى مجرى الاخبار عن امتثاله ، حتى كأنه قيل : لايقع شىء من هذه المحرمات إلا السالف منها لاغير . أو على الوجه الذى بينه الزمخشرى فيما تقدم ، وهو أن يكون المراد إلا ماقد سلف فانه غير محرم فتعاطوه إن كان ممكنا ، من باب التعليق على المحال بتا للتحريم ، إلا أن الزمخشرى لم يسلك هذا المسلك ههنا لأن قوله (إن الله كان غفورا رحيما) يرشد إلى أن المراد إلا ماقد سلف فانه مغفور لاستثنائه فى الآية الأولى لأنه عقبه ثم بقوله (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) فقدر فى كل آية مايناسب سياقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)

﴿ والمحصنات ﴾ القراءة بفتح الصاد . وعن طلحة بن مصرف أنه قرأ بكسر الصاد . وهنّ ذوات الأزواج ، لأنهنّ أحصنّ فروجهنّ بالتزويج ، فهنّ محصنات ومحصنات ﴿ إلا ماملكت أيمانكم ﴾ يريد : ماملكت أيمانهم من اللاتى سبين ولهنّ أزواج فى دار الكفر فهنّ حلال لغزاة المسلمين وإن كنّ محصنات . وفى معناه قول الفرزدق :

وَذَاتُ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا ... حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِى بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ (١)

﴿ كتاب الله عليكم ﴾ مصدر مؤكد ، أى كتب الله ذلك عليكم كتابا وفرضه فرضا ، وهو تحريم ماحرّم . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وأحلّ لكم ﴾ ؟ قلت : على الفعل المضمر الذى نصب (كتاب الله) أى كتب الله عليكم تحريم ذلك ، وأحلّ لكم ماوراء ذلكم . ويدل عليه قراءة اليمانى : كتب الله عليكم ، وأحلّ لكم . وروى عن اليمانى : كتب الله عليكم ، على الجمع والرفع أى هذه فرائض الله عليكم . ومن قرأ : وأحلّ لكم ، على البناء للمفعول ، فقد عطفه على حرمت . ﴿ أن تبتغوا ﴾ مفعول له بمعنى بين لكم مايحلّ مما يحرم ، إرادة أن يكون ابتغاؤكم ﴿ بأموالكم ﴾ التى جعل الله لكم قياما فى حال كونكم ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم ، ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين . والإحصان : العفة وتحصين النفس من الوقوع فى الحرام ، والأموال : المهور وما يخرج فى المناكح . فإن قلت : أين مفعول تبتغوا ؟ قلت : يجوز أن يكون مقدراً وهو النساء . والأجود أن لا يقدر ، وكأنه قيل : أن تخرجوا أموالكم . ويجوز أن يكون (أن تبتغوا) بدلا من (وراء ذلكم) والمسافح الزانى ، من السفح وهو صبّ المنىّ . وكان الفاجر يقول للفاجرة : سافحينى وماذينى من المذى ﴿ فما استمتعتم به منهنّ ﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد

(١) للفرزدق ، أنشده فى مجلس الحسن البصرى حين سئل رضى الله عنه عن سبى المرأة والتسرى بها ولها حليل ، فقال : كنت أراك أشعر ، فاذا أنت أشعر وأفقه . أى : ورب صاحبة حليل تسببت الرماح فى تزوجها ، فاسناد الانكاح إلى الرماح مجاز عقلى ، حلال : خبر ذات حليل ، والبناء عليها : كناية عن الدخول بها ، لأن الزوج يبنى لها بيتا عند الدخول عادة «لم تطلق» جملة حالية من ضمير بها .

عليهن ﴿فآتوهن أجورهن﴾ عليه ، فأسقط الراجع إلى «ما» لأنه لا يلبس ، كقوله (إن ذلك من عزم الأمور) بإسقاط منه . ويجوز أن تكون «ما» فى معنى النساء ، و «من» للتبعيض أو البيان ، ويرجع الضمير إليه على اللفظ فى به ، وعلى المعنى فى (فآتوهن) وأجورهن مهورهن لأن المهر ثواب على البضع ﴿فريضة﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو وضعت موضع إيتاء لأن الإيتاء مفروض أو مصدر مؤكد . أى فرض ذلك فريضة ﴿فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ فيما تحط عنه من المهر ، أو تهب له من كله أو يزيد لها على مقداره . وقيل فيما تراضياه به من مقام أو فراق وقيل : نزلت فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام [1] حين فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام ثم نسخت ، كان الرجل ينكح المرأة وقتا معلوما ليلة أو ليلتين أو أسبوعا بثوب أو غير ذلك ، ويقضى منها وطره ثم يسرحها . سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها . وعن عمر : لا أوتى برجل تزوج امرأة إلى أجل إلا رجمتهما بالحجارة [2] . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أباحها ، ثم أصبح يقول «يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء : ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة» [3] وقيل : أبيح مرتين وحرم مرتين . وعن ابن عباس هى محكمة [4] يعنى لم تنسخ ، وكان يقرأ : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى . ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته وقال : اللهم إنى أتوب إليك من قولى بالمتعة ، وقولى فى الصرف [5]

---

(١) قوله «فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام» أى أبيحت هذه المدة ثم نسخت . (ع)

(٢) أخرجه مسلم وابن حبان من طريق جابر عنه فى أثناء حديث .

(٣) أخرجه مسلم من رواية الربيع بن ميسرة عن أبيه ﴿فائدة﴾ «قوله ثم أصبح» لم يرد أنه قال ذلك صبيحة الليلة التى أباحه قبلها بيوم ، بل أراد أنه قال ذلك صباحا .

(٤) لم أجده .

(٥) أما رجوعه عن المتعة فرواه الترمذى بسند ضعيف عنه . وأما قوله «اللهم إنى أتوب إليك من قولى بالمتعة» فلم أجده . وأما قوله «وأتوب إليك من قولى بالصرف» فروى عنه معنى ذلك من أوجه : منها ما رواه أبو يعلى من طريق عبد الرحمن بن أبى نعيم قال : جاء أبو سعيد إلى ابن عباس فذكر مناظرته إياه فى الصرف وفيه فقال : فسمعته بعد ذلك يقول : اللهم إنى أتوب إليك مما كنت أفتى به الناس فى الصرف . وللنسائى فى الكنى من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما . أنه سمعه يقول «أستغفر الله وأتوب إليه من قولى فى الصرف» ولابن عدى من رواية داود بن على عن أبيه عن جده أنه ترك قوله فى الصرف حين سمع أبا سعيد يروى النهى عنه . ولابن ماجه من رواية أبى الجوزاء سمعت ابن عباس يأمر بالصرف ثم بلغنى أنه رجع . ثم لقيته بمكة فقال نعم إنما كان رأيا منى . وللحاكم من طريقه نحوه . وللطبرانى من رواية بكر بن عبد الله المزنى مطولا . وفيه «وإنى أستغفر الله وأتوب إليه» وللبخارى فى التاريخ من رواية ابن سيرين قال أشهد على اثنى عشر من أصحاب ابن مسعود أنهم شهدوا ابن عباس تاب من قوله فى الصرف : منهم عبيدة السلمانى . وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن أبى هشام الواسطى عن زياد قال : كنت مع ابن عباس بالطائف فرجع عن الصرف قبل أن يموت بسبعين يوما .

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

الطول : الفضل، يقال : لفلان على فلان طول أى زيادة وفضل . وقد طاله طولا فهو طائل . قال :

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي ... بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ [1]

ومنه قولهم : ماحلا منه بطائل ، أى بشيء يعتدّ به مما له فضل وخطر . ومنه الطول فى الجسم لأنه زيادة فيه ، كما أن القصر قصور فيه ونقصان . والمعنى : ومن لم يستطع زيادة فى المال وسعة [2] يبلغ بها نكاح الحرّة فلينكح أمة . قال ابن عباس : من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرم عليه نكاح الإماء [3] وهو الظاهر ، وعليه مذهب الشافعى رحمه الله . وأمّا أبو حنيفة رحمه الله فيقول : الغنىّ والفقير سواء فى جواز نكاح الأمة ، ويفسر الاية بأن من لم يملك فراش الحرّة ، على أن

---

(١) لقد زادني حبا لنفسى أنى ... بغيض الى كل امرئ غير طائل
إذا ما رآنى قطع الطرف بينه ... وبينى فعل العارف المتجاهل

الطرماح بن حكيم ، يقول : لقد زادنى بغضى لغير المحسن حبي لنفسى ، لأنى إذا كرهته لبخله علمت أني بضده ، وأن نفسى كريمة فأحببتها ، إذا رآنى غض بصره منى ، فكأنه قطع امتداده بينى وبينه كما يفعل العارف بالشيء المتغافل عنه ، كراهة لرؤيتى ، أو استحياء منى .

(٢) قال محمود : «ومعناه ومن لم يستطع زيادة فى المال وسعة ... الخ» قال أحمد : وعلى هذا يكون الطول عند أبى حنيفة : وجود الحرة تحته ، وهو أحد القولين لمالك رضى الله عنه ، لكن يبعد هذا المعنى ، لأن الطول عند مالك فى أحد قوليه : القدرة بالمال على نكاح الحرة خاصة ، حتى لو كانت الحرة تحته فأراد نكاح الأمة عجزاً عن حرة أخرى جاز له ذلك . وفى القول الآخر : الطول أحد الأمرين ، إما القدرة بالمال على نكاح الحرة ، وإما وجود الحرة تحته حتى لا يجوز له نكاح أمة على حرة إن كان عاجزا عن حرة أخرى . ومقتضى ما نقله المصنف عن أبى حنيفة : أنه لا يجوز لمن تحته حرة نكاح أمة . وأنه يجوز لمن ليست تحته حرة أن ينكح الأمة ولو كان غنيا ، وهو قول لا يساعده ظاهر الآية ، لأن الاستطاعة تثبت وإن لم يفعل المستطيع بمقتضاها ـ فالمستطيع لنكاح الحرة : ذو الطول ، وإن لم يكن تحته الحرة . وتفسير الاستطاعة على مذهب أبى حنيفة بعيد جداً .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وعبدالرزاق من رواية النزال بن سبرة عنه بهذا .

النكاح هو الوطء ، فله أن ينكح أمة . وفى رواية عن ابن عباس أنه قال : ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسراً . وكذلك قوله ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ الظاهر أن لا يجوز نكاح الأمة الكتابية ، وهو مذهب أهل الحجاز . وعند أهل العراق يجوز نكاحها ، ونكاح الأمة المؤمنة أفضل ، فحملوه على الفضل لا على الوجوب ، واستشهدوا على أن الإيمان ليس بشرط بوصف الحرائر به ، مع علمنا أنه ليس بشرط فيهن على الاتفاق ، ولكنه أفضل . فإن قلت : لم كان نكاح الأمة منحطا عن نكاح الحرة ؟ قلت : لما فيه من اتباع الولد الأم فى الرق ، ولثبوت حق المولى فيها وفى استخدامها ، ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع إلى الناكح ومهانة ، والعزة من صفات المؤمنين . وقوله ﴿ من فتياتكم ﴾ أى من فتيات المسلمين ، لا من فتيات غيركم وهم المخالفون فى الدين . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ والله أعلم بإيمانكم ﴾ ؟ قلت : معناه أن الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم فى الإيمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم ، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة ، والمرأة أفضل فى الإيمان من الرجل وحق المؤمنين أن لا يعتبروا إلا فضل الإيمان لا فضل الأحساب والأنساب ، وهذا تأنيس بنكاح الإماء وترك الاستنكاف منه ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أى أنتم وأرقاؤكم متواصلون متناسبون لاشتراككم فى الإيمان ، لا يفضل حر عبداً إلا برجحان فيه ﴿ بإذن أهلهن ﴾ اشتراط لإذن الموالى فى نكاحهن [1] . ويحتج به لقول أبى حنيفة أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن ، لأنه اعتبر إذن الموالى لا عقدهم ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ وأدوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإحواج إلى الاقتضاء واللز . فإن قلت : الموالى هم ملاك مهورهن لا هن ، والواجب أداؤها إليهم لا إليهن ، فلم قيل : وآتوهن ؟ قلت : لأنهن وما فى أيديهن مال الموالى ، فكان أداؤها إليهن أداء إلى الموالى . أو على أن أصله : فآتوا مواليهن ، فحذف المضاف ﴿ محصنات ﴾ عفائف . والأخدان : الأخلاء فى السر ، كأنه قيل : غير مجاهرات بالسفاح ولا مسرات له ﴿ فإذا أحصن ﴾ بالتزويج . وقرئ : أحصن ﴿ نصف ما على المحصنات ﴾ أى الحرائر ﴿ من العذاب ﴾ من الحد كقوله (وليشهد عذابهما) و(يدرأ عنها العذاب) ولا رجم عليهن ، لأن الرجم لا يتنصف ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى نكاح الإماء ﴿ لمن خشى العنت ﴾ لمن خاف الإثم الذى يؤدى إليه غلبة الشهوة . وأصل العنت : انكسار العظم بعد الجبر ، فاستعير لكل مشقة وضرر ، ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم . وقيل : أريد به الحد ، لأنه إذا هويها خشى أن يواقعها فيحد فيتزوجها

---

(١) قال محمود : «وهذا اشتراط لإذن الموالى فى نكاحهن ... الخ» قال أحمد : وليس فى الآية اشتراط إذن المولى لمن يتولى عقد نكاح أمته ، ومتولى العقد ومباشرته مسكوت عنه فى الآية ، فيحمل على إذنه لوكيله فى العقد على أمته ، ولا يلزم أن تكون الأمة هى المباشرة ، ولا دليل فى الآية على ذلك ، والله أعلم .

﴿ وأن تصبروا ﴾ فى محل الرفع على الابتداء ، أى وصبركم عن نكاح الإماء متعففين ﴿ خير لكم ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم « الحرائر صلاح البيت ، والإماء هلاك البيت » [1]

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ أصله يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زيدت فى : لا أبالك ، لتأكيد إضافة الأب . والمعنى : يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم ، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التى سلكوها فى دينهم لتقتدوا بهم ﴿ ويتوب عليكم ﴾ ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيآتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم ﴿ ويريد ﴾ الفجرة ﴿ الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾ وهو الميل عن القصد والحق ، ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات . وقيل : هم اليهود . وقيل : المجوس : كانوا يحلون نكاح الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت ، فلما حرمهنّ الله قالوا : فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة ، والخالة والعمة عليكم حرام ، فانكحوا بنات الأخ والأخت ، فنزلت . يقول تعالى : يريدون أن تكونوا زناة مثلهم ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ إحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات . وعن سعيد بن المسيب : ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى علىّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عينىّ وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف علىّ فتنة النساء . وقرئ : أن يميلوا بالياء . والضمير للذين يتبعون الشهوات . وقرأ ابن عباس (وخلق الإنسان) على البناء للفاعل ونصب الإنسان وعنه رضى الله عنه : ثمان آيات فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس

(١) أخرجه الثعلبى من رواية أحمد بن محمد بن عمر بن يونس اليمامى . حدثنا أحمد بن يوسف العجلى . حدثنا يونس بن مرداس خادم أنس . قال « كنت مع أنس وأبى هريرة فقال أنس : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أحب أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر . وقال أبو هريرة سمعته يقول : الحرائر صلاح البيت والاماء فساد البيت . أو قال هلاك البيت » قلت : فى إسناده أحمد بن محمد وهو متروك وكذبه أبو حاتم ويونس لا أعرفه .

وغربت :[١] (يريد الله ليبين لكم) ، (والله يريد أن يتوب عليكم) ، (يريد الله أن يخفف عنكم) (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) ، (إنّ الله لا يغفر أن يشرك به) ، (إن الله لا يظلم مثقال ذرّة) و(من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) ، (ما يفعل الله بعذابكم) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿ بالباطل ﴾ بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا ﴿ إلا أن تكون تجارة ﴾ إلا أن تقع تجارة . وقرئ تجارة على : إلا أن تكون التجارة تجارة ﴿ عن تراض منكم ﴾ والاستثناء منقطع . معناه : ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض منكم . أو ولكن كون تجارة عن تراض غير منهى عنه . وقوله (عن تراض) صفة لتجارة ، أى تجارة صادرة عن تراض . وخص التجارة بالذكر ، لأنّ أسباب الرزق أكثرها متعلق بها . والتراضى رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه فى حال البيع وقت الإيجاب والقبول ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى . وعند الشافعى رحمه الله تفرقهما عن مجلس العقد متراضيين ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ من كان من جنسكم من المؤمنين . وعن الحسن : لا تقتلوا إخوانكم ، أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة . وعن عمرو بن العاصى : أنه تأوله فى التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم[٢] . وقرأ على رضى الله عنه (ولا تقتلوا)

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب فى الباب السابع والأربعين من رواية صالح المرى عن قتادة ، قال ابن عباس ثمان آيات فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس : أولهن (يريد الله ليبين لكم) فذكره وهو عند الطبرى من هذا الوجه . وصالح ضعيف وقتادة عن ابن عباس منقطع .

(٢) أخرجه أبو داود من رواية عبد الرحمن بن جبير عن ابن العاص قال « احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن أغتسل فأهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ، فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال ، وقلت : إنى سمعت الله يقول (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا » وعلقه البخارى فقال : يذكر عن عمرو بن العاص ، وهذا الحديث اختلف فيه على يزيد بن أبى حبيب عن عمران بن أنس عن عبد الرحمن فرواه عنه يحيى بن أيوب هكذا وخالفه عمرو بن الحارث سندا ومتنا : أما السند فزاد بين عبد الرحمن وعمرو أبا قيس مولى عمرو ، وأما المتن فقال بدل التيمم : فتوضأ وغسل مغابنه » ووافق يحيى بن أيوب عليه ابن لهيعة عند إسحاق بن راهويه وأخرجه أحمد بالسند الأول ، وأخرجه ابن حبان بالسند الثانى ، وأخرجه بالسندين الحاكم والدارقطنى .

بالتشديد ﴿ إن الله كان بكم رحيما ﴾ ما نهاكم عما يضركم إلا لرحمته عليكم. وقيل: معناه أنه أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى القتل، أى ومن يقدم على قتل الأنفس ﴿ عدوانا وظلماً ﴾ لا خطأ ولا اقتصاصا. وقرئ (عدوانا) بالكسر. و﴿ نصليه ﴾ بتخفيف اللام وتشديدها. و (نصليه) بفتح النون من صلاه يصليه. ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى، أو لذلك، لكونه سببا للصلى ﴿ ناراً ﴾ أى ناراً مخصوصة شديدة العذاب ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ لأنّ الحكمة تدعو إليه، ولا صارف عنه من ظلم أو نحوه

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)

﴿ كبائر ما تنهون عنه ﴾ وقرئ: كبير ما تنهون عنه، أى ما كبر من المعاصى التى ينهاكم الله عنها والرسول ﴿ نكفر عنكم سيآتكم ﴾ نمط ما تستحقونه من العقاب فى كل وقت على صغائركم، ونجعلها كأن لم تكن، لزيادة الثواب المستحق على اجتنابكم الكبائر وصبركم عنها، على عقاب السيئات. والكبيرة والصغيرة إنما وصفتا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلهما [1]. والتكفير: إماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد، أو بتوبة. والإحباط: نقيضه، وهو إماطة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بندم على الطاعة. وعن على رضى الله عنه: الكبائر سبع: الشرك، والقتل، والقذف، والزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة [2]. وزاد ابن عمر: السحر، واستحلال البيت الحرام. وعن ابن عباس: أن رجلا قال له: الكبائر سبع؟ فقال: هى إلى سبعمائة أقرب، لأنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار [3]. وروى إلى سبعين. وقرئ: يكفر، بالياء. و(مدخلا) بضم الميم وفتحها، بمعنى المكان والمصدر فيهما.

---

(١) قوله «أو ثواب فاعلهما» أى جزائه. ويمكن أن أصل العبارة «ثواب تاركهما» لحرفها الناسخ فلتحرر. (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن سهل بن خيثمة عن أبيه، قال «إنى لفى هذا المسجد مسجد الكوفة وعلى يخطب» فذكره. وقوله: «وزاد ابن عمر استحلال البيت الحرام» أخرجه أبو داود من طريقه مرفوعا، وأخرجه الثعلبى موقوفا.

(٣) قال عبد الرزاق، حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال قيل لابن عباس: الكبائر سبع. قال: هي إلى السبعين أقرب. وروى الطبرى من رواية قيس ابن سعد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن رجلا سأله عن الكبائر أسبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب لأنه لا صغيرة ... ...» إلى آخره.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

﴿ولا تتمنوا﴾ نهوا عن التحاسد وعن تمنى مافضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال، لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط فى الرزق أو قبض (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له علماً بأن ماقسم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدة له، ولا يحسد أخاه على حظه ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾ جعل ماقسم لكل من الرجال والنساء على حسب ماعرف الله من حاله الموجبة للبسط أو القبض كسباً له ﴿واسئلوا الله من فضله﴾ ولا تتمنوا أنصباء غيركم من الفضل، ولكن سلوا الله من خزائنه التى لا تنفد. وقيل: كان الرجال قالوا: إن الله فضلنا على النساء فى الدنيا: لنا سهمان ولهن سهم واحد، فنرجو أن يكون لنا أجران فى الآخرة على الأعمال ولهنّ أجر واحد، فقالت أم سلمة ونسوة معها: ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال، فيكون لنا من الأجر مثل مالهم. فنزلت.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

﴿مما ترك﴾ تبيين لكل، أى: ولكل شىء مما ترك ﴿الوالدان والأقربون﴾ من المال جعلنا موالى وراثا يلونه ويحرزونه: أو ولكل قوم جعلناهم موالى، نصيب مما ترك الولدان والأقربون على أن (جعلنا موالى) صفة لكل، والضمير الراجع إلى كل محذوف، والكلام مبتدأ وخبر، كما تقول: لكل من خلقه الله إنسانا من رزق الله، أى حظ من رزق الله، أو: ولكل أحد جعلنا موالى مما ترك، أى وراثا مما ترك، على أن «من» صلة موالى، لأنهم فى معنى الوراث، وفى (ترك) ضمير كلّ، ثم فسر الموالى بقوله (الوالدان والأقربون) كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الوالدان والأقربون ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ مبتدأ ضمن معنى الشرط. فوقع خبره مع الفاء وهو قوله ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ ويجوز أن يكون منصوباً على قولك: زيداً فاضربه. ويجوز أن يعطف على الوالدان، ويكون المضمر فى (فآتوهم) للموالى، والمراد بالذين عاقدت أيمانكم: موالى الموالاة

كان الرجل يعاقد الرجل فيقول : دمى دمك ، وهدمى هدمك [1] ، وثأرى ثأرك ، وحربى حربك ، وسلمى سلمك ، وترثنى وأرثك. وتطلب بى وأطلب بك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ، فنسخ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب يوم الفتح فقال «ماكان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به ، فإنه لم يزده الإسلام إلا شدة ، ولا تحدثوا حلفا فى الاسلام [2]» وعند أبى حنيفة : لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة خلافا للشافعى . وقيل : المعاقدة التبنى . ومعنى عاقدت أيمانكم : عاقدتهم أيديكم وماسحتموهم . وقرئ (عقدت) بالتشديد والتخفيف بمعنى عقدت عهودهم أيمانكم .

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)

﴿قوامون على النساء﴾ يقومون عليهن آمرين ناهين ، كما يقوم الولاة على الرعايا . وسموا قوما لذلك . والضمير فى ﴿بعضهم﴾ للرجال والنساء جميعاً ، يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال ، على بعض وهم النساء . وفيه دليل على أنّ الولاية إنما تستحق بالفضل ، لا بالتغلب والاستطالة والقهر . وقد ذكروا فى فضل الرجال : العقل ، والحزم ، والعزم ، والقوّة ، والكتابة ـ فى الغالب ، والفروسية ، والرمى ، وأنّ منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى ، والجهاد ، والأذان ، والخطبة ، والاعتكاف ، وتكبيرات التشريق عند أبى حنيفة ، والشهادة فى الحدود ، والقصاص ، وزيادة السهم ، والتعصيب فى الميراث ، والحمالة ، والقسامة ، والولاية فى النكاح والطلاق والرجعة ، وعدد الأزواج ، وإليهم الانتساب ، وهم أصحاب اللحى والعمائم ﴿وبما أنفقوا﴾ وبسبب ما أخرجوا فى نكاحهن من أموالهم فى المهور

---

(١) قوله «دمى دمك وهدمى هدمك» فى الصحاح «الهدم ـ بالتحريك ـ : ما تهدم من جوانب البئر فسقط فيها . ويقال : دماؤهم بينهم هدم : أى هدر . وهدم أيضا بالتسكين ، إذا لم يودوا . (ع)

(٢) هو مركب من حديثين أخرجهما الطبرى من حديث قيس بن عاصم «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به» ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يوم الفتح : فوا بالحلف ، فانه لا يزيده الاسلام إلا شدة . ولا تحدثوا حلفاً فى الاسلام» وفى الباب عن جبير بن مطعم رفعه : «لا حلف فى الاسلام» أخرجاه .

والنفقات . وروى أنّ سعد بن الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فلطمها ، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أفرشته كريمتى فلطمها فقال : «لتقتص منه» فنزلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : «أردنا أمراً وأراد الله أمرا ، والذى أراد الله خير»[1] ، ورفع القصاص . واختلف فى ذلك ، فقيل لاقصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجها ، ولكن يجب العقل . وقيل : لاقصاص إلا فى الجرح والقتل . وأما اللطمة ونحوها فلا ﴿قانتات﴾ مطيعات قائمات بما عليهنّ للأزواج ﴿حافظات للغيب﴾ الغيب خلاف الشهادة . أى حافظات لمواجب الغيب إذا كان الأزواج غير شاهدين لهنّ حفظهن مايجب عليهنّ حفظه فى حال الغيبة . من الفروج والبيوت والأموال . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرّتك ، وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها ، وتلا الآية[2] وقيل (للغيب) لأسرارهم ﴿بما حفظ الله﴾ بما حفظهنّ الله حين أوصى بهنّ الأزواج فى كتابه وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام فقال : «استوصوا بالنساء خيراً»[3] أو بما حفظهنّ الله وعصمهنّ ووفقهنّ لحفظ الغيب ، أو بما حفظهنّ حين وعدهنّ الثواب العظيم على حفظ الغيب ، وأوعدهنّ بالعذاب الشديد على الخيانة . و«ما» مصدرية . وقرئ (بما حفظ الله) بالنصب على أنّ ما موصولة ، أى حافظات للغيب بالأمر الذى يحفظ حق الله وأمانة الله ، وهو التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم . وقرأ ابن مسعود : فالصوالح قوانت حوافظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهن . نشوزها ونشوصها : أن تعصى زوجها ولا تطمئن إليه وأصله الانزعاج ﴿فى المضاجع﴾ فى المراقد . أى لاتدخلوهن تحت اللحد أو هى كناية عن الجماع . وقيل : هو أن يوليها ظهره فى المضجع وقيل : فى المضاجع : فى بيوتهن التى يبتن فيها . أى

(١) كذا ذكره الثعلبي والواحدى عن مقاتل به . ولأبى داود فى المراسيل وابن أبى شيبة والطبرى عن الحسن أن رجلا لطم وجه امرأته : فأتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكت إليه . فقال : القصاص . فنزلت (الرجال قوامون على النساء) ولابن مردويه عن على باسناده أو نحوه . ولم يقل «القصاص» وزاد «أردت أمراً وأراد الله غيره» .

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم والترمذى من رواية مجاهد عن ابن عباس «لما نزلت الذين يكنزون الذهب والفضة» الحديث ـ وفيه ألا أخبركم بخير ما يكنز : المرأة الصالحة : إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته . وإذا غاب عنها حفظته » وللنسائى من رواية سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال «سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن خير النساء فقال : التى تطيع إذا أمر وتسر إذا نظر . وتحفظه فى نفسها وماله » وإسناده حسن . وأخرجه البزار والحاكم والطبرى وغيرهم من طرق عن سعيد . وفى الباب عن أبى أمامة عند ابن ماجه وإسناده ساقط . وعن عبد الله بن سلام عند الطبرانى . وعن ثوبان وغيرهم .

(٣) متفق عليه من حديث أبى حازم عن أبى هريرة . وقد تقدم من وجه آخر .

لاتبايتوهن . وقرئ : فى المضجع ، وفى المضطجع . وذلك لتعرف أحوالهن وتحقق أمرهن فى النشوز . أمر بوعظهن أوّلا [١] ، ثم هجرانهن فى المضاجع ، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهجران . وقيل : معناه أكرهوهن [٢] على الجماع واربطوهن ، من هجر البعير إذا شدّه بالهجار . وهذا من تفسير الثقلاء . وقالوا : يجب أن يكون ضربا غير مبرّح لايجرحها ولا يكسر لها عظما ويجتنب الوجه . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : «علق سوطك حيث يراه أهلك» [٣] وعن أسماء بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما : كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوّام ، فإذا غضب على إحدانا ضربها بعود المشجب [٤] حتى يكسره عليها [٥] . ويروى عن الزبير أبيات منها :

* وَلَوْلاَ بَنُوهَا حَوْلَهَا لَخَبَطْتُهَا *

﴿ فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ فأزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ والتجنى ، وتوبوا عليهن واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن بعد رجوعهن إلى الطاعة والانقياد وترك النشوز ﴿ إنّ الله كان علياً كبيراً ﴾ فاحذروه واعلموا أنّ قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم . ويروى أن أبا مسعود الأنصارى رفع سوطه ليضرب غلاما له ، فبصر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصاح به : أبا مسعود ، لَلّهُ أقدر عليك منك عليه ، فرمى بالسوط وأعتق الغلام [٦] . أو إن الله كان علياً كبيراً وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ، ثم تتوبون فيتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع .

---

(١) قال محمود : «أمر الله بوعظهن أولا ... الخ» قال أحمد : وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة غير متلقى من صيغة لفظية ، إذ العطف بالواو وهى مسلوبة الدلالة على الترتيب متمحضة الاشعار بالجمعية فقط . وإنما يتلقى الترتيب المذكور من قرائن خارجة عن اللفظ مفهومة من مقصود الكلام وسياقه .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «وقيل معناه أكرهوهن ... الخ» قال أحمد : ولعل هذا المفسر يتأيد بقوله (فان أطعنكم) فانه يدل على تقدم إكراه على أمر ما ، وقرينة المضاجع ترشد إلى أنه الجماع . وإطلاق الزمخشرى لما أطلقه فى حق هذا المفسر من الافراط .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد من حديث ابن عباس . وفيه ابن أبى ليلى القاضى وفيه ضعف . وفى الباب عن ابن عمرو أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة الحسن بن صالح من روايته عن عبد الله بن دينار عنه ، بلفظ «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت» وعن جابر رفعه «رحم الله رجلا يعلق السوط حيث يراه أهل البيت» وعن جابر رفعه «رحم الله رجلا يعلق فى بيته سوطا يؤدب به أهله» وفى إسناده عباد بن كثير وهو ضعيف .

(٤) قوله «ضربها بعود المشجب» فى الصحاح : المشجب الخشبة التى تلقى عليها الثياب . (ع)

(٥) أخرجه الثعلبي من رواية أبى أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عنها بهذا وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن هشام عن أبيه قال «كان الزبير شديداً على النساء ويكسر عليهن عيدان المشاجب» وقال ابن أبى شيبة حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا هشام به .

(٦) أخرجه مسلم من حديثه نحوه وقال فى آخره «أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار» .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿ شقاق بينهما ﴾ أصله : شقاقا بينهما ، فأضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الاتساع ، كقوله (بل مكر الليل والنهار) وأصله : بل مكر فى الليل والنهار . أو على أن جعل البين مشاقا والليل والنهار ماكرين ، على قولهم : نهارك صائم . والضمير للزوجين . ولم يجر ذكرهما لجرى ذكر ما يدل عليهما ، وهو الرجال والنساء ﴿ حكما من أهله ﴾ رجلا مقنعا رضيا يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما ، وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما ، لأنّ الأقارب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب للصلاح ، وإنما تسكن إليهم نفوس الزوجين ، ويبرز إليهم ما فى ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة ، وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزويانه عن الأجانب ولا يحبان أن يطلعوا عليه . فإن قلت : فهل يليان الجمع بينهما والتفريق إن رأيا ذلك ؟ قلت : قد اختلف فيه ، فقيل : ليس إليهما ذلك إلا بإذن الزوجين . وقيل : ذلك إليهما ، وما جعلا حكمين إلا وإليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما . وعن عبيدة السلماني : شهدت عليا رضى الله عنه وقد جاءته امرأة وزوجها ومع كل واحد منهما فئام[1] من الناس ، فأخرج هؤلاء حكما وهؤلاء حكما[2] . فقال علىّ رضى الله عنه للحكمين : أتدريان ما عليكما ؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما ، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما . فقال الزوج : أما الفرقة فلا . فقال علىّ : كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك وعليك . فقالت المرأة : رضيت بكتاب الله لى وعلىّ . وعن الحسن : يجمعان ولا يفرقان . وعن الشعبي : ما قضى الحكمان جاز . والألف فى ﴿ إن يريدا إصلاحا ﴾ للحكمين . وفى ﴿ يوفق الله بينهما ﴾ للزوجين أى إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك فى وساطتهما ، وأوقع الله بطيب نفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة ، وألقى فى نفوسهما المودّة والرحمة . وقيل : الضميران للحكمين ، أى إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما ، فيتفقان على الكلمة الواحدة ، ويتساندان فى طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد . وقيل : الضميران للزوجين . أى : إن يريدا إصلاح ما بينهما وطلبا الخير وأن يزول عنهما الشقاق يطرح الله بينهما الألفة ، وأبدلهما بالشقاق وفاقا وبالبغضاء مودة . ﴿ إنّ الله كان عليما خبيرا ﴾ يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المفترقين (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

(١) قوله «فئام من الناس» فى الصحاح : الفئام الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه اه . (ع)
(٢) أخرجه الشافعي من رواية ابن سيرين عنه . وعبدالرزاق والدارقطنى والطبرى وغيرهم من طريقه .

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)

﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وأحسنوا بهما إحسانا ﴿ وبذى القربى ﴾ وبكل من بينكم وبينه قربى من أخ أوعم أو غيرهما ﴿ والجار ذى القربى ﴾ الذى قرب جواره ﴿ والجار الجنب ﴾ الذى جواره بعيد . وقيل الجار : القريب النسيب ، والجار الجنب : الأجنبى . وأنشد لبلعاء ابن قيس :

لَا يَجْتَوِينَا مُجَاوِرٌ أَبَدًا ذُو رَحِمٍ أَوْ مُجَاوِرٌ جُنُبُ [(١)]

وقرئ : والجار ذا القربى ، نصبا على الاختصاص . كما قرئ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) تنبيها على عظم حقه لإدلائه بحق الجوار والقربى ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك ، إما رفيقا فى سفر ، وإما جاراً ملاصقاً ، وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة ، وإما قاعداً إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه . فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه ، وتجعله ذريعة إلى الإحسان . وقيل : الصاحب بالجنب : المرأة ﴿ وابن السبيل ﴾ المسافر المنقطع به . وقيل الضيف ، والمختال : التياه الجهول الذى يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه ، فلا يتحفى بهم [(٢)] ولا يلتفت إليهم . وقرئ : والجار الجنب ، بفتح الجيم وسكون النون .

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)

﴿ الذين يبخلون ﴾ بدل من قوله (من كان مختالا فخورا) أو نصب على الذم . ويجوز أن يكون رفعاً عليه ، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل : الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون ، أحقاء بكل ملامة . وقرئ (بالبخل) بضم الباء وفتحها . وبفتحتين . وبضمتين : أى يبخلون بذات أيديهم ، وبما فى أيدى غيرهم : فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتا للسخاء ممن وجد . وفى أمثال العرب : أبخل من الضنين بنائل غيره . قال :

(١) لبلغاء بن قيس . ويروى : بلعاء . والرحم : القرابة . والجنب : صفة مشبهة بمعنى الأجنبى ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والمتعدد . يقول : لايكرهنا الجار النسيب ، ولا الجار الجنيب أبدا ، لحسن عشرتنا .

(٢) قوله «فلا يتحفى بهم» فى الصحاح : تحفيت به ، أى بالغت فى إكرامه وإلطافه . (ع)

وَإِنَّ آمْرَأً ضَنَّتْ يَدَاهُ عَلَى آمْرِئٍ   بِنَيْلِ يَدٍ مِنْ غَيْرِهِ لَبَخِيلُ [(١)]

ولقد رأينا ممن بلى بداء البخل ، من إذا طرق سمعه أنّ أحدا جاد على أحد ، شخص [(٢)] به وحلّ حبوته ، واضطرب ، ودارت عيناه في رأسه ، كأنما نهب رحله وكسرت خزانته ، ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده . وقيل : هم اليهود ، كانوا يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم ويقولون : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون . وقد عابهم الله بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضل الغنى والتفاقر إلى الناس . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته على عبده» [(٣)] وبنى عامل للرشيد قصراً حذاء قصره ، فنمّ به عنده . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته ، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك ، فأعجبه كلامه . وقيل : نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١)
سأقطع أرسان القباب بمنطق   قصير عناء الفكر فيه طويل
وإن امرءا ضنت يداه على امرئ   بنيل يد من غيره لبخيل

لأبي تمام . وقيل للبحتري . والأرسان : الحبال . والقباب التي لها أرسان : البيوت المنسوجة ، جمع قبة وهي الخيمة . وهودج مقبب : فوقه قبة . والمراد أنه يتسبب في ارتحال قوم بخلاء ، ففيه مجاز عقلي حيث أسند القطع إلى سببه ، وكناية حيث عبر عن الارتحال بقطع حبال البيوت . ويجوز أن المراد أنه يسكت قوما يدعون الفخر ، ويهدم شرفهم وعظمتهم ، ويظهر ضعتهم وخستهم ، فشبه تلك الحال بحال قطع حبال البيوت المرتفعة المطنبة ، فتنخفض بعد ارتفاعها وتخر ساقطة بعد انتصابها ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وهذا أقرب إلى المقام ، ويجوز أنه شبه المفاخر بالقباب بجامع العظم ومطلق الشرف والعلو في كل على طريق التصريح ، وإثبات الأرسان لها ترشيح ، أى : سأبطل دعوى من يدعي المفاخر وليس من أهلها بقول قصير ولكن تعب الفكر فيه طويل المدة . وفيه الطباق بين القصير والطويل . وبين ذلك المنطق بقوله «وإن امرأ بخلت يداه» وأسند البخل إلى اليد لأنها آلة الاعطاء ، فكأن المنع منها بنيل يداى نعمة ، ويحتمل أن اليد حقيقة ، وأضاف النيل إليها لأنها آلته «لبخيل» أى لبليغ في البخل ، فالتنوين للتعظيم .

(٢) قوله «شخص به وحل حبوته» في الصحاح : يقال للرجل إذا ورد عليه أمر أقلقه : شخص به . (ع)

(٣) أخرجه ابن حبان والحاكم من رواية أبي إسحق عن أبي الأحوص عن أبيه «أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه في هيئة سيئة فقال : أما لك مال ؟ فقال : من كل المال آتاني الله . قال : فهلا عليك . إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن ترى عليه» وللترمذي عن همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وللطبراني من حديث عمران بن حصين نحوه ولأحمد وإسحق من رواية ابن وهب عن أبي هريرة رفعه «ما أنعم الله على عبد نعمة إلا وهو يحب أن يرى أثرها عليه» ولأبي يعلى والبيهقي في الشعب من رواية عطية عن أبي سعيد رفعه «إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب أنه يرى نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتبؤس» ولابن عدي عن جابر رفعه «إن الله ليحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وفيه عصمة بن محمد الأنصاري وهو منكر الحديث وللطبراني في مسند الشاميين عن أنس رفعه «إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وهو من رواية عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عنه . ورواه في الأوسط من رواية موسى بن عيسى القرشي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر نحوه .

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

﴿ رئاء الناس ﴾ للفخار، وليقال: ما أسخاهم وما أجودهم! لا ابتغاء وجه الله. وقيل: نزلت فى مشركى مكة المنفقين أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فساء قرينا ﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر. ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأنّ الشيطان يقرن بهم فى النار ﴿ وماذا عليهم ﴾ وأى تبعة ووبال عليهم فى الايمان والإنفاق فى سبيل الله: والمراد الذم والتوبيخ. وإلا فكل منفعة ومفلحة فى ذلك. وهذا كما يقال للمنتقم: ماضرك لو عفوت. وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت بارا، وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزأة فى العفو والبر. ولكنه ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة ﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ وعيد.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

الذرّة: النملة الصغيرة. وفى قراءة عبد الله: مثقال نملة. وعن ابن عباس: أنه أدخل يده فى التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوّة ذرة. وفيه دليل على أنه لو نقص من الأجر أدنى شىء وأصغره، أو زاده فى العقاب لكان ظلما، وأنه لا يفعله لاستحالته فى الحكمة لا لاستحالته فى القدرة ﴿ وإن تك حسنة ﴾ وإن يكن مثقال ذرة حسنة وإنما أنث ضمير المثقال[1] لكونه مضافا إلى مؤنث. وقرئ ـ بالرفع ـ على كان التامة ﴿ يضاعفها ﴾ يضاعف ثوابها لاستحقاقها عنده الثواب فى كل وقت من الأوقات المستقبلة غير

(١) قال محمود: «وإنما أنث الضمير وهو للمثقال .. الخ» قال أحمد: وقد تقدم له مثل ذلك فى قوله (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) وقد بينا ثم أن عوده إلى الحفرة جائز، بل أولى. وكذلك عوده ههنا إلى الذرة. ولا يمنع ذلك كون المضاف إليه غير مخبر عنه، لأن عود الضمير لا يستلزم الاخبار عنه فى الكلام الأول. ويجوز: كانت دابتك، وكل ذلك أسهل من اكتساب المضاف للتأنيث من المضاف إليه. فقد نص أبو على فى التعاليق على أنه شاذ.

المتناهية. وعن أبى عثمان النهدى أنه قال لأبى هريرة: بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله تعالى يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: لا، بل سمعته يقول «إن الله تعالى يعطيه ألفى ألف حسنة»[1] ثم تلا هذه الآية. والمراد: الكثرة لا التحديد ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيما﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاء عظيما وسماه (أجراً) لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته. وقرئ: يضعفها بالتشديد والتخفيف، من أضعف وضعف: وقرأ ابن هرمز: نضاعفها بالنون ﴿فكيف﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم، كقوله (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم). ﴿وجئنا بك على هؤلاء﴾ المكذبين ﴿شهيدا﴾ وعن ابن مسعود: أنه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله (وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «حسبنا»[2] ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى. وقيل: يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء وقيل: تصير البهائم تراباً، فيودون حالها ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال، أى يودون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لا يكتمون الله حديثا. ولا يكذبون فى قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، لأنهم إذا قالوا ذلك وجحدوا شركهم، ختم الله على أفواههم عند ذلك، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك فلشدة الأمر عليهم يتمنون أن تسوى بهم الأرض: وقرئ: تسوى، بحذف التاء من تتسوى. يقال: سويته فتسوّى نحو: لويته فتلوى. وتسوى بإدغام التاء فى السين، كقوله: يسمعون، وماضيه أسوى كأزكى.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبرى وابن أبى شيبة من رواية على بن زيد بن جدعان عن أبى عثمان. ولفظه بلغنى أن أبا هريرة يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يضعف الحسنة لعبده المؤمن ألف ألف حسنة فانطلقت فلقيت أبا هريرة، فقلت: بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يعطى بالحسنة ألف ألف حسنة. قال أبو هريرة: بل سمعته يقول: إن الله يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا (إن الله لا يظلم مثقال ذرة - إلى قوله أجراً عظيما) فمن يدرى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أجراً عظيما» لم يرفعه ابن أبى شيبة قال البزار لا نعلمه يروى عن أبى هريرة إلا بهذا الاسناد. كذا قال. وقد أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهق فى الزهد من طريق زياد الجصاص عن أبى عثمان نحوه. وأخرجه عبد الرزاق عن أبان عن أبى العالية قال: جئت أبا هريرة فذكره موقوفا. وأبان متروك.

(٢) متفق عليه من رواية عبيدة السلمانى عنه، وقال فى آخره «حسبك الآن» فالتفت إليه فاذا عيناه تذرفان».

أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا فدعا نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كانت الخمر مباحة ، فأكلوا وشربوا ، فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدموا أحدهم ليصلى بهم ، فقرأ : أعبد ماتعبدون ، وأنتم عابدون ما أعبد ، فنزلت . فكانوا لايشربون فى أوقات الصلوات ، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون . ثم نزل تحريمها [1] . ومعنى ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ لا تغشوها ولا تقوموا إليها واجتنبوها . كقوله (ولا تقربوا الزنا) ، (لاتقربوا الفواحش) . وقيل معناه : ولا تقربوا مواضعها وهى المساجد ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم [2]» وقيل : هو سكر النعاس وغلبة النوم ، كقوله :

... ... وَرَانُوا بِسُكْرِ سِنَاتِهِمْ كُلَّ الرُّيُونِ [3]

وقرئ : سكارى ، بفتح السين . وسكرى ، على أن يكون جمعا ، نحو : هلكى ، وجوعى ،

---

(١) أخرجه أصحاب السنن الثلاثة وأحمد وعبد بن حميد والبزار والحاكم والطبرى نحوه دون قوله «فكانوا لايشربون الخ» . كلهم من طريق عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على . واختلف على عطاء فى اسم الداعى ، وفى اسم المصلى . ففى رواية أبى جعفر الرازى عنه عند الترمذى : صنع لنا عبدالرحمن ، وكذا الحاكم من طريق خالد الطحان عنه . وعند أبى داود «أن رجلا دعاه وعبدالرحمن» . وللحاكم من رواية الثورى عن عطاء «دعانا رجل من الأنصار» . وللترمذى عن على «فقدمونى» ولأبى داود «فقدموا عليا» وللنسائى من طريق أبى جعفر أيضا «فقدموا عبدالرحمن بن عوف» وأبهمه البزار . وكذا الحاكم . وللطبرى عن الثورى . وللطبرى أيضا عن حماد بن سلمة وللحاكم عن خالد ﴿تنبيه﴾ قوله «فكانوا لايشربون إلى آخره» لم أجده .

(٢) أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة وفيه عبدالله بن محرور هو بمهملات وقرن محمد ، وهو ضعيف وفى الباب عن ثوبان ومعاذ وأبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة . فحديث ثوبان فى ابن ماجه بلفظ «جنبوا مساجدنا صبيانكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ، ورفع أصواتكم... الحديث» وحديث معاذ رواه عبدالرزاق من رواية مكحول عنه وهو منقطع . وحديث الباقين رواه الطبرانى والعقيلى وابن عدى من رواية مكحول عنهم وفيه العلاء ابن كثير وهو ضعيف .

(٣) رانوا : تغطت قلوبهم بالسكر كما يغطى الحديد بالصدأ . والسنات : جمع سنة من وسن كعدة من وعد ، وهى فتور العين وغفلة القلب أول النوم . والريون : جمع رين ، وهو على القلب كالصدأ على الحديد ، ورأيت فى الأساس للطرماح ما يشبه أن يكون أصل ذلك وهو قوله :

وركب قد بعثت إلى ردايا ... طلائح مثل أخلاق الجفون
مخافة أن يرين النوم فيهم ... بسكر سناته كل الريون

والردايا جمع ردية ، كقضايا وقضية ، التى أصابها الردى . والطلائح ـ جمع طليحة أو طليح ـ : المهازيل . وأخلاق : جمع خلق ، كسبب وهو الشىء البالى . وأضاف السنة لضمير النوم ، لأنها أوله فنسبت إليه .

لأن السكر علة تلحق العقل. أو مفرداً بمعنى: وأنتم جماعة سكرى، كقولك: امرأة سكرى، وبسكرى بضم السين كحبلى. على أن تكون صفة للجماعة. وحكى جناح بن حبيش: كسلى وكسلى، بالفتح والضم ﴿ولا جنبا﴾ عطف على قوله (وأنتم سكارى) لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا. والجنب: يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذى هو الإجناب ﴿إلا عابرى سبيل﴾ استثناء من عامة أحوال المخاطبين. وانتصابه على الحال. فإن قلت: كيف جمع بين هذه الحال والحال التى قبلها؟ قلت: كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة فى حال الجنابة، إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها، وهى حال السفر. وعبور السبيل: عبارة عنه. ويجوز أن لا يكون حالا ولكن صفة، لقوله (جنبا) أى ولا تقربوا الصلاة جنبا غير عابرى سبيل، أى جنبا مقيمين غير معذورين. فإن قلت: كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟ قلت: أريد بالجنب: الذين لم يغتسلوا كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين، حتى تغتسلوا، إلا أن تكونوا مسافرين. وقال: من فسر الصلاة بالمسجد معناه: لا تقربوا المسجد جنبا إلا مجتازين فيه، إذا كان الطريق فيه إلى الماء، أو كان الماء فيه أو احتلمتم فيه. وقيل إن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد، فتصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد، فرخص لهم. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحد أن يجلس فى المسجد أو يمر فيه وهو جنب إلا لعلى رضى الله عنه، لأن بيته كان فى المسجد[1] فإن قلت: أدخل فى حكم الشرط أربعة: وهم المرضى، والمسافرون، والمحدثون، وأهل الجنابة فيمن تعلق الجزاء الذى هو الأمر بالتيمم عند عدم الماء منهم. قلت: الظاهر أنه تعلق بهم جميعاً وأن المرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه فلهم أن يتيمموا، وكذلك السفر إذا عدموه، لبعده. والمحدثون وأهل الجنابة كذلك إذا لم يجدوه لبعض الأسباب. وقال الزجاج: الصعيد وجه الأرض[2]، ترابا كان أو غيره. وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب

(١) أصل هذا الحديث فى الترمذى بغير هذا اللفظ. أخرجه من طريق سالم بن أبى حفصة عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى «ياعلى، لا يحل لأحد أن يجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك» قال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد سمعه منى محمد بن إسماعيل اه وقد أخرجه البزار من رواية الحسن بن زياد عن خارجة بن سعد عن أبيه سعد مثله سواء. وقال: لا نعلمه عن سعد إلا بهذا الاسناد، ثم أخرجه من حديث أبى سعيد كالترمذى. وقال: كان سالم شيعيا. لكنه لم يترك ولم يتابع على هذا ومعناه: أنه صلى الله عليه وسلم كان منزله فى المسجد. وفى الباب عن أم سلمة، أخرجه الطبرى بلفظ «لا ينبغى لأحد أن يجنب فى هذا المسجد إلا أنا وعلى» وروى أبو يعلى من حديث ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم سد أبواب المسجد إلا باب على، فيدخل المسجد جنبا وهو طريقه ليس له طريق غيره».

(٢) قال محمود: «الصعيد وجه الأرض ترابا كان أو غيره ... الخ» قال أحمد: هذا إذا كان الضمير عائدا إلى

المتيمم يده عليه ومسح . لكان ذلك طهوره ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمة الله عليه . فإن قلت : فما يصنع بقوله تعالى فى سورة المائدة (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) أى بعضه ، وهذا لا يتأتى فى الصخر الذى لا تراب عليه ؟ قلت . قالوا إنّ «من» لابتداء الغاية . فان قلت : قولهم إنها لابتداء الغاية قول متعسف ، ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل : مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب ، إلا معنى التبعيض . قلت : هو كما تقول . والإذعان للحق أحق من المراء ﴿إنّ الله كان عفوا غفورا﴾ كناية عن الترخيص والتيسير ، لأنّ من كانت عادته أن يعفو عن الخطائين ويغفر لهم ، آثر أن يكون ميسرا غير معسر . فان قلت : كيف نظم فى سلك واحد بين المرضى والمسافرين ، وبين المحدثين والمجنبين [1] ، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة ، والحدث سبب لوجوب الوضوء . والجنابة سبب لوجوب الغسل ؟ قلت : أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء فى التيمم بالتراب ، فخص أوّل من بينهم مرضاهم وسفرهم ، لأنهم المتقدمون فى استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة ، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاق فى مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر . وقرئ : من غيط ، قيل هو تخفيف غيط ، كهين فى هين . والغيط بمعنى الغائط

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

﴿ألم تر﴾ من رؤية القلب ، وعدى بإلى ، على معنى : ألم ينته علمك إليهم ؟ أو بمعنى : ألم تنظر إليهم ؟ ﴿أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ حظا من علم التوراة ، وهم أحبار اليهود ﴿يشترون الضلالة يستبدلونها بالهدى ، وهو البقاء على اليهودية ، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوّة رسول الله

ـــ الصعيد ، وثم وجه آخر ، وهو عود الضمير على الحدث المدلول عليه بقوله (وإن كنتم مرضى) إلى آخرها ، فان المفهوم منه : وإن كنتم على حدث فى حال من هذه الأحوال سفر أو مرض أو مجيء من الغائط أو ملامسة النساء ، فلم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث ، فتيمموا منه . يقال : تيممت من الجنابة . وموقع «من» على هذا مستعمل متداول ، وهى على هذا الاعراب إما للتعليل أو لابتداء الغاية ، وكلاهما فيها متمكن ، والله أعلم .

(١) قال محمود : «فان قلت : كيف نظم فى سلك واحد بين المرضى والمسافرين وبين المحدثين والمجنبين... الخ» ؟ قال أحمد : وهذا من ذكر المعتنى به خاصا ومندرجا فى العموم تنبيها بذكره على وجهين مختلفين ، لأن المرض والسفر مندرجان فى عموم المحدثين والمجنبين ، والله أعلم .

صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل ﴿ويريدون أن تضلوا﴾ أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه، وتنخرطوا في سلكهم لا تكفيهم ضلالتهم؛ بل يحبون أن يضل معهم غيرهم. وقرئ: أن يضلوا، بالياء بفتح الضاد وكسرها ﴿والله أعلم﴾ منكم ﴿بأعدائكم﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء، وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم؛ فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ فثقوا بولايته ونصرته دونهم. أو لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم.

مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

﴿من الذين هادوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب؛ لأنهم يهود ونصارى. وقوله: (والله أعلم)، (وكفى بالله) جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض أو بيان لأعدائكم، وما بينهما اعتراض أو صلة لنصيراً، أي ينصركم من الذين هادوا، كقوله (ونصرناه من القوم الذين كذبوا) ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ، على أن ﴿يحرفون﴾ صفة مبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون. كقوله:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا
أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ [1]

أي فمنهما تارة أموت فيها ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يميلونه عنها ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلما غيره، فقد أمالوه عن مواضعه التي وضعها الله فيها، وأزالوه عنها. وذلك نحو تحريفهم «أسمر ربعة» عن موضعه في التوراة بوضعهم «آدم طوال»[2] مكانه، ونحو تحريفهم «الرجم»

(١) وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح
وكلتاهما قد خط لي في صحيفة فلا العيش أهوى لي ولا الموت أروح

لتميم بن مقبل، يقول: ليس الدهر إلا تارتين ومرتين، فتارة أموت بها، وتارة أطلب العيش حال كوني أكدح، أي أجد وأتعب وأسرع في طلبه، والمراد بالصحيفة: اللوح المحفوظ، ثم قال: ليس العيش أحب إلى لما فيه من النصب، وليس الموت أروح لي لأن النفس تكرهه.

(٢) قوله «طوال» هو بالضم: الطويل. وبالكسر: جمعه. وبالفتح مصدر، أفاده الصحاح. (ع)

بوضعهم «الحدّ» بدله : فإن قلت : كيف قيل ههنا (عن مواضعه) وفى المائدة (من بعد مواضعه) قلت : أمّا (عن مواضعه) فعلى ما فسرناه من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. وأمّا (من بعد مواضعه) فالمعنى : أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه ، والمعنيان متقاربان. وقرئ : يحرّفون الكلام. والكلم ـ بكسر الكاف وسكون اللام ـ : جمع كلمة تخفيف كلمة. قولهم ﴿غير مسمع﴾ حال من المخاطب[1]. أى اسمع وأنت غير مسمع ، وهو قول ذو وجهين ، يحتمل الذمّ أى اسمع منا مدعوا عليك ـ بلا سمعت ـ لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذلك اتكالا على أنّ قولهم ـ لا سمعت ـ دعوة مستجابة أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه غير مسمع جواباً[2] يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئا. أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه ، فسمعك عنه ناب. ويجوز على هذا أن يكون (غير مسمع) مفعول اسمع ، أى اسمع كلاما غير مسمع إياك ، لأن أذنك لا تعيه نبوًّا عنه. ويحتمل المدح ، أى اسمع غير مسمع مكروهاً ، من قولك : أسمع فلان فلانا إذا سبه. وكذلك قولهم ﴿راعنا﴾ يحتمل راعنا نكلمك ، أى ارقبنا وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية[3] أو سريانية كانوا يتسابون بها ، وهى : راعينا ، فكانوا ـ سخرية بالدين وهزؤا برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يكلمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ﴿ليا بألسنتهم﴾ فتلا بها وتحريفا ، أى يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل ، حيث يضعون (راعنا) موضع (انظرنا)

---

(١) قال محمود : «غير مسمع حال من المخاطب ... الخ» قال أحمد : مراده بذلك أنه لما فسر غير مسمع بالدعاء وهو إنشاء وطلب وقد أوقعه حالا والحال خبر ، أراد أن يبين أوجه صحة التعبير على الخبر بالانشاء بواسطة أن هؤلاء كانوا يظنون دعاءهم مستجابا مخبرا بوقوع المدعو فيه. ونظيره ورود الأمر بصيغة الخبر تنبيها على تحقق وقوعه.

(٢) قال محمود «ومعناه غير مسمع جوابا ... الخ» قال أحمد : والظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد به فى هذه السورة مثل «غير مسمع» و«راعنا» ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام وتوسطها بين الكلمتين ، بين قوله (يحرفون) وبين قوله (ليا بألسنتهم) والمراد أيضاً : تحريف مشاهد بين على أن المحرف هما وأمثالها. وأما فى سورة المائدة فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد فيها بالكلم الأحكام وتحريفها تبديلها ، كتبديلهم الرجم بالجلد. ألا تراه عقبه بقوله (يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) الاختلاف المراد بالكلم فى السورتين. قيل فى سورة المائدة (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أى ينقلونه عن الموضع الذى وضعه الله فيه فصار وطنه ومستقره إلى غير الموضع ، فبقى كالغريب المتأسف عليه ، الذى يقال فيه : هذا غريب من بعد مواضعه ومقاره ، ولا يوجد هذا المعنى فى مثل «راعنا» و«غير مسمع» وإن وجد على بعد فليس الوضع اللغوى مما يعبأ بانتقاله عن موضعه كالوضع الشرعي. ولولا اشتمال هذا النقل على الهزء والسخرية لما عظم أمره ، فلذلك جاء هنا (يحرفون الكلم عن مواضعه) غير مقرون بما قرن به الأول من صورة التأسف.

(٣) قوله «ويحتمل شبه كلمة عبرانية» عبارة النسفى : ويحتمل سبه كلمة عبرانية ، إلى آخر ماهنا. (ع)

و (غير مسمع) موضع : لا أسمعت مكروها . أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى مايظهرونه من التوقير نفاقا . فان قلت : كيف جاؤا بالقول المحتمل ذى الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا سمعنا وعصينا ؟ قلت : جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ، ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء . ويجوز أن يقولوه فيما بينهم . ويجوز أن لاينطقوا بذلك ، ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به . وقرأ أبيّ : وأنظرنا ، من الإنظار وهو الإمهال . فان قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله ﴿لكان خيراً لهم﴾ ؟ قلت : إلى (أنهم قالوا) لأن المعنى . ولو ثبت قولهم سمعنا وأطعنا . لكان قولهم ذلك خيراً لهم ﴿وأقوم﴾ وأعدل وأسد ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ أى خذلهم بسبب كفرهم ، وأبعدهم عن ألطافه ﴿فلا يؤمنون إلا﴾ إيماناً ﴿قليلا﴾ أى ضعيفاً ركيكا لايعبأ به ، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره ، أو أراد بالقلة العدم ، كقوله :

* قَلِيلُ التَّشَكِّى لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ * (١)

أى عديم التشكى ، أو إلا قليلا منهم قد آمنوا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

﴿أن نطمس وجوها﴾ أى نمحو تخطيط صورها ، من عين وحاجب وأنف وفم ﴿فنردها على أدبارها﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها ، وهى الأقفاء مطموسة مثالها . والفاء للتسبيب ، وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعدوا بعقابين : أحدهما عقيب الآخر ، ردها على أدبارها بعد طمسها؛ فالمعنى

---

(١) قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك

لتأبط شرا ، يمدح شمس بن مالك من رؤساء العرب . وقيل لأبى كبير الهذلى يمدح تأبط شرا . والمعنى : أنه عديم التشكى ليظهر المدح . أى لايشتكى لأجل المهم حال كونه يصيبه . كثير هوى النفس . والشت كالشتات فى الأصل مصدر ، ويستعملان بمعنى المتفرق المنتشر . وروى نشر النوى ، وهو بمعناه . وروى شتى النوى وهو جمع شتيت ، أى متفرق مختلف ، أى نواه ومسالكه شتى أى كثيرة مختلفة . والنوى : اسم جمع نواة ، وهى نية المسافر ، ويطلق على البعد أيضا فهو مذكر ، ويطلق على نية المسافر فيؤنث . والموماة : المفازة لاماء بها . والجحيش : الفريد الوحيد والاعروراء : ركوب الجواد عريان الظهر . وعبر بيمسى دون يبيت ، إشارة إلى أنه يديم السير ولاينزل فى الليل . وبقوله « يعرورى » إشارة إلى أنه يقتحم المكاره بلا وقاية عنها . ولقد شبه المهالك بما يصح ركوبه على طريق المكنية ، وأثبت لها الظهور تخييلا . وفيه إشارة إلى أنه غير مكترث بها ، بل يسرع إليها بغير استعداد كاسراع الفارس إلى فرسه وعدم صبره حتى يسرجه . وفيه إشارة إلى أنه يظهر ويظفر حيث عبر بما يفيد الاستعلاء عليها .

أن نطمس وجوها فننكسها، الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام. ووجه آخر: وهو أن يراد بالطمس القلب والتغيير، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة. وبالوجوه، رؤسهم ووجهاؤهم أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم. ونكسوهم صغارهم وإدبارهم أو نردهم إلى حيث جاؤا منه. وهى: أذرعات الشام، يريد: إجلاء بنى النضير. فإن قلت: لمن الراجع فى قوله (أو نلعنهم)؟ قلت: للوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه. لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى (الذين أوتوا الكتاب) على طريقة الالتفات ﴿أو نلعنهم﴾ أو نخزيهم بالمسخ، كما مسخنا أصحاب السبت. فإن قلت: فأين وقوع الوعيد. قلت: هو مشروط بالإيمان [1]. وقد آمن منهم ناس. وقيل: هو منتظر، ولا بد من طمس ومسخ لليهود قبل يوم القيامة، ولأن الله عز وجل أوعدهم بأحد الأمرين، بطمس وجوه منهم، أو بلعنهم فإن الطمس تبديل أحوال رؤسائهم، أو إجلائهم إلى الشام، فقد كان أحد الأمرين وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان، والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ ألا ترى إلى قوله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير). ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ فلا بد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

فإن قلت: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة [2]، فما وجه قول الله تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [3]؟ قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفى والمثبت جميعاً موجهين إلى

(١) قوله «هو مشروط بالإيمان» لعله: مشروط بعدم الإيمان. (ع)

(٢) قوله «لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة» هذا عند المعتزلة. وأما عند أهل السنة فتغفر بها، وبالشفاعة، وبمجرد الفضل. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ... الخ» قال أحمد رحمه الله: عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور البتة، وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفر له. هذا مع عدم التوبة. وأما مع التوبة فكلاهما مغفور. والآية إنما وردت فيمن لم يتب، ولم يذكر فيها توبة كما ترى، فلذلك أطلق الله تعالى نفى مغفرة الشرك، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة كما ترى، فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة. وأما القدرية فإنهم يطلبون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر فى أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ولا يشاء الله أن يغفرهما إلا للتائبين. فإذا عرض الزمخشرى هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونبت عنه، إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك. وثابتة لما دونه مقرونة بالمشيئة. فأما أن يكون المراد =

قوله تعالى (لمن يشاء) كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أنّ المراد بالأول من لم يتب، وبالثانى من تاب. ونظيره قولك: إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله ﴿فقد افترى إثما﴾ أى ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

﴿الذين يزكون أنفسهم﴾ اليهود والنصارى، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وقيل: جاء رجال من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: لا. قالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم، ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار [1]. فنزلت. ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت: أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض» [2]؟ قلت: إنما قال ذلك حين قال له المنافقون: اعدل فى القسمة، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه. وشتان من شهد الله له بالتزكية، ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم ﴿بل الله يزكى من يشاء﴾ إعلام بأن تزكية الله هى التى يعتدّ بها، لا تزكية غيره لأنه هو العالم بمن هو أهل للتزكية. ومعنى يزكى من يشاء: يزكى المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾ أى الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم حق جزائهم. أو

ـــ فيهما من لم يتب، فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق المغفرة فى أحدهما بالمشيئة. وتعليقها بالآخر مطلقاً، إذ هما سيان فى استحالة المغفرة. وإما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال فى الشرك: إنه لا يغفر، والتائب من الشرك مغفور له، وعند ذلك أخذ الزمخشرى يقطع أحدهما عن الآخر، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة، ومع الكبائر التوبة، حتى تنزل الآية على وفق معتقده، فيحملها أمرين لا تحمل واحداً منهما: أحدهما: إضافة التوبة إلى المشيئة وهى غير مذكورة، ولا دليل عليها فيما ذكر. وأيضاً لو كانت مرادة لكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلا، ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم فى العقل، فكيف يليق السكوت عن ذكر ما هو العمدة والموجب وذكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الردىء. الثاني أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر. وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى، نعوذ بالله من ذلك. وأما القدرية فهم بهذا المعتقد يقع عليهم المثل السائر «السيد يعطى والعبد يمنع» لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة للمصر على الكبائر إن شاء، وهم يدفعون فى وجه هذا التصريح، ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح والصلاح، التى هى بالفساد أجدر وأحق.

(١) ذكره الثعلبى عن الكلبى قال: نزلت هذه الآية فى رجال من اليهود أتوا بأطفالهم ـ فذكره، وسنده إلى الكلبى فى أول الكتاب.

(٢) لم أجده.

من يشاء يثابون على زكاتهم ولا ينقص من ثوابهم . ونحوه (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) : ﴿ كيف يفترون على الله الكذب ﴾ في زعمهم أنهم عندالله أزكياء ﴿ وكفى ﴾ بزعمهم هذا ﴿ إثما مبيناً ﴾ من بين سائر آثامهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)

الجبت : الأصنام وكل ما عبد من دون الله : والطاغوت : الشيطان . وذلك أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أنتم أهل كتاب ، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا ، فلا نأمن مكركم ، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم ﴿ بالجبت والطاغوت ﴾ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا . وقال أبو سفيان : أنحن أهدى سبيلا أم محمد . فقال كعب : ماذا يقول محمد ؟ قالوا يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك . قال : وما دينكم ؟ قالوا : نحن ولاة البيت ، ونسقي الحاج ، ونقري الضيف ، ونفك العاني . وذكروا أفعالهم ، فقال : أنتم أهدى سبيلا .

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شر خصلتين : يمنعون ما أوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم فقال ﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ على أن أم منقطعة [1] ومعنى الهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ثم قال ﴿ فإذا لا يؤتون ﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم : والنقير : النقرة في ظهر النواة

(١) قوله «على أن أم منقطعة» أي تفسر ببل والهمزة . (ع)

وهو مثل فى القلة ، كالفتيل والقطمير . والمراد بالملك : إما ملك أهل الدنيا ، وإما ملك الله كقوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق)وهذاأوصف لهم بالشح ، وأحسن لطباقه نظيره من القرآن . ويجوز أن يكون معنى الهمزة فى أم : لإنكار أنهم قد أوتوا نصيباً من الملك ، وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصورمشيدة كما تكون أحوال الملوك . وأنهم لا يؤتون أحداً مما يملكون شيئا . وقرأ ابن مسعود : فاذاً لا يؤتوا ، على إعمال إذا عملها الذى هو النصب ، وهى ملغاة فى قراءة العامة ،كأنه قيل : فلايؤتون الناس نقيرا إذاً ﴿ أم يحسدون الناس ﴾ بل أيحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه . وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرةوالغلبةوازديادالعزّ والتقدم كل يوم ﴿ فقد آتينا ﴾ إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة ﴿ آل إبراهيم ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ماآتى أسلافه . وعن ابن عباس : الملك فى آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان . وقيل : استكثروا نساءه فقيل لهم : كيف استكثرتم له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلثمائة مهيرة وسبعمائة سرية ؟ ﴿ فمنهم ﴾ فمن اليهود ﴿ من آمن به ﴾ أى بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿ ومنهم من صدّ عنه ﴾ وأنكره مع علمه بصحته . أو من اليهود من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ،ومنهم من أنكر نبوّته . أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ، ومنهم من كفر ، كقوله (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)

﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ أبدلناهم إياها . فإن قلت : كيف تعذب مكان الجلود العاصية جلود لم تعص ؟ قلت : العذاب للجملة الحساسة ، وهى التى عصت لا للجلد . وعن فضيل : يجعل النضيج غير نضيج . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبدّل جلودهم كل يوم سبع مرّات » (١) وعن الحسن : سبعين مرّة يبدّلون جلوداً بيضاء كالقراطيس ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع ، كقولك للعزيز : أعزّك الله ، أى أدامك على عزّك وزادك فيه

(١) لم أجده . ولابن عدى والطبرانى عن ابن عمر : قرأ رجل عند عمر (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً) فقال معاذ : تبدل كل ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وفيه نافع ابن يوسف السلمى وأبو هرمز وهو ضعيف » وقال إسحاق بن راهويه فى مسنده : سئل فضيل بن عياض عن هذه الآية، فأخبرنا عن هشام عن الحسن قال : تبدل جلودهم كل يوم سبعين ألف مرة .

﴿ عزيزا ﴾ لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين ﴿ حكيما ﴾ لا يعذب إلا بعدل من يستحقه .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

﴿ ظليلا ﴾ صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه ، كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم ، وما أشبه ذلك . وهو ما كان فينانا لا جوب فيه ، ودائما لا تنسخه الشمس ، وسجسجاً [1] لا حر فيه ولا برد ، وليس ذلك إلا ظل الجنة . رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظل . وفى قراءة عبدالله : سيدخلهم بالياء ﴿ أن تؤدوا الأمانات ﴾ الخطاب عام لكل أحد فى كل أمانة . وقيل نزلت فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار وكان سادن الكعبة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه ، فلوى على ابن أبى طالب رضى الله عنه يده ، وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة . فنزلت ، فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان لعلى : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ فقال : لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا ، وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة فى أولاد عثمان أبداً . [2] وقيل هو خطاب للولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل . وقرئ : الأمانة ، على التوحيد ﴿ نعما يعظكم به ﴾ «ما» إما أن تكون منصوبة موصوفة بيعظكم به . وإما أن تكون مرفوعة موصولة به ، كأنه قيل : نعم شيئا يعظكم به . أو نعم الشيء الذى يعظكم به . والمخصوص بالمدح محذوف ، أى نعما يعظكم به ذاك ، وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل فى الحكم . وقرئ (نعما) بفتح النون .

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن

(١) قوله «فينانا» أى طويلا ممتداً . والجوب : الخرق والقطع . والسجسج : المتوسط . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) هكذا ذكره الثعلبى ثم البغوى بغير إسناد . وكذا ذكره الواحدى فى الوسيط والأسباب . وقال فيه ، مادام هذا البيت . فان المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان» .

تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل ، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم . والمراد بأولى الأمر منكم : أمراء الحق ؛ لأن ـ أمراء الجور ـ الله ورسوله بريئان منهم ، فلا يعطفون على الله ورسوله فى وجوب الطاعة لهم ، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهى عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان . وكان الخلفاء يقولون : أطيعونى ما عدلت فيكم ، فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم . وعن أبى حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له : ألستم أمرتم بطاعتنا فى قوله (وأولى الأمر منكم) قال : أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) وقيل : هم أمراء السرايا وعن النبى صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع أميرى فقد أطاعنى ومن يعص أميرى فقد عصانى »[1] وقيل : هم العلماء الدينون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر . (فإن تنازعتم فى شىء) فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم فى شىء من أمور الدين ، فردوه إلى الله ورسوله ، أى : ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة . وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شك ، وهو أن أمرهم أولا بأداء الأمانات وبالعدل فى الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل ، وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل ، ولا يردون شيئا إلى كتاب ولا إلى سنة ، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم ، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله ، وأحق أسمائهم : اللصوص المتغلبة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الرد إلى الكتاب والسنة ﴿خير﴾ لكم وأصلح ﴿وأحسن تأويلا﴾ وأحسن عاقبة . وقيل : أحسن تأويلا من تأويلكم أنتم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة . والبخارى من رواية الأعرج . ومسلم من رواية الأعرج وأبى سلمة كلاهما عنه .

وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

روى أن بشراً المنافق خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودى فلم يرض المنافق وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودى لعمر: قضى لنا رسول الله فلم يرض بقضائه. فقال للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت. وقال جبريل: إنّ عمر فرق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت الفاروق [١]. والطاغوت: كعب بن الأشرف، سماه الله «طاغوتا» لإفراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه. أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحاكم إليه تحاكما إلى الشيطان، بدليل قوله (وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم). وقرئ (بما أنزل ... وما أنزل) على البناء للفاعل. وقرأ عباس بن الفضل: أن يكفروا بها، ذهابا بالطاغوت إلى الجمع، كقوله (أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم) وقرأ الحسن (تعالوا) بضم اللام على أنه حذف اللام من تعاليت تخفيفاً [٢]، كما قالوا: ما باليت به بالة، وأصلها بالية كعافية. وكما قال الكسائى فى (آية) إن أصلها «آيية» فاعلة، فحذفت اللام، فلما حذفت وقعت واو الجمع بعد اللام من تعال فضمت، فصار (تعالوا)، نحو: تقدموا. ومنه قول أهل مكة: تعالى، بكسر اللام للمرأة. وفى شعر الحمدانى:

(١) ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبى عاصم عن ابن عباس فى هذه الآية: نزلت فى رجل من المنافقين يقال له: بشر. وإسناده إلى الكلبي فى خطبة كتابه. وذكره الواحدى أيضا. ولابن أبى حاتم وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبى الأسود «اختصم رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقضى بينهما. فقال الذى قضى عليه ردنا إلى عمر. فانطلقا إليه. فضرب عنق الذى قال: ردنا إلى عمر. فجاء الآخر فأخبره فقال: ما كنت أظن عمر يجترئ على قتل مؤمن. فأنزل الله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون ـ الآية) فأهدر دمه»

(٢) قوله «من تعاليت تخفيفاً» لعله عند إسناده إلى واو الجمع. فليحرر. (ع)

* تَعَالِي أُقَاسِمْكَ الْهُمُومَ تَعَالِي * (١)

والوجه فتح اللام ﴿ فكيف ﴾ يكون حالهم ، وكيف يصنعون ؟ يعنى أنهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرون أمراً ولا يوردونه ﴿ إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك فى الحكم ﴿ ثم جاؤك ﴾ حين يصابون فيعتذرون إليك ﴿ ويحلفون ﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿ إلا إحسانا ﴾ لاإساءة ﴿ وتوفيقا ﴾ بين الخصمين ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك ، ففرج عنا بدعائك وهذا وعيد لهم على فعالهم ، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم . ولا يغنى عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله . وقيل : جاء أولياء المنافق

(١)

أقول وقد ناحت بقربى حمامة	أيا جارتا هل بات حالك حالى
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى	وما خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا	تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحا لدى ضعيفة	تردد فى جسم يعذب بالى
أيضحك مأسور وتبكى طليقة	ويسكت محزون ويندب سالى
لقد كنت أولى منك بالدمع والبكا	ولكن دمعى فى الشدائد غالى

للهمدانى بالهاء . وبعضهم يرويه بالحاء ، وكان أسيرا . وبات : أى صار حالك كحالى فى الضيق والحزن ، والاستفهام إنكارى . ويروى بدله « هل تعلمين بحالى » ونسبة العلم إليها لتنزيلها منزلة العاقل كما فى ندائها . وقال « معاذ الهوى » كما يقال « معاذ الله » لعظمة الهوى عنده ، وهو مصدر نائب عن فعله ، أى ألتجىء إلى الهوى ، من دعوى أنك مثلى ، « ما ذقت » يا حمامة « طارقة » الفراق وشبهها بمطعوم مكروه والذوق تخييل . « وما خطرت الهموم ببال » أى بقلب منك . وأيا : حرف نداء . و « جارتا » أصله جارتى ، فقلبت الياء ألفاً لرفع الصوت . وتكرير النداء فيه معنى التحسر . وادعاء بلادتها بعد تنزيلها منزلة العاقل بعيد «ما أنصف الدهر بيننا» حيث أطلقك وأسرك وأسرنى وأحزننى . والقياس فى تعالى ـ أمر للمؤنثة ، وفى تعاليا للمثنى ، وفى تعالوا لجمع الذكور ـ فتح اللام على أصلها لأنها عين الفعل ، والضمير تال للامه المقدرة ، وأهل مكة يكسرون الأولى لمناسبة الياء ، ويضمون الثانية لمناسبة الواو تنزيلا لها منزلة لام الفعل . ومنه قوله « أقاسمك الهموم » فلى النصف ولك الآخر . فان قيل : إن قائل هذا الشعر مولد فلا يستشهد بكلامه . قلت : أجيب بأن إيراده من قبيل الاستئناس لا من قبيل الاستدلال . ومذهب الزمخشرى أن « هات » بالكسر بمعنى ناولنى ، و « تعالى » بالفتح دائما على اللغة المشهورة بمعنى أقبل إلى ، كلاهما اسم فعل لا فعل أمر ، ولعله لعدم تصرفها فى هذين المعنيين . وأغرب منه ما نقله السيوطى عن بعضهم : أن أدوات النداء أسماء أفعال متحملة لضمير المتكلم بمعنى أدعو . وقوله « ترى » بفتح الراء على اللغة الأولى ، وبكسرها على الثانية . وتكرير الأمر كتكرير النداء . ومعنى ضعف الروح : عجز حواسها عن الادراك . و « تردد » أصله : تتردد « بالى » أى نحيل . وقوله « أيضحك » استفهام تعجبى بالنسبة للجملة الأولى ، وتوبيخى بالنسبة للثانية ، وكذلك المصراع الثانى . ويجوز أنه تعجبى فى الجميع ، أو توبيخى فى الجميع وهو أبعدها ، ويعنى بالمأسور والمحزون نفسه . وبالطليقة والسالى الحمامة . ويجوز أنه أراد العموم ويدخلان فيه دخولا أوليا . و « المأسور » المحبوس وحزنه : لغة قريش . وأحزنه : لغة تميم . ومحزون من الأول . والندبة : رفع الصوت بالبكاء ، والمراد به النوح السابق . والسالى : الصابر وقليل الهموم . والدمع : ماء العين ونزوله منها . والمراد الثانى . وروى « بالدمع مقلة » فمقلة تمييز . والأصل : لقد كانت مقلتى أولى من مقلتك بالدمع . و « غالى » مرتفع وممتنع لتجلد الشامتين .

يطلبون بدمه وقد أهدره الله فقالوا : ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه ، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به ﴿ فأعرض عنهم ﴾ لا تعاقبهم لمصلحة فى استبقائهم ، ولا تزد على كفهم بالموعظة والنصيحة عما هم عليه ﴿ وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً ﴾ بالغ فى وعظهم بالتخفيف والإنذار . فإن قلت : بم تعلق قوله (فى أنفسهم[1]) ؟ قلت : بقوله (بليغاً) أى : قل لهم قولا بليغاً فى أنفسهم مؤثرا فى قلوبهم يغتمون به اغتماما ، ويستشعرون منه الخوف استشعاراً ، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرنه ، وأخبرهم أن ما فى نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله ، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين ، وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره ، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف . أو يتعلق بقوله (قل لهم) أى قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا ، وأنّ الله يعلم ما فى قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغنى عنكم إبطانه . فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق ، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه ، وشراً من ذلك وأغلظ . أو قل لهم فى أنفسهم ـ خاليا بهم ، ليس معهم غيرهم ، مسارّا لهم بالنصيحة ، لأنها فى السر أنجع ، وفى الإمحاض أدخل ـ قولا بليغا يبلغ منهم ويؤثر فيهم .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيماً ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴿٦٥﴾

---

(١) قال محمود « إن قلت : بم تعلق قوله فى أنفسهم ... الخ » ؟ قال أحمد : ولكل من هذه التأويلات شاهد على الصحة . أما الأول فلأن حاصله أمره بتهديدهم على وجه مبلغ صميم قلوبهم وسياق التهديد فى قوله (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك) يشهد له ، فانه أخبر بما يقع لهم على سبيل التهديد . وأما الثانى فيلائمه من السياق قوله (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) يعنى ما انطوت عليه من الخبث والمكر والحيل . ثم أمره بوعظهم والاعراض عن جرائمهم ؛ حتى لا تكون مؤاخذتهم بها مانعة من نصحهم ووعظهم ، ثم جاء قوله (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) كالشرح للوعظ ، ولذكر أهم ما يعظهم فيه ، وتلك نفوسهم التى علم الله ما انطوت عليه من المذام ، وعلى هذا يكون المراد الوعظ وما يتعلق به . وأما الثالث : فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام فى كتم عناد المنافقين ، والتجافى عن إفصاحهم والستر عليهم ، حتى عد حذيفة رضى الله عنه صاحب سره عليه الصلاة والسلام ، لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم ، وتسميتهم له بأسمائهم ، وأخباره فى هذا المعنى كثيرة

﴿ وما أرسلنا من رسول ﴾ وما أرسلنا رسولا قط ﴿ إلا ليطاع بإذن الله ﴾ بسبب إذن الله فى طاعته ، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه ، لأنه مؤدّ عن الله ، فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله ﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه فى طاعته ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿ جاؤك ﴾ تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا ﴿ فاستغفروا الله ﴾ من ذلك بالإخلاص ، وبالغوا فى الاعتذار إليك من إيذائك برد قضائك ، حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفراً ﴿ لوجدوا الله توابا ﴾ لعلموه توابا ، أى لتاب عليهم . ولم يقل : واستغفرت لهم ، وعدل عنه[1] إلى طريقة الالتفات ، تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان ﴿ فلا وربك ﴾ معناه فوربك ،[2] كقوله تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم ﴾ و«لا» مزيدة

---

(١) قال محمود : وإنما لم يقل واستغفرت لهم لأنه عدل به ...الخ ، قال أحمد : وفى هذا النوع من الالتفات خصوصية ، وهى اشتماله على ذكر صفة مناسبة لما أضيف إليه ، وذلك زائد على الالتفات بذكر الأعلام الجامدة ، والله الموفق .

(٢) قال محمود «ومعناه فوربك و«لا» مزيدة لتأكيد ... الخ ، قال أحمد : يشير إلى أن (لا) لما زيدت مع القسم وإن لم يكن المقسم به ، دل ذلك على أنها إنما تدخل فيه لتأكيد القسم ، فاذا دخلت حيث يكون المقسم عليه نفياً ، تعين جعلها لتأكيد القسم ، طردا للباب . والظاهر عندى والله أعلم : أنها هنا لتوطئة النفى المقسم عليه ، والزمخشرى لم يذكر مانعا من ذلك ، وحاصل ماذكره مجيئها لغير هذا المعنى فى الاثبات ؛ وذلك لايأبى مجيئها فى النفى على الوجه الآخر من التوطئة ، على أن فى دخولها على القسم المثبت نظراً ، وذلك أنها لم ترد فى الكتاب العزيز إلا مع القسم ، حيث يكون بالفعل ، مثل (لاأقسم بهذا البلد) ، (لاأقسم بيوم القيامة) ، (فلاأقسم بالخنس) ، (فلا أقسم بمواقع النجوم) (فلاأقسم بما تبصرون ومالاتبصرون) ولم تدخل أيضا إلا على القسم بغير الله تعالى ، ولذلك سر يأبى كونها فى آية النساء لتأكيد القسم . ويعين كونها للتوطئة ، وذلك أن المراد بها فى جميع الآيات التى عددناها ، تأكيد تعظيم المقسم به ، إذ لايقسم بالشىء إلا إعظاما له فكأنه بدخولها يقول : إن إعظامى لهذه الأشياء بالقسم بها كلا إعظام ، يعنى أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك ، وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعا لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم وللاقسام بها ، فيزاح هذا الوهم بالتأكيد فى إبراز فعل القسم مؤكداً بالنفى المذكور . وقد قرر الزمخشرى هذا المعنى فى دخول (لا) عند قوله (لاأقسم بيوم القيامة) على وجه يجمل هذا بسطه وإيضاحه ، فاذا بين ذلك ، فهذا الوهم الذى يراد إزاحته فى القسم بغير الله مندفع فى الاقسام بالله ، فلا يحتاج إلى دخول (لا) مؤكدة للقسم فيتعين حملها على الموطئة ، ولاتكاد تجدها فى غير الكتاب العزيز داخلة على قسم مثبت . وأما دخولها فى القسم وجوابه نفى فكثير مثل :

فلا وأبيك ابنة العامرى ... لايدعى القــوم أنى أفر

وكقوله : ألا نادت أمامة باحتمال ... لتحزننى فلا بك ما أبالى

وقوله : رأى برقا فأوضع فوق بكر ... فلا بك ما أسال ولا أقاما

وقوله : تخالف فلا والله تهبط تلعة ... من الأرض إلا أنت للذل عارف

وهو أكثر من أن يحصى فتأمل هذا الفصل فانه حقيق بالتأمل .

لتأكيد معنى القسم، كما زيدت فى (لئلا يعلم) لتأكيد وجود العلم. و ﴿لايؤمنون﴾ جواب القسم فإن قلت: هلا زعمت أنها زيدت لتظاهر (لا) فى (لايؤمنون)؟ قلت: يأبى ذلك استواء النفى والإثبات فيه، وذلك قوله (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم) ﴿فيما شجر بينهم﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿حرجا﴾ ضيقاً، أى لاتضيق صدورهم من حكمك، وقيل: شكا، لأنّ الشاك فى ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين ﴿ويسلموا﴾ وينقادوا ويذعنوا لما تأتى به من قضائك، لايعارضوه بشىء، من قولك: سلم الأمر لله وأسلم له، وحقيقة سلم نفسه وأسلمها، إذا جعلها سالمة له خالصة. و ﴿تسليما﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره. كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لاشبهة فيه، بظاهرهم وباطنهم. قيل: نزلت فى شأن المنافق واليهودى. وقيل: فى شأن الزبير وحاطب بن أبى بلتعة؛ وذلك أنهما اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة. كانا يسقيان بها النخل، فقال «اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك»[1] فغضب حاطب وقال: لأن كان ابن عمتك؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك، ثم أرسله إلى جارك» كان قد أشار على الزبير برأى فيه السعة له ولخصمه؛ فلما أحفظ[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم، استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم، ثم خرجا فمرا على المقداد، فقال: لمن كان القضاء؟ فقال الأنصارى: قضى لابن عمته، ولوى شدقه. ففطن يهودى كان مع المقداد فقال: قاتل الله هؤلاء، يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم، وايم الله، لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى، فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم، ففعلنا، فبلغ قتلانا

---

(١) قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا سعيد بن عبدالعزيز عن الزهرى عن سعيد بن المسيب ـ قوله تعالى (فلا وربك لايؤمنون ـ الآية) قال: نزلت فى الزبير بن العوام، وحاطب بن أبى بلتعة: اختصما فى ماء فقضى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقى الأعلى ثم الأسفل، وأصله فى الصحيحين أتم من هذا من غير تسمية حاطب. أخرجاه من طريق الزهرى عن عروة قال «اختصم الزبير ورجل من الأنصار فى شراج الحرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصارى: يارسول الله، إن كان ابن عمتك؟ فتلون وجهه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك واستوعب الزبير حقه فى صريح الحكم. قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت فى ذلك (فلا وربك لايؤمنون الآية) وروى أنهما لما خرجا مرا على المقداد: فقال قاتل الله هؤلاء، يشهدون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتهمونه على قضاء يقضى بينهم، وايم الله لقد أذنبنا مرة فى حياة موسى عليه السلام فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم، ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إن الله يعلم منى الصدق، لو أمرنى أن أقتل نفسى لقتلتها» ذكره الثعلبى فى تفسيره بغير سند عن الصالحى، وإسناده إليه أول الكتاب.

(٢) قوله «فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم» أى أغضب، أفاده الصحاح. (ع)

سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضىعنا . فقال ثابت بن قيس بن شماس : أما والله إنّ الله ليعلم منى الصدق ، لو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لقتلتها . وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده إنّ من أمتى رجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » . [1] وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : والله لو أمرنا ربنا لفعلنا ، والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك ، فنزلت الآية فى شأن حاطب ، ونزلت فى شأن هؤلاء .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَـٰرِكُمْ مَافَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَايُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَـٰهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ﴿٦٨﴾

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ أى لو أوجبنا عليهم مثل ماأوجبنا على بنى اسرائيل من قتلهم أنفسهم ، أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿مافعلوه إلا﴾ ناس ﴿قليل منهم﴾ وهذا توبيخ عظيم . والرفع على البدل من الواو فى (فعلوه) . وقرئ : إلا قليلا ، بالنصب على أصل الاستثناء ، أو على إلا فعلا قليلا ﴿ مايوعظون به ﴾ من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته . والانقياد لما يراه ويحكم به ، لأنه الصادق المصدوق الذى لاينطق عن الهوى ﴿لكان خيراً لهم﴾ فى عاجلهم وآجلهم ﴿وأشد تثبيتاً﴾ لإيمانهم وأبعد من الاضطراب فيه ﴿وإذاً﴾ جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل وماذا يكون لهم أيضاً بعد التثبيت ، فقيل : وإذاً لو ثبتوا ﴿لآتيناهم﴾ لأن إذاً جواب وجزاء ﴿من لدنا أجراً عظيما﴾ كقوله (ويؤت من لدنه أجرا عظيما) فى أنّ المراد العطاء المتفضل به من عنده وتسميته أجراً ، لأنه تابع للأجر لايثبت إلا بثباته (ولهديناهم) وللطفنا بهم ووفقناهم لازدياد الخيرات .

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴿٧٠﴾

الصديقون : أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدموا فى تصديقهم كأبى بكر الصديق رضى الله

(١) لم أجده هكذا ، وإنما ذكره الثعلبي عن الحسن ومقاتل قالا : لما نزلت هذه الآية قال عمر ، وعمار وابن مسعود « والله لو أمرنا الله لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا » فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال . فذكره

عنه وصدقوا فى أقولهم وأفعالهم . وهذا ترغيب للمؤمنين فى الطاعة ، حيث وعدوا مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾ فيه معنى التعجب كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقا ولاستقلاله بمعنى التعجب . قرئ : وحسن، بسكون السين. يقول المتعجب: حسن الوجه وجهك ! وحسن الوجه وجهك ! بالفتح والضم مع التسكين . والرفيق : كالصديق والخليط فى استواء الواحد والجمع فيه ، ويجوز أن يكون مفرداً ، بين به الجنس فى باب التمييز . وروى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه ، فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله ، فقال : يارسول الله ، مابى من وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، فذكرت الآخرة ، فخفت أن لا أراك هناك ، لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا ، فنزلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين .[1] » وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و﴿ الفضل ﴾ صفته و﴿ من الله ﴾ الخبر ، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ ، والفضل من الله خبره ، والمعنى : أن ما أعطى المطيعون من الأجر[2] العظيم

(١) ذكره الثعلبي بغير سند ، ونقله الواحدى فى الأسباب عن الكلبي لكن لم يقل فى آخره « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده إلى آخره » حكى ذلك عن جماعة من الصحابة قال سعيد بن جبير : حدثنا خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أنت أحب إلى من نفسى وولدى وأهلى ومالى ، ولولا أنى أتيتك فأراك لكنت ، أى سأموت وبكى الأنصارى . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت أنك ستموت مع النبيين عليهم الصلاة والسلام ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (ومن يطع الله ـ الآية) فقال له : أبشر » ومن طريقه أخرجه البيهقى فى الشعب ووصله الطبرانى وعنه ابن مردويه ، ومن طريق خالد بن عبد الرحمن عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباس نحوه ، ورواه الطبرى من طريق يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير نحوه مرسلا ، ورواه الطبرانى فى الصغير والواحدى موصولا من طريق عبد الله بن عمران العابدى عن فضيل بن عياض عن منصور بن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضى الله عنها قالت « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلى من نفسى ـ الحديث بنحوه ، وأخرجه الواحدى من طريق أخرى عن مسروق قال قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ـ فذكره مختصراً ومن طريق روح عن قتادة كذلك مرسلا .

(٢) قال محمود : « والمعنى أن ما أعطى المطيعون من الأجر . . . الخ » قال أحمد : عقيدة أهل السنة : أن المطيع لا يستحق على الله بطاعته شيئا ، وأنه مهما أثيب به من دخول الجنة والنجاة من النار ، فذاك فضل من الله لا عن استحقاق ثابت ، فهم يقرون هذه الآية فى رجائها ، وأما القدرية : فيزعمون أن المطيع يستوجب على الله ثواب الطاعة ، وأن المقابل لطاعته من الثواب أجر مستحق كالأجرة على العمل فى الشاهد ، ليس بفضل ، وإنما الفضل ما يزاده العبد على حقه من أنواع الثواب وصنوف الكرامة ، فلما وردت هذه الآية ناطقة بأن جملة ما يناله =

ومرافقة المنعم عليهم من الله لأنه تفضل به عليهم تبعاً لثوابهم ﴿وكفى بالله عليما﴾ بجزاء من أطاعه أو أراد أنّ فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله، لأنهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه وكفى بالله عليما بعباده فهو يوفقهم على حسب أحوالهم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾

﴿خذوا حذركم﴾ الحذر والحذر بمعنى، كالإثر والأثر، يقال: أخذ حذره، إذا تيقظ واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم ﴿فانفروا﴾ إذا نفرتم إلى العدو. إما ﴿ثبات﴾ جماعات متفرقة سرية بعد سرية، وإما ﴿جميعا﴾ أي مجتمعين كوكبة واحدة، ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. وقرئ: فانفروا بضم الفاء

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

اللام في (لمن) للابتداء بمنزلتها في قوله (إن الله لغفور) وفي ﴿ليبطئن﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإنّ منكم لمن أقسم بالله ليبطئن، والقسم وجوابه صلة من، والضمير الراجع منها إليه ما استكن في (ليبطئنّ) والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمبطئون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقا. ومعنى (ليبطئن) ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد وبطأ. بمعنى: أبطأ كعتم بمعنى: أعتم [1]، إذا أبطأ، وقرئ (ليبطئن) بالتخفيف يقال: بطأ عليّ فلان وأبطأ عليّ وبطؤ

═══ عباد الله فضل من الله، اضطر الزمخشري إلى ردها إلى معتقده، فجعل الفضل المشار إليه هو الزيادة التابعة للثواب، يعني المستحق، ثم اتسع في التأويل فذكر وجها آخر وهو: أن يكون المشار إليه، مزايا هؤلاء المطيعين في طاعتهم وتميزهم بأعمالهم، وجعل معنى كونها فضلا من الله أنه وفقهم لاكتسابها ومكنهم من ذلك لا غير، يعني وأما إحداثها فبقدرهم. وهذا من الطراز الأول، والحق أن الكل أيضا فضل من الله بكل اعتبار، لأن معتقدنا معاشر أهل السنة أن الطاعات والأعمال التي يتميز بها هؤلاء الخواص خلق الله تعالى وفعله، وأن قدرهم لا تأثير لها في أعمالهم، بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات ويثيبهم عليها، فالطاعة إذاً من فضله وثوابها من فضله، فله الفضل على كل حال والمنة في الفاتحة والمآل، وكفى بقول سيد البشر في ذلك حجة وقدوة، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته» قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. اللهم اختم لنا باقتفاء السنة، وأدخلنا بفضلك المحض الجنة»

(١) قوله «كعتم بمعنى أعتم» في الصحاح «العتم: الابطاء». (ع)

نحو : ثقل ، ويقال : ما بطأ بك ، فيعدى بالباء ، ويجوز أن يكون منقولا من بطؤ ، نحو ؟ ثقل من ثقل ، فيراد ليبطئن غيره و ليثبطنه عن الغزو ، وكان هذا ديدن المنافق عبد الله ابن أبيّ ، وهو الذى ثبط الناس يوم أحد ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ من قتل أو هزيمة [1] ﴿ فضل من الله ﴾ من فتح أو غنيمة ﴿ ليقولنّ ﴾ وقرأ الحسن ﴿ ليقولن ﴾ بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى (من) لأن قوله (لمن ليبطئن) فى معنى الجماعة وقوله ﴿ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة ﴾ اعتراض بين الفعل الذى هو (ليقولن) وبين مفعوله وهو ﴿ ياليتنى ﴾ والمعنى كأن لم تتقدم له معكم موادّة ، لأن المنافقين كانوا يوادّون المؤمنين ويصادقونهم فى الظاهر ، وإن كانوا يبغون لهم الغوائل فى الباطن . والظاهر أنه تهكم . لأنهم كانوا أعدى عدوّ للمؤمنين وأشدهم حسداً لهم ، فكيف يوصفون بالمودّة إلا على وجه العكس تهكما بحالهم . وقرئ : فأفوز بالرفع عطفاً على كنت معهم لينتظم الكون معهم ، والفوز معنى التمنى ، فيكونا متمنيين جميعاً ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى فأنا أفوز فى ذلك الوقت

فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

﴿ يشرون ﴾ بمعنى يشترون ويبيعون قال ابن مفرغ :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ [2]

---

(١) قال محمود فيه : « المراد بالمصيبة القتل والهزيمة ... الخ » قال أحمد : وفى هذه القراءة نكتة غريبة ، وهى الاعادة إلى لفظ من بعد الاعادة إلى معناها ، وهو مستغرب أنكر بعضهم وجوده فى الكتاب العزيز لما يلزم من الاجمال بعد البيان ، وهو خلاف قانون البلاغة ، إذ الاعادة إلى لفظها ليس بمفصح عن معناها ، بل تناوله للمعنى مجمل مبهم ، فوقوعه بعد البيان عسر ، ومنهم من أثبته وعد موضعين ، وهذه الآية على هذه القراءة ثالث ، وسيأتى بيان شاف إن شاء الله تعالى

(٢) وشربت بردا ليتنى ... من بعد برد كنت هامه
يا هامة تدعو صدى ... بين المشرق فاليمامه

=

فالذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة هم المبطئون ، وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله ، ويجاهدوا فى سبيل الله حق الجهاد ، والذين يبيعون هم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بها ، والمعنى: إن صدّ الذين مرضت قلوبهم وضعفت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون ووعد المقاتل فى سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده فى إعزاز دين الله ﴿ والمستضعفين ﴾ فيه وجهان أن يكون مجروراً عطفا على سبيل الله أى فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، ومنصوبا[1] على الاختصاص يعنى واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين لأنّ سبيل الله عام فى كل خير ، وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصه والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد ، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة ، وبقى بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر ، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا ، قال ابن عباس : كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة . فإن قلت : لم ذكر الولدان ؟ قلت : تسجيلا بإفراط ظلمهم ، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين ، إرغاما لآبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكانهم ، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم فى دعائهم استنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا ، كما فعل قوم يونس وكما وردت السنة بإخراجهم فى الاستسقاء ، وعن ابن عباس: كنت أنا وأمى من المستضعفين من النساء والولدان ، ويجوز أن يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرائر ، وبالولدان العبيد والإماء ، لأنّ العبد والأمة يقال لهما الوليد والوليدة، وقيل للولدان

ـــ لابن مفرغ . باع غلامه بردا عند انصرافه من سجستان إلى البصرة ، فندم على ذلك ودعا على نفسه بالقتل . ويقال : اشتراه إذا أخذه ودفع ثمنه . وشراه إذا دفعه وأخذ ثمنه . وكانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير هامة ، أى بومة تزقو وتصيح : أدركونى ، أدركونى حتى يؤخذ بثأره . والصدى: ذكر البوم . والمشرق ـ كمعظم ـ واليمامة : موضعان بعينهما بينهما مفازة . فقوله « كنت هامه » كناية عن أن يكون قتيلا . ويا للتنبيه أو للنداء . والمنادى محذوف وهامة بيان أو بدل من هامة الأولى ، وغايرتها بانضمام الصفة إليها وهي قوله « تدعو صدى » أى تصيح على ذكرها . وهذا من المبالغة فى الاشارة واللطف فى العبارة ، حيث ضرب عن جانب المعنى المراد صفحا ، حتى كأنه يتكلم فى هامة حقيقية تزقو على ذكرها ، بل أنها هامة تطير وتصيح مع الهامات فى المفاوز ، وبعد هذا فالكلام مجاز عن شدة تحسره وتحزنه وندمه على ما فعل .

(١) قال محمود : « يجوز أن يكون المستضعفين مجروراً ـ إلى قوله ـ ومنصوبا ... الخ » قال أحمد : وفيه على هذا مبالغة فى الحث على خلاصهم من جهتين : إحداهما ـ التخصيص بعد التعميم فانه يقتضى إضمار الناصب الذى هو اختص ، ولولا النصب لكان التخصيص معلوما من إفراده بالذكر ، ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم بأن أخرجه إلى النطق .

والولائد «الولدان» لتغليب الذكور على الإناث كما يقال الآباء والإخوة . فإن قلت : لم ذكر الظالم وموضوفه مؤنث [١] ؟ قلت : هو وصف للقرية إلا أنه مسند إلى أهلها . فأعطى إعراب القرية لأنه صفتها، وذكر لإسناده إلى الأهل كما تقول من هذه القرية التي ظلم أهلها ، ولو أنث فقيل : الظالمة أهلها ، لجاز لا لتأنيث الموصوف ، ولكن لأن الأهل يذكر ويؤنث . فإن قلت : هل يجوز من هذه القرية الظالمين أهلها ؟ قلت : نعم ، كما تقول : التي ظلموا أهلها ، على لغة من يقول أكلوني البراغيث . ومنه (وأسروا النجوى الذين ظلموا) . رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله . فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا ولى لهم إلا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

(كفوا أيديكم) أي كفوها عن القتال وذلك أن المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة ، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ بالمدينة كع فريق منهم [٢] لا شكا في الدين ولا رغبة عنه ، ولكن نفوراً عن الإخطار بالأرواح وخوفا من الموت ﴿كخشية الله﴾ من إضافة المصدر [٣] إلى المفعول ، فإن قلت : ما محل (كخشية الله)

---

(١) قال محمود : «إن قلت لم ذكر الظالم وموصوفه مؤنث ... الخ» ؟ قال أحمد : ووقفت على نكتة في هذه الآية حسنة ، وهي أن كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز كقوله (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة) إلى قوله (فكفرت بأنعم الله) وقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) وأما هذه القرية في سورة النساء فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة ، لأن المراد بها مكة فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها شرفها الله تعالى .

(٢) قوله «كع فريق منهم» أي جبن . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : «قوله تعالى (كخشية الله) من إضافة المصدر ... الخ» قال أحمد : وقدم نظير هذه الآية في الاعراب وهو قوله تعالى (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) وقد قرأ الزمخشري ثم ما أذعن له هنا وهو الجر عطفا على الذكر ، وبينا ثم جوازه بالتأويل الذي ذكره الزمخشري ههنا ، وهو إلحاقه بباب جد جده ، وأصل هذا الاعراب لأبي الفتح ، وقد بينت جواز الجر عطفا على الذكر من غير احتياج إلى التأويل المذكور ، وأجرى مثله ههنا وهو وجه حسن استنبطته من كتاب سيبويه ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمني ، والله الموفق . الذي

من الإعراب ؟ قلت : محله النصب على الحال من الضمير (فى يخشون) أى يخشون الناس مثل أهل خشية الله ، أى مشبهين لأهل خشية الله ﴿ أوأشد خشية ﴾ بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله ، وأشد معطوف على الحال . فإن قلت : لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر ولم تقدر يخشون خشية مثل خشية الله ، بمعنى مثل ما يخشى الله ؟ قلت : أبى ذلك قوله (أو أشد خشية) لأنه وما عطف عليه فى حكم واحد ، ولو قلت يخشون الناس أشد خشية ؟ لم يكن إلا حالا عن ضمير الفريق ولم ينتصب انتصاب المصدر ، لأنك لا تقول خشى فلان أشد خشية ، فتنصب خشية وأنت تريد المصدر ، إنما تقول أشد خشية فتجرها ، وإذا نصبتها لم يكن أشد خشية إلا عبارة عن الفاعل حالا منه ، اللهم إلا أن تجعل الخشية خاشية وذات خشية ، على قولهم جد جده فتزعم أن معناه يخشون الناس خشية مثل خشية الله ، أو خشية أشد خشية من خشية الله ، ويجوز على هذا أن يكون محل (أشد) مجروراً عطفاً على (خشية الله) تريد كخشية الله أو كخشية أشد خشية منها ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ استزادة فى مدة الكف ، واستمهال إلى وقت آخر ، كقوله (لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق) . ﴿ ولا تظلمون فتيلا ﴾ ولا تنقصون أدنى شىء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترغبوا عنه ، وقرئ : ولا يظلمون ، بالياء .

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

ـــــ

= ذكر سيبويه جواز قول القائل ـ زيد أشجع الناس رجلا ـ ثم قال سيبويه فرجل واقع على المبتدأ ولك أن تجره فتقول ـ زيد أشجع رجل ـ وهو الأصل انتهي المقصود من كلام سيبويه . وإذا بنيت عليه جاز أن تقول خشى فلان أشد خشية ، فتنصب الخشية وأنت تريد المصدر ، كأنك قلت خشى فلان خشية أشد خشية ، فتوقع خشية الثانية على الأولى ، وإن نصبتها فهو كما قلت : زيد أشجع رجلا ، فأوقعت رجلا على زيد وإن كنت نصبته فهو على الأصل أن تقول أشد خشية فتجرها ، كما كان الأصل أن تقول زيد أشجع رجل فتجره ، ومامنع الزمخشرى من النصب مع وقوعه على المصدر إلا أن مقتضى النصب فى مثله خروج المنصوب عن الأول ، بخلاف المجرور ، ألاتراك تقول زيد أكرم أبا ، فيكون زيد من الأبناء وأنت تفضل أباه ، وتقول زيد أكرم أب ، فيكون من الآباء وأنت تفضله ، فلو ذهبت توقع أشد على الخشية الأولى وقد نصبت مميزها ، لزم خروج الثانى عن الأول وهو محال ، إذ لاتكون الخشية خشية فتحتاج إلى التأويل المذكور ، وهو جعل الخشية الأولى خاشية حتى تخرجها عن المصدر المميز لها ، وقد بينا فى كلام سيبويه جواز النصب مع وقوع الثانى على الأول ، كما لو جررت ، فلذلك يجوز فى الآية من غير تأويل والله أعلم . وقد مضت وجوه من الاعراب فى آية البقرة يتعذر بعضها هنا لمنافرة المعنى والله الموفق . ومثل هذه الأنواع من الاعراب منزل من العربية منزلة اللب الخالص ، فلا يوصل إليها إلا بعد تجاوز جملة القشور ، وربك الفتاح العليم .

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

قرئ (يدركـكم) بالرفع وقيل : هو على حذف الفاء ، [1] كأنه قيل : فيدركـكم الموت ، وشبه بقول القائل

* مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا * [2]

ويجوز أن يقال : حمل على ما يقع موقع (أينما تكونوا) ، وهو أينما كنتم ، كما حمل « ولا ناعب » على ما يقع موقع « ليسوا مصلحين » [3] وهو ليسوا بمصلحين ، فرفع كما رفع زهير :

* يَقُولُ لَاغَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ * [4]

---

(١) قال محمود : « قرئ » يدركـكم بالرفع . وقيل : هو على حذف الفاء ... الخ » قال أحمد : أما الوجه الذى ألحقه بتوجيه سيبويه فى الشعرين المذكورين ففيه نظر . أما قوله « ولا ناعب » فمختار ، فان دخول الباء فى خبر ليس أمر مطرد غالب ، والخبر وطن معروف لها ، فاذا قدرت فيه حيث تسقط ، روعى هذا التقدير فى المعطوف ، لما ذكرناه من الغلبة التى تقتضى إلحاق دخولها بالأصل الواجب الذى يعتبر ، نطق به أو سكت عنه . وأما تقدير (أينما تكونوا) فى معنى كلام آخر ، يرتفع معه قوله (يدركـكم) ، فذلك تقدير لم يعهد له نظير ، ولم يغلب هذا المقدر فيلتحق بغلبة دخول الباء فى الخبر ، فلا يلزم من مراعاة ما يقتضيه غالب الاستعمال ومعهوده مراعاة ما لم يسبق به عهد . وأما البيت الآخر لزهير ، فالمنقول عن سيبويه حمله أو حمل مثله على التقديم والتأخير ، كقوله :

يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع

فليس من قبيل « ولا ناعب » والله الموفق . وفى الوجه الأخير الذى أبداه الزمخشرى حجة واضحة على أن القتل فى المعارك والملاحم لا يعترض على الأجل المقدر بنقص ، وأن كل مقتول فبأجله مات ، لا كما يزعمه القدرية ، والله الموفق .

(٢) من يفعل الحسنات الله يشكرها الشر بالشر عند الله مثلان
فإنما هذه الدنيا وزينتها كالزاد لابد يوما أنه فان

لعبد الرحمن بن حسان . وقيل : لعبد الله بن حسان . وقيل : لكعب بن مالك الأنصارى . يقول : من يفعل الحسنات فالله يشكرها ، أى يجازيه عليها أضعافا ، فأسقط الفاء من جواب الشرط وهو قليل . وقيل : مخصوص بالشعر . وعن المبرد منعه مطلقا ، وزعم أن الرواية « من يفعل الخير فالرحمن يشكره » والشر ملتبس بالشر أو حاصل به ، ثم قال : هما متماثلان عند الله لا يزيد الجزاء على الذنب . أو الباء بمعنى مع ، أى الشر مع الشر مثلان عند الله ، لكن الأول الذنب ، والثانى جزاؤه . وسمى شرا مشاكلة . وروى « سيان » بدل « مثلان » فان زينة الدنيا من المال والبنون ليست إلا مثل الزاد الذى يتزود به إلى بلوغ المعاد . ولابد من فنائه يوما من الأيام ، فلا بد من فنائها . فيوما : ظرف لفان .

(٣) قوله « كما حمل « ولا ناعب » على ما يقع موقع « ليسوا مصلحين » هو من قول الشاعر :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها (ع)

(٤) هو الجواد الذى يعطيك نائله عفوا ويظلم أحيانا فيظلم
وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لاغائب مالى ولا حرم

وهو قول نحوى سيبوى . ويجوز أن يتصل بقوله (ولا تظلمون فتيلا) أى ولا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم . أينما تكونوا فى ملاحم حروب أو غيرها ، ثم ابتدأ قوله (يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) والوقف على هذا الوجه على أينما تكونوا

والبروج : الحصون . مشيدة مرفعة . وقرئ (مشيدة) من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص . وقرأ نعيم بن ميسرة (مشيدة) بكسر الياء وصفا لها بفعل فاعلها مجازاً كما قالوا : قصيدة شاعرة ، وإنما الشاعر فارضها . السيئة تقع على البلية والمعصية . والحسنة على النعمة والطاعة . قال الله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقال : (إن الحسنات يذهبن السيآت) . والمعنى : وإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوها إلى الله ، وإن تصبهم بلية من قحط وشدة أضافوها إليك وقالوا : هى من عندك ، وما كانت إلا بشؤمك ، كما حكى الله عن قوم موسى : (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وعن قوم صالح : (قالوا اطيرنا بك وبمن معك) وروى عن اليهود ـ لعنت ـ أنها تشاءمت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : منذ دخل المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها ، فرد الله عليهم ﴿قل كل من عند الله﴾ يبسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح ﴿لا يكادون يفقهون حديثا﴾ فيعلموا أن الله هو الباسط القابض ، وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب ثم قال ﴿ما أصابك﴾ يا إنسان خطابا عاما ﴿من حسنة﴾ أى من نعمة وإحسان ﴿فمن الله﴾ تفضلا منه وإحسانا وامتنانا وامتحانا ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أى من بلية ومصيبة فمن عندك ، لأنك السبب فيها بما اكتسبت يداك (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وعن عائشة رضى الله عنها : ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب ، حتى الشوكة يشاكها ، وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب ، وما

ـــ لزهير بن أبى سلمى ، يمدح هرم بن سنان . والنائل : العطاء . وعفوا : حال منه ، أى سهلا عليه ، أى قليلا عنده وإن كثر فى الواقع ، أو بغير سؤال . ويظلم : أى يسأل فوق طاقته فيتكلف ويعطى . ويروى : فيظلم ، وأصله : يظتلم ، مطاوع ظلمه . قلبت تاؤه طاء على الأصل فى تاء الافتعال بعد المطبقة ، ثم قلبت الطاء ظاء معجمة على خلاف الأصل فى القلب للادغام ، وأدغمت فيها الأولى . وروى «فيطلم» وأصله : يظتلم أيضا ، قلبت التاء طاء مهملة ، ثم قلبت الظاء طاء مهملة أيضا على القياس وأدغمت فى الثانية وروى «فيظطلم» بهما معا . وقوله «أحيانا» فيه نوع احتراس من توهم وصفه بالفقر المستمر . «وإن أتاه خليل» أى متصف بالخلة ـ بالفتح ـ وهى الفقر والفاقة يبيح له أمواله ولا يتعلل . فقوله «يقول ... إلى آخره» كناية عن ذلك ، وهو جواب الشرط . ورفع لأن الشرط ماض لم يؤثر العامل فى لفظه الجزم ، وقد يرفع جواب الشرط المضارع لتخيل أنه ماض ، كمسئلة العطف على التوهم . وقيل إنه على تقدير الفاء ، أى فهو يقول . وقيل : التقدير يقول : لا غائب مالى إن أتاه خليل ؛ فالجواب محذوف دل عليه المذكور ، وهو قول سيبويه ، ومقابله قول الكوفيين ، وروى عنه أيضا . و«المسغبة» الجوع . و«حرم» كحذر ، مصدر حرمه إذا منعه . والمراد به المفعول ، أى ليس محروما وممنوعا عن السائلين . ويجوز أنه صفة مشبهة ، كحذر وفرح بمعنى صنع . ولو قرئ «حرم» بالفتح بمعنى حرام ، كزمن وزمان لجاز . وغايته أن يكون فى القافية السناد .

يعفو الله أكثر ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ أى رسولا للناس جميعا لست برسول العرب وحدهم ، أنت رسول العرب والعجم ، كقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) . ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ على ذلك . فما ينبغى لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك .

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه فكانت طاعته فى امتثال ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه طاعة لله . وروى أنه قال : « من أحبنى فقد أحب الله ، ومن أطاعنى فقد أطاع الله »[1] فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ، لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله ! ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ، فنزلت ﴿ ومن تولى ﴾ عن الطاعة فأعرض عنه ﴿ فما أرسلناك ﴾ إلا نذيرا ، لا حفيظا ومهيمنا عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم ، كقوله (وما أنت عليهم بوكيل) .

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)

﴿ ويقولون ﴾ إذا أمرتهم بشىء ﴿ طاعة ﴾ بالرفع أى أمرنا وشأننا طاعة . ويجوز النصب بمعنى أطعناك طاعة . وهذا من قول المرتسم : سمعا وطاعة . وسمع وطاعة . ونحوه قول سيبويه : وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له : كيف أصبحت ؟ فيقول : حمد الله وثناء عليه ، كأنه قال : أمرى وشأنى حمد الله . ولو نصب حمد الله وثناء عليه . كان على الفعل والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها ﴿ بيت طائفة ﴾ زورت طائفة وسوت ﴿ غير الذى تقول ﴾ خلاف ما قلت وما أمرت به . أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة ، لأنهم أبطلوا الرد لا القبول ، والعصيان لا الطاعة . وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون . والتبييت : إما من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل ، يقال : هذا أمر بيت بليل . وإما من أبيات الشعر ، لأن الشاعر يدبرها ويسويها ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ يثبته فى صحائف أعمالهم ، ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد . أو يكتبه فى جملة ما يوحى إليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن إبطانهم يغنى عنهم ﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم ﴿ وتوكل على الله ﴾ فى شأنهم ، فإن

(١) لم أجده .

الله يكفيك معرّتهم [١] وينتقم لك منهم إذا قوى أمر الإسلام وعز أنصاره . وقرئ (بيت طائفة) بالإدغام وتذكير الفعل ، لأنّ تأنيث الطائفة غير حقيقى ، ولأنها فى معنى الفريق والفوج .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

تدبُّر الأمر : تأمُّله والنظر فى إدباره وما يئول إليه فى عاقبته ومنتهاه ، ثم استعمل فى كل تأمل : فمعنى تدبر القرآن : تأمل معانيه وتبصر ما فيه ﴿ لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه . فكان بعضه بالغا حدّ الإعجاز ، وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته ، وبعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه ، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه ، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى . وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم ، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء وتناصر صحة معان وصدق إخبار ، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه أحد سواه . فإن قلت : أليس نحو قوله (فإذا هى ثعبان مبين) ، (كأنها جان) ، (فوربك لنسألنهم أجمعين) ، (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) من الاختلاف ؟ قلت : ليس باختلاف عند المتدبرين .

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾

هم ناس من ضعفة المسلمين [٢] الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمور .

---

(١) قوله «معرتهم» أى إثمهم . وعبارة النسفى «مضرتهم» فحرر . (ع)

(٢) قال محمود : «هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ... الخ» قال أحمد : وفى اجتماع الهمزة والباء على التعدية نظر ، لأنهما متعاقبتان وهو الذى اقتضى عند الزمخشرى قوله فى الوجه الثانى : فعلوا الاذاعة ليخرجها عن الباء المعاقبة للهمزة ، ثم فى هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع ، وكفى به كذبا ، وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين فى نحر العدو ، وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم ، خيراً أو غيره . ولقد جربنا ذلك فى زماننا هذا منذ طرق العدو المخذول البلاد ـ طهرها الله من دنسه ، وصانها عن رجسه ونجسه ، وعجل للمسلمين الفتح وأنزل عليهم السكينة والنصر .

كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل ﴿أذاعوا به﴾ وكانت إذاعتهم مفسدة ، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر منهم ـ وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم ـ ﴿لعلمه﴾ لعلم تدبير ما أخبروا به ﴿الذين يستنبطونه﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها . وقيل : كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء ، أو على خوف واستشعار ، فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء ، فتعود إذاعتهم مفسدة . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوّضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا ، لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه . وقيل : كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنوناً غير معلوم الصحة فيذيعونه ، فيعود ذلك وبالا على المؤمنين . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون ، وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر ، أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم . يقال : أذاع السر ، وأذاع به . قال :

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّهُ بِعَلْيَاءَ نَارٌ أُوقِدَتْ بِثَقُوبِ (١)

ويجوز أن يكون المعنى فعلوا به الإذاعة ، وهو أبلغ من أذاعوه . وقرئ (لعلْمه) بإسكان اللام كقوله :

فَإِنْ أَهْجُهُ يَضْجَرْ كَمَا ضَجْرَ بَازِلٌ مِنَ الْأُدْمِ دَبْرَتْ صَفْحَتَاهُ وَغَارِبُهْ (٢)

والنبط : الماء يخرج من البئر أول ما تحفر ، وإنباطه واستنباطه : إخراجه واستخراجه ، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعانى والتدابير فيما يعضل ويهم ﴿ولولا فضل الله عليكم

---

(١) أمنت على السر امرأ غير حازم ولكنه فى النصح غير مريب
أذاع به فى الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

لأبى الأسود الدؤلى . والحازم : السديد الرأى . ويقال : أذاعه إذا أفشاه وأظهره ، ويضمن معنى التحدث أيضاً فيقال : أذاع به أى تحدث به فأظهره . والعلياء : الأرض المرتفعة . والثقوب : آلة تثقب بها النار فتشتعل . يقول : وضعت السر عند من لا يصونه ، وغرني صدق نصحه فأفشاه بين الناس . حتى كأنه نار فى أكمة عالية أشعلت بالثقوب ، فتكون أشد ظهوراً .

(٢) ضجر البعير : كثر رغاؤه من ثقل الحمل . والبازل البعير الذى انشق نابه ، وذلك فى السنة الثامنة أو التاسعة . والأدم : الشديدات البياض : جمع آدم أى شديد البياض ، وربما علته صفرة ، وزان حمر وأحمر ، خصها لرقة جلودها . والدبر : الانجراح والانتقاب من الرحل . والغارب : العظم الناشز فى الظهر . وضجر ، ودبر : فعلان ماضيان من باب تعب ، سكن وسطهما تخفيفا . يقول : إن أذمه يتضجر كتضجر ذلك البعير من حمله .

ورحمته﴾ وهو إرسال الرسول، وإنزال الكتاب [1]، والتوفيق ﴿لاتبعتم الشيطان﴾ لبقيتم على الكفر ﴿إلا قليلا﴾ منكم. أو إلا اتباعا قليلا، لما ذكر في الآى قبلها تثبطهم عن القتال، وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ إن أفردوك وتركوك وحدك ﴿لاتكلف إلا نفسك﴾ غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإنّ الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقاء فيها، فكره بعض الناس أن يخرجوا فنزلت، فخرج وما معه إلا سبعون لم يلو على أحد، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده، وقرئ ﴿لاتكلف﴾ بالجزم على النهى. ولا نكلف: بالنون وكسر اللام، أى لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها ﴿وحرض المؤمنين﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب، لا التعنيف بهم ﴿عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا﴾ وهم قريش، وقد كف بأسهم فقد بدا لأبى سفيان وقال: هذا عام مجدب، وما كان معهم زاد إلا السويق، ولا يلقون إلا في عام مخصب فرجع بهم ﴿والله أشد بأسا﴾ من قريش ﴿وأشدّ تنكيلا﴾ تعذيبا.

---

(١) عاد كلامه. قال: «ومعنى ولولا فضل الله عليكم ورحمته: ولولا إرسال الرسول وإنزال الكتاب ... الخ» قال أحمد: وفى تفسير الزمخشرى هذا نظر، وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة التى وليها بناء على ظاهر الاعراب، وأغفل المعنى، وذلك أنه يلزم على ذلك جواز أن ينتقل الانسان من الكفر إلى الايمان، ومن اتباع الشيطان إلى عصيانه وخزيه، وليس لله عليه في ذلك فضل. ومعاذ الله أن يعتقد ذلك. وبيان لزومه أن لولا حرف امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان. فاذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة، فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالايمان وعصيان الشيطان الداعى إلى الكفر، بأنفسهم لا بفضل الله. ألا تراك إذا قلت لمن تذكره بحقك عليك: لولا مساعدتى لك لسلبت أموالك إلا قليلا، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً في بقاء القليل للمخاطب، وإنما منت عليه بتأثير مساعدتك في بقاء أكثر ماله لا في كله. ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان إلا بفضل الله تعالى عليه. أما قواعد أهل السنة فواضح أن كل مايعد به العبد عاصيا للشيطان من إيمان وعمل خير، مخلوق لله تعالى، وواقع بقدرته، ومنعم على العبد به. وأما المعتزلة فهم وإن ظنوا أن العبد يخلق لنفسه إيمانه وطاعته إلا أنهم لا يخالفون في أن فضل الله منسحب عليه في ذلك، لأنه خلق له القدرة التى بها خلق العبد ذلك على زعمهم ووفقه لارادة الخير، فقد وضح لك تعذر الاستثناء من الجملة الأخيرة على تفسير الزمخشرى، وما أراه إلا واهما مسترسلا على المألوف في الاعراب، وهو إعادة الاستثناء إلى مايليه من الجمل، مهملا للنظر في المعنى. ومن ثم اتخذ القاضى أبوبكر رضى الله عنه الاستثناء في هذه الآية إلى ماقبل الجملة الأخيرة فطنة منه ويقظة، ولأنه إمام مؤيد في نظره مسدد في فكره، ثم اتخذ القاضى رضى الله عنه هذه الآية وزره في الرد على من زعم الجزم بعود الاستثناء المتعقب للجمل إلى الأخيرة، ظنا منه أن ذلك واجب لا يسوغ سواه. ثم يقف في عوده إلى ماتقدم خاصة. وقد بينت عند قوله تعالى (فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده) أن الاستثناء في هذه الآية أيضاً يتعين عوده إلى الأولى، ويتعذر رده إلى الأخيرة، لأن المعنى يأباه، وهى موازرة للقاضى في الرد على من حتم عود الاستثناء إلى الأخيرة، والله الموفق.

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥)

الشفاعة الحسنة : هى التى روعى بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير . وابتغى بها وجه الله ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت فى أمر جائز لا فى حدّ من حدود الله ولا فى حق من الحقوق . والسيئة : ما كان بخلاف ذلك . وعن مسروق أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع جارية ، فغضب وردها وقال : لو علمت ما فى قلبك لما تكلمت فى حاجتك ، ولا أتكلم فيما بقى منها وقيل : الشفاعة الحسنة : هى الدعوة للمسلم ، لأنها فى معنى الشفاعة إلى الله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له[1] قال له الملك : ولك مثل ذلك ، فذلك النصيب ، والدعوة على المسلم بضد ذلك ﴿مقيتاً﴾ شهيداً حفيظاً . وقيل : مقتدراً . وأقات على الشيء ، [2] قال الزبير بن عبد المطلب :

وَذِي ضِغْنٍ نَفَيْتُ السُّوءَ عَنْهُ ... وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتَا [3]

وقال السموأل :

أَلِي الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُو ... سِبْتُ إِنِّى عَلَى الْحِسَابِ مُقِيتُ [4]

واشتقاقه من القوت لأنه يمسك النفس ويحفظها .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء ، بلفظ «قالت الملائكة : آمين ، ولك بمثله» .

(٢) قوله «وأقات على الشيء» لعل بعده سقطا تقديره : اقتدر عليه . (ع)

(٣) للزبير بن عبد المطلب . والضغن : الحقد . والاقاتة : الاقتدار . وروى الصاغانى : أقيت . وروى بعده :

يبيت الليل مرتفقا ثقيلا ... على فرش الفتاة وما أبيت
وطن إلى منه مؤذيات ... كما تؤذى الجذامير البروت

والمرتفق : المتكئ على مرفقه . وتعن : تسرع وتظهر . والجذمار : ما بقى من أصل السعفة . والبروت : الفأس ، وهي فاعل تؤذى .

(٤)
ليت شعرى وأشعرن إذا ما ... قربوها منشورة ودعيت
ألى الفضل أم على إذا حو ... سبت إنى على الحساب مقيت
ينفع الطيب القليل من الرز ... ق ولا ينفع الكثير الخبيت

للسموءل الغسانى اليهودى . وأشعرن : اعتراض ، أى لاحاجة إلى ثمين الشعور ، فانى أعلم أن من عمل خيراً يره ، ومن عمل شراً يره وتوكيد الفعل المثبت الخبر كما هنا نادر جدا ، لأنه ليس من مواضع التوكيد المذكورة فى النحو . و «ما» زائدة . وضمير قربوها للصحف . وضمير الفاعل للملائكة . ويروى «الفوز» بدل الفضل . وإنى : بالكسر والفتح . المقيت : المقتدر . والشهيد : الحفيظ ، وأصله من القوت ؛ لأنه يقوى النفس ويحفظها . والخبيت بالمثناة : الخبيث بالمثلثة . وحق بلاغة المعنى : تقديم القليل على الطيب ، لكن أخرته الضرورة .

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

الأحسن منها أن تقول « وعليكم السلام ورحمة الله » إذا قال « السلام عليكم » وأن تزيد « وبركاته » إذا قال « ورحمة الله » وروى أنّ رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليك ، فقال « وعليك السلام ورحمة الله » وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله . فقال « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال « وعليك »[1] فقال الرجل : نقصتنى ، فأين ماقال الله ؟ وتلا الآية ، فقال « إنك لم تترك لى فضلا فرددت عليك مثله . ﴿أو ردّوها﴾ أو أجيبوها بمثلها . ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله ، لأن المجيب يرد قول المسلم ويكرره ، وجواب التسليمة واجب ، والتخيير إنما وقع بين الزيادة وتركها . وعن أبى يوسف رحمه الله : من قال لآخر : أقرئ فلانا السلام ، وجب عليه أن يفعل . وعن النخعى : السلام سنة والردّ فريضة . وعن ابن عباس : الردّ واجب . وما من رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردّون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردّت عليه الملائكة . ولا يرد السلام فى الخطبة ، وقراءة القرآن ، جهراً ورواية الحديث ، وعند مذاكرة العلم ، والأذان ، والإقامة . وعن أبى يوسف : لا يسلم على لاعب النرد والشطرنج ، والمغنى ، والقاعد لحاجته ، ومطير الحمام ، والعارى من غير عذر فى حمام أو غيره . وذكر الطحاوى : أن المستحب ردّ السلام على طهارة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تيمم لردّ السلام[2] . قالوا : ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته ، ولا يسلم على أجنبية . ويسلم الماشى على القاعد ، والراكب على الماشى ، وراكب الفرس على راكب الحمار ، والصغير على الكبير ، والأقل على الأكثر . وإذا التقيا ابتدرا . وعن أبى حنيفة : لاتجهر بالرد يعنى الجهر الكثير . وعن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه الطبرانى والطبرى من رواية هشام بن عاصم الأحول عن أبى عثمان عن سلمان . وقال ابن الجوزى فى العلل : ترك حديث هشام . ورواه الطبرانى أيضاً من رواية عكرمة عن ابن عباس . والراوى له عن عكرمة أبو هريرة عن نافع عن هرمز . وهو ضعيف .

(٢) أخرجه البخارى من رواية عمير مولى ابن عباس قال « أقبلت أنا وعبد الله بن يسار مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخلنا على أبى الجهيم بن الحرث ابن الصمة الأنصارى . فقال أبو الجهيم : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل فلقيه رجل ، فسلم عليه فلم يرد عليه حتى أتى على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام » ورواه مسلم معلقاً . ولأبى داود عن ابن عمير « مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سكة من السكك ، وقد خرج من غائط أو بول ، فسلم عليه ، فلم يرد عليه حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى فى السكة ضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه ثم رد السلام ، وقال : إنه لم يمنعنى أن أرد عليك السلام إلا أنى لم أكن على طهارة » .

«إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم[1]» أى وعليكم ماقلتم ؛ لأنهم كانوا يقولون : السام عليكم . وروى «لا تبتدئ اليهودىّ بالسلام ، وإن بدأك فقل . وعليك» . وعن الحسن : يجوز أن تقول للكافر : وعليك السلام ، ولا تقل : ورحمة الله ، فإنها استغفار . وعن الشعبى أنه قال لنصرانى سلم عليه : وعليك السلام ورحمة الله . فقيل له فى ذلك ، فقال : أليس فى رحمة الله يعيش ؟ وقد رخص بعض العلماء فى أن يبدأ أهل الذمة بالسلام إذا دعت إلى ذلك حادثة تحوج إليهم . وروى ذلك عن النخعى . وعن أبى حنيفة : لا تبدأه بسلام فى كتاب ولا غيره . وعن أبى يوسف لا تسلم عليهم ولا تصافحهم ، وإذا دخلت فقل : السلام على من اتبع الهدى . ولا بأس بالدعاء له بما يصلحه فى دنياه ﴿ على كل شىء حسيبا ﴾ أى يحاسبكم على كل شىء من التحية وغيرها .

اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

﴿ لا إله إلا هو ﴾ إما خبر للمبتدأ . وإما اعتراض والخبر (ليجمعنكم) . ومعناه : الله والله ليجمعنكم ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ أى ليحشرنكم إليه . والقيامة والقيام ، كالطلابة والطلاب ، وهى قيامهم من القبور أو قيامهم للحساب . قال الله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) . ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ لأنه عز وعلا صادق لا يجوز عليه الكذب . وذلك أن الكذب مستقل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه . ووجه قبحه ، الذى هو كونه كذبا وإخباراً عن الشىء بخلاف ما هو عليه . فمن كذب لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يكذب ليجرّ منفعة أو يدفع مضرة . أو هو غنى عنه إلا أنه يجهل غناه . أو هو جاهل بقبحه . أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب فى إخباره ولا يبالى بأيهما نطق ، وربما كان الكذب أحلى على حنكه من الصدق . وعن بعض السفهاء أنه عوتب على الكذب فقال : لو غرغرت لهواتك به ما فارقته . وقيل لكذاب : هل صدقت قط ؟ فقال : لولا أنى صادق فى قولى «لا» لقلتها . فكان الحكيم الغنى الذى لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم ، منزها عنه ، كما هو منزه عن سائر القبائح .

فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

﴿ فئتين ﴾ نصب على الحال ، كقولك : مالك قائما ؟ روى أن قوما من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة ، فلما خرجوا لم يزالوا

(١) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه .

راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار. وقال بعضهم: هم مسلمون. وقيل: كانوا قوما هاجروا من مكة، ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا على دينك وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا. وقيل: هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا. وقيل: هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا يساراً. وقيل هم قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. ومعناه: ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقا ظاهراً وتفرقتم فيه فرقتين وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم ﴿والله أركسهم﴾ أى ردهم في حكم المشركين كما كانوا ﴿بما كسبوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتيالهم على رسول الله صلى عليه وسلم. أو أركسهم في الكفر بأن خذلهم حتى أركسوا فيه، لما علم من مرض قلوبهم ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿من أضل الله﴾ من جعله[1] من جملة الضلال، وحكم عليه بذلك أو خذله حتى ضلّ. وقرئ: ركسهم. وركسوا فيها.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

﴿فتكونون﴾ عطف على (تكفرون) ولو نصب على جواب التمني لجاز. والمعنى: ودّوا

---

(١) قال محمود: «معناه من جعله ... الخ» قال أحمد: هو بهذين الوجهين يفر من الحق والحقيقة. أما الحق، فلأن الله هو الذي خلق الضلال لمن ضل؛ إذ لا خالق إلا الله. وأما الحقيقة، فلأنها ـ أعني الآية ـ اقتضت نسبة الأصل إلى فعل الله تعالى، فالتخيل في تحريف الفاعلية إلى التسبيب عدول عن الحقيقة إلى المجاز. وقد علمت الباعث له على هذا المعتقد فلا نعيده.

كفركم فكونكم معهم شرعا[1] واحدا فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء. فلا تتولوهم وإن آمنوا حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة صحيحة هى لله ورسوله ـ لا لغرض من أغراض الدنيا ـ مستقيمة ليس بعدها بداء ولا تعرّب. ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة، فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا فى الحلّ والحرم، وجانبوهم مجانبة كلية، وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم ﴿ إلا الذين يصلون ﴾ استثناء من قوله (فخذوهم واقتلوهم) ومعنى (يصلون إلى قوم) ينتهون إليهم ويتصلون بهم. وعن أبى عبيدة: هو من الانتساب. وصلت إلى فلان واتصلت به إذا انتميت إليه. وقيل: إن الانتساب لا أثر له فى منع القتال، فقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من هو من أنسابهم، والقوم هم الأسلميون، كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، وذلك أنه وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أنّ من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذى لهلال. وقيل: القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا فى الصلح ﴿ أو جاءوكم ﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفا على صفة قوم، كأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم، أو على صلة الذين، كأنه قيل: إلا الذين يتصلون بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم والوجه العطف على الصلة لقوله: ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ بعد قوله: (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) فقرّر أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض عنهم وترك الإيقاع بهم. فإن قلت: كل واحد من الاتصالين له تأثير فى صحة الاستثناء، واستحقاق إزالة التعرض الاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين، لأنّ الاتصال بهؤلاء أو هؤلاء دخول فى حكمهم، فهلا جوزت أن يكون العطف على صفة قوم، ويكون قوله: (فإن اعتزلوكم) تقريرا لحكم اتصالهم بالمكافين واختلاطهم بهم وجريهم على سننهم؟ قلت: هو جائز، ولكن الأول أظهر وأجرى على أسلوب الكلام. وفى قراءة أبىّ: بينكم وبينهم ميثاق جاؤكم حصرت صدورهم، بغير أو. ووجهه أن يكون (جاؤكم) بيانا ليصلون، أو بدلا أو استئنافا، أو صفة بعد صفة لقوم. حصرت صدورهم فى موضع الحال بإضمار قد. والدليل عليه قراءة من قرأ: حصرة صدورهم. وحصرات صدورهم. وحاصرات صدورهم. وجعله المبرد صفة لموصوف محذوف على: أو جاؤكم قوما حصرت صدورهم. وقيل: هو بيان لجاؤكم، وهم بنو مدلج جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين. والحصر الضيق والانقباض ﴿ أن يقاتلوكم ﴾ عن أن يقاتلوكم. أو كراهة أن يقاتلوكم. فإن قلت: كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت: ما كانت مكافتهم إلا

(١) قوله «شرعا» أى طريقا. وفى الصحاح: أنه يحرك ويسكن. (ع)

لقذف الله الرعب فى قلوبهم ، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه ، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين ، فذلك معنى التسليط . وقرئ : فلقتلوكم ، بالتخفيف والتشديد ﴿فإن اعتزلوكم﴾ فإن لم يتعرضوا لكم (وألقوا إليكم السلم) أى الانقياد والاستسلام . وقرئ بسكون اللام مع فتح السين ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ فما أذن لكم فى أخذهم وقتلهم ﴿ستجدون آخرين﴾ هم قوم من بنى أسد وغطفان ، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين ، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه ، وكانوا شراً فيها من كل عدو ﴿حيث ثقفتموهم﴾ حيث تمكنتم منهم ﴿سلطانا مبينا﴾ حجة واضحة لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر ، وإضرارهم بأهل الإسلام أو تسلطا ظاهراً حيث أذنا لكم فى قتلهم .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً (٩٣)

﴿وما كان لمؤمن﴾ وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله ، كقوله (وما كان لنبى أن يغل) ، (وما يكون لنا أن نعود فيها) . ﴿أن يقتل مؤمنا﴾ ابتداء غير قصاص ﴿إلا خطأ﴾ إلا على وجه الخطإ . فإن قلت : بم انتصب خطأ ؟ قلت : بأنه مفعول له ، أى ما ينبغى له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطإ وحده . ويجوز أن يكون حالا بمعنى لا يقتله فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطإ ، وأن يكون صفة للمصدر إلا قتلا خطأ . والمعنى أن من شأن المؤمن أن ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة ، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد ، بأن يرمى كافراً فيصيب مسلما ، أو يرمى شخصا على أنه كافر فإذا هو مسلم . وقرئ : خطاء ـ بالمد ـ وخطا ، بوزن عمى ـ بتخفيف الهمزة ـ وروى أن عياش بن أبى ربيعة ـ وكان أخا أبى جهل لأمه ـ أسلم وهاجر خوفا من قومه إلى المدينة ، وذلك قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع . فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبى أنيسة فأتياه

وهو فى أطم [1] فقتل منه أبو جهل فى الذروة والغارب، وقال: أليس محمد يحثك على صلة الرحم، انصرف وبرّ أمك وأنت على دينك، حتى نزل وذهب معهما، فلما فسحا عن المدينة كتفاه، وجلده كل واحد مائة جلدة. فقال للحارث: هذا أخى، فمن أنت ياحارث؟ لله علىّ إن وجدتك خاليا أن أقتلك، وقدما به على أمه، فحلفت لايحل كتافه أو يرتد، ففعل ثم هاجر بعد ذلك وأسلم، وأسلم الحارث وهاجر، فلقيه عياش بظهر قباء ـ ولم يشعر بإسلامه ـ فأنحى عليه فقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قتلته ولم أشعر بإسلامه [2]، فنزلت ﴿فتحرير رقبة﴾ فعليه تحرير رقبة. والتحرير: الإعتاق. والحر والعتيق: الكريم، لأن الكرم فى الأحرار كما أن اللؤم فى العبيد. ومنه: عتاق الخيل، وعتاق الطير لكرامها. وحرّ الوجه: أكرم موضع منه. وقولهم للئيم «عبد» وفلان عبد الفعل: أى لئيم الفعل. والرقبة: عبارة عن النسمة، كما عبر عنها بالرأس فى قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق. والمراد برقبة مؤمنة: كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء. وعن الحسن: لاتجزئ إلا رقبة قد صلت وصامت، ولاتجزئ الصغيرة. وقاس عليها الشافعى كفارة الظهار، فاشترط الإيمان. وقيل: لما أخرج نفسا مؤمنة عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار، لأنّ إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار ﴿مسلمة إلى أهله﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، لافرق بينها وبين سائر التركة فى كل شىء، يقضى منها الدين، وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثا فهى لبيت المال، لأن المسلمين يقومون مقام الورثة كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «أنا وارث من لا وارث له» [3] وعن عمر رضى الله عنه أنه قضى بدية المقتول، فجاءت امرأته تطلب ميراثها من عقله فقال: لا أعلم لك شيئاً، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه. فقام الضحاك بن سفيان الكلابى فقال: كتب إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى أن أورث امرأة أشيم الضبابى من عقل زوجها أشيم. فورثها عمر [4]، وعن ابن مسعود:

---

(١) قوله «وهو فى أطم فقتل منه» الأطم: الحصن، أفاده الصحاح. وفيه: مازال فلان يفتل من فلان فى الذروة والغارب، أى يدور من وراء خديعته. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى بغير سند، والواحدى عن ابن الكلبى. ورواه الطبرى من طريق أسباط عن السدى بتغيير يسير، ولم يسم الحرث. فقال: ومعه رجل من بنى عامر وقال ابن إسحاق فى المغازى: حدثنى نافع عن ابن عمر عن أبيه قال «أبعدت أنا وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص: لما أردنا الهجرة. فأصبحت أنا وعياش. وحبس عنا هشام وفتى. وخرج أبو جهل وأخوه الحرث إلى عياش بالمدينة فكلماه وقالا له: إن أمك نذرت أن لاتمس رأسها بمشط، فذكر القصة بطولها.

(٣) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث المقدام بن معديكرب به، وأتم منه.

(٤) أخرجه أصحاب السنن من رواية سعيد بن المسيب «أن عمر رضى الله عنه كان يقول: الدية للعاقلة،

يرث كل وارث من الدية غير القاتل . وعن شريك : لا يقضى من الدية دين ، ولا تنفذ وصية . وعن ربيعة : الغرة لأم الجنين وحدها ، وذلك خلاف قول الجماعة . (فإن قلت) : على من تجب الرقبة والدية ؟ قلت : على القاتل إلا أن الرقبة فى ماله ، والدية تتحملها عنه العاقلة ، فإن لم تكن له عاقلة فهى فى بيت المال ، فإن لم يكن ففى ماله ﴿إلا أن يصدقوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية ومعناه العفو ، كقوله (إلا أن يعفون) ونحوه (وأن تصدقوا خير لكم) وعن النبى صلى الله عليه وسلم «كل معروف صدقة [1]» ، وقرأ أبى : إلا أن يتصدقوا . فإن قلت : بم تعلق أن يصدقوا ، وما محله ؟ قلت : تعلق بعليه ، أو بمسلمة ، كأنه قيل : وتجب عليه الدية أو يسلمها ، إلا حين يتصدقون عليه . ومحلها النصب على الظرف بتقدير حذف الزمان ، كقولهم : اجلس ما دام زيد جالسا . ويجوز أن يكون حالا من أهله بمعنى إلا متصدقين ﴿من قوم عدو لكم﴾ من قوم كفار أهل حرب وذلك نحو رجل أسلم فى قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم ، فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شيء . لأنهم كفار محاربون . وقيل : كان الرجل يسلم ، ثم يأتى قومه وهم مشركون فيغزوهم جيش المسلمين ، فيقتل فيهم خطأ لأنهم يظنونه كافراً مثلهم ﴿وإن كان من قوم﴾ كفرة لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابيين ، فحكمه حكم مسلم من مسلمين ﴿فمن لم يجد﴾ رقبة ، بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها ﴿ف﴾ عليه ﴿صيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾ قبولا من الله ورحمة منه ، من تاب الله عليه إذا قبل توبته يعنى شرع ذلك توبة منه ، أو نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه . هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد [2] أمر عظيم وخطب غليظ . ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة [3] . وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا :

ـــ لا ترث المرأة من دية زوجها شيئا حتى قال له الضحاك بن سفيان كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها . فرجع عمر رضى الله عنه .

(١) أخرجه البخارى ومسلم من حديث حذيفة رضى الله عنه .

(٢) قال محمود : «فى هذه الآية من التهديد والوعيد والابراق ...الخ» قال أحمد : وكفى بقوله تعالى فى هذه السورة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) دليلا أبلج على أن القاتل الموحد - وإن لم يتب - فى المشيئة وأمره إلى الله ، إن شاء آخذه وإن شاء غفر له . وقد مر الكلام على الآية ، وما بالعهد من قدم . وأما نسبة أهل السنة إلى الأشعبية ، فذلك لا يضيرهم ؛ لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون .

(٣) متفق عليه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) قال : لا توبة له . وفى رواية لهما عنه «قال : قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟ قال : لا » ﴿فائدة﴾ قال ابن أبى شيبة : حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا أبو مالك الأشجعى عن سعد بن عبيدة قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : ألمن قتل مؤمنا توبة ؟ قال : لا إلى النار ، فلما ذهب قال له جلساؤه : ما هكذا كنت تفتينا ، قد كنت تفتينا ـــ

لاتوبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب يمحو بالتوبة . وناهيك بمحو الشرك دليلا . وفى الحديث «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم [١]» وفيه «لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه [٢]» وفيه «إن هذا الإنسان بنيان الله . ملعون من هدم بنيانه» وفيه «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب [٣] بين عينيه آيس من رحمة الله [٤]» . والعجب من قوم يقرؤن [٥] هذه الآية ويرون مافيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة ، وقول ابن عباس بمنع التوبة . ثم لاتدعهم أشعبيتهم وطاعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم ، أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة . أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة فى قتل الخطأ ، لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ

= أن لمن قتل مؤمنا توبة مقبولة . فما بال هذا اليوم ؟ قال : إنى أحسبه رجلا مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا . قال : فبعثوا فى أثره فوجدوه كذلك » .

(١) أخرجه الترمذى والنسائى من رواية شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبدالله بن عمر . ومثله بلفظ «من قتل رجلا مسلما» ورواه موقوفا . وهو أصح . ورواه البزار وقال : لانعلم أسنده عن شعبة إلا ابن أبى عدى . ورواه ابن أبى شيبة وأبو يعلى من رواية الثورى عن يعلى بن عطاء به مرفوعا وأخرجه النسائى من وجه آخر مرفوعا . وفى الباب عن بريدة ، أخرجه النسائى وابن عدى . والبيهقى فى الشعب ، بلفظ ، «ولقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» وفيه بشر بن المهاجر وفيه ضعف وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما أخرجه ابن ماجه ، والبيهقى بلفظ «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن» وزاد : والمؤمن أكرم عند الله من الملائكة الذين عنده» وفى إسناده أبو المهزم يزيد بن سفيان .

(٢) لم أجده .

(٣) قوله «مكتوب» لعله مكتوبا . (ع)

(٤) أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والعقيلى وابن عدى من حديث أبى هريرة مثله . وإسناده ضعيف . ورواه ابن حبان فى الضعفاء من رواية عمرو بن محمد الأعلم عن نجم بن سالم الأفطس عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر به وقال . إنه حديث موضوع ، لا أصل له من حديث الثقات ، وعمرو ، والأفطس لايجوز الاحتجاج بهما بحال . وقد أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وترجمه خلف بن حوشب من روايته عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن المسيب به وقال غريب تفرد به حكيم بن نافع عن خلف . وحكيم ضعيف إلا أنه يرد على كلام ابن حبان وفى الباب أيضا عن ابن عمر . أخرجه البيهقى فى الشعب ، فى السادس والثلاثين . وعن ابن عباس ، أخرجه الطبرانى من رواية عبدالله ابن حراش عن العوام بن حوشب عن مجاهد عنه .

(٥) قوله «والعجب من قوم يقرؤن» فيه انتصار للمعتزلة وتشنيع على أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه يجوز غفران الكبائر بالتوبة أو بالشفاعة أو بمجرد فضل الله ، تمسكا بقوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) كما حقق فى علم التوحيد وفى الصحاح : أشعب اسم رجل كان طماعا . وفى المثل «أطمع من أشعب» اه فالأشعبية : الخصلة التى تنسب إلى أشعب ، وهى الطمع الشديد . (ع)

فيه حسم للأطماع وأى حسم ، ولكن لاحياة لمن تنادى . فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب [١] من أهل الكبائر ؟ قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله (ومن يقتل) أىَّ قاتل كان، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل . فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

﴿ فتبينوا ﴾ وقرئ : فتثبتوا ، وهما من التفعل بمعنى الاستفعال . أى اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تتهوكوا فيه من غير روية . [٢] وقرئ : السلم . والسلام وهما الاستسلام . وقيل : الإسلام . وقيل : التسليم الذى هو تحية أهل الإسلام ﴿ لست مؤمناً ﴾ وقرئ (مؤمنا) بفتح الميم من آمنه ، أى لا نؤمنك ، وأصله أن مرداس بن نهيك [٣] رجلا من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره ، فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان عليها غالب بن فضالة الليثى ، فهربوا وبقى مرداس لثقته بإسلامه ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول [٤] من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه ، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجداً شديداً وقال : قتلتموه إرادة ما معه ، ثم قرأ الآية على أسامة ، فقال : يارسول الله استغفر لى . قال فكيف بلا إله إلا الله ، قال أسامة فما زال يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لى وقال : أعتق [٥] رقبة ﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ تطلبون الغنيمة

(١) قوله « دليل على خلود من لم يتب » هو مذهب المعتزلة . وذهب أهل السنة إلى خروج من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، كما فى حديث الشفاعة وقد تقرر فى محله . (ع)

(٢) قوله « ولا تتهوكوا فيه » أى تتحيروا أو تخبطوا بلا مبالاة . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « مرداس » فى الصحاح : ردست القوم وردادستهم : إذا رميتهم بحجر . والمرداس : حجر يرمى به فى البئر ليعلم أن فيها ماء أولا . ومنه سمى الرجل . (ع)

(٤) قوله « إلى عاقول » فى الصحاح : العاقول من النهر والوادى والرمل : المعوج منه . (ع)

(٥) أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدي بتغيير يسير .

التى هى حطام سريع النفاد ، فهو الذى يدعوكم إلى ترك التثبت وقلة البحث عن حال من تقتلونه ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ أول ما دخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة ، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم ﴿ فمنّ الله عليكم ﴾ بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم ، وإن صرتم أعلاما فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الاسلام كما فعل بكم ، وأن تعتبروا ظاهر الاسلام فى المكافأة ، ولا تقولوا إن تهليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية ، فتجعلوه سلما إلى استباحة دمه وماله وقد حرمهما الله وقوله ﴿ فتبينوا ﴾ تكرير الأمر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ فلا تتهافتوا فى القتل وكونوا محترزين محتاطين فى ذلك .

لَا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

﴿ غير أولى الضرر ﴾ قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة للقاعدون ، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم ، والجر صفة للمؤمنين . والضرر : المرض ، أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها . وعن زيد بن ثابت : كنت إلى جنب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فغشيته السكينة ، فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترضها ، ثم سرى عنه فقال : اكتب فكتبت فى كتف (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى : يارسول الله ، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين . فغشيته السكينة كذلك ، ثم قال : اقرأ يازيد ، فقرأت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين) فقال غير أولى الضرر . قال زيد : أنزلها الله وحدها ، فألحقتها . والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع فى الكتف [1] . وعن ابن عباس : لا يستوى القاعدون عن بدر والخارجون إليها . وعن مقاتل : إلى تبوك . فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان ، فما فائدة نفى الاستواء ؟ قلت : معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد ، ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط

(١) أخرجه البخارى من رواية ابن الحكم عن زيد بن ثابت نحوه ، وأبو داود وأحمد وللحاكم من رواية خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت باللفظ المذكور .

منزلته، فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفى ارتفاع طبقته، ونحوه (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به [١] إلى التعلم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم ﴿فضل الله المجاهدين﴾ جملة موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين كأنه قيل: مالهم لا يستوون، فأجيب بذلك. والمعنى على القاعدين غير أولى الضرر لكون الجملة بيانا للجملة الأولى المتضمنة لهذا الوصف ﴿وكلا﴾ وكل فريق من القاعدين والمجاهدين ﴿وعد الله الحسنى﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم [٢]» وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم [٣] وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد، وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره. فإن قلت: قد ذكر الله تعالى مفضلين درجة ومفضلين درجات، فمن هم؟ قلت: أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضراء وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاء بغيرهم، لأن الغزو فرض كفاية. فإن قلت: لم نصب (درجة) و(أجراً) و(درجات)؟ قلت: نصب قوله (درجة) لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل فضلهم تفضيلة واحدة. ونظيره قولك: ضربه سوطا، بمعنى ضربه ضربة. وأما (أجرا) فقد انتصب بفضل، لأنه فى معنى أجرهم أجرا ودرجات، ومغفرة، ورحمة: بدل من أجر. أو يجوز أن ينتصب (درجات) نصب درجة، كما تقول: ضربه أسواطا بمعنى ضربات، كأنه قيل: وفضله تفضيلات. ونصب (أجراً عظيما) على أنه حال عن النكرة التى هى درجات مقدمة عليها، وانتصب مغفرة ورحمة بإضمار فعلهما بمعنى: وغفر لهم ورحمهم، مغفرة ورحمة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)

(١) قوله «ليهاب» الظاهر أنه من الهوب وهو وهج النار، أى توقدها، كما فى الصحاح. (ع)
(٢) أخرجه البخارى وأبو داود من رواية حميد عن أنس. ونحوه عند مسلم من حديث جابر رضى الله عنه.
(٣) قوله «ونصحت جيوبهم» فى الصحاح: تقول: إنه لحسن الجيبة ـ بالكسر ـ أى الجواب. ورجل ناصح الجيب؛ أى أمين. (ع)

﴿ توفاهم ﴾ يجوز أن يكون ماضيا كقراءة من قرأ: توفتهم . ومضارعا بمعنى تتوفاهم ، كقراءة من قرأ : توفاهم ، على مضارع وفيت ، بمعنى أن الله يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها ، أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ فى حال ظلمهم أنفسهم ﴿ قالوا ﴾ قال الملائكة للمتوفين ﴿ فيم كنتم ﴾ فى أى شىء كنتم من أمر دينكم . وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة . فإن قلت : كيف صح وقوع قوله ﴿ كنا مستضعفين فى الأرض ﴾ جواباً عن قولهم (فيم كنتم) ؟ وكان حق الجواب أن يقولوا : كنا فى كذا أو لم نكن فى شىء ؟ قلت : معنى (فيم كنتم) للتوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين ، حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا ، فقالوا : كنا مستضعفين اعتذارا مما وبخوا به واعتلالا بالاستضعاف ، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا فى شىء ، فبكتتهم الملائكة بقولهم ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التى لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة . وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ـ حقت عليه المهاجرة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجبت له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام »[1] . اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى فاجعلها سببا فى خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك والمبتغى من رحمتك وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك فى دار كرامتك يا واسع المغفرة . ثم استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة فى الخروج لفقرهم وعجزهم ولا معرفة لهم بالمسالك . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بهذه الآية إلى مسلمى مكة ، فقال جندب بن ضمرة أو ضمرة بن جندب لبنيه : احملونى ، فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لأهتدى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة . فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة وكان شيخا كبيراً فمات بالتنعيم[2] . فإن قلت : كيف أدخل الولدان فى جملة المستثنين من أهل الوعيد[3] ، كأنهم كانوا يستحقون الوعيد مع الرجال والنساء

---

(١) أخرجه الثعلبي فى تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجى عن الحسن مرسلا .

(٢) ذكره الثعلبي بغير سند هكذا . وأخرجه الواحدى فى الأسباب من طريق أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) فلما قرأها المسلمون قال جندب بن ضمرة الليثى وكان شيخا كبيراً : احملونى فذكره . وأخرجه أبو يعلى والطبرانى من هذا الوجه مختصراً

(٣) قال محمود : « الاستثناء من المتوعدين فى قوله (أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) ... الخ » قال أحمد : قوله « إن المراهقين من الولدان يكلفون إلحاقا بالبالغين » مردود بقوله عليه وعلى آله الصلاة والسلام

لو استطاعوا حيلة واهتدوا سبيلا ؟ قلت: الرجال والنساء قد يكونون مستطيعين مهتدين وقد لا يكونون كذلك . وأما الولدان فلا يكونون إلا عاجزين عن ذلك ، فلا يتوجه عليهم وعيد ؛ لأن سبب خروج الرجال والنساء من جملة أهل الوعيد إنما هو كونهم عاجزين . فإذا كان العجز متمكنا فى الولدان لا ينفكون عنه ، كانوا خارجين من جملتهم ضرورة . هذا إذا أريد بالولدان الأطفال ويجوز أن يراد المراهقون منهم الذين عقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقوا بهم فى التكليف . وإن أريد بهم العبيد والإماء البالغون فلا سؤال . فإن قلت : الجملة التى هى ﴿لا يستطيعون﴾ ما موقعها؟ قلت : هى صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان . وإنما جاز ذلك والجمل نكرات ، لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس لشىء بعينه ، كقوله :

* وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِى * (١)

فإن قلت : لم قيل (عسى الله أن يعفو عنهم) بكلمة الإطماع ؟ قلت : للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه ، حتى أن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عنى ، فكيف بغيره .

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ ٱللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

﴿مراغما﴾ مهاجراً وطريقا يراغم بسلوكه قومه ، أى يفارقهم على رغم أنوفهم . والرغم : الذلّ والهوان . وأصله لصوق الأنف بالرغام ـ وهو التراب ـ يقال : راغمت الرجل إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك . قال النابغة الجعدى :

كَطَوْدٍ يُلَاذُ بِأَرْكَانِهِ عَزِيزِ الْمَرَاغِمِ وَالْمَذْهَبِ (٢)

ـــــــ

= «رفع القلم عن ثلاث : عن الصبي حتى يحتلم» فجعل البلوغ نفسه مناط التكليف . وهذا مذهب الجماهير ، ولم يبلغنا خلافه . وقال الزمخشرى : أراد الحديثى العهد بالصبي وإن بلغوا ، تسمية لهم بالاسم السالف لقرب عهدهم به ، كما قال (وآتوا اليتامى أموالهم) فسماهم يتامى وإن بلغوا ، إذ لا تدفع أموالهم حتى يبلغوا ، لأنهم حديثو عهد باليتم . والغرض تعجيل دفع الأموال لهم إذا رشدوا ، وإن قرب عهدهم باليتم حتى أنهم لذلك يعبر عنهم باليتامى ، ولا يماطلوا ولو قال الزمخشرى فى الولدان كذلك ، لكان قولا سديداً ، والله أعلم .

(١) مر شرح هذا الشاهد ص ١٦ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اهـ مصححه .

(٢) للنابغة الجعدى . والطود : الجبل العظيم . ويلاذ : يتحصن . والرغم : التصاق الأنف بالرغام أى التراب ، وهو كناية عن الذل والهوان . وفى سلوك سبيل المهاجرة مراغمة للخصم مفارقة له على رغم أنفه . والمراغم ـ على =

وقرئ : مرغما . وقرئ (ثم يدركه الموت) بالرفع [1] على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقيل : رفع الكاف منقول من الهاء. كأنه أراد أن يقف عليها ، ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف ، كقوله :

* مِنْ عَنَزِيٍّ سَبَّنِي لَمْ أَضْرِبُهْ * [2]

وقرئ (يدركه) بالنصب على إضمار أن ، كقوله :

* وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا * [3]

﴿فقد وقع أجره على الله﴾ فقد وجب ثوابه عليه : وحقيقة الوجوب : الوقوع والسقوط (فإذا وجبت جنوبها) ووجبت الشمس : سقط قرصها . والمعنى : فقد علم الله كيف يثيبه وذلك واجب عليه [4] . وروى فى قصة جندب بن ضمرة : أنه لما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله ثم قال : اللهم هذه لك ، وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك . فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لو توفى بالمدينة لكان أتم أجراً ، وقال المشركون وهم يضحكون : ما أدرك هذا ما طلب . فنزلت . وقالوا : كل هجرة لغرض دينى ـ من طلب علم ، أو حج ، أو جهاد ، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهداً فى الدنيا ، أو ابتغاء رزق طيب ـ فهى هجرة إلى الله ورسوله . وإن أدركه الموت فى طريقه ، فأجره واقع على الله

= اسم المفعول ـ الطريق ، لأنه مكان المراغمة . واسم المكان من غير الثلاثى المجرد على زنة اسم المفعول منه ، وكمساجد جمعه . « والمذهب » روى بدله « المهرب » والثانى أخص . يشبه رجلا بالجبل فى الالتجاء إليه والتحصن بجاهه .

(١) قال محمود : « قرئ يدركه برفع الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف . . . الخ » قال أحمد : توجيه الرفع على إضمار المبتدأ فيه عطف الاسمية على الفعلية ، والأولى خلافه ما وجد عنه سبيل . وأما الوجه الثانى من إجراء الوصل مجرى الوقف ففيه شذوذ بين ، على أن الأفصح فى الوقف خلاف نقل الحركة ، وقد زاد شذوذاً بإجراء الوصل مجرى الوقف ، فكيف وعندى وجه حسن خالص من الشذوذ مرتفع الذروة فى الفصاحة ، وهو العطف على ما يقع موقع « من » مما يكون الفعل الأول معه مرفوعا ، كأنه قال : والذى يخرج من بيته مهاجراً ثم يدركه الموت وهو الذى ذكره الزمخشرى عند قوله (أينما تكونوا يدرككم الموت) فيمن قرأ بالرفع ، وقال ثم : هو وجه نحوى سيبوى ، وإجراؤه ههنا أقرب وأصوب منه ثمة ، والله أعلم .

(٢) عجبت والدهر كثير عجبه من عنزى سبنى لم أضربه

قوله « والدهر كثير عجبه » جملة اعتراضية . والعنزى : نسبة لعنزة أبو حى من ربيعة . وقيل العنزى : القصير ، نسبة إلى العنزة ، وهى الرمح الصغير . والأصل سكون باء أضربه للجزم ، ولكنها جاورت الهاء للوزن . ويروى يا عجبا والدهر كثر عجبه من عنزى .

(٣) سأترك منزلى لبنى تميم وألحق بالحجاز فأستريحا

للمغيرة بن حنين الحنظلى ، وألحق كأكرم على الأفصح ، وكأفتح على لغة . ونصبه بتقدير « أن » وإن لم يكن فى جواب شىء من الأشياء الثابتة المعروفة فى النحو . لأن المضارع قبله فيه معنى الأمر لنفسه ، أو رائحة التمنى ، أو لأنه عطف على تعليل محذوف ، أى لأنجو منهم وألحق بالحجاز فأستريح من شر عشرتهم . ولو رفع لفات ذلك وكان إخبار باللحوق والاستراحة فقط ، لكن نص النحويون على أن النصب بعد الخبر المثبت الخالى من الشرط ضرورة ، وهذا منه .

(٤) قوله « يثيبه وذلك واجب عليه » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فلا يجب عليه شىء . (ع)

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

الضرب في الأرض: هو السفر. وأدنى مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة: مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن سير الإبل ومشي الأقدام على القصد، ولا اعتبار بإبطاء الضارب وإسراعه. فلو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن في يوم، قصر. ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام، لم يقصر. وعند الشافعي. أدنى مدة السفر أربعة برد مسيرة يومين. وقوله ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ ظاهره التخيير بين القصر والإتمام، وأن الإتمام أفضل. وإلى التخيير ذهب الشافعي. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتم في السفر [1]. وعن عائشة رضي الله عنها: اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قلت يارسول الله، بأبي أنت وأمي، قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت. فقال: أحسنت ياعائشة وما عاب علي [2]. وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر [3]. وعند أبي حنيفة رحمه الله: القصر في السفر عزيمة غير رخصة لايجوز غيره. وعن عمر رضي الله عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم [4]. وعن عائشة رضي الله عنها: أول مافرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين، فأقرت في السفر، وزيدت في الحضر [5]. فإن قلت: فما تصنع بقوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا)؟ قلت: كأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا في القصر فنفى عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنوا إليه. وقرئ: تقصروا من أقصر. وجاء في الحديث إقصار الخطبة بمعنى تقصيرها [6]. وقرأ الزهري (تقصروا) بالتشديد. والقصر

(١) أخرجه الشافعي وابن أبي شيبة والبزار والدارقطني والبيهقي من طرق عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصر في السفر ويتم ويفطر ويصوم» لفظ الدارقطني. وقال إسناده صحيح

(٢) أخرجه النسائي من حديث عبد الرحمن بن الأسود عنها وحسنه. وأورده من طريق أخرى عن عبد الرحمن ابن الأسود عن أبيه عن عائشة. وقال الأول متصل وعبد الرحمن أدرك عائشة. ورواه البيهقي من الوجهين

(٣) متفق عليه من حديث سالم عن أبيه «أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بمنى وعرفة وغيرها صلاة المسافر ركعتين، وأبو بكر، وعمر، وعثمان صدراً من خلافته، ثم أتمها أربعا» وأخرجاه عن عبد الرحمن بن يزيد قال صلى عثمان بمنى أربعا فقيل لابن مسعود، فاسترجع ـ الحديث.

(٤) أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عمر رضي الله عنه. ورواه البزار من هذا الوجه. وحدث به يزيد بن زياد بن أبي الجعد عن زبيد عن عبد الرحمن عن كعب بن عجرة. وهذا الطريق أخرجه ابن ماجه. وأخرجه البزار من طريق أخرى عن زيد بن وهب عن عمر وفيه ياسين الزيات. وهو ضعيف.

(٥) متفق عليه.

(٦) أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والبزار من رواية أبي راشد عن عمار بن ياسر «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باقصار الخطبة» قال أبو داود: لا نعلم روى أبو راشد عن عمار إلا هذا الحديث. وفي ابن =

ثابت بنص الكتاب فى حال الخوف خاصة ، وهو قوله ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ وأمّا فى حال الأمن فبالسنة ، وفى قراءة عبدالله : من الصلاة أن يفتنكم ليس فيها (إن خفتم) على أنه مفعول له ، بمعنى : كراهة أن يفتنكم. والمراد بالفتنة : القتال والتعرض بما يكره

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ يتعلق بظاهره من لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث شرط كونه فيهم : وقال من رآها بعده : إن الأئمة نواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل عصر، قوام بما كان يقوم به فكان الخطاب له متناولا لكل إمام يكون حاضر الجماعة فى حال الخوف ، عليه أن يؤمهم كما أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجماعات التى كان يحضرها . والضمير فى (فيهم) للخائفين ﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك فصل بهم ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ الضمير إمّا للمصلين [1] وإمّا لغيرهم فإن كان للمصلين فقالوا : يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر ونحوهما. وإن

ـــ حبان من حديث جابر فى قصة صلاة الخوف قال «وأنزل الله إقصار الصلاة . وفى أبى يعلى عن يعلى بن أمية : قلت لعمر : فيم إقصار الصلاة ... الحديث .

(١) قال محمود : قيل المأمور بأخذ الأسلحة المصلون ... الخ ، قال أحمد : والظاهر أن المخاطب بأخذ الأسلحة المصلون ، إذ من لم يصل إنما أعد للحرس ، فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك وتنبيههم عليه ، وهم إنما أخروا الصلاة لذلك . أما المصدر فهم فى مظنة طرح الأسلحة ، لأنهم لم يعتادوا حملها فى الصلاة ، فنبهوا على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة وإن كانوا فى الصلاة ، لضرورة الخوف وخشية الغرة . وأيضا فصنيع الآية يعطى ذلك ، لأنه قال : «فلتقم طائفة منهم معك ، وعقب ذلك بقوله (وليأخذوا أسلحتهم) فالظاهر رجوع الضمير إليهم ، وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف فى صحة العود إليهم ، بدلالة قوة الكلام عليهم وإن لم يذكروا .

كان لغيرهم فلا كلام فيه ﴿ فإذا سجدوا فليكونوا ﴾ يعنى غير المصلين [1] ﴿ من ورائكم ﴾ يحرسونكم وصفة صلاة الخوف عند أبى حنيفة : أن يصلى الإمام بإحدى الطائفتين ركعة إن كانت الصلاة ركعتين ـ والأخرى بإزاء العدو ـ ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدو وتأتى الأخرى فيصلى بها ركعة ويتم صلاته . ثم تقف بإزاء العدوّ ، وتأتى الأولى فتؤدى الركعة بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تحرس ، وتأتى الأخرى فتؤدى الركعة بقراءة وتتم صلاتها . والسجود على ظاهره عند أبى حنيفة . وعند مالك بمعنى الصلاة ، لأن الإمام يصلى عنده بطائفة ركعة ويقف قائماً حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب ، ثم يصلى بالثانية ركعة ويقف قاعداً حتى تتم صلاتها . ويسلم بهم . ويعضده ﴿ ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ﴾ . وقرئ : وأمتعاتكم : فإن قلت : كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر فى الأخذ . قلت : جعل الحذر وهو التحرّز والتيقظ آلة يستعملها الغازى ، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة فى الأخذ ، وجعلا مأخوذين . ونحوه قوله تعالى (والذين تبوءوا الدار والإيمان) جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبوأ لتمكنهم فيه فلذلك جمع بينه وبين الدار فى التبوء ﴿ فيميلون عليكم ﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة . ورخص لهم فى وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم فى مطر أو يضعفهم من مرض ، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدو . فإن قلت : كيف طابق الأمر بالحذر قوله ﴿ إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ ؟ قلت : الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه ، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أنّ الله يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه ، لتقوى قلوبهم ، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك ، وإنما هو تعبد من الله كما قال (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) . ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ فإذا صليتم فى حال الخوف والقتال ﴿ فاذكروا الله ﴾ فصلوها ﴿ قياماً ﴾ مسايفين ومقارعين ﴿ وقعوداً ﴾ جاثين على الركب مرامين ﴿ وعلى جنوبكم ﴾ مثخنين بالجراح ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ فاقضوا ما صليتم فى تلك الأحوال التى هى أحوال القلق والانزعاج ﴿ إن الصلاة

---

(١) عاد كلامه . قال «والمراد بقوله فليكونوا من ورائكم غير المصلين» قال أحمد : والظاهر أن معنى السجود ههنا الصلاة . وقد عبر عنها بالسجود كثيراً والمراد : فاذا صلت الطائفة أى أتمت صلاتها ، فليكونوا من ورائكم . وفيه دليل لمشهور مذهب مالك من أن الطائفة الأولى تتم صلاتها والامام منتظر للطائفة الأخرى . وقوله (ولتأت طائفة أخرى) يعنى إذا أتمت الأولى صلاتها ووقفت من ورائكم ، فلتأت الطائفة الأخرى التى لم تصل بعد شيئا فليصلوا معك . وفيه دليل بين أيضاً لأحد القولين فى مذهب مالك ، من أن الامام ينتظر الثانية حتى تتم صلاتها ويسلم بهم ، لأن ظاهر المعية المطلقة يوجب ذلك ، إذ لو كانوا يقضون بعد سلامه لم يكونوا مصلين معه على الاطلاق ، والله أعلم . فهذه الآية منطبقة على أكثر مشهور مذهبه فى تفاصيل صلاة الخوف ، والله الموفق للصواب .

(٢) عاد كلامه . قال «فإن قلت كيف جمع بين الأسلحة ... الخ» ؟ قال أحمد : وحسن هذا المجاز وبلغ به ذروة الفصاحة ، عطف الحقيقة عليه .

كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا ﴾ محدوداً بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كنتم، خوف أو أمن. وهذا ظاهر على مذهب الشافعى رحمه الله فى إيجابه الصلاة على المحارب فى حالة المسايفة والمشى والاضطراب فى المعركة إذا حضر وقتها، فإذا اطمأن فعليه القضاء. وأما عند أبى حنيفة رحمه الله فهو معذور فى تركها إلى أن يطمئن. وقيل: معناه فإذا قضيتم صلاة الخوف فأديموا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد فى كافة أحوالكم من قيام وقعود واضطجاع، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير بذكر الله ودعائه واللجأ إليه (فإذا اطمأننتم) فإذا أقمتم (فأقيموا الصلاة) فأتموها.

وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

﴿ ولا تهنوا ﴾ ولا تضعفوا ولا تتوانوا ﴿ فى ابتغاء القوم ﴾ فى طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم، ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿ إن تكونوا تألمون ﴾ أى ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون. فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أولى منهم بالصبر لأنكم ﴿ ترجون من الله ما لا يرجون ﴾ من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم فى الآخرة. وقرأ الأعرج: أن تكونوا تألمون، بفتح الهمزة، بمعنى: ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون. وقوله (فإنهم يألمون كما تألمون) تعليل. وقرئ: فإنهم ييلمون كما تيلمون. وروى أن هذا فى بدر الصغرى، كان بهم جراح فتوا كلوا ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ لا يكلفكم شيئاً ولا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾

روى أنّ طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان فى جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها، وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها، فقال: دفعها إلىّ طعمة، وشهد له ناس من اليهود. فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودى، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب

اليهودى . وقيل : هم أن يقطع يده[1] فنزلت . وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله ﴿بما أراك الله﴾ بما عرفك وأوحى به إليك . وعن عمر رضى الله عنه : لا يقولنّ أحدكم قضيت بما أرانى الله ، فإنّ الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليجتهد[2] رأيه ، لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً ، لأن الله كان يريه إياه ، وهو منا الظن والتكلف ﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾ ولا تكن لأجل الخائنين مخاصما للبرآء ، يعنى لا تخاصم اليهود لأجل بنى ظفر ﴿واستغفر الله﴾ مما هممت به من عقاب اليهودى .

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

﴿يختانون أنفسهم﴾ يخونونها بالمعصية . كقوله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلما لها ، لأنّ الضرر راجع إليهم . فإن قلت : لم قيل (للخائنين) و﴿يختانون أنفسهم﴾ وكان السارق طعمة وحده ؟ قلت : لوجهين ، أحدهما : أنّ بنى ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه ، فكانوا شركاء له فى الإثم . والثانى : أنه جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته ، فلا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه . فإن قلت : لم قيل ﴿خوانا أثيما﴾ على المبالغة ؟ قلت : كان الله عالما من طعمة بالإفراط فى الخيانة وركوب المآثم ، ومن كانت تلك

---

(١) ذكره الثعلبي من رواية أبى صالح عن الكلبي عن ابن عباس . ونقله الواحدى عن المفسرين فى الأسباب . ورواه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال «ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فى شأن طعمة بن أبيرق وكان من الأنصار من بنى ظفر سرق درعاً لعمه ، كانت وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له : زيد بن السمين ـ فذكر القصة . وأخرجه الترمذى والحاكم مطولا من رواية محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان . وقال الترمذى : غريب ، ولا نعلم أسنده عن ابن إسحاق إلا محمد بن سلمة . ورواه يونس وغير واحد عن ابن إسحاق عن عاصم مرسلا .

(٢) قوله «ولكن ليجتهد رأيه» عبارة الخازن : ليجتهد . (ع)

خاتمة أمره لم يشك فى حاله . وقيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات . وعن عمر رضى الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق ، فجاءت أمه تبكى وتقول : هذه أوّل سرقة سرقها فاعف عنه . فقال : كذبت ، إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة[1] ﴿ يستخفون ﴾ يستترون ﴿ من الناس ﴾ حياء منهم وخوفا من ضررهم ﴿ ولا يستخفون من الله ﴾ ولا يستحيون منه ﴿ وهو معهم ﴾ وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خاف من سرهم ، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم إن كانوا مؤمنين أنهم فى حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة ، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح ﴿ يبيتون ﴾ يدبرون ويزوّرون[2] وأصله أن يكون بالليل ﴿ ما لا يرضى من القول ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمى بالدرع فى دار زيد ليسرّق دونه ويحلف ببراءته . فإن قلت : كيف سمى التدبير قولا ، وإنما هو معنى فى النفس؟ قلت : لما حدّث بذلك نفسه سمى قولا على المجاز . ويجوز أن يراد بالقول : الحلف الكاذب الذى حلف به بعد أن بيته ، وتوريكه[3] الذنب على اليهودى ﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ ها للتنبيه فى أنتم . وأولاء : وهما مبتدأ وخبر . و﴿ جادلتم ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا ، كما تقول لبعض الأسخياء : أنت حاتم ، تجود بمالك ، وتؤثر على نفسك . ويجوز أن يكون (أولاء) اسما موصولا بمعنى الذين ، وجادلتم صلته . والمعنى : هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه فى الدنيا ، فمن يخاصم عنهم فى الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه . وقرأ عبدالله : عنه ، أى عن طعمة ﴿ وكيلا ﴾ حافظا ومحاميا من بأس الله وانتقامه ﴿ ومن يعمل سوءا ﴾ قبيحا متعدّيا يسوء به غيره ، كما فعل طعمة بقتادة واليهودى ﴿ أو يظلم نفسه ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب . وقيل : ومن يعمل سوءا من ذنب دون الشرك ، أو يظلم نفسه بالشرك . وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة ، مع العلم بما يكون منه . أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه .

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

(فإنما يكسبه على نفسه) أى لا يتعدّاه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء

(١) لم أجده .

(٢) قوله «ويزوّرون» فى الصحاح «زوّرت الشىء» حسنته وقوّمته . والتزوير : تزيين الكذب . (ع)

(٣) قوله «وتوريكه الذنب» فى الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، أى قرفه به . وفيه أيضا «وهو يقرف بكذا» أى يرمى به ويتهم به . (ع)

﴿ خطيئة ﴾ صغيرة ﴿ أو إثما ﴾ أو كبيرة ﴿ ثم يرم به بريئا ﴾ كما رمى طعمة زيداً ﴿ فقد احتمل بهتانا وإثما ﴾ لأنه بكسب الإثم، آثم، وبرمى البرىء، باهت، فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه: ومن يكسب، بكسر الكاف والسين المشددة وأصله يكتسب.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)

﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته ﴾ أى عصمته وألطافه وما أوحى إليك من الاطلاع على سرّهم ﴿ لهمت طائفة منهم ﴾ من بنى ظفر ﴿ أن يضلوك ﴾ عن القضاء بالحق وتوخى طريق العدل، مع علمهم بأن الجانى هو صاحبهم، فقد روى أن ناسا منهم كانوا يعلمون كنه القصة ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ لأن وباله عليهم ﴿ وما يضرونك من شىء ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ من خفيات الأمور وضمائر القلوب، أو من أمور الدين والشرائع. ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر، ويرجع الضمير فى (منهم) إلى الناس. وقيل: الآية فى المنافقين.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً (١١٤)

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم ﴾ من تناجى الناس ﴿ إلا من أمر بصدقة ﴾ إلا نجوى من أمر، على أنه مجرور بدل من كثير، كما تقول: لا خير فى قيامهم إلا قيام زيد. ويجوز أن يكون منصوبا على الانقطاع، بمعنى: ولكن من أمر بصدقة، ففى نجواه الخير. وقيل: المعروف القرض. وقيل إغاثة الملهوف. وقيل هو عامّ فى كل جميل. ويجوز أن يراد بالصدقة الواجب وبالمعروف ما يتصدق به على سبيل التطوع. وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله»[١] وسمع سفيان رجلا يقول: ما أشد هذا الحديث. فقال: ألم تسمع الله يقول (لا خير فى كثير

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم وأبو يعلى والطبرانى من حديث أم حبيبة. ومداره على محمد بن يزيد ابن حبيش راوية سفيان الثورى، وفيه رواية الحاكم بزيادة فيه من كلام الثورى وأنه استشهد بهذه الآية وغيرها.

من نجواهم) فهو هذا بعينه . أو ما سمعته يقول (والعصر إنّ الإنسان لفي خسر) فهو هذا بعينه وشرط في استيجاب الأجر العظيم أن ينوى فاعل الخير عبادة الله والتقرب به إليه ، وأن يبتغى به وجهه خالصاً ، لأن الأعمال بالنيات . فإن قلت : كيف قال (إلا من أمر) ثم قال:(ومن يفعل ذلك ؟ قلت : قد ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله ، لأنه إذا دخل الآمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل . ثم قال : ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالأجر العظيم ، ويجوز أن يراد : ومن يأمر بذلك ، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر الأفعال ، وقرئ : يؤتيه ، بالياء .

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ وهو السبيل الذى هم عليه من الدين الحنيفى القيم ، وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها ، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة ، لأنّ الله عز وعلا جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين ، وبين مشاقة الرسول في الشرط ، وجعل جزاءه الوعيد الشديد ، فكان اتباعهم واجبا كموالاة الرسول عليه الصلاة والسلام . قوله ﴿ نوله ما تولى ﴾ نجعله واليا لما تولى من الضلال ، بأن نخذله ونخلى بينه وبين ما اختاره ﴿ ونصله جهنم ﴾ وقرئ : ونصله ، بفتح النون ، من صلاه . وقيل : هى في طعمة وارتداده وخروجه إلى مكة ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ تكرير للتأكيد ، وقيل : كرر لقصة طعمة : وروى : أنه مات مشركا .وقيل: جاء شيخ من العرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى شيخ منهمك في الذنوب ، إلا أنى لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه ولياً ، ولم أوقع المعاصى جرأة

على الله ولا مكابرة له ، وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا ، وإنى لنادم تائب مستغفر ، فما ترى حالى عندالله ؟ [١] فنزلت . وهذا الحديث ينصر قول من فسر (من يشاء) بالتائب من ذنبه [٢] ﴿ إلا إناثا ﴾ هى اللات والعزى ومناة . وعن الحسن لم يكن حىّ من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان . وقيل : كانوا يقولون فى أصنامهم هنّ بنات الله . وقيل : المراد الملائكة . لقولهم : الملائكة بنات الله . وقرئ أنثا ، جمع أنيث أو أناث . ووثناً . وأثنا ، بالتخفيف والتثقيل جمع وثن ، كقولك أسد وأسد وأسد . وقلب الواو ألفاً نحو «أجوه» فى وجوه . وقرأت عائشة رضى الله عنها : أوثاناً ﴿ وإن يدعون ﴾ وإن يعبدون بعبادة الأصنام ﴿ إلا شيطاناً ﴾ لأنه هو الذى أغراهم على عبادتها فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة . و ﴿ لعنه الله وقال لأتخذنّ ﴾ صفتان بمعنى شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾ مقطوعاً واجباً فرضته لنفسى من قولهم : فرض له فى العطاء ، وفرض الجند رزقه . قال الحسن : من كل ألف تسعمائة وتسعين إلى النار ﴿ ولأمنينهم ﴾ الأمانى الباطلة [٣] من طول الأعمار ، وبلوغ الآمال ، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة [٤] والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ونحو ذلك . وتبتيكهم الآذان فعلهم بالبحائر ، كانوا يشقون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً ، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها . وتغييرهم خلق الله : فقء عين الحامى وإعفاؤه عن الركوب . وقيل : الخصاء ، وهو فى قول عامة العلماء مباح فى البهائم . وأما فى بنى آدم فحظور . وعند أبى حنيفة : يكره شراء الخصيان وإمساكهم واستخدامهم ، لأن الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم . وقيل : فطرة الله التى هى دين الإسلام . وقيل للحسن : إن عكرمة يقول هو الخصاء ، فقال : كذب عكرمة ، هو دين الله . وعن

---

(١) هو منقطع .

(٢) قوله «ينصر قول من فسر من يشاء ... الخ» هو قول المعتزلة . (ع)

(٣) قال محمود : «المراد الأمانى الباطلة ... الخ» قال أحمد : هو تعريض بأهل السنة الذين يعتقدون أن الموحد ذا الكبائر غير التائب أمره يرجأ إلى الله تعالى ، والعفو عنه موكول إلى مشيئته إيمانا وتصديقا بقوله فى الآية المعتبرة فى هذا (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) والعجب أن هذه الآية تكررت فى هذه السورة مرتين على أذن الزمخشرى ، وهو مع ذلك يتصام عنها ، ويجعل العقيدة المتلقاة منها من جملة الأمانى الشيطانية ، نعوذ بالله من إرسال الرسن فى اتباع الهوى ، وكذلك أيضا عرض بأهل السنة فى اعتقادهم صدق الوعد الصادق بالشفاعة المحمدية ، وعد ذلك أيضا أمنية شيطانية ، ومأرى من جحد الشفاعة ينالها . فلا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد مكر بهذا الفاضل ، فلا يأمن بعده عاقل . إنه لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

(٤) قوله : «للمجرمين بغير توبة» بل بالشفاعة ، أو بمجرد الفضل . وهو مذهب أهل السنة . (ع)

ابن مسعود : هو الوشم . وعنه : لعن الله الواشرات والمتنمصات [1] والمستوشمات المغيرات خلق الله [2] . وقيل التخنث .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

﴿ وعد الله حقاً ﴾ مصدران : الأول مؤكد لنفسه ، والثانى مؤكد لغيره ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ توكيد ثالث بليغ . فإن قلت : ما فائدة هذه التوكيدات ؟ قلت : معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه ، ترغيباً للعباد فى إيثار ما يستحقون به تنجز وعد الله ، على ما يتجرعون فى عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان .

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

فى ﴿ ليس ﴾ ضمير وعد الله ، أى ليس ينال ما وعد الله من الثواب ﴿ بأمانيكم ولا ﴾ ب ﴿ أمانى أهل الكتاب ﴾ والخطاب للمسلمين لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به ، وكذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم فى الإيمان بوعد الله . وعن مسروق والسدى : هى فى المسلمين . وعن الحسن : ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل ، إنّ قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظنّ بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظنّ بالله لأحسنوا العمل له . وقيل : إنّ المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم . وقال المسلمون : نحن أولى منكم ، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله . فنزلت . ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم : إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالا (لأوتين مالا وولدا) ، (إنّ لى عنده للحسنى) وكان أهل الكتاب يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه . لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . ويعضده

---

(١) قوله « الواشرات والمتنمصات » الواشرات : المرققات أسنانهن . والمتنمصات : الناتفات للشعر والمنتقشات أيضا . اهـ صحاح . (ع)

(٢) متفق عليه من رواية علقمة بزيادة «المتفلجات» وفيه قصة .

تقدم ذكر أهل الشرك قبله . وعن مجاهد: إن الخطاب للمشركين . قوله: ﴿ من يعمل سوأ يجز به ﴾ وقوله: ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ بعد ذكر تمنى أهل الكتاب ، نحو من قوله (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) وقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) عقيب قوله(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) وإذا أبطل الله الأمانى وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل ، وأن من أصلح عمله فهو الفائز . ومن أساء عمله فهو الهالك : تبين الأمر ووضح، ووجب قطع الأمانى وحسم المطامع ، والإقبال على العمل الصالح . ولكنه نصح لا تعيه الآذان ولا تلق إليه الأذهان . فإن قلت : ما الفرق بين « من » الأولى والثانية ؟ قلت: الأولى للتبعيض ، أراد : ومن يعمل بعض الصالحات ؛ لأن كلا لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفى وسعه . وكم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة ، وتسقط عنه الصلاة فى بعض الأحوال . والثانية لتبيين الإبهام فى (من يعمل) فإن قلت: كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم فى ذلك[1] ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون الراجع فى(ولا يظلمون) لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً . والثانى أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالا على ذكره عند الآخر ، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم ، ولأن ظلم المسىء أن يزاد فى عقابه ، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد فى عقاب المجرم ، فكان ذكره مستغنى عنه وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هى فى حكم الثواب، فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب ، فكان نفى الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان فى الفضل

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

﴿أسلم وجهه لله﴾ أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها ربا ولا معبوداً سواه

(١) قال محمود : «إن قلت كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم فى ذلك ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون الراجع فى(ولا يظلمون) لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً . والثانى : أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالا على ذكره عند الآخر ، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم ، ولأن ظلم المسىء أن يزاد فى عقابه ، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد فى عقاب المجرم ، فكان ذكره مستغنى عنه . وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هى فى حكم الثواب ، فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب ، وكان نفى الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان فى الفضل» قال أحمد : مدار هذا التطويل بالسؤال والجواب على بث المعتقد الفاسد فى أن الله تعالى يجب عليه أن يثيب على الطاعات ، وأن الثواب منقسم إلى واجب ليس بفضل ، وإلى زيادة على الواجب وهى الفضل خاصة ، وهذا المعتقد هو الذى يصدق عليه أن الشيطان مناه للقدرية ، حتى زعموا أن لهم على الله واجبا ـ تعالى الله عن ذلك ـ إن الله لغنى عن عمل يوجب عليه حقاً ، جل الله وعز . لقد نفخ الشيطان بهذه الأمنية فى آذان القدرية ـ اللهم لا عمدة لنا إلا فضلك ، فأجزل نصيبنا منه يا كريم

﴿وهو محسن﴾ وهو عامل للحسنات تارك للسيئات ﴿حنيفا﴾ حال من المتبع ، أو من إبراهيم كقوله (بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وهو الذى تحنف أى مال عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ مجاز عن اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله . والخليل : المخال ، وهو الذى يخالك أى يوافقك فى خلالك ، أو يسايرك فى طريقك ، من الخل : وهو الطريق فى الرمل ، أو يسدّ خللك كما تسد خلله ، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك . فإن قلت : ماموقع هذه الجملة ؟ قلت : هى جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب ، كنحو ما يجىء فى الشعر من قولهم :

* ... ... وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ * (١)

فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته ، لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلا ، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته . ولو جعلتها معطوفة على الجملة قبلها لم يكن لها معنى . وقيل : إن إبراهيم عليه السلام بعث إلى خليل له بمصر فى أزمة أصابت الناس يمتار منه . فقال خليله : لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ، ولكنه يريدها للأضياف ، فاجتاز غلمانه ببطحاء لينة فملؤا منها الغرائر حياء من الناس . فلما أخبروا إبراهيم عليه السلام ساءه الخبر ، فحملته عيناه وعمدت امرأته إلى غرارة منها فأخرجت أحسن حوارى ، واختبزت واستنبه إبراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز ، فقال : من أين لكم ؟ فقالت امرأته : من خليلك المصرى . فقال : بل من عند خليلى الله عز وجل ، فسماه الله خليلا .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾

﴿ولله مافى السموات ومافى الأرض﴾ متصل بذكر العمال الصالحين والطالحين . معناه : أن له ملك أهل السموات والأرض ، فطاعته واجبة عليهم ﴿وكان الله بكل شىء محيطاً﴾ فكان عالما بأعمالهم فمجازيهم على خيرها وشرها ، فعليهم أن يختاروا لأنفسهم ماهو أصلح لها .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ

---

(١) ياليت شعرى والحوادث جمة هل أغدون يوما وأمرى مجمع

قوله «والحوادث جمة» أى كثيرة ، جملة اعتراضية . وأغدون : مؤكد بالنون الخفيفة . «وأمرى مجمع» أى منوى مجزوم بامتثاله . أو المعنى : وشملى مجتمع بعد تفرقه ، وهى جملة حالية مغنية عن خبر أغدون أو خبرها ، وزيدت الواو لتوكيد الربط . وأجمع يتعلق بالمعقول ، وجمع يتعلق بالمحسوس .

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿١٢٧﴾

﴿ما يتلى﴾ فى محل الرفع . أى الله يفتيكم والمتلو ﴿فى الكتاب﴾ فى معنى اليتامى ، يعنى قوله (وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى) وهو من قولك : أعجبنى زيد وكرمه . ويجوز أن يكون . (ما يتلى عليكم) مبتدأ و (فى الكتاب) خبره على أنها جملة معترضة ، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيما للمتلو عليهم ، وأن العدل والنصفة فى حقوق اليتامى من عظائم الأمور المرفوعة الدرجات عند الله التى تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، والمخل بها ظالم متهاون بما عظمه الله . ونحوه فى تعظيم القرآن : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) ويجوز أن يكون مجروراً على القسم ، كأنه قيل: قل الله يفتيكم فيهن ، وأقسم بما يتلى عليكم فى الكتاب . والقسم أيضا لمعنى التعظيم ، وليس بسديد أن يعطف على المجرور فى (فيهن) ، لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى ، فإن قلت بم تعلق قوله ﴿فى يتامى النساء﴾ ؟ قلت : فى الوجه الأول هو صلة (يتلى) أى يتلى عليكم فى معناهن . ويجوز أن يكون (فى يتامى النساء) بدلا من (فيهن) وأما فى الوجهين الآخرين فبدل لا غير . فإن قلت : الإضافة فى (يتامى النساء) ما هى ؟ قلت : إضافة بمعنى «من» كقولك : عندى سحق عمامة . وقرئ : فى ييامى النساء ، بياءين على قلب همزة أيامى ياء ﴿لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ وقرئ : ما كتب الله لهن ، أى ما فرض لهن من الميراث . وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه وما لها [1] . فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال ، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ يحتمل فى أن تنكحوهن لجمالهن ، وعن أن تنكحوهن لدمامتهن . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا جاءه ولى اليتيمة نظر ، فإن كانت جميلة غنية قال : زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك ، وإن كانت دميمة ولا مال لها قال : تزوجها فأنت أحق بها [2] ﴿والمستضعفين﴾ مجرور معطوف على يتامى النساء ، وكانوا فى الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأمور دون الأطفال والنساء . ويجوز أن يكون خطابا للأوصياء كقوله (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) ﴿وأن تقوموا﴾ مجرور كالمستضعفين بمعنى : يفتيكم فى يتامى النساء ، وفى المستضعفين ، وفى أن تقوموا . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى : ويأمركم أن تقوموا ، وهو خطاب للأئمة فى أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ، ولا يخلوا أحداً يهتضمهم .

(١) قوله «وما لها الخ» عبارة النسفى : ولعل أصله وما لها إلى ماله . (ع)

(٢) أخرجه الطبري من طريق إبراهيم أن عمر بن الخطاب ـ فذكره مرسلا .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

﴿خافت من بعلها﴾ توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسب أو ضرب والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقل محادثتها ومؤانستها، وذلك لبعض الأسباب من طعن في سنّ، أو دمامة، أو شيء في خَلق أو خُلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما. وقرئ: يصالحا. ويصلحا، بمعنى: يتصالحا، ويصطلحا. ونحو أصلح: أصبر في اصطبر ﴿صلحا﴾ في معنى مصدر كل واحد من الأفعال الثلاثة. ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفسا عن القسمة أو عن بعضها، كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت مكان عائشة من قلبه، فوهبت لها يومها [١]. وكما روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد، فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدى وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلىّ. فأقرّها. أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة؛ فإن لم تفعل فليس له إلا أن يمسكها بإحسان أو يسرحها ﴿والصلح خير﴾ من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة. أو هو خير من الخصومة في كل شيء. أو الصلح خير من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور وهذه الجملة اعتراض، وكذلك قوله ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضرا لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه، يعنى أنها مطبوعة عليه والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها [٢]، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها ﴿وإن تحسنوا﴾ بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة ﴿وتتقوا﴾ النشوز والإعراض وما يؤدى إلى الأذى والخصومة ﴿فإن الله كان بما تعملون﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خبيرا﴾ وهو يثيبكم عليه. وكان عمران بن حطان الخارجي من أدم بنى آدم، وامرأته من أجملهم،

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وهو في الصحيحين من رواية عروة عن عائشة قالت «ما رأيت امرأة أحب أن أكون مسلاخها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدة ـ الحديث».

(٢) قوله «وبغير قسمتها» لعله «غير قسمتها»، كالفرقة والنفقة والمهر. وعبارة النسفي: تسمح بقسمتها والرجل ... الخ، لحرر. (ع)

فأجالت فى وجهه نظرها يوما ثم تابعت الحمد لله . فقال : مالك ؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة . قال : كيف ؟ قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرت ، ورزقت مثلك فصبرت ، وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين [١]

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)

﴿ولن تستطيعوا﴾ ومحال أن تستطيعوا العدل ﴿بين النساء﴾ والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن ، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته ، وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم وطاقتكم : لأنّ تكليف ما لا يستطاع داخل فى حدّ الظلم (وما ربك بظلام للعبيد) وقيل : معناه أن تعدلوا فى المحبة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول « هذه قسمتى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك [٢] » يعنى المحبة ؛ لأن عائشة رضى الله عنها كانت أحب إليه . وقيل : إن العدل بينهن أمر صعب بالغ من الصعوبة حداً يوهم أنه غير مستطاع ، لأنه يجب أن يسوى بينهن فى القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والممالحة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتى من ورائه ، فهو كالخارج من حدّ الاستطاعة . هذا إذا كن محبوبات كلهن ؛ فكيف إذا مال القلب مع بعضهن ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضى منها ، يعنى : أن اجتناب كل الميل مما هو فى حد اليسر والسعة ، فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط فى العدل كله . وفيه ضرب من التوبيخ ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ وهى التى ليست بذات بعل ولا مطلقة قال :

هَلْ هِيَ إِلَّا حَظَّةٌ أَوْ تَطْلِيقْ ... أَوْ صَلَفٌ أَوْ بَيْنَ ذَاكَ تَعْلِيقْ [٣]

وفى قراءة أبىّ : فتذروها كالمسجونة . وفى الحديث : « من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء

(١) لم أجده .

(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من رواية أبى قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة ، وفيه «يعنى القلب » .

(٣) لبنت الحمارس . والاستفهام إنكارى ، أى ليست حالة الزوجة مع زوجها إلا حظة صغيرة بحظوة الزوج بها ، أو تطليق لها مع الزوج ، أو صلف ـ أى عدم حظوة من الزوج بها ـ وصلفت صلفاً من باب تعب . ونساء صالفات وصلائف ، لم يحظهن الزوج ، أو تعليق بين ذلك المذكور من الأحوال . وتسبيغ مشطور الرجز بزيادة ساكن فى آخره ـ كما هنا ـ قليل .

يوم القيامة وأحد شقيه مائل »[1] وروى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال ، فقالت عائشة رضى الله عنها : أ إلى كل أزواج رسول الله بعث عمر مثل هذا ؟ قالوا : لا ، بعث إلى القرشيات بمثل هذا وإلى غيرهنّ بغيره ، فقالت : ارفع رأسك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا فى القسمة بماله ونفسه . فرجع الرسول فأخبره ، فأتم لهن جميعاً[2] وكان لمعاذ امرأتان ، فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ فى بيت الأخرى ، فماتتا فى الطاعون فدفنهما فى قبر واحد[3] ﴿وإن تصلحوا﴾ ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة ﴿وتتقوا﴾ فيما يستقبل ، غفر الله لكم .

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

وقرئ : وإن يتفارقا ، بمعنى وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ﴿يغن الله كلا﴾ يرزقه زوجا خيراً من زوجه وعيشاً أهنأ من عيشه . والسعة الغنى . والمقدرة : والواسع : الغنى المقتدر .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

﴿من قبلكم﴾ متعلق بوصينا ، أو بأوتوا ﴿وإياكم﴾ عطف على الذين أوتوا ﴿الكتاب﴾ اسم للجنس يتناول الكتب السماوية ﴿أن اتقوا﴾ بأن اتقوا . وتكون أن المفسرة ، لأنّ التوصية فى معنى القول : وقوله ﴿وإن تكفروا فإن لله﴾ عطف على اتقوا : لأنّ المعنى :

---

(١) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من رواية بشير بن نهيك عن أبى هريرة . قال الترمذى : لا يعرف مرفوعا إلا من حديث همام .

(٢) لم أجده هكذا ، وفى مسند أحمد من رواية ناشرة بن سمين : سمعت عمر بن الخطاب يقول : وهو يخطب الناس يوم الجابية « إن الله جعلنى خازنا لهذا المال وقاسما له ، ثم قال : بل الله يقسمه ، وأنا بادئ أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض لأزواجه عشرة آلاف إلا جويرية وصفية وميمونة . فقالت عائشة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا . فعدل بينهن عمر ـ الحديث» أورده فى سنن أبى عمرو بن حفص فى مسند المكيين

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة معاذ من رواية الليث عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل ـ فذكره ـ وزاد : فأسهم بينهما أيهما تقدم وهذا مرسل .

أمرناهم وأمرناكم بالتقوى ، وقلنا لهم ولكم : إن تكفروا فإن لله . والمعنى : إن لله الخلق كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها ، فحقه أن يكون مطاعا فى خلقه غير معصىّ . يتقون عقابه ويرجون ثوابه . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من الأمم السالفة ووصيناكم أن اتقوا الله ، يعنى أنها وصية قديمة ما زال يوصى الله بها عباده ، لستم بها مخصوصين ، لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ، وبها ينالون النجاة فى العاقبة . وقلنا لهم ولكم : وإن تكفروا فإن لله فى سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقيه ﴿ وكان الله ﴾ مع ذلك ﴿ غنياً ﴾ عن خلقه وعن عبادتهم جميعاً ، مستحقا لأن يحمد لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد منهم وتكرير قوله ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ تقرير لما هو موجب تقواه ليتقوه فيطيعوه ولا يعصوه ، لأن الخشية والتقوى أصل الخير كله ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ يفنكم ويعدمكم كما أوجدكم وأنشأكم ﴿ ويأت بآخرين ﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم أو خلقا آخرين غير الإنس ﴿ وكان الله على ذلك ﴾ من الإعدام والايجاد ﴿ قديرا ﴾ بليغ القدرة لا يمتنع عليه شىء أراده ، وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقتداره . وقيل : هو خطاب لمن كان يعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب . أى : إن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه . ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال : « إنهم قوم هذا »[1] يريد أبناء فارس .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ ٱللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

﴿ من كان يريد ثواب الدنيا ﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ فما له يطلب أحدهما دون الآخر والذى يطلبه أخسهما ، لأن من جاهد لله خالصاً لم تخطئه الغنيمة ، وله من ثواب الآخرة ما الغنيمة إلى جنبه كلا شىء . والمعنى : فعند الله ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده حتى يتعلق الجزاء بالشرط .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

(١) أخرجه الطبرى من رواية سهيل عن أبيه عن أبى هريرة بهذا وقال «يعنى عجم الفرس» .

﴿ قوامين بالقسط ﴾ مجتهدين فى إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿ شهداء لله ﴾ تقيمون شهاداتكم لوجه الله كما أمرتم بإقامتها ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم . فإن قلت : الشهادة على الوالدين والأقربين أن تقول : أشهد أن لفلان على والدىّ كذا ، أو على أقاربى . فما معنى الشهادة على نفسه ؟ قلت : هى الإقرار على نفسه ، لأنه فى معنى الشهادة عليها بإلزام الحق لها . ويجوز أن يكون المعنى : وإن كانت الشهادة وبالا على أنفسكم أو على آبائكم وأقاربكم ، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره ﴿ إن يكن ﴾ إن يكن المشهود عليه ﴿ غنياً ﴾ فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلباً لرضاه ﴿ أو فقيراً ﴾ فلا تمنعها ترحما عليه ﴿ فالله أولى بهما ﴾ بالغنى والفقير أى بالنظر لهما وإرادة مصلحتهما ، ولولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها ، لأنه أنظر لعباده من كل ناظر . فإن قلت : لم ثنى الضمير فى (أولى بهما) وكان حقه أن يوحد ، لأن قوله إن يكن غنياً أو فقيراً فى معنى إن يكن أحد هذين؟ قلت : قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله (إن يكن غنياً أو فقيراً) لا إلى المذكور ، فلذلك ثنى ولم يفرد ، وهو جنس الغنىّ وجنس الفقير ، كأنه قيل : فالله أولى بجنسى الغنىّ والفقير ، أى بالأغنياء والفقراء ، وفى قراءة أبىّ : فالله أولى بهم وهى شاهدة على ذلك . وقرأ عبدالله : إن يكن غنىٌّ أو فقير ، على «كان» التامة ﴿ أن تعدلوا ﴾ يحتمل العدل والعدول ، كأنه قيل : فلا تتبعوا الهوى ، كراهة أن تعدلوا بين الناس ، أو إرادة أن تعدلوا عن الحق ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل ، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها . وقرئ : وإن تلوا ، أو تعرضوا ، بمعنى : وإن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عن إقامتها ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ وبمجازاتكم عليه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمسلمين . ومعنى ﴿ آمنوا ﴾ اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه ﴿ والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب ، والدليل عليه قوله (وكتبه) قرئ : وكتابه على إرادة الجنس . وقرئ : نزل . وأنزل ، على البناء للفاعل . وقيل : الخطاب لأهل الكتاب ، لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض . وروى أنه لعبدالله بن سلام ، وأسد وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة

ابن قيس ، وسلام بن أخت عبدالله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ، ويامين بن يامين ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله ، إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال عليه السلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل . فنزلت ، فآمنوا كلهم .[(١)] وقيل : هو للمنافقين ، كأنه قيل : ياأيها الذين آمنوا نفاقا آمنوا إخلاصا . فإن قلت : كيف قيل لأهل الكتاب (والكتاب الذى أنزل من قبل) وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل ؟ قلت : كانوا مؤمنين بهما فحسب ، وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب ، فأمروا أن يؤمنوا بالجنس كله ، ولأن إيمانهم ببعض الكتب لايصح إيماناً به ، لأن طريق الإيمان به هو المعجزة ، ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض ، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله ، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة ، فلم يكن إيمانهم إيمانا . وهذا الذى أراد عز وجلّ فى قوله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) . فإن قلت : لم قيل (نزل على رسوله) و(أنزل من قبل) ؟ قلت : لأن القرآن نزل مفرّقا منجما فى عشرين سنة ، بخلاف الكتب قبله . ومعنى قوله ﴿ ومن يكفر بالله ﴾ الآية : ومن يكفر بشىء من ذلك ﴿ فقد ضل ﴾ لأن الكفر ببعضه كفر بكله . ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان به جميعاً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾

﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ نفى للغفران والهداية [(٢)] وهى اللطف على سبيل

(١) ذكره الثعالبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وذكره الواحدى فى الأسباب عن الكلبي بغير سند .

(٢) قال محمود : « نفى للغفران والهداية ... الخ » قال أحمد : وليس فى هذه الآية ما يخالف ظاهر القاعدة المستقرة على أن التوبة مقبولة على الاطلاق ، لأن آخر ما ذكر من حال هؤلاء ازدياد الكفر ، ولو كان المذكور فى آخر أحوالهم التوبة والايمان لاحتيج إلى الجمع بين الآية والقاعدة إذاً . وإنما يقع هذا الفصل الذى أورده الزمخشرى موقعه فى آية آل عمران ، وهو قوله تعالى (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) وقد ظهر الآن فى الجمع بين هذه الآية والقاعدة وجه آخر سوى ماتقدم فى آل عمران ، وهو أن يكون المراد : لن يصدر منهم توبة فلن يكون قبول ، من باب « على لاحب لايهتدى بمناره » وعلى هذا يكون خبراً لا حكما ، والخبر عنهم من سبق فى علم الله أنه لا يتوب من المرتدين ، والله أعلم . وفى قول الزمخشرى « إن الناكث للتوبة العائد إليها يغلب من حاله أنه يموت بشر حال» نظر ، فقد ورد فى الحديث «المؤمن مفتن تواب» قال الهروى : معناه يقارف الذنب لفتنته ، ثم يعقبه بالتوبة .

المبالغة التى يعطيها اللام، والمراد بنفيهما نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت. والمعنى: إنّ الذين تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه، يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله، لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردّة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه، حيث يبدو لهم فيه كرّة بعد أخرى وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردّة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأنّ ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذى يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع، لا يكاد يرجى منه الثبات. والغالب أنه يموت على شرّ حال وأسمج صورة. وقيل: هم اليهود، آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا بالإنجيل وبعيسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

بَشِّرِ الْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

﴿بشر المنافقين﴾ وضع (بشر) مكان: أخبر، تهكما بهم. و﴿الذين﴾ نصب على الذم أو رفع بمعنى أريد الذين، أو هم الذين. وكانوا يمايلون الكفرة [1] ويوالونهم ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم، وقال ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

(١) قوله «يمايلون الكفرة»: لعله «يمالئون». (ع)

﴿ أن إذا سمعتم ﴾ هى أن المخففة من الثقيلة . والمعنى أنه إذا سمعتم ، أى نزل عليكم أن الشأن كذا والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها ، و « أن » مع ما فى حيزها فى موضع الرفع بنزل ، أو فى موضع النصب بنزّل ، فيمن قرأ به . والمنزل عليهم فى الكتاب : هو ما نزل عليهم بمكة من قوله (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) وذلك أن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزؤن به ، فنهى المسلمون عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه . وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين ، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة . وكان الذين يقاعدون الخائضين فى القرآن من الأحبار هم المنافقون ، فقيل لهم إنكم إذاً مثل الأحبار فى الكفر ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين ﴾ يعنى القاعدين والمقعود معهم . فإن قلت : الضمير فى قوله ﴿ فلا تقعدوا معهم ﴾ إلى من يرجع ؟ قلت : إلى من دل عليه ﴿ يكفر بها ويستهزأ بها ﴾ كأنه قيل : فلا تقعدوا مع الكافرين بها والمستهزئين بها . فإن قلت : لم يكونوا مثلهم بالمجالسة إليهم فى وقت الخوض ؟ قلت : لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين . والراضى بالكفر كافر . فإن قلت : فهلا كان المسلمون بمكة ـ حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين ـ منافقين ؟ قلت : لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم ، فكان ترك الإنكار لرضاهم ﴿ الذين يتربصون ﴾ إما بدل من الذين يتخذون وإما صفة للمنافقين أو نصب على الذم منهم (يتربصون بكم) أى ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق[1] ﴿ ألم نكن معكم ﴾ مظاهرين فأسهموا لنا فى الغنيمة ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم ﴿ ونمنعكم من المؤمنين ﴾ بأن ثبطناهم عنكم ، وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا فى قتالكم ، وتوانينا فى مظاهرتهم عليكم ، فهاتوا نصيباً لنا بما أصبتم . وقرئ (ونمنعكم) بالنصب بإضمار أن ، قال الحطيئة :

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونَ بَيْنِي ... وَبَيْنَكُمُ الْمَوَدَّةُ وَالإِخَاءُ[2]

فإن قلت : لم سمى ظفر المسلمين فتحاً ، وظفر الكافرين نصيبا ؟ قلت : تعظيما لشأن المسلمين وتخسيساً لحظ الكافرين ؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم[3] تفتح لهم أبواب

---

(١) قوله « أو إخفاق » فى الصحاح : أخفق الرجل إذا غزا ولم يغنم . (ع)

(٢) للحطيئة يخاطب الزبرقان ، وهم بنو عوف بن كعب ، وكان جارهم ثم انتقل إلى بنى رفيع ، فذكر الزبرقان بحق الجوار ، وأنه ينبغى أن لا يقاطعونه . والاستفهام للتقرير : أى أقروا بحق الجوار ، فيكون بيننا تمام المودة والمؤاخاة ، أى الموافقة فى العسر واليسر ، والبأساء والضراء .

(٣) قال محمود : « سمى ظفر المسلمين فتحا تعظيما لشأن المسلمين ... الخ » قال أحمد : وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن ، فان الذى كان يتفق للمسلمين فيه : استئصال لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم ==

السماء حتى ينزل على أوليائه. وأمّا ظفر الكافرين، فما هو إلا حظ دنىّ ولمظة من الدنيا [١] يصيبونها.

إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

﴿ يخادعون الله ﴾ يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ﴿ وهو خادعهم ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع حيث تركهم معصومى الدماء والأموال فى الدنيا وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار فى الآخرة، ولم يخلهم فى العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه. وقيل: يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، فينادون: انظرونا نقتبس من نوركم ﴿ كسالى ﴾ قرئ بضم الكاف وفتحها، جمع كسلان، كسكارى فى سكران، أى يقومون متثاقلين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة ﴿ يراؤن الناس ﴾ يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة [٢] ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ ولا يصلون إلا قليلا لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به، وما يجاهرون به قليل أيضاً لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس فى قلوبهم لم يتكلفوه. أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكرا قليلا فى الندرة، وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام

= وأرض لم يطؤها. وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التى لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحا، فالتفريق بينهما مطابق أيضاً للواقع، والله أعلم.

(١) قوله «ولمظة من الدنيا» فى الصحاح: لمظ يلمظ ـ بالضم ـ لمظا، إذا تتبع بلسانه بقية الطعام فى فمه. واللمظة ـ بالضم ـ كالنكتة من البياض. (ع)

(٢) قال محمود: «لأنهم إنما يصلون رياء ما دام من يرقبهم، فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا أو لا يذكرون الله بالتهليل والتسبيح إلا ذكراً قليلا فى الندرة وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالاسلام لو صحبته الأيام والليالى لم تسمع منه تهليلة ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه. ولا يجوز أن يراد بالقلة العدم» انتهى كلامه. قلت: وإنما منع من أن يراد بها العدم لأنه خبر فيجب صدقه، وقد كانوا يذكرون الله فى بعض الأحيان فلا يمكن أن يسلب ذكر الله مطلقا، وإذا بنينا على أن المراد بالذكر الصلاة وهو الظاهر، فالمراد أيضا الصلاة المعتبرة التى يذكر بها الانسان حق الله عليه فينتهى عن الفحشاء والمنكر. والصلاة فى هذا الوجه مسلوبة عن المنافقين مطلقا، فيجوز إذا حمل القلة على العدم بهذا التفسير، والله أعلم.

والليالى لم تسمع منه تهليلة ولا تسبيحة ولا تحميدة ، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه . ويجوز أن يراد بالقلة العدم . فإن قلت : ما معنى المراءاة وهى مفاعلة من الرؤية ؟ قلت : فيها وجهان ، أحدهما : أن المرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسانه . والثانى : أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل ، فيقال . راءى الناس . يعنى رآهم ، كقولك : نعمه وناعمه ، وفنقه وفانقه[١] وعيش مفانق . روى أبو زيد : رأت المرأة المرأة الرجل ، إذا أمسكتها لترى وجهه . ويدل عليه قراءة ابن أبى إسحق : يرأونهم بهمزة مشددة : مثل . يرعونهم ، أى يبصرونهم أعمالهم ويراؤنهم كذلك ﴿ مذبذبين ﴾ إمّا حال نحو قوله (ولا يذكرون) عن واو يراؤن ، أى يراؤنهم غير ذاكرين مذبذبين ، أو منصوب على الذم . ومعنى (مذبذبين) ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر ، فهم مترددون بينهما متحيرون . وحقيقة المذبذب الذى يذب عن كلا الجانبين أى يذاد ويدفع فلا يقرّ فى جانب واحد ، كما قيل : فلان يرمى به الرحوان[٢] ، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب كأن المعنى : كلما مال إلى جانب ذب عنه . وقرأ ابن عباس (مذبذبين) بكسر الذال ، بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم . أو بمعنى يتذبذبون . كما جاء : صلصل وتصلصل بمعنى . وفى مصحف عبد الله . متذبذبين . وعن أبى جعفر : مدبدبين ، بالدال غير المعجمة وكأن المعنى : أخذ بهم تارة فى دبة وتارة فى دبة ، فليسوا بماضين على دبة واحدة . والدبة : الطريقة ومنها : دبة قريش . و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكفر والإيمان ﴿ لا إلى هؤلاء ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ﴿ ولا إلى هؤلاء ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

﴿ لا تتخذوا الكافرين أولياء ﴾ لا تتشبهوا بالمنافقين فى اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء ﴿ سلطانا ﴾ حجة بينة ، يعنى أن موالاة الكافرين بينة على النفاق . وعن صعصعة ابن صوحان أنه قال لابن أخ له : خالص المؤمن ، وخالق الكافر والفاجر ؛ فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن ، وإنه يحق عليك أن تخالص المؤمن .

---

(١) قوله «وفنقه وفانقه» فى الصحاح أنهما بمعنى : أى نعمه . (ع)

(٢) قوله «يرمى به الرحوان» فى الصحاح الرحى معروفة ، والألف منقلبة من الياء . تقول : هما رحيان . وفيه أيضاً ، رحت الحية ترحو ، إذا استدارت . والرحي : قطعة من الأرض تستدير وترتفع على ماحولها . ورحى القوم : سيدهم . والأرحاء : الأضراس . والأرحاء : القبائل التى تستقل بنفسها وتستغنى عن غيرها اه . وظاهره أن الرحى هنا وادى ، فليحرر . (ع)

إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

﴿ الدرك الأسفل ﴾ الطبق الذى فى قعر جهنم ، والنار سبع دركات ، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض ، وقرئ بسكون الراء ، والوجه التحريك ، لقولهم : أدراك جهنم . فإن قلت : لِمَ كان المنافق أشدّ عذابا من الكافر ؟ قلت : لأنه مثله فى الكفر ، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم [1] ﴿ وأصلحوا ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم فى حال النفاق ﴿ واعتصموا بالله ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخلص ﴿ وأخلصوا دينهم لله ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم فى الدارين ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما ﴾ فيشاركونهم فيه ويساهمونهم . فإن قلت : مَن المنافق ؟ قلت . هو فى الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر . وأمّا تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق فللتغليظ ، كقوله « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر » [2] ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : من إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان [3] » ، وقيل لحذيفة رضى الله عنه : مَن المنافق ؟ فقال : الذى يصف الإسلام ولا يعمل به . وقيلَ لابن عمر : ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه فقال : كنا نعدّه من النفاق . وعن الحسن : أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه [4] ، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطى سيفاً ، يعنى الحجاج .

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

﴿ ما يفعل الله بعذابكم ﴾ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثار ، أم يستجلب به نفعاً ، أم يستدفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم ، وهو الغنىّ الذى لا يجوز عليه شىء من ذلك . وإنما

(١) قوله « ومداجاتهم » فى الصحاح : المداجاة : المداراة . (ع)

(٢) تقدم فى آل عمران والبقرة .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ « آية المنافق ثلاث إلى آخره ، وفى رواية « من علامات المنافق ثلاث » .

(٤) قوله « وهو مقروع فيه » لعله يريد القرع بالعصا . وفى الصحاح « القارعة » الشديدة من شدائد الدهر ، يقال : قرعتهم قوارع الدهر ، أى أصابتهم . وقرعت رأسه بالعصا ، مثل قرعت . (ع)

هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء ، فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب ﴿وكان الله شاكراً﴾ مثيبا موفيا أجوركم ﴿عليما﴾ بحق شكركم وإيمانكم . فإن قلت : لم قدم الشكر على الإيمان ؟ قلت : لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة فى خلقه وتعريضه للمنافع ، فيشكر شكراً مبهما ، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلا ، فكان الشكر متقدما على الايمان ، وكأنه أصل التكليف ومداره .

لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾
إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

﴿إلا من ظلم﴾ إلا جهر من ظلم [١] استثنى من الجهر الذى لا يحبه الله جهر المظلوم . وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السوء . وقيل : هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم (ولمن انتصر بعد ظلمه) وقيل : ضاف رجل قوما فلم يطعموه ، فأصبح شاكيا ، فعوتب على الشكاية فنزلت . وقرئ (إلا من ظلم) على البناء للفاعل للانقطاع . أى ولكن الظالم راكب ما لا يحبه الله فيجهر بالسوء . ويجوز أن يكون (من ظلم) مرفوعا ، كأنه قيل : لا يحب الله الجهر بالسوء ، إلا الظالم على لغة من يقول : ماجاءنى زيد إلا عمرو ، بمعنى ماجاءنى إلا عمرو . ومنه (لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) ثم حث على العفو ، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار ، بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوبا ، حثا على الأحب إليه والأفضل عنده والأدخل فى الكرم والتخشع والعبودية ، وذكر إبداء الخير وإخفاءه تشبيبا [٢] للعفو ، ثم عطفه عليهما اعتدادا به وتنبيها على منزلته ، وأن له مكانا فى باب الخير وسيطا [٣] . والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله ﴿فإن الله كان عفوا قديرا﴾ أى يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام ، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ

(١) قال محمود : « تقديره لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من ظلم ، وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه ... الخ » قال أحمد : « ووجه التغاير أن الظالم لا يندرج فى المستثنى منه كما أن الله تعالى مقدس أن يكون فى السموات أو فى الأرض ، فاستحال دخوله فى المستثنى منه . وكذا لا يندرج المستثنى فى المستثنى منه فى قولك : ماجاءنى زيد إلا عمرو . وكلام الزمخشرى فى هذا الفصل لا يتحقق لى منه ما يسوغ مجازيته فيه لاغلاق عبارته ، والله أعلم بمراده .

(٢) قوله «تشبيبا» لعله محرف وأصله «تنبيها» فحرر (ع)

(٣) قوله «وسيطا» أى متوسطا . (ع)

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾

جعل الذين آمنوا بالله وكفروا برسله أو آمنوا بالله وببعض رسله وكفروا ببعض كافرين بالله ورسله جميعا لما ذكرنا [1] من العلة ، ومعنى اتخاذهم بين ذلك سبيلا : أن يتخذوا دينا وسطا بين الإيمان والكفر كقوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى طريقا وسطا فى القراءة وهو ما بين الجهر والمخافتة . وقد أخطئوا ، فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان [2] ولذلك قال ﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾ أى هم الكاملون فى الكفر . و(حقا) تأكيد لمضمون الجملة ، كقولك : هو عبدالله حقا ، أى حق ذلك حقا ، وهو كونهم كاملين فى الكفر ، أو هو صفة لمصدر الكافرين ، أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لاشك فيه .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾

فإن قلت : كيف جاز دخول ﴿بين﴾ على ﴿أحد﴾ وهو يقتضى شيئين فصاعدا ؟ قلت : إن أحدا عام فى الواحد المذكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما ، تقول : ما رأيت أحدا ، فتقصد العموم ، ألا تراك تقول : إلا بنى فلان ، وإلا بنات فلان ؛ فالمعنى : ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة ومنه قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) ، (سوف يؤتيهم أجورهم) معناه : أن إيتاءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به توكيد الوعد وتثبيته لا كونه متأخرا .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ

---

(١) قوله «لما ذكرنا» أى فى تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ... الخ» . (ع)

(٢) قوله «فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان» هذا عند أهل السنة . أما عند المعتزلة ففاعل الكبيرة الذى يموت بلا توبة لا هو مؤمن ولا كافر ، بل منزلة بين المنزلتين . فتدبر . (ع)

بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)

روى أنّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازورا وغيرهما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيا صادقا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى [١]. فنزلت. وقيل: كتابا إلى فلان وكتابا إلى فلان أنك رسول الله، وقيل: كتابا نعاينه حين ينزل. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت، قال الحسن: ولو سألوه لكى يتبينوا الحق لأعطاهم، وفيما آتاهم كفاية ﴿فقد سألوا موسى﴾ جواب لشرط مقدر [٢]. معناه: إن استكبرت ماسألوه منك فقد سألوا موسى ﴿أكبر

(١) لم أجده هكذا. ورواه الطبرى من طريق أسباط عن السدى قال، قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم: إن كنت صادقا أنك رسول الله فائتنا بكتاب من السماء كما جاء به موسى. فنزلت.

(٢) قال محمود: «فقد سألوا موسى: جواب لشرط مقدر ... الخ» قال أحمد: وهذا من المواضع التي استولى عليه فيها الاغفال، ولوح به اتباع هواه إلى مهواة الضلال، لأنه بنى على أن الظلم المضاف إليهم لم يكن إلا لمجرد كونهم طلبوا الرؤية وهى محال عقلا دنيا وآخرة على زعم القدرية، لما يلزم عندهم لو قيل بجوازها من اعتقاد التشبيه، فلذلك سمي أهل السنة المعتقدين لجوازها ووقوعها فى الآخرة وفاء بالوعد الصادق مشبهة، وغفل عن كون اليهود اقترحوا على موسى عليه السلام خصوصية علقوا إيمانهم بها، ولم يعتبروا المعجز من حيث هو كما يجب اعتباره فقالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فهذا الاقتراح والتعنت يكفيهم ظلما. ألا ترى أن الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء، أو حتى تفجر الأرض، أو يكون لك بيت من زخرف، كيف هم من أظلم الظلمة؟ وإن كانوا إنما طلبوا أمورا جائزة، ولكنهم اقترحوا فى الآيات على الله، وحقهم أن يسندوا إيمانهم إلى أى معجز اختاره الله - دل ذلك دلالة يلجأ على أن ظلمهم مسبب عن اقتراحهم، لا عن كون المقترح ممتنعا عقلا. والعجب بتنظير هذا السؤال لو كان المسؤل جائزاً كسؤال إبراهيم عن إحياء الموتى على زعم الزمخشرى، غفلة منه عما انطوى عليه سؤال ابراهيم عليه السلام من صريح الايمان حيث قال له تعالى (أولم تؤمن قال بلى) وعما انطوى عليه سؤال هؤلاء الملاعين من محض الكفر والاصرار عليه فى قولهم: لن نؤمن لك. فصدروا كلامهم بالجحد والنفى. وأما دعاء الزمخشرى على أهل السنة بالتب والصواعق، فالله أعلم أى الفريقين أحق بها. ويكفيه هذه الغفلة التى تنادى عليه باتباع الهوى الذى يعمى ويصم، نسأل الله العصمة من الضلالة والغواية.

من ذلك﴾ وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى وهم النقباء السبعون ، لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت ﴿جهرة﴾ عيانا بمعنى أرناه نره جهرة ﴿بظلمهم﴾ بسبب سؤالهم الرؤية . ولو طلبوا أمرا جائزا لما سموا ظالمين ولما أخذتهم الصاعقة ، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى فلم يسمه ظالما ولا رماه بالصاعقة ، فتبا المشبهة ورميا بالصواعق [1] ﴿آتينا موسى سلطانا مبينا﴾ تسلطا واستيلاء ظاهرا عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم حتى يتاب عليهم فأطاعوه ، واحتبوا بأفنيتهم والسيوف تتساقط عليهم فيالك من سلطان مبين ﴿بميثاقهم﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه ﴿وقلنا لهم﴾ والطور مطل عليهم ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ ولا تعدوا فى السبت ، وقد أخذ منهم الميثاق على ذلك ، وقولهم سمعنا وأطعنا ، ومعاهدتهم على أن يتموا عليه ثم نقضوه بعد . وقرئ : لا تعتدوا . ولا تعدّوا ، بادغام التاء فى الدال ﴿فبما نقضهم﴾ فبنقضهم . «وما» مزيدة للتوكيد . فإن قلت : بم تعلقت الباء ؟ وما معنى التوكيد ؟ [2] قلت : إما أن يتعلق بمحذوف ، كأنه قيل : فبما نقضهم ميثاقهم فعلنا بهم مافعلنا ، وإما أن يتعلق بقوله (حرمنا عليهم) على أنّ قوله (فبظلم من الذين هادوا) بدل من قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) وأما التوكيد فمعناه تحقيق أنّ العقاب أو تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عطف عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك . فإن قلت : هلا زعمت أن المحذوف [3] الذى تعلقت به الباء مادل عليه قوله ﴿بل طبع الله عليها﴾ فيكون التقدير :

---

(١) قوله «فتبا المشبهة ورميا بالصواعق» يعنى أهل السنة ، حيث أجازوا على الله الرؤية كما حقق فى محله ، وغفر الله للمؤمن يسىء المؤمنين . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت بم تعلقت الباء فى قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) قلت : إما أن تتعلق بمحذوف كأنه قيل : فبما نقضهم ميثاقهم فعلنا بهم مافعلنا . وإما أن تتعلق بقوله (حرمنا عليهم) على أن قوله (فبظلم من الذين هادوا) بدل من قوله (فبما نقضهم) انتهى كلامه» . قلت : ولذكر البدل المذكور سر ، وهو أن الكلام لما طال بعد قوله (فبما نقضهم) حتى بعد عن متعلقه الذى هو حرمنا ، قوى ذكره بقوله (فبظلم من الذين هادوا) حتى يلى متعلقه ، وجاء النظم به على وجه من الاقتصار فى إجمال ماسبق تفصيله ، لأن جميع ماتقدم من النقض ، والقتل ، وقولهم قلوبنا غلف ، وكفرهم ، وقولهم على مريم بهتانا عظيما . ودعواهم قتل المسيح ابن مريم قد انطوى عليه الاجمال المذكور آخرا انطواء جامعا ، مع التسجيل على أن جميع أفاعيلهم الصادرة منهم ظلم . وقد تقدم لهذا التقرير نظائر والله الموفق .

(٣) عاد كلامه . قال : «إن قلت هلا زعمت أن المحذوف الذى تعلقت به الباء مادل عليه قوله (بل طبع الله عليها) فيكون التقدير : فبما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم . قلت : لم يصح هذا التقدير ؛ لأن قوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) رد وإنكار لقولهم (قلوبنا غلف) فكان متعلقا به ، وذلك أنهم أرادوا بقولهم (قلوبنا غلف) أن الله خلقها غلفا ، أى فى أكنة لايتوصل إليها شىء من الذكر والموعظة ، كما حكى الله عن المشركين وقالوا (لو شاء الرحمن ماعبدناهم) وكذب المجبرة أخزاهم الله ، فقيل لهم : بل خذلها الله ومنعها الألطاف بسبب كفرهم ، فصارت كالمطبوع عليها» انتهى كلامه . قال أحمد : هؤلاء قوم زعموا أن لهم على الله حجة بكونه خلق قلوبهم غير قابلة للحق =

فبما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم ، بل طبع الله عليها بكفرهم . قلت : لم يصح هذا التقدير لأنّ قوله : (بل طبع الله عليها بكفرهم) ردّ وإنكار لقولهم (قلوبنا غلف) فكان متعلقاً به ، وذلك أنهم أرادوا بقولهم (قلوبنا غلف) أنّ الله خلق قلوبنا غلفاً ، أى فى أكنة لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة ، كما حكى الله عن المشركين وقالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) وكمذهب المجبرة [1] أخزاهم الله . فقيل لهم: بل خذلها الله ومنعها الألطاف بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها ، لا أن تخلق غلفاً غير قابلة الذكر ولا متمكنة من قبوله . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وبكفرهم ﴾ ؟ قلت : الوجه أن يعطف على (فبما نقضهم) ويجعل قوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) كلاماً تبع قوله (وقالوا قلوبنا غلف) على وجه الاستطراد ، يجوز عطفه على ما يليه من قوله (بكفرهم) . فإن قلت : ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره ، سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب ، أو على ما بعده، وهو قوله (وكفرهم بآيات الله) وقوله (بكفرهم)؟ قلت : قد تكرر منهم الكفر ، لأنهم كفروا بموسى ، ثم بعيسى ، ثم بمحمد صلوات الله عليهم ، فعطف بعض كفرهم على بعض ، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق ، والكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقولهم قلوبنا غلف ، وجمعهم

ـــ ولامتمكنة من قبوله ، فكذبهم فى قولهم لأنه خلق قلوبهم على الفطرة أى أن الايمان وقبول الحق من جنس مقدورهم كما هو من جنس مقدور المؤمنين ، وذلك هو المعبر بالتمكن ، وبخلقهم ميسرين للايمان ، متأتيا منهم قبول الحق قامت عليهم حجة الله ، إذ يجد الانسان بالضرورة الفرق بين قبول الحق والدخول فى الايمان ، وبين طيرانه فى الهواء ومشيه على الماء ، ويعلم ضرورة أن الايمان ممكن منه ، كما يعلم أن الطيران غير ممكن منه عادة ، فقد قامت الحجة وتبلجت ، ألا لله الحجة البالغة ، فمن هذا الوجه اتجه الرد عليهم « لا كما يزعمه الزمخشرى من أن لهم قدرة على الايمان يلحقونه بها لأنفسهم ويقرونه فى قلوبهم ، وتلك القدرة موجودة سواء وجد الفعل أولا ، كالسيف المعد فى يد القاتل للقتل سواء وجد أولا ، وأن هذه القدرة التى هى كالآلة للخلق على زعمه يصرفها العبد حيث شاء فى إيمان وكفر ، وافق ذلك مشيئة الله أولا ، وأن هؤلاء صرفوا قدرتهم إلى خلق الكفر لأنفسهم على خلاف مشيئة الله تعالى ، فلذلك يعرض الزمخشرى بأهل السنة ، القائلين بأن الله تعالى لوشاء من عبدة الأوثان أن لا يعبدوها لما عبدوها ، وتسميتهم لذلك مجبرة ، ويجعل قوله تعالى (وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم) ردا على الأشعرية كما هو رد على الوثنية ، ويغفل عن النكتة التى نبهنا عليها ، وهى : أن الرد على الوثنية بذلك لم يكن إلا لأنهم ظنوا أن هذا المقدار يقيم لهم الحجة على الله ، ولذلك قال تعالى عقيب ذلك (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) فأوضح الله تعالى أن الرد عليهم لم يكن لقولهم : إن الله لوشاء لهداكم أجمعين ، ولكن إنما كان الرد لظنهم أن ذلك حجة على الله بقوله (فلله الحجة البالغة) فهذا التقرير هو الايمان المحض والتوحيد الصرف ، وماعداه من الاشراك الصراح خزى ، نعوذ بالله منه .

(١) قوله « وكمذهب المجبرة أخزاهم الله » يريد بهم أهل السنة وحاشاهم أن يريدوا بمذهبهم ماأراده الكفار بما قالوا . وتحقيقه فى علم التوحيد . وغفر الله لمن تعدى حد الشرع من المؤمنين ولا أخزاهم يوم الدين . (ع)

بين كفرهم وبهتهم [1] مريم ، وافتخارهم بقتل عيسى ، عاقبناهم . أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا . والبهتان العظيم : هو التزنية . فإن قلت : كانوا كافرين بعيسى عليه السلام ، أعداء له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر بن الساحرة ، والفاعل بن الفاعلة ، فكيف قالوا (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) ؟ قلت : قالوه على وجه الاستهزاء ، كقول فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله (ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض مهداً) . روى أن رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم « اللهم أنت ربى وبكلمتك خلقتنى ، اللهم العن من سبنى وسب والدتى » فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير ، فأجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا . فألقى عليه شبهه فقتل وصلب . وقيل : كان رجلا ينافق عيسى ، فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، فدخل بيت عيسى فرفع عيسى وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إنه إله لا يصح قتله . وقال بعضهم : إنه قتل وصلب . وقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم رفع إلى السماء . وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . فإن قلت : ﴿ شبه ﴾ مسند إلى ماذا ؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح ، فالمسيح مشبه به وليس بمشبه ، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر قلت : هو مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿ لهم ﴾ كقولك خيل إليه ، كأنه قيل : ولكن وقع لهم التشبيه . ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول ؛ لأن قوله : إنا قتلنا يدل عليه ، كأنه قيل : ولكن شبه لهم من قتلوه ﴿ إلا اتباع الظن ﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم ، يعنى : ولكنهم يتبعون الظن . فإن قلت : قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين [2] ، ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما ، فكيف يكونون شاكين ظانين ؟ قلت : أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط ، ولكن إن لاحت لهم أمارة فظنوا ، فذاك ﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ وما قتلوه قتلا يقيناً . أو ما قتلوه متيقنين ، كما ادعوا

---

(١) قوله « وبهتهم مريم » أى رميها بما ليس فيها ، وهو التزنية . أى الرمى بالزنا . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح . . . الخ » قال أحمد : وليس فى هذا الجواب شفاء للغليل . والظاهر والله أعلم أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك فى أمره والتردد فجاءت العبارة الأولى على مايغلب من حالهم ثم كانوا لا يخلون من ظن فى بعض الأحوال وعنده يقفون لا يرفعون إلى العلم فيه البتة وكيف يعلم الشيء على خلاف ماهو به فجاءت العبارة الثانية على حالهم النادرة فى الظن نافية عنهم مايترقى عن الظن البتة ، والله أعلم .

ذلك فى قولهم (إنا قتلنا المسيح) أو يجعل (يقيناً) تأكيداً لقوله (وما قتلوه)كقولك:ماقتلوه حقا أى حق انتفاء قتله حقا . وقيل : هو من قولهم : قتلت الشىء علماً ونحرته علماً إذا تبالغ فيه علمك . وفيه تهكم ، لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كليا بحرف الاستغراق . ثم قيل : وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكما بهم ﴿ ليؤمننّ به ﴾ جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننّ به . ونحوه : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، (وإن منكم إلا واردها) والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمننّ قبل موته بعيسى ، وبأنه عبد الله ورسوله ، يعنى : إذا عاين قبل أن تزهق روحه [١] حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف . وعن شهر بن حوشب : قال لى الحجاج : آية ما قرأتها [٢] إلا تخالج فى نفسى شىء منها [٣] يعنى هذه الآية ، وقال إنى أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك ، فقلت : إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدوّ الله ، أتاك موسى نبيا فكذبت به فيقول : آمنت أنه عبد نبىّ . وتقول للنصرانى : أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله ، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إلىّ وقال: ممن؟ قلت: حدثنى محمد بن علىّ بن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال : لقد أخذتها من عين صافية ، أو من معدنها . قال الكلبى : فقلت له: ما أردت إلى أن تقول حدثنى محمد بن علىّ بن الحنفية . قال : أردت أن أغيظه ، يعنى بزيادة اسم علىّ ، لأنه مشهور بابن الحنفية . وعن ابن عباس أنه فسره كذلك . فقال له عكرمة : فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال : لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه . قال : وإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال : يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن [٤] به . وتدل عليه قراءة أبىّ : إلا ليؤمننّ به قبل موتهم ، بضم النون على معنى : وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم ، لأنّ أحداً يصلح للجمع . فإن

---

(١) قال محمود : « يعنى إذا عاين قبل أن تزهق روحه ... الخ » قال أحمد : كقول فرعون لما عاين الملاك : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : « وعن شهر بن حوشب قال لى الحجاج آية ما قرأتها . . . الخ » . قال أحمد : ويبعد هذا التأويل قوله (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) فان ظاهره التهديد ، ولكن ما أريد بقوله فى حق هذه الأمة (ويكون الرسول عليكم شهيدا) والله أعلم .

(٣) لم أجده . قلت : هو فى تفسير الكلبى ، رواه عن شهر . ورأيته قديما فى كتاب المبتدا وقصص الأنبياء لوثيمة بسنده من هذا الوجه .

(٤) لم أجده هكذا . وأخرجه الطبرى من رواية أسباط عن السدى قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس من يهودى يموت حتى يؤمن بعيسى بن مريم . فقال له رجل من أصحابه : كيف والرجل يغرق أو يحترق ، أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع ؟ فقال : لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الايمان بعيسى عليه الصلاة والسلام

قلت : مافائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم ؟ قلت : فائدته الوعيد ، وليكون علمهم بأنهم لابد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة ، وأن ذلك لاينفعهم ، بعثا لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به فى أوان الانتفاع به ، وليكون إلزاما للحجة لهم ، وكذلك قوله ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله . وقيل : الضميران لعيسى ، بمعنى : وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله . روى أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به ، حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه [1] . ويجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به ، على أن الله يحييهم فى قبورهم فى ذلك الزمان ، ويعلمهم نزوله وما أنزل له ، ويؤمنون به حين لاينفعهم إيمانهم . وقيل : الضمير فى (به) يرجع إلى الله تعالى . وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَـٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

﴿ فبظلم من الذين هادوا ﴾ فبأى ظلم منهم . والمعنى ماحرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه ، وهو ماعدد لهم من الكفر والكبائر العظيمة . والطيبات التى حرمت عليهم : ماذكره

---

(١) أخرجه ابن حبان وأبو داود من رواية همام عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة فى حديث أوله « الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إخوة أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، وإنه نازل ، فاذا رأيتموه فاعرفوه ، فانه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، بين ممصرين ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال ويقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الاسلام إلى آخره » وأما قوله فى أوله هنا « لا يبقى أحد من أهل الأرض إلا يؤمن به » فرواه الطبرى من قول ابن عباس رضى الله عنهما .

فى قوله (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر) وحرّمت عليهم الألبان ، وكلما أذنبوا ذنبا صغيراً أو كبيراً حرّم عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿ وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ ناسا كثيراً أو صدّاً كثيراً ﴿ بالباطل ﴾ بالرشوة التى كانوا يأخذونها من سفلتهم فى تحريف الكتاب ﴿ لكن الراسخون ﴾ يريد من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه ، والراسخون فى العلم الثابتون فيه المتقنون المستبصرون ﴿ والمؤمنون ﴾ يعنى المؤمنين منهم ، أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار . وارتفع الراسخون على الابتداء . و ﴿ يؤمنون ﴾ خبره . و ﴿ المقيمين ﴾ نصب على المدح لبيان فضل الصلاة . وهو باب واسع ، وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد . ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان ، وغبى عليه أنّ السابقين الأوّلين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام وذبّ المطاعن عنه ، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة ليسدّها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم . وقيل: هو عطف على (بما أنزل إليك) أى يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء . وفى مصحف عبد الله : والمقيمون ، بالواو ، وهى قراءة مالك بن دينار ، والجحدرى ، وعيسى الثقفى .

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

﴿ إنا أوحينا إليك ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، واحتجاج عليهم بأنّ شأنه فى الوحى إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا . وقرئ (زبوراً) بضم الزاى جمع زبر وهو الكتاب ﴿ ورسلا ﴾ نصب بمضمر فى معنى : أوحينا إليك وهو : أرسلنا ، ونبأنا ، وما أشبه ذلك . أو بما فسره قصصناهم . وفى قراءة أبىّ : ورسل

قد قصصناهم عليك من قبل ورسل لم نقصصهم . وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب : أنهما قرآ (وكلم الله) بالنصب . ومن بدع التفاسير أنه من الكلم [١] ، وأن معناه وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن ﴿رسلا مبشرين ومنذرين﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح . ويجوز انتصابه على التكرير . فإن قلت : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل [٢] ، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة ، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة ، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها ؟ قلت : الرسل منبهون عن الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد [٣] مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميما لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له . وقرأ السلمى :

---

(١) قال محمود : ومن بدع التفاسير أن كلم من الكلم ... الخ ، قال أحمد : وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لانكارهم الكلام القديم الذى هو صفة الذات ، إذ لا يثبتون إلا الحروف والأصوات قائمة بالأجسام ، لا بذات الله تعالى ، فيرد عليهم بجحدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام فى التكليم ، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفا وأصواتا قائمة ببعض الأجرام ، وذلك مشترك بين موسى وبين كل سامع لهذه الحروف ، حتى المشرك الذى قال الله فيه (حتى يسمع كلام الله) فيضطر المعتزلى إلى إبطال الخصوصية الموسوية بحمل التكليم على التجريح ، وصدق الزمخشرى وأنصف : إنه ان بدع التفاسير التى ينبو عنها الفهم ولا يبين بها إلا الوهم ، والله الموفق

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «فان قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ... الخ» قال أحمد : قاعدة المعتزلة فى التحسين والتقبيح العقليين تحرهم وتجرؤهم إلى إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل وإن لم يبعث رسولا ، فيوجبون بعقولهم ، ويحرمون ويبيحون على وفق زعمهم . ومما يوجبونه قبل ورود الشرع : النظر فى أدلة المعرفة ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، فمن ثم يلزمون بعد خبط وتطويل ، أن من ترك النظر فى الأدلة قبل ورود الشرع ، فقد ترك واجبا استحق به التعذيب ، وقد قامت الحجة عليه فى الوجوب وإن لم يكن شرع ، وإذا تليت عليهم هذه الآية وهي قوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقيل لهم أما هذه الآية تناديكم يا معشر القدرية أن الحجة إنما قدمت على الخلق بالأحكام الشرعية المؤدية إلى الجزاء بارسال الرسل لا بمجرد العقل ، فما تقولون فيها ؟ صمت حينئذ آذانهم وغيروا فى وجه هذا النص وغيروه عما هو موضوع له ، فقالوا : المراد أن الرسل تتمم حجة الله وتنبه على ما وجب قبل بعثها بالعقل ، كما أجاب به الزمخشرى ، وقريبا من هذا التعسف يقولون إذا ورد عليهم قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وربما يدلس على ضعفة المطالعين لهذا الفصل من كلام الزمخشرى قوله : إن أدلة التوحيد والمعرفة منصوبة قبل إرسال الرسل ، وبذلك تقوم الحجة فنظن أن ذلك جار على سنن الصحة ، إذ المعرفة باتفاق ، والتوحيد باجماع ، إنما طريقه العقل لا النقل الذى يلبس عليه أن النظر فى أدلة التوحيد هو فعل المكلف ليس بالحكم الشرعى ، بل الحكم وجوب النظر ، والمعرفة متلقاة من العقل المحض ، والوجوب متلقى من النقل الصرف ، وبه تقوم الحجة ، وعليه يرتب الجزاء . والله سبحانه ولى التوفيق والمعونة .

(٣) قوله «كما ترى علماء أهل العدل» أى كما ذهب إليه المعتزلة . وذلك أنهم حكموا العقل وجعلوه كافيا فى معرفة الأحكام ، كوجوب العدل وحرمة الظلم . وقال أهل السنة : لا حكم قبل الشرع . والمسألة مشهورة فى علم الأصول ، فالسؤال مبنى على مذهب المعتزلة . (ع)

لكنّ الله يشهد ، بالتشديد . فإن قلت : الاستدراك لا بدّ له من مستدرك[1] فما هو في قوله (لكن الله يشهد) ؟ قلت : لما سأل أهل الكتاب إنزال الكتاب من السماء وتعنتوا بذلك واحتج عليهم بقوله (إنا أوحينا إليك) قال : لكن الله يشهد ، بمعنى أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد . وقيل : لما نزل (إنا أوحينا إليك) قالوا : ما نشهد لك بهذا ، فنزل (لكن الله يشهد) ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه : إثباته لصحته بإظهار المعجزات ، كما تثبت الدعاوى بالبينات . وشهادة الملائكة : شهادتهم بأنه حق وصدق . فإن قلت : بم يجابون لو قالوا : بم يعلم أن الملائكة يشهدون بذلك ؟ قلت : يجابون بأنه يعلم بشهادة الله ، لأنه لما علم بإظهار المعجزات أنه شاهد بصحته علم أن الملائكة يشهدون بصحة ما شهد بصحته ؛ لأن شهادتهم تبع لشهادته . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿أنزله بعلمه﴾ وما موقعه من الجملة التي قبله ؟ قلت : معناه أنزله ملتبسا بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره ، وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان ، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة ، وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز الفائت للقدرة . وقيل : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنك مبلغه . وقيل : أنزله بما علم من مصالح العباد مشتملا عليه . ويحتمل : أنه أنزله وهو عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة ، والملائكة يشهدون بذلك ، كما قال في آخر سورة الجن . ألا ترى إلى قوله تعالى (وأحاط بما لديهم) والإحاطة بمعنى العلم ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ وإن لم يشهد غيره ، لأن التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

﴿كفروا وظلموا﴾ جمعوا بين الكفر والمعاصي[2] ، وكان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين

---

(١) قال محمود : «إن قلت الاستدراك لابد له من مستدرك ... الخ» قال أحمد : ورود هذا الفصل في كلامه مما يغتبط به .

(٢) قال محمود : «أي جمعوا بين الكفر والمعاصي ... الخ» قال أحمد : يعدل من الظاهر ، لعله يتروح إلى بث طرف من العقيدة الفاسدة في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم مخلدون تخليد الكفار . وقد تكرر ذلك منه . وهذه الآية تنبو عن هذا المعتقد ، فانه جعل الفعلين أعني الكفر والظلم كليهما صلة للموصول المجموع ، فيلزم وقوع الفعلين جميعا من كل واحد من آحاده . ألا تراك إذا قلت : الزيدون قاموا ، فقد أسندت القيام إلى كل واحد من آحاد الجمع ، فكذلك لو عطفت عليه فعلا آخر لزم فيه ذلك ضرورة ، والله الموفق .

أصحاب كبائر، لأنه لافرق بين الفريقين فى أنه لايغفر لهما [1] إلا بالتوبة ﴿ ولا ليهديهم طريقا ﴾ لا يلطف بهم فيسلكون الطريق الموصل إلى جهنم . أو لايهديهم يوم القيامة طريقا إلا طريقها ﴿ يسيرا ﴾ أى لاصارف له عنه .

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿ فآمنوا خيرا لكم ﴾ وكذلك (انتهوا خيرا لكم) انتصابه بمضمر ، وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث ، علم أنه يحملهم على أمر فقال (خيراً لكم) أى اقصدوا ، أو ائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث . وهو الإيمان والتوحيد ﴿ لاتغلوا فى دينكم ﴾ غلت اليهود فى حط المسيح عن منزلته ، حيث جعلته مولودا لغير رشدة [2] . وغلت النصارى فى رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلها ﴿ ولاتقولوا على الله إلا الحق ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك والولد . وقرأ جعفر بن محمد (إنما المسيح) بوزن السكيت . وقيل لعيسى (كلمة الله) (وكلمة منه) لأنه وجد بكلمته وأمره لاغير ، من غير واسطة أب ولانطفة . وقيل له : روح الله ، وروح منه ، لذلك ، لأنه ذو روح وجد من غير جزء من ذى روح ، كالنطفة المنفصلة من الأب الحى وإنما اخترع اختراعا من عند الله وقدرته خالصة . ومعنى ﴿ ألقاها إلى مريم ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها ﴿ ثلاثة ﴾ خبر مبتدإ محذوف ، فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون : هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم ، أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم روح القدس . وأنهم يريدون بأقنوم الأب : الذات ، وبأقنوم الابن : العلم ، وبأقنوم روح القدس : الحياة ، فتقديره الله ثلاثة ، وإلا فتقديره : الآلهة ثلاثة . والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح

(١) قوله « فى أنه لا يغفر لهما إلا بالتوبة » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فقد تغفر الكبيرة بالشفاعة ، أو بمجرد الفضل . (ع)

(٢) قوله «مولودا لغير رشدة» أى لزنية ، وفى الصحاح : تقول «هو لرشدة» خلاف قولك «لزنية» . (ع)

ومريم ثلاثة آلهة ، وأنّ المسيح ولد الله من مريم . ألا ترى إلى قوله (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) ، (وقالت النصارى المسيح ابن الله) والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون : فى المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم . ويدل عليه قوله (إنما المسيح عيسى ابن مريم) فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها ، وأن اتصاله بالله تعالى من حيث أنه رسوله ، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسدا حيا من غير أب ، فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء . وقوله (سبحانه أن يكون له ولد) وحكاية الله أوثق من حكاية غيره . ومعنى ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ سبحه تسبيحا من أن يكون له ولد . وقرأ الحسن : إن يكون ، بكسر الهمزة ورفع النون : أى سبحانه ما يكون له ولد . على أنّ الكلام جملتان ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ بيان لتنزهه عما نسب إليه ، يعنى أنّ كل ما فيهما خلقه وملكه ، فكيف يكون بعض ملكه جزأ منه ، على أن الجزء إنما يصح فى الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ يكل إليه الخلق كلهم أمورهم ، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه .

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)

﴿ لن يستنكف المسيح ﴾ لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة [1] من نكفت الدمع ، إذا

---

(١) قال محمود معناه لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة ... الخ) قال أحمد : وقد كثر الاختلاف فى تفضيل الأنبياء على الملائكة ، فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء . وذهب القاضى أبو بكر منا والحليمى وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة ، واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدتهم فى تفضيل الملائكة من حيث الوجه الذى استدل به الزمخشرى . ونحن بعون الله نشبع القول فى المسئلة من حيث الآية فنقول : أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة :

أحدها : أن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام ، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة ، وبين طائفتنا فى هذا الطرف خلاف .

السؤال الثانى : أن قوله (ولا الملائكة المقربون) صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة ، فهذا يقتضى كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح ، ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح . وفى هذا السؤال أيضاً نظر ؛ لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة فقد يقال : يلزم القول بأنه أفضل من الكل ، كما أن النبى عليه الصلاة والسلام لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء كان أفضل من كلهم ، ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل والتفضيل على الجلة أحد ممن صنف فى هذا المعنى . وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين وادعى أنه لا يلزم منه على التفصيل تفضيل على الجلة ، ولم يثبت عنه هذا القول . ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف ، وهو أن التفضيل المراد جل أماراته رفع درجة الأفضل فى الجنة . والأحاديث متوافرة بذلك . وحينئذ لا يخلو ، إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم ، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه . لا سبيل إلى الأول ، لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل ، فتعين الثانى ـ وهو ارتفاع =

نحيته عن خدك بأصبعك ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً

ـــ درجة الأفضل على درجات المجموع - ضرورة ، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم قطعاً .

الثالث أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو ، وهي لا تقتضي ترتيبا . وأما الاستشهاد بالمثال المذكور على أن الثاني أبداً يكون أعلى رتبة ، فعارض بأمثلة لا تقتضي ذلك ، كقول القائل : ما عابني على هذا الأمر زيد ولا عمرو . قلت : وكقولك : لا تؤذ مسلما ولا ذميا ، فان هذا الترتيب وجه الكلام . والثاني أدنى وأخفض درجة ، ولو ذهبت تعكس هذا فقلت : لا تؤذ ذميا ولا مسلما ليجعل الأعلى ثانياً ، لخرجت عن حد الكلام وقانون البلاغة . وهذا المثال بين ما يورد في نقض القانون المقرر ، ولكن الحق أولى من المراء ، وليس بين المثالين تعارض .

ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء فنقول : النكتة في الترتيب في المثالين الموهوم تعارضهما واحدة ، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى ، وفي مواضع تأخيره . وتلك النكتة مقتضى البلاغة النائي عن التكرار والسلامة عن النزول ، فاذا اعتمدت ذلك فهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولا بالنسبة إلى أوله ، أو يكون الآخر مندرجا في الأول قد أفاده ، وأنت مستغن عن الآخر ، فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، واستئنافا لفائدة لم يشتمل عليها الأول ، مثاله الآية المذكورة ، فانك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة ، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه ؛ لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح على هذا التقدير عبداً لله غير مستنكف من العبودية ، لزم من ذلك أن من دونه في الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله وهم الملائكة على هذا التقدير ، فلم يتجدد إذاً بقوله (ولا الملائكة المقربون) إلا ما سلف أول الكلام . وإذا قدرت المسيح مفضولا بالنسبة إلى الملائكة ، فانك ترقيت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له ، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك ، وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل ، فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة ، إذ لم يستلزم الأول الآخر ، فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتتزايد ، وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز ، لأنه الغاية في البلاغة . وبهذه النكتة يجب أن تقول لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً ، فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في الآية ؛ لأنك إذا نهيته عن إيذاء المسلم ، فقد يقال : ذاك من خواصه ، احتراما للاسلام . فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوبة عنه هذه الخصوصية ، فاذا قلت : ولا ذمياً ، فقد جددت فائدة لم تكن في الأول ، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى إلى النهي عن أكثر منه ، ولو رتبت هذا المثال كترتيب الآية فقلت : لا تؤذ ذمياً ، فهم المنهي أن أذى المسلم أدخل في النهي ، إذ يساوي الذمي في سبب الاحترام وهو الانسانية مثلا ، ويمتاز عنه بسبب أجل وأعظم وهو الاسلام ، فيقنعه هذا النهي عن تجديد نهي آخر عن أذى المسلم . فان قلت : ولا مسلماً ، لم تجدد له فائدة ولم تعلمه غير ما علمه أولا ، فقد علمت أنها نكتة واحدة توجب أحيانا تقديم الأعلى وأحياناً تأخيره ، ولا يميز لك ذلك إلا السياق . وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى وتأخير الأعلى . ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) استغناء عن نهيه عن ضربهما فما فوقه بتقدير الأدنى ، ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهيا عن أعلى من التأفيف والانتهار ، لأنه مستغنى عنه وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ولما اقتضى الانصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة ، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيدة عند المعتقد لذلك ، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف . وذلك أن تفضيل الملائكة في القوة وشدة البطش وسعة التمكن والاقتدار . قال : وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية ؛ لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام ، مستندين إلى كونه أحيي الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة ، فناسب ذلك أن يقال : هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق ـــ

وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش ، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن فى طبقتهم .فإن قلت : من أين دلّ قوله (ولا الملائكة المقرّبون) على أنّ المعنى : ولا من فوقه ؟ قلت : من حيث أنّ علم المعانى لا يقتضى غير ذلك . وذلك أنّ الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوّهم فى رفع المسيح عن منزلة العبودية ، فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية ، ولا من هو أرفع منه درجة ، كأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقرّبون من العبودية ، فكيف بالمسيح ؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة ، تخصيص المقرّبين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة . ومثاله قول القائل :

وَمَا مِثْـلُهُ مِمَّنْ يُجَـاوِدُ حَاتِمٌ وَلَاالْبَحْرُ ذُو الْأَمْوَاجِ يَلْتَجُّ زَاخِرُهْ (١)

لا شبهة فى أنه قصد بالبحر ذى الأمواج : ما هو فوق حاتم فى الجود . ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) حتى يعترف بالفرق البين. وقرأ علىّ رضى الله عنه : عُبيداً لله ، على التصغير . وروى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـــ لا يستنكف عن عبادة الله تعالى ، بل من هو أكثر خوارق وأظهر آثاراً كالملائكة المقربين الذين من جملتهم جبريل عليه السلام ، وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه فقلب عاليها سافلها ، فيكون تفضيل الملائكة إذاً بهذا الاعتبار ، لا خلاف أنهم أقوى وأبطش ، وأن خوارقهم أكثر . وإنما الخلاف فى التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات فى دار الجزاء . وليس فى الآية عليه دليل . ولما كان أكثر ما لبس على النصارى فى ألوهية عيسى كونه مخلوقا أى موجوداً من غير أب ، أنبأنا الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب لا يستنكف من عبادة الله ، بل ولا الملائكة المخلوقين من غير أب ولا أم ، فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى . ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام ، فنظر الغريب بالأغرب ، وشبه العجيب من قدرته بالأعجب ؛ إذ عيسى مخلوق من أم ، وآدم من غير أم ولا أب ؛ ولذلك قال (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ومدار هذا البحث على النكتة التى نبهت عليها ، فمتى استقام اشتمال المذكور أياما على فائدة لم يشتمل عليها الأول بأى طريق كان من تفضيل أو غيره من الفوائد ، فقد استدّ النظر وطابق صيغة الآية ، والله أعلم . وعلى الجملة فالمسألة سمعية والقطع فيها معروف بالنص الذى لا يحتمل تأويلا ووجوده عسر ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وما أحسن تأكيد الزمخشرى لاستدلاله ببعث الملائكة المعنيين بأنهم المقربون ، ومن ثم ينشئ ظهور من فصل القول فى الملائكة والأنبياء ، فلم يعمم التفضيل فى الملائكة ولا فى الأنبياء ، بل فضل ثم فصل . وليس الغرض إلا ذكر محامل الآية ، لا البحث فى اختلاف المذاهب ، والله الموفق .

(١) « يلتج » أى تضطرب لجته وهى معظم مائه . و « الزاخر » المرتفع . يقول : وليس مثل ممدوحى من الناس الذين يجاودهم حاتم ، ولا من الذين يجاودهم البحر الزاخر ، أى يضاهيهم فى الجود . فالبحر : عطف على « حاتم » ، بالغ فى وصف ممدوحه بأن مثله لا يضاهى فى الكرم ، فيلزم أنه هو لا يضاهى أيضا ، فنفى المضاهاة عن المثل كناية عن نفيها عن الممدوح . وفيه مبالغة أيضا من جهة ترقيه من نفى مجاودة أكرم الناس إلى نفى مجاودة أنفع الأشياء . والفعل بالنسبة للبحر مجاز أو مشاكلة . أو شبه البحر بانسان وأثبت له المجاورة على طريق المكنية وهذا على أن « يجاود » مبنى للفاعل ، فان كان مبنيا للمجهول فالمعنى أن حاتم ليس مثله ممن يضاهى فى الجود ، كما أن البحر لا يضاهى فى النفع . فقد شبهه بالبحر ضمنا .

لم تعيب صاحبنا ؟ قال : ومن صاحبكم ؟ قالوا : عيسى . قال : وأى شيء أقول ؟ قالوا . تقول : إنه عبدالله ورسوله . قال : إنه ليس بعار[1] أن يكون عبداً لله . قالوا : بلى ، فنزلت: أى لا يستنكف عيسى من ذلك فلا تستنكفوا له منه ، فلو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأنّ العار ألصق به . فإن قلت : علام عطف قوله (ولا الملائكة) ؟ قلت : لا يخلو إمّا أن يعطف على المسيح ، أو على اسم « يكون » أو على المستتر فى (عبداً) لما فيه من معنى الوصف ، لدلالته على معنى العبادة ، كقولك : مررت برجل عبد أبوه ، فالعطف على المسيح هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض، وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية ، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه . فإن قلت : قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبداً لله فى هذا العطف ، فما وجهه ؟ قلت : فيها وجهان : أحدهما أن يراد : ولا كل واحد من الملائكة أو ولا الملائكة المقرّبون أن يكونوا عباداً لله ، فحذف ذلك لدلالة (عبد الله) عليه إيجازاً . وأمّا إذا عطفتهم على الضمير فى (عبداً) فقد طاح هذا السؤال . قرئ (فسيحشرهم) بضم الشين وكسرها وبالنون .

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

فإن قلت : التفصيل غير مطابق للمفصل[2] ، لأنه اشتمل على الفريقين ، والمفصل على فريق واحد . قلت : هو مثل قولك : جمع الإمام الخوارج ، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكل به ، وصحة ذلك لوجهين ، أحدهما : أن يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه،

---

(١) أخرجه الواحدى فى الأسباب عن ابن الكلبي .

(٢) قال محمود : «إن قلت التفصيل غير مطابق للمفصل ... الخ» قال أحمد : المراد بالمفصل : من لم يستنكف ومن استنكف ؛ لسبق ذكرهما . ألا ترى أن المسيح والملائكة المقربين ومن دونهم من عباد الله لم يستنكفوا عن عبادة الله وقد جرى ذكرهم . ويرشد إليه تأكيد الضمير بقوله (جميعاً) فكأنه قال فسيحشر إليه المقربين وغيرهم جميعاً . ووقوع الفعل المتصل به الضمير جزاء لقوله (ومن يستنكف) لا يعين اختصاص الضمير بالمستنكفين ؛ لأن المصحح لارتباط الكلام قد وجد مندرجا فى طى هذا الضمير الشامل لهم ولغيرهم . وحينئذ يكون المفصل مشتملا على الفريقين ، وتفصيله منطبق عليه ، والله أعلم .

ولأنّ ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني ، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴾ والثاني ، وهو أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم ، فكان داخلا في جملة التنكيل بهم فكأنه قيل : ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله . البرهان والنور المبين : القرآن. أو أراد بالبرهان دين الحق أو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبالنور المبين : ما يبينه ويصدقه من الكتاب المعجز ﴿ في رحمة منه وفضل ﴾ في ثواب مستحق وتفضل ﴿ ويهديهم إليه ﴾ إلى عبادته ﴿ صراطاً مستقيماً ﴾ وهو طريق الإسلام . والمعنى : توفيقهم وتثبيتهم .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

روى أنه آخر ما نزل من الأحكام [١] . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة عام حجة الوداع ، فأتاه جابر بن عبد الله فقال : إنّ لي أختا ، فكم آخذ من ميراثها إن ماتت ؟ [٢] وقيل : كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني كلالة فكيف أصنع في مالي ؟ [٣] فنزلت ﴿ إن امرؤ هلك ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر . ومحل ﴿ ليس له ولد ﴾ الرفع على الصفة لا النصب على الحال . أي : إن هلك امرؤ غير ذي ولد . والمراد بالولد الابن وهو اسم مشترك يجوز إيقاعه على الذكر وعلى الأنثى ؛ لأن الابن يسقط الأخت ، ولا تسقطها البنت إلا في مذهب ابن عباس ، وبالأخت التي هي لأب وأم دون التي لأم ، لأنّ الله تعالى فرض لها النصف وجعل أخاها عصبة وقال ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ وأما الأخت لأم فلها السدس

(١) قوله « روى أنه آخر ما نزل من الأحكام » أي قوله تعالى (يستفتونك ... الخ) . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

(٣) متفق عليه من رواية ابن المنكدر عنه . وأخرجه أصحاب السنن ، لكن ليس في رواية أحد منهم فنزلت (إن امرؤ هلك) إلا عند مسلم ، من رواية ابن عيينة عنه بلفظ فنزلت (يستفتونك ـ الآية) ﴿ فائدة ﴾ روى النسائي من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ـ الآية) وفي البخاري من رواية الشعبي عن ابن عباس « آخر آية نزلت آية الزنا » وروى الطبري من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ـ الآية) .

فى آية المواريث مستوى بينها وبين أخيها ﴿وهو يرثها﴾ وأخوها يرثها إن قدر الأمر على العكس من موتها وبقائه بعدها ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ أى ابن؛ لأن الابن يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت: الابن لا يسقط الأخ وحده فإن الأب نظيره فى الإسقاط، فلم اقتصر على نفى الولد؟ قلت: بين حكم انتفاء الولد، ووكل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله عليه السلام «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى عصبة ذكر»[1] والأب أولى من الأخ، وليسا بأول حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة. ويجوز أن يدل بحكم انتفاء الولد على حكم انتفاء الوالد، لأن الولد أقرب إلى الميت من الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب، فأولى أن يرث عند انتفاء الأبعد: ولأن الكلالة تتناول انتفاء الوالد والولد جميعاً، فكان ذكر انتفاء أحدهما دالا على انتفاء الآخر. فإن قلت: إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع[2] فى قوله ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ وإن كانوا إخوة؟ قلت: أصله: فان كان من يرث بالأخوة اثنتين، وإن كان من يرث بالأخوة ذكوراً وإناثاً: وإنما قيل: فان كانتا، وإن كانوا، كما قيل: من كانت أمك. فكما أنث ضمير «من» لمكان تأنيث الخبر، كذلك ثنى وجمع ضمير من يرث فى كانتا وكانوا، لمكان تثنية الخبر وجمعه، والمراد بالإخوة. الإخوة لا الأخوات، تغليباً لحكم الذكورة ﴿أن تضلوا﴾ مفعول له. ومعناه: كراهة أن تضلوا. عن النبى صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثاً، وأعطى من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرئ من الشرك وكان فى مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم».[3]

---

(١) متفق عليه، من حديث ابن عباس بلفظ «فلأولى رجل ذكر» وأخرجه كذلك الترمذى والحاكم وأبو يعلى والبزار ﴿فائدة﴾ قال ابن الجوزى: لفظ «عصبة» لا يحفظ فى هذا الحديث

(٢) قال محمود: «إن قلت إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع ... الخ»؟ قال أحمد: وقد سبق له هذا التمثيل فى مثل هذا الموضع ولو مثل بقول القائل: حصان كانت دابتك، لكان أسلم إذ فى لفظ «من» من الابهام ما يسوغ وقوعها على الأصناف المختلفة من مذكر ومؤنث وتثنية وجمع. ومثل الآية سواء قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) فيمن جعل الجملة مفعولا ثانياً للحسبان، فان أصل الكلام: هى العدو، إذ الضمير على هذا الاعراب للصيحة، ولكنه ذكره وجمعه لمكان الخبر، والله أعلم.

(٣) تقدم الكلام على أسانيده فى آخر سورة آل عمران.

ســـورة المـائدة

مدنية [إلا آية ٣ فنزلت بعرفات فى حجة الوداع]

وهى مائة وعشرون آية [نزلت بعد الفتح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

يقال وفى بالعهد وأوفى به [1] ومنه : والموفون بعهدهم . والعقد : العهد الموثق ، شبه بعقد الحبل ونحوه ، قال الحطيئة :

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِجَارِهِمِ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرَبَا [2]

وهى عقود الله التى عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف . وقيل : هى ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبايعات ونحوها. والظاهر

---

(١) قال المصنف : « يقال وفى بالعهد وأوفى به ومنه الموفون بعهدهم » قال أحمد : ورد فى الكتاب العزيز (وفى) بالتضعيف فى قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) وورود أوفى كثير . ومنه (أوفوا بالعقود) وأما (وفى) ثلاثيا فلم يرد إلا فى قوله تعالى (ومن أوفى بعهده من الله) لأنه بنى أفعل التفضيل من وفى ، إذ لا يبنى إلا من ثلاثى

(٢)
قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

للحطيئة . والعناج ـ ككتاب ـ : حبل يشد فى أسفل الدلو ، ثم فى العراق جمع عرقوة ، وهى الخشبة التى فى فم الدلو . والكرب ـ كسبب ـ : حبل يشد على طرف العرقوة والعناج ليربطهما . وهذا استعارة تمثيلية شبه حالهم فى توثيقهم العهد بوجوه متعددة بحال من يوثق الدلو بحبال متعددة . أو شبه حال عهدهم فى وثاقته الزائدة بحال الدلو الموثقة «وأنف الناقة» لقب جعفر بن قريع ، ذبح والده ناقة لنسائه فأرسلته أمه ليأخذ نصيبها فلم يجد إلا الرأس ، فقال والده : عليك به ، فجعل يجره من الأنف فلقب بذلك ، فكانت قبيلته تأنف من ذلك اللقب ، فاستعار الشاعر الأنف : للخيار العالين المقدار على طريق التصريح . أو شبه القوم به تشبيها بليغاً ، وشبه غيرهم بالذنب فى الخسة والضعة . والاستفهام إنكارى ، أى لا أحد يسوى بين الأنف والذنب فى الدفعة ، فصار هذا اللقب مدحا من حينئذ . وفيه تورية فى غاية الحسن .

أنها عقود الله عليهم فى دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه وأنه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل وهو قوله ﴿أحلت لكم﴾ وما بعده. البهيمة: كل ذات أربع فى البر والبحر، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، وهى الإضافة التى بمعنى «من» كخاتم فضة. ومعناه: البهيمة من الأنعام ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم من القرآن، من نحو قوله (حرمت عليكم الميتة)، وإلا ما يتلى عليكم آية تحريمه. والأنعام: الأزواج الثمانية. وقيل «بهيمة الأنعام» الظباء وبقر الوحش ونحوها كأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم فى الاجترار وعدم الأنياب، فأضيفت إلى الأنعام لملابسة الشبه ﴿غير محلى الصيد﴾ نصب على الحال من الضمير فى (لكم) أى أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله (أوفوا بالعقود) وقوله ﴿وأنتم حرم﴾ حال عن محلى الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام فى حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون، لئلا نحرج عليكم ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام، ويعلم أنه حكمة ومصلحة. والحرم: جمع حرام وهو المحرم.

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَـٰئِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَـٰئِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

الشعائر جمع شعيرة وهى اسم ما أشعر، أى جعل شعاراً وعلما للنسك، من مواقف الحج ومرامى الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التى هى علامات الحج يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعى، والحلق، والنحر. والشهر الحرام: شهر الحج. والهدى: ما أهدى إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك. وهو جمع هدية، كما يقال جدى فى جمع جدية السرج[1]. والقلائد: جمع قلادة، وهى ما قلد به الهدى من نعل أو عروة مزادة، أو لحاء شجر[2]، أو غيره. وآمو المسجد الحرام: قاصدوه، وهم الحجاج والعمار. وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمة

(١) قوله «ويقال جدى فى جمع جدية السرج» فى الصحاح: الجدية ـ بتسكين الدال ـ شىء محشو يجعل تحت دفتى السرج والرحل. والجمع جدى وجديات. (ع)

(٢) قوله «أو لحاء شجر» أى قشر اه. (ع)

الشعائر وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها ، وأن يحدثوا فى أشهر الحج ما يصدّون به الناس عن الحج ، وأن يتعرض للهدى بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله . وأما القلائد ففيها وجهان ، أحدهما : أن يراد بها ذوات القلائد من الهدى وهى البدن ، وتعطف على الهدى للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى ، كقوله (وجبريل وميكال) كأنه قيل : والقلائد منها خصوصا . والثانى أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى ، على معنى : ولا تحلوا قلائدها فضلا أن تحلوها ، كما قال (ولا يبدين زينتهن) فنهى عن إبداء الزينة مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها ﴿ولا آمّين﴾ ولا تحلوا قوما قاصدين المسجد الحرام ﴿يبتغون فضلا من ربهم﴾ وهو الثواب ﴿ورضوانا﴾ وأن يرضى عنهم ، أى لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم ، تعظيما لهم واستنكارا أن يتعرض لمثلهم . قيل : هى محكمة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «المائدة من آخر القرآن نزولا ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها [1]» ، وقال الحسن : ليس فيها منسوخ . وعن أبى ميسرة : فيها ثمانى عشرة فريضة وليس فيها منسوخ . وقيل : هى منسوخة . وعن ابن عباس : كان المسلمون والمشركون يحجون جميعا ، فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله (لا تحلوا) ثم نزل بعد ذلك (إنما المشركون نجس) ، (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) وقال مجاهد والشعبي : (لا تحلوا) نسخ بقوله (واقتلوهم حيث وجدتموهم) . وفسر ابتغاء الفضل بالتجارة ، وابتغاء الرضوان بأنّ المشركين كانوا يظنون فى أنفسهم أنهم على سداد من دينهم ، وأنّ الحج يقربهم إلى الله ، فوصفهم الله بظنهم . وقرأ عبدالله : ولا آمى البيت الحرام ، على الإضافة . وقرأ حميد بن قيس والأعرج : تبتغون ، بالتاء على خطاب المؤمنين ﴿فاصطادوا﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم ، كأنه قيل : وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا . وقرئ بكسر الفاء . وقيل : هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداء . وقرئ : وإذا أحللتم ، يقال حلّ المحرم وأحلّ . «جرم» يجرى مجرى «كسب» فى تعديه إلى مفعول واحد واثنين . تقول : جرم ذنبا ، نحو كسبه . وجرمته ذنبا ، نحو كسبته إياه . ويقال : أجرمته ذنبا ، على نقل المتعدى إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين ، كقولهم : أكسبته ذنبا . وعليه قراءة عبدالله : ولا يجرمنكم بضم الياء . وأوّل المفعولين على القراءتين ضمير المخاطبين ، والثانى (أن تعتدوا) . و﴿أن صدّوكم﴾ بفتح الهمزة ، متعلق بالشنآن بمعنى العلة ، والشنآن : شدة البغض . وقرئ بسكون النون . والمعنى : ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدّوكم الاعتداء ، ولا يحملنكم عليه . وقرئ : إن صدوكم ، على «إن»

(١) أخرجه الحاكم من طريق جبير بن نفير . قال «دخلت على عائشة . فقالت لى : يا جبير ، تقرأ المائدة؟ فقلت نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح . وأشار الترمذى إلى أن المراد بقولها «والفتح» إذا جاء نصر الله . قال : وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الشرطية . وفى قراءة عبدالله . إن يصدوكم . ومعنى صدهم إياهم عن المسجد الحرام : منع أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة ، ومعنى الاعتداء : الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ على العفو والإغضاء ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ على الانتقام والتشفى . ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى وكل إثم وعدوان ، فيتناول بعمومه العفو والانتصار .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التى تموت حتف أنفها ، والفصيد وهو الدم فى المباعر [١] ، يشوونها ويقولون : لم يحرم من فزد له ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أى رفع الصوت به لغير الله ، وهو قولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿والمنخنقة﴾ التى خنقوها حتى ماتت ، أو انخنقت بسبب ﴿والموقوذة﴾ التى أثخنوها ضربا بعصا أو حجر حتى ماتت ﴿والمتردية﴾ التى تردت من جبل أو فى بئر فماتت ﴿والنطيحة﴾ التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السبع﴾ بعضه ﴿إلا ماذكيتم﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه . وقرأ عبدالله: والمنطوحة . وفى رواية عن أبى عمرو (السبع) بسكون الباء . وقرأ ابن عباس: وأكيل السبع ﴿وماذبح على النصب﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها ، تسمى الأنصاب ، والنصب واحد . قال الأعشى :

وَذَا النُّصُبَ الْمَنْصُوبَ لَا تَعْبُدَنَّهُ ... لِعَاقِبَةٍ وَاللَّهَ رَبَّكَ فَاعْبُدَا [٢]

---

(١) قوله «وهو الدم فى المباعر» المباعر : الأمعاء يجعل فيها الدم بعد فصده ويشوى للضيف . وقولهم «لم يحرم . . . الخ» جار مجرى الأمثال . و «فزد» مبنى للمجهول ، أصله «فصد» فسكنت صاده تخفيفا ثم قلبت زايا . انتهى . (ع)

(٢) وذا النصب المنصوب لا تعبدنه ... لعاقبة والله ربك فاعبدا
وصل على حين العشيات والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

وقيل : هو جمع ، والواحد نصاب . وقرئ (النصب) بسكون الصاد ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام أى بالقداح . كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحا أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقداح ، وهى مكتوب على بعضها : نهانى ربى ، وعلى بعضها : أمرنى ربى ، وبعضها غفل ؛ فإن خرج الآمر مضى لطيته [1] ، وإن خرج الناهى أمسك ، وإن خرج الغفل أجالها عوداً . فمعنى الاستقسام بالأزلام : طلب معرفة ماقسم له مما لم يقسم له بالأزلام . وقيل : هو الميسر . وقسمتهم الجزور على الأنصباء المعلومة ﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة إلى الاستقسام : أو إلى تناول ماحرّم عليهم ؛ لأنّ المعنى حرّم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا. فإن قلت : لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسقاً ؟ قلت : لأنه دخول فى علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوم وقال : (لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) واعتقاد أنّ إليه طريقاً وإلى استنباطه [2] ، وقوله : أمرنى ربى ، ونهانى ربى : افتراء على الله . وما يدريه أنه أمره أو نهاه . والكهنة والمنجمون بهذه المثابة . وإن كان أراد بالرب الصنم ـ فقد روى أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم ـ فأمره ظاهر ﴿اليوم﴾ لم يرد به يوماً بعينه ، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية ، كقولك : كنت بالأمس شابا ، وأنت اليوم أشيب ، فلا تريد بالأمس اليوم الذى قبل يومك ، ولا باليوم يومك . ونحوه «الآن» فى قوله :

الآنَ لَمَّا ابيضَّ مَسْرُبَتِي ... وَعَضِضْتُ مِنْ نَابِي عَلَى جِذَمِ [3]

=للأعشى . و «النصب» كضرب وكشرب . وفى لغة : كسبب . وفى لغة كعنق . ويحتملها ماهنا : العلم المنصوب . والمراد به هنا الصنم وأحد الحجارة التى كانت منصوبة حول البيت يذبحون لأجلها الهدى يتقربون به إليها . و «ذا» اسم إشارة نصب بمحذوف يفسره المذكور على طريقة الاشتغال . وجعله الجوهرى على تقدير : إياك وهذا النصب ، فهو منصوب على التحذير ويروى لا تنسكنه بدل تعبدنه . ويروى «المثرين» بدل «الشيطان» أى الأغنياء . ويروى بدل الشطر الثانى «والله ربك فاعبدا» و «لعاقبة» أى لطلب عاقبة . وتقديم المعمول لافادة الحصر ولزيادة الفاء . ويجوز أنه على تقدير : والزم الله ربك فهو نصب على الاغراء ، والفاء عاطفة على المقدر . و «اعبدا» مؤكد بالنون المبدلة ألفا للوقف . و «على» بمعنى «فى» وروى «سبح» بدل «صل» والمعنى واحد ، أى صل الصلوات وقت الضحى والعشيات . واحمدا كاعبدا .

(١) قوله «فان خرج الآمر مضى لطيته» بكسر الطاء ، أى لنيته التى انتواها . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وإلى استنباطه» لعل بعده سقطا تقديره : سبيلا خطأ وضلال . (ع)

(٣) الآن لما ابيض مسربتى ... وعضضت من نابى على جذم
حلبت هذا الدهر أشطره ... وأتيت ما آتى على علم

للذهلى . وقيل : لأبى العلاء المعرى . و «الآن» الزمن الحاضر . و «المسربة» بضم الراء ـ وقد تفتح ـ : الشعرات التى تنبت وسط الصدر دقيقة مستطيلة إلى أسفل السرة ، وهى آخر ما يشيب من الانسان ، فبياضها كناية=

وقيل : أريد يوم نزولها ، وقد نزلت يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع ﴿ يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ يئسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث بعد ماحرمت عليكم . وقيل : يئسوا من دينكم أن يغلبوه ؛ لأن الله عز وجل وفى بوعده من إظهاره على الدين كله ﴿ فلا تخشوهم ﴾ بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعد ما كانوا غالبين ﴿ واخشونى ﴾ وأخلصوا لى الخشية ﴿ أكملت لكم دينكم ﴾ كفيتكم أمر عدوكم ، وجعلت اليد العليا لكم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيهم . أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه فى تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾ بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحج معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . أو أتممت نعمتى عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى بذلك ، لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ يعنى اخترته لكم من بين الأديان ، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضى وحده (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ، (إنّ هذه أمتكم أمة واحدة) . فإن قلت : بم اتصل قوله ﴿ فمن اضطرّ ﴾ ؟ قلت : بذكر المحرمات . وقوله (ذلكم فسق) اعتراض أكد به معنى التحريم ، وكذلك مابعده ؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل . ومعناه : فمن اضطرّ إلى الميتة أو إلى غيرها ﴿ فى مخمصة ﴾ فى مجاعة ﴿ غير متجانف لإثم ﴾ غير منحرف إليه ، كقوله (غير باغ ولا عاد) . ﴿ فإنّ الله غفور ﴾ لايؤاخذه بذلك .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ

= عن بلوغه غاية الشيب ، وأما المسربة بالفتح فقط فهى مخرج الغائط . و « من نابى » حال مقدمة . و « من » تبعيضية . و « الجذم » أصل الشىء ، كأن أنيابه تفتتت حتى لم يبق إلا أصولها . ويجوز أن المعنى : أنها سقطت وبقى محلها من اللحم ، وهو أيضا كناية عما تقدم توكيد له فى المعنى . و « حلبت هذا الدهر » أى جمعت ما فيه من الحوادث وجربتها . و « أشطره » نواحيه وجوانبه ؛ فكأنه شبه الزمان بمكان له جوانب على طريق الكناية ، وإثبات الأشطر تخييل ، وهو نصب على البدلية . والشطر أيضاً : نصف ضرع الناقة : فيه خالفان ، وفى النصف الآخر خالفان . فشبه الدهر بناقة على طريق المكنية ، وإثبات الأشطر تخييل . وحلبها ترشيح . وهذا أوجه وأقرب من الأول . وأشطره : نصب على البدلية أيضا . ويمكن أن حلب مضاعف للتعدية لا للبالغة . فالمعنى : جعلت الدهر يحلب لى أشطره ويجمع لى مافيها من الغرائب والعجائب . وقيل : المراد بأشطره أنواع الخير والشر . وأتيت : أى فعلت ؛ لأن من يفعل الشىء لابد من توجه جسمه وقلبه إليه . والمعنى : صارت عادتى أنى أفعل ماأفعله على علم عندى ، من طول تجربتى لحوادث الدهر .

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

فى السؤال معنى القول ، فلذلك وقع بعده ﴿ماذا أحلّ لهم﴾ كأنه قيل : يقولون لك ماذا أحلّ لهم . وإنما لم يقل : ماذا أحلّ لنا ، حكاية لما قالوه لأنّ يسألونك بلفظ الغيبة ، كما تقول أقسم زيد ليفعلنّ . ولو قيل : لأفعلنّ وأُحلّ لنا ، لكان صوابا . و «ماذا» مبتدأ، و(أحلّ لهم) خبره كقولك : أىّ شيء أحلّ لهم ؟ ومعناه : ماذا أحل لهم من المطاعم كأنهم حين تلا عليهم ما حرّم عليهم من خبيثات المآكل سألوا عما أحلّ لهم منها ، فقيل : ﴿أحلّ لكم الطيبات﴾ أى ما ليس بخبيث منها ، وهو كل ما لم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة أو قياس مجتهد . ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ عطف على الطيبات [١] أى أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم لحذف المضاف . أو تجعل (ما) شرطية ، وجوابها (فكلوا) والجوارح : الكواسب من سباع البهائم والطير ، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازى والشاهين . والمكلب : مؤدّب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها ، ورائضها لذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف ، واشتقاقه من الكلب ، لأن التأديب أكثر مايكون فى الكلاب فاشتقّ من لفظه لكثرته من جنسه . أو لأن السبع يسمى كلباً . ومنه قوله عليه السلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك [٢]» فأكله الأسد . أو من الكلب الذى هو بمعنى الضراوة . يقال : هو كلب بكذا ، إذا كان ضاريا به . وانتصاب ﴿مكلبين﴾ على الحال من علمتم . فإن قلت . مافائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم ؟ قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح نحريراً فى علمه مدرّبا فيه ، موصوفا بالتكليب. و﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية أو استئناف . وفيه فائدة جليلة [٣] وهى أن على كلّ آخذ علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه ، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل . فكم من آخذ عن غيره متقن ، قد ضيع أيامه وعضّ عند لقاء النحارير أنامله ﴿مما علمكم الله﴾ من علم التكليب ، لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل . أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه ، وانزجاره بزجره . وانصرافه بدعائه ، وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه .

---

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «وما علمتم عطفاً على الطيبات . . . الخ» قال أحمد رحمه الله تعالى : ولقد أحسن فى التنبيه على هذا السر الخفى غير أن الحال بأصالتها منتقلة غير لازمة ومقتضى هذا التقرير جعلها من الصفات اللازمة لمعلم الجوارح الثابتة له .

(٢) هو طرف من حديث أخرجه الحاكم . وسيأتى بتمامه فى سورة النجم .

(٣) عاد كلامه قال : «وفى قوله تعلمونهن مما علمكم الله فائدة جليلة ... الخ» قال أحمد : وفى الآية دليل على أن البهائم لها علم لأن تعليمها معناه لغة تحصيل العلم لها بطرقه خلافا لمنكرى ذلك .

وقرئ (مكلبين) بالتخفيف. وأفعل وفعل يشتركان كثيراً. والإمساك على صاحبه أن لا يأكل منه، لقوله عليه السلام لعدى بن حاتم «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه»[1] وعن على رضى الله عنه: إذا أكل البازى فلا تأكل[2]. وفرق العلماء، فاشترطوا فى سباع البهائم ترك الأكل لأنها تؤدب بالضرب، ولم يشترطوه فى سباع الطير. ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلا ولم يفرق بين إمساك الكل والبعض. وعن سلمان، وسعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة رضى الله عنهم: إذا أكل الكلب ثلثيه وبقى ثلثه وذكرت اسم الله عليه فكل[3]. فإن قلت: إلام رجع الضمير فى قوله ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾؟ قلت. إما أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته، أو إلى ما علمتم من الجوارح. أى سموا عليه عند إرساله.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿طعام الذين أوتوا الكتاب﴾ قيل: هو ذبائحهم. وقيل: هو جميع مطاعمهم. ويستوى فى ذلك جميع النصارى. وعن على رضى الله عنه: أنه استثنى نصارى بنى تغلب وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر[4]، وبه أخذ الشافعى. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس[5]. وهو قول عامة التابعين، وبه أخذ أبو حنيفة

---

(١) متفق عليه من حديث عدى بن حاتم.

(٢) لم أجده.

(٣) حديث سلمان أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من طريق قتادة عن سعيد بن المسيب عن سلمان فى الكلب يرسل على الصيد إن أكل ثلثيه فكل الثلث الباقى. وحديث أبى هريرة كذلك رواه ابن أبى شيبة من طريق الشعبى عنه قال «إذا أرسلت كلبك فأكله فكل وإن أكل ثلثه» وحديث سعد ابن أبى وقاص كذلك أخرجه ابن أبى شيبة من رواية بكر بن الأشج عن حميد بن مالك عن سعد فى الصيد يرسل عليه الكلب قال: كله وإن لم يبق منه إلا بضعة منه.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة من رواية إبراهيم النخعى عن على. وهو منقطع. وأخرجه الشافعى وعبد الرزاق موصولا من رواية عبيدة عن على رضى الله عنه.

(٥) أخرجه فى الموطأ عن ثور عن ابن عباس بهذا. وهو منقطع. ثور لم يلق ابن عباس. وإنما أخذه عن عكرمة فحذفه مالك. وروى ابن أبى شيبة من طريق عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس. قال «كلوا ذبائح بنى تغلب وتزوجوا نساءهم».

وأصحابه . وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة . وقال صاحباه : هم صنفان : صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة . وصنف لا يقرؤن كتابا ويعبدون النجوم ؛ فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب . وأما المجوس فقد سنّ بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وقد روى عن أبي المسيب أنه قال : إذا كان المسلم مريضاً فأمر المجوسى أن يذكر اسم الله ويذبح فلا بأس . وقال أبو ثور : وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء ﴿ وطعامكم حلّ لهم ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم [1] ، لأنه لو كان حراما عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم . ﴿ المحصنات ﴾ الحرائر أو العفائف. وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق ، وكذلك نكاح غير العفائف منهن ، وأما الإماء الكتابيات ، فعند أبي حنيفة : هن كالمسلمات ، وخالفه الشافعى ، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات ، ويحتج بقوله «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ» ويقول : لا أعلم شركا أعظم من قولها : إن ربها عيسى . وعن عطاء : قد أكثر الله المسلمات ، وإنما رخص لهم يومئذ ﴿ محصنين ﴾ أعفاء ﴿ ولا متخذى أخدان ﴾ صدائق ، والخدن يقع على الذكر والأنثى ﴿ ومن يكفر بالإيمان ﴾ بشرائع الاسلام وما أحلّ الله وحرّم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

(١) قال محمود : «معناه فلا عليكم أن تطعموهم ... الخ» قال أحمد : وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة ، لأن التحليل حكم ، وقد علقه بهم في قوله (وطعامكم حل لهم) كما علق الحكم بالمؤمنين . وهذه الآية أبين في الاستدلال بها من قوله (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) فان لقائل أن يقول في تلك الآية : نفى الحكم ليس بحكم ، ولا يستطيع ذلك في آية المائدة هذه : لأن الحكم فيها مثبت والله أعلم . ولما استشعر الزمخشرى دلالتها على ذلك وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة ، أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين ، أى لا جناح عليكم أيها المسلمون أن تطعموا أهل الكتاب ، كما رأيته في كلامه أيضا .

﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ كقوله «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله»[1] وكقولك: إذا ضربت غلامك فهوّن عليه، فى أن المراد إرادة الفعل. فإن قلت: لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه، فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل فى قولهم: الإنسان لا يطير، والأعمى لا يبصر، أى لا يقدران على الطيران والإبصار. ومنه قوله تعالى (نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) يعنى إنا كنا قادرين على الإعادة، كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل، وذلك لأنّ الفعل مسبب عن القدرة والإرادة، فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما، ولإيجاز الكلام ونحوه من إقامة المسبب مقام السبب قولهم: كما تدين تدان، عبر عن الفعل المبتدأ الذى هو سبب الجزاء بلفظ الجزاء الذى هو مسبب عنه. وقيل: معنى قمتم إلى الصلاة قصدتموها، لأنّ من توجه إلى شيء وقام إليه كان قاصداً له لا محالة، فعبر عن القصد له بالقيام إليه. فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة[2] محدث وغير محدث، فما وجهه؟ قلت: يحتمل أن يكون الأمر للوجوب، فيكون الخطاب للمحدثين خاصة، وأنْ يكون للندب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده، أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة[3]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات[4]». وعنه عليه السلام: أنه كان يتوضأ لكل صلاة[5]. فلما كان يوم الفتح مسح

---

(١) قال محمود: «قوله إذا قمتم كقوله فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... الخ» قال أحمد هذا الكلام يستقيم وروده من السنى، كما يستقيم من المعتزلى لأنا نقول: الفعل يوجد بقدرة العبد ملتبسا بها ومقارنا لها، والمعتزلى يقوله ويعنى مخلوقا بها وناشئا عن تأثيرها، فالعبارة مستعملة فى المذهبين ولكن باختلاف المعنى، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه. قال: «فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم ... الخ» قال أحمد: الزمخشرى أنكر أن يراد بالمشترك كل واحد من معانيه على الجمع. وقد سبق له إنكار ذلك ومن جوز إرادة جميع المحامل أجاز ذلك فى الآية، ومن المجوزين لذلك الشافعى رحمه الله تعالى. وناهيك بإمام الفن وقدوته. هذا إذا وقع البناء على أن صيغة «أفعل» مشتركة بين الوجوب والندب صح تناولها فى الآية للفريقين المحدثين والمتطهرين، وتناولها للمتطهرين من حيث الندب، والله أعلم.

(٣) أخرجه البخارى من رواية عمرو بن عامر عن أنس بلفظ «عند كل» وزاد «قلت: كيف كنتم تصنعون قال: يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث، والترمذى من رواية حميد عن أنس نحوه، وزاد «طاهرا وغير طاهر» ولمسلم من حديث بريدة «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: فعلت شيئاً لم تكن تفعله، قال: قد فعلته ياعمر، وسيأتى بعد قليل. ولأبى داود والحاكم وأحمد من حديث أسماء بنت زيد بن الخطاب عن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمر بالوضوء عند كل صلاة طاهراً أوغير طاهر. فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك، وقوله: «وكان الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم يتوضئون لكل صلاة: أخرجه ابن أبى شيبة والطبرى من رواية أبى عوانة عن محمد بن سيرين قال: وكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم يتوضئون لكل صلاة».

(٤) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما. قال الترمذى: إسناده ضعيف.

(٥) تقدم التنبيه عليه وأن مسلماً أخرجه دون ذكر المسح. وكذلك أخرجه أصحاب السنن.

على خفيه وصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد ، فقال له عمر : صنعت شيئاً لم تكن تصنعه. فقال: «عمداً فعلته يا عمر» يعني بياناً للجواز ؟ فإن قلت : هل يجوز أن يكون الأمر شاملا للمحدثين وغيرهم ، لهؤلاء على وجه الإيجاب ، ولهؤلاء على وجه الندب . قلت : لا ، لأنّ تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية . وقيل : كان الوضوء لكل صلاة واجباً أول مافرض ، ثم نسخ. (إلى) تفيد معنى الغاية مطلقاً . فأما دخولها فى الحكم وخروجها ، فأمر يدور مع الدليل ، فما فيه دليل على الخروج قوله (فنظرة إلى ميسرة) لأن الإعسار علة الإنذار . وبوجود الميسرة تزول العلة ، ولو دخلت الميسرة فيه لكان مُنظراً فى كلتا الحالتين معسراً وموسراً . وكذلك (ثم أتموا الصيام إلى الليل) لو دخل الليل لوجب الوصال . ومما فيه دليل على الدخول قولك : حفظت القرآن من أوله إلى آخره لأنّ الكلام مسوق لحفظ القرآن كله . ومنه قوله تعالى (من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله . وقوله ﴿ إلى المرافق ﴾ و (إلى الكعبين) لا دليل فيه على أحد الأمرين، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها فى الغسل . وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها . وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يدير الماء على مرفقيه [1] . ﴿ وامسحوا برءوسكم ﴾ المراد إلصاق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح ، كلاهما ملصق للمسح برأسه. فقد أخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب أو أكثره على اختلاف الرواية ، وأخذ الشافعى باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما روى : أنه مسح على ناصيته [2] . وقدر الناصية بربع الرأس . قرأ جماعة (وأرجلكم) بالنصب [3]، فدل على أن الأرجل مغسولة

---

(١) أخرجه الدارقطنى من حديث جابر «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه» وإسناده ضعيف .

(٢) أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة فى قصة فيها «ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه» وللطبرانى من حديثه «أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على ناصيته» .

(٣) قال محمود : «وقرأ جماعة (وأرجلكم) بالنصب ... الخ» قال أحمد : ولم يوجه الجر بما يشفى الغليل . والوجه فيه أن الغسل والمسح متقاربان من حيث أن كل واحد منهما إمساس بالعضو فيسهل عطف المغسول على الممسوح من ثم ، كقوله :

• متقلدا سيفاً ورمحا • و • علفتها تبناً وماء باردا •

ونظائره كثيرة . وبهذا وجه الحذاق ، ثم يقال : ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب ؟ وهلا أسند إلى كل واحد منها الفعل الخاص به على الحقيقة ؟ فيقال : فائدته الايجاز والاختصار . وتوكيد الفائدة بما ذكره الزمخشرى وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلا : واغسلوا أرجلكم غسلا خفيفا لا إسراف فيه ، كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد باشراكه الأرجل مع الممسوح ، ونبه بهذا التشريك - الذى لايكون إلا فى الفعل الواحد أو الفعلين المتقاربين جدا - على أن الغسل المطلوب فى الأرجل غسل خفيف يقارب المسح وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة ، وهذا تقرير كامل لهذا المقصود ، والله أعلم .

فإن قلت: فما تصنع بقراءة الجر ودخولها فى حكم المسح؟ قلت: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهى عنه، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد فى صب الماء عليها. وقيل ﴿إلى الكعبين﴾ فجيء بالغاية إماطة لظن ظان يحسبها ممسوحة، لأن المسح لم تضرب له غاية فى الشريعة. وعن على رضى الله عنه: أنه أشرف على فتية من قريش فرأى فى وضوئهم تجوزاً، فقال: ويل للأعقاب من النار، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلا ويدلكونها دلكا. وعن ابن عمر: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح فقال: «ويل للأعقاب من النار [1]» وفى رواية جابر «ويل للعراقيب [2]» وعن عمر أنه رأى رجلا يتوضأ فترك باطن قدميه، فأمره أن يعيد الوضوء، وذلك للتغليظ عليه.[3] وعن عائشة رضى الله عنها «لأن تقطعا أحب إلىّ من أن أمسح على القدمين بغير خفين[4]». وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح على القدمين [5]. وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح. وعن الحسن: أنه جمع بين الأمرين. وعن الشعبي: نزل القرآن بالمسح والغسل سنة. وقرأ الحسن: وأرجلكم، بالرفع بمعنى وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين. وقرئ ﴿فاطهروا﴾ أى

(١) متفق عليه من طريق يوسف بن ماهك عن عبدالله بن عمرو قال «خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنا فى سفرة فأدركنا ـ فذكره ـ وفيه: وأعقابهم تلوح» ولمسلم «رجعنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة» ولأبى نعيم فى المستخرج «وأعقابهم تلوح» ولمسلم «رجعنا مع النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ولأبى نعيم فى المستخرج: وأعقابهم بيض تلوح ﴿تنبيه﴾ لم أره من حديث ابن عمر، وكأنه تحرف على صاحب الكتاب، أو بعض من أخذه عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد وابن أبى شيبة وإسحاق وأبو يعلى من رواية أبى إسحاق عن سعيد بن أبى كريب عن جابر وهى عند مسلم من حديث أبى هريرة. وللنسائى فى حديث عبد الله بن عمرو المذكور ولأبى يعلى من حديث عائشة. ولسعيد بن منصور من حديث أبى ذر رضى الله عنه

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية أبى قلابة «أن عمر رأى رجلا يتوضأ فبقى فى رجله قدر ظفر. فقال: أعد الوضوء» وهو منقطع. ورواه البيهقى موصولا من طريق الثورى عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر «أن عمر رأى رجلا» فذكره بلفظ «لمعة» وقد روى مرفوعا. أخرجه أحمد وأبو داود من رواية خالد بن معدان عن بعض الصحابة «أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا وفى ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة. وقال الأثرم عن أحمد: إسناده جيد. وقال أبو داود: هو مرسل. وتعقبه ابن دقيق العيد بأن عدم ذكر اسم الصحابى حدثه. وهو موصوف بكثرة الارسال ﴿تنبيه﴾ قوله «تغليظاً عليه» من كلام صاحب الكشاف. وفيه نظر، لاحتمال أن يكون المراد بقوله «أعد الوضوء» أى اغسل رجليك من إطلاق الكل وإرادة البعض. وأما الذى فى المرفوع فيحتمل أن يكون الأمر المذكور بعد أن أحدث الرجل

(٤) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية من رواية القاسم عنها دون قوله «بغير خفين» وفى إسناده محمد ابن مهاجر البغدادى، وادعى ابن الجوزى أنه وضعه.

(٥) لم أجده.

فطهروا أبدانكم ، وكذلك ليطهركم . وفى قراءة عبد الله : فأموا صعيداً ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ فى باب الطهارة ، حتى لا يرخص لكم فى التيمم ﴿ ولكن يريد ليطهركم ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿ وليتمّ نعمته عليكم ﴾ وليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ نعمته فيثيبكم .

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ وهى نعمة الإسلام ﴿ وميثاقه الذى واثقكم به ﴾ أى عاقدكم به عقداً وثيقاً هو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى حال اليسر والعسر والمنشط والمكره فقبلوا وقالوا : سمعنا وأطعنا . وقيل : هو الميثاق ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

عدى ﴿ يجرمنكم ﴾ بحرف الاستعلاء مضمنا معنى فعل يتعدى به ، كأنه قيل : ولا يحملنكم . ويجوز أن يكون قوله (أن تعتدوا) بمعنى على أن تعتدوا ، فحذف مع أن ونحوه قوله عليه السلام : « من اتبع على ملىء فليتبع [1] » لأنه بمعنى أحيل . وقرئ ﴿ شنآن ﴾ بالسكون . ونظيره فى المصادر « ليان » والمعنى : لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما [2] فى قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء

(١) متفق عليه من حديث الأعرج عن أبى هريرة بلفظ « وإذا اتبع أحدكم على ملىء فليتبع » وفى رواية لأحمد « وإذا أحيل أحدكم على ملىء فليحتل » وبهذا اللفظ أخرجه البزار من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) قوله « وتتشفوا بما فى قلوبكم » لعله عما . (ع)

على ترك العدل ، ثم استأنف فصرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله (هو أقرب للتقوى) أى العدل أقرب إلى التقوى ، وأدخل فى مناسبتها . أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفا فيها . وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظنّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه ؟ ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله ، كأنه قال: قدم لهم وعداً فقيل : أى شىء وعده لهم ؟ فقيل : لهم مغفرة وأجر عظيم . أو يكون على إرادة القول بمعنى وعدهم وقال لهم مغفرة . أو على إجراء وعد مجرى قال : لأنه ضرب من القول . أو يجعل وعد واقعاً على الجملة التى هى لهم مغفرة ، كما وقع (تركنا) على قوله (سلام على نوح) كأنه قيل : وعدهم هذا القول وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول ، فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم . وهذا القول يتلقون به عند الموت ويوم القيامة ، فيسرون به ويستروحون إليه ويهوّن عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا، وذلك بعسفان فى غزوة ذى أنمار . فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم ، فقالوا : إنّ لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ، يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها . فنزل جبريل بصلاة الخوف [1] . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلىّ رضى الله عنهم يستقرضهم دية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، اجلس حتى نطعمك ونقرضك ، فأجلسوه فى

(١) أخرجه الطبرى من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغير فيه ، ولفظه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة . فلقى المشركين بعسفان ، فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض : كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ماعلموا بكم قال قائل منهم : فان لهم صلاة أخرى ، والباقى نحوه . وأصله فى مسلم من رواية أبى الزبير عن جابر «غزونا مع النبى صلى الله عليه وسلم قوما من جهينة فقاتلونا قتالا شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون : لو ملنا عليهم لاقتطعناهم فقالوا : إنهم سيأتيهم صلاة هى أحب إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر ذلك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما حضرت العصر صففنا صفين ـ الحديث» وللترمذى والنسائى من طريق عبدالله بن شقيق عن أبى هريرة نحوه .

صفة وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبره، فخرج [١]. وقيل: نزل منزلا وتفرق الناس في العضاه يستظلون بها، فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى فسلّ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال: من يمنعك منى؟ قال: الله، قالها ثلاثا، فشام الأعرابى السيف [٢] فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم، وأبى أن يعاقبه [٣]. يقال: بسط إليه لسانه إذا شتمه، وبسط إليه يده إذا بطش به (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) ومعنى «بسط اليد» مدّها إلى المبطوش به. ألا ترى إلى قولهم: فلان بسيط الباع، ومديد الباع، بمعنى. ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ فمنعها أن تمدّ إليكم.

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣)

(١) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى ومن طريقه البيهقى وأبو نعيم فى الدلائل. قال: حدثنى والدى إسحاق بن يسار بن المغيرة بن عبدالرحمن بن الحرث بن هشام وعبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما من أهل العلم قالوا: قدم أبو براد عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكره مطولا. وفيه قال «ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى فيما حدثنى يزيد بن رومان قال: كان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم قالوا: نعم، اجلس يا أبا القاسم فجلس إلى جانب جدار من بيوتهم ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا. من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك منهم عمرو بن جحاش بن كعب، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال. ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى، فأتاه جبريل من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة، ثم أمر بحربهم والمسير إليهم. فسار الناس، ﴿تنبيه﴾ فى كلام صاحب الكشاف «وأنهما كانا مسلمين» ولم أجد ذلك فى شىء من طرقه بل صرح موسى بن عقبة فى المغازى أنهما كانا كافرين، وكان لهما عهد وفى الدلائل لأبى نعيم من حديث ابن عباس: فلقى عمرو بن أمية رجلين من بنى كلاب معهما أمان ولم يعلم به فقتلهما.

(٢) قوله «فشام الأعرابى السيف» فى الصحاح. شمت السيف أغمدته. وشمته: سللته وهو من الأضداد. (ع)

(٣) متفق عليه من رواية أبى سلمة عن جابر نحوه. وللبخارى من وجه آخر.

لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إنى كتبتها لكم داراً قراراً، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها ، وإنى ناصركم، وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم ، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل لهم به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون ، فرأوا أجراماً عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم ، فنكثوا الميثاق ، إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ، ويوشع بن نون من سبط أفرايم بن يوسف ، وكانا من النقباء . والنقيب : الذى ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها ، كما قيل له : عريف ، لأنه يتعرفها ﴿إنى معكم﴾ أى ناصركم ومعينكم ﴿عزرتموهم﴾ نصرتموهم ومنعتموهم من أيدى العدوّ . ومنه التعزير، وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد . وقرئ بالتخفيف يقال : عزرت الرجل إذا حطته وكنفته . والتعزير والتأزير من واد واحد . ومنه : لأنصرنك نصراً مؤزراً ، أى قويا . وقيل معناه : ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والتوحيد وبعثنا منهم اثنى عشر ملكا يقيمون فيهم العدل ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. واللام فى ﴿لئن أقمتم﴾ موطئة للقسم وفى ﴿لأكفرن﴾ جواب له ، وهذا الجواب سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعا ﴿بعد ذلك﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق بالوعد العظيم . فإن قلت : من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل سواء السبيل . قلت : أجل ، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم ، لأنّ الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة ، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وتمادى ﴿لعناهم﴾ طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا . وقيل: مسخناهم . وقيل: ضربنا عليهم الجزية ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ خذلناهم ومنعناهم الألطاف حتى قست قلوبهم . أو أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست . وقرأ عبد الله : قسية ، أى ردية مغشوشة ، من قولهم : درهم قسىّ وهو من القسوة ؛ لأنّ الذهب والفضة الخالصين فيهما لين والمغشوش فيه يبس وصلابة ، والقاسى والقاسح ـ بالحاء ـ أخوان فى الدلالة على اليبس والصلابة وقرئ : قسية ، بكسر القاف للإتباع ﴿يحرفون الكلم﴾ بيان لقسوة قلوبهم ، لأنه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله وتغيير وحيه ﴿ونسوا حظا﴾ وتركوا نصيبا جزيلا وقسطا وافيا ﴿مما ذكروا به﴾ من التوراة ، يعنى أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم ، أو قست قلوبهم وفسدت فحرفوا التوراة وزالت أشياء منها عن حفظهم . وعن ابن مسعود رضى الله عنه: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية [1] . وتلا هذه الآية . وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد . قال : أخبرنا عبد الرحمن المسعودى عن القاسم عن عبد الله قال « إنى لأحسب الرجل ينسى العلم يعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع وكذا أخرجه الدارمى والطبرانى .

به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته ﴿ ولا تزال تطلع ﴾ أى هذه عادتهم وهجيراهم وكان عليها أسلافهم كانوا يخونون الرسل وهؤلاء يخونونك ينكثون عهودك ويظاهرون المشركين على حربك ويهمون بالفتك بك وأن يسموك ﴿ على خائنة ﴾ على خيانة، أو على فعلة ذات خيانة، أو على نفس، أو فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل راوية للشعر المبالغة. قال:

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تَكُنْ ... لِلْغَدْرِ خَائِنَةً مُغِلَّ الْأُصْبُعِ [1]

وقرئ على خيانة ﴿ منهم إلا قليلا منهم ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿ فاعف عنهم ﴾ بعث على مخالفتهم. وقيل هو منسوخ بآية السيف. وقيل: فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿ أخذنا ميثاقهم ﴾ أخذنا من النصارى ميثاق من ذكر قبلهم من قوم موسى، أى مثل ميثاقهم بالإيمان بالله والرسل وبأفعال الخير. وأخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك. فإن قلت: فهلا قيل: من النصارى؟ [2] قلت: لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعد: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية. أنصارا

(١) أقرين إنك لو رأيت فوارسى ... بعمايتين إلى جوانب صلفع
حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن ... للغدر خائنة مضل الأصبع

للكلابى، يخاطب ضيفاً نزل عنده فطمع فى جاريته. والهمزة للنداء و«عمايتين» اسم جبلين. و«صلفع» اسم موضع. أى ياقرين لو رأيت فوارسى بهذين الجبلين ممتدين إلى جوانب صلفع، لحدثت نفسك بوفاء العهد خوفاً منى كما هو الواجب عليك، ولم تكن لأجل العدو. أو ولم تكن مجبولا للغدر خائنة، على أنه خبر بعد خبر، أى كثير الخيانة، فالتاء للمبالغة كراوية. ولعله كان قد أشار للجارية بأصبعه، فسمى الاشارة به للخيانة إضلالا له: ويروى مغل الأصبع بالغين وغل وأغل إذا سرق شيئاً تافها، كأنه جعل أصبعه غالا، أى سارقا، للاشارة به.

(٢) قال محمود: «فان قلت: فهلا قيل من النصارى ... الخ» قال أحمد: وبقيت نكتة فى تخصيص هذا الموضع باسناد النصرانية إلى دعواهم ولم يتفق ذلك فى غيره. ألا ترى إلى قوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) فالوجه فى ذلك والله أعلم أنه لما كان المقصود فى هذه الآية ذمهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم فى نصرة الله تعالى، ناسب ذلك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة، وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوى النصرة وقولها دون فعلها، والله أعلم.

للشيطان (١) ﴿فأغرينا﴾ فألصقنا وألزمنا من غرى بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره . ومنه الغراء الذى يلصق به ﴿بينهم﴾ بين فرق النصارى المختلفين . وقيل : بينهم وبين اليهود . ونحوه (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) ، (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) .

يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿مما كنتم تخفون﴾ من نحو صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن نحو الرجم ﴿ويعفو عن كثير﴾ مما تخفونه لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية ، ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته (٢) مما لا بدّ من بيانه ، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة . وعن الحسن : ويعفو عن كثير منكم لا يؤاخذه ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ يريد القرآن ، لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق . أو لأنه ظاهر الإعجاز ﴿من اتبع رضوانه﴾ من آمن به ﴿سبل السلام﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله أو سبل الله .

لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

قولهم ﴿إن الله هو المسيح﴾ معناه بتّ القول ، على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير . قيل : كان فى النصارى قوم يقولون ذلك . وقيل : ما صرّحوا به ولكن مذهبهم يؤدى إليه ، حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم ﴿فمن يملك من الله شيئا﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئا ﴿إن أراد أن يهلك﴾ من دعوه إلها من المسيح وأمّه دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد . وأراد بعطف (من فى الأرض) على (المسيح وأمّه) أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما

(١) قوله «وملكانية أنصاراً للشيطان» فى الخازن فرقة رابعة وهى المرقوسية اه . (ع)
(٢) قوله «إلا اقتضاء حكم وصفته» لعل هنا سقطاً أو تحريفاً أوجب خفاء المعنى فليحرر . (ع)

و بينهم فى البشرية ﴿يخلق مايشاء﴾ أى يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى [١] ، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم . أو يخلق مايشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له ، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك . فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

﴿أبناء الله﴾ أشياع ابنى الله عزير والمسيح [٢] ، كما قيل لأشياع أبى خبيب وهو عبدالله بن الزبير «الخبيبون» ، وكما كان يقول رهط مسيلمة : نحن أنبياء الله . ويقول أقرباء الملك وذووه وحشمه : نحن الملوك . ولذلك قال مؤمن آل فرعون : لكم الملك اليوم ﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تذنبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون وتمسكم النار أياما معدودات على زعمكم . ولو كنتم أبناء الله ، لكنتم من جنس الأب ، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب . ولو كنتم أحباءه ، لما عصيتموه ولما عاقبكم ﴿بل أنتم بشر﴾ من جملة من خلق من البشر ﴿يغفر لمن يشاء﴾ وهم أهل الطاعة ﴿ويعذب من يشاء﴾ وهم العصاة [٣] .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿يبين لكم﴾ إما أن يقدّر المبين وهو الدين والشرائع ، وحذفه لظهور ماورد الرسول

---

(١) قوله «كما خلق عيسى» فى النسفى : ويخلق من ذكر من غير أنثى ، كما خلق حواء من آدم . (ع)

(٢) قال محمود : «معنى قولهم أبناء الله أشياع ابنى الله عزير . . الخ» قال أحمد : ومنه قول الملائكة لأنهم خواص عباد الله (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم) إلى قوله (إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) فأضافوا التقدير إليهم ، وفى الحقيقة المقدر الله ، وكذلك قول الدابة ـ لأنها من خواص آيات الله ـ : (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) فيمن جعله من قول الدابة ، والله أعلم .

(٣) قال محمود : «يعنى أهل الطاعة (ويعذب من يشاء) قال : يعنى العصاة» قال أحمد رحمه الله : بل مشيئة الله تعالى تسع التائب المنيب ، والعاصى المصر إذا كان موحداً . والزمخشرى أخرج هذا التفسير على قاعدته المتكررة فى غير ما موضع ، وهي القطع بوعيد العصاة المصرين الموحدين ، وأن المغفرة لهم محال .

لتبيينه . أو يقدّر ما كنتم تخفون ، وحذفه لتقدّم ذكره . أو لا يقدر ويكون المعنى . يبذل لكم البيان ، ومحله النصب على الحال ، أى مبيناً لكم . و﴿على فترة﴾ متعلق بجاءكم ، أى جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحى ﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف ، أى لا تعتذروا فقد جاءكم . وقيل : كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة . وقيل : ستمائة . وقيل : أربعمائة ونيفٌ وستون . وعن الكلبى : كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء . ثلاث من بنى إسرائيل ، وواحد من العرب : خالد بن سنان العبسى . والمعنى : الامتنان عليهم ، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى أحوج ما يكونون إليه ، ليهشوا إليه ويعدّوه أعظم نعمة من الله ، وفتح باب إلى الرحمة ، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم عن غفلتهم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَـٰمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَـٰمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَا إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾

﴿جعل فيكم أنبياء﴾ لأنه لم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء [1] ﴿ وجعلكم

---

(١) قال محمود : « لم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ... الخ » قال أحمد : والحامل على تفسير الملك بهذه التفاسير أن الله تعالى أنبأ فى ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكا بقوله (وجعلكم ملوكا) ولم يقل (وجعل فيكم ملوكا) كما قال (جعل فيكم أنبياء) فلما عمم الملك فيهم ، ولا شك أن الملك ـ المعهود هو الاستيلاء العام ـ لم يثبت لكل أحد منهم ، فيتعين حمل الملك على ما كان ثابتا لجميعهم أو لأكثرهم من الأبعاض المذكورة . هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك ، والله أعلم . وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم إلا أنه كان ثابتا

ملوكا﴾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه، وبعد الجبابرة ملكهم؛ ولأنّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: كانوا مملوكين فى أيدى القبط فأنقذهم الله، فسمى إنقاذهم ملكا. وقيل: الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل: من له بيت وخدم. وقيل: من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق ﴿مالم يؤت أحداً من العالمين﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك من الأمور العظام، وقيل: أراد عالمى زمانهم ﴿الأرض المقدسة﴾ يعنى أرض بيت المقدس. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: الشام. وقيل: فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثا لولده حين رفع على الجبل، فقيل له. انظر، فلك ما أدرك بصرك، وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين ﴿كتب الله لكم﴾ قسمها لكم وسماها، أو خط فى اللوح المحفوظ أنها لكم ﴿ولا ترتدوا على أدباركم﴾ ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً، وقيل: لما حدثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر. وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. ويجوز أن يراد: لا ترتدوا على أدباركم فى دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم: فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. الجبار «فعال» من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه وهو العاتى الذى يجبر الناس على ما يريد ﴿قال رجلان﴾ هما كالب ويوشع ﴿من الذين يخافون﴾ من الذين يخافون الله ويخشونه، كأنه قيل: رجلان من المتقين. ويجوز أن تكون الواو لبنى إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف تقديره: من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون، وهما رجلان منهم ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالإيمان فآمنا، قالا لهم: إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها، فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم، يشجعانهم على قتالهم. وقراءة من قرأ: يخافون، بالضم شاهدة له: وكذلك أنعم الله عليهما، كأنه قيل: من المخوفين. وقيل: هو من الإخافة، ومعناه من الذين يخوفون من الله بالتذكرة والموعظة. أو يخوّفهم وعيد الله بالعقاب. فإن قلت: ما محل أنعم الله عليهما؟ قلت: إن انتظم مع قوله «من الذين يخافون» فى حكم الوصف لرجلان فرفوع.

= للوكهم وهم منهم، إذ إسرائيل الأب الأقرب يجمعهم، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقرباؤهم وأشياعهم وملتبسون بهم، جاز الامتنان عليهم بهذه الصنيعة، والمعنى مفهوم. وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفا فى قول اليهود والنصارى (نحن أبناء الله وأحباؤه) وما بالعهد من قدم. فان قلت: فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء لأن الأنبياء منهم كما قلت فى الملوك؟ قلت: النبوة مزية غير الملك. وآحاد الناس يشارك الملك فى كثير مما به صار الملك ملكا، ولا كذلك النبوة فان درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته فى مزيتها وخصوصيتها ونعمتها، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك، والله أعلم.

وإن جعل كلاما معترضاً فلا محلّ له . فإن قلت : من أين علما أنهم غالبون ؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك . وقوله تعالى ﴿كتب الله لكم﴾ وقيل ، من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله فى نصرة رسله ، وما عهدا من صنع الله لموسى فى قهر أعدائه ، وما عرفا من حال الجبابرة . والباب : باب قريتهم ﴿لن ندخلها﴾ نفى لدخولهم فى المستقبل على وجه التأكيد المؤيس . و ﴿أبدا﴾ تعليق للنفى المؤكد بالدهر المتطاول . و ﴿ما داموا فيها﴾ بيان للأبد ﴿فاذهب أنت وربك﴾ يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب[1] ولكن كما تقول : كلمته فذهب يجيبنى ، تريد معنى الإرادة والقصد للجواب ، كأنهم قالوا : أريدا قتالهم . والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء ، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التى عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة . والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى أنّ موسى وهرون عليهما السلام خرّا لوجوههما قدّامهم لشدّة ما ورد عليهما ، فهموا برجمهما . ولأمر مّا قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم فى قوله تعالى (لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

لما عصوه وتمردوا عليه وخالفوه وقالوا ماقالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون ﴿قال رب إنى لا أملك﴾ لنصرة دينك[2] ﴿إلا نفسى وأخى﴾ وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة

---

(١) قال محمود : «يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب ولكن ... الخ» قال أحمد رحمه الله : يريد الزمخشرى سألوا رؤية الله جهرة وهى محال عقلا تعنتا منهم . وقد مر له ذلك ، وبينا أن تلبسهم بذلك كان لعدم فهم الايمان به على التعيين اقتراحا وتقاعسا عن الحق فى قوله (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «قال رب إنى لا أملك لنصرة دينك إلا نفسى ... الخ» قال أحمد : وفى قول موسى عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء لنبينا عليه الصلاة والسلام : إنى جربت بنى إسرائيل وخبرتهم ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فان أمتك لا تطيق ذلك . وتكريره هذا القول مراراً مصداق لما ذكره الزمخشرى . وأما إن كان المراد بالرجلين غير يوشع وكالب ـ وكانا من العمالقة الذين خافهم بنو إسرائيل ـ ويكون معنى يخافون أى يخافهم بنو إسرائيل ـ فالضمير على هذا يرجع الى بنى إسرائيل ، والعائد محذوف وهو المفعول . فعلى هذا لا شك أن هذين الرجلين ليسا من بنى إسرائيل المكتوب عليهم قتال العمالقة . وإنما عنى موسى عليه السلام : إنى لا أملك من بنى إسرائيل المفروض عليهم القتال أمر أحد إلا نفسى وأخى ، والله أعلم .

ونحوه قول يعقوب عليه السلام (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) . وعن على رضى الله عنه أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة . فما أجابه إلا رجلان فتنفس الصعداء [١] . ودعا لهما وقال : أين تقعان مما أريد ؟ وذكر فى إعراب «أخى» وجوه : أن يكون منصوبا عطفا على نفسى أو على الضمير فى «إنى» ، بمعنى : ولا أملك إلا نفسى [٢] وإن أخى لا يملك إلا نفسه . ومرفوعا عطفاً على محل إن واسمها . كأنه قيل : أنا لا أملك إلا نفسى ، وهرون كذلك لا يملك إلا نفسه أو على الضمير فى لا أملك . وجاز للفصل . ومجروراً عطفا على الضمير فى نفسى ، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور [٣] إلا بتكرير الجار . فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت : كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما ، لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم ، فلم يذكر إلا النبى المعصوم الذى لا شبهة فى أمره . ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه . ويجوز أن يريد : ومن يؤاخينى على دينى ﴿فافرق﴾ فافصل ﴿بيننا﴾ وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون ، وهو فى معنى الدعاء عليهم . ولذلك وصل به قوله (فإنها محرمة عليهم) على وجه التسبيب ، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم ، كقوله (ونجنى من القوم الظالمين) ﴿فإنها﴾ فإن الأرض المقدسة ﴿محرمة عليهم﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها ، فان قلت : كيف يوفق بين هذا وبين قوله (التى كتب الله لكم) ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا الجهاد قيل : فإنها محرمة عليهم . والثانى : أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب ، فقد روى أن موسى سار بمن بقى من بنى إسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتح أريحاء وأقام فيها ما شاء الله ثم قبض صلوات الله عليه . وقيل : لما مات موسى بعث يوشع نبياً ، فأخبرهم بأنه نبيّ الله ، وأن الله أمره بقتال الجبابرة ، فصدقوه وبايعوه وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم ، وصار الشام كله لبنى إسرائيل . وقيل : لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال (إنا لن ندخلها) وهلكوا فى التيه ، ونشأت نواشئ من ذرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها والعامل فى الظرف إما (محرمة) وإما (يتيهون) ومعنى ﴿يتيهون فى الأرض﴾ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً . والتيه : المفازة التى يتاه فيها . روى أنهم لبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ يسيرون كل يوم جادين ، حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه ، وكان الغمام يظللهم

---

(١) قوله «فتنفس الصعداء» فى الصحاح : الصعداء بالضم والمد تنفس ممدود اهـ . (ع)

(٢) قوله «بمعنى لا أملك إلا نفسى» لعله بمعنى إنى لا أملك . وعبارة النسفى . أى إنى لا أملك ... الخ . (ع)

(٣) قوله «على ضمير المجرور» لعله على الضمير . (ع)

من حرّ الشمس، ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضىء لهم، وينزل عليهم المنّ والسلوى، ولا تطول شعورهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله. فإن قلت: فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون؟ قلت: كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركا لهم[1]، وعليهم مع ذلك النعمة متظاهرة. ومثل ذلك مثل الوالد المشفق يضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ويتثقف ولا يقطع عنه معروفه وإحسانه. فإن قلت: هل كان معهم فى التيه موسى وهرون عليهما السلام؟ قلت: اختلف فى ذلك، فقيل لم يكونا معهم لأنه كان عقابا، وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم. وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحا لهما وسلامة، لا عقوبة، كالنار لإبراهيم، وملائكة العذاب. وروى أن هرون مات فى التيه، ومات موسى بعده فيه بسنة. ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر. ومات النقباء فى التيه بغتة، إلا كالب ويوشع ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن عليهم لأنه ندم على الدعاء عليهم، فقيل: إنهم أحقاء لفسقهم بالعذاب، فلا تحزن ولا تندم.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

(١) قوله «عركا لهم» فى الصحاح: عركت الشىء دلكته. وعرك البعير جنبه بمرفقه. وفيه أيضا: الدعك مثل الدلك. وقد دعكت الأديم والخصم: لينته. (ع)

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

هما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل ، أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر ، وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها إقليما ، فحسد عليها أخاه وسخط . فقال لهما آدم : قربا قربانا ، فمن أيكما تقبل زوجها ، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته ؛ فازداد قابيل حسداً وسخطا ، وتوعده بالقتل . وقيل : هما رجلان من بنى إسرائيل ﴿ بالحق ﴾ تلاوة ملتبسة بالحق والصحة . أو اتله نبأ ملتبسا بالصدق موافقا لما فى كتب الأولين ، أو بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد ؛ لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبغون عليه . أو اتل عليهم وأنت محق صادق . و﴿ إذ قربا ﴾ نصب بالنبأ ، أى قصتهم وحديثهم فى ذلك الوقت . ويجوز أن يكون بدلا من النبأ ، أى اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت ، على تقدير حذف المضاف . والقربان : اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيكة أو صدقة ، كما أن الحلوان اسم ما يحلى أى يعطى . يقال : قرب صدقة وتقرب بها ، لأن تقرب مطاوع قرب : قال الأصمعى : تقربوا قرف القمع[1] فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب . فإن قلت : كيف كان قوله ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ جوابا لقوله (لأقتلنك) ؟ قلت : لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى ، لا من قبلى ، فلم تقتلنى ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان . وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم . وعن عامر بن عبدالله : أنه بكى حين حضرته الوفاة ، فقيل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت ؟ قال إنى أسمع الله يقول (إنما يتقبل الله من المتقين) . ﴿ ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ﴾ قيل : كان أقوى من القاتل وأبطش منه ، ولكنه تحرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفا من الله ؛ لأن الدفع لم يكن مباحا فى ذلك الوقت . قاله مجاهد وغيره ﴿ إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ﴾ أن تحتمل إثم قتلى لك لو قتلتك وإثم قتلك لى . فإن قلت : كيف يحمل إثم قتله له ولا تزر وازرة وزر أخرى ؟ قلت : المراد بمثل إثمى على الاتساع فى الكلام ، كما تقول : قرأت قراءة فلان ، وكتبت كتابته ، تريد المثل وهو اتساع فاش مستفيض لا يكاد يستعمل غيره .

(١) قوله « تقربوا قرف القمع » فى الصحاح : القرف القشر . والقمعة رأس السنام ، والجمع قمع . والقمع أيضا : بثرة تخرج فى شفر العين . (ع)

ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام «المستبان ماقالا فعلى البادى ما لم يعتد المظلوم [1]» ، على أنّ البادى عليه إثم سبه ، ومثل إثم سب صاحبه ؛ لأنه كان سببا فيه ، إلا أن الإثم محطوط عن صاحبه معفوّ عنه ، لأنه مكافئ مدافع عن عرضه . ألا ترى إلى قوله «مالم يعتد المظلوم» لأنه إذا خرج من حدّ المكافأة واعتدى لم يسلم . فإن قلت : فحين كف هابيل قتل أخيه واستسلم وتحرج عما كان محظورا فى شريعته من الدفع ، فأين الإثم حتى يتحمل أخوه مثله فيجتمع عليه الإثمان ؟ قلت : هو مقدر فهو يتحمل مثل الإثم المقدر ، كأنه قال : إنى أريد أن تبوء بمثل إثمى لو بسطت يدى إليك . وقيل (بإثمى) بإثم قتلى (وإثمك) الذى من أجله لم يتقبل قربانك . فإن قلت : فكيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه [2] بالنار ؟ قلت : كان ظالما وجزاء الظالم حسن جائز أن يراد . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ وإذا جاز أن يريده الله ، جاز أن يريده العبد ؛ لأنه لا يريد إلا ماهو حسن [3] . والمراد بالإثم وبال القتل ومايجره من استحقاق العقاب . فإن قلت : لم جاء الشرط بلفظ الفعل [4] والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله (لئن بسطت ......

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وللبخارى فى الأدب المفرد عن أنس نحوه .

(٢) قال محمود : «إن قلت : كيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه ... الخ» قال أحمد : وهذا من دسه للمعتقد الفاسد فى بيان كلامه ، والفاسد من هذا اعتقاده أن فى الكائنات ماليس مرادا لله تعالى وتلك القبائح بجملتها ، فانها على زعمه واقعة على خلاف المشيئة الربانية ، وهذا هو الشرك الخفى ؛ فإياك أن تحوم حول شركه والعياذ بالله فأما إرادته لاثم أخيه وعقوبته فمعناه : إنى لا أريد أن أقاتلك فأعاقب ، ولما لم يكن بد من إرادة أحد الأمرين : إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم وكان غير مريد للأول اضطر إلى الثانى ، فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الاثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل ولم تكن حينئذ مشروعة فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا كما يتمنى الانسان الشهادة . ومعناها أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه فى ذلك من الاثم ، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه فى سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله ضمنا وتبعا . والذى يدل على ذلك أنه لافرق فى حصول درجة الشهادة ، وفضيلتها بين أن يموت القاتل على الكفر ، وبين أن يختم له بالايمان فيحبط عنه إثم القتل الذى به كان الشهيد شهيدا ، أعنى بقى الاثم على قاتله أو حبط عنه إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته ولا يزيدها ، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمنى باعتبار بقائه وإحباطه فدل على أنه أمر لازم تبع لا مقصود . والله أعلم .

(٣) قوله «لأنه لا يريد إلا ما هو حسن» هذا مذهب المعتزلة أما عند أهل السنة ، فالله يريد كل كائن حسنا كان أو قبيحا كما تقرر فى علم التوحيد . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : «فإن قلت : لم جاء الشرط بصيغة الفعل والجزاء باسم الفاعل . . . الخ» قال أحمد : وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل لا تعطى سوى حدوث معناه من الفاعل لاغير . وأما اتصاف الذات به فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل . ومن ثم يقولون : قام زيد فهو قائم ، فيجعلون اتصافه بالقيام ناشئا عن صدوره منه ، ولهذا المعنى قوله تعالى (لتكونن من المرجومين) عدولا عن الفعل الذى هو لنرجمنك إلى الاسم تغليظا . يعنون أنهم يجعلون هذه لثبوتها ووقوعها به كالسمة والعلامة الثابتة ، ولا يقتصرون على مجرد إيقاعها به .

ماأنا بباسط) ؟ قلت : ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع . ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي ، ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ فوسعته له ويسرته ، من طاع له المرتع : إذا اتسع . وقرأ الحسن : فطاوعت . وفيه وجهان : أن يكون مما جاء من فاعل بمعنى فعل ، وأن يراد أنّ قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع ، وله لزيادة الربط كقولك : حفظت لزيد ماله . وقيل : قتل وهو ابن عشرين سنة ، وكان قتله عند عقبة حراء ، وقيل بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم ﴿فبعث الله غرابا﴾ روى أنه أوّل قتيل قتل على وجه الأرض من بنى آدم . ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى ما يصنع به ، فخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى أروح وعكفت عليه السباع ، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه فى الحفرة ﴿قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ وروى أنه لما قتله اسودّ جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال : ما كنت عليه وكيلا ؛ فقال بل قتلته ولذلك اسودّ جسدك . وروى أنّ آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك ، وأنه رثاه بشعر ، وهو كذب بحت ، وما الشعر إلا منحول ملحون . وقد صحّ أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر . ﴿ليريه﴾ ليريه الله . أو ليريه الغراب ، أى ليعلمه ؛ لأنه لما كان سبب تعليمه ، فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز ﴿سوأة أخيه﴾ عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده . والسوأة : الفضيحة لقبحها . قال :

* يَا لَقَوْمِ لِلسَّوْأَةِ السَّوْآءِ * (١)

أى للفضيحة العظيمة فكنى بها عنها ﴿فأوارى﴾ بالنصب على جواب الاستفهام . وقرئ بالسكون على : فأنا أوارى . أو على التسكين فى موضع النصب للتخفيف ﴿من النادمين﴾ على قتله ، لما تعب فيه من حمله وتحيره فى أمره ، وتبين له من عجزه ، وتلمذه للغراب ، واسوداد لونه وسخط أبيه ، ولم يندم ندم التائبين ﴿من أجل ذلك﴾ بسبب ذلك وبعلته . وقيل : أصله من أجل شرا إذا جناه يأجله أجلا . ومنه قوله :

وَأَهْلِ خِبَاءٍ صَالِحٍ ذَاتُ بَيْنِهِمْ ... قَدِ احْتَرَبُوا فِي عَاجِلٍ أَنَا آجِلُهْ (٢)

---

(١) قوله «يالقوم» يروى يا لقومى . (ع)

(٢) وأهل خباء صالح ذات بينهم ... قد احتربوا فى عاجل أنا آجله
فأقبلت فى الباغين أسأل عنهم ... سؤالك بالأمر الذى أنت جاهله

لخوات بن جبير ، يصف نفسه بأنه مهياج للشرور والحروب ، يقول : ورب أهل خباء ، أى بيوت متلاصقة كأنها بيت واحد . أو كنى به عن تقاربهم فى النسب صالح ذات بينهم . أى الحال التى بينهم صالحة ، قد تحاربوا بسبب شر عاجل أنا آجله أى جانيه قبل الحرب ومهيجه . وفيه شبه التضاد . ويقال : أجل الشر أجلا إذا جناه وهيجه ، =

كأنك إذا قلت : من أجلك فعلت كذا ، أردت من أن جنيت فعله وأوجبته ، ويدل عليه قولهم : من جراك فعلته ، أى من أن جررته بمعنى جنيته . وذلك إشارة إلى القتل المذكور ، أى من أن جنى ذلك القتل الكتب وجرّه ﴿ كتبنا على بنى إسرائيل ﴾ و « من » لابتداء الغاية ، أى ابتدأ والكتب نشأ من أجل ذلك . ويقال : فعلت كذا لأجل كذا . وقد يقال : أجل كذا ، بحذف الجار وإيصال الفعل قال : أجل أنّ الله قد فضلكم . وقرئ : من اجل ذلك ، بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها . وقرأ أبو جعفر : من إجل ذلك ، بكسر الهمزة وهى لغة فإذا خفف كسر النون ملقيا لكسرة الهمزة عليها ﴿ بغير نفس ﴾ بغير قتل نفس ، لا على وجه الاقتصاص ﴿ أو فساد ﴾ عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد ﴿ فى الأرض ﴾ وهو الشرك . وقيل : قطع الطريق ﴿ ومن أحياها ﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك . فإن قلت : كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة ، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته وعلى العكس ، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع فى ذلك . فإن قلت : فما الفائدة فى ذكر ذلك ؟ قلت : تعظيم قتل النفس وإحيائها فى القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها ، ويتراغبوا فى المحاماة على حرمتها : لأنّ المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه فثبطه ، وكذلك الذى أراد إحياءها . وعن مجاهد : قاتل النفس جزاؤه جهنم ، وغضب الله ، والعذاب العظيم . ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. وعن الحسن : يا ابن آدم ، أرأيت لو قتلت الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازى ذلك فيغفر لك به ؟ كلا إنه شىء سوّلته لك نفسك والشيطان ، فكذلك إذا قتلت واحداً ﴿ بعد ذلك ﴾ بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجىء الرسل بالآيات ﴿ لمسرفون ﴾ يعنى فى القتل لا يبالون بعظمته

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

فحاربتهم كانت من أجله وبسببه ، فانخذل الباغون للشر ، فأقبلت أسأل عنهم ، كسؤالك بالأمر : أى عن الأمر الذى أنت جاهله ، أفاد بالتشبيه أنه كان ليس جاهلا بهم حين سؤاله ، وإنما كان يريهم أنه معهم ومحب لهم لا لعدوهم .

﴿يحاربون الله ورسوله﴾ يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاربة المسلمين فى حكم محاربته ﴿ويسعون فى الأرض فسادا﴾ مفسدين، أو لأنّ سعيهم فى الأرض لما كان على طريق الفساد نزل منّزلة: ويفسدون فى الأرض فانتصب فسادا على المعنى، ويجوز أن يكون مفعولا له، أى للفساد. نزلت فى قوم هلال بن عويمر وكان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وقد مرّ بهم قوم يريدون رسول الله فقطعوا عليهم. وقيل: فى العرنيين، فأوحى إليه أنّ من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب ومن أفرد القتل قتل. ومن أفرد أخذ المال قطعت يده لأخذ المال، ورجله لإخافة السبيل. ومن أفرد الإخافة نفى من الأرض. وقيل: هذا حكم كل قاطع طريق كافرا كان أو مسلما. ومعناه ﴿أن يقتلوا﴾ من غير صلب، إن أفردوا القتل ﴿أو يصلبوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله، يصلب حيا، ويطعن حتى يموت ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ إن أخذوا المال ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ إذا لم يزيدوا على الإخافة. وعن جماعة منهم الحسن والنخعى: أن الإمام مخير بين هذه العقوبات فى كل قاطع طريق من غير تفصيل. والنفى: الحبس عند أبى حنيفة، وعند الشافعى: النفى من بلد إلى بلد، لا يزال يطلب وهو هارب فزعا، وقيل: ينفى من بلده، وكانوا ينفونهم إلى «دهلك» وهو بلد فى أقصى تهامة، و«ناصع» وهو بلد من بلاد الحبشة ﴿خزى﴾ ذلّ وفضيحة ﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة. وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فإلى الأولياء، إن شاؤا عفوا، وإن شاؤا استوفوا. وعن على رضى الله عنه: أنه الحرث بن بدر [1] جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق، فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

الوسيلة: كل ما يتوسل به أى يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصى. وأنشد للبيد:

أَرَى النَّاسَ لَايَدْرُونَ مَاقَدْرُ أَمْرِهِمْ ... أَلَا كُلُّ ذِى لُبٍّ إِلَى اللهِ وَاسِلُ [2]

(١) أخرجه ابن أبى شيبة من رواية مجالد عن الشعبى. قال: كان حارثة بن بدر التيمى قد أفسد فى الأرض وحارب، فذكر قصة هذا فيها.

(٢)
ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... ألا كل ذى لب إلى الله واسل
ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

﴿ ليفتدو به ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم . وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم ، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « يقال للكافر يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدى به ، فيقول : نعم ، فيقال له : قد سئلت أيسر من ذلك (٢) » و « لو » مع ما فى حيزه خبر « أن » . فإن قلت : لم وحد الراجع فى قوله (ليفتدوا به) وقد ذكر شيئان ؟ قلت : نحو قوله :

* فَإِنِّى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ * (٤)

=

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

للبيد بن ربيعة العامرى . وهمزة الاستفهام التى بعدها النفى للتحضيض على الفعل ، أى : سلاه وقولا له : ما الذى تريده وتجهد نفسك فى تحصيله ؟ وعبر بلفظ الغيبة نظرا للفظ المرئى . وخطاب المثنى عادة جارية على لسان العرب ، وإن كان المراد غيره . وقوله « أنحب » بدل « ما » والنحب : النذر والجد والسرعة ، كما أن النعب ـ بالعين ـ : السرعة ، أى أغرض صحيح فيقضى له ، أم باطل فلا ينبغي ؟ أو المعنى : أشىء أوجبه على نفسه فهو يسعى فى قضائه ، أم ضلال ؟ وعلى كل فلا ينبغى : وقوله « ماقدر أمرهم » أى ما الذى هم فيه من شؤن الدنيا وسرعة فنائها . و « ألا » استفتاحية « كل ذى لب » أى عقل « واسل » إلى الله لا إلى غيره ، أى متوسل به ومتلجىء إليه من شر الدنيا وشر من لا يعقل ، أو متقرب إليه بما ينفعه . ويروى « بلى كل » وهى أوقع معنى ، لأنها رد لدعوى تعميم السابقة . ويروى « واصل » بالصاد ، أى صائر أو متوجه بكليته . ويجوز فيه وفى واسل أنهما بمعنى متقرب إلى الله بالطاعة ، لا مشتغل بالدنيا الفانية كغيره من الجهال . و « باطل » خبر كل شىء . و « زائل » خبر كل نعيم . و « لا محالة » اعتراض مؤكد . و « الدويهية » تصغير الداهية وهي المنية ، بقرينة ما بعد . وتصغيرها للتعظيم والتهويل ، أو للتحقير على زعم الغافلين المتهاونين ،

(١) متفق عليه من رواية قتادة عن أنس رضى الله عنه .

(٢)
دعاك الهوى والشوق لما ترنمت هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوبها ورق أصخن لصوتها فكل لكل مسعد ومجيب
فمن يك أمسى بالمدينة رحله فانى وقيار بها لغريب

لضابىء بن الحرث البرجى حين حبسه عثمان بن عفان لما هجا بنى نهشل . والترنم : التمايل . ويروى « ترنمت » أى تغنت بحسن صوتها . وهتفت الحمامة إذا غردت ، فهى هتوف أى مفردة . و « بين » ظرف للترنم . و « طروب » مبالغة فى الطرب ، يوصف به المذكر والمؤنث ، كهتوف . وهو فاعل ، وهتوف حال ؛ وإضافته لا تفيده التعريف فى المعنى . ويجوز رفعه على أنه فاعل ، وطروب نعته ؛ لأنه وصف مضاف فلا تعريف له فى اللفظ أيضا . و « الورق » جمع ورقاء نوع من الحمام . و « أصخن » ملن واستمعن . ويروى « أرعن » ولم أجد فى كتب اللغة « رعن » إلا بمعنى زكى ونمى ، فلعل معناه نشطن على المجاز . وروى « ومن يك » بالواو . ومرفوع « أمسى » ضمير « من » . وجملة « بالمدينة رحله » خبره ، والجملة خبر يكن . ويجوز أن مرفوعه هو رحله ، وجواب الشرط محذوف ، أى =

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة ، كأنه قيل : ليفتدوا بذلك . ويجوز أن يكون الواو في (مثله) بمعنى « مع » فيتوحد المرجوع إليه . فإن قلت : فبم ينصب المفعول معه ؟ قلت : بما يستدعيه « لو » من الفعل ، لأن التقدير : لو ثبت أن لهم ما في الأرض . قرأ أبو واقد (أن يخرجوا) بضم الياء من أخرج . ويشهد لقراءة العامة قوله (بخارجين) . وما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس : يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار [2] وقد قال الله تعالى (وما هم بخارجين منها) فقال : ويحك ، اقرأ ما فوقها . هذا للكفار. فما لفقته المجبرة[3] وليس بأول تكاذيبهم وفراهم . وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنضاده[4] من بني عبد المطلب وهو حبر الأمة وبحرها ومفسرها ، بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا ، وبرفعه إلى عكرمة دليلين ناصين أن الحديث فرية ما فيها مرية .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

= ومن أمسى رحله بالمدينة حسن حاله ، بخلاف حالي ، فإني غريب لأن رحلي - أي منزلي - ليس فيها ، وإنما فيها أنا وفرسي فقط . و « قيار » اسم فرسه . وقيل جمله . وقيل غلامه . وهو مبتدأ أو معطوف على محل اسم « إن » حذف خبره اختصاراً لدلالة المذكور عليه ، فالعطف من عطف الجمل أو المفردات . وفيه العطف قبل تمام المعطوف عليه ، لكنه على نية التقديم والتأخير ، وهو سماعي لا يجوز القياس عليه . ولا يجوز جعل الغريب خبراً عنهما لئلا يتوارد عاملان على معمول واحد ، ولا جعله خبرا عن قيار ؛ لأن لام الابتداء لا تدخل على الخبر المؤخر . والبيت لفظه خبر ، ومعناه إنشاء التحسر والتحزن ، لكونه غريباً وحيداً .

(١) قال محمود : « وما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار ... الخ » قال أحمد : في هذا الفصل من كلامه وتشدقه بالسفاهة على أهل السنة ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكذب والتخليق والافتراء ما يحمي الكبد المملوء بحب السنة وأهلها على الانتصاب للانتصاف منه ، ولسنا بصدد تصحيح هذه الحكاية ، ولا وفق الله صحة العقيدة على صحتها .

(٢) لم أجده . وقد أنكره صاحب الكشاف وقال : هذا مما لفقه المجبرة . وليس أول تكاذيبهم إلى آخر كلامه

(٣) قوله « فما لفقته المجبرة » يعني أهل السنة القائلين بخروج صاحب الكبيرة من النار لأنه مؤمن خلافا للمعتزلة القائلين لا مؤمن ولا كافر بل واسطة . وتحقيق المبحث في علم التوحيد . (ع)

(٤) قوله « وأنضاده » في الصحاح : أنضاد الرجل ، أعمامه وأخواله المتقدمون في الشرف . (ع)

﴿والسارق والسارقة﴾ رفعهما على الابتداء والخبر محذوف [(١)] عند سيبويه ، كأنه قيل : وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى حكمهما . ووجه آخر وهو أن يرتفعا بالابتداء ، والخبر ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط ، لأنّ المعنى : والذى سرق والتى سرقت فاقطعوا أيديهما ، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط . وقرأ عيسى بن عمر بالنصب ، وفضلها سيبويه على قراءة العامة لأجل الأمر لأنّ « زيداً فاضربه » أحسن من « زيد فاضربه » (أيديهما) يديهما ، ونحوه (فقد صغت قلوبكما) اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف. وأريد باليدين

(١) قال محمود : « رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه كأنه . . . الخ » قال أحمد : المستقرأ من وجوه القراآت أن العامة لاتتفق فيها أبداً على العدول عن الأفصح . وجدير بالقرآن أن يجرى على أفصح الوجوه ، وأن لايخلو من الأفصح وما يشتمل عليه كلام العرب الذى لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها . وسيبويه يحاشى من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح ، واشتماله على الشاذ الذى لا يعد من القرآن . ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل . قال سيبويه ـ فى ترجمة باب الأمر والنهى ، بعد أن ذكر المواضع التى يختار فيها النصب ـ : وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر فذاك موضع اختيار النصب ، ثم قال : كالموضح لامتياز هذه الآية عما اختار فيها النصب . وأما قوله عز وجل (والسارق والسارقة فاقطعوا ... الآية) وقوله (الزانية والزانى فاجلدوا ...) فان هذا لم يبن على الفعل ، ولكنه جاء على مثال قوله (مثل الجنة التى وعد المتقون) ثم قال بعد (فيها أنهار) فيها كذا . . . قلت : يريد سيبويه تميز هذه الآى عن المواضع التى بين اختيار النصب فيها ، ووجه التميز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيها مبنيا على الفعل . وأما فى هذه الآى فليس بمبنى عليه ، فلا يلزم فيه اختيار النصب . عاد كلامه . قال : وإنما وضع المثل للحديث الذى ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصا ، فكأنه قال : ومن القصص مثل الجنة ، فهو محمول على هذا الاضمار والله أعلم . وكذلك الزانية والزانى لما قال جل ثناؤه (سورة أنزلناها وفرضناها) قال فى جملة الفرائض (الزانية والزانى) ثم جاء (فاجلدوا) بعد أن مضى فيها الرفع . قلت: يريد سيبويه : لم يكن الاسم مبنيا على الفعل المذكور بعد ، بل بنى على محذوف متقدم وجاء الفعل طارئا . عاد كلامه . قال : كما جاء ٭ وقائلة خولان فانكح فتاتهم ٭ فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر ، وكذلك (والسارق والسارقة) وفيما فرض عليكم السارق والسارقة ، فانما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث . وقد قرأ ناس (السارق والسارقة) بالنصب وهو فى العربية على ما ذكرت لك من القوة ، ولكن أبت العامة إلا الرفع ، قلت : يريد سيبويه أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنيا على الفعل ، غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قويا بالنسبة إلى الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم ، وليس يعنى أنه قوى بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ، فانه قد بين أن ذلك يخرجه من الباب الذى يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه ، والباب مع القراءتين مختلف . وإنما يقع الترجيح بعد التساوى فى الباب فالنصب أرجح من الرفع ، حيث ينبنى الاسم على الفعل والرفع متعين ، لا أقول أرجح حيث بنى الاسم على كلام متقدم ، ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار ، ولو كان كما ظنه الزمخشرى لم يحتج سيبويه إلى تقدير ، بل كان يرفعه على الابتداء ويجعل الأمر خبره كما أعربه الزمخشرى ، فالملخص على هذا أن النصب على وجه واحد وهو بناء الاسم على فعل الأمر ، والرفع على وجهين : أحدهما ضعيف وهو الابتداء ، وبناء الكلام على الفعل ، والآخر قوى بالغ كوجه النصب ، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف دل عليه السياق ، وحيثما تعارض لنا وجهان فى الرفع وأحدهما قوى والآخر ضعيف ، تعين حمل القراءة على القوى كما أعربه سيبويه رضى الله عنه . والله تعالى أعلم .

اليمينان ، بدليل قراءة عبدالله : والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ، والسارق فى الشريعة : من سرق من الحرز : والمقطع . الرسغ. وعند الخوارج : المنكب . والمقدار الذى يجب به القطع عشرة دراهم عند أبى حنيفة ، وعند مالك والشافعى رحمهما الله ربع دينار . وعن الحسن درهم وفى مواعظه : احذر من قطع يدك فى درهم ﴿جزاء﴾ و﴿نكالا﴾ مفعول لهما ﴿فمن تاب﴾ من السرّاق ﴿من بعد ظلمه﴾ من بعد سرقته ﴿وأصلح﴾ أمره بالتفصى عن التبعات ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ ويسقط عنه عقاب الآخرة . وأمّا القطع فلا تسقطه التوبة عند أبى حنيفة وأصحابه وعند الشافعى فى أحد قوليه تسقطه ﴿من يشاء﴾ من يجب فى الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصرين والتائبين . وقيل : يسقط حدّ الحربى إذا سرق بالتوبة ، ليكون أدعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه ، ولا يسقطه عن المسلم [1] : لأن فى إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة (ولكم فى القصاص حياة) . فإن قلت : لم قدّم التعذيب على المغفرة [2] ؟ قلت : لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

قرئ ﴿لا يحزنك﴾ بضم الياء . ويسرعون . والمعنى : لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين ﴿فى الكفر﴾ أى فى إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين ، فإنى ناصرك عليهم وكافيك شرّهم . يقال : أسرع فيه الشيب ، وأسرع فيه الفساد ، بمعنى : وقع

(١) قوله « ولا يسقطه عن المسلم » لعله « ولا يسقط » أو « ولا تسقطه » . (ع)

(٢) قال محمود : « فان قلت لم قدم التعذيب على المغفرة ... الخ » قال أحمد : هو مبنى على أن المراد بالمغفور لهم التائبون ، وبالمعذبين السراق . ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة إلا بقيد التوبة ، لأن غير التائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له ، فلذلك ينزل الاطلاق على المتقدم ذكره . ونحن نعتقد أن المغفرة فى حق غير التائب من الموحدين تتبع المشيئة ، حتى أن من جملة ما يدخل فى عموم قوله (ويغفر لمن يشاء) السارق الذى لم يتب . وعلى هذا يكون تقديم التعذيب لأن السياق للوعيد فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر والله أعلم .

فيه سريعاً ، فكذلك مسارعتهم فى الكفر ووقوعهم وتهافتهم فيه ، أسرع شيء إذا وجدوا فرصة لم يخطؤها . و﴿آمنا﴾ مفعول قالوا . و ﴿ بأفواههم﴾ متعلق بقالوا لا بآمنا﴿ومن الذين هادوا﴾ منقطع مما قبله خبر لسماعون ، أى : ومن اليهود قوم سماعون . ويجوز أن يعطف على (من الذين قالوا) ويرتفع سماعون على : هم سماعون . والضمير للفريقين . أو للذين هادوا . ومعنى﴿ سماعون للكذب﴾ قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه من قولك الملك يسمع كلام فلان . ومنه «سمع الله لمن حمده» ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ يعنى اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجافوا عنه لما أفرط فيهم من شدة البغضاء وتبالغ من العداوة ، أى قابلون من الأحبار ومن أولئك المفرطين فى العداوة الذين لايقدرون أن ينظروا إليك . وقيل : سماعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل أن يكذبوا عليه بأن يمسخوا ماسمعوا منه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ، سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه . وقيل : السماعون : بنو قريظة . والقوم الآخرون : يهود خيبر ﴿يحرفون الكلم﴾ يميلونه ويزيلونه ﴿عن مواضعه﴾ التى وضعه الله تعالى فيها ، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع ﴿إن أوتيتم هذا﴾ المحرف المزال عن مواضعه ﴿فخذوه﴾ واعلموا أنه الحق واعملوا به ﴿وإن لم تؤتوه﴾ وأفتاكم محمد بخلافه﴿فاحذروا﴾ وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال. وروى أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة، فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وقالوا : إن أمركم محمد بالجلد والتحميم[1] فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا ، وأرسلوا الزانيين معهم ، فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ، فقال هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا ؟ قالوا : نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض ورضوا به حكما . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذى فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه ، هل تجدون فيه الرجم على من أحصن ؟ قال : نعم ، فوثب عليه سفلة اليهود ، فقال : خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب . ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله النبى الأمى العربى الذى بشر به المرسلون ، وأمر رسول الله صلى

(١) قوله «والتحميم» أى التسويد . وفى «الصحاح» الحمة بالضم : السواد . (ع)

الله عليه وسلم الزانيين [١] فرجما عند باب مسجده [٢] ﴿ ومن يرد الله فتنته ﴾ تركه مفتونا [٣] وخذلانه [٤] ﴿ فلن تملك له من الله شيئا ﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئا ﴿ أولئك الذين لم يرد الله ﴾ أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم ؛ لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله) (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) .

سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

﴿ السحت ﴾ كل ما لا يحل كسبه ، وهو من ـ سحته ـ إذا استأصله لأنه مسحوت البركة كما قال تعالى : (يمحق الله الربا) والربا باب منه . وقرئ (السحت) بالتخفيف والتثقيل . والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته . والسحت ، بفتحتين . والسحت ، بكسر السين . وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام . وعن الحسن : كان الحاكم فى بنى إسرائيل إذا أتاه

---

(١) قوله «الزانيين» لعله بالزانيين . (ع)

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى حدثنى ابن شهاب سمعت رجلا من مزينة يحدث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ـ فذكره ، دون أوله ، ودون قوله فيه : فقال له جبريل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا فقال : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور ، يسكن فدك . ودون ما فى آخره . وكذا أخرجه البيهقى فى الدلائل من رواية معمر عن الزهرى مطولا ـ زاد فيه قصة الملك الذى كان زنى منهم فلم يرجموه ، وأصله فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وغيره مختصرا .

(٣) قال محمود : «معنى ومن يرد الله فتنته : ومن يرد تركه مفتونا ...الخ» قال أحمد رحمه الله : كم يتلجلج والحق أبلج هذه الآية كما تراها منطبقة على عقيدة أهل السنة فى أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الايمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ولكن لم يقع ، فحسبهم هذه الآية وأمثالها ، لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . وما أبدع صرف الزمخشرى هذه الآية عن ظاهرها بقوله : لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه ، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وإذا لم تنجع ألطاف الله تعالى ولم تنفع ، فلطف من ينفع وإرادة من تنجع ؟ وليس وراء الله للمرء مطمع .

(٤) قوله «تركه مفتونا وخذلانه» قدر هذا بناء على أنه تعالى لا يريد الشر عند المعتزلة لكن عند أهل السنة يريد الشر والخير كما حقق فى محله . (ع)

أحدهم برشوة جعلها فى كمه فأراها إياه وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه ، فيأكل الرشوة ويسمع الكذب . وحكى أن عاملا قدم من عمله فجاءه قومه ، فقدم إليهم العراضة[1] وجعل يحدثهم بما جرى له فى عمله ، فقال أعرابى من القوم : نحن كما قال الله تعالى (سماعون للكذب أكالون للسحت) وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى[2] به» قيل: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيراً ـ إذا تحاكم إليه أهل الكتاب ـ بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم . وعن عطاء والنخعى والشعبي : أنهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين ، فإن شاءوا حكموا وإن شاءوا أعرضوا . وقيل : هو منسوخ بقوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) وعند أبى حنيفة رحمه الله : إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام ، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئا أقيم عليه الحد . وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم ، يذهبون إلى أنهم قد صولحوا على شركهم وهو أعظم الحدود . ويقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين قبل نزول الجزية ﴿فلن يضروك شيئا﴾ لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم ، كالجلد مكان الرجم . فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم ، شق عليهم وتكرهوا إعراضه عنهم وكانوا خلقاء بأن يعادوه ويضاروه ، فأمن الله سربه ﴿بالقسط﴾ بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم ﴿وكيف يحكمونك﴾ تعجيب من تحكيمهم

---

(١) قوله «فقدم إليهم العراضة» فى الصحاح : العراضة ـ بالضم ـ : مايعرض المائر ، أى يطعمه من الميرة . ويقال : اشتر عراضة لأهلك ، أى هدية وشيأ تحمله إليهم . (ع)

(٢) أخرجه الحاكم من رواية زيد بن أرقم عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من نبت لحمه من السحت فالنار أولى به» وأخرجه ابن عدى فى ترجمة عبدالواحد بن زمعة وضعف به وفى الباب عن معمر عند الطبرانى وابن عدى فى أثناء حديث وفيه يزيد بن عبدالملك النوفلى . وهو ضعيف . وعن حذيفة أخرجه إسحاق بن راهويه من طريق كردوس قال «خطب حذيفة بالمدائن ـ فذكر الخطبة . وفيها الحديث ، بلفظ «ليس لحم ينبت من سحت فيدخل الجنة» وأخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية أيوب بن سويد عن الثورى عن عبدالملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة بلفظ «لايدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به» قال أبو حاتم فى العلل : أخطأ أيوب بن سويد فيه . والصواب موقوف . وعن ابن عمر أخرجه الطبرانى والحارثى فى الغريب . وابن مردويه فى الغريب من طريق عمر بن حمزة عنه . ورجاله ثقات إلا أن عمر لم يسمع من ابن عمر . وعن ابن عباس أخرجه الطبرانى والبيهقى من وجهين ضعيفين . وروى الترمذى من حديث كعب بن عجرة فى حديث طويل فى آخره «يا كعب بن عجرة ، إنه لايربو لحم نبت من سحت إلا وكانت النار أولى به» ، وقال : حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه . وسألت محمدا عنه فاستغربه . وقال أبو يعلى من وجه آخر عن كعب بن عجرة ، وله شاهد فيه ابن حبان من رواية عبدالله بن خيثمة عن عبدالرحمن بن سابط عن جابر بن عبدالله ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا كعب بن عجرة ـ فذكر مثله سواء ، وأخرجه أحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى والحاكم من هذا الوجه ، وأخرجه الحاكم من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن عبدالرحمن بن سمرة . فذكر مثل حديث كعب بن عجرة وأنه صلى الله عليه وسلم خاطب به عبدالرحمن» وسعيد بن بشير ضعيف .

لمن لا يؤمنون به وبكتابه ، مع أن الحكم منصوص فى كتابهم الذى يدعون الإيمان به ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما فى كتابهم لا يرضون به ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ بكتابهم كما يدعون . أو وما أولئك بالكاملين فى الإيمان على سبيل التهكم بهم . فإن قلت : ﴿فيها حكم الله﴾ ما موضعه من الإعراب ؟ قلت : إمّا أن ينتصب حالا من التوراة وهى مبتدأ خبره عندهم وإما أن يرتفع خبرا عنها كقولك : وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله وإمّا أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة ، لأنّ عندهم ما يغنيهم عن التحكيم ، كما تقول : عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب ، فما تصنع بغيره ؟ فإن قلت : لم أنثت التوراة ؟ قلت : لكونها نظيرة لموماة ودوداة ونحوها فى كلام العرب . فإن قلت : علام عطف ثم يتولون ؟ قلت : على يحكمونك .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)

﴿فيها هدى﴾ يهدى للحق والعدل ﴿ونور﴾ يبين ما استبهم من الأحكام ﴿الذين أسلموا﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح [(١)] ، كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة

---

(١) قال محمود : « قوله أسلموا صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح ... الخ » قال أحمد : وإنما بعثه على حمل هذه الصفة على المدح دون التفصلة والتوضيح أن الأنبياء لا يكونون إلا متصفين بها ، فذكر النبوة يستلزم ذكرها ، فمن ثم حملها على المدح . وفيه نظر ؛ فان المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التى يتميز بها الممدوح عمن دونه . والاسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم . ألا ترى أنه لا يحسن فى مدح النبى أن يقتصر على كونه رجلا مسلما ؛ فان أقل متبعيه كذلك . فالوجه والله أعلم أن الصفة قد تذكر للعظم فى نفسها ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر ، كما يكون تنويها بقدر موصوفها . فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة ، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها . وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح فى قوله تعالى (وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين) وأمثاله ، تنويهاً بمقدار الصلاح ؛ إذ جعل صفة الأنبياء وبعثا لآحاد الناس على الدأب فى تحصيل صفته ، وكذلك قيل فى قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) فأخبر عن الملائكة المقربين بالايمان تعظيما لقدر الايمان ، وبعثا للبشر على الدخول فيه ليساووا الملائكة المقربين فى هذه الصفة ، وإلا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنين ليس إلا ، ولهذا قال (ويستغفرون للذين آمنوا) يعنى من البشر لثبوت حق الاخوة فى الايمان بين الطائفتين ، فكذلك ـ والله أعلم ـ جرى وصف الأنبياء فى هذه الآية بالاسلام تنويهاً به . ولقد أحسن القائل فى أوصاف الأشراف ، والناظم فى مدحه عليه الصلاة والسلام

فلئن مدحت محمداً بقصيدتى فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

والتوضيح ، وأريد بإجرائها التعريض باليهود ، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التى هى دين الأنبياء كلهم فى القديم والحديث ، وأن اليهودية بمعزل منها . وقوله : ﴿ الذين أسلموا ﴾ الذين هادوا ﴾ مناد على ذلك ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ والزهاد والعلماء من ولد هارون ، الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ بما سأ لهم أنبياؤهم حفظه من التوراة ، أى بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل . و (من) فى (من كتاب الله) للتبيين ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ رقباء لئلا يبدل . والمعنى يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسى وعيسى ، وكان بينهما ألف نبىّ وعيسى الذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة لا يتركونهم أن يعدلوا عنها ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حملهم على حكم الرجم وإرغام أنوفهم ، وإبائه عليهم ما اشتهوه من الجلد . وكذلك حكم الربانيون والأحبار والمسلمون بسبب ما استحفظهم أنبياؤهم من كتاب الله والقضاء بأحكامه ، وبسبب كونهم عليه شهداء . ويجوز أن يكون الضمير فى (استحفظوا) للأنبياء والربانيين والأحبار جميعا ويكون الاستحفاظ من الله ، أى كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء ﴿ فلا تخشوا الناس ﴾ نهى للحكام عن خشيتهم غير الله فى حكوماتهم وإدهانهم [1] فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء ﴿ ولا تشتروا ﴾ ولا تستبدلوا ولا تستعيضوا ﴿ بآيات الله ﴾ وأحكامه ﴿ ثمنا قليلا ﴾ وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، كما حرف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة فى الدنيا وطلبا للرياسة فهلكوا ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ مستهينا به ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ والظالمون والفاسقون : وصف لهم بالعتو فى كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة . وتمردوا بأن حكموا بغيرها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الكافرين والظالمين والفاسقين : أهل الكتاب .

= والاسلام وإن كان من أشرف الأوصاف إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له ويستحيل عليه ويجوز فى حقه ، إلا أن النبوة أشرف وأجل ، لاشتمالها على عموم الاسلام مع خواص المواهب التى لا تسعها العبارة ، فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة فى ذكر الاسلام بعد النبوة فى سياق المدح ، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف فى الكتاب العزيز ، وفى كلام العرب الفصيح ، وهو الترقى من الأدنى إلى الأعلى لا النزول على العكس . ألا ترى أبا الطيب كيف تزحزح عن هذا المهيع فى قوله :

شمس ضحاها هلال ليلتها   در تقاصيرها زبرجدها

فنزل عن الشمس إلى الهلال . وعن الدر إلى الزبرجد ، فى سياق المدح ، فمضغت الألسن عرض بلاغته ، ومزقت أديم صيغته . فعلينا أن نتدبر الآيات المعجزات ، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوها فى البلاغة المعهود لها ، والله الموفق للصواب .

(١) قوله «وإدهانهم فيها» فى الصحاح : المداهنة ـ كالمصانعة . والادهان مثله . (ع)

وعنه : نعم القوم أنتم ، ما كان من حلو فلكم ، ومن كان من مرّ فهو لأهل الكتاب ، من جحد حكم الله كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقرّ فهو ظالم فاسق . وعن الشعبي : هذه فى أهل الإسلام ، والظالمون فى اليهود ، والفاسقون فى النصارى . وعن ابن مسعود : هو عام فى اليهود وغيرهم . وعن حذيفة : أنتم أشبه الأمم سمتا ببنى اسرائيل : لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة [1] ، غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا ؟

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

فى مصحف أبىّ : وأنزل الله على بنى إسرائيل فيها . وفيه : وأن الجروح قصاص . والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة ، والرفع للعطف على محل أن النفس ، لأن المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس ، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا ، وإما لأن معنى الجملة التى هى قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة . تقول : كتبت الحمد لله ، وقرأت سورة أنزلناها . ولذلك قال الزجاج : لو قرئ : إن النفس بالنفس ، بالكسر ؛ لكان صحيحاً . أو للاستئناف . والمعنى : فرضنا عليهم فيها ﴿أن النفس﴾ مأخوذة ﴿بالنفس﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿و﴾ كذلك ﴿العين﴾ مفقوءة ﴿بالعين والأنف﴾ مجدوع ﴿بالأنف والأذن﴾ مصلومة ﴿بالأذن والسنّ﴾ مقلوعة ﴿بالسنّ والجروح قصاص﴾ ذات قصاص ، وهو المقاصة ، ومعناه : ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت ﴿فمن تصدق﴾ من أصحاب الحق ﴿به﴾ بالقصاص وعفا عنه ﴿فهو كفارة له﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيآته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته ، وعن عبدالله بن عمرو يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به ، وقيل : فهو كفارة للجانى ، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه ، وفى قراءة أبىّ : فهو كفارة له يعنى فالمتصدق كفارته له أى الكفارة التى يستحقها له لا ينقص منها ، وهو تعظيم لما فعل ، كقوله تعالى (فأجره على الله) وترغيب فى العفو .

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى

(١) قوله «والقذة بالقذة» القذة . ريشة السهم اهـ . (ع)

وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قفيته مثل عقبته ، إذا أتبعته ، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به . فتعديه إلى الثانى بزيادة الباء فإن قلت : فأين المفعول الأول فى الآية ؟ قلت : هو محذوف والظرف الذى هو ﴿على آثارهم﴾ كالساد مسده ؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه ، والضمير فى آثارهم للنبيين فى قوله (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) . وقرأ الحسن : الأنجيل بفتح الهمزة ؛ فإن صح عنه فلأنه أعجمى خرج لعجمته عن زناة العربية ، كما خرج هابيل وآجر ﴿ومصدقا﴾ عطف على محل (فيه هدى) ومحله النصب على الحال ﴿وهدى وموعظة﴾ يجوز أن ينتصبا على الحال . كقوله (مصدقا) وأن ينتصبا مفعولا لهما ، كقوله (وليحكم) كأنه قيل . وللهدى والموعظة آتيناه الإنجيل ، وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام . فإن قلت : فإن نظمت (هدى وموعظة) فى سلك مصدقا ، فما تصنع بقوله وليحكم قلت : أصنع به ماصنعت بهدى وموعظة حين جعلتهما مفعولا لهما ، فأقدر : وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيناه إياه . وقرئ : وليحكم على لفظ الأمر بمعنى : وقلنا ليحكم . وروى فى قراءة أبى : وأن ليحكم ، بزيادة «أن» مع الأمر على أن «أن» موصولة بالأمر ، كقولك : أمرته بأن قم كأنه قيل : وآتيناه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل . وقيل : إن عيسى عليه السلام كان متعبداً بما فى التوراة من الأحكام ؛ لأن الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة . وظاهر قوله (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) يرد ذلك ، وكذلك قوله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وإن ساغ لقائل أن يقول : معناه : وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

فإن قلت : أى فرق بين التعريفين فى قوله ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ وقوله ﴿لما بين يديه من الكتاب﴾ ؟ قلت : الأول تعريف العهد ، لأنه عنى به القرآن . والثانى تعريف الجنس ، لأنه

غنى به جنس الكتب المنزلة : ويجوز أن يقال : هو للعهد ؛ لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق ، وإنما أريد نوع معلوم منه ، وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن ﴿ ومهيمنا ﴾ ورقيبا على سائر الكتب ؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات . وقرئ (ومهيمنا عليه) بفتح الميم ، أى هومن عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل ، كما قال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) والذى هيمن عليه الله عزّ وجلّ أو الحفاظ فى كل بلد ، لو حُرِّف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ، ولاشمأزوا رادّين ومنكرين . ضمن ﴿ ولا تتبع ﴾ معنى ولا تنحرف ؛ فلذلك عدّى بعن كأنه قيل : ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم ﴿ لكل جعلنا منكم ﴾ أيها الناس ﴿ شرعة ﴾ شريعة . وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الشين ﴿ ومنهاجا ﴾ وطريقا واضحا فى الدين تجرون عليه . وقيل : هذا دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا ﴿ لجعلكم أمة واحدة ﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ، أو ذوى أمة واحدة أى دين واحد لا اختلاف فيه ﴿ ولكن ﴾ أراد ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ من الشرائع المختلفة ، هل تعملون بها مذعنين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات ، معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة ؟ أم تتبعون الشبه وتفرطون فى العمل ؟ ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ فابتدروها وتسابقوا نحوها ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ استئناف فى معنى التعليل لاستباق الخيرات ﴿ فينبئكم ﴾ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ومبطلكم ، وعاملكم ومفرطكم فى العمل .

وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (٤٩)

فإن قلت : ﴿ وأن احكم بينهم ﴾ معطوف على ماذا ؟ قلت : على (الكتاب) فى قوله (وأنزلنا إليك الكتاب) كأنه قيل : وأنزلنا إليك أن احكم على أنّ « أن » وصلت بالأمر ، لأنه فعل كسائر الأفعال : ويجوز أن يكون معطوفا على (بالحق) أى أنزلناه بالحق وبأن احكم ﴿ أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ أن يضلوك عنه ويستزلوك : وذلك أن كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود ، وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا ، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدّقك ، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت . ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك وأرادوا غيره ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾

يعنى بذنب التولى عن حكم الله وإرادة خلافه ، فوضع ﴿ ببعض ذنوبهم ﴾ موضع ذلك وأراد أنّ لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد ، وأنّ هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها ، وهذا الإبهام لتعظيم التولى واستسرافهم فى ارتكابه . ونحو البعض فى هذا الكلام مافى قول لبيد :

* أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا * [1]

أراد نفسه : وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام ، كأنه قال : نفسا كبيرة ، ونفساً أىّ نفس ، فكما أن التنكير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية ، فكذلك إذا صرح بالبعض ﴿ الفاسقون ﴾ المتمرّدون فى الكفر معتدون فيه ، يعنى أنّ التولى عن حكم الله من التمرّد العظيم والاعتداء فى الكفر .

أَفَحُكْمَ الْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنّ قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى : وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم « القتلى بواء » فقال بنو النضير : نحن لا نرضى بذلك [2] فنزلت : والثانى : أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم ، وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التى هى هوى وجهل ، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحى من الله تعالى : وعن الحسن : هو عامّ فى كل من يبغى غير حكم الله : والحكم حكمان : حكم بعلم فهو حكم الله ، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان . وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض ، فقرأ هذه الآية : وقرئ : تبغون ، بالتاء والياء : وقرأ السلمى : أفحكم الجاهلية يبغون ، برفع الحكم على الابتداء ، وإيقاع يبغون خبراً وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة فى (أهذا الذى بعث الله رسولا) وعن الصفة فى : الناس رجلان : رجل أهنت ، ورجل أكرمت . وعن الحال فى « مررت بهند يضرب زيد » وقرأ قتادة (أفحكم الجاهلية) على أنّ هذا الحكم الذى يبغونه إنما

---

(١) تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

لبيد بن ربيعة من معلقته . يقول : أنا كثير ترك الأمكنة إذا لم أرض الاقامة بها . أو يربط ويحتبس بعض النفوس ، يعنى نفسه «حمامها» أى موتها المقدر لها فاذا رضيتها أو احتبسنى الموت فيها فكيف أتركها ؟ فقوله « يرتبط » بالجزم ، عطف على المجزوم قبله . وقيل «أو» بمعنى « إلا » لكن كان حقه النصب حينئذ . ولعله سكن للضرورة . وكما أن التنوين يفيد معنى التعظيم ، فكذلك كل مافيه إبهام كالبعضية هنا ، فعبر عن نفسه ببعض النفوس دلالة على التعظيم . بل ربما ادعى أنها كل النفوس مبالغة .

(٢) لم أجده هكذا ، وفى ابن أبى شيبة من طريق الشعبى قال : كان بين حيين من العرب قتال ـ فذكر قصة ؛ فيها : فارتفعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « القتلى بواء » أى سواء .

يحكم به أفعى نجران، أو نظيره من حكام الجاهلية، فأرادوا بسفههم أن يكون محمد خاتم النبيين حكما كأولئك الحكام. اللام فى قوله ﴿لقوم يوقنون﴾ للبيان كاللام فى (هيت لك) أى هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم الذين يتيقنون أن لا أعدل من الله ولا أحسن حكما منه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهى بقوله ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أى إنما يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم فى الكفر، فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم ﴿ومن يتولهم منكم فإنه﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين واعتزاله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تراءى ناراهما»[1] ومنه قول عمر رضى الله عنه لأبى موسى فى كاتبه النصرانى: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله[2]: وروى أنه قال له أبو موسى: لا قوام للبصرة إلا به، فقال: مات النصرانى والسلام، يعنى هب أنه قد مات، فما كنت تكون صانعاً حينئذ فاصنعه الساعة، واستغن عنه بغيره ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ يعنى الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر[3] يمنعهم الله ألطافه ويخذلهم مقتا لهم ﴿يسارعون فيهم﴾ ينكمشون فى موالاتهم

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث جرير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس بالسجود - الحديث» وفيه: وقال «أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: ولم؟ قال: لا تراءى ناراهما» وصله أبو معاوية عن اسماعيل عن قيس عنه. وأرسله غيره من أصحاب إسماعيل كعبدة بن سليمان ووكيع وهشيم ومروان وتابعه حجاج بن أرطاة عن إسماعيل موصولا. وحجاج ضعيف ورجح البخارى وغيره المرسل. وخالف الجميع حفص بن غياث فرواه عن إسماعيل عن قيس عن خالد بن الوليد أخرجه الطبرانى.

(٢) أخرجه البيهقى فى أدب القاضى من السنن الكبير مطولا دون ما فى آخره، فلينظر.

(٣) قوله «بموالاة الكفر» لعله الكفرة. (ع)

ويرغبون فيها ويعتذرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان، أى صرف من صروفه ودولة من دوله، فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم. وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ لى موالى من يهود كثير أعددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله [1] من ولايتهم وأوالى الله ورسوله فقال عبد الله بن أبىّ: إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالىّ وهم يهود بنى قينقاع ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿أو أمر من عنده﴾ يقطع شأفة اليهود [2] ويجليهم عن بلادهم، فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم: وذلك أنهم كانوا يشكون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: ما نظن أن يتم له أمر، وبالحرى أن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء. وقيل أو أمر من عنده: أو أن يؤمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على نفاقهم. وقيل: أو أمر من عند الله لا يكون فيه للناس فعل كبنى النضير الذين طرح الله فى قلوبهم الرعب، فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ قرئ بالنصب عطفاً على أن يأتى. وبالرفع على أنه كلام مبتدأ، أى: ويقول الذين آمنوا فى ذلك الوقت: وقرئ: يقول، بغير واو، وهى فى مصاحف مكة والمدينة والشأم كذلك على أنه جواب قائل يقول: فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا. فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت: إمّا أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم واغتباطاً بما منّ الله عليهم من التوفيق فى الإخلاص ﴿أهؤلاء الذين أقسموا﴾ لكم بإغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار. وإمّا أن يقولوه لليهود لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة، كما حكى الله عنهم (ولئن قوتلتم لننصرنكم). ﴿حبطت أعمالهم﴾ من جملة قول المؤمنين، أى بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس. وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم! فما أخسرهم! أو من قول الله عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجباً من سوء حالهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) أخرجه الطبرى من رواية عطية بن سعيد العوفى قال: جاء رجل يقال له عبادة بن الصامت ـ فذكره مرسلا وأتم منه ومن هذا الوجه أخرجه ابن أبى شيبة. وله طرق أخرى فى المغازى لابن إسحاق عن أبيه عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه.

(٢) قوله «يقطع شأفة اليهود» فى الصحاح «الشأفة» قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب، فضرب بها المثل فى الاستئصال اه باختصار. (ع)

وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

وقرئ ﴿من يرتد﴾ ومن يرتدد، وهو فى الإمام بدالين، وهو من الكائنات التى أخبر عنها فى القرآن قبل كونها. وقيل: بل كان أهل الردة إحدى عشرة فرقة: ثلاث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: بنو مدلج، ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسى، وكان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده، وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن، فأهلكه الله على يدى فيروز الديلمى بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل، فسرّ المسلمون وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد. وأتى خبره فى آخر شهر ربيع الأول[1]. وبنو حنيفة،

---

(١) قوله: إن أهل الردة كانوا إحدى عشرة فرقة ثلاثة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبعة على عهد أبى بكر رضى الله عنه وواحدة على عهد عمر. فالتى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسى. قلت: ليس قوله الأسود المذكور بنى مدلج، بل بنو مدلج قوم من بنى كنانة بن مضر إخوة قريش والأسود المذكور كان باليمن. وقومه بنو عنس ـ بفتح العين المهملة وسكون النون بعدها سين مهملة. قال الزمخشرى كان الأسود المذكور كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبى صلى الله عليه وسلم؛ فكتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمى فقتله. وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل. فسر المسلمون بذلك. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد فى آخر شهر ربيع الأول. قلت: وفى هذا الكلام من التخليط غير شىء فان قوله: استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ظاهره يقتضى أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك، بل بقى منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين ابن أبى أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضا معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سواحل اليمن. وإنما استولى العنسى على صنعاء. وبعض البلاد الجبالية. وقد نقض الزمخشرى كلامه بقوله: فانه صلى الله عليه وسلم كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه: بأن مراده، إخراج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم. وقوله: وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد، أى صبيحة إخباره بقتل الأسود. وفيه نظر وسيأتى وجهه. وقوله: فى آخر شهر ربيع الأول: ليس بصحيح فانه صلى الله عليه وسلم مات فى أول شهر ربيع الأول. وقيل: فى ثامنه. وقيل: فى ثانى عشر. وسيأتى بيان الاختلاف فى وقت المجىء برأس الأسود العنسى وقصة الأسود العنسى قد أخرجها مطولة جميع من صنف فى الردة كابن إسحق والواقدى وسيف بن عمر. وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم فى الاكليل والبيهقى فى الدلائل، قال الواقدى: اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره: اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار، لأنه كان يلقى على وجهه قناعا ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق، قال الواقدى: وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج فى ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان. وفيروز وداذويه فى آخرين. وكانوا أسلموا. وأرسلوا باسلامهم فروة بن مسيك المرادى. فاقتتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة. وخير طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر ويقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة. وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلى، فكرهته المرزبانة وراسلت الأساورة وفيهم فيروز، وواعدتهم البستان فى الوقت الذى يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز وداذويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة: =

قوم مسيلمة [1] تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . أمّا بعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك . فأجاب عليه الصلاة والسلام : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين ، وقتل على يدى وحشى قاتل حمزة . وكان يقول : قتلت خير الناس فى الجاهلية ، وشرّ الناس فى الإسلام ، أراد فى جاهليتى وإسلامى . وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً [2] فانهزم بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه . وسبع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه : فزارة قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيرى ، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل ، وبنو يربوع قوم

= لفيروز وهو أحدثهم سناً : دونك الرجل . قال فيروز : كنت قد أنسيت سيفى من الدهش . فوقعت على الأسود فخنقته حتى حولت وجهه إلى قفاه . ثم دخل صاحباه فحزوا رأسه . واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنسى . فذكر تمام القصة ، إنما اختصرناها . وروى النسائى من حديث عبدالله بن فيروز الديلمى عن أبيه قال « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم برأس الأسود العنسى » قال عبد الحق لا يصح فى هذا الباب شىء . وتعقبه ابن القطان بأن إسناد النسائى صحيح . ولا يعارضه ماجاء إن الخبر بقتله إنما جاء إثر موت النبى صلى الله عليه وسلم لأن رواية النسائى ليس فيها التصريح أنه صادف النبي صلى الله عليه وسلم . نعم فى رواية الطبرى زيادة تدل على ذلك .

(١) قول الزمخشرى : وبنو حنيفة باليمامة . ورئيسهم مسيلمة . روى الواقدى من طريق حبيب بن عمير الأنصارى قال « كان مسيلمة بن حبيب قد ادعى النبوة فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقومه يامعشر بنى حنيفة ما الذى جعل قريشا أحق بالنبوة منكم وليسوا بأكثر منكم ولا أعد ، والله إن بلادكم لأوسع من بلادهم ، وإن جبريل ينزل على كما ينزل على محمد وشهد له الدجال بن عنموة أن محمدا أشرك مسيلمة فى الأمر ، فسألوه وشهد له . وقرأ عليهم مسيلمة قرآنا يزعمه . سبح اسم ربك الأعلى الذى يسر على الحبلى . فأخرج منها نسمة تسعى من بين أحشا وسلا فمنهم من يدس فى الثرى ومنهم يعيش يحيي . إلى أجل ومنتهى . والله يعلم السر وأخفى . ولا يخفى عليه أمر الآخرة والأولى . فبايعه أهل اليمامة فلما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح قدم مسيلمة فى وفد بنى حنيفة ، فجعل يقول إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يشركه فى الأمر ، وأن يجعل له الخلافة بعده فأبى . ثم إن وفد بنى حنيفة أظهروا الاسلام . وأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل جوائز الوفود ورجع مسيلمة معهم مظهرا النبوة . وشهد له الدجال بن عنموة أن محمدا أشركه فى الأمر . وتمادى مسيلمة على ضلاله . إلى خلافة أبى بكر فكثر تابعوه . فجهز إليه أبو بكر فى جمع من الصحابة ، فالتقوا باليمامة فاقتتلوا قتالا شديدا من طلوع الشمس إلى العصر : وكثر القتل والجراح فى الفريقين ووقعت النوبة فى المسلمين . ثم تراجع المهاجرون والأنصار . فدفعوا بنى حنيفة دفعة عظيمة حتى ألجؤهم إلى حديقة فيها مسيلمة فاعتصموا بها . وأغلقوا الباب فحاصرهم المسلمون . وقال لهم أبو دجانة ألقونى على المدينة حتى أصعد إلى أعلى الحديقة ففعلوا فهبط عليهم فقاتل منهم حين فتح باب الحديقة وقتل هو وولج المسلمون الحديقة . فقتلوهم حتى انتهى القتال إلى مسيلمة فطعنه عبدالله بن زيد الأنصارى . وزرقه وحشى بن حرب فاشتركا فى قتله .

(٢) قوله « خالداً » فى أبى السعود « أبا بكر » اه . (ع)

مالك بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوّجت نفسها مسيلمة الكذاب، وفيها يقول أبو العلاء المعرى في كتاب استغفر واستغفرى :

أَمَّتْ سَجَاحُ وَوَالاَهَا مُسَيْلِمَةٌ كَذَّابَةٌ فِي بَنِي الدُّنْيَا وَكَذَّابُ [١]

وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطيم بن زيد، وكفى الله أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه. وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه: غسان قوم جبلة ابن الأيهم نصرته اللطمة [٢] وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه ﴿فسوف يأتى الله بقوم﴾ قيل لما نزلت أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى موسى الأشعرى فقال: «قوم هذا [٣]» وقيل هم ألفان من النخع، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس [٤] جاهدوا يوم القادسية. وقيل: هم الأنصار. وقيل: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه» ثم قال: لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس [٥] ﴿يحبهم ويحبونه﴾ محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه [٦] وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى

---

(١) لأبى العلاء المعرى. وأمت ـ بالتشديد ـ: صارت إماما فى بنى حنيفة وادعت النبوة. ويروى بالمد والتخفيف، أى صارت أيما غير متزوجة وهى بنت المنذر. ووالاها. أى وافقها مسيلمة، فانه تزوجها وكان مدعيا للنبوة أيضاً، وبعد قتله تابت وحسن إسلامها.

(٢) قوله «نصرته اللطمة» لعلها اللطيمة وهى العير التى تحمل الطيب وبز التجار، فحرر.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وإسحق والحاكم والطبرانى. والطبرى من طريق سماك بن حرب. عن عياض الأشعرى. قال: لما نزلت هذه الآية فذكره. ورواه البيهقى فى الدلائل من وجه آخر عن سماك عن عياض عن أبى موسى قال تلوت عند النبى صلى الله عليه وسلم (فسوف يأتى الله بقوم) الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قومك يا أبا موسى. أهل اليمن.

(٤) قوله «من أفناء الناس» فى الصحاح «فناء الدار» ما امتد من جوانبها. والجمع أفنية. ويقال: هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو. (ع)

(٥) هكذا رواه. وهو وهم منه فان هذا الكلام إنما ورد فى آية الجمعة من طريق أبى الغيث عن أبى هريرة وهو متفق عليه. وفى آية القتال رواه الترمذى من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه

(٦) قال محمود: «محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى عليهم ويرضى عنهم. وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئاً، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف، وما يدينون به من المحبة والعشق والتغنى على كراسيهم خربها الله، وفى مراقصهم عطلها الله، بأبيات الغزل المقولة فى المردان الذين يسمونهم شهداء، وصعقاتهم التى أين منها صعقة موسى يوم دك الطور، فتعالى الله عنه علواً كبيراً. ومن كلماتهم كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فان الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات» انتهى كلامه. قال أحمد: لا شك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته له على خلاف الظاهر وهو من المجاز الذى يسمى فيه المسبب باسم السبب والمجاز الذى لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها، فليمتحن حقيقة

عليهم ويرضى عنهم : وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئاً ، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق ، والتغنى على كراسيهم خربها الله ، وفى مراقصهم عطلها الله ، بأبيات الغزل المقولة فى المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التى أين عنها صعقة موسى عند دكّ الطور ، فتعالى الله عنه علواً كبيراً ، ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحبهم ، كذلك يحبون ذاته ، فإنّ الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . ومنها : الحب شرطه أن تلحقه

ـــ المحبة لغة بالقواعد لينظر أهى ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ، إذ المحبة لغة : ميل المتصف بها إلى أمر ملذ واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس ، كلذة الذوق فى المطعوم ، ولذة النظر واللمس فى الصور المستحسنة ، ولذة الشم فى الروائح العطرة ، ولذة السمع فى النغمات الحسنة ، وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم وما يجرى مجراها ، فقد ثبت أن فى اللذات الباعثة على المحبة ما لا يدركه إلا العقل دون الحس ، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها ، فليس اللذة برياسة الانسان على أهل قرية كلذته بالرياسة على أقاليم معتبرة . وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث ، فلذات العلوم أيضا متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق ، فاللذة الحاصلة فى معرفته تعالى ومعرفة جلاله وكماله تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن . وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات ، فقد تحصل من ذلك أن محبة العبد ممكنة ، بل واقعة من كل مؤمن ، فهى من لوازم الايمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم . وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيق لغة ، وكانت الطاعات والموافقات كالمسبب عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابى الذى سأل عن الساعة فقال له النبى عليه الصلاة والسلام «ما أعددت لها» قال : ما أعددت لها كبير عمل ولكن حب الله ورسوله . فقال عليه الصلاة والسلام «أنت مع من أحببت» فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة لله غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابى نفاها وأثبت الحب وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك ، ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة فى اللغة إذا تأكدت سميت عشقاً ، فمن تأكدت محبته لله تعالى وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات فى ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمي محبته عشقاً ؛ إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة . وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاب لأحباء الله عز وجل من الزمخشرى ، فانه خلط فى كلامه الغث بالسمين ، فأطلق القول كما سمعته بالقدح الفاحش فى المتصوفة من غير تحر منه ، ونسب إليهم مالا يعبأ بمرتكبه ، ولا يعد فى البهائم فضلا عن خواص البشر ، ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله ، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما ينافى حال المسمين به حقيقة ، أن يؤاخذ الصالح بالطالح (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وهذا كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، ثم خلعوا الربقة فجحدوا صفات الله تعالى وقضاءه وقدره وقالوا : إن الأمر أنف ، وجعلوا لأنفسهم شركا فى المخلوقات وفعلوا وصنعوا ، فلا يسوغ لنا أن نقدح فى علماء أصول الدين مطلقاً ؛ لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم فى نفيه عن التسمي بنعتهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا شك أن فى الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طاعته له لاغير ، وهو الذى يحاز إليه الزمخشرى . وقد بينا تصور ذلك وأوضحناه . والمعترفون بتصور ذلك وثبوته ينسبون المنكرين إلى أنهم جهلوا فأنكروا ، كما أن الصبي ينكر على من يعتقد أن وراء اللعب لذة من جماع أو غيره ، والمنهمك فى الشهوات والغرام بالنساء يظن أن ليس وراء ذلك لذة من رياسة أو جاه أو شبه ذلك ، وكل طائفة تسخر بمن فوقها وتعتقد أنهم مشغولون فى غير شيء . قال الغزالى : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك : إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون .

سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة . فإن قلت : أين الراجع من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط ؟ قلت : هو محذوف معناه : فسوف يأتى الله بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم ، أو ما أشبه ذلك ﴿ أذلة ﴾ جمع ذليل . وأما ذلول فجمعه ذلل . ومن زعم أنه من الذلّ الذى هو نقيض الصعوبة ، فقد غبى عنه أنّ ذلولا لا يجمع على أذلة . فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما أن يضمن الذلّ معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع . والثانى : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم . ونحوه قوله عز وجل (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقرئ : أذلة . وأعزة ، بالنصب على الحال ﴿ ولا يخافون لومة لائم ﴾ يحتمل أن تكون الواو للحال ، على أنهم يجاهدون وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين ، فإنهم كانوا موالين لليهود ـ لعنت ـ فإذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم . وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط . وأن تكون للعطف ، على أن من صفتهم المجاهدة فى سبيل الله ، وأنهم صلاب فى دينهم ، إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين إنكار منكر أو أمر بمعروف ، مضوا فيه كالمسامير المحماة ، لا يرعبهم قول قائل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم ، يشق عليه جدهم فى إنكارهم وصلابتهم فى أمرهم . واللومة : المرّة من اللوم ، وفيها وفى التنكير مبالغتان كأنه قيل : لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام . و﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة ﴿ يؤتيه ﴾ يوفق له ﴿ من يشاء ﴾ ممن يعلم أنّ له لطفاً ﴿ واسع ﴾ كثير الفواضل والألطاف ﴿ عليم ﴾ بمن هو من أهلها .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾

عقب النهى عن موالاة من تجب معاداتهم ذكر من تجب موالاتهم بقوله تعالى ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ ومعنى « إنما » وجوب اختصاصهم بالموالاة . فإن قلت : قد ذكرت جماعة ، فهلا قيل إنما أولياؤكم ؟ قلت : أصل الكلام : إنما وليكم الله ، فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ، ثم نظم فى سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قيل : إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن فى الكلام أصل وتبع وفى قراءة عبدالله : إنما مولاكم . فإن قلت : ﴿ الذين يقيمون ﴾ ما محله ؟ قلت : الرفع على البدل من الذين آمنوا ، أو على : هم الذين يقيمون . أو النصب على المدح . وفيه تمييز للخلص من الذين

آمنوا نفاقا ، أو واطأت قلوبهم ألسنتهم إلا أنهم مفرطون فى العمل ﴿وهم راكعون﴾ الواو فيه للحال ، أى يعملون ذلك فى حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع لله إذا صلوا وإذا زكوا . وقيل : هو حال من يؤتون الزكاة ، بمعنى يؤتونها فى حال ركوعهم فى الصلاة ، وإنها نزلت فى علىّ كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع فى صلاته فطرح له خاتمه [1] ، كأنه كان مرجا [2] فى خنصره ، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته . فإن قلت : كيف صح أن يكون لعلىّ رضى الله عنه واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت : جىء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلا واحداً ، ليرغب الناس فى مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء ، حتى إن لزهم أمر لا يقبل [3] التأخير وهم فى الصلاة ، لم يؤخروه إلى الفراغ منها .

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

﴿فإن حزب الله﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر [4] . ومعناه : فإنهم هم الغالبون ، ولكنهم بذلك جعلوا أعلاما لكونهم حزب الله . وأصل الحزب ؟ القوم يجتمعون لأمر حزبهم . ويحتمل أن يريد بحزب الله : الرسول والمؤمنين . ويكون المعنى : ومن يتولهم فقد تولى حزب الله ، واعتضد بمن لا يغالب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ

(١) قلت : فى قوله : «كأنه» إلى قوله «بمثله» من كلام صاحب الكشاف . فقد رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق على بخاتمه وهو راكع ، فنزلت (إنما وليكم الله ورسوله) ولابن مردويه من رواية سفيان الثورى عن ابن سنان عن الضحاك . عن ابن عباس قال كان علىّ قائماً يصلى ، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه فنزلت . وروى الحاكم فى علوم الحديث من رواية عيسى بن عبدالله بن عمر بن على . حدثنا أبى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب قال نزلت هذه الآية . إنما وليكم الله ورسوله . الآية فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد والناس يصلون ، بين قائم وراكع وساجد . وإذا سائل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاك أحد شيئا . قال لا إلا هذا الراكع يعنى عليا . أعطانى خاتمه . رواه الطبرانى فى الأوسط فى ترجمة محمد بن على الصائغ . وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر قال : وقف بعلى سائل وهو واقف فى صلاته . الحديث . وفى إسناده خالد بن يزيد العمرى . وهو متروك . ورواه الثعلبى من حديث أبى ذر مطولا وإسناده ساقط .

(٢) قوله «كأنه كان مرجا» أى قلقا غير ثابت . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «لا يقبل» لعله «لا يفعل» . (ع)

(٤) قال محمود : «هذا من إقامة الظاهر مقام المضمر ومعناه ...الخ» قال أحمد : ومقابله قوله تعالى (إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) فوضع الظالمين موضع ضمير الأول ليزيدهم سمة الظلم إلى الخسران .

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الاسلام ثم نافقا ، وكان رجل من المسلمين يوادونهما ، فنزلت . يعنى أن اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمنابذة . وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار - وإن كان أهل الكتاب من الكفار - إطلاقا للكفار على المشركين خاصة . والدليل عليه قراءة عبدالله : ومن الذين أشركوا . وقرئ : والكفار بالنصب والجر . وتعضد قراءة الجر قراءة أُبىّ : ومن الكفار ﴿ واتقوا الله ﴾ فى موالاة الكفار وغيرها ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ حقاً ؛ لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين ﴿اتخذوها﴾ الضمير للصلاة أو للمناداة . قيل كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول « أشهد أنّ محمداً رسول الله » قال : حرق الكاذب، فدخلت خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم ، فتطايرت منها شرارة فى البيت فاحترق البيت ، واحترق هو[1] وأهله . وقيل : فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده ﴿لا يعقلون﴾ لأنّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة ، فكأنه لا عقل لهم .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)

قرأ الحسن . هل تنقمون بفتح القاف . والفصيح كسرها . والمعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وأنّ أكثرهم فاسقون﴾ ؟ قلت : فيه وجوه : منها أن يعطف على أن آمنا ، بمعنى : وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان ، كأنه قيل : وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا فى دين الإسلام وأنتم خارجون منه . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف ، أى واعتقاد أنكم فاسقون . ومنها أن يعطف على المجرور ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأنّ أكثركم فاسقون . ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أنّ أكثركم

(١) أخرجه الطبرى من رواية أسباط عن السدى فى قوله « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبا » قال : كان رجل من النصارى ... فذكره .

فاسقون . ويجوز أن يكون تعليلا معطوفا على تعليل محذوف ، كأنه قيل : وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات . ويدل عليه تفسير الحسن : بفسقكم نقمتم ذلك علينا .

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

وروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال « أومن بالله وما أنزل إلينا إلى قوله : ونحن له مسلمون » فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام : مانعلم أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شراً من دينكم [1] . فنزلت . وعن نعيم بن ميسرة : وإن أكثركم ، بالكسر . ويحتمل أن ينتصب (وأن أكثركم) بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون ، أى : ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون ، أو يرتفع على الابتداء والخبر محذوف ، أى وفسقكم ثابت معلوم عندكم ، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل ، إلا أن حب الرياسة وكسب الأموال لايدعكم فتنصفوا ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المنقوم ، ولا بد من حذف مضاف قبله ، أو قبل « من » تقديره : بشر من أهل ذلك ، أو دين من لعنه الله . و﴿من لعنه الله﴾ فى محل الرفع على قولك : هو من لعنه الله ، كقوله تعالى (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار) أو فى محل الجر على البدل من شر . وقرئ : مثوبة . ومثوبة . ومثالها : مشورة ، ومشورة . فإن قلت : المثوبة مختصة بالإحسان ، فكيف جاءت فى الإساءة؟ قلت : وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ * [2]

(١) أخرجه الواحدى فى الأسباب . والوسط عن ابن عباس بهذا وأخرجه الطبرى من رواية ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد ، مولى زيد بن ثابت . حدثنى سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود وفيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع . وعازر وآزار ابنى آزار . وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فذكر نحوه . وفيه فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته . وقالوا لانؤمن بعيسى ولانؤمن بمن آمن به .

(٢) مر شرح هذا الشاهد ص ٦٠ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه .

ومنه (فبشرهم بعذاب أليم) . فإن قلت : المعاقبون من الفريقين هم اليهود ، فلم شورك بينهم[١] فى العقوبة ؟ قلت : كان اليهود ـ لعنوا ـ يزعمون أن المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب ، فقيل لهم : من لعنه الله شر عقوبة فى الحقيقة واليقين من أهل الاسلام فى زعمكم ودعواكم ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطف على صلة[٢] «من» كأنه قيل : ومن عبد الطاغوت . وفى قراءة أبىّ وعبدوا الطاغوت ، على المعنى . وعن ابن مسعود : ومن عبدوا . وقرئ وعابد الطاغوت، عطفاً على القردة . وعابدي . وعباد . وعبد . وعبد . ومعناه : الغلوّ فى العبودية ، كقولهم ، رجل حذر وفطن ، للبليغ فى الحذر والفطنة . قال :

أَبَنِي لُبَيْنَى إِنَّ أُمَّكُمُ أَمَةٌ وَإِنَّ أَبَاكُمُو عَبُدُ[٣]

وعبد ، بوزن حطم . وعبيد . وعبد ـ بضمتين ـ جمع عبيد : وعبدة بوزن كفرة . وعبد ، وأصله عبدة ، فحذفت التاء للإضافة . أو هو كخدم فى جمع خادم . وعبد[٤] وعباد . وأعبد . وعبد الطاغوت ، على البناء للمفعول ، وحذف الراجع ، بمعنى : وعبد الطاغوت فيهم ، أو بينهم . وعبد الطاغوت بمعنى صار الطاغوت معبوداً من دون الله ، كقولك «أمر» إذا صار أميراً . وعبد الطاغوت ، بالجر عطفاً على (من لعنه الله) . فإن قلت : كيف جاز أن يجعل الله منهم

---

(١) (قوله فلم شورك بينهم) لعله بينهما ، أو بينهم وبين المسلمين . (ع)

(٢) قال محمود : «وعبد الطاغوت عطف على صلة من ... الخ» قال أحمد رحمه الله : السؤال يلزم القدرية لأنهم يزعمون أن الله تعالى إنما أراد منهم أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً ، وأن عبادتهم للطاغوت قبيحة والله تعالى لايريد القبائح بل تقع فى الوجود على خلاف مشيئته ، فلذلك يضطر الزمخشرى إلى تأويل الجعل بالخذلان أو بالحكم ، وكذلك أول قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) بمعنى حكمنا عليهم بذلك . هذا مقتضى قاعدة القدرية . وأما على عقيدة أهل السنة الموحدين حقا ، فالآية على ظاهرها ، والله تعالى هو الذى أشقاهم وخلق فى قلوبهم طاعة الطاغوت وعبادته ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وإذا روجع القدرى فى تحقيق الخذلان أو الحكم الذى يستروح إلى التأويل به ، لم يقدر منه على حقيقة . ولم يفسره بغير الخلق إن اعترف بالحق وترك ارتكاب المراء ، والتذبذب مع الأهواء ، والله ولى التوفيق .

(٣)
أبنى لبينى لست معترفا ليكون ألأم منكم أحد
أبنى لبينى إن أمكم أمة وإن أباكم عبد

لأوس بن حجر . وقيل لطارفة بن العبد ، والهمزة للنداء ، والعبد كالحذر البليغ فى العبودية . ورواه الفراء بالضم ، لكن قال : إن ضم الباء ضرورة . وقال السيوطى : إنه بالضم اسم جمع لعبد بالسكون ، لكن ظاهر البيت يخالفه . يقول : يابنى لبينى ، لست معترفا لأن يكون أحد أشد لؤما منكم ، فان أبويكم رقيقين . وتخصيص الأمة بالرقيقة والعبد بالرقيق : عرف شائع فى اللغة . وادام نداء الغريب ، لأنه أغيظ للمواجهة بالذم . وكرر النداء مع هذه الاضافة للاستخفاف بهم .

(٤) قوله «وعبد» لعله بفتح العين وضم الباء كندس . أفاده الصحاح . (ع)

عباد الطاغوت ؟ [١] قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه خذلهم حتى عبدوه . والثانى : أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به ، كقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) وقيل الطاغوت : العجل ؛ لأنه معبود من دون الله ، ولأن عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان ، فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : أطاعوا الكهنة ، وكل من أطاع أحداً فى معصية الله فقد عبده . وقرأ الحسن : الطواغيت . وقيل : وجعل منهم القردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى . وقيل : كلا المسخين من أصحاب السبت ، فشبانهم مسخوا قردة ، ومشايخهم مسخوا خنازير . وروى أنها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون ياإخوة القردة والخنازير فينكسون رءوسهم ﴿أولئك﴾ الملعونون الممسوخون ﴿شر مكانا﴾ جعلت الشرارة للمكان وهى لأهله . وفيه مبالغة ليست فى قولك : أولئك شر وأضل ، لدخوله فى باب الكناية التى هى أخت المجاز . نزلت فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يظهرون له الإيمان نفاقا ، فأخبره الله تعالى بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا ، لم يتعلق بهم شىء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك . وقوله (بالكفر) و (به) حالان ، أى دخلوا كافرين [٢] وخرجوا كافرين . وتقديره : ملتبسين بالكفر . وكذلك قوله (وقد دخلوا) (وهم قد خرجوا) ولذلك دخلت (قد) تقريبا الماضى من الحال . ولمعنى آخر : وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متوقعاً لإظهار الله ما كتموه ، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله (قالوا آمنا) أى قالوا ذلك وهذه حالهم .

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

الإثم الكذب [٣] بدليل قوله تعالى (عن قولهم الإثم) . ﴿والعدوان﴾ الظلم . وقيل : الإثم

---

(١) قوله «فان قلت كيف جاز أن يجعل...الخ» السؤال مبنى على أنه لا يجوز عليه تعالى خلق الشر . وهو مذهب المعتزلة . أما عند أهل السنة فيجوز كما تقرر فى علم التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «والمجروران حالان أى دخلوا كافرين ...الخ» قال أحمد : وفى تصدير الجملة الثانية بالضمير تأكيد لاتحاد حالهم فى الكفر ، أى وقد دخلوا بالكفر وخرجوا وهم أولئك على حالهم فى الكفر ، كما تقول : لقيت زيدا بعد عوده من سفره وهو هو ، أى على حاله . وفى المثل «وعبد الحميد عبد الحميد» أى حالته باقية ، والله أعلم .

(٣) قال محمود : «والإثم الكذب ...الخ» قال أحمد : وقوله (عن قولهم الاثم) يدل على أن الاثم الأول مقول ، فيحتمل أن يكون المراد الكذب مطلقا . ويحتمل أن يراد كلمة الشرك ، واستدلال الزمخشرى على أن المراد الكذب لا يتم ، وإنما يدل على أنه مقول فيحتمل الأمرين ، والله أعلم .

كلمة الشرك . وقولهم عزير ابن الله . وقيل : الإثم : مايختص بهم . والعدوان : مايتعداهم إلى غيرهم . والمسارعة فى الشيء الشروع فيه بسرعة ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير [1] لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه ، وكأن المعنى فى ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذى ينهاه فلاشهوة معه فى فعل غيره ، فإذا فرط فى الإنكار كان أشد حالا من المواقع . ولعمرى إن هذه الآية مما يقذ السامع [2] وينعى على العلماء توانيهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هى أشد آية فى القرآن . وعن الضحاك : مافى القرآن آية أخوف عندى منها .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود [3] ومنه قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ماوقع مجازاً عنه لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة ، حتى أنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ماأبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد

(١) عاد كلامه . قال : «جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ، لأن كل عامل...الخ» قال أحمد : يعنى أنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل فى قوله (لبئس ما كانوا يعملون) وعبر عن ترك الانكار عليهم حيث ذمه بالصناعة فى قوله (لبئس ماكانوا يصنعون) كان هذا الذم أشد ، لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء ، وحرفة لازمة هم فيها أمكن من أصحاب المناكير فى أعمالهم . وهذا مراده والله أعلم .

(٢) قوله «مما يقذ السامع» يعنى يخففه وينشطه . وهذا إن كان مشدد الذال من القذ . أو يضربه حتى يسترخى ويشرف على الموت . وهذا إن كان مخففا من الوقذ . (ع)

(٣) قال محمود : «غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ... الخ» قال أحمد : والنكتة فى استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا ، ولاشيء أثبت من الصور الحسية فى الذهن ؛ فلما كان الجود والبخل معنيين لايدركان بالحس ويلازمهما صورتان تدركان بالحس وهو بسط اليد للجود وقبضها للبخل ، عبر عنهما بلازمهما لفائدة الايضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات ، والله أعلم .

وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين[1] للبخل والجود، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله:

جَادَ الْحِمَى بَسْطُ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ ... شَكَرَتْ نَدَاهُ تِلَاعُهُ وَوِهَادُهُ[2]

ولقد جعل لبيد للشمال يدا فى قوله:

* إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا *[3]

ويقال بسط اليأس كفيه فى صدرى، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفان. ومن لم ينظر فى علم البيان عمى عن تبصر محجة الصواب فى تأويل أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به. فإن قلت: قد صح أن قولهم ﴿يد الله مغلولة﴾ عبارة عن البخل.[4] فما تصنع بقوله ﴿غلت أيديهم﴾؟ ومن حقه أن يطابق ما تقدمه وإلا تنافر الكلام وزل عن سننه؟ قلت: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم. ونحوه بيت الأشتر:

---

(١) قوله «وقعتا متعاقبتين» لعله «معاقبتين». (ع)

(٢) جاد الحمى أى أمطر فيه وبسط اليدين فاعل وأصله مصدر أريد به المنبسط ضد المنقبض ويروى سبط بتقديم السين صفة مشبهة كضخم وهو بمعنى المسترسل المنبسط كناية عن الكريم كما أن منقبض اليدين كناية عن البخيل فشبه السحاب بانسان كريم على سبيل المكنية وإثبات اليدين تخييل. والتلعة: الأرض المرتفعة. والوهدة: الأرض المنخفضة. وشبه أعالى الحمى وأسافله بطلاب الرزق وشكرها تخييل والندى بمعنى العطاء ترشيح للأولى. ويجوز أنه حقيقة لا بمعنى العطاء ويجوز أن الشكر تخييل للأولى أيضا. يقول: أمطر السحاب أرض الحما بمطر كثير فأنبتت وأزهرت. وهذا معنى شكرها. ويجوز أن التلاع والوهاد مجاز عن أهلهما النازلين فيهما.

(٣) وغداة ريح قد كشفت وقرة ... إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للبيد، من المعلقة. يقول: ورب غداة ريح قد كشفتها أى كشفت غمتها عن الناس. ويروى «قد وزعت» أى كففتها ومنعتها. ورب غداة قرة، بالكسر والضم أى شدة برد كشفت بردها أيضا. والكشف خاص بالمحسوس فاستعير للمعقول من غمة الجوع والبرد على طريق التصريح. ويجوز أن إزالة الريح والبرد عن الناس كناية عن إدخالهم بيته لإكرامهم. وشبه الغداة بمطية لها زمام. أو شبه القرة بذلك. وشبه الشمال ـ وهى نوع من الريح ـ بقائد يقود تلك المطية على طريق المكنية، والزمام تخييل للأولى، واليد للثانية. وليس بلازم أن يكون للمشبه شىء محقق يشبه ما للمشبه به على المختار كاليد والزمام هنا. والمعنى أن الشمال تارة تجعل الغداة مغبرة باردة، وتارة لا. أو تارة تثير الغبار والبرد فى جهة، وتارة فى أخرى.

(٤) عاد كلامه. قال: «فإن قلت قد صح أن قولهم يد الله مغلولة عبارة عن البخل ... الخ» قال أحمد: لقد نقص فضيلته التى أوردها فى هذا الفصل بما ضمنه هذا السؤال والجواب من القاعدة الفاسدة فى أن الله تعالى يستحيل عليه أن يريد من عباده شيئا ما نعاه عليهم، وبنى على ذلك استحالة أن يدعو عليهم بالبخل لأنه لم يرده منهم، ويستحيل أن يريده منهم فوجه هذا النص بالتأويل والتمسك بالأباطيل. والحق أن الله يدعو عليهم بالبخل ودعاؤه عبارة عن خلقه الشح فى قلوبهم والقبض فى أيديهم، فهو الداعى والخالق، لا خالق إلا هو يخلق لهم البخل ويتقدس عنه (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) فليت الزمخشرى لم يتحدث فى تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان، فإنه فيه أفرس الفرسان، لا يجارى فى ميدانه ولا يمارى فى بيانه.

بَقِيتُ وَفْرِى وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَا وَلَقِيتُ أَضْيَافِى بِوَجْهِ عَبُوسِ [1]

ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدى حقيقة ، يغللون فى الدنيا أسارى ، وفى الآخرة معذبين بأغلال جهنم : والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز ، كما تقول : سبنى سب الله دابره ، أى قطعه ؛ لأنّ السب أصله القطع . فإن قلت : كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد ؟ قلت : المراد به الدعاء بالخذلان الذى تقسو به قلوبهم ، فيزيدون بخلا إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم ، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الأحدوثة التى تخزيهم وتمزق أعراضهم . فإن قلت : لم ثنيت اليد فى قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) وهى مفردة فى (يد الله مغلولة) [2] ؟ قلت : ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه . وذلك أنّ غاية ما يبذله السخى بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبنى المجاز على ذلك . وقرئ (ولعنوا) بسكون العين . وفى مصحف عبد الله : بل يداه بسطان. يقال : يده بسط بالمعروف . ونحوه مشية سجح [3] وناقة صرح ﴿ ينفق كيف يشاء ﴾ تأكيد

---

(١) بقيت وفرى وانحرفت عن العلى ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس

للأشتر النخعى . والبيت الأول فى صورة الخبر . والمراد به إنشاء الدعاء على نفسه بالبخل . ويجوز أنه من باب التعليق بالممتنع ، والوفر المال الكثير ويروى بقيت وحدى أى فنيت عشيرتى أو بعدت عنها والانحراف التباعد عن حرف الشىء المحسوس كما أن العلى خاص بالمحسوسات ، فيجوز أنه استعار الانحراف للاعراض والعدول على طريق التصريحية والعلى ترشيح . ويحتمل أنه استعار العلى للمكارم والانحراف ترشيح . وقوله بوجه عبوس : أى رجل عبوس ، ففيه معنى التجريد إن لم أشن بالضم شرط دل ماقبله على جوابه ، أى إن لم أوقع حربا على ابن حرب معاوية بن صخر بن حرب ، بحيث تأتيه من كل فج . ويروى «على ابن هند» ولم تخل صفة غارة ، ونهاب النفوس : أخذ الأرواح بالقتل أو أسر الذوات . ويروى «ذهاب نفوس» أى فنائها . وفى الكلام الادماج ، حيث ضمن تهديد معاوية مدح نفسه بالكرم ، حتى أن البخل عنده من أكبر المصائب وأشد العار ، حتى علقه بالممتنع فأفاد امتناعه .

(٢) عاد كلامه . قال : فان قلت : لم ثنيت اليد فى (يداه مبسوطتان) وهى مفردة فى قولهم (يد الله) ...الخ ، قال أحمد : ولما كان المعهود فى العطاء أن يكون باحدى اليدين وهى اليمين ، وكان الغالب على اليهود ـ لعنت ـ اعتقاد الجسمية ، جاءت عبارتهم عن اليد الواحدة المألوف منها العطاء ، فبين الله تعالى كذبهم فى الأمرين فى نسبة البخل وفى إضافته إلى الواحدة ، تنزيلا منهم على اعتقاد الجسمية ، بأن ينسب إلى ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط ، وبأن أضافه إلى اليدين جميعا لأن كلتا يديه يمين ، كما ورد فى الحديث تنبيها على نفى الجسمية ، إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها لكانت إحدى اليدين يمينا والأخرى شمالا ضرورة . فلما أثبت أن كلتيهما يمين نفى الجسمية وأضاف الكرم إليهما ، لا كما يضاف فى الشاهد إلى اليد اليمنى خاصة ، إذ الأخرى شمال وليست محلا للتكرم ، والله أعلم .

(٣) قوله «سجح» فى الصحاح «السجسجة» الطيران السريع . و «قطاة سجسج» أى سريعة اه فلعل السجح مثله وفيه أيضا «الصرح» بالتحريك : الخالص من كل شىء . (ع)

للوصف بالسخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روى أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا، فلما عصوا الله فى محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، ورضى بقوله الآخرون فأشركوا فيه ﴿ وليزيدن ﴾ أى يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً فى الجحود وكفراً بآيات الله ﴿ وألقينا بينهم العداوة ﴾ فكلمهم أبداً مختلف، وقلوبهم شتى، لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد ﴿ كلما أوقدوا ناراً ﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط، وقد أتاهم الإسلام وهم فى ملك المجوس. وقيل: خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين. وقيل: كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم. وعن قتادة رضى الله عنه لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس ﴿ ويسعون ﴾ ويجتهدون فى الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَٰبِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ ولو أن أهل الكتاب ﴾ مع ما عددنا من سيآتهم ﴿ آمنوا ﴾ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، وقرنوا إيمانهم بالتقوى التى هى الشريطة فى الفوز بالإيمان ﴿ لكفرنا عنهم ﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها ﴿ ولأدخلناهم ﴾ مع المسلمين الجنة. وفيه إعلام بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيآتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى، وأن الإيمان لا ينجى[1]

(١) قال محمود: «فيه دليل على أن الايمان لا ينجى ... الخ» قال أحمد: وهو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجعله دليلا على قاعدته فى أن مجرد الايمان لا ينجى من الخلود فى النار حتى ينضاف إليه التقوى، لأن الله تعالى جعل المجموع فى هذه الآية شرطا للتكفير ولادخال الجنة. وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير ولا دخول الجنة، وأنى له ذلك والاجماع والاتفاق من الفريقين أهل السنة والمعتزلة على أن مجرد الايمان يجب ما قبله ويمحوه، كما ورد النص فلو فرضنا موت الداخل فى الايمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه باتفاق مكفر الخطايا محكوما له بالجنة، فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط. هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال. =

ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى ، كما قال الحسن : هذا العمود فأين الأطناب ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ من سائر كتب الله ، لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها ، فكأنها أنزلت إليهم ؛ وقيل : هو القرآن . لوسع الله عليهم الرزق وكانوا قد قحطوا . وقوله ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ عبارة عن التوسعة . وفيه ثلاث أوجه : أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل [١] منها من رؤس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم ﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ طائفة حالها أمم [٢] فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هى الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى ، و ﴿ ساء ما يعملون ﴾ فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : وكثير منهم ما أسوأ عملهم ، وقيل : هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

﴿ بلغ ما أنزل إليك ﴾ جميع ما أنزل إليك وأى شيء أنزل إليك غير مراقب فى تبليغه أحداً [٣] ، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿ وإن لم تفعل ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك

—— وإن كانت التقوى على أصل موضعها الخوف من الله عز وجل ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبائر . وحينئذ لا يتم للزمخشرى منه غرض . وما هذا إلا إلحاح ولجاج فى مخالفة المعتقد المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنى أو سرق ، كررها النبى صلى الله عليه وسلم مرارا ، ثم قال : وإن رغم أنف أبى ذر ، لما راجعه رضى الله عنه فى ذلك . ونحن نقول . وإن رغم أنف القدرية .

(١) قوله «ما تهدل» أى استرخى وتدلى . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «أمم» أى يسير . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) (قال محمود : «معناه بلغ غير مراقب فى التبليغ أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه . (وإن لم تفعل) معناه : وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك فما بلغت رسالته ، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالة ولم تؤد منها شيئاً قط . وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من البعض ، فكأنك أغفلت أداءها جميعها ، كما أن من يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لادلاء كل منها بما يدليه غيرها . وكونها كذلك فى حكم الشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ ، مؤمنا به غير مؤمن ، إلى أن قال : «فإن قلت وقوع قوله (فما بلغت رسالته) جزاء للشرط ما وجه صحته ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه إذا لم تمثل ... الخ» قال أحمد : وهذا الاتحاد بين الشرط والجزاء ظاهر ؛ لأن حاصله إن لم تبلغ الرسالة لم تبلغ الرسالة ، باتحاد المبتدأ والخبر ، حتى لا يزيد الخبر عليه شيئا فى الظاهر كقوله :

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى *

فجعل الخبر عن المبتدإ بلا مزيد فى اللفظ ، وأراد : وشعرى شعرى المشهور بلاغته والمستفيض فصاحته ، ولكنه أفهم بالسكوت عن هذه الصفات التى بها تحصل الفائدة أنها من لوازم شعره فى أفهام الناس السامعين ، لاشتهاره بها ، ——

﴿فما بلغت رسالته﴾ وقرئ: رسالاته، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالات، ولم تؤدّ منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإن لم تؤدّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها، لإدلاء كل منها بما يدليه[1] غيرها. وكونها كذلك[2] في حكم شيء واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ، مؤمنا به غير مؤمن به. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن كتمت آية لم تبلغ رسالاتي. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعاً، فأوحى الله إليّ إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك. وضمن لي العصمة فقويت»[3]. فإن قلت: وقوع قوله ﴿فما بلغت رسالاته﴾ جزاء للشرط ما وجه صحته؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه إذا لم يمتثل أمر الله في تبليغ الرسالات وكتمها كلها كأنه لم يبعث رسولا كان أمراً شنيعاً لا خفاء بشناعته، فقيل: إن لم تبلغ منها أدنى شيء وإن كان كلمة واحدة، فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها، كما عظم قتل النفس بقوله (فكأنما قتل الناس جميعاً) والثاني: أن يراد: فإن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمان الوحي كله من العقاب فوضع السبب موضع المسبب، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام «فأوحى الله إليّ إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك» ﴿والله يعصمك﴾ عدة من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك، فما عذرك في مراقبتهم؟ فإن قلت: أين ضمان العصمة وقد شجّ في وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته[4] صلوات الله عليه؟ قلت: المراد أنه يعصمه من القتل. وفيه: أن عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات الله، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل: نزلت بعد يوم أحد، والناس الكفار بدليل قوله ﴿إن الله لا يهدى

= وأنه غني عن ذكرها لشهرتها وذياعها، وكذلك أريد في الآية لأن عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس مستقر في الأفهام أنه عظيم شنيع ينقم على مرتكبه، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع فضلا عن كتمان الرسالة من الرسول، فاستغنى عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء للصوقها بالجزاء في الأفهام وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ماوراءه من الوعيد والتهديد، وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز بذكر الشرط عاما بقوله (وإن لم تفعل) ولم يقل وإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة، حتى يكون اللفظ متغايراً، وهذه المغايرة اللفظية وإن كان المعنى واحداً أحسن رونقاً وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذه الذروة انحط عنها أبو النجم بذكر المبتدإ بلفظ الخبر، وحق له أن تتضاءل فصاحته عند فصاحة المعجز فلا يعاب عليه في ذلك، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان، والله الموفق.

(١) قوله «بما يدليه» لعله: يدلى به. (ع)

(٢) قوله «وكونها كذلك» لعله «لذلك». (ع)

(٣) أخرجه إسحاق في مسنده. أخبرنا كلثوم بن محمد بن أبي سدرة، حدثنا عطاء الخراساني عن أبي هريرة به ولم يذكر وضمن لي العصمة فقويت وذكره الواحدي في الوسيط والأسباب عن الحسن بغير سند.

(٤) متفق عليه من حديث سهل. وقد تقدم في تفسير آل عمران.

القوم الكافرين ﴾ ومعناه أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك . وعن أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت ، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال : انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس .[١]

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

﴿ لستم على شيء ﴾ أي على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً لفساده وبطلانه ، كما تقول : هذا ليس بشيء تريد تحقيره وتصغير شأنه . وفي أمثالهم : أقل من لاشيء ﴿ فلا تأس ﴾ فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ، وفي المؤمنين غنى عنهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ والصابئون ﴾ رفع على الابتداء وخبره[٢] محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابئون كذلك ، وأنشد سيبويه شاهداً له :

---

(١) لم أجده من حديث أنس ، وقد أخرجه الترمذي من رواية أبي قدامة الحارث بن عبيد عن سعيد الجريري عن عبدالله بن شقيق عن عائشة . وقال غريب . ورواه بعضهم عن الجريري مرسلا ليس فيه عائشة . ورواه موصولا الطبري من رواية ابن علية عن الجريري ولكنه رواه من رواية وهب عن الجريري .

(٢) قال محمود : «فيه الصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف ..الخ» قال أحمد : صدق ، لا وورود للسؤال بهذا التوجيه ، ولكن ثم سؤال متوجه ، وهو أن يقال : لو عطف الصابئين ونصبه كما قرأ ابن كثير لأفاد أيضاً دخولهم في جملة المتوب عليهم ، ولفهم من تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع من أن هؤلاء الصابئين وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم ، فما الظن بالنصارى ، ولكان الكلام جملة واحدة بليغا مختصرا والعطف إفرادي ، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين ، وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الافرادي ؟ ويجاب عن هذا السؤال بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف ، لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات . وهذا الصنف من جملتها ، والخبر عنها واحد . وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الافرادي وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به . ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل تقديره مثلا ، والصابئون كذلك فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها وهو بهذه المثابة ، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة فكانوا أحقاء بجعلهم تبعا وفرعا ، مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر . وفائدة التقديم على الخبر أن يكون توسط هذا المبتدإ المحذوف الخبر بين الجزئين ، أدل على الخبر المحذوف من ذكره بعد تقضي الكلام وتمامه ، والله أعلم .

وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ (١)

أى فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك . فإن قلت : هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها ؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيدا وعمرو منطلقان . فإن قلت لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إنّ زيدا منطلق وعمرو ؟ قلت : لأنى إذا رفعته رفعته عطفا على محل إن واسمها ، والعامل فى محلهما هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل فى الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين فى عمله كما تنتظمها «إن» فى عملها ، فلو رفعت الصابئون المنوىّ به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بأنّ ، لأعملت فيهما رافعين مختلفين . فان قلت : فقوله والصابئون معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله (إنّ الذين آمنوا الخ . . .) ولا محل لها ، كما لا محل للتى عطفت عليها ، فان قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم . وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدّهم غيا ، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبؤا عن الأديان كلها ، أى خرجوا ، كما أن الشاعر قدم قوله «وأنتم» تنبيها على أن المخاطبين أوغل فى الوصف بالبغاة من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو «بغاة» لئلا يدخل قومه فى البغى قبلهم ، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدما فان قلت : فلو قيل والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلا . قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم فى شىء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال مقدّم ومؤخر للمزال لا للقارّ فى مكانه . ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض فى الكلام . فان قلت : كيف قال (الذين آمنوا) ثم قال (من آمن) ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد بالذين آمنوا : الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون وأن يراد بمن آمن . من ثبت على الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه . فان قلت : ما محل من آمن

(١)
إذا جزت نواصى آل بدر فأدوها وأسرى فى الوثاق
وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا فى شقاق

لبشر بن أبى خازم الأسدى ، يخاطب بنى طيئ ويتوعدهم بما صنعوا بآل بدر حلفاء بنى أسد . والناصية : مقدم شعر الرأس : وجز النواصى حقيقة ، على عادتهم من جز ناصية الأسير إذا أرادوا إطلاقه ، فطالبهم بمقتضاها وقال : فأدوها ، أى الأسرى التى جزت نواصيها . أو أدوا النواصى نفسها . ويجوز أنه مجاز عن قتل كبرائهم . وقوله «فأدوها» أى دماء القتلى وأسرى عطف على الضمير المفعول . وإلا ، أى وإن لا تفعلوا فاعلموا أنا وأنتم بغاة . وبغاة : خبر إنا . وخبر أنتم محذوف ، أى بغاة أيضا . ولم يجعل المذكور خبراً عنه أيضا ، لأنه ليس عطفا على اسم إن ، وإلا لقال : إنا وإياكم ، بل هو من عطف الجمل . ولا يقال فيه العطف على الجملة قبل تمامها ، لا نقول : سمع العطف قبل المعطوف عليه بالكلية فى قوله : عليك ورحمة الله السلام . و «فى شقاق» خبر ثان ، أى فى خلاف مابقينا ، أى مدة بقائنا ، يعنى وأنتم تعلمون بأسنا فى الحرب .

قلت : إما الرفع على الابتداء وخبره ﴿فلا خوف عليهم﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن ، وإما النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه ، أو من المعطوف عليه . فان قلت : فأين الراجع إلى اسم إن ؟ قلت : هو محذوف تقديره من آمن منهم ، كما جاء في موضع آخر . وقرئ : والصابيون ، بياء صريحة ، وهو من تخفيف الهمزة ، كقراءة من قرأ : يستهزيون . والصابون . وهو من صبوت ، لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا أدلة العقل والسمع . وفي قراءة أبيّ رضي الله عنه : والصابئين ، بالنصب . وبها قرأ ابن كثير . وقرأ عبدالله : يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿لقد أخذنا﴾ ميثاقهم بالتوحيد ﴿وأرسلنا إليهم رسلا﴾ ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم ﴿كلما جاءهم رسول﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلا ، والراجع محذوف أي رسول منهم ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع . فإن قلت : أين جواب الشرط [1] فإن قوله (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) ناب عن الجواب ، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنه لا يحسن أن تقول إن أكرمت أخي أخاك أكرمت ؟ قلت : هو محذوف يدل عليه قوله (فريقاً كذبوا وفريقا يقتلون) كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه ، وقوله (فريقا كذبوا) جواب مستأنف لقائل يقول : كيف فعلوا برسلهم ؟ فإن قلت : لم جيء بأحد الفعلين ماضيا [2] وبالآخر مضارعا ؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية

(١) قال محمود : « إن قلت أين جواب الشرط ... الخ » قال أحمد : ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى ، وهي توأمة هذه قوله تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) فأوقع قوله (استكبرتم) جوابا . ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض . ولو قدر الزمخشري ههنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال : وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، لكان أولى لدلالة مثله عليه .

(٢) عاد كلامه . قال : « فان قلت لم جيء بأحد الفعلين ماضيا ... الخ » قال أحمد : أو يكون حالا على حقيقته لأنهم داروا حول قتل محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه الآية في البقرة . وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضي وتمثيله بقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) فعدل عن فأصبحت إلى فتصبح ، تصويراً للحال واستحضاراً لها في ذهن السامع . ومنه :

بأني قد لقيت الغول يسعى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فآخذه فأضربها فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

وأمثاله كثيرة والله أعلم .

الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها . قرئ : أن لا يكون ، بالنصب على الظاهر . وبالرفع على «أن» هي المخففة من الثقيلة ، أصله : أنه لا يكون فتنة فخففت «أن» وحذف ضمير الشأن .

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)

فإن قلت : كيف دخل فعل الحسبان على «أن» التي للتحقيق ؟ قلت : نزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم : فإن قلت : فأين مفعولا حسب ؟ قلت : سدّ مايشتمل عليه صلة أن وأنّ من المسند والمسند إليه مسدّ المفعولين ، والمعنى : وحسب بنو إسرائيل أنه لا يصيبهم من الله فتنة ، أى بلاء وعذاب فى الدنيا والآخرة ﴿فعموا﴾ عن الدين ﴿وصموا﴾ حين عبدوا العجل ، ثم تابوا عن عبادة العجل ف﴿تاب الله عليهم ثم عموا وصموا﴾ كرة ثانية بطلبهم المحال غير المعقول فى صفات الله وهو [1] الرؤية . وقرئ : عموا وصموا ، بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم ، أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم ، كما يقال : نركته إذا ضربته بالنيزك [2] وركبته إذا ضربته بركبتك ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير : أو على قولهم : أكلونى البراغيث ، أو هو خبر مبتدإ محذوف أى أولئك كثير منهم .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)

لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم فى أنه عبد مربوب كمثلهم ، وهو احتجاج على النصارى ﴿إنه من يشرك بالله﴾ فى عبادته ، أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ التى هى دار الموحدين أى حرّمه دخولها ومنعه منه ، كما يمنع المحرّم من المحرّم عليه ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ من كلام الله على أنهم ظلموا [3] وعدلوا

(١) قوله «وهو الرؤية» أحالها مذهب المعتزلة ، وأجازها أهل السنة كما حقق فى محله . (ع)

(٢) قوله «إذا ضربته بالنيزك» هو الرمح القصير ، وهو فارسى معرب ، أصله نيزه ، فأبدلت الهاء كافا . كذا بهامش ، وأصله فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «على أنهم ظلموا» لعله على معنى أنهم . (ع)

عن سبيل الحق فيما يقولوا على عيسى عليه السلام ، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ردّه وأنكره ، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره . أو من قول عيسى عليه السلام ، على معنى : ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول . أو ولا ينصركم ناصر فى الآخرة من عذاب الله .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)

من فى قوله ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ للاستغراق وهى القدرة مع «لا» التى لنفى الجنس فى قولك (لا إله إلا الله) والمعنى : وما إله قط فى الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثانى له ، وهو الله وحده لا شريك له : و «من» فى قوله ﴿ليمسنّ الذين كفروا منهم﴾ للبيان كالتى فى قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) فإن قلت : فهلا قيل (ليمسنهم عذاب أليم . قلت : فى إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة وهى تكرير الشهادة عليهم بالكفر فى قوله (لقد كفر الذين قالوا) وفى البيان فائدة أخرى وهى الإعلام فى تفسير والذين كفروا منهم أنهم بمكان من الكفر. والمعنى : ليمسنّ الذين كفروا من النصارى خاصة ﴿عذاب أليم﴾ أى نوع شديد الألم من العذاب كما تقول : أعطنى عشرين من الثياب ، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التى يجوز أن يتناولها عشرون . ويجوز أن تكون للتبعيض ، على معنى : ليمسنّ الذين بقوا على الكفر منهم ، لأنّ كثيراً منهم تابوا من النصرانية ﴿أفلا يتوبون﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر . وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه . وفيه تعجب من إصرارهم ﴿والله غفور رحيم﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول ، أى ماهو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها ، أن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى ، وفلق بها البحر ، وطمس على يد موسى .[1] وإن خلقه من غير ذكر ، فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى

(١) قوله «وطمس على يد موسى» لعله وطمس على أموال فرعون وقومه على يد ... الخ . (ع)

﴿وأمه صدّيقة﴾ أى وما أمه أيضاً إلا كصديقة كبعض النساء المصدّقات للأنبياء المؤمنات بهم ، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين : أحدهما نبى ، والآخر صحابى . فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم ؟ مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه . ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما فى قوله ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ لأنّ من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم [1] وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام ﴿كيف نبين لهم الآيات﴾ أى الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله . فإن قلت : ما معنى التراخى فى قوله ثم انظر ؟ [2] قلت : معناه ما بين العجبين ، يعنى أنه بين لهم الآيات بياناً عجيباً ، وأنّ إعراضهم عنها أعجب منه .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

﴿ما لا يملك﴾ هو عيسى ، أى شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب فى الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب ، ولأنّ كل ما يستطيعه البشر من المضارّ والمنافع فبإقدار الله وتمكينه ، فكأنه لا يملك منه شيئاً . وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف الربوبية ، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً . وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شىء لا يخرج مقدور على قدرته ﴿والله هو السميع العليم﴾ متعلق بأتعبدون ، أى أتشركون بالله ولا تخشونه ، وهو الذى يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذى يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، ولن يكون كذلك إلا وهو حى قادر .

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(١) قوله «وقرم» فى الصحاح «القرم» بالتحريك : شدة شهوة اللحم . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت ما معنى التراخى فى قوله ثم انظر ... الخ» قال أحمد : ومنه ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ وقوله ﴿فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾ وهى فى سائر هذه المواضع منقولة من التراخى الزمانى إلى التراخى المعنوى فى المراتب .

﴿ غير الحق ﴾ صفة للمصدر أى لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق [1] أى غلواً باطلا ؛ لأنّ الغلو فى الدين غلوّان غلوّ حق ، وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ، ويجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم . وغلوّ باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه ، كما يفعل أهل الأهواء والبدع ﴿ قد ضلوا من قبل ﴾ هم أئمتهم فى النصرانية ، كانوا على الضلال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وأضلوا كثيراً ﴾ ممن شايعهم على التثليث ﴿ وضلوا ﴾ لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ عن سواء السبيل ﴾ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

نزّل الله لعنهم فى الزبور ﴿ على لسان داود ﴾ وفى الإنجيل على لسان عيسى . وقيل إن أهل أيلة ، لما اعتدوا فى السبت قال داود عليه السلام : اللهم العنهم واجعلهم آية ، فمسخوا قردة . ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت ، فأصبحوا خنازير

(١) قال محمود : « معناه لا تغلوا فى دينكم غلواً باطلا ... الخ » قال أحمد : يعنى بأهل العدل والتوحيد المعتزلة ، ويعنى بغلوهم الذى هو حق عنده أنهم غلوا فى التوحيد فجحدوا الصفات الالهية ، وغلوا فى التعديل فنفوا أكثر الأفعال بل كلها عن أن تكون مخلوقة لله تعالى لانطوائها فى مفاسد ؛ ولأن الله تعالى يعاقب على ما هو قبيح منها ، والعدل عندهم أن لا يعاقب على فعل خلقه فهذا غلوهم فى التعديل ، وهو كما ترى أنه كاسد عن التوحيد ؛ لأنهم جعلوا كل مخلوق من الحيوانات خالقاً ، فالنصارى غلوا فأشركوا ثلاثة ، والمعتزلة كما رأيت أشركوا كل أحد بل غير الآدميين فى الخلق الذى هو خاص بالرب . ويعنى الزمخشرى بأهل البدع والأهواء من عدا الطائفة المذكورة ، ويعنى بغلوهم الباطل إثبات الصفات لله تعالى وتوحيده على الحق ، حتى لا خالق سواه ولا مخلوق إلا بقدرته ، وقد ترضى عن شيعته وإخوانه وسكت عن ذكر من عداهم ، ونحن نقول : اللهم ارض عمن هو أحق الطوائف برضاك ، وهذه دعوة أيضا بلا خلاف ، والله الموفق .

وكانوا خمسة آلاف رجل، ما فيهم امرأة ولا صبىّ ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ أى لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذى كان سبب المسخ، إلا لأجل المعصية والاعتداء، لا لشىء آخر، ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله ﴿ كانوا لا يتناهون ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿ عن منكر فعلوه ﴾ ثم قال ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ للتعجيب من سوء فعلهم، مؤكداً لذلك بالقسم، فياحسرة على المسلمين فى إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير، وقلة عبثهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام فى شىء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات فى هذا الباب. فان قلت: كيف وقع ترك التناهى عن المنكر [1] تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قبل أنّ الله تعالى أمر بالتناهى، فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء، لأنّ فى التناهى حسما للفساد فكان تركه على عكسه. فإن قلت: ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهى بعد الفعل؟ قلت: معناه لا يتناهون عن منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما ترى أمارات الخوض فى الفسق وآلاته تسوّى وتهيأ فتنكر. ويجوز أن يراد: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصبرون عليه ويداومون على فعله. يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه ﴿ ترى كثيراً منهم ﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ هو المخصوص بالذم، ومحله الرفع، كأنه قيل: لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم. والمعنى: موجب سخط الله. ﴿ ولو كانوا يؤمنون ﴾ إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين ﴿ أولياء ﴾ يعنى أنّ موالاة المشركين كفى بها دليلا على نفاقهم، وأنّ إيمانهم ليس بإيمان ﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ متمرّدون فى كفرهم ونفاقهم. وقيل معناه: ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون، ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف وقع ترك التناهي ... الخ»؟ قال أحمد: وفى هذا التوبيخ الاخبار بأمرين قبيحين، أحدهما: بأنهم كانوا يفعلون المناكر، والآخر: أنهم كانوا تاركين للنهى عنها، أى عن أمثالها فى المستقبل ولولا زيادة (فعلوه) لما صرح بوقوعها منهم، ولكان المصرح به ترك النهى عن المنكر عند استحقاق النهى، وذلك حين الاشراف على تعاطيه وظهور الأمارات الدالة عليه، فانتظم ثبوت الأمرين جميعاً على أخصر وجه وأبلغه وقد دلت هذه الآية على المذهب الصحيح الأشعرى، من أن متعلق النهي فعل وهو الترك، خلافا لأبى هاشم المعتزلى فى قوله «إن متعلقه نفى محض وعدم صرف»، ووجه دلالة الآية على أن متعلقه فعل أنه عبر عن ترك التناهى الذى وقع توبيخهم عليه بالفعل، حيث قال (لبئس ما كانوا يفعلون) أى لبئس الترك للتناهي فعلا، كما تقول: زيد بئس الرجل، فتجعل الرجل واقعا على زيد. وقد سمى تركهم للنهى عن المنكر فى الآية السالفة قبل هذه صنعا، فقال (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) إلى قوله (لبئس ما كانوا يصنعون) وذلك أبلغ فى الدلالة على أن متعلق النهى أمر ثابت، إذ الصنع أمكن من الفعل فى الدلالة على الاثبات. وقد مر هذا التقرير، والله الموفق.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

وصف الله شدّة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق[1] ولين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين فى شدّة العداوة للمؤمنين، بل نبه على تقدّم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا، وكذلك فعل فى قوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا) ولعمرى إنهم لكذلك وأشدّ. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم «ماخلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله»[2] وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين ﴿بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ أى علماء وعباداً ﴿وأنهم﴾ قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم. واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليل بين على أنّ التعلم أنفع

(١) قال محمود: «وصف الله تعالى شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم ... الخ» قال أحمد: وإنما قال (الذين قالوا إنا نصارى) ولم يقل: النصارى، تعريضا بصلابة اليهود فى الكفر والامتناع من الامتثال للأمر، لأن اليهود قيل لهم (ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم). فقابلوا ذلك بأن قالوا (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) والنصارى قالوا (نحن أنصار الله) ومن ثم سموا نصارى، وكذلك أيضا ورد أول هذه السورة (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) فأسند ذلك إلى قولهم، والاشارة به إلى قولهم (نحن أنصار الله) لكنه ههنا ذكر تنبيها على أنهم لم يثبتوا على الميثاق، ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله. وفى الآية الثانية ذكر تنبيها على أنهم أقرب حالا من اليهود، لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالرد مكافحة اليهود، بل قالوا (نحن أنصار الله) واليهود قالت (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فهذا سره والله أعلم.

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه وابن حبان فى الضعفاء من رواية يحيى بن عبيد الله عن أبيه. عن أبى هريرة وفى رواية ابن حبان «يهودى» على الافراد.

شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين ، وكذلك غم الآخرة والتحدث بالعاقبة وإن كان فى راهب ، والبراءة من الكبر وإن كانت فى نصرانى . ووصفهم الله برقة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن ، وذلك نحو مايحكى عن النجاشيّ رضى الله عنه أنه قال لجعفر بن أبى طالب ـ حين اجتمع فى مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون لعنوا وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنتهم عنده ـ : هل فى كتابكم ذكر مريم ؟ قال جعفر : فيه سورة تنسب إليها ، فقرأها إلى قوله (ذلك عيسى ابن مريم) وقرأ سورة طه إلى قوله (وهل أتاك حديث موسى) فبكى النجاشى [1] وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم سبعون رجلا حين قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس ، فبكرا . فإن قلت : بم تعلقت اللام فى قوله ﴿للذين آمنوا﴾ ؟ قلت : بعداوة ومودّة ، على أنّ عداوة اليهود التى اختصت المؤمنين أشدّ العداوات وأظهرها ، وأن مودّة النصارى التى اختصت المؤمنين أقرب المودّات ، وأدناها وجوداً ، وأسهلها حصولا . ووصف اليهود بالعداوة والنصارى بالمودّة مما يؤذن بالتفاوت ، ثم وصف العداوة والمودّة بالأشدّ والأقرب . فإن قلت : مامعنى قوله (تفيض من الدمع) [2] قلت : معناه تمتلىء من الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع مافيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء ، وهو من إقامة

(١) لم أجده قلت أظن صاحب الكشاف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبى طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشى ليدفع إليهم جعفراً ورفقاءه فانمعنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة طه . أخرجه ابن إسحاق فى المغازى . من طريق ابن حبان من حديث أم سلمة . وقوله : وكذلك فعل قومه أى النجاشى الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم سبعون رجلا حين قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة يسٓ : الطبرى من رواية قيس بن الربيع . عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير فى قوله ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . قال نعم رسل النجاشى الذين أرسلت وإسلام قومهم وكانوا سبعين رجلا فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم يس . فبكوا وعرفوا الحق . فنزلت ونزل فيهم أيضا (الذين آتيناهم الكتاب من قبلهم به يؤمنون) وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن قيس .

(٢) عاد كلامه . قال : « إن قلت ما معنى قوله (ترى أعينهم تفيض من الدمع . . . الخ » قال أحمد : وهذه العبارة من أبلغ العبارات ، وأنهاها وهى ثلاث مراتب ، فالأولى : فاض دمع عينه ، وهذا هو الأصل . والثانية : عولة من هذه . وهى قول القائل : فاضت عينه دمعا حولت الفعل إلى العين مجازا ومبالغة ، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلا على التمييز . والثالثة : فيها هذا التحويل المذكور ، وهى الواردة فى الآية ، إلا أنها أبلغ من الثانية باطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز ، وإبرازه فى صورة التعليل والله أعلم . وإنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه مع التمييز ؛ لأن التمييز فى مثله قد استقر كونه فاعلا فى الأصل فى مثل : تصبب زيد عرقا ، وتفقأ عمرو شحما ، واشتعل الرأس شيبا ، وتفجرت الأرض عيونا . فاذا قلت : فاضت عينه دمعا ، فهم هذا الأصل فى العادة فى أمثاله . وأما التعليل فلم يعهد فيه ذلك . ألا تراك تقول : فاضت عينه من ذكر الله كما تقول فاضت عينه من الدمع ، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز والله الموفق .

المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها ، أى تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك دمعت عينه دمعاً فإن قلت : أى فرق بين من ومن فى قوله ﴿مما عرفوا من الحق﴾ ؟ قلت الأولى لابتداء الغاية ، على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق ، وكان من أجله وبسببه . والثانية لتبيين الموصول الذى هو ماعرفوا . وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم ، فكيف إذا عرفوه كله وقرؤا القرآن وأحاطوا بالسنة ؟ وقرئ (ترى أعينهم) على البناء للمفعول ﴿ربنا آمنا﴾ المراد به إنشاء الإيمان ، والدخول فيه ﴿فا كتبنا مع الشاهدين﴾ مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة (لتكونوا شهداء على الناس) وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم فى الإنجيل كذلك ﴿وما لنا لا نؤمن بالله﴾ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه وهو الطمع فى إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين : وقيل : لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فأجابوهم بذلك . أو أرادوا : وما لنا لا نؤمن بالله وحده لأنهم كانوا مثلثين ، وذلك ليس بإيمان بالله : ومحل (لا نؤمن) النصب على الحال ، بمعنى : غير مؤمنين ، كقولك مالك قائما . والواو فى ﴿ونطمع﴾ واو الحال . فإن قلت : ماالعامل فى الحال الأولى والثانية ؟ قلت : العامل فى الأولى مافى اللام من معنى الفعل ، كأنه قيل : أى شيء حصل لنا غير مؤمنين : وفى الثانية معنى هذا الفعل ، ولكن مقيداً بالحال الأولى ؛ لأنك لو أزلتها وقلت : وما لنا ونطمع ، لم يكن كلاما . ويجوز أن يكون (ونطمع) حالا من لا نؤمن ، على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحدون الله ، ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين . وأن يكون معطوفا على لا نؤمن على معنى : ومالنا نجمع بين التثليث وبين الطمع فى صحبة الصالحين ، أو على معنى : وما لنا لا نجمع بينهما بالدخول فى الإسلام ، لأن الكافر ماينبغى له أن يطمع فى صحبة الصالحين . قرأ الحسن : فآتاهم الله ﴿بما قالوا﴾ بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص ، من قولك : هذا قول فلان ، أى اعتقاده وما يذهب إليه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿طيبات ما أحل الله لكم﴾ ماطاب ولذ من الحلال . ومعنى ﴿لا تحرموا﴾ لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم . أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهداً

منكم وتقشفاً [١] وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة يوماً لأصحابه ، فبالغ وأشبع الكلام فى الإنذار ، فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين ، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح [٢] ويسيحوا فى الأرض ، ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : إنى لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى [٣] ونزلت . وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ ، وكان يعجبه الحلواء والعسل . وقال : « إن المؤمن حلو يحب الحلاوة [٤] » وعن ابن مسعود أن رجلا قال له : إنى حرمت الفراش فتلا هذه

---

(١) قوله « تقشفا » وفى الصحاح « قشف » بالكسر : قشفا ، إذا لوحته الشمس أو الفقر فتغير . والمتقشف : الذى يتبلغ بالقوت وبالمرقع . (ع)

(٢) قوله « ويلبسوا المسوح » المسوح : أكسية غلاظ تعمل منها الغرائر للتبن . أفاده الصحاح فى مادة لبس

(٣) ذكره الواحدى هكذا فى أسبابه بغير إسناد . لكن قال المفسرون ـ فذكره سواه ، وقد أورده الطبرى من طريق السدى فى هذه الآية قال « وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما . فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف فقام ناس من أصحابه فذكره بمعنى ما تقدم » وهو منتزع من أحاديث ، وأصله فى الصحيحين عن عائشة « أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله فى السر . فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مابال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكنى أصوم وأفطر . وأنام وأقوم . وآكل اللحم وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » وفى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص قال « رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل . ولو أذن له لاختصينا » وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى قصة مراجعته النبي صلى الله عليه وسلم فى الصوم والصلاة فقال صلى الله عليه وسلم « صم وأفطر ، وقم ونم . فان لنفسك عليك حقا ـ الحديث » وروى الطبرى من طريق ابن جريج عن مجاهد قال « أراد رجال ، منهم عثمان بن مظعون وعبدالله ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح » ومن طريق ابن جريج عن عكرمة « أن عثمان بن مظعون وعلى ابن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة ، فى جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا فى البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس . وهموا بالاختصاء . واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ـ الآية) قال : فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وصلوا وناموا . فليس منا من ترك سنتنا »

(٤) هذا منتزع من أحاديث . أما أكل الدجاج فتفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى فى قصة له . وأما أكله الفالوذ فرواه الحاكم من حديث عبدالله بن سلام قال « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه إذ أقبل عثمان بن مظعون ومعه راحلة عليها غرارتان فذكر الحديث ـ وفيه فطبخ الدقيق والسمن والعسل حتى نفح ثم أكل » وهو من رواية الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة مضعفا وأعله ابن الجوزى بضعف الوليد . وأما « كان يعجبه الحلوى والعسل » فتفق عليه من حديث هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها . وأما الأخير فذكره الديلمى فى الفردوس عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الآية وقال: نم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن أنه دعى إلى طعام ومعه فرقد السنجى وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يافرقد، ترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم. وعنه أنه قيل له. فلان لا يأكل الفالوذ ويقول: لا أؤدى شكره. قال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم. قال: إنه جاهل، إن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذ. وعنه أن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم. قال الله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته) ماعاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه (ولا تعتدوا) ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم. أو ولا تسرفوا فى تناول الطيبات. أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما، فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده على عقبه أو أراد ولا تعتدوا بذلك ﴿وكلوا مما رزقكم الله﴾ أى من الوجوه الطيبة التى تسمى رزقا ﴿حلالا﴾ حال مما رزقكم الله ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد للتوصية بما أمر به. وزاده تأكيداً بقوله ﴿الذى أنتم به مؤمنون﴾ لأن الإيمان به يوجب التقوى فى الانتهاء إلى ما أمر وعما نهى عنه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

اللغو فى اليمين: الساقط الذى لا يتعلق به حكم: واختلف فيه، فعن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عنه فقالت: هو قول الرجل «لا والله، بلى والله»[1] وهو مذهب الشافعى. وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشىء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ﴿بما عقدتم الأيمان﴾ بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية. وروى أن الحسن رضى الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد، دعنى أجب عنك فقال:

(١) أخرجه البخارى ومالك من حديثها دون قوله «سئلت» ورواه أبو داود من طريق عطاء عنها مرفوعا وموقوفا. وصحح الدارقطنى الموقوف

وَلَسْتُ بِمَأْخُوذٍ بِلَغْوٍ تَقُولُهُ إِذَا لَمْ تَعَمَّدْ عَاقِدَاتِ الْعَزَائِمِ [(١)]

وقرئ: عقدتم، بالتخفيف. وعاقدتم. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، لحذف وقت المؤاخذة. لأنه كان معلوما عندهم، أو بنكث ماعقدتم، لحذف المضاف ﴿فكفارته﴾ فكفارة نكثه. والكفارة: الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أى تسترها ﴿من أوسط ما تطعمون﴾ من أقصده، لأنّ منهم من يسرف فى إطعام أهله، ومنهم من يقتر، وهو عند أبى حنيفة رحمه الله نصف صاع من برّ أو صاع من غيره لكل مسكين، أو يغديهم ويعشيهم. وعند الشافعى رحمه الله: مدّ لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد: أهاليكم، بسكون الياء، والأهالى: اسم جمع لأهل: كالليالى فى جمع ليلة، والأراضى فى جمع أرض. وقولهم «أهلون» كقولهم «أرضون» بسكون الراء. وأما تسكين الياء فى حال النصب فللتخفيف، كما قالوا: رأيت معديكرب، تشبيها للياء بالألف ﴿أو كسوتهم﴾ عطف على محل (من أوسط) [(٢)] وقرئ بضم الكاف، ونحوه: قدوة فى قدوة، وأسوة فى إسوة، والكسوة ثوب يغطى العورة، وعن ابن عباس رضى الله عنه كانت العباءة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر: إزار أو قميص أو رداء أو كساء. وعن مجاهد: ثوب جامع. وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليمانى: أو كأسوتهم، بمعنى: أو مثل ماتطعمون أهليكم إسرافا كان أو تقتيرا. لا تنقصونهم عن مقدار نفقتهم، ولكن تواسون بينهم وبينهم. فإن قلت: ما محل الكاف؟ قلت: الرفع، تقديره: أو طعامهم كأسوتهم، بمعنى: كمثل طعامهم إن لم يطعموهم الأوسط ﴿أو تحرير رقبة﴾ شرط الشافعى رحمه الله الإيمان قياسا على كفارة القتل. وأما أبو حنيفة وأصحابه، فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة فى كل كفارة سوى كفارة القتل. فإن قلت: مامعنى أو؟ قلت: التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الاطلاق، بأيتها أخذ المكفر فقد أصاب ﴿فمن لم يجد﴾ إحداها ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ متتابعات عند أبى حنيفة رحمه الله، تمسكا بقراءة أبىّ وابن مسعود رضى الله عنهما: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وعن مجاهد: كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان. ويخير فى كفارة اليمين ﴿ذلك﴾ المذكور [(٣)] ﴿كفارة أيمانكم﴾ ولو قيل: تلك كفارة أيمانكم، لكان صحيحا بمعنى تلك الأشياء

---

(١) للفرزدق روى أن الحسن رضى الله عنه سئل عن لغو اليمين، فقال الفرزدق: دعنى أجب عنك يا أبا سعيد، وقال البيت، أى لست مؤاخذا باللغو أى الساقط من الكلام. وتعمد: أصله تتعمد، حذف منه إحدى التاءين، وهذا فى معنى الاستثناء المنقطع. وعاقدات العزائم: الجازمات. ونسبة الجزم إليها مجاز عقلى.

(٢) قوله «على محل من أوسط» قد يقال هذا إنما يناسب القراءة الآتية أو كأسوتهم ولكن عبارة النسفى عطف على إطعام أو على محل من أوسط. ووجهه أن (من أوسط) بدل من (إطعام) والبدل هو المقصود فى الكلام اه (ع)

(٣) قال محمود: «المشار إليه هو المذكور فيما تقدم ولو قيل ... الخ» قال أحمد: بل فى هذه الآية وجه =

أو لتأنيث الكفارة . والمعنى ﴿ إذا حلفتم ﴾ وحنثم . فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة إنما تجب بالحنث فى الحلف ، لا بنفس الحلف . والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه ويجوز عند الشافعى بالمال إذا لم يعص الحانث ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا [1] أراد الأيمان التى الحنث فيها معصية ، لأن الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله . وقيل : احفظوها بأن تكفروها . وقيل : احفظوها كيف حلفتم بها ، ولا تنسوها تهاونا بها ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك البيان ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد [2] منها تصدير الجملة بإنما ، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « شارب الخمر كعابد الوثن » [3] ومنها أنه

ـــــ لطيف المأخذ فى الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث وهو المشهور من مذهب مالك ، وبيان الاستدلال بها أنه جعل ما بعد الحلف ظرفا لوقوع الكفارة المعتبرة شرعا ، حيث أضاف «إذا» إلى مجرد الحلف . وليس فى الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث ، فتعين تقديره مضافا إلى الحلف ، بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار ، إذ لا يعطى قوله (ذلك كفارة أيمانكم) إيجابا ، إنما يعطى صحة واعتبارا ، والله أعلم . وهذا انتصار على من منع التكفير قبل الحنث مطلقا ، وإن كانت اليمين على بر والأقوال الثلاثة فى مذهب مالك ، إلا أن القول المنصور هو المشهور .

(١) عاد كلامه . قال : « واحفظوا أيمانكم ، أى فبروا فيها ... الخ » قال أحمد : وفى هذا التأويل إشعار بأن الشاك فى صورة اليمين بعد تحقق أصلها يشدد عليه ويؤاخذ بالأحوط ، فأرشده الله إلى حفظ اليمين لئلا يفضى أمره إلى أن يلزم فى ظاهر الأمر على وجه الاحتياط ما لم يصدر منه فى علم الله تعالى ، كالذى يحلف بالطلاق وينسى هل قيده بالثلاث مثلا أو أطلقه ، فيلزمه الثلاث على المذهب المشهور . ويحتمل أن يكون فى علم الله تعالى أنه إنما حلف بالطلاق مطلقا ، فأرشد إلى الحفظ لئلا يجره النسيان إلى هذا التشديد . والمراد بالأيمان كل ما ينطلق عليه يمين ، سواء كان حلفا بالله أو بغيره مما يلزم فى الشرع حكما والله أعلم .

(٢) قال محمود : « أكد الله تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها ... الخ » قال أحمد : ويجوز عود الضمير إلى الرجس الذى انطوى على سائر ما ذكر والله أعلم .

(٣) أخرجه البزار من حديث مجاهد عن عبدالله بن عمرو بهذا . ورواه الحرث بن أسامة وأبونعيم فى الحلية من رواية الحسن عن عبد الله بن عمرو به . وفيه الخليل بن زكريا وفى الذى قبله ثابت بن محمد وهو أصلح حالا من ـــــ

جعلهما رجسا، كما قال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحا، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ماينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادى والتباغض من أصحاب[1] الخمر والقمر، وما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾ من أبلغ ماينهى به، كأنه قيل: قد تلى عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون. أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟ فإن قلت: إلام يرجع الضمير فى قوله (فاجتنبوه)؟ قلت: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال (رجس من عمل الشيطان) فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ثم أفردهما آخرا[2]؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لامباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله فى علم الغيب، وبين من شرب خمراً أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله ﴿وعن الصلاة﴾ اختصاص للصلاة من بين الذكر كأنه قيل: وعن الصلاة خصوصاً.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

ـــ الخليل. ولابن ماجه من حديث أبى هريرة، بلفظ «مدمن خمر كعابد وثن» وإسناده جيد، قال: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن سليمان الأصبهانى عن سهيل عن أبيه عنه به. ورواه ابن حبان من حديث ابن عباس بهذا اللفظ. وقال الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفى مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبد العزيز عن بعض أصحابه، بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن» وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بلفظ «المقيم على الخمر كعابد وثن» وإسناده ضعيف

(١) قوله «من أصحاب» لعله بين أصحاب. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال: «فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب... الخ» قال أحمد: ويرشد إلى أن المقصود الخمر والميسر خاصة، لأنهم إنما كانوا يتعاطونهما خاصة الآية الأخرى وهى قوله (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) فخصهما بالذكر ولم يثبت النهى عنهما، فلذلك ورد أن قوما تركوها لما فيها من الاثم، وقوما بقوا على تعاطيها لما فيها من المنافع، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهى، والله أعلم.

﴿ واحذروا ﴾ وكونوا حذرين خاشين ، لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة . ويجوز أن يراد : واحذروا ما عليكم فى الخمر والميسر ، أو فى ترك طاعة الله والرسول ﴿ فإن توليتم فاعلموا ﴾ أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول ، لأنّ الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم .

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَّءَامَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

رفع الجناح عن المؤمنين فى أى شىء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها ﴿ إذا ما اتقوا ﴾ ما حرم عليهم منها ﴿ وآمنوا ﴾ وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه ﴿ ثم اتقوا وآمنوا ﴾ ثم ثبتوا على التقوى والإيمان ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ ثم ثبتوا على اتقاء المعاصى وأحسنوا أعمالهم ، أو أحسنوا إلى الناس : واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات . وقيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يارسول الله ، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر [1] فنزلت . يعنى أن المؤمنين لا جناح عليهم فى أى شىء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، على معنى : أنّ أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم فى الإيمان والتقوى والإحسان . ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح؟

---

(١) أخرجه أحمد من رواية ابن وهب مولى أبى هريرة قال «حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر . فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك . فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر الآية) فقال الناس : لم تحرم علينا ، إنما قال : فيها إثم كبير فكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين المغرب ، فخلط فى قراءته . فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكانوا يشربونها حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ـ الآية) فقالوا : انتهينا يارب . وقال الناس : يارسول الله ، ناس قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان . فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ـ الآية) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم» إسناده ضعيف ، فانه من رواية أبى معشر عن أبى وهب . وأبو معشر ضعيف . وروى الطبرى من حديث على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال فى قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا الآية) قالوا : يارسول الله : ماتقول فى إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر . فأنزل الله الآية وفى المتفق عليه عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال «كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة ـ وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر مناديا فنادى : ألا إن الخمر قد حرمت ـ الحديث» قال بعض القوم : قد قتل فلان وفلان وفلان وهى فى بطونهم فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ... الآية)

فتقول ـ وقد علمت أن ذلك أمر مباح ـ : ليس على أحد جناح فى المباح ، إذا اتقى المحارم ، وكان مؤمناً محسناً ، تريد : أن زيداً تقىّ مؤمن محسن ؛ وأنه غير مؤاخذ بما فعل .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم فى رحالهم فيستمكنون من صيده ، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ ليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر فى الآخرة فيتقى الصيد ، ممن لا يخافه فيقدم عليه ﴿فمن اعتدى﴾ فصاد ﴿بعد ذلك﴾ الابتلاء فالوعيد لاحق به ، فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير [١] فى قوله (بشىء من الصيد) ؟ قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التى تدحض عندها أقدام الثابتين ، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ، وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشدّ منه . وقرأ إبراهيم : يناله ، بالياء .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ

---

(١) قال محمود : «وإن قلت ما معنى التقليل والتصغير ... الخ» قال أحمد : وقد وردت هذه الصيغة بعينها فى الفتن العظيمة فى قوله تعالى (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) فلا خفاء فى عظم هذه البلايا والمحن التى يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر على عظيم . فقول الزمخشرى إذاً «إنه قال وصغر تنبيها على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام» مدفوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها . والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بما يشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل بالنسبة إلى مقدور الله تعالى ، وأنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول ، وأنه مهما اندفع عنهم مما هو أعظم فى المقدور ، فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل ، لطفا بهم ورحمة : ليكون هذا التنبيه باعثا لهم على الصبر وحاملا على الاحتمال ، والذى يرشد إلى أن هذا مراد أن سبق التوعد بذلك لم يكن إلا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه ، فيكون أيضا باعثا على تحمله ، لأن مفاجأة المكروه بغتة أصعب ، والانذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه ، وحاصل ذلك لطف فى القضاء ، فسبحان اللطيف بعباده . وإذا فكر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد المندفع عنه منها أكثر إلى ما لا يقف عنده غاية . فنسأل الله العفو والعافية واللطف فى المقدور .

أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَـدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

﴿ حرم ﴾ محرمون، جمع حرام، كردح فى جمع رداح. والتعمد: أن يقتله وهو ذاكر لإحرامه، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله، فإن قتله وهو ناس لإحرامه أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو قصد برميه غير صيد فعدل السهم عن رميته فأصاب صيدا فهو مخطئ. فإن قلت: فمحظورات الإحرام يستوى فيها العمد والخطأ. فما بال التعمد مشروطاً فى الآية؟ قلت: لأن مورد الآية فيمن تعمد، فقد روى أنه عنّ لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش، فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت ولأن الأصل فعل التعمد، والخطأ لاحق به للتغليظ. ويدل عليه قوله تعالى (ليذوق وبال أمره) (ومن عاد فينتقم الله منه) وعن الزهرى: نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير: لا أرى فى الخطإ شيأ أخذا باشتراط العمد فى الآية. وعن الحسن روايتان ﴿ فجزاءٌ مثل ما قتل ﴾ برفع جزاء ومثل جميعاً، بمعنى: فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد، وهو عند أبى حنيفة قيمة المصيد يقوّم حيث صيد. فإن بلغت قيمته ثمن هدى، تخير بين أن يهدى من النعم ما قيمته قيمة الصيد، وبين أن يشترى بقيمته طعاماً، فيعطى كل مسكين نصف صاع من برّ أو صاع من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً، فإن فضل مالا يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدّق به. وعند محمد والشافعى رحمهما الله مثله نظيره من النعم، فإن لم يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبى حنيفة رحمه الله. فإن قلت: فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله ﴿ من النعم ﴾ وهو تفسير للمثل، وبقوله: هدياً بالغ الكعبة؟ قلت: قد خير من أوجب القيمة بين أن يشترى بها هدياً أو طعاماً أو يصوم، كما خير الله تعالى فى الآية. فكان قوله (من النعم) بياناً للهدى المشترى بالقيمة فى أحد وجوه التخيير؛ لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذى فى الآية بين أن يجزى بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم، إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوم ونظر بعد التقويم أىّ الثلاثة يختار، فأما إذا عمد إلى النظير وجعله الواجب وحده من غير تخيير ـ فإذا كان شيئاً لا نظير له قوم حينئذ، ثم يخير بين الإطعام والصوم ـ ففيه نبوّ عما فى الآية. ألا ترى إلى قوله تعالى (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً) كيف خير بين الأشياء الثلاثة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد الله: فجزاؤه مثل ماقتل، وقرئ. فجزاء مثل ماقتل، على الإضافة، وأصله. فجزاء مثل ماقتل: بنصب مثل بمعنى: فعليه أن يجزى مثل ما قتل، ثم أضيف كما تقول:

عجبت من ضرب زيد، وقرأ السلمى على الأصل وقرأ محمد بن مقاتل، فجزاء مثل ما قتل، بنصبهما، بمعنى: فليجز جزاء مثل ما قتل. وقرأ الحسن: من النعم، بسكون العين، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه ﴿ يحكم به ﴾ بمثل ما قتل ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ حكمان عادلان من المسلمين. قالوا: وفيه دليل على أن المثل القيمة، لأنّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة. وعن قبيصة أنه أصاب ظبياً وهو محرم فسأل عمر، فشاور عبد الرحمن بن عوف، ثم أمره بذبح شاة، فقال قبيصة لصاحبه: والله ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره، فأقبل عليه ضرباً بالدرّة وقال: أتغمص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم. قال الله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) فأنا عمر، وهذا عبد الرحمن [1]. وقرأ محمد بن جعفر ذو عدل منكم، أراد يحكم به من يعدل منكم ولم يرد الوحدة. وقيل أراد الإمام ﴿ هدياً ﴾ حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل، لأنّ الصفة خصصته فقرّبته من المعرفة، أو بدل عن مثل فيمن نصبه، أو عن محله فيمن جرّه. ويجوز أن ينتصب حالا عن الضمير في به. ووصف هدياً بـ ﴿ بالغ الكعبة ﴾ لأن إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم، فأما التصدّق به فحيث شئت عند أبي حنيفة، وعند الشافعي في الحرم. فإن قلت: بم يرفع (كفارة) من ينصب جزاء؟ قلت: يجعلها خبر مبتدإ محذوف، كأنه قيل: أو الواجب عليه كفارة. أو يقدر: فعليه أن يجزي جزاء أو كفارة، فيعطفها على أن يجزي. وقرئ: أو كفارة طعام مساكين على الإضافة. وهذه الإضافة مبينة، كأنه قيل: أو كفارة من طعام مساكين، كقولك: خاتم فضة، بمعنى خاتم من فضة. وقرأ الأعرج: أو كفارة طعام مساكين. وإنما وحد، لأنه واقع موقع التبيين، فاكتفى بالواحد الدال على الجنس. وقرئ: أو عدل ذلك، بكسر العين. والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه، كالصوم والإطعام. وعدله ما عدل به في المقدار، ومنه عدلا الحمل، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا. كأن المفتوح تسمية بالمصدر، والمكسور بمعنى المفعول به، كالذبح ونحوه، ونحوهما الحمل والحمل. و﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿ وصياماً ﴾ تمييز للعدل كقولك: لي مثله رجلا. والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف. وعند محمد إلى الحكمين ﴿ ليذوق ﴾ متعلق بقوله (فجزاء) أي فعليه أن يجازي أو يكفر، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، كقوله تعالى (فأخذناه أخذاً وبيلا) ثقيلا. والطعام الوبيل: الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألوه عن جوازه. وقيل: عما سلف لكم في الجاهلية منه، لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً ﴿ ومن عاد ﴾ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد

(١) رواه عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير فذكره. وفيه الزيادة التي في آخره.

نزول النهى ﴿ فينتقم الله منه ﴾ ينتقم : خبر مبتدإ محذوف تقديره . فهو ينتقم الله منه ، ولذلك دخلت الفاء . ونحوه (فمن يؤمن بربه فلا يخاف) يعنى ينتقم منه فى الآخرة . واختلف فى وجوب الكفارة على العائد ، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن : وجوبها ، وعليه عامة العلماء . وعن ابن عباس وشريح : أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر ، وأنه لم يذكر الكفارة

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

﴿ صيد البحر ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل ﴿ وطعامه ﴾ وما يطعم من صيده والمعنى : أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد فى البحر [١] ، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبى حنيفة . وعند ابن أبى ليلى جميع ما يصاد منه ، على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه ﴿ متاعا لكم ﴾ مفعول له ، أى أحل لكم تمتيعاً لكم وهو فى المفعول له بمنزلة قوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) فى باب الحال ، لأن قوله (متاعا لكم) مفعول له مختص بالطعام ، كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب ، يعنى أحل لكم طعامه تمتيعاً لتنائكم [٢] يأكلونه طريا ، ولسيارتكم يتزودونه قديداً ، كما تزود موسى عليه السلام الحوت فى مسيره إلى الخضر عليهما السلام . وقرئ : وطعمه . وصيد البر : ما صيد فيه ، وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات ، كطير الماء عند أبى حنيفة . واختلف فيه [٣] فمنهم من حرم على المحرم كل شىء يقع عليه اسم الصيد ، وهو قول عمر وابن عباس ، وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير : أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال ، وإن صاده لأجله ، إذا لم يدل ولم يشر ، وكذلك ماذبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه رحمه الله ، وعند مالك والشافعى وأحمد رحمهم الله : لا يباح له ما صيد لأجله . فإن قلت : ما يصنع

(١) قوله « بجميع ما يصاد فى البحر » لعله من . (ع)

(٢) قوله « تمتيعا لتنائكم يأكلونه » أى للمتوطنين منكم . يقال : تنأ بالبلد توطنه ، فهو تانىء ، وهم تناء . أفاده الصحاح ، وسيأتى للمفسر فى قوله تعالى (قد علم كل أناس مشربهم) أن الأناس اسم جمع غير تكسير ، نحو رخال وتناء وتؤام . ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة . (ع)

(٣) قال محمود « واختلف فى المراد بالتحريم ... الخ » قال أحمد : وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين ؛ لأن مالكا رضى الله عنه يجيز أكل المحرم لصيد البر ، إذا صاده حلال لنفسه ، أو لحلال ، فلا بد إذا على مذهبه من تخصيص العموم المخصوص ، غاية ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبى حنيفة ، تكون أكثر منها على مذهب مالك ، لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم كما نقل عنه ، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة ، والله أعلم .

أبو حنيفة بعموم قوله : صيد البر؟ قلت قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله : (وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما) لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم ، لأنهم المخاطبون فكأنه قيل : وحرم عليكم ما صدتم فى البر ، فيخرج منه مصيد غيرهم ، ومصيدهم حين كانوا غير محرمين . ويدل عليه قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : وحرّم عليكم صيد البرّ ، أى الله عزّ وجلّ . وقرئ (ما دمتم) بكسر الدال ، فيمن يقول دام يدام .

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨)

﴿ البيت الحرام ﴾ عطف بيان على جهة المدح ، لا على جهة التوضيح ، كما تجىء الصفة كذلك ﴿ قياماً للناس ﴾ انتعاشاً لهم[1] فى أمر دينهم ودنياهم ، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم فى معاشهم ومعادهم ، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم ، وأنواع منافعهم . وعن عطاء ابن أبى رباح : لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا ﴿ والشهر الحرام ﴾ الشهر الذى يؤدى فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، لأنّ لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد عرفه الله تعالى . وقيل عنى به جنس الأشهر الحرم ﴿ والهدى والقلائد ﴾ والمقلد منه خصوصاً

(١) قال محمود : « معنى قياما للناس : انتعاشا لهم فى أمر دينهم ودنياهم . . . الخ » قال أحمد : وفى هذه الآية ما يبعد تأويلين من التأويلات الثلاثة المذكورة فى قوله أول هذه السورة (لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد) فإن حمل القلائد ثم على ظاهرها ، وتأويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد ـ كقوله (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) يريد مواقع الزينة ، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه ، كأنه قال : لا تحلوا قلائدها فضلا عنها ـ متعذر فى هذه الآية ، لأنها وردت فى سياق الامتنان بما جعله الله قياما للناس من هذه الأمور المعدودة ، وقد خص المنة بالبدن فى قوله (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير . . . الآية) ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى ، حتى يقع الامتنان بالمقلد ثم بالقلائد ، بل ذلك لائق فى سياق النهى أن يخرج من النهى عن الأعلى إلى التشديد بالنهى عن الأدنى . وأما التأويل الآخر ـ وهو بقاء القلائد على حقيقتها وصرف الإحلال المنهى عنه إليها حقيقة ، أى لا تتعرضوا للقلائد ولا تنتفعوا بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام « ألق قلائدها فى دمها وخل بين الناس وبينها » ـ فتعذر أيضا بما بعد به الذى قبله . وأما التأويل الثالث ـ وهو حملها على ذوات القلائد ـ فلائق بالاثنين فيتعين المصير إليه . ومن ثم لم يذكر الزمخشرى فى هذه الآية سواه . ووجه صلاحيته وظهوره فيهما : أن الغرض فى سياق النهى إفراده بالذكر وتخصيصه بالنهى ، بعد أن اندرج مع غيره فى النهى ، فكأنه نهى عنه لخصوصيته مرتين . والغرض فى سياق الامتنان أيضا ذلك ، وهو تكرير المنة به مندرجا فى العموم ومخصوصا بالذكر . وأيضا فيليق فى الامتنان الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، بخلاف النهى . والله أعلم .

وهو البدن ، لأن الثواب فيه أكثر ، وبهاء الحج معه أظهر ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس ، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره ﴿ لتعلموا أن الله يعلم ﴾ كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم مما أمركم به وكلفكم ﴿ شديد العقاب ﴾ لمن انتهك محارمه ﴿ غفور رحيم ﴾ لمن حافظ عليها .

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩)

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ تشديد فى إيجاب القيام بما أمر به ، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ ، وقامت عليكم الحجة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم فى التفريط .

قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰأُولِى الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى [1] وإن كان قريبا عندكم ، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثروه لكثرته على القليل الطيب ، فإنّ ماتتوهمونه فى الكثرة من الفضل ، لا يوازى النقصان فى الخبيث ، وفوات الطيب ، وهو عام فى حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وطالحه ، وصحيح المذاهب وفاسدها ، وجيد الناس ورديهم ﴿ فاتقوا الله ﴾ وآثروا الطيب ، وإن قل ، على الخبيث وإن كثر . ومن حق هذه الآية أن تكافح بها وجوه المجبرة [2] إذا افتخروا بالكثرة كما قيل :

---

(١) قال محمود : « البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وقد ثبت شرعا أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة . وقد اعترف للقدرية أنهم قليل فيها ، وشذوذ بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف والأمر بهذه المثابة ، وهم أيضا يعتقدون أنهم الفرقة الناجية الموعودون بالجنة لا غيرهم ، إذ كل من عداهم ـ على طمعهم الفاسد ـ مخلد فى النار مع الكفار ، فعلى هذا تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة أكثر أهل الجنة ، وحاشا لله أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل ، مطلع على ماورد فى السنن من الآثار المكافحة لهذا الظن الفاسد بالرد والتكذيب . ومن هم المعتزلة حتى يترامى طمعهم على هذا الحد ؟ وهذا الاستنباط الذى استنبطه الزمخشرى من أن المراد بالطيب هذا النفر المعتزلى . من قبيل القول بأن المراد فى قوله تعالى (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) أهل الحديث وأصحاب الرأى ، يعنى الحقيقة . وقد أغاظ فى تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع ، وهاهو قد ابتدع قريبا منه فى حمله الطيب فى هذه الآية على الفريق المعتزلى ، بل والله شراً من تلك المقالة ، لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية ، نعوذ بالله من ذلك ، ونبرأ من تجريه على السلف والخلف .

(٢) قوله « أن تكافح بها وجوه المجبرة » يعنى أهل السنة . وهذا غلو من العلامة فى التعصب للمعتزلة ، وما كان ينبغى أن يكون منه ، لعدم الداعى إليه هنا . (ع)

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْدًا كَثِيرَةٌ وَلَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلَا نَصْرَا[1]

وكما قيل :

لَا يَدْهَمَنَّكَ مِنْ دَهْمَائِهِمْ عَدَدٌ فَإِنَّ جُلَّهُمُ بَلْ كُلَّهُمْ بَقَرُ[2]

وقيل : نزلت في حجاج اليمامة ، حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم ، فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعنى قوله ﴿إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ صفة للأشياء . والمعنى : لا تكثروا مسئلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم ، إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها . وذلك نحو ما روى أن سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن قال : يارسول الله ، الحج علينا كل عام ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد مسألته ثلاث مرات ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ويحك! ما يؤمنك أن أقول نعم ؟ والله لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه »[3] (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن) و إن تسألوا عن هذه

---

(١) «سعد» اسم قبيلة . والمعنى : أنه لا نفع فيهم إلا تكثير سواد الجيش . فلا يفون بما وعدوا من النصر ، ولا ينصرون بلا وعد . ويمكن أن المراد الوفاء بحق الشجاعة ، فالنصر تفسير . وفى تكرير الاسم . نوع تهكم .

(٢) لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هـــذه الصور
لا يدهمنك من دهمائهم عدد فإن جلهم بل كلهم بقر

لأبى تمام . يقال : دهمه الأمر ، إذا غشيه خيره وسد عليه باب الرأى . والدهماء : الجماعة الكثيرة المتكاثفة ، وأصله من الدهمة وهى الظلمة والسواد . يقول : لم يبق من معظم هذا الجمع من الناس بقية يدركها الوهم بعد التأمل ، إلا هذه الصور والأجسام المشاهدة ، مجردة على العقول ، فلا تفزع من كثرة عدد جماعتهم ، فإن معظمهم كالبقر . بل جميعهم كذلك ، فلا تدبير عندهم لأمر الحرب .

(٣) هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة . فأما سراقة فروى مسلم من حديث جابر الطويل فى صفة الحج ، فقال سراقة بن مالك : بن جعشم يارسول الله ، لعامنا هذا . أم للأبد ؟ قلت : وهو عند البخارى أيضا

التكاليف الصعبة فى زمان الوحى وهو مادام الرسول بين أظهركم يوحى إليه ، تبد لكم . تلك التكاليف الصعبة التى تسؤكم . وتؤمروا بتحملها ، فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عفا الله عنها﴾ . عفا الله عما سلف . من مسألتكم ، فلا تعودوا إلى مثلها ﴿والله غفور حليم﴾ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته . فإن قلت : كيف قال : (لا تسألوا عن أشياء) ثم قال : ﴿قد سألها﴾ ولم يقل . قد سأل عنها ؟ قلت : الضمير فى (سألها) ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعديته بعن ، وإنما هو راجع إلى المسألة التى دل عليها (لا تسألوا) يعنى قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أى بمرجوعها أو بسببها ﴿كافرين﴾ وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا .

﴿ماجَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، بحروا أذنها ، أى شقوها

= من وجه آخر عن جابر ، وللنسائى وابن ماجه من حديث سراقة بن مالك نفسه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم «يارسول الله ، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد ؟ فقال : لا ، بل للأبد . دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة» وأما عكاشة بن محصن فرواه الطبرى وابن مردويه من طريق محمد بن زياد : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فقال عكاشة بن محصن الأسدى : أفى كل عام يارسول الله ؟ فقال : أما أنا لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت ثم تركتم لضللتم . اسكتوا عنى ما سكت عنكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء الآية) وهو أقرب إلى سياق المصنف ، دون ما فى آخره مما ذكره المصنف فهو فى الحديث الآتى . وأخرج الطبرى من طريق أبى إسحاق الهجرى عن ابن عياض عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل : كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثا . فقال : من السائل ؟ فقيل فلان . فقال : والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما أطقتموه . ولو تركتموه لكفرتم . فأنزل الله تعالى هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء) وأخرج أيضا من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبى أمامة أنه سمعه يقول «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس وقال : كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب ـ فذكر الحديث ، وفيه فقال : ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم . وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبى هريرة «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أيها الناس فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أفى كل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ثم قال : ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه» وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض السنن من حديث ابن عباس «أن الأقرع بن حابس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحج فى كل سنة أو مرة واحدة ؟ فقال : مرة واحدة ، فما زاد فهو تطوع» وأخرجه الطبرى من هذا الوجه . فسمى الرجل محصنا الأسدى ، وعند غيره عكاشة بن محصن .

وحرموا ركوبها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعيي لم يركبها ، واسمها البحيرة . وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها . وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبداً قال : هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث . وإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . ومعنى ﴿ماجعل﴾ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك، ولكنهم بتحريمهم ما حرموا ﴿يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ فلا ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا ، ولكنهم يقلدون فى تحريمها كبارهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

الواو فى قوله ﴿أولو كان آباؤهم﴾ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار . وتقديره : أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم ﴿لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى ، وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة ، يتمنون دخولهم فى الإسلام ، فقيل لهم ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها فى طرق الهدى ﴿لا يضركم﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين ، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصى ، ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم . فهو مخاطب به ، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد ، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه ، وعن ابن مسعود : أنها قرئت عنده فقال : إن هذا ليس بزمانها[1] إنها اليوم مقبولة . ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم ،

(١) قوله «وليس بزمانها إنها» لعل هذا الضمير للنصيحة المفهومة من السياق . (ع)

فهى على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه ، وبسط لعذره . وعنه : ليس هذا زمان تأويلها . قيل : فمتى ؟ قال : إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن . وعن أبى ثعلبة الخشنى أنه سئل عن ذلك فقال للسائل : سألت عنها خبيرا . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا مارأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العوام . وإنّ من ورائكم أياما الصبر فيهن كقبض على الجمر ، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله .[1] وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سفهت آباءك ، ولاموه ، فنزلت (عليكم أنفسكم) عليكم : من أسماء الفعل ، بمعنى : الزموا إصلاح أنفسكم ، ولذلك جزم جوابه . وعن نافع : عليكم أنفسكم ، بالرفع . وقرئ (لا يضركم) وفيه وجهان [2] أن يكون خبراً مرفوعاً وتنصره قراءة أبى حيوة ، لا يضيركم : وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً . وإنما ضمت الراء إتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة . والأصل : لا يضرركم . ويجوز أن يكون نهيا ، ولا يضركم ، بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾

---

(١) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائى من رواية عبدالله بن المبارك عن عتبة بن أبى حكيم عن عمرو بن حارثة اللخمى عن أبى أمية الصنعانى قال «أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ـ وذكره : وقال فيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ـ وقال فى آخره : مثل عملكم» قال ابن المبارك : وزادنى غير عتبة : قيل يارسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : لا ، بل منكم» وأخرجه ابن حبان والحاكم وإسحاق وأبو يعلى والطبرانى .

(٢) قوله «ولايضركم ، وفيه وجهان» يعنى بالرفع ، وهو يفيد أن القراءة الأصلية بالنصب . (ع)

وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدإ الذى هو ﴿شهادة بينكم﴾ على تقدير : شهادة بينكم شهادة اثنين . أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى : فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان : وقرأ الشعبي . شهادة بينكم بالتنوين . وقرأ الحسن: شهادة ، بالنصب والتنوين على : ليقم شهادة اثنان . و ﴿إذا حضر﴾ ظرف للشهادة . و ﴿حين الوصية﴾ بدل منه ، إبدا له منه دليل على وجوب الوصية ، وأنها من الأمور اللازمة التى ما ينبغى أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها . وحضور الموت : مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل ﴿ منكم ﴾ من أقاربكم . و ﴿ من غيركم ﴾ من الأجانب ﴿ إن أنتم ضربتم فى الأرض ﴾ يعنى إن وقع الموت فى السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم ، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية ، جعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح[١] وهم له أنصح . وقيل ﴿ منكم ﴾ من المسلمين ، و ﴿ من غيركم ﴾ من أهل الذمة . وقيل : هو منسوخ لا تجوز شهادة الذمى على المسلم ، وإنما جازت فى أول الإسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم فى حال السفر . وعن مكحول : نسخها قوله تعالى ﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ وروى أنه خرج بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاصى وكان من المهاجرين ، مع عدى بن زيد وتميم بن أوس ـ وكانا نصرانيين ـ تجاراً إلى الشام ، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه ، وطرحه فى متاعه ولم يخبر به صاحبيه ، وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله . ومات ففتشا متاعه ، فأخذا إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب ، فغيباه ، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء ، فجحدا فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] ، فنزلت ﴿ تحبسونهما ﴾ تقفونهما وتصبرونهما للحلف[٣] ﴿ من بعد الصلاة ﴾ من بعد صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس . وعن الحسن : بعد صلاة العصر أو الظهر ؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما . وفى حديث بديل : أنها لما نزلت صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قوله « وبما هو أصلح » لعله « وبما هو له أصلح » . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى من رواية ابن إسحاق عن أبى النضر وهو محمد بن السائب الكلبي عن باذان ، يعنى أبا صالح مولى أم هانىء عن ابن عباس عن تميم الدارى رضى الله عنهم . فذكره وقال : ليس إسناده بصحيح وأخرجه البخارى وأبو داود مختصراً

(٣) قوله « وتصبرونهما للحلف » أى تحبسونهما . أفاده الصحاح . (ع)

صلاة العصر ودعا بعدىّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر ، فحلفا ، ثم وجد الإناء بمكة ، فقالوا : إنا اشتريناه من تميم وعدى . وقيل : هى صلاة أهل الذمة ، وهم يعظمون صلاة العصر ﴿ إن ارتبتم ﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه . والمعنى : إن ارتبتم فى شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما . وقيل : إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين ، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما . وعن علىّ رضى الله عنه : أنه كان يحلف الشاهد والراوى إذا اتهمهما [1] . والضمير فى ﴿ به ﴾ للقسم . وفى ﴿ كان ﴾ للمقسم له يعنى : لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا ، أى لا نحلف كاذبين لأجل المال ، ولو كان من نقسم له قريباً منا ، على معنى : أن هذه عادتهم فى صدقهم وأمانتهم أبداً ، وأنهم داخلون تحت قوله تعالى (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) . ﴿ شهادة الله ﴾ أى الشهادة التى أمر الله بحفظها وتعظيمها . وعن الشعبى أنه وقف على شهادة ، ثم ابتدأ آلله بالمدّ ، على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه . وروى عنه بغير مدّ على ما ذكر سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام ، فيقول : الله لقد كان كذا . وقرئ : لملاثمين بحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها ، كقوله : عاد لولى : فإن قلت : ما موقع تحبسونهما ؟ قلت : هو استئناف كلام ، كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما ، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما ، فقيل : تحبسونهما فإن قلت : كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهى مطلقة ؟ قلت : لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها ، أغنى ذلك عن التقييد ، كما لو قلت فى بعض أئمة الفقه : إذا صلى أخذ فى الدرس علم أنها صلاة الفجر . ويجوز أن تكون اللام للجنس ، وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً فى النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب والزور (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) . ﴿ فإن عثر ﴾ فإن اطلع ﴿ على أنهما استحقا إثما ﴾ أى فعلا ما أوجب إثما ، واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين ﴿ فآخران ﴾ فشاهدان آخران ﴿ يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم ﴾ أى من الذين استحق عليهم الإثم . معناه من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته . وفى قصة بديل : أنه لما ظهرت خيانة الرجلين ، حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما ، وأنّ شهادتهما أحق من شهادتهما . و ﴿ الأوليان ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما . وارتفاعهما على : هما الأوليان كأنه قيل ومن هما ؟ فقيل : الأوليان . وقيل : هما بدل من الضمير فى يقومان ، أو من آخران .

---

(١) فأما تحليف الشاهد . فلم أره . وأما تحليف الراوى فرواه أصحاب السنن الثلاثة : البزار وابن حبان من رواية اسماء بن الحكم الفزارى عن على رضى الله عنه قال « إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله منه بما شاء أن ينفعنى ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته ، فاذا حلف لى صدقته قال : وحدثنى أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ الحديث » قال الترمذى : حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وروى بعضهم هذا الحديث موقوفا ، أى المتن دون القصة . وقال البزار : أسماء هذا مجهول .

ويجوز أن يرتفعا باستحق، أى من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ الأولين على أنه وصف للذين استحق عليهم، مجرور، أو منصوب على المدح. ومعنى الأولية التقدم على الأجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ: الأولين، [1] على التثنية، وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن: الأولان، ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعى. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك، فوجهه عندهم أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما، فأنكر الورثة فكانت اليمين على الورثة، لإنكارهم الشراء. فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ استحق عليهم الأوليان على البناء للفاعل، وهم على وأبىّ وابن عباس؟ قلت: معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة، أن يجردوهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين ﴿ذلك﴾ الذى تقدم من بيان الحكم ﴿أدنى﴾ أن يأتى الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان﴾ أن تكر [2] أيمان شهود آخرين بعد إيمانهم، فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى فى قصة بديل ﴿واسمعوا﴾ سمع إجابة وقبول.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)

﴿يوم يجمع﴾ بدل من المنصوب [3] فى قوله (واتقوا الله) وهو من بدل الاشتمال، كأنه

(١) قوله «وقرئ الأولبين» لعله «الأولين» فليحرر. (ع)

(٢) قوله «أن تكر أيمان شهود» فى الصحاح «الكر» الرجوع. يقال: كره، وكر بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع)

(٣) قال محمود: «يوم يجمع بدل من المنصوب ... الخ» قال أحمد: ويكون انتصابه إذاً انتصاب المفعول به لا الظرف على حكم المبدل منه.

قيل : واتقوا الله يوم جمعه . أو ظرف لقوله (لا يهدى) [1] أى لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم . أو ينصب على إضمار اذكر . أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت . و ﴿ ماذا ﴾ منتصب بأجبتم [2] انتصاب مصدره ، على معنى:أى إجابة أجبتم .ولو أريد الجواب لقيل : بماذا أجبتم . فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم ، كما كان سؤال الموؤدة توبيخاً للوائد . فإن قلت : كيف يقولون ﴿ لا علم لنا ﴾ وقد علموا بما أجيبوا ؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم [3] وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهاراً للتشكى واللجإ إلى ربهم فى الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة وأفت فى أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم فى أيديهم ، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكى أنبيائه عليهم . ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجى وهو عالم بما فعل به ، يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بى تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالا عليه ، واظهاراً للشكاية ، وتعظيما لما حل به منه . وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون [4] عن الجواب، ثم يجيبون بعدما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم . وقيل : معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به ، لأنك علام الغيوب . ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التى منها إجابة الأمم لرسلهم ، فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك . وقيل : لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة . وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين . وقرئ (علام الغيوب) بالنصب [5] على أن الكلام قد تم بقوله ﴿ إنك أنت ﴾ أى إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص ، أو على النداء ، أو هو صفة لاسم أن ﴿ إذ قال الله ﴾ بدل من (يوم يجمع) والمعنى : أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم ، وبتعديد

---

(١) عاد كلامه . قال : « أو ظرف لقوله لا يهدى القوم الفاسقين ... الخ » قال أحمد : وهو على هذا أيضا مفعول به .

(٢) عاد كلامه . قال : « وماذا منتصب بأجبتم انتصاب مصدره على معنى أى إجابة ... الخ » قال أحمد : والتعظيم فى هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة فى مثل : ما حصل إلا بعد التى واللتيا .

(٣) قوله « بما منوا به منهم » أى ابتلوا . وفى الصحاح « منيته » و « منوته » إذا ابتليته . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : « وقيل من الهول والفزع يذهلون عن الجواب ... الخ » قال أحمد : وأيضا فالمسئول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى الله ، لا ما حدث بعد ذلك مما لا يتعلق به علم الرسل ، والله أعلم .

(٥) عاد كلامه . قال : « وقرئ علام الغيوب بالنصب ... الخ » قال أحمد : ويكون هذا من باب

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى *

وقد مر قبل بآيات . وإنما ذكرت هذه الثلاثة من الاعراب لالتباسها إلا على الحذاق وقليل ما هم .

ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام، فكذبوهم وسموهم سحرة. أوجاوزوا حدّ التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة، كما قال بعض بنى إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البينات والمعجزات (هذا سحر مبين) واتخذه بعضهم وأمه إلهين ﴿أيدتك﴾ قويتك. وقرئ أيدتك، على أفعلتك ﴿بروح القدس﴾ بالكلام الذى يحيا به الدين، وأضافه إلى القدس، لأنه سبب الطهر من أوضار الآثام. والدليل عليه قوله تعالى ﴿تكلم الناس﴾ و ﴿فى المهد﴾ فى موضع الحال، لأنّ المعنى تكلمهم طفلا ﴿وكهلا﴾ إلا أن فى المهد فيه دليل على حد من الطفولة. وقيل روح القدس: جبريل عليه السلام، أيد به لتثبيت الحجة. فإن قلت: ما معنى قوله (فى المهد وكهلا)؟ قلت: معناه تكلمهم فى هاتين الحالتين، من غير أن يتفاوت كلامك فى حين الطفولة وحين الكهولة الذى هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحدّ الذى يستنبأ فيه الأنبياء ﴿والتوراة والإنجيل﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل (الكتاب) الخط. و(الحكمة) الكلام المحكم الصواب ﴿كهيئة الطير﴾ هيئة مثل هيئة الطير ﴿بإذنى﴾ بتسهيلى ﴿فتنفخ فيها﴾ الضمير للكاف، لأنها صفة الهيئة التى كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها، لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه فى شيء. وكذلك الضمير فى فتكون ﴿تخرج الموتى﴾ تخرجهم من القبور وتبعثهم. قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وإذ كففت بنى إسرائيل عنك﴾ يعنى اليهود حين هموا بقتله. وقيل: لما قال الله تعالى لعيسى (اذكر نعمتى عليك) كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئا لغد يقول: مع كل يوم رزقه، لم يكن له بيت فيخرب، ولا ولد فيموت، أينما أمسى بات.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ أمرتهم على ألسنة الرسل ﴿مسلمون﴾ مخلصون، من أسلم وجهه لله ﴿عيسى﴾ فى محل النصب على إتباع حركة الابن، كقولك: يازيد بن عمرو، وهى اللغة الفاشية ويجوز أن يكون مضموما كقولك: يازيد بن عمرو. والدليل عليه قوله:

أَحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ   وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ [٢]

لأنّ الترخيم لا يكون إلا فى المضموم. فإن قلت: كيف قالوا ﴿هل يستطيع ربك﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم[٢]؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما، ثم أتبعه

---

(١) أحار بن عمرو كأنى خمر   ويعدو على المرء ما يأتمر
ولا وأبيك ابنة العامرى   لا يدعى القوم أنى أفر

لامرئ القيس بن حجر. وقيل لربيعة بن جشم النمرى. والهمزة للنداء. و«حار» مرخم، أصله حارث ضم على لغة من لا ينتظر المحذوف. واللغة المشهورة معاملته معاملة التام، كما أن المشهور أيضا فتح العلم المنادى الموصوف بابن مضاف إلى علم آخر إتباعا لنصب ابن. ويجوز ضمه كما هنا، لأن الترخيم لا يكون إلا فى المضموم لأن المفتوح إتباعا كالمركب مع ما بعده. والترخيم لا يأتى فى الوسط، ولأنه لو كان مفتوحا وضم فى الترخيم لكان فيه إخلال بالفتحة المجتلبة للتناسب. والخمر ـ كحذر ـ: الذى خالطه داء فغطى عقله. والخمر ـ كسبب ـ: كل ما ستر من بناء أو شجر. ثم تذكر السبب فى ذلك وهو مطاوعته ما لا تنبغى مطاوعته فقال: ويعدو على الانسان ائتماره، أى امتثاله لأمر غيره. ويجوز أن «ما» موصولة، أى الذى يمتثله من أمر من لا يعرف عواقب الأمور، أو من أمر نفسه وهواه. وشبه ذلك بمن يصح منه العدوان، على طريق الكناية. ويروى «ويبدو على المرء» أى يشرف عليه ويظهر له عاقبة امتثاله لما لا ينبغى امتثاله. وكثير ينشد فاصلتى هذا البيت بالتنوين الغالى، لكن أنكره الزجاج والسيرافى، لأنه يكسر الوزن. وجعله ابن يعيش من تنوين الترنم، بناء على أنه لجلب الترنم لا لقطعه، فلا يختص بالقوافى المطلقة، بل يدخل المقيدة كما هنا. والمشهور تحريك ما قبله بالكسر. واختار ابن الحاجب الفتح. وجوز بعضهم تحريكه بما كان يستحقه لولا السكون. وبعض أجاز اجتماع الساكنين. ودخول «لا» النافية قبل القسم سائغ شائع فى لسان العرب، لأنه غالبا يكون لرد دعوى الخصم ونفيها. فالتقدير: ولا يحصل ذلك وحق أبيك، ولو كانت زائدة محضا لكانت الواو فى التقدير داخلة على واو القسم. وروى بحذف الواو الأولى: أى وحق أبيك يا ابنة العامرى لا أفر من الحرب أصلا، فلا يدعيه أحد على. فنفى الادعاء كناية عن نفى الفرار على أبلغ وجه.

(٢) (قال محمود: فان قلت كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم ـ فى قوله (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) ـ قال: قلت ما وصفهم بالايمان والاخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ... الخ، قال أحمد: وقيل إن معنى (هل يستطيع) هل يفعل، كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم: مبالغة فى التقاضى. ونقل هذا القول عن الحسن، فعلى هذا يكون إيمانهم سالما عن قدح الشك فى القدرة، فان استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة فذاك ـ والله أعلم ـ من باب التعبير عن المسبب بالسبب، إذ الاستطاعة من جملة أسباب الايجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل، تسمية بالسبب الذى هو الارادة، باسم المسبب الذى هو الفعل، فى مثل قوله (إذا قمتم إلى الصلاة) وقد مضى أول السورة. وفى هذا التأويل الحسن تعضيد لتأويل أبى حنيفة، حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة وجود الحرة فى العصمة. وعدمه أن لا يملك عصمة الحرة وإن كان قادراً على ذلك، فتباح له حينئذ الأمة. وحمل قوله: (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) على معنى: ومن لم يملك منكم، وحمل النكاح على الوطء، فجعل استطاعة الملك المنفية هى الملك ═

قوله (إذ قالوا) فإذن إنّ دعواهم كانت باطلة ، وإنهم كانوا شاكين ، وقوله (هل يستطيع ربك) كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا فى اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ، ولا تتحكموا ماتشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة . وقرئ : هل تستطيع ربك ، أى هل تستطيع سؤال ربك ، والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله . والمائدة : الخوان [1] إذا كان عليه الطعام ، وهى من «ماده» إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة ، عاكفين عليها ، على أن عليها فى موضع الحال ، وكانت دعواهم لإرادة ماذكروا كدعواهم الايمان والاخلاص . وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا . وقرئ : ويعلم ، بالياء على البناء للمفعول . وتعلم . وتكون ، بالتاء . والضمير للقلوب ﴿ اللهم ﴾ أصله يا ألله ، فحذف حرف النداء ، وعوضت منه الميم . و﴿ ربنا ﴾ نداء ثان ﴿ تكون لنا عيداً ﴾ أى يكون يوم نزولها عيدا . قيل : هو يوم الأحد . ومن ثم اتخذه النصارى عيداً ، وقيل: العيد السرور العائد ،ولذلك يقال : يوم عيد ، فكأنّ معناه : تكون لنا سروراً وفرحا . وقرأ عبدالله : تكن ، على جواب الأمر . ونظيرهما . يرثنى ، ويرثنى ﴿ لأولنا وآخرنا ﴾ بدل من لنا بتكرير العامل ، أى لمن فى زماننا من أهل ديننا ، ولمن يأتى بعدنا . وقيل : يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم : ويجوز للمقدمين منا والأتباع . وفى قراءة زيد : لأولانا وأخرانا ، والتأنيث بمعنى الأمة والجماعة ﴿ عذابا ﴾ بمعنى تعذيباً . والضمير فى (لا أعذبه) للمصدر . ولو أريد بالعذاب مايعذب به ، لم يكن بدّ من الباء . وروى أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفا ، ثم قال : اللهم أنزل علينا ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وأخرى تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، وقال لهم : ليقم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها . فقال شمعون رأس الحواريين : أنت أولى بذلك ، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ، ثم كشف المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما . وعند

--- كما ترى ، حتى أن القادر غير المالك عادم الطول عنده فينكح الأمة . وقد مضى ذكر مذهبه ، وكنت أستبعد إنهاضه لأن يكون تأويلا يحتمله اللفظ ويساعده الاستعمال ، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا والله أعلم .

(١) قوله «والمائدة الخوان» فى الصحاح «الخوان» بالكسر : الذى يؤكل عليه ، معرب . وقوله «من ماده» الذى فى الصحاح «ماد الشيء» تحرك . و«مادت الأغصان» تمايلت اه . (ع)

رأسها ملح ، وعند ذنبها خل ، وحولها من ألوان البقول ماخلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد . فقال شمعون : ياروح الله ، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ فقال : ليس منهما ، ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية ، كلوا ماسألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله : فقال الحواريون : ياروح الله ، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ، فقال ياسمكة احيي بإذن الله ، فاضطربت . ثم قال لها : عودى كما كنت ، فعادت مشوية . ثم طارت المائدة ، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير . وروى أنهم لما سمعوا بالشريطة وهى قوله تعالى (فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه) قالوا لا نريد فلم تنزل . وعن الحسن : والله ما نزلت ، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة ، لقوله (وآخرنا) . والصحيح أنها نزلت .

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

﴿سبحانك﴾ من أن يكون لك شريك ﴿ما يكون لى﴾ ماينبغى لى ﴿أن أقول﴾ قولا لا يحق لى أن أقوله ﴿فى نفسى﴾ فى قلبى : والمعنى : تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه ، فقيل ﴿فى نفسك﴾ لقوله فى نفسى ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تقرير للجملتين معاً ، لأن ماانطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ، ولأن مايعلمه علام الغيوب لا ينتهى إليه علم أحد .

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

«أن» فى قوله ﴿أن اعبدوا الله﴾ [1] إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر . والمفسر إما

(١) قال محمود : «أن فى قوله (أن اعبدوا) إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر ... الخ» قال أحمد : وقد أجاز بعضهم وقوع «أن» المفسرة بعد لفظ القول ، ولم يقتصر بها على مافى معناه ، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول . وقد أبى الزمخشرى فى مفصله وقوعها إلا بعد فعل فى معنى القول كمذهبه ههنا .

فعل القول وإما فعل الأمر ، وكلاهما لا وجه له . أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير ، لا تقول : ماقلت لهم إلاأن اعبدوا الله . ولكن : ماقلت لهم إلا اعبدوا الله . وأما فعل الأمر ، فمسند إلى ضمير الله عز وجل . فلو فسرته باعبدوا الله ربى وربكم لم يستقم ؛ لأن الله تعالى لا يقول : اعبدوا الله ربى وربكم ، وإن جعلتها موصولة بالفعل [1] لم تخل من أن تكون بدلا من ماأمرتنى به ، أو من الهاء [2] فى به ، وكلاهما غير مستقيم ؛ لأن البدل هو الذى يقوم مقام المبدل منه . ولا يقال : ماقلت لهم إلا أن اعبدوا الله ، بمعنى ماقلت لهم إلا عبادته ؛ لأن العبادة لا تقال . وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء لأنك لو أقمت (أن اعبدوا الله) مقام الهاء ، فقلت : إلا ماأمرتنى بأن اعبدوا الله ، لم يصح ، لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته . فإن قلت : فكيف يصنع ؟ [4] قلت يحمل فعل

---

(١) عاد كلامه . قال : «وأما فعل الأمر فسند إلى ضمير الله عز وجل ... الخ» قال أحمد : ويجوز أيضا هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى ، كأنه حكى معنى قول الله عز وجل له بعبارة أخرى ، وكأن الله تعالى قال له : مرهم بعبادتى ، أو قال لهم على لسان عيسى : اعبدوا الله رب عيسى وربكم ، فلما حكاه عيسى عليه السلام قال : اعبدوا الله ربى وربكم ، فكنى عن اسمه الظاهر بضميره ، كما قال الله تعالى حكاية عن موسى (قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى* الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فانظر كيف جاء أول الكلام حكاية لقول موسى ، وموسى لايقول : فأخرجنا . ولكن فأخرج الله ، فلما حكاه الله تعالى عن موسى رد الكلام إليه تعالى ، وأضاف الاخراج إلى ذاته على طريقة المتكلم لا الحاكى ، وكذلك قوله تعالى (ليقولن خلقهن العزيز العليم) إلى قوله (فأنشرنا به بلدة ميتا) ونظائره كثيرة . وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) لما استبعد الزمخشرى أن تصفه اليهود بهذه الصفات المنافية لاعتقادهم فيه .

(٢) عاد كلامه . قال : «وإن جعلت أن موصولة مع فعل الأمر ... الخ» قال أحمد : أى فلا يقدر بالعبادة ولكن بالأمر بها ، كأنه قيل : ماقلت لهم إلا الأمر بالعبادة لله ، والأمر مقول لقلت ، على أن جعل العبادة مقولة ليس ببعيد ، على طريقة (ثم يعودون لما قالوا) أى للوطء الذى قالوا قولا يتعلق به . وكقوله تعالى (ونرثه مايقول ويأتينا فردا) وسيأتى له تصحيح هذا الاستعمال لوروده كثيراً فى القرآن الكريم .

(٣) عاد كلامه . قال : «وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء لأنك ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا غير مانع من البدل ، وإنما يواجه المصنف بما لايسعه إنكاره ، فقد قال فى مفصله ما هذا نصه : وقولهم : إن البدل فى حكم تنحية الأول ، إيذان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته للتأكيد والصفة فى كونهما اسمين لما يتبعانه ، لا أن يعنوا إهدار الأول واطراحه . ألاتراك تقول : زيداً رأيت غلامه رجلا صالحا ، فلو ذهبت إلى إهدار الأول لم يسند كلامك . فانظر كيف يرد كلامه فى المفصل وهو الحق ماارتكبه من رد البدل فى هذه الآية ، للزوم طرح الأول فتخلو الصلة من الضمير : ولم يجعل هذا القدر مانعا فى المثال المذكور . مع أنك لوطرحت الأول لخلا الخبر من الضمير العائد ولم يسند الكلام . فهذه وجوه أربعة منعها فى إعراب «أن» وكلها مسندة حسبما بينا . وهذه المساجلة فى هذا الاعراب من الغرر والحجول فى صناعة الاعراب وعلم البيان . وفرسان هذا المضمار قليل .

(٤) عاد كلامه . قال : فان قلت كيف يصنع ؟ قلت : يحمل فعل ... الخ ، قال أحمد : هذا التأويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل فى معنى القول ، وليس قولا صريحا . وحمل القول على الأمر مما يصحح المذهب الآخر فى إجازة

القول على معناه ؛ لأن معنى (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) . ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به ، حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربى وربكم . ويجوز أن تكون «أن» موصولة [1] عطف بيان للهاء لا بدلا ﴿وكنت عليهم شهيداً﴾ رقيباً كالشاهد على المشهود عليه ، أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة ، وأنزلت عليهم من البينات ، وأرسلت إليهم من الرسل ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز﴾ القوى القادر على الثواب والعقاب ﴿الحكيم﴾ الذى لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب . فإن قلت : المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال (وإن تغفر لهم) [1] ؟ قلت : ما قال إنك تغفر لهم ، ولكنه بنى الكلام على : إن غفرت ، فقال : إن عذبتهم عدلت ، لأنهم أحقاء

= وقوعها بعد القول ، فانه لولا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوى ، لما جاز إطلاق إحداهما وإرادة الأخرى . والعجب أن الأمر قسم من أقسام القول ، وما بينهما إلا عموم وخصوص . وليس فى هذا التأويل الذى سلكه إلا كلفة لاطائل وراءها . ولو كانت العرب تأبى وقوع المفسرة بعد القول . لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول . ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول ؛ لأن ذلك كالعود إلى ما رقع الفرار منه وهم بعداء من ذلك .

(١) عاد كلامه . قال : ويجوز أن تكون أن موصولة ... الخ ، قال أحمد : يريد بجعله عطف بيان أن يسلم من تقدير إطراح الأول فى البدل وخلو الصلة حينئذ من العائد . وقد بينا أن ذلك غير لازم فى البدل . والعجب أنه أيضا فى مفصله لم يفصل بين عطف البيان والبدل ، إلا فى مثل قول المرار :

* أنا ابن التارك البكرى بشر *

لأنه لو جعله بدلا للزم تكرير العامل ، وإضافة اسم الفاعل المعرف بالألف واللام إلى العلم ولم يفصل بينهما فى غير هذا المثال ومن حيث المعنى أن المعتمد فى عطف البيان الأول . وأما الثانى فللتوضيح . والمعتمد فى البدل الثانى . وأما الأول فبساط لذكره ، لا على أنه مطرح مهدر .

قال محمود «إن قلت المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله : تذبذب الزمخشرى فى هذا الموضع فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية . أما أهل السنة ، فالمغفرة للكافر جائزة عندهم فى حكم الله تعالى عقلا ، بل عقاب المتقى المخلص كذلك غير ممتنع عقلا من الله تعالى ، وإذا كان كذلك فهذا الكلام خرج على الجواز العقلى ، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار وعدم الغفران لهم ، إلا أن ورود السمع بذلك لا يرفع الجواز العقلى . وأما القدرية فيزعمون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلا ، لا تجوز على الله تعالى لمناقضتها الحكمة ، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد ، إذ لو كان الأمر كزعمهم لما دخلت كلمة «إن» المستعملة عند الشك فى وقوع الفعل بعدها لغة فى فعل لا شك فى عدم وقوعه عقلا ، ولكان ذلك من باب التعليق بالمحال ، كأن يبيض القار وأشباهه . وليس هذا مكان . فقول الزمخشرى إذاً (إن يغفر لهم) لم يعدم وجها من الحكمة فى المغفرة لأن العفو عن المجرم حسن عقلا لا يأتلف بقواعد السنة ، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلى ، ولا يأتلف أيضا بنزغات القدرية ، لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة فى المغفرة للكافر ، ويقطعون بمنافاتها الحكمة ، فكيف يخاطب الله تعالى به ، فعلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الاطلاق وبما اشتمل عليه من سوء الأدب ، فان قول القائل لمن يخاطبه : ما فعل كذا فلن يعدم فيه عذراً ووجهاً من المصلحة كلام مبذول وعبارة نازلة عن أوفى مراتب الأدب ، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة ، فنسأل الله إلهام الأدب وتجنب ما فى إساءته من مزلات العطب .

بالعذاب ، وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم فى المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم فى المعقول . بل متى كان الجرم أعظم جرما كان العفو عنه أحسن .

قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)

قرئ ﴿هذا يوم ينفع﴾ بالرفع والإضافة . وبالنصب إما على أنه ظرف لقال . وإما على أنّ (هذا) مبتدأ ، والظرف خبر . ومعناه . هذا الذى ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع . ولا يجوز أن يكون فتحا ، كقوله تعالى (يوم لا تملك) لأنه مضاف إلى متمكن . وقرأ الأعمش : يومٌ ينفع ، بالتنوين ، كقوله تعالى (واتقوا يوما لا تجزى نفس) فإن قلت : مامعنى قوله ﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾ ؟ إن أريد صدقهم [1] فى الآخرة فليست الآخرة بدار عمل ، وإن أريد صدقهم فى الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه ؛ لأنه فى معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة ؟ قلت : معناه الصدق المستمر بالصادقين فى دنياهم وآخرتهم . وعن قتادة : متكلمان تكلما يوم القيامة . أمّا إبليس فقال : إنّ الله وعدكم وعد الحق ، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذبا ، فلم ينفعه صدقه . وأما عيسى عليه السلام فكان صادقا فى الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

فإن قلت : فى السموات والأرض العقلاء وغيرهم ، فهلا غلب العقلاء ، فقيل : ومن فيهنّ ؟ قلت : «ما» يتناول الأجناس كلها تناولا عاما . ألا تراك تقول إذا رأيت شبحا من بعيد : ماهو ؟ قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره ، فكان أولى بإرادة العموم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا » [2]

---

(١) قال محمود « إن قلت مامعناه ، إن أريد صدقهم فى الآخرة ... الخ » قال أحمد : ولو أجاب بحمل الصادقين على الدنيا وصدقهم على الآخرة حتى يكون التقدير : هذا يوم ينفع الصادقين فى الدنيا صدقهم فى الآخرة ، لكان أوضح طباقا لتفسير قتادة ، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم ؛ فان إبليس وإن صدق فى الآخرة ، إلا أنه لم يكن من الصادقين فى الدنيا ، فلم ينفعه صدقه فى الآخرة ، والوجهان متقاربان .

(٢) تقدم إسناده إلى أبى بن كعب فى تفسير آل عمران .

تم بعون الله تعالى الجزء الأول

ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثانى

وأوله : ســــورة الأنعام

